د. غولسِران بودايجي أوغلو
DR. GÜLSEREN BUDAYICIOĞLU

عودي إلى الحياة

عروس اسطنبول

HAYATA DÖN

طُبع منها
500,000
نسخة

يُعد مسلسل عروس اسطنبول من أفضل المسلسلات التي قدمتها الدراما التركية، وهو من إنتاج جينكيز شاتاي، أمّا عن الرواية المقتبس منها مسلسل عروس اسطنبول فهي: «Hayata Dön» «عودي إلى الحياة»، للكاتبة جولسيرين بواديشي أوغلو، وقد ترشح هذا المسلسل على «جائزة إيمي الدولية السادسة والأربعون 46th International Emmy Awards» عام 2018.

رواية

مكتبة

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عودي إلى الحياة

مكتبة | ١١٧٠

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل التركي
HAYATA DÖN
تأليف **GÜLSEREN BUDAYICIOĞLU**
Copyright © GÜLSEREN BUDAYICIOĞLU/Kalem Agency
No part of this book may be reporduced, in any form
without written permission from the publisher
Published by arrangement with Kalem Agency
نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع
Translation is sponsored by TEDA
Milli Kütüphane Binasi,
"TEDA" Şubesi,
Emek Mahallesi Wilhelm Thomsen Caddesi No: 4
Çankaya 06490 Ankara, Turkey
email: teda@ktb.gov.tr Web: teda.ktb.gov.tr
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونيًا من
Kalem Agency, Istanbul, Turkey
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Arabic Copyright © 2021 by Arab Scientific Publishers. Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر 2021 م – 1443 هـ

ردمك 978-614-01-3340-2

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb
facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

مكتبة 22 5 23
t.me/soramnqraa

د. غولسِران بودايجي أوغلو
DR. GÜLSEREN BUDAYICIOĞLU

عودي إلى الحياة

عروس اسطنبول

HAYATA DÖN

رواية

مكتبة | ١١٧٠

ترجمة

مهتاب محمد

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

الفصل الأول

مكتبة
t.me/soramnqraa

حل المساء من جديد. ينساب الوقت سريعًا حين يعمل المرء، وها هو يوم آخر يشارف على الانتهاء في مركز ماداليون. أنهض من كرسيّي الذي جلست عليه ساعات متواصلة، لأتأمل مشهد المدينة المسائي من النافذة الواسعة خلف طاولتي. أضيئت الأنوار منذ وقت طويل، لكن الليل والنهار لا يزالان متداخلين- كالموت والحياة؛ هما تجليان لحقيقة واحدة- وكأنهما بانتظار من يأتي ليفصم عراهما عنوة.

تجول كتل الغيوم الضخمة القاتمة وسط السديم الدخاني الذي يغطي سماء أنقرة، وتكاد تزمجر متوعدة. بدأ تساقط الثلوج ليلة البارحة، ولا تزال الندف البيضاء الهشة تتطاير يمينًا وشمالًا أمام النافذة، حسب تقلبات الرياح. إنَّها أكثر المشاهد الشتائية التي أحبها منذ طفولتي، فالثلج يفتح في روح الإنسان أبعادًا خفية، حيث يقبع الماضي هناك والمستقبل. في تلك الأنفاس القارسة تتجلى برودة الموت، كما يتجلى الأمل والنقاء في ذلك البياض الناصع. فمن ينظر إليه بعين الأسى يرى وحدة الإنسان وعجزه، ومن يرنو إليه بعين الرجاء، يرى بهجة الحياة. لكن ما كنت أراه في الثلج خلال طفولتي، مغاير لما أراه الآن.

وكما ندف الثلج المتناثرة، تتناثر على جدران غرفتي شتى مشاعر الكآبة، لأنَّ السعداء لا يقصدون الطبيب النفسي. فزواري عادة ممن فقدوا غاليًا، أو تعرضوا للخيانة وتُركوا للوحدة، أو عجزوا عن العثور على مبتغاهم في هذه الحياة وفشلوا في تحقيق أحلامهم، ومن جانبهم الحظ وخسروا أعمالهم، وهناك أيضًا من حصلوا على كل شيء أو هذا ما يبدون عليه في عيون الآخرين، لكن غلالة من الحزن، من

الانكسار والعزلة، تمنعهم من رؤية الكمال الذي يرى الآخرون أنَّهم ينعمون به.

اختبار السعادة، وإدراك لذة الوجود، والامتنان لرؤية كل هذا الجمال من حولنا، يقتضي قبل كل شيء وجودنا البشري في هذا العالم. ومن ثم اختيار السعادة بقرار واعٍ، لأنَّنا سنغدو عرضة لتقلبات المصادفات دون هذا القرار. فالبشر الذين امتازوا عن جميع المخلوقات بمعرفة وجودهم العابر في دورة الحياة، وبالمصير الذي ينتظرهم في نهاية المطاف، لا يُوهبون السعادة، بل عليهم بلوغها بأنفسهم. لأنَّ الحياة لن تشغل نفسها بالبحث عن سبيل لإسعاد البشر، فلا الشمس التي تشرق كل صباح ولا القمر الذي ينير ظلمات الليل، لا الأمطار ولا الثلوج، لا أحد منها يمنحنا ترياق السعادة. إنَّها هناك، راسخة وكأنها تقول لنا "نحن هنا، إن شئت فكن سعيدًا، وإن شئت فاجنح إلى الحزن، اختر السعادة أو الشقاء، البقاء أو الفناء.." وتتباين اختيارات البشر تبعًا لأهوائهم، فمنهم من يرى في كل هذا الجمال من حولنا، مجرد حلم عابر محكوم بالزوال، فيشعر بالوحدة والعجز، ولا يجد مفرًا من قسوة الحياة إلا بزوالها، وعلى النقيض يشعر آخرون بالامتنان لمجرد أنَّهم جزء من هذا العالم الرائع، لأنَّهم يتنفسون ويتحسسون جماله ولا تزال لديهم الفرصة لاختبار المزيد من المتع اللامتناهية.

ولكن ما هي السعادة حقًا؟ ربما هي النجاة بطريقة ما من لجة المشاعر القاتمة التي تمور في أعماقنا السحيقة، هي تلك الأنفاس التي نلتقطها بين غفلة وأخرى من صخب الحياة، لنستمتع بالسكينة والفرح والاندفاع في آن واحد. فهل الاختيار سهل كما يبدو عليه، وقد تمت برمجتنا حتى قبل ولادتنا؟

في داخل كل منا نزعة لا تتركنا في هدوء، نزعة متطلبة تواصل الأخذ دون عطاء، وتغير مطالبها بلا هوادة، بعيدة كل البعد عن القناعة، وسواء لبينا مطالبها أم لم نفعل فهي لن تتركنا ننعم بالسلام، وكأنها أشبه بطفل مدلل يتحرق شوقًا للحصول على لعبة جديدة، ليركنها في رف مغبرٍّ ما إن تصبح بين يديه. إنَّها نزعة تحيا على لهاثٍ مستمر وراء ما لم يحدث بعد، وضجرٍ مقيم مما حدث. قد يكون

هذا هو مفهوم السعادة لدى البعض؛ إنَّه تلك الاحتمالات التي لم تتحقق. لكن حين يقضي الإنسان عمره لاهثًا وراء الاحتمالات، متبرمًا من لهاثه، غافلًا عما لديه، فسينتهي به المآل إلى سراب لا يُدرك، ما لم يكتشف هذه الحقيقة قبل فوات الأوان. فالسعادة الحقيقة تكمن داخلنا، وليس في العالم الخارجي، هي الشعور الذي نختبره في أعماق أرواحنا، حتى إن بدا أنَّ ما حولنا قد يسعدنا أحيانًا، لأنَّ المنبع الحقيقي لهذا الشعور كامن فينا. السعادة قرار ذاتي، ومسار علينا أن نختاره بكامل وعينا. وقد اخترت أن أكون سعيدة، وهو أمر أذّكر به نفسي مع بداية يومي وفي نهايته؛ أي في هذه اللحظات بالتحديد.

أتيت إلى هذا العالم، في يوم شتائي مماثل، كان الثلج يغطي الأرض، والأفق لم يحسم قراره بعد في فصل النهار عن ليله. ربما هذا هو سبب الحزن والكآبة الشفيفة التي تخيم على روحي في هذه الساعة من اليوم. ألوذ بمشهد المدينة من نافذتي، وأجيل بصري حتى أبعد نقطة يمكن رؤيتها، حينها أشعر بزخم الحياة، فيتسلل الحزن بعيدًا، ليحل مكانه شعور مفعم بالبهجة والحماس، وكأنّ الحياة تستقبلني توًّا. في هذه اللحظات يغمرني الانتعاش مجددًا، وأرنو ببصري إلى كل ضوء تبصره عيناي. سابقًا لم يكن بوسعي سوى رؤية جزء صغير من العالم عبر نافذتي، لكن بعد أن انتقلنا إلى مركز ماداليون منذ فترة قصيرة- دون أن نحفل بالشتاء وثلوجه، ومعوقات النقل في هذه الأجواء القارسة- حظيت بغرفة تكاد نافذتها تطل على مشهد المدينة برمته.

تغمزني الأضواء البعيدة، فأجول ببصري بين قمم جبل حسين غازي المكللة بالغيوم، منارات جامع كوجا تيبة الرفيعة كالأقلام، أشجار الصنوبر الباسقة في حديقة السفير التي تمتد حتى بوليفار أتاتورك، الأبنية الشاهقة المضاءة توًّا، والقصر الرئاسي بلونه الوردي المحبب وسط تموجات اللون الأخضر المحيطة به. رغم برودة الهواء، أترك النافذة مفتوحة لبعض الوقت، فتغمرني ضجة المدينة. لكل مدينة طابع صوتي، ورائحة مختلفة، وقد تفوقت أنقرة على نفسها في هذا المجال،

فرائحتها المائلة للمرارة مشوبة بحموضة لاذعة، وهي تثير لدى المرء إدمانًا، كقِدر بخاري يصفّر نافثًا البخار في يوم شتائي، فيختلط الهواء برائحة مشوبة بهباب صدئ وكثير من الأمل. تتداخل أصوات أبواق السيارات، مع أصوات الأذان، لتشكل هسيسًا ضاحكًا أحيانًا وباكيًا أحيانًا أخرى.

تمنعني نسمات الهواء القارسة، وندف الثلج المتطايرة التي ترتطم بوجهي، من إبقاء النافذة مفتوحة أكثر من ذلك. ورغم أنَّ أجهزة التدفئة ساخنة إلى درجة أنَّها تحرق يدي لدى ملامستها، فالغرفة باتت شديدة البرودة، لكن الأهم هو أنَّ الضيق الذي كان يجثم على صدري قد غادر. تقع غرفتي في الطابق الرابع من المبنى، حيث يعمل فيه إلى جواري ستة من زملائي، ويلقبونه بالطابق الخاص بالبالغين، أما في الطابق الثالث، فهناك طبيب الأطفال، ومجموعة من أطباء الأطفال النفسيين، بينما يشغل الطوابق الثاني والأول والأرضي، اختصاصات طبية مختلفة، وذلك بدعم حكومي. فقد تحولت ماداليون إلى مركز طبي ضخم، يستقبل يوميًا مئات المرضى في مختلف أقسامه.

يصلني صوت الموسيقى الذي يتجول خافتًا في أرجاء المكان كافة، ذلك أنَّ باب غرفتي موارب. لم يكن من السهل علينا اتخاذ القرار حول نوع الموسيقى التي يجب أن نعتمدها، فليست هناك موسيقى محددة تصلح أن تكون ترياقًا لكل الأرواح. فكما أنَّ هناك ألوانًا لا تليق بالبعض، لكنها تبدو رائعة عند آخرين، وكما أن هناك من لا يرتاح إلا حين يرى ألوانًا معينة تغطي جسده، فيطلبها على الدوام، كذلك هناك ألحان تتغلغل إلى أرواحنا دون سواها، لتنقلنا إلى عالم آخر. فهناك موسيقى توقد الحزن في أعماقنا، ولكننا رغم ذلك نميل إليها، وكأننا التقينا صديقًا قديمًا أيقظ فينا ذكريات من زمان غابر لن يعود، فنجلس معه، نبكي على أيام مضت. ولا يعدو ذلك الصديق أن يكون سوى ذاتنا القديمة التي خرجت من طيات الذاكرة، تلك الذات التي نبتعد عنها مع تراكم مشاغل الحياة، وغبار الزمن. وقد يكون هذا السبب وراء رغبتي مؤخرًا في سماع بعض الأغاني التي تذكرني بذاتي

القديمة، رغم لفحة الحزن التي تنتابني حين سماعها.

عادة ما تكون الموسيقى التي نشغلها في مركز ماداليون، عبارة عن مقطوعات موسيقية دون غناء. تصل إلى مسامعي الآن، أصوات كمان هادئة عاطفية. من يعلم كيف يتلقى كل شخص الموسيقى وما الذي تثيره في أعماقه. فهناك من تثير حنقه، ذاته القديمة حين تكتسي الحياة، وتتمثل أمام ناظريه، وهناك من يُسَّر لمرآها، فيما البعض مثلي يكلل روحه الحزن، لمرأى تلك الفتاة الصغيرة تتدرج على طرقات الطفولة الترابية. يتمحور معظم عملي حول المعاناة التي يكابدها الآخرون، فما الذي سيقود السعداء والفرحين إلى عيادة الطبيب النفسي؟ السعادة والبهجة جناحان من الخفة يحلقان بصاحبهما عاليًا، فيما الحزن والكآبة يثقلان كاهل من يرزح تحتهما، فتكاد تكون كل حركة عبئًا ثقيلًا. ورغم أنَّ عمل الطبيب النفسي، يتمحور حول توجيه المريض في كثير من نواحي الحياة، ومد يد العون له، لكن العمل الأساسي والخطوات الفعلية تكون من حصة المريض وبناء على قراره الشخصي.

منذ الصباح الباكر، دخل إلى غرفتي العديد من الأشخاص، وكل واحد منهم روى لي قصة مختلفة، ووجهًا مغايرًا للحياة، شبان وكهول، نساء ورجال، أغنياء وفقراء، حضريون وريفيون، لكن الحزن كان الطابع المشترك لقصص الجميع. الحزن ليس غريبًا عن البشر الذين يعلمون أنّ الفناء مصيرهم، كما هو مصير أحبتهم، فالحزن يجول ويصول في كل بقعة تطؤها أقدام البشر، لكن العذاب هو ما لا يليق ليس بالبشر وحدهم، بل بكل مخلوق في هذا الكون.

يدخل المرضى عادة بين التردد والوجل، لكن بمرور بعض الوقت، لا يرغب أحدٌ منهم في مغادرة هذه الغرفة السحرية في الوقت المحدد، رغم أنَّ نسج سحرها لا يكتمل دونهم، فلا يمكنني غزل شباك السحر وحدي، بل هو تناغم نتبادل فيه الخيوط وموجات الطاقة لتتداخل مشاعر الحزن والبهجة، وتشكل لكل فرد منهم إيقاعًا ولحنًا مغايرًا عن الآخر. لحنٌ يشي بالألم والفرح، بالحب والحقد، بالغيرة

والغبطة، بالموت والفراق.. ترى لولا هذا الاختلاف بين المشاعر المتناقضة، وهذا التجاذب بين الأقطاب المتعاكسة، هل كانت الحياة تغدو قيّمة، كما هي عليه؟ يحمل كل واحد منهم لحنه مع انتهاء الموعد، ليواصل حياته على وقع أنغامه، لكن أثرًا من كل أغنية ونغمة، من كل لحن، ينساب بهدوء إلى لحني الخاص أيضًا. وها هو نهار آخر يمضي بلحنه الخاص، ليحل الليل على مهله. الليل حكيم، يأخذ وقته لكي يجهزك لقدومه، فهو لا يقتحم نافذتك في جرأة كشمس الصباح. بل يتدرج من الظلال التي تتطاول على مهل، والألوان التي تشحب رويدًا رويدًا، إلى تبدل لون السماء أخيرًا، حينها تدرك أن يومًا آخر بات في طي الماضي.

على طاولتي دائمًا ما توجد علبة مناديل ورقية، وحين فرغت العلبة قبل بضعة أيام، أحضرت نيفين- الفتاة التي تعدّ لنا الشاي والقهوة- علبة جديدة، أرفقتها بجملة جعلتني أفكر فيها وقتًا طويلًا:

- دكتورة! لقد فرغت علبة مناديل البكاء، فأحضرت لك علبة جديدة.

علبة المناديل هي إحدى الأساسيات على طاولتي منذ أول يوم لي في العمل قبل سنوات طويلة، فعادة ما يستخدمها الناس لمسح الدموع التي يخففون من خلالها بعضًا من معاناتهم، ولم يخطر لي قط أن أسميها مناديل الدموع. لكنني وبعد لحظات من التفكير في الأمر، أدركت أن نيفين محقة، فكما أنَّ المعقمات والأضمدة والكحول من أدوات الأطباء الأساسية، فمناديل الدموع التي تستهلك بكثرة وتتجدد دومًا، هي أدوات مهنة أساسية في عيادات الأطباء النفسيين. وكلّما فرغت علبة، أفكر في مصير كل منديل منها، وكمية المشاعر المختلفة التي انتقلت إلى طياته الرقيقة، وكم أنّ مهمته نبيلة، فهو يمسح ولو جزءًا صغيرًا من الحزن عن روح الإنسان.

وقد استهلك مرضاي اليوم أيضًا الكثير من هذه المناديل، رغم أنّ الهدف من زيارتهم ليس البكاء، بل هو التصريح عن مشاعرهم ومكنونات نفوسهم ومشاركتها مع الطبيب، والبحث عن القبول والرضا عن الذات، لكن الدموع غالبًا ما تأخذ

زمام المبادرة، وتُستَهل بها الجلسة، وهنا يأتي دور مناديل الدموع. وقد بتّ أعرف بعد كل هذه السنوات من الخبرة، السبب الحقيقي وراء هذه الدموع، فوحده الله يعلم كم كابدوا في إخفائها ومقاومتها، لكنهم مع دخول هذه الغرفة، يبادلونني النظر برهة خاطفة، ثم تجول نظراتهم في الأرجاء متهربة إلى الأعلى حينًا، وإلى الأسفل حينًا آخر، قبل أن تنحل العقدة، ويرفعوا أقدامهم عن المكابح. في لحظات مماثلة، أكتفي بتشجيعهم بنظراتي أو بكلمات قليلة "لا تمنع نفسك.. كل شيء سيكون على ما يرام، لا عليك".. فداخل هذه الغرفة لا يتعيّن على أحد كبت ما يعتمل في صدره، مهما بدا مستهجنًا خارجها. وهكذا يبدأ فيض المشاعر بالتدفق رويدًا رويدًا نحو الخارج.

هل من السهل أن يخلق الكائن إنسانًا؟ وهل من الممكن أن يُخلق الإنسان ولا يكابد العذاب؟ أفكر في مقولة توماس هوبز "الإنسان ذئب لأخيه الإنسان"، وأدرك كم هي صحيحة، فأكثر من يسبب الألم للبشر هم بشر آخرون، أولئك الآخرون الذين يحبهم، يحتاج إليهم، يبجلهم أو يعزّون على قلبه. فجور الصديق أشد وطأة من ظلم العدو، وعادة يكون من يسبب الأذى النفسي هم الآباء، الأمهات، الأبناء، الإخوة أو الأحباء.. وفي هذه الغرفة، تكون هذه هي الموضوعات الأكثر تداولًا بيني وبين مرضاي.

مضت خمس عشرة دقيقة، وأنا وحيدة في غرفتي دون أن يطرق الباب أحد، الأمر الذي لم أعتده. عادة لا أملك لحظات من الفراغ في المركز، حيث يشغل المرضى معظم وقتي، ثم هناك الاجتماعات التي لا تنتهي، إضافة إلى كلّ الأمور الأخرى المتعلقة بتنظيم العمل وشؤون الموظفين. ولكن لا تلقوا بالًا لي وأنا أقول عنهم مرضى، فقد درج مؤخرًا تسمية من يتعالج عند الطبيب النفسي بالعميل، وهو مصطلح لا يروق لي. قد يكون الأمر مجرد مقاومة للتغيير، ولكنني لست من أنصار المصطلح، بل أعتبرهم مرضاي الأعزاء وليسوا عملاء، كما أنّي أكرر دائمًا أمامهم أنّ من يتعالج لدى الطبيب النفسي، يتمتع عادة بسوية من الذكاء والغنى الروحي

والمواهب تفوق المعدل السائد في المجتمع. وربما لهذا السبب بالذات، لا يشعرون بالإساءة حين ألقبهم بالمرضى. وقد أتجادل حول هذا الموضوع أحيانًا مع زملائي، فأوضح لهم أن الطبيب النفسي يجب أن يتحلى بنفحة من النزق ومسٍّ من الاستثنائية، فأولئك العاديون جدًا، المتزنون جدًا والرِّزان، لا يمكن لهم أن يكونوا أطباء نفسيين ناجحين. ولكنني أتساءل بالمقابل، لو أنّي لم أمارس هذه المهنة، هل كنت سأفكر بالطريقة ذاتها؟ لا أعلم. لكن ما أعلمه من خبرة سنوات طويلة، أنَّ فهم الآخر يقتضي المرور ولو بجزء ضئيل من تجربته، فكيف لأحد أن يدرك الألم الذي يكابده مَن احترقت يداه، وهو لم يختبر حرارة النيران في حياته؟

أفتح الباب وأخرج من الغرفة، فلا أرى أحدًا في قاعة الانتظار، تبتسم سكرتيرتي العزيزة تونا حين تشاهدني أجول على غير هدى في الممر. كعادتها، هي منغمسة في العمل، تضع السماعات على أذنيها، ونظراتها مصوبة نحو شاشة الحاسوب، فيما تردّ على اتصالات المرضى وتنظم لهم المواعيد. مع نهاية اليوم، تبدو مستنزفة من الهواتف التي لا تنقطع عن الرنين، وحين تعلو نبرة صوتها أثناء التحدث، أدرك أنّ التعب قد نال منها حقًا. ما بال المرضى لا يظهر منهم أحدٌ في الأرجاء؟ ربما حالت الثلوج والفوضى المرورية دون وصولهم، لكن لا ضير من انتظار مرضاي هذه المرة، فليس من الإنصاف أن ينتظروني على الدوام.

أعود إلى غرفتي وأشعل أضواء المكتبة، ثم الضوءين العموديّين المنتصبين على جانبي الأريكة الحمراء، واللذين يكللهما غطاءان أحمرا اللون أيضًا. يروقني كثيرًا طقم الأرائك الملكية إنكليزي الطراز. اشتريته مع افتتاح أول عيادة لي، ورغم أنَّ قماشه استُبدل عدة مرات بمرور الوقت، لكنه بقي يرافقني في تنقلاتي كافة. إنَّه أحد الأشياء التي تشير إلى تعلقي بالماضي. يبدو أنني شغوفة بهذا الأحمر، لكني لا أجانب الصواب في شغفي، فهذا اللون يضفي دفئًا على المكان برمته، كما أنني أجد انسجامًا فريدًا بين نعومة الخشب البنية ورصانته، ودفء الأحمر الذي يولد شعورًا بالحيوية والطاقة، وهذان اللونان لا يستأثران فقط بمكان عملي، بل حتى في منزلي

لهما الغلبة على ما سواهما. هذه الميول البسيطة الصغيرة والخفية، الواعية منها واللاواعية، هي ما يحدد اختياراتنا، بل هي ما يختارنا غالبًا. إنها شيفرة سرية خاصة بروح كل واحد منا.

قبل الجلوس إلى طاولتي، تصلني أصوات قادمة من الردهة، وأخيرًا وصل أحد مرضاي، لكن الأصوات باتت تعلو فجأة، أهناك مشكلة ما؟ لا نواجه عادة مشاكل من هذا النوع في المركز، كما أنَّ تونا سكرتيرة واسعة الخبرة، وضليعة في التعامل مع مختلف أنواع المرضى. هل يتعيّن عليّ الخروج والتدخل، أم الانتظار برهة من الوقت؟

يا إلهي! إنها تونا التي تصرخ، ولكن ما الذي يحدث؟ أنهض على الفور متجهة إلى الردهة، في ذات الوقت تنهض تونا أيضًا عن طاولتها، وتتحرك بسرعة غير متوقعة من جسدها الممتلئ، وتتجه نحو غرفتي، لنلتقي عند الباب. تغلق الباب بسرعة وهي تدخل. وجهها محتقن، وتكاد تتنفس بصعوبة. ينتقل إليّ انفعالها، لأنها المرة الأولى خلال سنوات عملنا الطويلة معًا، التي أراها فيها على هذه الحالة. تستند بظهرها إلى الباب وتتنفّس نفسًا عميقًا، بينما أنتظرها بترقب.

- ما الأمر تونا؟ هلا أخبرتني بما يحدث؟
- أستميحك عذرًا سيدة غولسِران، ولكنني لو كنت أعلم ما يجري، لاستطعت تولي الأمر وحدي. لا يمكنك تخيل مدى وقاحتها، لقد أفقدتني السيطرة على نفسي حتى كدت أضربها.
- كدتِ ماذا؟

يبدو أنَّ نبرة الاستهجان في صوتي رنّت في أرجاء الغرفة، حتى بدت الرعشة التي انتابت تونا ظاهرة للعيان.

- ما الذي تقولينه يا تونا؟ ومن التي كدت أن تضربيها؟
- العفو. بالتأكيد لم أكن أعني ما قلته.. حسبنا الله، ستورطني هذه الفتاة في متاعب لا طاقة لي بها. صدقيني أيّتها الدكتورة، أنا لم أخطئ التصرف

معها، ولا أعلم من أين خرجت هذه الفتاة المجنونة في هذا الوقت المتأخر؟

- هل تعنين بالفتاة المجنونة أحد مرضاي؟
- أجل.

كيف لسكرتيرتي أن تتفوه بكلام مماثل بعد كل هذه السنوات من العمل سوية؟ ألم تدرك بعد المكانة التي أوليها لمرضاي؟ ألا تعلم أنَّ نعت أحد المرضى بالجنون خطأ فادح لن أتجاوزه دون عقاب؟

- ألا تملك اسمًا؟
- اللعنة على اسمها.
- حسنًا يا تونا، هذا يكفي، يبدو أنَّ الإرهاق قد نال منك كثيرًا. انزلي إلى الطابق السفلي، وخذي استراحة، وأرسلي إليّ أحدًا آخر لينوب عنك.

تنظر إليّ لوهلة في ذهول تام، وقد توتر جسدها المكتنز، وأفل بريق عينيها الضاحكتين، فيما يداها مفتوحتان على جانبي جسدها في عجز واضح كطفل يستسلم أمام عقابه الوشيك. وبينما برودة الطقس تجمد الأطراف، بدأت قطرات من العرق تتلألأ على جبينها، وهي تقف في حيرة قبالتي. لقد مضى على عملنا سويًا سنوات لا أكاد أذكر عددها، وكل مرضاي يكنون لها محبة كبيرة، ليس فقط المرضى، فأنا أيضًا متعلقة بها كثيرًا، فهي تعاملني أحيانًا كأخت حامية، وأحيانًا أخرى كأم حانية. لكن ما الذي انتابها اليوم؟ هل هو التعب؟ أم وطأة العمر؟ فالمريضة لم يمضِ على وصولها سوى بضع دقائق، ما الذي فعلته حتى أثارت غضبها إلى هذا الحد؟ بغض النظر عن أيّة أسباب، هي تعمل في عيادة نفسية، وطالما هي جالسة وراء تلك الطاولة، فعليها التصرف باحترافية وفق مقتضيات العمل.

حين تحاول التحدث مجددًا، أرفع إبهامي إلى شفتي في حزم، مشيرة إليها بالصمت.

- هذا يكفي، اصمتي. وبينما تستدير للخروج من الغرفة، ينتابني الأسى وأنا أرى الدموع تكاد تطفر من عينيها.

أطلّ برأسي من الباب الموارب، فأشاهد شابة جالسة على حافة الأريكة القريبة من النافذة، ترمقني بنظرات مليئة بالخوف. على ضوء المصباح الموضوع فوق الطاولة إلى جوارها، أتمعن في وجهها الأسمر الذي تغطيه البثور، شعرها الأشعث القصير، سماكة حاجبيها، وضيق مساحة جبينها، حتى تكاد الحدود بين الحاجبين والشعر تبدو غير واضحة، يداها أيضًا تغطيهما شعيرات سوداء، ويبدو كأن غبارًا رماديًا قد نثر على شعرها الباهت وثيابها البالية. ترتدي سترة صوفية سوداء اللون، وتحتضن حقيبة ظهر كبيرة، وكأنها طفل في حجرها، إنَّها في مقتبل العمر، لكن من الواضح أنَّها قد أهملت مظهرها كليًا.

التعرف إلى مريض جديد يوقظ في نفسي الاهتمام دومًا، فأرمقه في فضول يمازجه بعدٌ مهني. أحاول تبين المشاعر التي يوقظها داخلي، والانطباع الأولي الذي يخلقه لدي، الأمر الذي أظنه بالغ الأهمية بالنسبة إلى الطبيب النفسي، فالعلاقة الجيدة تتأسس على هذه النظرة الأولية؛ لأنَّ العلاج النفسي من وجهة نظري، هو علاقة تنشأ بين الطبيب والمريض، وقبل أن تأخذ وجهتها الأساسية، تمر بالكثير من التبدلات العاطفية، في مسار تتخلله العديد من المحطات.

وهذه العلاقة بقدر ما هي إنسانية بالدرجة الأولى، إلا أنَّها ذات طابع مهني أيضًا، فعلى الطبيب ملاحظة أدق التفاصيل أثناء اللقاء الأولي، بدءًا من الصباغ على الأظافر إلى خيط انسلّ من السترة، الخطوط التي يشكلها الزمن على الوجوه، الحقيبة التي يحملها أحدهم، حتى الحذاء الذي ينتعله.. كل هذه التفاصيل تتطلب انتباهًا من الطبيب، وهي خطوته التمهيدية لتشكيل انطباع أولي عن الشخص المقابل، قبل أن تتدفق الكلمات من شفتيه، وتعبث بصفاء الحدس. عادة ما يحدّث المرضى وخاصة في لقائهم الأول، الطبيب عن الكثير من الأمور التي يظنون أنهم يدركونها عن أنفسهم، لكنها فقط ما يظنونه صحيحًا. فمهما حاول أحدنا، لا يمكن

أن يكون حياديًا حيال ذاته. أما مهمة الطبيب فهي رؤية الحقيقة الكامنة خلف تلك الكلمات، وهي مهمة عليه أن يخطّ دربها وحده.

في مثل هذه اللحظات من اللقاء الأول بيني وبين المريض، أشعر لوهلة وكأنني المحقق الشهير شارلوك هولمز، يقف أمام جريمة تنقصها الأدلة، فيحاول اكتشاف الحقيقة معتمدًا على قوة الحدس وحدة البصيرة.

- يبدو أنك تنتظرينني؟

تومئ برأسها، فأشير إليها بدوري أن تتبعني إلى الغرفة.

- تفضلي بالدخول.

اتجه إلى غرفتي فيما لا يزال ذهني مشغولًا بتونا، هل قسوت عليها أكثر مما يجب؟ لكن ما فعلتْه كان خطأ فادحًا.. حين أجلس إلى طاولتي أكتشف أنَّ ما من أحد قد لحق بي إلى الداخل. ترى لمَ لم تدخل؟ ألم أخرج وأطلب إليها أن "تتفضل إلى الداخل"؟ هناك خطب ما في الأمر، عسى أن يكون خيرًا.. أتجه نحو الصالون مجددًا، فأجدها كما تركتها، جالسة في مكانها محتضنة الحقيبة. ترمقني بذات النظرات المتوجسة حين أقترب منها.

- يا آنسة! ألم تسمعيني؟ تفضلي، أنا بانتظارك.

لكنها لا تبدي أدنى اهتمام، وتميل برأسها نحو الأسفل، دون أن يظهر عليها ما يدل على الاستجابة لطلبي، فينتابني الحنق أكثر من دهشتي لغرابة تصرفاتها، وخاصة أنني قسوت على تونا بسببها. لوهلة أتردد فيما عليّ فعله، وأتساءل في حيرة عما تريده هذه الفتاة. ثم أقترب منها في هدوء، وأنحني مادة يدي لملامسة يدها التي تحتضن بها الحقيبة، وكأني أدعوها للرقص، في محاولة لجعلها تنهض وتتبعني.

- أنا الدكتورة غولسِران بودايجي أوغلو. لديك موعد معي اليوم، ورغم وصولك متأخرة بعض الشيء، فأنا أدعوك للمرة الثانية، أن تتفضلي إلى غرفتي، لكنك لا تستجيبين للدعوة، فهل لي أن أعرف السبب؟

تسحب يدها بعيدًا في هلع وكأنها تعرضت لصعقة، وترفع كتفيها في نزق كالأطفال، ومع اقترابي خطوة أخرى منها، تلفحني رائحة كحول لاذعة. ليس من المألوف شرب الكحول في هذا الوقت المبكّر نوعًا ما، فالليل لم يحل بعد، خاصة بالنسبة إلى شخص لديه موعد مع طبيب نفسي. يبدو عليها الندم لمجيئها، ومن الواضح أنها انزعجت بشدة من ملامستي. تحاول خلع الخف البلاستيكي الذي تنتعله فوق جزمتها الضخمة، وأثناء ذلك تتلطخ السجادة التي تحت قدميها بالطين وقطرات المياه العالقة بجزمتها.

- دعك من نزع الخفين الآن لو سمحت! وتفضلي إلى غرفتي قبل أن يتأخر الوقت أكثر من ذلك.
- لِمَ؟.. لِمَ تجبروننا على انتعال هذه الأشياء اللعينة؟

نبرة صوت غريبة، حادة وطفولية، تخدش الأذن، وتثير الضيق والتوتر. ربما كانت محقة في بقائها صامتة أطول وقت ممكن. فتاة غريبة! تصل متأخرة عن الموعد، ولا يعجبها شيء، والأسوأ أنها تحت تأثير الكحول. لكن ما يثير حيرتي أنّ الحنق الذي انتابني ليس بسبب تعنتها، بل بسبب تلك الظلمة السحيقة التي أشعر بها، وكأنّها تظهر من مكان ما عالق بيني وبينها، لتسحبني نحو أعماق مريبة. أهي ترددات معاناتها الشديدة يا ترى؟

- نحن هنا في قاعة الانتظار، ومن المحتمل أن يأتي مرضى آخرون بعد قليل، أليس من الأفضل أن نذهب إلى غرفتي ونكمل حديثنا هناك؟
- لن أدخل تلك الغرفة.
- ولكننا لن نتمكن من الحديث هنا.
- فليكن.
- ألم تأتِ إلى هنا من أجل التحدث إلي؟
- ليتني لم آتِ.. لقد سئمت منكم.. سئمت من الجميع.. إن كنت أعامل بهذه الطريقة عند الطبيب النفسي.. فكيف لي أن أبوح بما أعانيه؟.. لقد

مكتبة
t.me/soramnqraa

بدؤوا مضايقتي منذ لحظة دخولي الباب.

- وما الذي فعلوه عند الباب؟
- وما الذي سيفعلونه أكثر من هذا؟- وتشير بسخط إلى الخف البلاستيكي في قدميها-.. فقبل أن أخطو خطوة واحدة إلى الداخل.. أجبروني على انتعال هذه القذارات في قدمي.

عادة ما نطلب إلى مرضانا انتعال الخِفاف البلاستيكية في الأيام الماطرة والموحلة كما اليوم، وهو أمر لا ضير منه على الإطلاق.

بدأت تنثر بالفعل الكثير من الطين والوحل في المكان، وهي تحاول نزع الخفين طوال الوقت. وأخذت غيوم الغضب التي تتجمع سريعًا في صدري، تطلق أولى شرارات رعودها، فيما أجاهد من خلال أنفاسي العميقة لأعيدها إلى أغوارها النائية.. لا أرغب حقًا في الإساءة لشخص تكبد عناء المجيء إلينا في هذا الوقت من المساء، وفي طقس مماثل، لكن لمَ تتعمد دفعي إلى ذلك يا ترى؟ بعد نحنحة خفيفة لتصفية صدري من الحنق، وصوتي من سخطه المكتوم، أعاود محاولة التحدث إليها، بصوت أكثر هدوءًا.

- هذا مركز طبي، أليس من الطبيعي أن تنتعلي فيه خفًا بلاستيكيًا؟ لكن يبدو أنك لا تعرفين كيفية انتعاله، فقد تلطخت السجادة بالوحل من حولك. هلا نظرت من فضلك؟..
- إذًا لمَ لا تنتعلين واحدًا في قدميك؟.. ولمَ لا تنتعله السكرتيرة؟.. أم إنكم نظيفون، ونحن القذرون؟..
- بالطبع لا، يا آنسة. لكن هذه الإجراءات هي من أجل تقديم الرعاية الصحية لكم في مكان نظيف.
- لا أحب هذه الألقاب.. آنسة، سيدة.
- كيف تريدين مني مخاطبتك، وأنا لا أعلم اسمك بعد؟
- الأفضل ألا تخاطبيني على الإطلاق.

أقرر الانتظار برهة في صمت، ولا أنكر أنها تبرع في الاستفزاز، لأنَّ الغيوم في صدري باتت أكثر قتامة، ويبدو أنني لن أتمكن من السيطرة على العاصفة التي تنذر بالوقوع. فهي من حددت موعدًا، والآن تحاول أن تثير مشكلة لأنها أتت. أفكر في تركها والعودة إلى غرفتي وإغلاق الباب، لتفعل ما تشاء. أوه يا إلهي! أتذكر فجأة أنَّي أمرت تونا أن تنزل، ولم يحضر حتى الآن أحد ليحل مكانها، ولا تبدو لي فكرة ترك هذه الفتاة هنا وحدها سديدة. لكن ما يبلبل ذهني حقًا، هو شعوري بنفور خفي تجاهها، وهو شعور لم أعتده، فأنا أقابل كل المرضى بغض النظر عن شكلهم أو مشكلتهم، بتعاطف واحترام منذ اللحظة الأولى.

- هل يتعيّن على المرء أن يكون نظيفًا.. حين يغدو طبيبًا؟ تسأل بنزق يشوبه الاستهزاء.
- هل أنت غاضبة كثيرًا، أم هذا ما يبدو لي؟
- أجل، أنا غاضبة بشدة.. لم أكن كذلك حتى أتيت إلى هذا المكان.. فأنتم تثيرون جنون الإنسان.

من الواضح أنها أتت، وهي تنوي افتعال مشكلة. لو أنّ أحدهم أجبرها على المجيء، لكان الأمر مفهومًا، لكنها قد أتت وحدها، ممّا يعني أنها حددت هذا الموعد بإرادتها ورغبتها الشخصية. لا أزال مشوشة من هذا النفور داخلي، وأفكر إن كان صوتها هو ما يثير ضيقي إلى هذا الحد.

- من الذي حدد لك هذا الموعد؟
- ما هذا السؤال الغريب؟.. بالطبع أنا من طلب الموعد.. فأنا لست كأمثالك، ست الكل.. يقوم الخدم والحشم بالتقاط أدنى رغباتي.

يا للصفاقة! لديها ردّ وقح على كل سؤال. ولكنها عبارات غريبة لم أسمعها منذ زمن طويل: "ست الكل وخدم وحشم"، كانت جدتي تردد هذه العبارات أحيانًا، لكن هذه الفتاة من جيل آخر.

- وكيف تعرفين أن لدي خدمًا وحشمًا؟

- لا تظني أنني لا أعرف أنك مالكة هذه الأبهة كلها.
- وكيف عرفتِ أنَّي المالكة؟
- يجب أن يكون المرء أعمى.. حتى لا يرى اسمك داخل دائرة حرف الواو الـ "ماداليون"..

تنتابني رغبة في الضحك، لأنّ اسمي مكتوب بالفعل داخل دائرة الواو، لكني لم أخمن أبدًا أنَّ الأمر قد يثير حفيظة أحد مرضاي يومًا ما. للمرة الثانية أردد في نفسي "يا لها من فتاة غريبة!"..

- وهل أزعجك الأمر؟
- ولِمَ سيزعجني..؟ إن كان لديك كل هذا.. فأنا لدي أيضًا ما لدي.

إذًا فهي أيضًا لديها ما لديها. يبدو أنها أدركت من ابتسامة الاستهزاء التي قابلت بها عبارتها، أنني تخليت عن فكرة التجادل معها، وسأنسحب إلى غرفتي، لذا فهي تحاول استدراجي للحديث، ولكن لِمَ ترفض الدخول إلى غرفتي؟ هناك يمكنها التحدث كما يحلو لها.

- إذًا فأنت أيضًا لديك ما لديك؟ ولكنك قلت إنك لا تملكين خدمًا وحشمًا مثلي.
- ربما ليس لدي خدم.. ولكنني لست أقل شأنًا منك في شيء.
- ليس هذا ما يبدو عليه الحال.
- وكيف يبدو؟
- حسنًا، لقد بذلت جهدًا للمجيء، ثم دفعتِ المال من أجل التحدث إلي، لكنك وصلت متأخرة، ويكاد الوقت المحدد لك يشارف على الانتهاء، كما أنَّي لا أعلم دافعك للمقارنة بيننا، لكنني لو كنت مكانك لأسرعت بالدخول والحصول على مقابل ما دفعتُ لأجله.
- يبدو أنَّ المال.. أمر بالغ الأهمية بالنسبة إليك.
- أهذا ما يبدو عليه الأمر؟

- بالطبع! فأنت تنظرين إليّ كمبلغ من المال لا أكثر.. أنا مجرد أجرة الجلسة التي أدفعها بالنسبة إليك.. لا أكثر.. ولكن لا تخشي شيئًا.. فأنا لدي من المال ما يكفي لشراء كل هذا المكان.. ووضع اسمي داخل تلك الواو بدلًا من اسمك.

لا أستطيع كبت ضحكة خفيفة، فهذا آخر ما كنت أتوقع سماعه، بل لم أكن أتخيل سماعه من أحد على الإطلاق. يتلاشى غضبي ويختفي معه الحنق، ولا يبقى من شيء سوى الحيرة، وأنا أتساءل عن السبب الذي يدفعها إلى التصرف على هذا النحو. لا يبدو لي أنها تعاني حاليًا من أعراض حادة، لكن من الواضح أنها غاضبة بشدة، والأشد وضوحًا أنَّ الأطباء إحدى الفئات التي تصب عليهم جام غضبها غالبًا.

- هل أنت طبيبة؟
- هل بدأت تهزئين مني الآن؟
- لا، لا، لم أقصد ذلك. ولكن حين قلت إنك قادرة على شراء المركز، فكرت أنك ربما درست الطب.
- لو أني طبيبة.. فما الذي سيدفعني للمجيء إلى هنا؟
- سأخالفك الرأي في هذه النقطة. أليس الأطباء بشرًا كسواهم؟ ولديهم مشاكل وأزمات نفسية؟
- لكنهم قادرون على حلّ مشاكلهم بأنفسهم.

هذا ما يبدو عليه ظاهر الأمر، لكنها لا تعلم أنَّ الأطباء أكثر من يعتادون العيادات النفسية. لقد بدأت أشعر بالتعب من الوقوف، لذا أفكر في الجلوس إلى جوارها، طالما أنها لا تنوي القدوم معي إلى الغرفة. حقيقة لا يهم المكان لتبادل الحديث مع المرضى، لكن قاعة الانتظار ليست بالمكان المناسب، فعدم مجيء أحد المرضى حتى الآن، ليس إلا مصادفة لصالحها. لكنني لن أضمن بقاء المكان خاليًا لوقت طويل. فحتى لو لم يأت أحد المرضى، فستأتي السكرتيرة عما قريب،

كما أنني لست الطبيبة الوحيدة التي تعمل في هذا الطابق، فيمكن أن تنتهي جلسة أحد المرضى لدى زملائي في أيّ لحظة ويخرج من الغرفة، رغم ذلك لست قادرة على تركها.

- لقد تعبت من البقاء واقفة كل هذا الوقت، ما رأيك أن نكمل حديثنا في غرفتي، قبل مجيء أحدهم؟
- لن أتحرك من مكاني.. قبل خلع هذه القذارة من قدمي. وتخبط على السجادة بقدميها.

رغم أنَّ انتعال الخِفاف البلاستيكية يرضي معظم مرضانا المهووسين بالنظافة، لكنه قد يزعج فئة قليلة منهم أحيانًا. إلا أنَّهم غالبًا ما يعبّرون عن ذلك بطريقة أكثر هدوءًا وتهذيبًا، فنجد لهم بديلًا عند الضرورة. وهم بالمقابل حريصون جدًا على نظافتهم، ويمكنهم عبور مستنقع دون أن تلوثهم قطرة وحل. لكن من الواضح أنَّ هذه الفتاة ليست من تلك الفئة على الإطلاق، فجزمتها مغطاة بالأوحال، وثيابها تكاد تكون أسمالًا بالية قذرة.

- المشكلة كلها في الخف؟
- أجل.. تلك هي المشكلة.
- حسنًا. الخِفاف نظيفة جدًا. وكما تعلمين فقد أحالت الثلوج الطرقات إلى برك من الطين، وإن خلعته الآن، فسيتلطخ المكان كله بالوحل.
- وهل أنا مجبرة على تنفيذ كل ما تقولين؟
- للمركز بعض القواعد المحددة، وطالما أنك أتيت إلى هنا بملء إرادتك، فعليك الالتزام بهذه القواعد.
- لا.. لن ألتزم بشيء.

تنزع الخفين من قدميها بحركة سريعة وترمي بهما وسط القاعة. وعلى الفور تتناثر قطرات الطين القاتمة في الردهة كلها، فيما تتسع بقعة الوحل على السجادة تحت جزمتها. القذارة باتت تغطي المكان كله، وينتابني الندم لأنَّي لم ألتزم منذ

البداية بنصيحة عدم تغطية الأرض بسجاد فاخر. فقد أردت أن أجهز المكان بأفضل ما يكون، لأنّ العيادات النفسية من وجهة نظري، لا تشبه غيرها من المراكز الصحية، ومرضاها يختلفون عن بقية المرضى. فهم قادرون أكثر من سواهم على ملاحظة الأناقة والاهتمام، اللذين لهما أثر إيجابي كبير عليهم. وها هي واحدة من المرضى تتعمد أن تحول المكان إلى بركة من الطين والقذارة. ليست المشكلة في التنظيف، فهو أمر مقدور عليه، لكن ما يحزنني أنَّ أحد مرضاي من قام بذلك.

عند الانتقال إلى هذا المركز، انتابتني نوبة من الهوس إزاء الاهتمام بكل التفاصيل، حتى إنَّي وزملائي الأطباء قمنا باختيار مكان اللوحات وتعليقها بأنفسنا بكل عناية، وكنا نعمل يدًا بيد مع بقية العمال، نحمل قطع الأثاث، نجرب عدة مواضع قبل أن نقرر المكان الذي سندق فيه المسمار لتعليق اللوحة، نغير أماكن قطع الأثاث، حتى تمكنا أخيرًا وفي منتصف الليل بعد الانتهاء من تعليق الستائر، من الجلوس وشرب الشاي معًا وسط حماسنا، والرضا الكبير الذي كنا ننظر به إلى المكان من حولنا، لأنَّ جهودنا أثمرت.

يحل غضب عارم مكان الابتسامة التي كانت تغطي وجهي قبل قليل، فقد بدأ الوضع يزعجني حقًا. ما أرغب في القيام به، وما يتعيّن عليّ فعله، أمران على طرفي نقيض. فهذه الفتاة ليست مريضة، بقدر ما هي كحولية وقحة. لأنَّ المرض لا علاقة له بالوقاحة أو التهذيب، فهناك خصال جوهرية فينا، لا تغيرها الصحة أو المرض.

أراقبها في صمت، وأنا أستحضر أولى تجاربي مع مريض يعاني من نوبة نفسية، كنت حينها طبيبة متدربة في مشفى حاجي تيبة، جديدة في المهنة وحاملًا أيضًا. كانت تلك ليلة مناوبتي، وبعد أن ذهب الجميع بقيت وحدي، فتوجهت إلى غرفتي التي في نهاية الممر من أجل الاستلقاء قليلًا، لكنني غفوت ولم أستيقظ إلا على أصوات الضجة التي وصلتني من الخارج، فوثبت عن السرير فورًا، ولم أكن قد خلعت الرداء الأبيض عني. في الممر شاهدت نور الدين أحد مرضى المشفى، وهو شاب وضعه مأزوم جدًا، تطلب منا تنويمه جرعة عالية من المهدئات. كان مهتاجًا

على الدوام لا يستطيع الثبات في مكانه، وإخماد النيران المشتعلة داخله، فيركض دون وجهة محددة، يحطم الأشياء ويهاجم من يعترض سبيله، للتخلص من كل تلك الطاقة التي تفور داخله، لكنها كانت نبعًا لا ينضب، فكلما فاضت نحو الخارج، تتجدد وتتدفق بعنفوان أكثر، وكان في تلك الأثناء يعاني نوبته الأكثر عنفًا للمرة الثانية، كان يقهقه في صخب بين الحين والآخر، ويتحدث دون أن يستطيع أحد فهم ما يقوله. ومع خروجي من الغرفة التقيته وجهًا لوجه، كان الشرر يتطاير من عينيه، ومن الواضح أنه يبحث عمن يفرغ عليه جام غضبه. فيما لم تغادرني آثار النوم بعد، وحتى إن كنت في كامل يقظتي، لم يكن ذلك ليشفع لي أمام قلة خبرتي.

وكملاكم وجد أخيرًا خصمه، كوّر قبضتيه، وبدأ يلتف حولي في هياج. كنت لا أعلم حينها، أنه وبعد انقضاء النوبة لن يتذكر هذه الليلة على الإطلاق، لأنه لم يكن واعيًا ما يفعله. رفع قبضته عدة مرات، لكنه حين رأى انتفاخ بطني، أدرك أنني حامل، فاستدار على عقبيه مبتعدًا، وبدأت كلتا قبضتيه تنهالان على رأسه بلكمات متتالية، وسط صرخاته الحادة. ما أذهلني حينها، أنه وعلى الرغم من شدة مرضه التي منعته من التعرف إلى نفسه، بذل جهدًا جبارًا لعدم إيذائي. لكن هذه الفتاة ليست مريضة، وليست مهذبة أيضًا.

أنظر إليها دون أن أنبس بحرف، لكن غضبي يكاد يصفع وجهها، وهي تدرك ذلك لذا تتهرب من نظراتي. تتخلى عن الحقيبة التي تحتضنها، وتنهض في وثبة مفاجئة، وتبدأ بالقفز كالأطفال فوق البقعة الطينية التي تشكلت على السجادة تحت قدميها. يغطي شعرها الأشعث وجهها وهو يعلو ويهبط معها في كل قفزة. أستطيع أن أطلب موظفي الأمن، لإرغامها على الخروج، لكن الشفقة تغلبني، كما أنَّه يتعيّن عليّ إيجاد طريقة ما للسيطرة عليها دون طلب العون من الخارج.

أنسحب خطوة نحو الخلف لكي تستمر بالتقافز كما تشاء، ويبدأ رأسي بالعمل كحاسوب لتحليل الوضع، فأنا متأكدة من أنها لا تعاني حاليًا من نوبة عصبية، لكن لا يمكن اعتبارها في كامل قواها العقلية أيضًا، كما أنها تحت تأثير

الكحول، وليس من الصعب تخمين ما تريد فعله، فهي ترغب في إثارة غضبي بأي وسيلة، وقد نجح أسلوبها بالفعل مع تونا من قبل. لكن ما غايتها من الأمر؟ فهي لا تعرفني. فلو كانت تعرفني حقًا، فما أقدمت على هذه الحماقات، لأنَّ كل من يعرفني يدرك مقدار المحبة والاحترام وسعة الصدر التي أعامل بها الآخرين، دون أن ينتقص ذلك من حزمي وتشددي حين تقتضي الضرورة.

تنظر إلى عيني بتحد واضح وهي تزيد من وتيرة قفزاتها، ألاحظ عليها ما لم ألحظه وهي جالسة، فهذه الفتاة الثملة التي تنبعث منها رائحة كريهة، والتي حولت المكان من حولها إلى مستنقع، تغطي إبهام يدها اليمنى بضمادة يلفت حجمها الانتباه، لكنها ليست ضمادة طبية بأي حال، بل مجرد خرقة رثة ومتسخة. من الواضح أنَّ ردة فعلي السلبية إزاء كل هذا الاستفزاز لم ترق لها، وخالفت توقعاتها، فتلاحقني نظراتها الغاضبة، وهي تتعمد قدر استطاعتها مسح جزمتها بالسجادة مع كل قفزة، وكأنها تحاول تلطيخ السجادة بالطين، فيما شرارات الغضب الذي في عينيها تنهال على ما حولها، تمامًا كطينها المتناثر في كل الأرجاء.

- يبدو أنَّك غير معتادة على النظافة، فقد لطّخت المكان كله ببصمة يصعب مسحها. كلما رأيت هذه البقع فسوف أتذكرك وسوف تطنّ أذناك بكل تأكيد.

اختفت نبرة التعاطف من صوتي نهائيًا، فيما هي تواصل القفز إلى الأعلى والأسفل، وتوسيع دائرة قفزاتها، في تواتر انتقامي لقائد منتصر، يريد تثبيت نصره بكل عنجهية. وكأنها تعيش نشوة تمكُّنها من إثارة غضبي واستفزازي. يتقد حقد غريب في عينيها، وهي تنظر إليّ بتشفٍ متيقنة من جريي إلى فخها، ووقوعي في مأزق حرج. لكن المنطق يقتضي أن أقوم بعكس الأدوار، وجعلها تقع في الفخ الذي نصبته. لن أجد مقاومة تذكر إن أردت جرها إلى غرفتي، فهي ليست سوى كتلة من الخرق البالية، لا يكاد وزنها يبلغ الأربعين كيلو غرامًا. وبالمقابل أنا طبيبة متمرسة، لدي خبرة كافية في التعامل مع هذه الحالات، ولكن ليس هذا ما أريده.

إنَّها تدرك أنَّ المركز خاص، وأننا نتجنب قدر المستطاع وقوع مشاكل من هذا النوع. فلو قامت بالصراخ وافتعال شجار، فسيسبب ذلك الإزعاج للجميع، وبصفتي مؤسسة المركز ومديرته، سأكون أول المنزعجين وأكثرهم. المثير في الأمر أنها ذكية بقدر ما هي وقحة، ومن الواضح أنَّها خططت للأمر مسبقًا، ولكن لمَ كل هذه النقمة؟ على كل حال، لن يطول الأمر حتى أدرك غايتها. ما يهمّ الآن أن أنهي هذه اللعبة بالطريقة التي تناسبني.مكتبة .. سُر مَن قرأ

أنظر نحو الباب وأنا أفكر في احتمال دخول أحدهم الآن، وردة فعله المتوقعة، لا بد أنه سينفجر ضاحكًا، فالمشهد مثير للضحك بكل تأكيد، المريضة تتراقص قافزة وسط القاعة، بينما الطبيبة واقفة تحدق إليها عاجزة. ولو صادفتُ هذا الموقف مع أحد غيري لانفجرت ضاحكة، لكن ليس عندي أدنى رغبة في الضحك الآن، وقد أحالت السجادة إلى خرقة قذرة. من أين خرجت هذه الفتاة في يوم كهذا؟ أتساءل وأنا أرجو أن تتأخر السكرتيرة التي ستنوب عن تونا في المجيء، لأنَّ المشهد سيغدو حديث المركز، كما أنَّني لا أعلم ردة فعل هذه المجنونة إزاء أيّ تعليق قد تسمعه من أحد ما.

أجلس بهدوء على الأريكة المخملية الخمرية التي كنت أقف إلى جوارها، وأواصل متابعة هذا المشهد الغريب. فقد انقلبت الأدوار الآن، وباتت هي الفريسة وأنا الصياد، أنفاسها تصبح لهاثًا مسموعًا من الإعياء والحنق إزاء ردّة فعلي. ولإثارة حنقها أكثر، أضع ساقًا على الأخرى، وأسترخي في جلستي لأتابع العرض حتى نهايته. الآن جاء دورها لتأخذ نصيبها من الدهشة، فقد أرادت أن تثير غضبي، وتضعني في موقف محرج، لكن الأدوار انقلبت. إن كان عليّ الاعتراف، فقد أفلحت بجدارة في إثارة حنقي، لكنها لم تحصل على ردة الفعل التي كانت تتوقعها. والآن عليها الانتقال إلى خطة بديلة.

أمعن النظر في وجهها الذي بات محتقنًا، من الواضح أنها تكابد مع كل نفس، ومن الممكن أن تقع مغشيًا عليها في أيّ لحظة، لكني لا أريد للأمور أن تصل إلى

هذه الدرجة من الدرامية. ورغم أنَّ لعبتها هذه لا تزال تثير غضبي، لكن الآية قد انعكست، ولم يعد يتعيّن عليّ القيام بشيء، لأنَّها تعاقب نفسها بما فيه الكفاية. الغريب أنَّها مدركة هذه الحقيقة تمامًا، وهو ما يزيدها حنقًا، فالخيوط بدأت تنسل من بين أصابعها مع كل نفس جديد تكابد في الحصول عليه، ومع ارتفاع منسوب الحنق في صدرها. من الواضح أنَّها تواصل المحاولة، متأملة اقتراب لحظة انفجاري، لتفتعل مشهدًا عنيفًا، قد تحاول فيه إلحاق الأذى بنفسها أو بي، أو إلحاق الضرر بمن حولها.

أضع ابتسامة خفيفة على وجهي فيما أصفق لها قائلة:

- برافو! عرض جميل، لقد رأيت الكثير من العروض الراقصة، لكن هذا العرض فريد من نوعه. استمري أرجوك، ولكن دون تباطؤ.

تتلاشى شرارات الغضب من عينيها، وتحل مكانها نظرات متوجسة وحائرة من ردة فعلي الباردة واللامتوقعة، والحازمة في الوقت ذاته. باتت تدرك أنَّ الأمور اتخذت منحىً مغايرًا لما كانت تريده، ولوهلة عابرة بالكاد تُلحظ تتوقف عن الوثب، وسط حيرتها بين الاستسلام والاستمرار. في تلك اللحظة بالذات تفقد توازنها، وقبل أن تسقط أرضًا، أثب من مقعدي، وألتقطها من الخلف وفيما ألف ذراعي بإحكام حول جسدها النحيل أسحبها معي في خطوات سريعة إلى غرفتي. وبعد أن أغلق الباب، نلتقي وجهًا لوجه، فتلفحني أنفاسها الكحولية ورائحتها النتنة. أمسك بذراعها بحزم، فتتلوى في حركات يائسة للتخلص من يدي، لكنها سرعان ما تتخلى عن المحاولة وتحني رأسها في إذعان. لا أفلت يدها، لكن يقع ما ليس في الحسبان، حيث تنهار نحو الأسفل ككومة من الخرق البالية، فأظن بداية أنّها قد أغمي عليها، لكن حين أدرك أنها فعلت ذلك متعمدة للتخلص من قبضتي، أزداد حنقًا على حنق.

لا أقوم بأي حركة توحي بمساعدتها على النهوض، بل أكاد أقفز فوق جسدها المتكوّم متجهة خلف طاولتي. وبدورها تنهض بتثاقل بعد برهة، وتجيل النظر فيما

حولها، وكأنها قد استيقظت توًّا من نوم عميق. ثم تركز نظراتها الحانقة نحوي، فيريعني الحقد الماثل فيهما. ما الذي فعلته لها حتى تقابلني بكل هذا الحقد؟ لم ينجح كل ذلك الإجهاد في محو ذرة من غضبها، فها هي تجيل نظراتها في المكان من جديد، ويداها على الأرض، ولكن هذه المرة في انتباه أكبر. أتابع نظراتها المتجولة في أرجاء غرفتي، وتنتابني الدهشة، وكأنني أرى الغرفة للمرة الأولى، فتبدو في عيني رائعة حقًّا. ولكنها في المقابل متوافقة تمامًا مع خططها الشريرة، فالمكان مزدان بالتحف الخزفية الرهيفة ومصابيح الكريستال، وليس من الصعب تخمين نواياها في تحويل الغرفة إلى حطام.

أستند بكلتا يدي إلى الطاولة وأنا أنهض، وأدرك أنني ما لم أنجح في زرع الخشية في قلبها الآن، فسيقع ما لا تحمد عقباه. يجب عليّ التصرف بكل الحزم والصلابة اللتين في حوزتي، فأصرخ فيها بصوت مزلزل.

- انهضي!

لا تختلف نبرتي عن صرخة قائد عسكري في ميدانه، فهذه فرصتي لإجبارها على تقبل الهزيمة. وحقيقة الأمر أنَّ هذا الدور يلائمني تمامًا، فأنا أستمتع بإلقاء الأوامر على من حولي، ونبرة صوتي تخدم هذه المتعة بجدارة، فحتى خلال حديث عادي، يمتاز صوتي بنبرة سلطوية على الآخرين. وها هي الفرصة لاستغلال هذه الميزة لصالحي.

ما إن تسمع صوتي، حتى ترتعش، وترفع رأسها وهي تنظر إلي في حيرة وخوف واضحين.

- انهضي! هيا انهضي بسرعة، واجلسي قبالتي على هذه الأريكة.

تواصل التحديق إلى وجهي في ذهول، دون أن تحدد بعد ما الذي ستفعله. فأجرب حظي مرة أخرى.

- هيا! تحركي! لقد ضيعت وقتي بما فيه الكفاية.

ترفع كتفيها رافضة الامتثال. لقد ذهب صوتي هباءً. لكني لا أستسلم، بل أتجه نحوها بسرعة كي أمسكها من ذراعيها وأرغمها على النهوض، فتلف ذراعيها حول

رأسها لحمايته، في رد فعل انعكاسي، وكأنها تتجنب ضربة متوقعة على رأسها. هل تعتقد أنني أنوي ضربها؟ من الواضح أنها تعرضت للكثير من الضرب. تتبادل كل من الشفقة والغضب تحية عابرة. أنهضها برفق، دون مكابدة مشقة تذكر، فوزنها أخف من وزن ريشة بالية، وأضعها على الأريكة، لتلتف على نفسها ككومة من الخرق الرثة.

وبينما تحاول لملمة خصل شعرها المتناثرة، تظهر بوضوح آثار الجروح على ذراعها اليسرى. ليست مريضة، ولكن من الواضح أنها قد تسببت بهذه الجروح لنفسها ربما تحت تأثير الكحول، ولن أستغرب إن كانت قد أضافت إليها جرعة من المخدرات أيضًا. إنَّها نموذج مثالي لشخصية مدمنة. وفيما أنتظر أن تنتظم أنفاسها، أحاول التقاط المزيد من الأدلة التي تساعدني على التعرف إليها، وأفكر في الأسباب التي دفعتها إلى شرب هذه الكمية الكبيرة من الكحول في هذا الوقت المبكر نسبيًا، وإصرارها الواضح على افتعال مشكلة.

حين تنجح أخيرًا في جمع شعرها كله إلى الخلف، يظهر وجهها الدميم وملامحها المنفرة بصورة أوضح. كيف لشابة في عمرها أن تكون على هذا القدر من الدمامة؟! فعلى الرغم من أنني خبيرة في اكتشاف جانب من الجمال في شخصية كل من أقابله، لأنَّني أحب البشر، أحبهم وأحترمهم، وأعتقد أن الجميع دون استثناء يجب أن يعاملوا بما يستحقون من مشاعر المحبة والاحترام، لكنني رغم هذا المعتقد الراسخ أخفق في العثور على ملمح من الجمال لديها. ترى، هل هو غضبي ما يمنعني من رؤية الأمر؟ فعيناها، أنفها، فمها وحتى حاجباها تبدو لي في غاية القبح والدمامة. بشرتها مغطاة بالدمامل والبثور، وأسنانها الصفراء متراكبة فوق بعضها، في بروز واضح نحو الخارج، وهذا ما يجعل فمها منفرًا أكثر. ويبدو أنفها وكأنه قد تعرض للكسر في عدة مواضع، فهو يعاني من اعوجاج واضح، برأس ضخم منعقف نحو الأسفل. عيناها واسعتان، ونظراتها حادة وغاضبة، صدغاها الضيقان تغطيهما بثور حمراء. وهي نحيلة إلى درجة مَرَضية، كم تزن يا ترى؟ من

الواضح أنها لا تكتفي بالكحول فقط، بل تتعاطى المخدرات بين الحين والآخر، وإن كانت علامات الإدمان غير واضحة عليها.

تواصل التنفس في صوت مسموع فيما تجول نظراتها في المكان، وحين تنظر نحوي، لا تراني، بل تركز نظراتها على شيء ما خلفي. إنَّها تنظر إلى النافذة خلفي، وهي نافذة ضخمة جدًا، كنت أقف قبالتها منذ قليل، للتفرج على المدينة، حتى إنني قمت بفتحها قليلًا، لتنشق بعض الهواء المنعش، ولكن هل أعدتُ إغلاقها أم تركتها مفتوحة؟ من أين ظهرت هذه الفتاة الغامضة، وأحالت أمسيتي إلى فوضى عارمة؟ لا تزال تحدق إلى النافذة، ولن أستبعد إن قفزت فجأة ورمت بنفسها إلى الأسفل، فهي تبدو خبيرة في اجتراح الحماقات.

- والآن أخبريني، ما هي مشكلتك؟

تستدير إلى الجهة الأخرى وتحني رأسها، وكأنها لا تسمعني، ولكنها تتململ في جلستها، من الواضح أنَّها تنوي النهوض، عليَّ إيقافها دون تردد.

- إياك أن تتحركي من مكانك، أو حتى أن تتنفسي. لقد أثرت ما فيه الكفاية من الإزعاج، ولا أظنني قادرة على تحمل المزيد.

تنظر إلي في خوف واضح، لقد نجحت أخيرًا في جعلها تخشاني، ولكنني لست راضية عن كل ما يجري بطبيعة الحال، فليس من عادتي التعامل مع مرضاي بهذه الطريقة، أو الصراخ في وجههم. وإن كان في تعاملي معهم مغالاة، فهي تكون بدافع المحبة وليس النقيض. تشبك أصابع يديها وتتوقف عن التململ، فيما رأسها محني. ترى كم من الوقت قد مضى على آخر مرة غسلت فيها شعرها؟ ثيابها الفضفاضة غريبة الطراز وقاتمة اللون، مغطاة بالبقع والغبار، يداها صغيرتان، لكن أظافرها قذرة وغير مشذّبة. ولا أستبعد أن يكون رأسها مليئًا بالقمل أيضًا، وكأنّ الوحل والقذارة اللتين لوثت بهما كل ما حولها لا يكفيان، لتضيف إليهما القمل أيضًا.

يا إلهي! لقد امتقع لونها، إنَّها توشك على الاختناق.

- حاولي سحب أنفاس عميقة، ستختنقين..- أطلب إليها في وجل.

تبدأ بسحب أنفاس متلاحقة، وكأنّ أحدهم فك قبضته عن عنقها، ومع تلاحق أنفاسها تطفر الدموع من عينيها. ترى هل علق شيء ما في حلقها؟

- ما الأمر يا ابنتي؟ هل علق شيء ما في حلقك؟

-

- أخبريني ما الذي يجري؟ لقد أوشكت على الاختناق.

- لقد طلبت إليّ ذلك.

- ما الذي طلبته إليك؟

- طلبت إليّ ألا أتنفس.

- ألهذا امتنعت عن التنفس؟

- أجل.

- هل أنت مجنونة؟

ما الذي أتفوه به؟ كيف لي أن أخاطب مريضًا في عيادتي بهذه الجملة؟ لقد نجحت هذه الفتاة في أن تثير جنوني أيضًا. أحقًا امتنعت عن التنفس لأنني طلبت إليها ذلك؟ أشعر إزاءها بموجة من الشفقة تعلو على كل ما سواها من مشاعر في صدري. لا تزال تلهث وهي تتنفس، والدموع تطفر من عينيها، فيما تنظر نحوي في خوف واضح، لكني ألمح بصيصًا من الرضا يخالج خوفها، دون أن أدرك السبب. إنَّها مزيج غريب من التناقضات. ليت صوتها كان مستساغًا على الأقل، فهو ليس بالصوت الطفولي المحبب، ولا يشبه صوت البالغين في نبرته، بل يبدو أقرب إلى زعيق صافرة مبحوح، يخترق الأذن في إزعاج لا يمكن التصدي له.

- لست مجنونة.. لست كذلك.. أرجوك لا تتعاملي معي وكأنني مجنونة.

- إذًا فأنت لست مجنونة! ولكن هلا أخبرتني عن سبب يدفعني إلى التعامل مع فتاة تتقافز في الأرجاء دون مبرر، كشخص عاقل؟

- لقد تعمدت القيام بذلك.
- حسنًا، من الجيد أنَّنا انتقلنا إلى مرحلة الاعتراف، وهل لديك سبب مقنع جعلك تشربين هذه الكمية الكبيرة من الكحول؟
- أجل.. لم أكن أستطيع المجيء ما لم أشرب؟
- ولمَ ذلك؟
- لأنَّني لا أمتلك الجرأة الكافية.
- وهل يتطلّب المجيء إلى هذا المكان قدرًا عاليًا من الجرأة؟
- لن أستطيع القيام بما قمت به.. دون أن أثمل.
- ماذا تعنين؟ هل خططت للقيام بكل هذا حتى قبل مجيئك؟
- هم هم.
- لمَ؟ ما الذي دفعك إلى القيام بذلك؟
- لكي أثير غضبك.

ما الذي تتفوه به هذه الفتاة؟ إذًا فقد خططت لكل هذه الوقاحة سابقًا، ولكنني لم ألتقِها قبل الآن. فلم كل هذا الحقد والرغبة في الإساءة لي وللمركز؟ على الرغم من ذلك لا أنكر أنها أتقنت الدور ببراعة، ونفذت مهمتها بشكل احترافي، واستطاعت أن تثير فيّ إلى جانب الغضب مشاعر قاتمة، لا أريد لها الظهور في الغالب.

- إذًا غايتك كانت إثارة غضبي؟ ولكن ما السبب؟ فنحن لم نلتق من قبل.
- لأنّك ستتصرفين كالآخرين في نهاية الأمر.
- وما الذي سأفعله؟
- ليس المهم ما ستفعلينه.. بل ما لن تفعليه.
- لست أفهم ما تعنين على وجه الدقة.
- ما كنت أفعله مع الآخرين في النهاية.. قررت القيام به معك منذ البداية.
- من هم الآخرون؟
- الأطباء الآخرون.

- هل قمت بذلك معهم أيضًا؟
- كان ذلك في النهاية دومًا.
- وقد حان دوري؟
- أجل.
- ولكن لمَ؟ لمَ تفعلين ذلك؟
- لأنَّكم جميعًا سيئون.. بغيضون.

إذًا فقد زارت العديد من الأطباء قبل مجيئها إلي، وتلقى زملائي نصيبهم من حنقها وجنونها. كيف يمكن مساعدة شخص مثلها؟ وحده الله يعلم الأساليب التي اتبعتها لتثير جنونهم، والآن وقع اختيارها عليّ.

- ما الذي يدفعك إلى الاعتقاد أنني شخص سيّئ؟
- لأنَّك كذلك بالفعل.. فقد قابلت الكثير من أمثالك.
- ولكني لا أظنك قد أتيت إلى هنا للتعرف إلى سيّئ جديد!
- لقد أتيت بالفعل.. أجل، لقد أتيت.. لقد دفعت مقابل ذلك.. ولا أحد يستطيع منعي.
- لو أنّك منحتني الفرصة للتعرف إليك بصورة عادية، لكانت علاقتنا قد اتخذت مسارًا أفضل.
- ما كان ذلك ليحدث.. أنا واثقة.. حين أتيت لتحديد الموعد ورأيت المكان، أدركت الحقيقة.. فمن الواضح أنَّ من يأتون إلى هنا، ليسوا.. أعني لا يمكنك الاهتمام بفتاة مثلي.
- إذًا فأنت واثقة بذلك.
- بالطبع.
- ورغم ذلك فقد أتيت.
- لم يعترض أحد.. ولكن.. لم أحظَ بالقبول أيضًا.. كلكم من طينة واحدة.. لا فرق.. ورغم ذلك فقد أردت أن أجرب لآخر مرة.

حتى أسلوبها في الكلام غريب، تتوقف بين الجمل، وأحيانًا تقفز إلى الأخرى دون أن تكمل سابقتها. وقفات مشوشة، وكأنها طفل يعجز عن ابتلاع اللقمة الكبيرة في فمه، فيغص بالكلمات. أو كأنها جديدة على اللغة، لم تتعلمها إلا منذ أمد قصير. تتحاشى النظر إليّ خلال حديثها، وكأنها تحدث نفسها. وتقذف الكلمات من فمها، وكأنها ترد على شتائم، وحين تقرر النظر نحوي في لمحات خاطفة، ترفق حديثها برفع إبهامها ذي الضمادة القذرة في وجهي. أهي أحد آثار تعاطي المخدرات والكحول، أم نتيجة شجار يا ترى؟

- أردت أن تجربي حظك معي أيضًا، أليس كذلك؟ وهل راقت لك النتيجة؟
- ألست طبيبة؟.. ألم تقسمي قسم أبقراط؟.. لمَ ترفضين مساعدتي؟
- هل تحاولين السخرية مني؟ لقد أتيت إلى هنا، ليس طلبًا للمساعدة، بل لافتعال مشكلة. وما كان عليّ أبدًا أن أدخلك إلى غرفتي، فأي نوع من المساعدة تطلبين؟
- لأنَّك كنت ستتصرفين كالبقية؟
- تعنين زملائي؟ ما الذي فعلوه بك على وجه التحديد؟
- وافقوا في البداية على تحديد موعد.. وتظاهروا بالاهتمام بي، والاستماع إلي.. لكنهم لم يتمكنوا من إخفاء نفورهم لاحقًا.. لم يحبني أحدٌ منهم.
- لا أستطيع لومهم، فأنا أيضًا لا أشعر تجاهك بأي محبة.

تنظر إليّ بطرف عينها، نظرات تفيض كراهية وحقدًا. ربما ما كان لي أن أرمي الحقيقة في وجهها بهذه الطريقة، ولكني لم أشأ خداعها. قد تكون للمواربة في بعض الأحيان منافعها، لكن من الواضح أنَّها خاضت هذه التجربة سابقًا، وجوبهت بالنفور من بقية زملائي أيضًا.

- إذًا فأنت تصرحين بنفورك؟..
- لا أحب الكذب.

- وتقولين ذلك دون مواربة؟
- لا تتظاهري وكأنّ الأمر خالف توقعاتك. ألا يبدو من الواضح أنَّك لا تروقين لي؟
- لو كنت مكانك.. فما رقت لنفسي.
- أول جملة صحيحة تنطقين بها.
- هل تحدثين الجميع بهذه الصراحة؟
- ما الذي تعنينه؟
- الأطباء.. الذين أعرفهم.. أعني من عرفتهم.. كانوا يفضلون التلاعب بالكلمات، ولا يفصحون عما يجول في خواطرهم مطلقًا.. فاللعبة لها قواعدها.. وهم مرغمون على اتباع هذه القواعد.. لا يمكن أن يكونوا على طبيعتهم.. بل لديهم قائمة بالردود الجاهزة والمتوقعة على الأسئلة كافة.. وهم يجدون دومًا وسيلة للتخلص من أمثالي، ولكن حتى ذلك يفعلونه وفق قواعدهم.. فلا يقولون ذلك صراحة، ولا يعبّرون عن نفورهم كما تفعلين.. لا يستخدمون هذه الكلمات.. يخفونها.. ولكنني أستطيع اكتشافها، وهذا ما دفعني إلى معاقبتهم جميعًا.

وحده الله يعلم ما كانت تقترفه مع بقية زملائي! وهي تقوم بكل ذلك عن سابق إصرار وتصميم. كما أنَّها ملمة بمبادئ عملنا، فلا يمكن التعامل مع المريض بهذه الصراحة، وهذا ما أحرص عليه أنا أيضًا في الحالات العادية، ولكن الأمور خرجت عن السيطرة، ولا أبدو قادرة على إصلاح هذه العلاقة.

- ما الذي فعلته على وجه التحديد معهم؟
- كانت زياراتي الأخيرة لكل منهم.. تنتهي بافتعال المشاكل.
- أيّ نوعٍ من المشاكل؟
- كتلك التي قمت بها هنا توًّا.. كنت أحطم كل ما له قيمة.. أتعمد نشر

القذارة في المكان، أصرخ.. أثير غضبهم واستياءهم.

- إذًا حين يخفق الطبيب في كسب ثقتك، وتعتقدين أنَّه غير قادر على مساعدتك، تقومين بمعاقبته بدلًا من التوقف عن زيارته؟..

- لقد استحقوا العقاب.

- على أيّ ذنب؟

- لأنَّهم لم يحبوني.

- الطبيب ليس ملزمًا أن يحب كل مريض يدخل عيادته.

لا أصدق أنني أتفوه بمثل هذا الكلام. أشعر بالضيق مجددًا، فأحاول التنفس بعمق للسيطرة على الموجة القاتمة التي تحاول تشويش بصيرتي، فيما تواصل حديثها.

- ألا أستحق ولو قدرًا ضئيلًا من المحبة؟.. ما المانع؟.. ها؟.. لقد قرأت كتبك كافة.. وأدركت أنَّك تبادلين مرضاك محبة كبيرة، حينها قررت أن آتي إليك.. لكنني تخليت.. أعني غيرت رأيي.. كنت أخشى ألا أحظى بمحبتك.. المحبة التي يحظى بها كل شخص سواي.. لقد شعرت بالاستياء حتى من مجرد تخيل الفكرة.

إنَّها محقة في كلامها، فأنا أكنّ محبة كبيرة لكلّ مرضاي دون استثناء، وربما كانت هذه المحبة ستشملها أيضًا، لكنني الآن أعترف بعجزي عن ذلك.

أيعقل أن يكون دافعها الوحيد لزيارة الطبيب هو الحصول على بعض المحبة؟ أهي وحيدة إلى هذا الحد؟ إن كان الأمر كذلك، فهو أحد أغرب الأسباب التي سمعتها.

- لو أنَّك لم تتصرفي منذ البداية بهذه الطريقة، لاختلفت طبيعة علاقتنا بكل تأكيد، ولكنا الآن نتبادل ربما حديثًا وديًا، أو تبوحين لي بما يسبب لك الحزن أو الغضب مثلًا.

- لكني لم أرق لك منذ البداية.. أنا واثقة بذلك.

- واثقة؟

- أجل، واثقة.
- بغض النظر عما تقولينه، كنت سأتعامل معك باحترام، وأستمع إليك باهتمام حقيقي.
- ليس هذا ما أريده.
- ليس من الحكمة زيارة الطبيب، فقط من أجل الحصول على محبته.
- لا أريد الحصول على المحبة فقط.. بل أريد أن تتم معالجتي بمحبة.. وتنشئتي بمحبة.
- تتفوهين بأمور غريبة حقًا، الآن بت واثقة بأنَّك بحاجة إلى طبيب نفسي.
- أجل.. أنا بحاجة.. بحاجة.. بحاجة.
- لكنك تضعين العثرات في طريقك بنفسك.
- ما من أمل؟..
- أليس هذا واضحًا؟..
- كنت أملي الأخير.
- وقد حطمته بيديك.
- هل تحاولين.. التخلص مني؟
- أجل، يبدو أنَّ هذا ما أفعله.
- تمامًا كالبقية.
- لأنَّك لم تمنحيني الفرصة منذ البداية.
- ليتني فعلت ذلك.. ليتك تسامحينني.
- وهل سيغير ذلك شيئًا؟
- ليتك تحدثينني بهذه الصراحة حتى النهاية.. ولا تخفين نواياك.. حتى إن كان ذلك قاسيًا.. حتى إن لم تشعري تجاهي بأي محبة.. ليتك تظلين على صراحتك.
- إيبيه.

- حينها.. حينها فقط.. ربما.
- ما الذي سيحدث حينها؟
- حينها سأواظب على زيارتك.
- إذًا فلديك شروط مسبقة لزيارتي؟
- أجل، لكن.. لكنك لا تزالين مستاءة مني.
- بالطبع، أنا مستاءة.
- هذا جيد، فلا زلت صريحة معي.. إذًا لا داعي لوضع الشروط.
- ولمَ ذلك؟
- لأنَّك صريحة دون شروط.. والآن أرجو منك أن تسامحيني.. وأن تقبلي.. أن أزورك لاحقًا.
- محال، فما حصل بيننا سيؤثر سلبًا في العلاج، من المستحيل أن يتمكن الطبيب من مساعدة شخص بطريقة مهنية، وهو يشعر تجاهه بالاستياء.
- على العكس تمامًا.. أعدك أنّي لن أتعمد إثارة استيائك مرة أخرى.
- هل كنت تتعمدين إثارة استياء بقية الأطباء؟
- هم هم
- وكيف لهذا أن يساعد على علاجك؟ لا تلومي أحدًا منهم، فلو أتيحت لهم الفرصة، فربما تمكنوا من مساعدتك بالفعل. ولكن لمَ كنت تفعلين ذلك؟
- لاكتشاف.. مشاعرهم الحقيقية.
- يا لك من فتاة غريبة! حين تثيرين استياء شخص تطلبين إليه المساعدة، فإنك بذلك تلحقين الضرر بنفسك.
- لم يهتم أحد منهم بي.. ليس بشكل حقيقي.. مجرد شكليات مهنية لا أكثر.. ثم سارعوا للتخلص مني.. لم يبذل أيّ منهم جهدًا.. كل ما فعلوه أنَّهم حاولوا أن يخفوا عني نفورهم.. لكني أدركت ذلك منذ البداية.

- كنت تحاولين إخضاعهم للاختبار طوال الوقت، وهو تصرف شاذ لا يقوم به الأشخاص الأسوياء. من الواضح أنَّك بحاجة إلى مساعدة حقيقية، المركز كبير وأستطيع أن أحولك إلى أحد زملائي.
- إذًا فأنت أيضًا.. تحاولين التخلص مني.
- صدقيني! لن أتمكن من مساعدتك بعد هذه البداية السيئة.
- لا يمكنك.. التخلص مني بهذه السهولة.
- أهذا يعني أنك تقومين بتهديدي؟

تنظر نحوي نظرات مليئة بالذعر كحيوان حوصر في زاوية، فتثير شفقتي مجددًا، ولا أرغب- رغم كل الغضب الذي انتابني قبل قليل- أن أتركها تذهب دون مساعدة، هناك العديد من زملائي في المركز، ممن يستطيعون مساعدتها، إن كانت راغبة حقًا في التحسن.

أنا عاجزة عن مساعدتها، حتى لو كنت راغبة في ذلك، فالطبيب الذي يعامل المريض بكل هذه القسوة، لن يتمكن من مساعدته بطريقة مهنية. ألم أوضح لها الأمر بما يكفي؟

- لا، ليس الأمر تهديدًا.. إنَّه أمل.. رغبة.. إنَّها المرة الأولى التي أقرر فيها القيام بشيء لنفسي.. سأحارب من أجل الفوز بقبولك.
- حاولي التفكير في العرض الذي عرضته عليك.
- لا أريد منك شفقة.. أرجو ألا تفعلي ذلك أبدًا.

حسنًا، لا تريد الشفقة، إذًا ما الذي تريده هذه الفتاة على وجه التحديد؟ يجب عليّ إقناعها بزيارة زميل آخر من المركز.

- يبدو أنَّك تسيئين فهم ما أحاول قوله. سنخرج كلتانا الآن، وسأحدد لك موعدًا مع زميل أثق به ثقة عالية. اتفقنا؟
- لن تتمكني من خداعي.

أنا أحاول مساعدتها بالفعل، لكنها لا تسمح لي بذلك.

- صحيح، ما هو اسمك؟
- وأخيرًا خطر لك.. السؤال عن اسمي.
- لا جدوى من إطالة الأمر أكثر، فأنت ترتكبين الخطأ تلو الآخر. أظن أنَّ هذا يكفي.
- اسمي آلا، ولن تتخلصي مني، حتى لو أردتِ ذلك.
- هيا انهضي! لا أريد أن نسيء إلى بعضنا أكثر من ذلك، لقد اكتفيت بالفعل.
- لا، لن أنهض.. لن تتمكني من إخراجي من هنا.. إن اقتضى الأمر فسأحيل المكان إلى حطام، ولكنني لن أخرج.
- ما الذي تريدينه بالضبط؟

ترفع كتفيها كطفل شكس، وهي ترمقني في غضب. لقد جاءت إلى هنا لافتعال مشكلة، وليس طلبًا للمساعدة، وقد اعترفت بذلك. من الواضح أنَّني لن أتمكن من إنهاء الأمر بالحسنى. ويبدو أنَّي كنت محقة في نفوري منها منذ البداية. أنهض من الكرسي بأداء قائد في الميدان.

- انهضي! هيا الآن! ستخرجين من الغرفة بهدوء تام، وإن قمت بأدنى خطأ، فستكون العواقب وخيمة جدًا.

أسير نحوها في حزم وإصرار واضحين، فتنهض بتثاقل وتتجه نحو الباب الذي تفتحه دون رغبة. وقبل أن تخرج أسألها:

- هل دفعت أجرة الزيارة؟
- أجل، دفعت.
- استرجعي المبلغ لدى خروجك.
- لماذا؟
- لأنَّي لم أقدم إليك ما يجب أن يقدم عادة إلى المرضى في زيارة كهذه. والآن مع السلامة.

وفيما أصرخ فيها، أشاهد حشد المرضى الجالسين في القاعة وهم يراقبون هذا المشهد في فضول، فيما ترنو هي إلي بعينين متوسلتين. أين تلاشت صواعق الغضب الوحشية في نظراتها؟ وكيف انقلبت الأدوار، فوضعتني موضع المرأة المستبدة؟

تجلس ديدم وراء طاولة السكرتيرة، والردهة محتشدة بأكثر مما كنت أظن. سيدة في منتصف العمر، بضعة شبان وشابات، طفل يأبى أن يترك طرف ثوب أمه، ورجل في منتصف العمر، مهيب المظهر، بشعر أشيب، يذرع القاعة في خطوات متبرمة، على وقع طقطقات حبات مسبحة الكهرمان التي في يده. أنظر إلى الأرضية، التي تم تنظيفها، والسجادة التي لا تزال مبللة، وقد تركت البقع أثرًا عليها رغم تنظيفها. فيما كل العيون تتابعنا، متنقلة بيني، وبين الفتاة التي انقلبت لتبدو كحمل وديع بعينين بريئتين.

وحده الله يعلم ما يجول في خواطرهم الآن، وما الذي يعتقدونه بحقي. عادة ما أتجنب مثل هذه المواقف، وأتصرف بحذر بالغ لا أفقد فيه السيطرة على نفسي مطلقًا. لكن الأمور انقلبت ضدي اليوم، والأسوأ هو اسمي المكتوب على باب الغرفة. الآن باتوا يعرفون جميعًا من هذه المرأة المتسلطة التي تعامل المرضى بقسوة وقلة احترام. يا إلهي! كيف سأتمكن من تصحيح هذا الوضع المزري؟ وهذه الفتاة المشؤومة تدرك تمامًا الفخ الذي أوقعتني فيه، وهي تأبى المغادرة، وتتعمد المماطلة، لتمديد هذا العرض المخزي أطول ما يمكن.

أقترب من ديدم، وأخاطبها:

- اطلبي إلى قسم المحاسبة في الأسفل، أن يعيدوا إليها أجرة الزيارة.

أحاول التحدث بأخفض ما يمكن، لكن الجميع يرهف السمع لأدنى همسة، كما أنَّ ديدم تثب واقفة حال اقترابي منها، والخوف يفيض من عينيها. ما الذي أصابها هي الأخرى؟ أحقًا انتابها الخوف من غضبي؟ أوووف، كم أودّ الهروب من هذا الحشد والإسراع نحو غرفتي وإغلاق الباب، والتخلص من هذا المستنقع الذي أغرق فيه أكثر بمرور كل دقيقة. أهمّ بالتوجه إلى غرفتي، فتنحني ديدم فوق

الطاولة وتهمس في أذني بشيء ما، لا أفهم ما تحاول قوله، ولا أريد سماع المزيد عن هذه الفتاة، لكنها مصرة على مواصلة التحدث، متجاهلة غيوم الغضب- الظاهرة لكل العيان- وهي ترعد فوق رأسي. في تلك الأثناء يقترب الرجل الأشيب مهيب المنظر مني، فتسرع من خلف الطاولة وتقف حائلة بيننا، وهي تباعد بين ذراعيها على الجانبين، وكأننا خصمان لدودان، وهي تحاول الحؤول دون وقوع شجار وشيك بيننا. ما الذي تفعله هذه الفتاة بحق الجحيم؟ في تلك اللحظة تتلاقى عيوننا أنا والرجل، فتفاجئني نظراته الحانقة، وكأنه آت إلى هنا ليقتلني.

- هل أنت إله؟ أم هذا ما تظنين نفسك عليه، يا سيدة؟

يرعد بصوت مزلزل في القاعة، فيما أكاد أترنح تحت وطأة الذهول من الضربة الثانية التي أتلقاها اليوم. تتراشق الأسئلة في رأسي: من يكون؟ وما الذي يريده مني هو الآخر؟ ثم ما هذا السؤال الوقح؟ وقبل أن أتمالك نفسي للرد عليه، يعاود الصراخ ورشقي بالمزيد من الاتهامات.

- لو أردت مقابلة رئيس الجمهورية، لكنت قابلته حتى الآن عشر مرات، من تظنين نفسك؟ هذه الألاعيب الرخيصة لا تنطلي علي، لا تردين على الهاتف، آتي إلى هنا، فيخبرونني بأنك لست في العيادة. والآن مضى عليّ، وأنا أنتظر هنا أكثر من نصف ساعة.

- ومن حضرتك؟

- وهل تقررين استقبال الناس أو رفضهم وفق من يكونون؟

تجول نظراتي على الحشد من حولي، فأرى في أعينهم نظرات الفضول والرضا عن هذا العرض التشويقي الذي يجري أمامهم. حتى الفتاة المجنونة، مستمتعة بالمشهد، وهي تنقل نظراتها بيني وبين الرجل، مستندة بظهرها إلى الجدار، وكأنها لا تريد تفويت لحظة واحدة. أما بطل العرض، فقد أمال بكتفه قليلاً يميناً، ونفخ صدره نحو الأمام صوبي، وطقطقة حبات المسبحة في يده، تتوافق مع رضاه عن نظرات الجماهير، وهو يحدق إلى وجهي بتحدٍّ. من الواضح أنه ممتن

للوضع المحرج الذي أوقعني فيه، فيما ديدم لا زالت تقف بيننا، تلتفت يمينًا ويسارا نحونا، وكأنها تتابع مباراة لكرة التنس.

ليست كل الأيام متماثلة، واليوم هو أحد تلك الأيام الفارقة، ومهما حاولت الالتزام بحدود الهدوء والطيبة، فلن أفلح. إنَّها مشيئة الأقدار.

- لا يهمني من تكون، ولكن عليك أولًا أن تكف عن الطقطقة بتلك المسبحة، وإن أردت التحدث إلي، فعليك التحلي ببعض الاحترام. هل هذا مفهوم؟

وإزاء دهشتي، يستجيب الرجل على الفور ويخفي المسبحة في كفه، فيما يغير من وضعيته الهجومية، من الواضح أنَّ ردة فعلي كانت غير متوقعة على الإطلاق بالنسبة إليه، ولكن ما الذي كان يتوقعه يا ترى، أن أذعن لوقاحته، وأبادلها بابتسامة؟ أحاول استغلال هذا التغيير في المشهد لصالحي، فأدور على عقبي متجهة صوب غرفتي، وأخاطبه دون أن أكلف نفسي عناء الالتفات نحوه:

- والآن تستطيع الدخول للتحدث، أغلق الباب بعد دخولك الغرفة.

يتبعني في ذهول يشوبه الغضب، ويغلق الباب. فيما أراقبه بطرف عيني وأنا جالسة إلى طاولتي.

- حسنا، تفضل، أنا أسمعك.
- هل سأتحدث، وأنا واقف؟
- تستطيع الجلوس على واحدة من هذه الأرائك.

يكاد يتهالك على المقعد، ويواصل حديثه من حيث توقف. من الواضح أنَّه لا يزال يفور غضبًا، ولكن ما الذي فعلته لكي أثير غضبه هو الآخر إلى هذا الحد؟

- أنا أحاول الوصول إليك منذ ثلاثة أيام، ولم أتمكن من التغلب على هذه المعوقات السخيفة، وهو أمر يثير غضبي، فأنا لا أستطيع تحمل هذا النوع من التفاهات.. وغضبي من أسوأ الأنواع، لأنَّني قد أقترف كل ما لا يخطر على بال.. أنا كهتلر تمامًا، أمزق من يقف في وجهي دون رحمة أو شفقة. لا أستطيع أن أتحمل من يخطئ بحقي أو يحاول خداعي. إما أبيض أو أسود،

فالمراوغة تثير جنوني، وحين يثار جنوني، تنطلق نيراني كالحمم البركانية، فتصهر كل ما يقع في طريقها، ولا ترحم من يتجاوز حدوده معي، ولن ينجو إلا من اختار الصدق والأمانة.. لذا عليكِ أن تتقني عملك كما يجب، فإن اتصل بك المريض، فلا بد من سبب يدفعه إلى ذلك. ومن واجبك الردّ على المكالمة.. لقد نالت مني تلك المدعوة تونا، كل ما تستحقه حين ردّت علي. وقد أتيت البارحة أيضًا، لكنك لم تكوني موجودة، فلم أشأ أن أفتعل مشكلة كبيرة، لكن كل من في المركز نال ما يستحقه، وقد دبّ الرعب في قلوبهم جميعًا، لذلك عند رؤيتهم لي اليوم، ارتعدت أوصالهم. حتى إنَّ السكرتيرة قد لاذت بالفرار، وحلت أخرى مكانها، وقد أسدت خدمة لنفسها، لأنَّني كنت أنوي أن ألقنها درسًا لن تنساه. لكنني لا أنكر أنَّي أحب العقلاء أيضًا، فقد أدركت ما ينتظرها، لذا أخلت الساحة على الفور. ألا يقولون إنَّ الهرب ثلثا المرجلة؟- يضحك مستهزئًا- ألم يحدثك الموظفون عني؟

ما الذي يقوله هذا الرجل؟ إنَّه يتهمني بأنني لم أردّ على مكالمته، وذنب تونا الوحيد، أنَّها هي التي ردت عليه. يبدو أنَّ الجميع يصب جام غضبه على المسكينة في الآونة الأخيرة بمن فيهم أنا. وقد ثار لأنَّني لم أكن في العيادة البارحة حين مجيئه، لكن لو كان الأمر عاجلًا كما يدّعي، لكانت تونا اتصلت بي لتخبرني بكل تأكيد.

أولًا تلك الفتاة المجنونة التي أفقدتني الصواب، والآن سيد الحمم البركانية.. عادة ما أغلق على نفسي باب الغرفة في مثل هذا الوقت، وأطل على منظر المدينة المسائي من نافذتي، لأزيح عن كاهلي وطأة يوم آخر من العمل، ومن ثم أستمع إلى الرسائل الصوتية التي تركها لي المرضى، للرد عليها، وتدوين الملاحظات، لكن حظوظ اليوم مغايرة.. كما أنَّ الوقوف موقف المرأة العاجزة أمام رجل ينفث غضبًا كالبركان، ليس بالقرار الصائب دومًا. فبعد أنَّ نال موظفو المركز نصيبهم من حممه، جاء دوري، وكان يتوقع أن يشحب لوني، وترتعد أوصالي، حينها كان سيرتاح سيد البطولات. لكنه لن يحصل على كل ما يريد.

- لم يحدثني أحدٌ عنك، لأنّهم لا يريدون إزعاجي بهذا النوع من التفاهة، فهم يخشون القيام بذلك، وعلى حد تعبيرك، ترتعد أوصالهم.
- يبدو أنَّك تستخفين بي حقًا، لكنك حين تعرفين من أكون، لن تقدمي على هذه الغلطة.
- يبدو أنَّك تفعل المثل أيضًا، والأهم أنّك ملزم بتحديد موعد مسبق إن كنت ترغب في المجيء والتحدث إلي، فأنا لا أستقبل المرضى دون موعد مسبق.
- ومن أخبرك بأنني مريض؟
- لا يجب على المرء أن يكون طبيبًا ليدرك بأنك لا تتمتع بالقدر الكافي من العقل. كما أنَّني لا أعرف حتى الآن من تكون، لكنك بالمقابل تعلم جيدًا من أكون.
- يبدو أنَّك لم تفهميني جيدًا، يا دكتورة.

من الجيد تذكره أنَّني دكتورة.

- وما الذي لم أفهمه على وجه التحديد؟ من الواضح أنّك معتاد على تخويف كل من حولك، فأنت تتوقع الاحترام من الجميع، دون أن تطبق هذا القانون على نفسك، وقد أوضحت لي كل هذه الأمور، منذ اللحظة الأولى التي شاهدتك فيها تصول وتجول في الردهة، رغم أنَّني لم أتقصد الإساءة إليك مطلقًا. لكن إن استمر الحال على ما هو عليه، فسأضطر حينها للتصرف بأسلوب أسوأ من أسلوبك معي.
- لا يبدو أنَّك تختلفين عني في شيء!
- لا أدري إن كان ما تعنيه مديحًا أو ذمًا!
- أكل أطباء المجانين على شاكلتك؟
- إن شئت الصدق، فهم ليسوا كذلك، وأنا أيضًا لا أتصرف بهذه الطريقة عادة، لكنني أعجز عن تحمل أمثالك. فحين تذهب إلى مكان ما، عليك

احترام من هناك، والأمر الثاني أنَّ تمتثل لقواعد المكان، فحين ترفض السكرتيرة أن توصلك بي شخصيًا، فلديها أسبابها. وحين أجلس مع المريض، لا أتلقى المكالمات باستثناء الحالات الطارئة، وإلا فسيكون ذلك استخفافًا بالمريض الذي أجالسه. يكفي أن تترك ملاحظة لدى السكرتيرة، لكي نقوم بالإجراء المناسب. وإن كان مجيئك اليوم بناء على اتصالنا بك، فما عليك سوى الانتظار قليلًا. من تظن نفسك بحق الجحيم، لتهددني بهذه العبارات السخيفة؟ تحرق كالحمم البركانية، ولا ترحم كهتلر.. هذه الحماقات الطفولية ليس لها مكان هنا، نحن في مركز علاج نفسي، لا في دار للعجزة، ولو أنَّنا تهاونّا مع أمثالك، لصادفنا كل يوم هتلر مجنونًا، ونابليون أحمق.

- لقد كنت أنوي أن ألقنك درسًا اليوم، لكني أقسم إنَّك تغلبتِ عليّ بجدارة.. ويبدو أنَّ المسكينة التي خرجت من غرفتك قبل قليل، قد نالت نصيبها هي أيضًا. هل من مكان أخفي فيه عصاي؟
- عفوًا؟

بعد برهة قصيرة من الصمت المتبادل، نقهقه كلانا في صخب. فقد كان يعني بكلامه أنَّ المجنون حين يلتقي مجنونًا، يخفي عصاه، ولا أنكر أنَّه أصاب عين الحقيقة، بهذا الغمز.

- إن شئت الصدق يا دكتورة، فغضبي لا يعدو أن يكون نسمات صيفية، إزاء عواصفك المدمرة. وأعتذر عن الإزعاج الذي سببته لك في هذا الوقت من المساء، لكن زوجتي هي من أرسلتني، فقد جاءت لزيارتك قبل بضعة أيام، ورغم أنَّها حصلت على الدواء، لكنها أضاعت الجدول الذي يحدد لها الجرعات. وهذا ما دفعني إلى محاولة الاتصال بك ورؤيتك.
- ما اسم زوجتك؟
- هوليا، هوليا ساك أوغلو.

على الفور أخرج ملفها، وقد تذكرتها بالفعل، فغالبًا ما تحدثني عن زوجها، وأذكر أنها بكت كثيرًا في آخر زيارة لها. وقد صارحتني أكثر من مرة أنَّ زوجها هو الشخص الذي يجب عليه أن يتلقى علاجًا نفسيًا، كما اعترفت أنَّ هدفها من المجيء إلي؛ إيجاد سبيل لحماية ولديها اللذين هما في طور المراهقة حاليًا، لأنَّها تخشى عليهما من جنون زوجها. وأغلب الظن أنها لم تفقد جدول الجرعات، لكنها اختلقت هذه الذريعة لكي ترسل زوجها إلي. يبدو أنَّها لم تفِه حقه في الوصف، فهو أكثر عنفًا مما ظننت. يجب علي البحث عن وسيلة لكسب صداقته وثقته، فلا بدّ أنَّها تكبدت الكثير لإرساله إلى هنا، ولا أريد تفويت الفرصة. حسنًا، لنرَ إن كان باستطاعتي إقناعه بتحديد موعد.

- أجل، لقد تذكرت زوجتك، فقد حدثتني عنك كثيرًا.
- بالطبع ستفعل، فمجيئها إلى هنا ليس له هدف سوى التشكي مني. كنت أعلم ذلك مسبقًا.
- ها أنت تجانب الصواب مرة أخرى، فرغم ظنك أنك خبير ضليع، لكنك لا تفعل شيئًا سوى تفسير الأمور على هواك. صحيح أنَّها حدثتني عنك كثيرًا، لكنني لم أفهم بصراحة ما الذي كانت تعنيه. يجب على المرء التعرف إليك بصورة شخصية ليفهم طبيعتك الحقيقية.
- ألهذا الحد أبدو شخصًا سيئًا في نظرك يا دكتورة؟
- لا أعلم إن كنت كذلك، لكن زوجتك قالت عنك: "إنَّه سريع الغضب، نافد الصبر، لكنه طيب القلب إلى أبعد الحدود"..
- أحقًا هذا ما أخبرتك به؟

لقد كان لسماعه مديح زوجته مفعول سحري، فقد تلاشى غضبه تمامًا. إنَّها خطة أتبعها بنجاح مع كل من حولي، من خلال البحث عن بُعدٍ من الطيبة مهما كان خفيًا في أعماقهم، وبناء الثقة بيننا اعتمادًا على ذلك البعد، لكنني أعترف بأنني أخفقت في اتباع هذه الخطة مع الفتاة التي كانت هنا قبل قليل.

- إن شئت الصدق، فهي محقة.. وقد رأيت ذلك بنفسك، فصحيح أنَّني سريع الغضب، لكن غضبي يتلاشى في لحظات، ويحل محله الندم.
- إذًا فأنت تحيل ما حولك إلى خراب وحطام، ثم تندم على ذلك. هل يفيد الندم في رأيك؟
- للأسف هذا ما أفعله، وحين أسترد السيطرة على نفسي، تكون الأضرار عصية على الإصلاح غالبًا.
- لكنك لم تبالغ إلى تلك الدرجة اليوم.
- لم تسمحي لي بحدوث ذلك، فقد خالفت توقعاتي. عادة ما يخشى الناس غضبي العنيف، فيتراجعون خطوة إلى الوراء، في تلك اللحظات بالذات أتحول إلى بركان حقيقي، لكنك واجهتني بشجاعة.
- إذًا فأنت لا ترغب في تراجع خصومك.
- بالطبع، فما الذي يعنيه التراجع بحق السماء؟
- لا أعلم، ربما يمكنك أن تخبرني أنت بذلك.
- إنَّه لا شيء سوى الخديعة، فأنت تتصرف عكس ما تفكر فيه، إنَّه الرياء بعينه. يظن الناس أنَّهم سيتمكنون من إقناعي، في الوقت الذي يتعيّن فيه عليهم مصارحتي بالحقيقة، إما أسود أو أبيض، فكيف لشخص مقتنع بموقفه أن يتراجع، إلا إن كان يخفي ما يستدعي الخوف من التصريح به؟ حينها يتراجع، لأنَّه بكل بساطة مجرد مخادع، لا أكثر.

يا له من منطق غريب! فحين يقابله الآخرون بالاحترام، ويأنفون من الردّ عليه بالمثل، فيما يصرخ ويهين من حوله، يفترض وجود خديعة وراء ذلك. إنَّها إحدى أغرب الأمسيات التي تمرّ علي منذ فترة طويلة.

من الغريب حقًا أن ترضي ثورة غضبي البعض أحيانًا! لكن لو لم تسبقه تلك الفتاة المجنونة، والتي نجحت في إثارة غضبي، لكنت تعاملت معه بطريقة مغايرة تمامًا، وحاولت أن أقابل جنونه بأسلوب لطيف هادئ، حينها كنت سأخسر فرصة

كسب ثقته. يبدو أنَّ السماء قررت الاستجابة لدعاء السيدة هوليا.

- إنَّها الجملة الوحيدة التي أتفق معك حولها، منذ لحظة دخولك هذا المكان، فأنا أيضًا أستاء من محاولة الناس مداهنتي. على المرء التعبير عما يشعر به دون مواربة أو لف ودوران.
- ها! يا عيني عليك.
- بالمناسبة، نحن لم نتعارف حتى الآن كما يجب، ما اسم حضرتك؟
- أصلان، أصلان ساك أوغلو.
- تشرفت بمعرفتك. لن أطيل عليك، ولكن زوجتك قد حدثتني بالفعل عنك كثيرًا، وأخبرتني أنَّها تخشى على صحتك، إن بقيت على هذه الحال. خاصة أنَّك تعاني من ارتفاع الضغط أثناء نوبات الغضب الشديد. لذا فقد أخبرتها أنَّ من يجب عليه المجيء إلى هنا هو زوجك. ألم تخبرك بذلك؟
- لقد تطرقت للأمر مواربة، لكنها لم تتمادَ في التصريح.
- إذًا اسمح لي أن أتمادى قليلًا بدلًا منها، وأطلب إليك تحديد موعد في أقرب فرصة ممكنة.
- موعد مع من؟
- ومع من تظن؟ بالطبع معي، هنا في المركز. وأريد أن أطلعك على حقيقة مهمة، فروّاد هذا المكان ليسوا المجانين، بل العقلاء؛ لأنَّ المجانين يهيمون على وجوههم في الطرقات كما تعلم. والأهم أننا لا يجب أن نترك بركانًا ينفث الحمم حوله، دون أن نقوم بمحاولة ضبطه قليلًا.

ترتسم على وجهه ابتسامة ساخرة، وهو يقلب كلماتي في رأسه برهةً، ثم ينظر إلى عيني مباشرة بتصميم واضح.

- حسنًا، لا أخفيك أنَّني كنت أفكر منذ زمن طويل في الذهاب إلى طبيب، ورغم أنَّني قد تأخرت في اتخاذ القرار، لكن الوصول متأخرًا خيرٌ من عدم الوصول أبدًا، أليس هذا ما يقال؟

يتنفّس نفسًا عميقًا.

- الشر أمرٌ يثقل كاهل المرء، وهو شعور لا يعرفه الطيبون.
- إنَّها المرة الثانية التي أتفق فيها معك على ما تقول. فالشر عبء ثقيل، ولن أجرؤ على نعت نفسي بالطيبة، بعد ما ارتكبته قبل قليل.
- تعنين تلك المسكينة التي طردتها، والتي طلبت أن يعيدوا إليها أجرة المعاينة؟ كنتِ على وشك رميها. من الواضح أنَّك لا تستقبلين المريض الذي لا يروق لك "خذ نقودك، واذهب إلى الجحيم".

أهكذا تبدو الأمور من الخارج؟ "خذ نقودك، واذهب إلى الجحيم"! ترى أهذا ما ظنه بقية المرضى أيضًا؟ طبيبة تطرد من لا يروق لها، بعد أن تعيد إليه أجرة المعاينة، والمصيبة أنَّها طبيبة نفسية، يا إلهي! أنا لست بهذا السوء، ولم أكن يومًا كذلك. لقد تآمر هذا اليوم عليّ ببراعة كي يظهرني عكس ما أنا عليه في عيون الآخرين.

- لا يبدو أنَّك أفضل حالًا مني، ولا أخفيك أنَّ آخر ما كنت أتوقعه هو مصادفة طبيب نفسي يماثلني في الطباع.

ينهض من مقعده، بعد أن ينهي كلامه، وفجأة يلمح المسابح الموجودة في الطبق المزخرف وسط طاولة الاجتماعات، فيتجه إلى الطاولة لمعاينة المسابح عن قرب.

- تهوين جمع المسابح على ما يبدو؟

حينها ينتبه إلى المسبحة التي أشد عليها في كفي التي أفتحها، وأقرب المسبحة منه.

- هواية قديمة، لكني حين رأيتك تقلب المسبحة بين أصابعك في القاعة بعصبية، أطبقت كفي عليها، كي لا أنافسك على الحركة ذاتها.
- لا بد أنّك كنت تسبحين حينها "يا صبور".. لم أكن أعلم أنَّ النساء لديهن هذا النوع من الاهتمامات.

- أنا لا أشبه من تعرف من النساء. فيطلق قهقهة صاخبة من القلب، وأجاريه في الضحك.

أستحضر ليلى زيلِلي أستاذتي في الجامعة رحمها الله، فقد كانت تحمل قلمًا في يدها على الدوام، وتخربش به على الأوراق الموضوعة أمامها طوال الوقت. كنت أتأمل جسدها الرشيق الذي تخفي انحناءاته البديعة في بدلات قطنية أنيقة، وشعرها الأشهب القصير المصفوف نحو الخلف، دون أن أدرك سرّ هذه الحركة الملازمة لها.

كنت حينها شابة متحمسة، لكن مع تقدمي في العمر الذي قضيت معظمه في الاستماع إلى الآخرين، بدأت يداي أيضًا تبحثان عن شيء تتمسكان به. حتى قام أحد مرضاي الذي كنت أكنّ له محبة بالغة، بإهدائي المسبحة التي في يده، وهو يعلق:

- تفضلي، حضرة الدكتورة، فالاستماع طوال الوقت إلى الآخرين ليس بالأمر الهيّن.

ومنذ ذلك اليوم لازمت المسبحة يدي كطقس لا غنى عنه، وكل من يعرفني يدرك هذا الأمر، وبالمقابل فهو يثير دهشة من يتعرف إليّ للمرة الأولى، فرؤية مسبحة في يد امرأة ليس بالأمر المألوف على ما يبدو.

- أعترف بأنّك لا تشبهين أيًّا من النساء اللواتي أعرف، ولم أكن لأتخيل سابقًا أنّني قد أسلّم زمام أمري لامرأة، لكن الحياة تفاجئنا على الدوام. رغم كل النوايا المغايرة التي حملتني إلى المجيء إلى هنا، ها أنا أوافق على تحديد موعد معك، ولكني أرغب في أن يكون في أقرب وقت ممكن، بما أنَّني قد اقتنعت بالفكرة، أرغب في اتخاذ ما يجب دون مماطلة. وأخبريهم في الخارج أن يعاملوني كما يجب.

- حسنًا، لك ما تريد. لن يحاول أحد منهم بعد الآن مهادنتك، بل سيقولون لك ما يجب أن يقال مهما كان قاسيًا.

- لا، ليس إلى هذا الحد. ويضحك.
- إذًا سيتعيّن عليك التعامل معهم باحترام، كي يقابلوك بالمثل. فعليك أن تتذكر أنهم يعملون معي.
- حسنًا، موافق.
- والآن سأحاول أن أحدد لك موعدًا في أقرب وقت ممكن، وستعطيك السكرتيرة جدول مواعيد أدوية السيدة هوليا. أرجو أن تبلغها تحياتي، وأخبرها أن تتصل بي إن واجهت مشكلة مع الدواء، فصحيح أنَّني لا أتلقى الاتصالات بشكل مباشر، لكنني أعاود الاتصال بالمرضى عند الحاجة.
- أشكرك جزيل الشكر، دكتورة.

نخرج معًا من الغرفة، فتنهض ديدم حال رؤيتنا، وأطلب إليها أن تحدد له أقرب موعد ممكن، وتطبع نسخة أخرى من جدول مواعيد أدوية زوجته. وخلال ثوان من بحثها على شاشة الحاسوب، تحدد الموعد القادم وتدونه على ورقة وتسلمها إليه مع الجدول. ينحني السيد أصلان قبل خروجه في احترام، ويشد على يدي في مصافحة قوية.

- سعيد بالتعرف إليك، دكتورة.
- وأنا كذلك، سيد أصلان.
- عن إذنك يا آنسة، وأرجو أن تبلغي السيدة تونا تحياتي.

تندهش ديدم من هذا التحول، وترد على تحيته بغبطة وهي ترمقني بطرف عينها. بعد انصرافه أتطلع حولي، المكان خال من المرضى، فيما ديدم واقفة في وضعية الاستعداد. ألاحظ لمعان شعرها البني المنسدل نحو كتفيها في انسيابية ناعمة، تحت أضواء السقف الدائرية.

- هل غادر بقية الأطباء؟
- الدكتور جنكيز، والدكتور محمد عاكف لديهما مرضى، أما البقية فقد غادروا.

- انزلي الآن واطلبي إلى تونا أن تصعد إلي، فهناك مرضى علينا الاتصال بهم.
- حسنًا، إلى اللقاء غدًا.
- مع السلامة.

أدخل غرفتي وأغلق الباب، وبدلًا من الارتماء على أحد المقاعد، أقف أمام النافذة مجددًا، وتغرق عيناي في عتمة مساء أنقرة. أرغب في الذهاب إلى المنزل في أسرع وقت ممكن، لكن لدي اجتماع بعد قليل.

يرن الهاتف، إذًا فقد عادت تونا إلى مكانها! تردّ علي بصوت كسير، وتبدأ الاتصال بالمرضى الذين طلبوا التحدث إلي اليوم، وتحويلهم إلى هاتفي. بعد الانتهاء من هذا الإجراء اليومي، أعاود الاتصال بها وأطلب إليها المجيء إلى الغرفة. وما إن تدخل حتى أنهض من مكاني وأحتضنها، فتبادلني الاحتضان، ثم نجلس متقابلتين، وأروي لها كل ما حدث، وسط ضحكاتها على غرابة ما تسمع، وأكثر ما يروقها في الأمر، هو طلب السيد أصلان إبلاغها تحياته.

يدخل حسن ابني، وهو يحمل في يده العديد من الملفات، ويلحق به بقية الاختصاصيّين النفسيين، يبدو أنَّ أحداث الطابق الرابع قد انتشرت سريعًا، فالكل يرغب في معرفة ما حدث بالتفصيل. لا تضيع تونا هذه الفرصة من يدها، وتبدأ بسرد الوقائع بكل التفاصيل مع بعض الزيادات هنا وهناك، لكن دون أيّ نقصان. يجلس حسن موليًا ظهره للنافذة، ويستمع إلى تونا، فيما يرمقني بين الحين والآخر، وابتسامته الدائمة على وجهه، وحين يلحظ أنَّ الجلسة طالت أكثر مما يجب، يشير إلى ساعته وهو ينظر إلي. إنَّه كوالده، يتململ على الفور حين تطول الأحاديث.

لقد جاء إلى هذا العالم في نهار حزيراني شديد الحرارة، مع لبدة شعر فاحمة السواد وعينين زرقاوين. وبالنسبة إلى وليد حديث كانت كثافة شعره ورموشه الطويلة السوداء مدعاة دهشة الجميع. لا يزال شعره بالسواد ذاته، لكن زرقة عينيه بدأت تتحول إلى السواد بعد عامه الثاني. وقد غدا الآن شابًا وسيمًا، وئيد الخُطا،

قليل الحديث، بارعًا في إخفاء أعماقه مهما اتسمت الأحاديث من حوله بالانفتاح. أتساءل دومًا، كيف لشخص شحيح الحديث، يعتمد في علاقته مع الآخرين على لغة الجسد والنظرات أكثر من الكلمات، أن ينجح في بناء علاقات وطيدة مع كل من حوله؟ إنَّه أحد الأمور التي لم أتمكن أنا وكل من يعرفه من تفسيرها. صحيح أنَّه المدير العام للمركز، لكن بقية زملائه الأكبر سنًا، يكنون له محبة عارمة، ولا يتورعون عن قرص وجنتيه وتقبيلهما، وتونا هي أكثر من يفعل ذلك، وهو يناديها بالسيدة تونا أمام البقية، لكنه يناديها بالخالة في اللقاءات الخاصة التي تجمعنا معًا. ورغم عدم امتلاكه العديد من الأصدقاء على طبعه الهادئ والمنطوي إلى حدّ ما، لكن زمر الأصدقاء الذين جاؤوا لزيارتنا، لتقديم واجب العزاء بوفاة والده، أثارت دهشتي بالفعل.

مع هذه الإشارة البسيطة من يده، نجلس كلنا حول طاولة الاجتماعات، فهناك العديد من المواضيع التي يجب مناقشتها، والقرارات التي تنتظر اتخاذها. وحده الله يعلم متى سينتهي هذا الاجتماع، ومن المؤكد أني سأعود إلى البيت متأخرة اليوم أيضًا. لو كان آيدِن بيننا، لعلّق قائلًا: "ولمَ لم تقضي الليلة هناك؟"

لكنه لم يعد هنا.

الفصل الثاني

أقود السيارة على مهل على الطريق المنحدر الذي لا يزال زلقًا، رغم أنَّ الطرقات كلها قد فرشت بطبقة من الملح الخشن. فبعد أن ذابت الثلوج، استحالت الطرق إلى برك من الوحل اللزج، الذي يلطخ كل شيء، ويتعيّن عليّ تشغيل ماسحات النوافذ بين الحين والآخر لتنظيفها.

أخيرًا وبعد عناء، أصل إلى المركز، يستقبلني سائقي آيدِن عند الباب، فقد بات يعرف الوقت الذي أصل فيه كل صباح، لذا أجده يقف دومًا أمام الباب في انتظاري. تربطني به علاقة ودية تمازجها الرأفة والمحبة، وإن لاحظ أنَّي متكدرة أحيانًا، يحاول جهده التخفيف عني، فهو يرغب في حمايتي من شرور العالم كافة إن استطاع، وهذه المشاعر النقية التي تربطني بمن حولي، تمدني بقوة كبيرة، وطاقة إيجابية. ما إن أفتح باب السيارة، حتى يمد يده نحوي كي أنزل دون تعثر. هو أيضًا سَمِيُّ زوجي، آيدِن، ليس هو فقط، بل هناك طبيبان في المركز يحملان الاسم ذاته. إلا أنَّ أحبَّ من يحمل هذا الاسم إلى قلبي هو آيدِن الصغير، حفيدي من ابنتي ياغمور. ولكن كل من يحمل هذا الاسم له منزلة خاصة في قلبي.

أكاد أسير على أطراف أصابعي، وأنا أدخل المركز. آه! الجو في الداخل دافئ، يذكرني بالربيع الذي بات على الأبواب مع نهاية آذار، لكن الشتاء يأبى مفارقتنا هذه السنة. يسرع نبي نحوي من خلف طاولة الاستقبال، ويفتح لي باب المصعد، نتبادل التحية، وأسأله عن حاله على عجالة. يقف المصعد في الطابق الرابع، تونا جالسة خلف طاولتها، وكعادتها مشغولة بالرد على أحد الهاتفين أمامها، تومئ برأسها مبتسمة حين تراني. باقات الورد تزين زوايا القاعة كافة. سابقًا كان من الصعب

العثور على أزهار في هذا الوقت من السنة، لكنها الآن وككل شيء آخر، لم يعد لها موسم نتشوق إلى رؤيتها فيه.

أخلع المعطف حين دخولي الغرفة، وأجلس إلى طاولتي، وأشغل الحاسوب، فيما أتصل بالكافيتريا ليحضروا لي فنجان القهوة. كالعادة، الفوضى تغطي الطاولة، والأشياء تتكدس عليها، رغم أنَّ هذه الفوضى تجعل العثور على ما يجب غاية في الصعوبة، ولكن هذا حال طاولتي معظم الأحيان، صورة ابنتي مع ولديها الصغيرين، سلاحفي الصغيرة المصنوعة من البرونز والمزدانة بحجارة زمردية، عدة شمعدانات مختلفة التصاميم، قلمي القديم الذي تزينه ريشة، صورة أتاتورك الموضوعة على حامل من الكريستال، مصباح طاولة من البرونز أيضًا، مقلمتي العتيقة التي تحوي العديد من الأقلام المختلفة، العلبة البرونزية التي أضع فيها بطاقاتي عادة، الأختام، الحاسوب، وسواها من الأشياء التي تكاد لا تترك لي فسحة للتحرك، وفيما أحاول ترتيب أماكنها أو وضع بعضها في الأدراج في عجالة، أقرأ جدول مواعيدي الذي يظهر على شاشة الحاسوب، يبدو يومًا متخمًا كالعادة.

تطل تونا برأسها من الباب.

- أهلًا بك دكتورة، كيف حالك اليوم؟
- بخير، وأنت؟
- شكرًا لك أنا بخير، لكن الطرقات كانت غارقة في الوحل، أرجو ألا تكوني قد تكبدتِ مشقة كبيرة في الوصول.
- لقد وصلت بأي حال.
- هل رأيت باقات الورود؟
- رأيتها، أهي من تلك الفتاة المجنونة ذاتها؟
- ومن غيرها؟! لقد أمطرت المركز طوال أيام بباقات الورد، وكأنّ هذا لا يكفي، فهي تتصل في اليوم عشرات المرات، إنها المرة الخامسة التي تتصل فيها هذا الصباح. ما الذي سنفعله مع هذه الفتاة؟

- ما الذي تريده؟
- لقد حاولنا إعادة أجرة المعاينة لها كما طلبتِ إلينا ذلك اليوم، لكنها لم توافق على استعادة نقودها رغم إصرار قسم المحاسبة، وفي كل اتصال جديد تعتذر مرات ومرات، وتطلب أن نحدد لها موعدًا معك.
- تريد موعدًا؟
- تكاد تتوسل من أجل الحصول عليه، لم أحدد لها موعدًا بعد، لكني أخشى أننا لن نتمكن من التخلص منها بسهولة، فهي تقول إنها قادرة على المجيء إلى هنا حتى دون موعد.
- وكيف ستفعل ذلك؟
- تقول إنها ستأتي منذ الصباح، ولن تمانع الجلوس حتى المساء، ولن تبرح مكانها ما لم نقم بحملها وإخراجها من المركز عنوة.
- حقًا؟
- جدول المواعيد مليء، وقد أخبرتها أنّ أقرب موعد يمكنها الحصول عليه، لن يكون قبل شهر، ولكنها تأبى أن تفهم. من الواضح أنها تعمدت رفض استعادة نقودها، وهي تتصل كل عشر دقائق طالبة التحدث إليك لكي تعتذر مرة أخرى.
- أخبريها أنني قبلت اعتذارها، ولا داعي لكلامها. وإن وافقت، فحدّدي لها موعدًا مع الاختصاصيّة النفسية صليحة.
- لم توافق، لقد عرضت عليها الفكرة، وأخبرتها بأنّ لدينا العديد من الأطباء والاختصاصيين النفسيين، ويمكن أن تحدد معهم موعدًا أقرب، لكنها مصرة على مقابلتك. صحيح، هل شربت قهوتك؟
- ليس بعد، لكني اتصلت بالكافيتريا، وطلبت إليهم تحضيرها.
- صحيح، وهناك السيد أصلان.
- ما به هو الآخر؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لقد اتصلت زوجته قبل قليل، وطلبت إليّ أن أبلغك تحياتها، وشكرها العميق.
- إذًا فقد اتصلت! ولكننا لم نقم بأي خطوة عملية حتى الآن، مع أنني أرجو بالفعل أن نتمكن من مدّ يد العون لها ولأطفالها.
- اليوم موعد زوجها كما تعلمين، وقد اتصلت لهذا السبب. فالمسكينة ترجتني أن أبلغك بمحاولة إقناعه بالعلاج، فهي تخشى أن يغير رأيه في أيّ لحظة، ويلغي الفكرة.
- سأبذل كل ما بوسعي، فلتكن مطمئنة.

في هذه اللحظة تدخل نيفين مع فنجان القهوة، التي تعبق رائحتها المنعشة في أرجاء الغرفة كافة. حتى قبل أن ارتشف أولى رشفاتي من الفنجان، فرائحتها كفيلة بأن تحسن مزاجي. الآن فقط أشعر بأنّي قادرة على البدء بيومي بشكل أفضل.

لدي مواعيد كثيرة اليوم، وعلي البدء على الفور، فالمماطلة في استقبال المرضى، ستطيل مدة انتظارهم، وهو الأمر الذي يزعجني على الدوام. أستند بظهري إلى الكرسي وأتنفّس نفسًا عميقًا وأنا مغمضة العينين، وأفكر في زرقة البحر الرائعة في ديدم، والأمواج الزمردية الصغيرة التي تتكسر على الرمال في إيقاع هادئ. علي التخلص من ضوضاء هذا العالم وكل المظاهر التي تشوش ذهني، والانتقال إلى حالة من السلام، كي أستمع إلى مرضاي في تركيز تام. حسنًا، أنا جاهزة الآن لاستقبال أول المرضى.

يدخل الغرفة شاب عشريني، وسيم، ملامحه محببة ومتناسقة، إنها المرة الأولى التي يزورني فيها، لذا يبدو عليه بعض الخجل ممزوجًا بالفضول، وهو يرمقني بنظرات مترددة. أنهض من الكرسي مبتسمة وأصافحه، فيبادلني التحية مع انحناءة احترام خفيفة. أشير إليه بالجلوس على إحدى الأرائك قبالة الطاولة، فينتظر جلوسي ثم يستقر في مكانه، يبدو شابًا مهذبًا حسن التربية، لكنه قليل الخبرة، فمن الواضح أنّها المرة الأولى التي يزور فيها طبيبًا نفسيًا. أنظر إلى شاشة

الحاسوب وأرى أنّ اسمه علي، لكن اسم العائلة يبدو مألوفًا لي بطريقة ما، وقبل أن أتحدث يصلني صوته الرقيق:

- والدي على فراش الموت، لا بد أنك تعرفينه، فقد جاء لزيارتك كثيرًا في السابق.

إذًا فلم أكن مخطئة، هذا الشاب هو ابن السيد ممدوح، الذي كانت أولى زياراته للعيادة منذ ما يقارب الست سنوات، كان قد افترق عن زوجته حينها. لم يكن قد اختبر الوحدة من قبل، لأنَّه تزوج مبكّرًا جدًا، كان رجلًا ودودًا خجولًا، ومنطويًا على نفسه بعض الشيء، كما أذكر أنَّه كان شديد النحول والحساسية. اعتاد الوقوف دائمًا في الخطوط الخلفية، متجنبًا كلّ أنواع المواجهات في الحياة، محتميًا بعائلته ثم زوجته، وحين انقلبت عليه الأمور، وجد عزاءه في الكحول. ورغم عدم رغبته في الطلاق، لم يظهر أدنى اعتراض على طلب زوجته، ولم يحاول التمسك بها، بل وافق على مضض، ليظل وحيدًا في مواجهة كل شيء. واستمر في زيارتي عامًا كاملًا، وحدثني عن المحبة العظيمة التي يكنها لولديه الاثنين، والتي يعجز عن التعبير عنها بوضوح، ليس لهما فقط، بل هو يعجز عن التعبير عن مشاعره الحقيقة والإفصاح عما يريده دومًا. الابن الأكبر لم يظهر أدنى اهتمام به، لكن الصغير كان يواظب على زيارته، ويحاول أن يساعده قدر المستطاع، فقد انقلبت الأدوار بينهما وحل الابن محل الأب.

مع مرور الوقت اعتاد العيش وحيدًا في منزله الجديد، أخبرني بأنه منزل صغير بسيط، لكنه ملجأ آمن للابتعاد عن الآخرين ما أمكن. لا يخرج منه إلا عند الضرورة، وخاصة في نهاية كل أسبوع حيث يزوره ابنه الأصغر، فيخرج للتسوّق وشراء ما يلزم من طعام، وقد أخبرني أنَّه يطبخ لابنه، وقد برع في إعداد المعكرونة لأنَّ ابنه يحبها. لديه مهنة محترمة، لكن الشهادات التي حصل عليها من دراسته في الخارج لم تشفع له، فهو يفتقر إلى القدرات اللازمة لمواجهة الحياة كالبقية، والإرادة القوية لنيل ما يرغب فيه، وهذا ما جعل الهزيمة من نصيبه على الدوام.

ولإدراكه هذه الحقيقة، كان دائم الخجل، يحاول الهرب ليس من الآخرين، بقدر ما يحاول الهرب من نفسه. وأكثر من كان يشعر إزاءه بالخجل هو ابنه الأصغر، فرغم أنه يتشوق إلى زياراته الأسبوعية، لكنه لا يعرف كيفية التعامل معه. كما كان يسعى جاهدًا لإخفاء كل زجاجات الكحول الذي أدمن عليه، حتى لا يراها ابنه. كان ينتظر الموت بشوق عارم، ويأبى الانتحار حتى لا يسيء إلى ولديه من بعده، لكنه أخبرني بأنّه يدعو الله دومًا أن ينهي وقته العابر في هذا العالم القاسي. كان أحد أولئك الذين أغرقهم اليأس في ظلمات من الصعب أن يخرجوا منها.

أعتقد أنَّه في هذه الغرفة، بدأ الإفصاح لأول مرة عن حقيقة مشاعره، وكشف عن هوية ذلك الرجل الذي يكرهه، ويشعر بالعار منه، والذي لم يكن أحدًا آخر سوى نفسه. كان يتحدث بصوته الكسير، ويكيل الاتهامات المتتالية لنفسه، ويلعن اليوم الذي جاء فيه إلى هذا العالم، وكأنه بالبوح صراحة، سيتخلص من هذه المشاعر التي يرزح تحت ثقلها. كان ينتظر مني الحماية، وفي الوقت ذاته يتوقع مني أن أكيل الاتهامات له وأهينه، ولم يكن يطيق أن يسمع عن نفسه أدنى ملاحظة إيجابية. مع نهاية عام من العلاج، خفت حدة مشاعر اللوم والذنب التي تثقل كاهله نوعًا مّا، كما ساعدته الأدوية التي وافق على تناولها على مضض، وقلل كمية الكحول التي يشربها مقابل زيادة ساعات المطالعة، فقد ساعدته الكتب أكثر من أيّ علاج آخر، إذ مكنته من أن ينسى نفسه، ويغرق في عوالم الأدب والفن والعلم. حتى إنَّه قام بإجراء بعض الأبحاث في مجال دراسته، وكتب مقالًا اختصاصيًا نشرته إحدى أهم المجلات الأمريكية العلمية، وكانت آخر مكالمة بيننا منذ عامين، عندما أرسل إليّ نسخة من تلك المجلة. وحين اتصلت به لكي أهنئه، بدا صوته بخير، وقد صرّح لي قائلًا:

- بدأت بكتابة ما لم أصارح أحدًا به، حتى أنت.

فما الذي حدث له يا ترى؟

وقبل أن أهمّ بالسؤال، بدأ علي بصوته الكسير كصوت والده، يروي لي ما حدث. بدأت شكواه العام المنصرم، لكنه رفض الذهاب إلى الطبيب، ولم يتمكن

علي رغم إصراره الشديد من إقناعه، حتى جاء اليوم الذي لاحظ فيه أنَّ والده لم يعد قادرًا على النهوض من فراشه، فاتصل بالإسعاف، وقد أخبره الطبيب أنَّ والده مصاب بالسرطان، مستغربًا من تحمله الآلام كل هذا الوقت، وعدم ذهابه إلى الطبيب حتى الآن، حينها فقط ابتسم ممدوح.

وهو الآن يرقد في قسم العناية المشددة، وقد أعطى ابنه بطاقتي، وتوسل إليه قائلًا:

- أرجوك اذهب إليها، هذا آخر ما أطلبه إليك.

وقد قام الابن بتحديد موعد عاجل معي، وجاء دون تردد. أسأله عن أخيه الأكبر فيخبرني أنَّه مقيم في أمريكا، وكعادته لم يول الأمر أهمية، وقد تزوجت والدته وانتقلت للعيش في إسطنبول، أما هو فقد آثر الدراسة في إحدى جامعات أنقرة، كي لا يترك والده وحده. وها هو يثقل روحه الشابة، ويتهم نفسه بالتقصير.

- لم أتمكن من إقناعه بالذهاب إلى الطبيب حين بدأ مرضه.. لم أستطع مساعدته كما يجب.

آه يا ممدوح! أشفق عليه في أعماقي، وأدرك أنَّه حتى وإن لم يفصح عن ذلك لأحد، لكنه ينتظر الموت بشوق كبير، ويتلهف لقدوم اللحظة التي سيغادر فيها هذا العالم. إذًا فقد ابتسم حين سأل الطبيب عن السبب الذي منعه من طلب العلاج حتى الآن! أيّ ألم هذا الذي يدفع المرء إلى الابتسام مع اقتراب الموت، ومغادرة الحياة؟ ربما لن أتمكن من إدراك عمق هذا الألم، لكن ما أدركه يقينًا، أنَّه يرغب في إبعاد مشاعر الحزن والذنب عن ابنه، فهو لن يذهب إلى الموت- الذي ينتظره كل هذا الوقت ويتشوق إلى لقائه، كمن يتشوق إلى لقاء حبيب غائب- قانعًا سعيدًا، وهو يدرك أنَّ عليًّا سيشعر بالحزن على فراقه. أشعر بوخزة ألم في مكان من روحي، وأنظر إلى الشاب الجالس قبالتي في هدوء. أخبرني والده أنّه يناديه علوش، وحين أخاطبه بهذا اللقب، يلتفت نحوي بعينين مغرورقتين، فأعجز عن كبت دموعي أيضًا. نتبادل حديثًا هادئًا، مفعمًا بالصراحة والصدق، ويكاد لا يبعد عينيه عني طوال الجلسة.

وحين يهمّ بالنهوض، أطلب إليه التريث لبضع دقائق، لأني راغبة في كتابة رسالة إلى والده. تروقه الفكرة، فيراقبني في نظرات حزينة يمازجها الفضول. أخرج إحدى أوراق الرسائل على عجل من درج الطاولة، ورغم أنّي لا أعرف ماذا علي أن أكتب لرجل على فراش الموت، لكني أترك الكلمات تنساب من أعماقي دون قيود، وأدونها بسرعة.

عزيزي ممدوح،

طوال عام كامل لزيارتك لي، لم أر الابتسامة ترتسم على وجهك، وها أنا أعرف الآن أنك استقبلت الخبر بابتسامة.. لطالما أخبرتني أنك لم تتمكن من العيش رجلًا، لكنك ترغب في الموت رجلًا.. ورغم أنّك ستزرع الحزن في قلوب أحبتك في هذا العالم، إلا أنّك تبدو مصممًا على التمسك بقرارك.. أعدك أنّي سأتحدث في واحد من كتبي عن هذا الرجل الخجول والودود، ومرهف المشاعر أيضًا.

وحتى إن لم تكن راغبًا، لكن القراء سيحبونك بكل تأكيد، كما هو حال علوش.. كنتَ تخشى دومًا أن يشبهك علوش، لا أنكر أنّه ينافسك الوسامة ورهافة المشاعر، إلا أنّ مخالبه أكثر قوة وصلابة، سيعرف كيف يتمسك بالحياة بكل قوة، ولن ينسى والده الذي يكن له محبة عظيمة، وحتى اليوم الذي ستحلق فيه بعيدًا عن عالمنا، سأظل إلى جوار علوش.. مغادرة هذا العالم مبتسمًا، شجاعة لعلك الوحيد الذي يتمتع بها، ولا يمكنني إلّا احترامها.

مع محبتي.

د. غولسران

تعتمل داخلي مشاعر قوية مع كل كلمة أدونها، وفي مكان ما أشعر بحزن عميق جدًا، ينساب من عيني رغمًا عني، حين أرفع رأسي تلتقي عيوننا التي يغشاها الدمع، أعطيه الرسالة بعد أن أضعها في ظرف.

– أرجو أن تقرأ الرسالة له.

يضع الرسالة في جيبه بحرص بالغ، وينحني انحناءته المهذبة مجددًا، وهو يصافحني مودعًا.

- ألا ترغب في تحديد موعد آخر؟
- ليس الآن، ولكنني سأعاود المجيء بكل تأكيد.

أعي ما يقوله، فهو سيأتي بعد أن يغادر والده.

ما إن يغادر الغرفة، حتى أغلق الباب وأستند إليه بظهري، وأبقى برهةً دون حراك. يلفني الحزن كبحر لا قرار له، وأتخيل وجه ممدوح النحيل، وهو راقد مغمض العينين، وأعلم تمامًا أنَّه لا يرغب في فتحهما ورؤية هذا العالم مجددًا، وهذا ما لن يحدث على ما يبدو، لأنَّ عينيه ترنوان إلى مكان آخر.

عليّ أن أتمالك نفسي قبل استقبال مريض آخر، ولكن كيف؟ أتجه إلى طاولتي وأرتشف من فنجان القهوة الذي لا يزال نصفه مليئًا، وقد أصبحت باردة تمامًا. لا أستلذ بطعمها مطلقًا، فالقهوة تُشرب بمزاج رائق، لا في لحظات يفقدنا فيها الكدر مذاق كل شيء. تلفت السلاحف البرونزية الصغيرة المدورة انتباهي، فأحمل كل واحدة منها، وأتفحصها بعناية وأنا أقلبها في كل الجهات، ثم تجول نظراتي على الطاولة التي اصطفت عليها الأشياء في مكانها المعتاد، لكنها لن تبقى كذلك حتى نهاية اليوم بكل تأكيد. حتى في المنزل حين أستقر في ركن ما، لابد أن تغمره الفوضى. وغالبًا ما ينتهي الحال بالكتب التي أقرؤها، إلى صفحات تحتشد فيها الخربشة والملاحظات، حتى تكاد تطغى على السطور. لكني بالمقابل أكره الفوضى طويلة الأمد، فكما أنَّني بارعة في خلق الفوضى، فأنا بارعة في إزالتها أيضًا.

أشعر بأني أصبحت أفضل حالًا، ومستعدة لاستقبال مريض جديد. أضغط زر الهاتف، وأقول لتونا:

- فليدخل المريض الذي يليه من فضلك.
- حسنًا، لكن سأحضر باقات الورود أولًا.

تدخل حاملة ثلاث مزهريات مليئة بمختلف ألوان الورود، وتوزعها في تناسق في أركان الغرفة، ثم تواصل الدخول محملة بباقات الورود إزاء دهشتي مما يجري، لكن آخر باقة تحملها كانت من الضخامة، بحيث لا تتسع لها أيّ مزهرية. تخبرني أنَّها من السيد أصلان، الذي أشعر نحوه رغم كل شيء بالألفة، فلديه جانب إيجابي رغم غضبه العاصف. لنرَ اليوم ما الذي سيخبرني به. قبل خروجها، تعلمني تونا أنَّ المريض القادم هو السيد أصلان، وأنَّ المشكلة التي بين الاثنين قد انتهت، لأنَّ السيد أصلان أرسل إليها أيضًا باقة ورود ضخمة كالتي أرسلها إليّ.

بعد لحظات قصيرة يدخل الغرفة بابتسامة لطيفة، لا تخفي - رغم محاولته - القلق المرتسم في عينيه. يرتدي طقمًا رماديًا فاتح اللون، وياقة قميصه البيضاء مفتوحة من الأعلى قليلًا، لعدم ارتدائه ربطة عنق. شعره الذي خط الشيب أكثر ما يكون صدغيه، ممشط بعناية نحو الخلف. مظهره مهيب وأنيق جدًا، وكأن اسمه[1] قد انعكس على هيئته، وأكسبها شيئًا من صفاته. ألا يقال إنَّ لكل امرئ من اسمه نصيب!

تفوح رائحة عطره القوية والتي تبعث الراحة في النفس، وتملأ الغرفة كلها. يصافحني بقوة، ثم يختار الجلوس على أقرب الأرائك إلى الباب. وحبات مسبحة الكهرمان التي لا تفارق يده، تنساب بين أصابعه. يسألني بلباقة عن حالي قبل أن أبادره السؤال، تعلو نبرته أحيانًا وهو يتحدث، في محاولته التغطية على البحة التي تشي صوته الثخين نتيجة سنوات التدخين الطويلة.

يسألني مستغربًا كيف يمكنني الاستماع إلى كل هؤلاء الناس حتى المساء، ومن أين أستمد الصبر لذلك، فأفسر له الأمر مع ابتسامة خفيفة. من الواضح أنَّه يتعمد مواصلة الحديث في شتى المواضع، لعدم رغبته في تلقي أسئلتي، أو لخشيته منها. حسنًا، سألتزم المسار الذي يضعه، ولن أطرح أيّ سؤال. حتى إنني لا أسأله إن كان راغبًا في شرب شيء، بل أتصل بالكافيتريا وأطلب لنفسي كأسًا من الشاي،

(1) الأصلان بالتركية يعني الأسد. م.المترجم -

وأسأله بإشارة من يدي أكثر مما بصوتي عما يرغب، فيطلب كأسًا من الشاي دون سكر، وفي فنجان خزفي، لا في كأس. أنحني إلى الأمام قليلًا مستندة بكوعيّ إلى الطاولة، وأسند ذقني إلى يدي المتشابكتين، وأحدق إلى وجهه برهة من الوقت، فيتوقف عن الكلام. أنتظر بفضول سماع ما سيعترف به هذا الرجل القوي الشكيمة، وفي نظراتي تسامح عميق وتفهم لكل ما يمكن أن يقال بين جدران هذه الغرفة.

يكاد يرمي المسبحة من يده على الطاولة الموضوعة أمامه، ويتنفّس نفسًا عميقًا. ويتلفت حوله لوهلة وكأنّه يتذكر مجددًا أين هو الآن، ثم يحني رأسه قليلًا نحو الأمام، مركزًا بصره على يديه اللتين يضعهما على ركبتيه، ويبدأ البوح. يحدثني عن وفاة والدته المبكر، ثم سنوات طفولته التي قضاها مع زوجات الأب المتعددات، والإخوة غير الأشقاء، والظلم الذي تعرض له، وحرمانه من الكثير من حقوقه، واضطراره إلى اتخاذ موقف دفاعي منذ طفولته المبكرة، لأنَّه لم يجد من يدافع عنه ويحميه سوى نفسه فقط. عانى الكثير، وواجه العديد من التحديات في سبيل دخول الجامعة وإتمام دراسته. أخيرًا وبعد التنقل بين عدة وظائف، استقر في الشركة التي يعمل فيها حاليًا، وقد استطاع كسب ثقة مديريه بسبب كفاءته واستقامته، وتفانيه في العمل، وهو الآن يحتل مكانة مرموقة جدًا في الشركة. لم يحاول يومًا أن يهين من يعملون تحت إمرته، وهو حريص على أن يعامل مديريه بالاحترام الواجب، لكن الأهم من كل ذلك أنه استمر في العمل بتفان. حدثني عن اضطراره في البدايات، للتنقل بين معظم مناطق البلاد بسبب طبيعة عمله، وقضاء الكثير من الليالي في فنادق سيئة، لأنَّه لم يكن راغبًا في تبديد نقوده. وحين تمكن من جمع المال، لم ينفقه على نفسه، بل خصصه لمساعدة ودعم من حوله.

تزوج بعد علاقة من الحب المتبادل مع زوجته، ويقول إنّه لا يزال يحبها كما في السابق، وخلا مغامرتين عابرتين، لم يقم بخيانتها، ولم يسهر مع أخريات في الملاهي حتى الصباح كما يفعل الآخرون. قد يوحي مظهره للوهلة الأولى بأنّه لا يفوت أمسية دون كأس من الشراب، ولكنه يقول إنه لا يميل إلى شرب الكحول،

وبالمقابل فهو يدخن بشراهة. لديه ابنان، فارق السن بينهما ثلاث سنوات. يعترف بأنّ زوجته كانت المسؤولة عن تربيتهما في فترة الطفولة، لكنه الآن يحاول أن يهتم بهما ويشرف على تربيتهما بنفسه؛ إلا أنَّ جهوده الحثيثة لم تثمر في جعل الولدين ينشأان كما يرغب. ورغم أنَّه يعامل زملاءه والعاملين معه معاملة الأخ والأب غالبًا، لكن من الواضح أنَّه أخفق من هذه الناحية في حياته الخاصة، لأنَّ علاقته مع ابنيه وزوجته مأزومة إلى حد كبير. فهو معتاد أن يعامل كل من حوله، عدا محيط العمل، بقسوة وصرامة، يثور لأبسط الأسباب، ويخلق مشاجرات صاخبة، تنتهي بأضرار معنوية، تحفر في وجدانه ندوبًا عميقة من الندم.

- أريد من الولدين إطاعتي في كل شيء دون اعتراض، فأنا والدهما، وأفضّلهما على نفسي، وكل ما أفعله هو لصالحهما، وإن أمرتهما بأي شيء، فهو بالتأكيد لما فيه خيرهما.

أستمع إليه دون مقاطعة، وقد أحضرت نيفين الشاي منذ برهة، وبين رشفات الشاي يواصل الحديث، وأواصل الاستماع. لا يستهويني شرب الشاب في فنجان خزفي، بل أحب شربه في كأس شفيف، نحيل الخصر، للتمتع بمنظره الرائق ولونه القاني. وفي حين أنَّه يشرب شايه دون سكر، أضع في كأسي الصغيرة مكعبين منه. وكلما حركت كأسي، ألوم زوجي لأنَّه من عودني على شرب الشاي شديد الحلاوة. يراقبني مبتسمًا، ولا يفوت الأمر دون تعليق.

- هذه حال الأطباء كافة، على المرء التقيد بتوجيهاتهم، لا بأفعالهم.
- معك حق، ولكن حتى التقيد بتوجيهاتنا أمر فيه جدل كبير.
- بالطبع، فلا يمكن تنفيذ كل ما تقولونه.

عاد إلى دماثته السابقة، فما الذي سبب تكدره في البداية؟ هل كان يخشى أن أزعجه بمحاضرة طويلة من النصائح والإرشادات؟ في الحقيقة كان هذا الأسلوب متبعًا في السابق، فقد اعتاد معظم الأطباء النفسيين إرهاق المرضى بعظات طويلة، والتي كانت في معظم الأحيان لا تنجح سوى في دفعهم إلى التكتم، أو النفور من

الطبيب. لكني أميل إلى تجنب الأمر قدر المستطاع. فمن منّا يستمع إلى النصائح، حتى يستمع إليها مريض يزور طبيبًا نفسيًا؟ علينا أن نخبرهم بما هو مغاير لما يسمعونه من الآباء والأمهات، والخالات، والإخوة، والزوجات. أن ندلهم على تلك الجوانب التي يجهلونها في شخصياتهم، وأن نحمل لهم سراجًا، ليسيروا على درب العلاج بخطواتهم وكلماتهم الخاصة.

حسنًا، أظن أنَّ الوقت بات مناسبًا لأستلم زمام الحديث رويدًا رويدًا.

- ومن منا قادر على تنفيذ كل ما يطلبه الآخرون، حتى تفعل أنت ذلك؟ لكن اللافت أنَّك تطالب ابنيك بهذه الطاعة المطلقة، فيما تتبنى موقفًا مغايرًا حين يتعلق الأمر بك. أريدك أن تعرف أنَّي لست قاضيًا، ولا أطلق الأحكام على أحد. كل ما أفعله أنَّي أسأل عن السبب، وهو سؤال لا أطرحه عليك، بل على نفسي. لماذا؟ لماذا يفعل السيد أصلان أمرًا كهذا؟ لمَ يمنع ولديه من استخدام عقليهما؟

يتردد لوهلة وهو ينظر إليّ حائرًا، وقد أحالت الأوردة البارزة بياض عينيه إلى الوردي، ثم تتخلل حيرته نبرة من الغضب، وهو يحاول أن يبرر موقفه.

- لقد أسأت فهمي، لا يجب عليهما استخدام عقليهما معي، بل مع الآخرين، في الشارع، في الخارج. فالخطر ليس في المنزل، بل يتربص بهما هناك، خارج حدوده.

- لكن أكثر من يؤثر فيهما، ويحدد معالم شخصيتيهما، ليس أولئك الذين في الخارج، بل أنت.. أنت رمز السلطة بالنسبة إليهما، فإما أن يخضعا لهذه السلطة، ويعتادا الانحناء، دون التعبير عن أفكارهما بحرية، ودون التمتع بالاستقلالية في مواقفهما، وإما أن يرفضا هذه السلطة ويعصياها، ولا ثالث لهذين الاحتمالين.

يفكر فيما أقوله، وقد شبك يديه مستندًا بكوعيه إلى ساقيه، في انحناءة خفيفة نحو الأمام. يسرح بنظراته بعيدًا، لكن المرجح أنَّه يعي ما أريد قوله. لا جدال في

طيبة قلبه وصدق نواياه، فهو يريد أن ينشئ ولديه بأفضل ما يكون. خاصة أنَّه عانى من الحرمان العاطفي في طفولته، التي قضاها يغبط بقية الأطفال الذين يعيشون في كنف أبوين يهتمان لأمرهم، على خلاف والده الذي لم يوله أدنى اهتمام. وهو راغب في أن يعوض هذا النقص في علاقته مع ولديه، لكن يبدو أنَّه أخفق، فهو يقسو عليهما طوال الوقت، رغم أنَّ تعامله يناقض حقيقة مشاعره، إلا أنَّه لا يعرف كيف يعبر عنها بطريقة صحيحة. فهو يحاول حمايتهما من شرور العالم، ولا يدري أنَّ الشر الأعظم يصيبهما على يديه. نتبادل حديثًا مطولًا حول هذا الأمر، وأقول له:

- أنت تشبه جهاز التحكم عن بعد، تريد التحكم بولديك عن بعد.

يقابل ذلك بالضحك، وأخيرًا ينفتح على الاعتراف، لأنَّه عثر على من يمكن أن يستمع إليه ويفهم ما يقوله. فيستطرد في الحديث، ويستمع إليه برغبة مماثلة.

- لا يمكن أن ننوب عن أبنائنا في التفكير، أو في النجاح، في السعادة أو الحزن، تمامًا كما أنَّنا لن ننوب عنهم في الموت.

يمسك بطرفي سترته ويشدهما، مستندًا بظهره إلى الأريكة، ويتلفت حوله، وكأنه يطلب العون من مكان أو شخص ما.

- لقد تمنيتَ دومًا أبًا مماثلًا، أليس كذلك؟

- أنا لم أعرف ما هو الأب، دكتورة، فبعد وفاة والدتي، انشغل أبي بحياته الجديدة ومتطلباتها، ولم يكن هناك من أعتمد عليه. بل كان عليّ الاهتمام بإخوتي الأصغر، وتولي مسؤولياتهم، رغم أنَّهم بعد أن غدوا رجالًا تناسوا كل ذلك. لكنها حال الحياة.

- أهكذا هو الأب المثالي في نظرك؟

- طبعًا، فهل من السوء أن يكون للمرء أب يفكر فيه أكثر ممّا يفكر هو في نفسه؟

قبل إظهار مكامن الخلل في هذه الفكرة، يجب عليّ أن أظهر ما فيها من نواح إيجابية، وأنَّ الفكرة بحد ذاتها لا تجعله شخصًا سيئًا. عليه أن يدرك أنَّ المرء الذي

يعجز عن التعامل مع نفسه بالتسامح والتقبل اللازمين، لن يستطيع أن يحتوي الآخرين بمحبة وتسامح، حتى وإن كانوا أبناءه. منذ اللقاء الأول، ورغم ما شابه في البداية، لكني رأيت فيه جانبًا عاطفيا يحاول أن يخفيه. والانطباع الأولي للطبيب عن المريض له دور بالغ الأهمية في رحلة العلاج، فدون وجود مشاعر من المحبة والقبول لا يكمن مدّ يد العون له. لذا أحاول مصارحته بكل شفافية، إزاء ما أشعر به تجاهه.

- أنا أرى بوضوح مدى محبتك الكبيرة لعائلتك، ورغبتك العارمة في حمايتهم ورعايتهم. كما أرى أيضًا تلك الطيبة التي تخفيها في أعماقك.
- أحاول عدم إظهارها أمام الآخرين، فالكل يراني كما رأيتني في لقائنا الأول، شخصًا قاسيًا صارمًا.
- لولا هذه السنوات الطويلة من العمل، فما كان لي أن ألاحظ ذلك. ولكن السؤال الذي يجب عليك أن تفكر فيه؛ من المسؤول عن هذا، أنت أم الآخرون؟ كيف لهم أن يدركوا الحقيقة؟ هل عليهم فتح صدرك ورؤية الحقيقة المخفية هناك؟
- معك حق، ولكن أليس من المفترض أن يعرف المرء حقيقة والده، أو تعرف الزوجة حقيقة زوجها بعد كل هذه السنوات؟
- زوجتك تعرفك حق المعرفة. أما بالنسبة إلى الولدين، فهل يمكن لك أن تدّعي بأنك تعرفهما كما يجب؟

ينظر نحوي مندهشًا، كملاكم تلقى لكمة لم يتوقعها مطلقًا، ثم يرفع نظراته نحو السقف، غارقًا في تفكير عميق. لا يحاول الإسراع في إجابة تبرر موقفه، ممّا يشير إلى أنه يحملني على محمل الجد. ثم يلجأ إلى مسبحته على الطاولة فيديرها عدة مرات بين أصابعه، قبل أن يلتفت نحوي ويبدأ الحديث.

- لا يزالان طفلين، ما الذي يمكن للمرء أن يعرفه عن طفلين في هذا العمر؟ هما بحاجة إلى من يوجههما نحو الطريق الصحيح، ليصبحا رجلين

حقيقيّين. بالمقابل حين أستذكر تلك الفترة من حياتي أحيانًا، أكتشف بأنني في العشرين من عمري كنت قد غدوت شابًا له عالمه المستقل تمامًا، ويعتمد على نفسه في كل شيء.

- من الواضح أنَّ ولديك لا يتمتعان بهذا العالم المستقل، لكني أرغب في أن تكمل أنت هذه العبارة.
- لأنِّي لم أسمح لهما بذلك.

يتنفّس نفسًا عميقًا، ويعود للتأمل وقد أخذته الأفكار مجددًا إلى خارج حدود هذه الغرفة، فيما أنامله تحرك حبات المسبحة بطريقة آلية. أكسر الصمت الذي استمر برهة.

- لقد كابدت الكثير من الخوف في طفولتك وشبابك.
- الكثير جدًا.
- وكل ما فعلته في لقائنا الأول، كان محاولتك التخلص من مخاوفك، ببث الخوف في نفسي. أنت خائف من عدم تقبل الآخرين لك، من رفضهم احترامك، من الأذى الذي قد يلحقونه بك أو حتى من تجاهلهم لك. تخاف من ارتكاب الأخطاء، من التعنيف ومن العقوبة. تخاف من عدم نجاحك في تنشئة أبناء صالحين. هل عليّ أن أواصل؟

يتوقف عن تحريك المسبحة، ويقبض عليها بكل إحكام بكلتا يديه، رأسه محني نحو الأمام قليلًا، يحركه في هزات خفيفة متتالية نحو الأمام والخلف وهو يستمع إلي. وقد تركت كلماتي أثرًا واضحًا فيه، فيما لم أنتهِ بعد مما أودّ قوله. وبما أنَّ بوابات القبول لا تزال مفتوحة، عليّ استغلال الفرصة، ومصارحته بكل ما يجب أن يعرفه ويفهمه.

- على المرء الحذر دومًا من أولئك الذين لديهم الكثير من الخوف، ومعظم القابعين خلف القضبان، قد ارتكبوا جرائمهم لهذا السبب، حتى إنَّ البعض منهم يفتخر بما ارتكبته يداه. لكننا وبقليل من التعمق في

ذواتهم، نكتشف أنَّها مجرد قشور واهية لحماية أنفسهم، ليثبتوا لأنفسهم قبل الآخرين، أنَّهم جسورون لا يخشون شيئًا. هل لك أن تخبرني لمَ لا تتصرف بهذه الطريقة في محيط عملك؟ لمَ تراجعت عن موقفك معي خلال لقائنا الأول؟ طالما أنَّك موقن بأنك محق، لمَ تنازلت عن هذا الحق؟

- أجل، لقد أخبرتك حينها بأنّ من لا يؤمن بأنّه محق، يتراجع خوفًا. ولكن ألا تشعرين بالخوف أنت أيضًا؟

- وهل يعقل لأحد ألا يخاف؟ أتذكر حين اتهمتني ذلك اليوم قائلًا: "هل تحسبين نفسك إلهًا"، معاذ الله، لقد خفت من مجرد الاتهام.. أنا أيضًا لدي الكثير من المخاوف، لكني تمكنت من مواجهتها في نهاية الأمر، حتى إنِّي لم أمتلك الجرأة إلا بعد إدراك هذه الحقيقة؛ بأنَّه لا مفر من المواجهة. فحين أشعر بالخوف لا أهرب، صحيح أنِّي في هذه المواجهة كثيرًا ما أتلقى ضربات مؤلمة، وقد أعاني الخسارة أو الحزن، لكني أحاول التأقلم مع كل ذلك، وأواسي نفسي بأنّي لست الوحيدة التي كابدت الخوف والألم، لست وحيدةً في هذا الدرب. في الحقيقة قد يكون هذا ما يجعلني أتفهم الألم والحزن اللذين يعاني منهما الآخرون، فرغم أنِّي أمضيت أوقاتًا صعبة في العمل ذلك اليوم، استطعت أن أتفهم مخاوف الرجل الذي عاملني بقسوة بالغة، واتهمني بعبارات جارحة، تمكنت من التعاطف معه، وأدركت كمّ المعاناة المختزنة داخله. قد يكون أصلان القديم محقًا في مخاوفه، لكن التغيير هو قانون الحياة، وكما أنَّ الخوف إحدى غرائز الإنسان الأساسية، فالسيطرة عليها هبة من هبات الحياة. لقد تمكنت من الثبات على قدميك، وكل ما حققته الآن بفضل اجتهادك وذكائك، وبات من حقك الاستمتاع ببهجة الحياة. إن كنت تخشى من نفسك، وتعاملها بحنق، كيف تتوقع أن يعاملك الآخرون؟

يربت بيده اليمنى على ساقه، ويهز رأسه يمينًا ويسارًا، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة، ثم يبدأ حديثه هذه المرة بنبرة هادئة، في تمتمة أقرب إلى بوح داخلي.

- يا لسخرية القدر! كل هذه الأسئلة التي كانت تحيرني سنوات، كل هذه العقد تفكها الطبيبة التي تتعالج عندها زوجتي بسببي، والأدهى أنها امرأة.

ثم يرفع رأسه، ويحدق إلى عيني معترفًا:

- لم يكن يخطر لي مطلقًا أن أزور طبيبًا للمجانين، لا أنكر أنَّ شخصيتك وصراحتك أثرتا فيّ كثيرًا في لقائنا الأول، لكن المجيء إلى هنا للمرة الثانية، كان أمرًا بالغ الصعوبة بالنسبة إليّ. كانت لديّ توقعات مغايرة تمامًا، وكلها كانت تثير مخاوفي. توقعت سماع سلسلة من النصائح، حول كيفية التعامل مع ولدي، ومع زوجتي. توقعت أن تلقي اللوم عليّ، وأن تضجريني بعظة طويلة، تمامًا كما أفعل عادة مع الولدين. وفي الوقت ذاته لم أكن راغبًا في الانسحاب، لكنك وللمرة الثانية نجحت في إثارة دهشتي وإعجابي. هل لديك فكرة عن المهارة التي تستخدمين بها ذلك المشرط؟ وأعترف بأنّي جهزت نفسي لرفض شحنة الأدوية التي ستصفينها لي، لكنني الآن مستعد لتناول أيّ دواء تصفينه.
- لن أصف شيئًا.
- حقًا؟ تعنين بأنّك لن تصفي لي شيئًا على الإطلاق؟
- طبعًا لا، فما الذي يمكن للدواء أن يغيره في داخلك؟
- ولا حتى بعض المهدئات؟
- أنت هادئ وطبيعي خلال العمل، فهل تتناول مهدئات هناك؟
- لا.
- حسنًا، فالمقود تحت تصرفك، ولك أن تديره وفق الاتجاه الذي ترغب.

- لقد نجحت للمرة الثالثة، ليس في إثارة إعجابي فقط، بل في إحراجي أيضًا يا دكتورة. وإن كنت لا أرغب في البكاء أمام امرأة، لكني بالكاد قادر على حبس دموعي الآن.. لقد حاولت دومًا الظهور بمظهر الرجل القاسي الشرير، لكثرة الشرور والقسوة اللتين عانيت منهما في حياتي، قررت أن أصبح مثلهم، لأحمي نفسي، لأضع حدًّا لكل هذا الألم.. لكن حنقي إزاء نفسي كان يزداد مع كل مرة أقسو فيها على أحدهم، أو أتسبب في إهانته، لأنَّ الشر ليس متأصلًا في نفسي، هذا ما أدركه جيدًا.. وهكذا أصبحت أدور في حلقة مفرغة، فمع قسوتي على الآخرين يزداد حنقي على نفسي، فأخفيه بمزيد من القسوة. قد يظن الآخرون أنني عاجز عن التعاطف معهم، لكن حقيقة الأمر أنَّي عاجز عن التعاطف مع نفسي وعاجز عن التسامح معها.. بمرور الوقت تداخلت الأمور، واختلط الخارج بالداخل، وبدأت أشعر بثقل رهيب يجثم على روحي، ولم أتمكن من زحزحته. ورغم محاولاتي لإقناع نفسي بأنّ ما أفعله، ما هو إلا لصالحهم، لكني أدرك في أعماقي أنَّها مجرد ذريعة.. الكثير من الألم والغضب بات يتراكم في صدري، حتى اعتقدت أنَّ السبيل الوحيد للخروج من هذه الحلقة، هو التحول إلى الشر.

البراعة والصفاء اللذان وصف بهما ما يعاني منه يثيران الإعجاب! ليته يمتلك هذه الجرأة ليبوح بكل ذلك أمام عائلته، أمام كل من يحبه.

- لكن الشر لا يليق بك أبدًا سيد أصلان، يبدو لونًا نشازًا في لوحتك.
- أتعلمين أنَّ أحدًا لم يخبرني يومًا أنني أتحلى بالطيبة؟ لا أتذكر أمي، وإخوتي الذين فعلت لأجلهم كل ما يمكن، لم يخبروني بذلك ولو مرة واحدة. ولم يتغير الأمر حين أصبحت لديّ عائلة وأطفال. لطالما تساءلت في حيرة؛ أيعقل أنَّ كل ما أفعله سيئ في عيون الآخرين؟ ألا يلمح أحدٌ ولو خيطًا رفيعًا من الطيبة فيما أحاول فعله لهم؟ أكلّ ما أقوم به شرٌّ

خالص حقًا؟ كنت أنتظر على الدوام أن يخبرني أحدهم بأنني لست شريرًا، لست سيئًا كما أبدو من الخارج، عندها ربما سأقتنع بالفكرة، خاصة إن كانت صادقة، وليست مجرد تملق أو مجاملة.

- ربما تكون شخصًا طيبًا بالفعل.
- لم أعد أثق بذلك، ربما لو وجدت من أستند إليه في هذا العالم، كنت سأتغير، وستتغير نظرتي إلى العالم ومن فيه.. أتعلمين يا دكتورة؟ رغم أنَّك تعرفت إليّ في أسوأ حالاتي، لكني أشعر أنّك الآن تقدمين إليّ ذلك السند بطريقة ما. لقد أتيت إلى هنا متوقعًا أنَّ تكون زوجتي قد حدثتك عني، ونسبت إليّ كل شرور العالم، فقررت ترسيخ هذه النظرة، وإظهار نفسي في منتهى السوء. ورغم أنَّك واجهتني بجسارة كبيرة، لكنك بالمقابل حاولت فهم موقفي ومساعدتي، وكأنك بطريقة ما رأيت تلك الطيبة التي في داخلي. وها أنت تخبرينني أنني شخص ناجح، وأب طيب ولا يجب أن أواصل الحنق على نفسي، وأنَّي أستحق التمتع بالحياة كسواي.. وهذا.. هذا ما لم أتوقع سماعه على الإطلاق، لذا لن أتمكن من تمالك نفسي إن بقيت هنا مدة أطول.. سأذهب الآن، ولكني سأعود بالتأكيد مرة أخرى، سأفكر مليًا فيما قيل هنا اليوم، وربما سأبكي كثيرًا، فهذا الأسد الذي أختبئُ خلف لبدته لم يبكِ منذ عصور.. ربما يخلصني البكاء من الثقل الجاثم على صدري، وتنقشع العتمة التي تلف أعماقي.. لا أستطيع شكرك، لأنَّ الكلمات لا تعبر عما يجول في داخلي، لذا من الأفضل أن أغادر دون مزيد من الكلمات.

ينهض متحاشيًا النظر إلي، كي لا ألحظ عينيه المغرورقتين. فأنهض بدوري وأرافقه حتى الباب، وحين يصافحني بقوته المعتادة، يحدق إلى عيني، ويشكرني في صمت أبلغ من كل ما يمكن أن يقال، فأحاول التعبير عن امتناني العميق لمشاعره، بنظرات مماثلة.

في هذا العالم رجل يدعى أصلان، وقد أتيحت لي فرصة التعرف إليه اليوم، ليغتني كتاب حياتي بصفحة جديدة. أشعر وكأنني انتهيت توًّا من رواية ممتعة، لازلت أهيم في عوالمها.

يمضي الوقت دون أن أشعر. أنظر إلى ساعتي، لأكتشف أنَّي فوّت موعد الغداء، حينها تبدأ الحرقة التي في معدتي بإطلاق ألسنة لهيبها. لمَ لا أشعر بهذه الحرقة حين أكون مع مرضاي؟ يبدو أنَّ معدتي أيضًا قد باتت مبرمجة على إيقاع عملي، فهي تنتظر خروج المريض لتبدأ بالتشكي.

لا يوجد في الكافيتريا أحد خلا نيفين وآيتان، أجلس إلى أول طاولة أصادفها، فتسرع الفتاة وأمها لخدمتي، وتقدمان لي بعض الأطباق الساخنة. وفيما أتناول طعامي يظهر ممو؛ ممو هو محمد عاكف سايلغان، أحد أطبائنا النفسيين، لقد جاء لأخذ كأس من الشاي. تبرق عيناه حين يراني، ويسرع للجلوس قربي. علاقتي به مبنية على محبة متبادلة. ورغم أنَّ غرفنا متجاورة، لكن زخم العمل هذه الفترة يمنعنا من اللقاء والتحدث. ما إن يجلس حتى يستفسر على الفور عما حدث ذلك اليوم مع تلك الفتاة. يبدو أنَّ الحادثة قد بلغت مسامع الجميع، كما أنَّه يعلم أنها من ترسل باقات الورود التي باتت تغرق المركز. فيسألني في فضول:

- وماذا قررت؟ هل ستواصلين علاجها؟

لقد اعتدنا أن نتبادل الأفكار والأخبار حول مرضانا بين الفينة والأخرى، كنوع من الاستشارة المهنية إن جاز التعبير. يستمع إلي في انتباه، ثم يعلّق قائلًا:

- نظرًا لإصرارها على إرسال الورود يوميًا، لا يبدو أنَّها ستستسلم بسهولة، لكن الواضح أنَّها سترهقك.. لذا لا تضغطي على نفسك كثيرًا.

لقد انضم هو أيضًا إلى حلف حسن وياغمور لحمايتي والتخفيف عني بعد وفاة آيدِن. فهم يخشون أن يؤثر تعلقي الكبير بمرضاي، وانغماسي في العمل لساعات طويلة، في صحتي، ويمنعني من الاهتمام بنفسي وحياتي الخاصة.

بعد انتهاء الطعام، أنزل على عجل، فلا تزال لائحة المواعيد طويلة. ينقضي الوقت مع المرضى دون أن أشعر، وحين أنتبه يكون الظلام قد خيّم منذ فترة طويلة، وفيما أعيد ترتيب طاولتي تدخل تونا، وبريق الفضول يلمع في عينيها، وحده الله يعلم أيّ أحداث جديدة قد راكمتها خلال هذا اليوم، وتريد أن تطلعني عليها، لأنَّ كل ما في الحياة يثير فيها الفضول والانفعال.

- حسنًا، ماذا لديك لتخبريني به؟ لقد شاهدتك حين كنت أودع السيد أصلان، وأنت تضعين باقات جديدة من الورود في المزهريات.
- الورد مقدور عليه، ولكن ماذا سنفعل الآن معها؟ هذه هي المشكلة الكبرى.
- ماذا تعنين بالآن؟
- لقد أحضرت آخر باقة ورود بنفسها، وهي تجلس في القاعة في منتهى الهدوء. أرجوك حضرة الدكتورة دعيها تدخل ولو خمس دقائق، وإلا فسينتهي يومنا بكارثة حقيقية.
- يبدو أنَّها نجحت في إخافتك؟
- من؟ أنا؟ لا، على الإطلاق، فهي تبدو اليوم مختلفة تمامًا وغاية في التهذيب، ثم هل تظنين أنَّك الوحيدة التي تتلقى باقات الورود؟ فطاولتي أيضًا لم يعد فيها متسع لكثرة الورود. وقد قبّلت يدي مرتين معتذرة، فأشفقت عليها.. تبدو مسكينة تعسة.. وليس من عادتنا أنّ نردّ أحدًا دون مساعدة.
- حسنًا، حسنًا، أدخليها على الفور. أريد أن أعود اليوم باكرًا إلى بيتي.

في الحقيقة أنا شخص مرهف المشاعر، أحمل من الشفقة في قلبي ما يمكن أن أمنحه حتى لأعدائي، ولا أحتمل أن أرى أحدًا يعاني أمام ناظري دون أن أبذل كل ما في وسعي لأجله، لكن هذه الآية انقلبت مع هذه الفتاة. فطباعها التي تنافس مظهرها في السوء، ووقاحتها الشديدة، جعلتني أشعر بالنفور منها. وماذا عن أسلوبها

التهديدي؟ كما لم أكن الوحيدة في نفوري منها، فتونا أيضًا كادت تضربها في زيارتها الأولى. وها هي الآن تحاول أن تشفع لها، وتقنعني بقبولها. لعل أكثر ما يجعلني متعلقة بتونا، هو حسها الإنساني العميق، وتعاطفها مع الجميع دون استثناء.

حسنًا، يبدو أنَّ كل هذه الاتصالات، وباقات الورود، سدّت أمامي سبل الرفض. وتمكن عنادها من التغلب علينا. ورغم تحذير ممو الذي يرن في رأسي كإنذار أخير "*من الواضح أنَّها سترهقك*" لكن لا أستطيع رفضها.

- صحيح، ما كان اسمها؟ لقد أخبرتني به المرة الفائتة، ولكن.
- آلا.. حتى اسمها غريب.. لكن من الواضح أنَّها نادمة على ما قامت به تلك المرة. حالتها تثير الشفقة حقًا، والغريب تلك الخرقة التي تلف بها إبهامها، ليست ضمادة أو ما شابه، بل خرقة رثة. ألا تخجل من التجول بهذه الثياب الرثة والمظهر المهلهل؟.. لكن الأكثر غرابة هو الورود التي ترسلها إلينا، فمن الواضح أنَّ ثمنها ليس بالقليل.. فتاة غريبة! أعترف بأني عاجزة عن فكّ ألغازها.
- حسنًا، أدخليها على الفور.

لا جدال أنَّ فرويد سيظل واحدًا من أعظم عباقرة عصرنا، فقد تمكن من الإبحار في عالم كان شبه مجهول حتى ذلك الوقت، وأخضع كل تصرفاتنا لملاحظة شديدة، بدءًا من زلات اللسان، وانتهاء بأصغر التصرفات، وأبسط أنواع السلوك، واكتشف دوافعها الخفية. ولعل سلوكي تجاه هذه الفتاة أوضح مثال على تلك الدوافع الخفية، فرفضي الداخلي لها، جعلني أنسى اسمها، وهو أمر نادر الحدوث، فعادة ما أتذكر اسم المريض منذ اللقاء الأول. ورغم معرفتي التامة أنَّ هذه المشاعر لن تمكن الطبيب من تقديم مساعدة حقيقية للمريض، لكني أغلب الطيبة على المعرفة، وأوافق على استقبالها.

ما إن تخرج تونا، حتى تظهر آلا أمام الباب محنية الرأس، تتقدم بخطوات مترددة، دون أن تغلق الباب خلفها، وقد ارتدت كومة من الخرق الغريبة الرثة،

وكأنّها ليست الشخص الذي يرسل إلينا كل تلك الورود الباهظة الثمن. وكما في المرة السابقة، ثيابها قاتمة مغبرة، فضفاضة تكاد تضيع فيها لاتساعها. كم وزنها يا ترى؟ أربعون كيلو غرامًا أم أقل؟ ليست قصيرة القامة إلى تلك الدرجة، لكنها تقف في ارتخاء معقوفة الظهر. ويبدو أن تمشيط شعرها ليس من عادتها، فخصله الشعثة المتداخلة تغطي معظم ملامحها إلا أنفها، الذي يظهر بكل ضخامته متصدرًا وجهها النحيل، وتكاد ذراعها تلامسان الأرض لشدة انحنائها وتلويها في وقفتها. يصدر الخفان البلاستيكيان في قدميها حفيفًا مسموعًا على السجادة، لا يبدو أنَّها اعترضت على ارتدائهما اليوم.

حين تهم بالجلوس ألاحظ أنَّ الباب لا يزال مفتوحًا، فتقدح أولى شرارات الغضب في داخلي، كيف لأحدٍ أن يدخل غرفة دون أن يغلق الباب خلفه؟ سيتحتم عليّ الآن أن أنهض لأغلقه، أو ستقوم تونا بنزع سماعات الهاتف، والنهوض من مكانها، لكي تأتي وتغلقه.

- هلّا أغلقت الباب أولًا؟ - أوبخها.

تنتابها رعشة خفيفة من نبرة صوتي الصارمة، فتسرع على الفور لتغلق الباب ثم تعاود الاقتراب من الطاولة.

- اجلسي!

تجلس على حافة الأريكة محنية الرأس، كطفل ارتكب أمرًا سيئًا وينتظر العقاب، وهذا ما يعطيني دور الأم الغاضبة بالضرورة.. يا إلهي! ما هذه العلاقة الشاذة؟

يزداد منسوب الحنق داخلي، فأشيح بنظري عنها. تلفت الشموع العطرية على الطاولة انتباهي، أشعلها الواحدة تلو الأخرى، يطقطق الفتيل قليلًا، ثم تتقد الشعلة الخفيفة، وتنساب قطرات دافئة حولها، وخلال لحظات تعبق رائحة الفانيليا الممزوجة بنفحة من البخور في الأرجاء. تنجح الرائحة في تهدئتي قليلًا، وكأني كنت أبحث عن لمحة من الجمال في الغرفة. من الواضح أنَّها تنتظر أن أكسر حاجز

الصمت.. أسعل سعالًا خفيفًا، لكي أنّقي صوتي من تلك النبرة المتسلطة الرهيبة. لا أذكر أنّي رفضت طلب مساعدة شخص ما، بغض النظر عمن يكون ونوع المساعدة. لكني اليوم أشكك في قدرتي على الاستجابة لطلب هذه الفتاة ومساعدتها.

- أهلًا بك.
- شكرًا.
- كيف تشعرين اليوم؟ أفضل؟
- أجل، أنا بخير.. شكرًا، لأنَّك وافقت على استقبالي اليوم.
- يبدو أنَّك ربحت، فها أنت تجلسين هنا مجددًا. أشكرك على الورود التي قمت بإرسالها، كلها رائعة، ولكن لمَ أرسلت كل تلك الباقات؟
- أشعر أنَّي مقصرة في حقك مهما فعلت.

ولكن ما الذي قدمته إليها؟ لقد التقينا مرة واحدة، ولم تدخر كلتانا ما بوسعها لمضايقة الأخرى، بعد أن أعمى الغضب بصيرتينا. وها هي تبدو هادئة اليوم، فهل أنا كذلك؟ لا أظن، فما إن رأيتها حتى انتابني شعور غريب. أجلس مستندة بظهري إلى الكرسي، مسترخية نحو الخلف، وألحظ أنَّي أحاول الابتعاد عنها قدر المستطاع. ولكن لمَ؟ وكأن يديّ ستحترقان إن لامستاها. أعلم أنَّ الكثير من أطباء الجراحة أيضًا يتصرفون بطريقة مماثلة أحيانًا، فهم يتجنبون إجراء عمليات بالغة الخطورة، قد تودي بحياة المريض، ويبحثون عن سبيل للتخلص من ذلك المريض.. فهل هذا ما أفعله يا ترى؟ هل أحاول التهرب؟

هذه الفكرة تجعلني أشعر بمزيد من الاستياء، فمن الواضح أنَّ لديها مشاكل بالغة الجدية، وكل ما أفعله هو التهرب من مساعدتها. يا للعار أيتها الدكتورة! اجلسي كما يجب الآن، وحاولي الاستماع إلى هذه المسكينة.

لا تختلف نبرة الصوت السلطوية التي أحدث بها نفسي عن نبرتي معها قبل قليل، إذًا فأنا أخاطب نفسي بالنبرة ذاتها التي أخاطبها بها. ربما أهمّ ما يدفع

الناس إلى دراسة الطب النفسي، هو محاولتهم إيجاد الحلول لمشاكلهم، أثناء بحثهم عن حلول لمشاكل الآخرين، ولكن من يستطيع أن يحكم بأننا قد نجحنا في ذلك؟

يخيم صمت ثقيل على الغرفة، فرغم المسافة القصيرة التي تفصل بيننا، لكن من الواضح أنَّ كل واحدة منا غارقة في متاهاتها الداخلية السحيقة.

لقد استماتت من أجل المجيء، فهل هو مجرد العناد من يغذي كل هذا الإصرار؟ هل هي رغبتها في كسر إرادتي، بعد أن رفضتها، وحاولت التخلص منها؟ ربما من الأفضل سؤالها مباشرة، بدل الدوران في حلقة الاحتمالات.

في هذه الأثناء تطغى رائحة الفانيليا المريحة على المكان برمته، ويزداد حجم الكتل المذابة التي تقطر رويدًا رويدًا حول كل شمعة. أراقب اللهيب الرقيق، كم يبدو لطيفًا حالمًا! لكني أدرك أنَّه أبعد ما يكون عن اللطف، وقد يحيل المكان إلى رماد منثور لدى أقل هفوة، فهو ابن النيران اللاهبة في نهاية المطاف.

- علينا ملء ملفك بالمعلومات الوافية، ما هو اسمك بالكامل؟
- آلا صايري.
- عمرك؟
- اثنان وعشرون عامًا.
- هل أنت عزباء؟
- أجل.
- هل تعملين؟
- أكمل تدريبي المهني حاليًا.
- في أيّ مهنة؟
- المحاماة.

ولكن التدريب المهني يشترط إنهاء دراسة الحقوق قبل ذلك.. ما الذي تعنيه بالضبط؟

- أتعنين أنَّك محامية؟
- ليس بعد.. أنا في السنة النهائية من دراستي.
- أتعنين أنَّك درست الحقوق في الجامعة؟
- هل يبدو ذلك غريبًا؟

ها نحن نبدأ من جديد. لكني لا أنكر استغرابي، فآخر ما كنت أتوقعه أن تقوم فتاة مثلها بدراسة الحقوق، للدفاع عن الناس، والمطالبة بحقوقهم، في الوقت الذي تبدو لي فيه عاجزة عن نيل حقوقها.

تحدق إلى وجهي دون أن ترمش، منتظرة ما سأعلّق به، فقد طلبت إليّ أن أكون صريحة معها، وأخبرها الحقائق دون مواربة، لذا فما سأقوله الآن بالغ الأهمية بالنسبة إليها، فهي تظن أنَّها تخضعني لواحد من تلك الامتحانات التي اعتادت أن تخضع لها بقية زملائي.

- ليس الأمر غريبًا بقدر ما هو غير قابل للتصديق. فمظهرك لا يوحي للمرء بأنّك قد تصبحين محامية في يوم ما. أين تكملين تدريبك المهني؟

تخبرني باسم واحد من أشهر محامي المدينة، بل إنَّه أحد ألمع المحامين على مستوى البلاد كلّها، وهو معروف بدقته وحرصه على الكمال في أدنى التفاصيل، فكيف وافق على تدريب فتاة مثلها يا ترى؟

- هل أبدو بهذا السوء؟
- للأسف.
- أشكرك.
- وعلى أيّ شيء تشكرينني الآن؟
- على صراحتك.. التزمي بها على الدوام معي.
- سمعًا وطاعة.
- العفو.. وأرجو أن تغفري لي أسلوبي الفظ في الحديث.. لم أعنِ الإساءة مطلقًا. ولكني.. أنا لا أعرف كيف أدير حديثًا عاديًا مع الآخرين.

- لا عليك. إذًا فأنت في الثانية والعشرين، تكملين الآن تدريبك المهني في مجال المحاماة؟ وهذا يعني أنَّك شخص ناجح.
- لست ناجحة في الحياة.. لكنني طالبة مجتهدة.. أنهيت سنوات الدراسة كافة بتفوق.
- بتفوق؟

أتحاول السخرية مني؟ كيف لها أن تتفوق وخاصة في كلية الحقوق، فيما هي عاجزة عن الكلام كما يجب؟ لا يبدو من تصرفاتها ونظراتها أنَّها ثملة اليوم، ورائحة الكحول لا تفوح منها كما في المرة السابقة، لكن من الواضح أنَّ في جعبتها خطة أخرى.

- أين تقيمين؟
- في منطقة شايولو.
- مع من تعيشين؟
- وحدي.
- وأين عائلتك؟
- ليس لدي عائلة.
- ماذا تعنين بأنه ليس لديك عائلة؟
- أعني أنهم ماتوا.
- متى فقدت والديك؟
- منذ بضع سنوات.. هل هذا استجواب؟

يبدو بناء علاقة من أيّ نوع مع هذه الفتاة، أمرًا بالغ الصعوبة حقًا، فهذه الأسئلة الروتينية أطرحها على كل مريض في الزيارة الأولى، وعادة ما يسردون موجزًا عن حياتهم حتى قبل أن أسألهم. هل أزعجها سؤالي الأخير عن والديها؟ أتتحاشى التحدث عنهم؟ إذًا من الأفضل تجنب هذا الموضوع حاليًا.

- حسنًا، لقد انتهت أسئلتي، والآن حان دورك. سأستمع إلى كل ما تقولين في صمت مطبق.

- ولكن.. عن أيّ شيء سأحدثك؟
- عن أيّ شيء ترغبين فيه.
- لا أرغب في شيء.
- إن كنت لن أسأل، وأنت لن تتحدثي، فما الذي سنفعله إذًا؟

لا تجيب، بل تميل إلى الأمام والخلف في وتيرة آلية، ويداها متشابكتان في حجرها بإحكام. من الواضح أنَّها غاضبة جدًا، وجاهزة للانفجار في أيّ لحظة. إذًا فهي عصبية المزاج ومتوترة، حتى لو لم تكن ثملة. ألحظ الخرقة القذرة التي تلف بها إبهامها الأيمن، لا يبدو أنها غيرتها منذ آخر مرة. تشتد وطأة الصمت، وتخيم على المكان كسحابة قاتمة.

- لا يبدو عليك الثمل اليوم.
- لا أشرب الكحول كل يوم.
- متى تشربين عادة؟
- لا أشرب ما لم أكن مضطرة.
- وما الذي يضطرك إلى الشرب؟
- الرجال الذين أكون معهم.. هم يجبرونني على الشرب.

إذًا فهناك رجال يرافقونها؟ ولكني متأكدة من أنَّ الوقوع في حب فتاة مثلها، أو حتى مرافقتها على سبيل التسلية أمر محال. أغلب الظن أنَّهم يشربون حتى الثمَل، ثم يغمضون أعينهم.

- لديك صديق إذًا؟
- لا، ليسوا أصدقاء.. مجرد علاقة جسدية عابرة لا أكثر.. يشربون الكثير ويرغمونني على الشرب أيضًا.. وفي بعض الأحيان نتعاطى المخدرات.. أتظنين أنَّه أمر سهل.. أن.. أن يرافقني رجل بكامل وعيه؟

إنها تجيد السخرية من نفسها، وهي ميزة يختص بها من يتمتع بسوية عالية من الذكاء والتفرد. أهي حقًا من هذا النوع؟

أضحك، فترمقني بثبات دون أن تبادلني الضحك.

- يروقني الأشخاص الذين يسخرون من أنفسهم، إنَّها سمة لا يجيدها الجميع.
- شكرًا لك.. أنا مقتنعة بأنك صادقة فيما تقولين.
- ولكن كيف تقبلين مرافقتهم، وأنت تعلمين هذه الحقيقة؟
- أبحث عمن يبادلني الحديث.. عن شخص يلمسني.
- إذًا فأنت وحيدة.
- أجل.

تقول ذلك، وهي تواصل التحديق إلى عيني بنظرات تكاد تسحقني، وكأنّ الألم الذي في داخلها يتدفق في أمواج لا نهائية تكاد تغرق المكان كلّه. أدير رأسي على الفور، نحو شاشة الحاسوب متظاهرة أنِّي أبحث عن شيء ما.

- أليس لديك أصدقاء؟
- لا.. لو كنت في مكانهم، هل سترافقين شخصًا مثلي؟
- لن أفعل.
- وهم أيضًا لا يفعلون.
- على من يقع اللوم في رأيك؟ عليهم أم عليك؟
- علي بالطبع.
- لكنك مصرة على عدم التغير.
- استنتاج خاطئ، وإلا فما الذي دفعني إلى المجيء في رأيك؟

وأخيرًا تعترف بسبب مجيئها، لكنها تفعل ذلك بطريقة صلفة "*استنتاج خاطئ*".. أعترف بأنها محقة، لكن أسلوبها يثير استيائي.

- إذًا فهو استنتاج خاطئ. وما الذي تفعلينه في الحياة سوى الدراسة؟
- أقرأ الكثير من الكتب، وهي من بين الأمور النادرة التي أنجزها بنجاح.. منزلي أشبه بحانوت للكتب.. فهي الوحيدة التي تثير اهتمامي، وغالبًا ما

أقضي وقتًا طويلًا في تنظيف المكتبة.. وأعيد قراءة بعضها مرات ومرات.. ورغم ذلك فقد أخفقت في تعلم التحدث كما يجب.. في كتبك تبدين.. تبدين شخصًا مرهف المشاعر، كرّس معظم حياته للعمل.. ولكن لمَ تعاملينني بطريقة مغايرة؟

سؤال وجيه! تريد أن تعرف السبب الذي يمنعني من معاملتها باللطف والرقة اللتين أعامل بهما الآخرين. لقد أصابت صميم الحقيقة، ولاحظت ما أحاول تجنب الاعتراف به. فقد عاملتها منذ اليوم الأول بطريقة مغايرة، رغم أنَّ اللوم لا يقع عليّ وحدي، لكن كان باستطاعتي قلب مجرى الأحداث على ما أظن. حسنًا، أعترف أنَّها ولسبب أجهله تثير استيائي، رغم أنّي موقنة أنَّ كل من يتعرف إليها، يشعر بالغضب من سلوكها، وأسلوبها في التعامل مع من حولها. سيتطلب مني الأمر الكثير من الضبط لمشاعري، لاكتشاف السبب الحقيقي الذي يدفعني إلى الاستياء منها. ولأنَّي لم أعتد الهرب دون إتمام عملي حتى النهاية- فأنا لا أمتلك تلك الخفة التي تتيح للبعض القفز بكل سهولة فوق عقبة ما، أو تغيير مسارهم- عليّ الكشف عن حقيقة مشاعري التي تتلون وتتخفى وراء مختلف المبررات. تبدو إحدى تلك المهام الشاقة التي تضعها الحياة أمامنا، ولكن لا مناص.

- لكل شخص منا آلاف الوجوه، وهو يظهر لنا أحدها بناء على طبيعة العلاقة التي تجمعه بنا. صحيح أنَّي عادة ما أكون لطيفة وأعامل الآخرين برقة ومحبة، ولكن الأمر يتطلب مني بذلًا عاطفيًا كبيرًا. وحين أتحدث عن المشاعر لا أعني المحبة والحنان فقط، فهذه المشاعر تختلط بالكثير من نقائضها أيضًا. ويبدو أنَّ حصتك للأسف كانت بمعظمها من هذه النقائض. لكن يومًا ما، وإن كانت لديك رغبة حقيقية في ذلك، فسترين الوجه الآخر من مشاعري، وهذا ما أرغب فيه أنا أيضًا، فلا يروقني البقاء مستاءة ومتكدرة طوال الفترة التي تجمعنا.

- أرغب أن تعامليني كما تشعرين.

- لك ذلك.
- أنا حقًا معجبة بك.
- إذًا فقد نلت إعجابك! ولكن هلا أخبرتني عن السبب؟
- لأنَّك تواجهين الجميع بحزم، دون تردد.
- وكيف وصلت إلى هذه النتيجة؟
- شاهدتك في ذلك اليوم.. ألم تشعري بالخوف منه؟
- من تعنين؟
- ذلك الرجل.. كان ينتظرك عند الباب، وبدا غاضبًا جدًا عليك.. فقلت في نفسي سيفعل ما لم أستطع فعله.
- يبدو أنَّك لا تقلين عني صراحة! ولكن ما الذي كنت تنوين فعله؟ هلا أوضحت؟
- أحقًا لا تعلمين؟
- كنت ستضربينني مثلًا؟
- لن أستطيع، حتى لو كنت راغبة في ذلك.. فلا أملك القوة الكافية.. كما أنَّك في ذلك اليوم كنت على وشك ضربي، فحين أمسكت بي من الخلف.. ظننت أني لن أنجو، وسأنال ضربًا مبرحًا.. وبعد أن شاهدت ما فعله ذلك الرجل، قلت في نفسي ستنال ما تستحقه الآن.. ولا أخفيك أنّي شعرت بالرضا.
- إذًا فقد كنت راضية عما حدث؟
- لقد أثار غضبك كما فعلتُ.. فعاملته بقسوة.. لقد رأيته قبل قليل خارجًا من غرفتك، وبدا على وشك البكاء.. يبدو أنَّك بارعة في تعنيف الآخرين.
- لو لم أعامله بقسوة، هل كنت سأنال إعجابك؟
- لقد أعجبت بك قبل ذلك.

- هم هم.. وهل ما أعجبك معاملتي القاسية لك؟
- أجل.. أعجبني الأمر بشدة.. فأنت تعاملين المرضى كما يجب.. أعني لا تعاملينهم معاملة المجانين.. تفعلين ما يجب فعله دون مواربة.. ولا تحاولين مداراتهم.. وردود الأفعال عندك واضحة وجريئة.. لا تنازلات من أجل حسابات مادية.
- إذًا فهذا هو رأيك؟

يا للغرابة! فقبل أن أتمكن حتى من معرفة أبسط الأمور عنها، يبدو أنَّها قامت بفحصي ودراستي، ووضعت تشخيصها النهائي. تقول إني لا أتنازل بناءً على الحسابات، أعترف بأنها محقة. كما أعترف بأننا معشر الأطباء النفسيين نلجأ أحيانًا إلى أسلوب المداراة مع بعض المرضى، ولا أستثني نفسي من الأمر.

لقد اعترفت أنَّ كل ما قامت به ذلك اليوم كان خطة مسبقة، وكانت تسخر من حيرتي وهي تتقافز في القاعة، فقد كنت تحت الاختبار حينها. من الواضح أنَّها تتقدم عليّ بخطوة، وهذا ما يمكن أن أسميه بالمجنون الواعي.

- حسنًا، وما الذي تتوقعين حدوثه الآن؟ أن أستمر في التصرف معك دون مواربة ولا تنازلات، ولا أخفي غضبي، ثم ماذا؟ هل ستتغلبين علي كما ظننت أنَّك فعلت مع البقية؟
- لا.. لا أستطيع التغلب عليك أبدًا.. لكني رغم ذلك.. راغبة في الوثوق بك، وتصديق ما تقولين.. أنا كجثة في قبرها.. وحيدة مثلها.. وهذا ما يجعلني أرافق أولئك الرجال.. وما إن تنتهي علاقتنا الجسدية، حتى يبدؤوا البحث عن وسيلة للهرب.. فأقوم بإثارة غضبهم.. حتى أطيل علاقتي بهم ولو لحظات إضافية.. ولكني.. غالبًا ما أدفع الثمن.

نبرة صوتها طفولية يغشاها انكسار، وحركاتها كذلك. تتحدث بجمل قصيرة تتخللها وقفات مستمرة، وكأنها تتعلم اللغة توًّا، لكن جملها منطقية وتتسم بالفطنة. أما نظراتها فتحمل حقدًا عميقًا، وخجلًا في الوقت ذاته، ونبرة صوتها ملائمة تمامًا

لهذا الخجل. غالبًا ما نجد الأطفال يتصرفون بهذا الخجل، لكن ذلك الغضب والحقد المتقدين في عينيها، يبدوان نغمة ناشزة في لحن الطفولة. إنَّها أقرب إلى نظرة أحد العبيد إلى سيده الذي امتهن ضربه وإهانته. ترجع إلى لخلف مستندة برأسها إلى ظهر الأريكة، وتبحر نظراتها في مكان ما في الأعلى لبعض الوقت.

- إنَّهم يضربونني بعنف.
- يضربونك؟

يعلو منسوب الشفقة عما سواه من المشاعر، فرغم أنَّها لا تريد مني شفقة أو رحمة، لكن كلمة الضرب تهزّني. ليست سوى كومة صغيرة نحيلة، يكاد المرء يظنها عفريتة صغيرة هربت من أحد قصور الجنيات والأشباح. ليست جنية بل عفريتة، لكنها عديمة الخبرة، لا زال الخير والشر يختلطان عليها، ولا تعرف كيف تنجو بنفسها.

- أجل، يضربونني.
- ولمَ تعرضين نفسك للضرب؟
- ومن يرغب في تلقي الضرب؟
- أنت.. هذا ما بدا لي مما قلتِه لي.
- لا يهم.. فلم أعد أشعر بالألم.. حتى.. إنني أرتاح أحيانًا حين أكون على وشك أن أفقد وعيي من الألم.
- ألا تشفقين على نفسك؟
- لا.

تضحك بطرف فمها، بصوت أقرب إلى الهسيس منه إلى الضحك.

- أهذه طبيعة علاقتك بهم؟
- أظن ذلك.
- قبل عدة أعوام، جاءتني امرأة شابة من إحدى القرى في أقصى شرق البلاد. كانت تعاني من مشاكل في علاقتها الزوجية، وتظن أنَّ زوجها لم يعد يحبها. وقد اعترفت لي ذات مرة قائلة: تصوري يا دكتورة أنَّه لم يعد يضربني حتى.

ترفع حاجبيها في دهشة، وتنظر إليّ ببهجة لا أعرف مصدرها.

- أنت بارعة في الكلام.. ليتك تتكلمين دومًا.. تتحدثين وأنا أستمع.
- أترغبين في التحدث عن الآخرين بدل التحدث عنك؟
- التحدث عني.. ليس أمرًا سهلًا.. ولن أتمكن من فعله الآن.. لكنك تستائين مني حين لا أتحدث.. أنا لم أعد راغبة في إثارة غضبك.. رغم أنَّ نوبات غضبك أيضًا تروق لي.. فالمرء يشعر بالتحسن حين يكون قريبًا منك.. إنَّه غضب صادق.. وهو أمر له بالغ الأهمية بالنسبة إليّ.. الاستماع إليك أمر ممتع حقًا.. أتعلمين أنَّي لم أسمع الحكايات حين كنت طفلة.

أستمع إليها ويرتفع حاجباي رغمًا عني، فهي لا تتوقف عن إثارة دهشتي. هل ترغب في أن أروي لها الحكايات الآن؟

- أترغبين في أن أسرد عليك حكاية مثلًا؟
- وما المانع.. صحيح أنَّي ناجحة في الدراسة.. لكن يبدو أنَّ عقلي يعمل في بعض المجالات.. ويخمد في مجالات أخرى.. لا أعرف كيف أكون صداقات مع الناس.. فهم لا يحبونني.. لا يشعرون بوجودي.. بل يضربونني.

تجلس شابكة ذراعيها على صدرها، ولكنها تتحاشى النظر إلي. إذًا بعد أن تنتهي علاقة الرجل بها، يقوم بضربها! يا لها من مخلوقة تعسة الحظ! أنا أيضًا كنت على وشك ضربها حين التقيتها أول مرة، وأذكر أنَّ تونا أيضًا قالت إنَّها كادت أن تضربها، حتى إنَّي وبختها بشدة حين سمعت هذا الكلام منها. من الواضح أنَّ هذه الفتاة بارعة في خلق كل الأسباب التي تثير جنون من حولها، ليصل الأمر بهم إلى حدّ الرغبة في ضربها، حتى وإن كانت طبيبة لها تاريخ من الخبرة يتجاوز الثلاثين عامًا، أو سكرتيرة لا تقل عنها خبرة في عملها.

- أليس هناك أحد يحميك أو يهتم بشأنك؟

تنفي بحركة من رأسها.. أحقًا ليس لديها أحد يهتم بها؟ إذًا من أين لها المال؟ فالورود التي أرسلتها إلينا، تكلف ثروة صغيرة.. هل تحاول الاستهزاء بي يا ترى؟ أم هو اختبار جديد؟

- ارفعي رأسك، واشرحي لي الأمور كما يجب.
- لا إخوة لدي.. وقد فقدت والدي.. قبل بضع سنوات.
- وهل تعيشين وحدك؟

تومئ برأسها مؤكدة. من الواضح أنَّها تتجنب الخوض في هذا الموضوع، فكلما حاولت سؤالها عن عائلتها، تخيم على عينيها نظرات قاتمة، وتحاول التملص من الحديث.

- حسنًا، وماذا عن الأقرباء والمعارف؟ أليس لديك أحد منهم أيضًا؟
- لا.. فمجرد وجودي في الحياة.. يشكل مصدر إزعاج لمن حولي.
- لأنَّك لا تشبهين من حولك، حتى أنا دهشت حين أخبرتني بدراستك الحقوق. لكن هل تذهبين إلى المكتب بهذه الهيئة؟
- أجل.. وقد أتيت من هناك.
- ألا تنظرين إلى نفسك في المرآة مطلقًا؟
- المرآة؟ ألا يحق لفتاة دميمة.. أن يكون لديها أصدقاء؟
- أنا لا أتحدث عن الجمال.
- إذًا لمَ عليّ أن أنظر إلى نفسي في المرآة؟
- هل كل الفتيات في المكتب جميلات؟
- لا.. ولكن لديهن أصدقاء.
- إذًا القصة ليست متعلقة بالجمال وحده.. فمظهرك يبدو كارثيًا.
- كارثيًا؟
- أجل، كارثي. من الواضح أنَّك لا تمشطين شعرك، ولا تهتمين بطريقة لبسك أو مظهرك. ثيابك تبدو مهلهلة وقذرة، والأسوأ أنَّه من الصعب التنبؤ بتصرفاتك.

- كنت أظن أنَّ ثيابي جميلة.. لا أنكر أنَّها قديمة بعض الشيء.. لكنها باهظة الثمن.
- لكنها لا تشبه ما ترتديه بقية الفتيات من جيلك، كما أنَّها تبدو فضفاضة جديدة، هل خسرت الكثير من الوزن مؤخرًا؟
- أجل.
- لماذا؟ ألا تتناولين الطعام؟
- الطعام؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أجل، الطعام.
- أعاني من فقدان الشهية.
- لقد تعبت من طرح الأسئلة. رغم محاولتي مساعدتك، لكنك ترفضين التجاوب معي.
- عن أيّ شيء تريدين مني التحدث؟
- عن طفولتك، ابدئي من هناك، وقصي عليّ كل ما تتذكرينه.
- لَم يهتم الجميع بطفولتي إلى هذا الحد؟.. كل الأطباء يسألون الأسئلة ذاتها.. لقد كبرت.. لم أعد طفلة.. لهذا جئت إلى هنا.. توقفوا عن محاولة النبش في طفولتي.. أليس لديكم أساليب أفضل للعلاج؟.. لَم كل هذا الاهتمام بطفولتي؟ ها؟.. لو كانت طفولتي كطفولة البقية، هل كنت سأبدو بهذا السوء حينها؟.. لقد أدركتِ ذلك من اللقاء الأول بيننا.. وأدركه بقية الأطباء أيضًا.. هل ستتأسفين على ما حصل لي؟.. وتندبين سوء حظي؟.. هل سيتغير الماضي لو حدثتك عنه؟.. إنَّه الماضي، مضى وانتهى.. انظري إلي كما أنا اليوم.. وإن كنت قادرة فحاولي تغيير الحاضر.. لا أحد يمكنه تغيير الماضي.. لكنني سأحاسبكم جميعًا على هذا.. أنت وكل الأطباء الآخرين.. سأنتقم من الجميع.. سيدفعون ثمن ما فعلوه بي.. وسترين ذلك بنفسك.. لأنَّك من سيمنحني القوة للانتقام.

أنظر إليها في حيرة، وأنا أبحث عن تلك العفريتة الصغيرة التي كانت عليها قبل لحظات، فقد اختفت وحل مكانها وحش ثائر. من المؤكد أنَّ تونا، وأيّ أحد آخر يجلس الآن في القاعة قد سمعها بوضوح.. فهي لا تتكلم، بل تطلق عويلًا، ليس من فمها فحسب، بل من ذراعيها وأنفها، وقلبها ورئتيها وكأن كل أعضاء جسدها يشاركونها في هذا العويل. إنَّه أقرب إلى دوي صافرة الإنذار، يرافقه لهاث محموم يخرج من أعماق صدرها. أمعن التفكير في كل كلمة تقولها، وأدرك أنَّ بقية زملائي قد وجدوا طريقة للتخلص منها، لكن لا مهرب لدي كما يبدو، فقد تعلقت بي، ومنذ هذه اللحظة بدأت أنا أيضًا التعلق بها بطريقة ما. رغم أنَّها تشكل مصدر خطر حقيقي، فمن المحال التنبؤ بردود فعلها، وما يمكن لها القيام به، ومتى وكيف ستنفجر، لأنَّها عاجزة عن شدّ مكابحها. إن كان هذا ما تفعله هنا، رغم عشرات اتصالات الاعتذار، ومخزون حديقة كاملة من الورود، فإنّ الله وحده يعلم ما الذي فعلته مع الآخرين.

تقول إنَّها وحيدة تمامًا، وهو ما يبدو صحيحًا، كما أنَّها تتعمد أن تظهر أسوأ ما فيها أمام الآخرين. لكن مهنة الطبيب النفسي هي اختراع علاج مختلف لكل مريض، لذا علي البحث عن سبيل للتواصل مع هذه الفتاة، ولكن كيف؟ تستاء من طرح الأسئلة عليها، وتأبى التحدث عن نفسها. وإن جاريتها في الصمت، فستعتبر الأمر حكمًا سلبيًا عليها.

ترمقني بطرف عينها لترى إن كنت غاضبة من ثورتها أم لا. لكني لا أجد تصرفها يثير الغضب بقدر ما يثير الشفقة، فهي وحيدة إلى درجة مريعة.

- الوحدة أمر غاية في الصعوبة، فجان جاك روسو يقول: "الوحدة هي أكبر مخاوفي"، حتى شخص مثله يخاف من الوحدة.
- التعاسة تكمن في الوحدة.. هذا ما يقوله روسو.

يا للعجب! إنَّها تعرف الكثير حقًا.

- هناك أسطورة ترقد في الماضي السحيق للوحدة. ففي البداية اعتاد البشر العيش في قبيلة واحدة، متمتعين بدفء هذه الرابطة القوية التي تجمعهم

معًا، ولـم يكـن يخطـر علـى بـالهم حينهـا، أن يعيـش كـل شـخص وحـده، بمعزل عن عائلته وقبيلته، لكن هذه الرابطة انفرطت بشكل مفاجئ، وفي تـاريخ لـيس بالبعيـد كثيـرًا. والآن يلـفّ البشـرية كلهـا وبـاء هـو الوحـدة، ولسوء الحظ لا يمكن للنقود أن تحل هذه المشكلة.

- تعنين.. أنّي وحيدة.. لكـن بمفهـوم جمـاعي.. أيّ إنَّـي لسـت وحيـدة في وحدتي.
- حقيقة، إنَّه تفسير ذكي.
- حين دخلت الابتدائية.. اعتقد المعلمـون أنَّـي أعـاني مـن تخلـف عقلـي.. وأجبروني على الذهاب إلى الطبيب.. ثم اكتشفوا أنَّي فائقة الذكاء.. لكنها ميزة لا تفيدني في الحياة كثيرًا.

إذًا فحتى في سنوات طفولتها كانت فتاة غريبة الأطوار، حادة الذكاء، ناجحة في دراستها، لكنها لا تعرف كيف تعتني بمظهرها، ولا كيف تسرّح شعرها، أو تهتم بطعامها وصحتها. لديها ما يكفي من النقود، لكنها لا تعرف ما تشتريه لنفسها. علي إيجاد سبيل آخر، لأنَّ الأمر بات أكثر تعقيدًا بمرور الوقت.

- من الواضح أنَّك فتاة ذكية، لكنك تعانين من مشكلة في مشاعرك؟
- مشكلة من أيّ نوع؟
- ليس لديك ضوابط.
- إذًا، عليك وضع آلية لضبطها.
- تشـعرينني وكـأني ميكـانيكي، كمـا لـو أننـي بعـدة حركـات مـن المفـك والمطرقة، سأصلح المشكلة وأعيد تصحيح الأمور.
- أنا لست سوى فتاة سيئة.. دميمة.. فتاة لا أحد يرغـب فيهـا.. أو يحبهـا.. لدي نقـود.. ذكـاء حـاد.. والكثيـر مـن المعرفـة، لكـن كـل هـذه الأمـور لا تسـاعدني علـى شـيء.. لـذا تـوقفي عـن طـرح الأسـئلة. لقـد أخبرتـك بمشـكلتي.. أخبرتـك بمـا لـدي.. وأظنـك أدركـت مـا يجـب أن يـتم

إصلاحه.. والآن أرجوك كوني طبيبة جيدة.. وقومي بحل المشكلة.

أتحاول هذه الفتاة السخرية مني؟ رغم كل هذا الذكاء، وكل المعرفة التي تملكها، تجلس أمامي بكل عناد، وهي تقول: "قومي بحل المشكلة، ولكن لا تطرحي عليّ أيّ سؤال". كيف لي معالجتها، وأنا لا أملك عصا سحرية في يدي؟ إن بقينا هكذا فسينتهي بنا المطاف إلى درب مسدود، لذا يتعيّن البحث عن سبيل آخر يتيح لي بناء علاقة معها. علي اكتشاف ما يثير اهتمامها، والتطرق إليه وكأنه مصادفة محضة. ألم تطلب إليّ قبل قليل أن أروي لها حكاية؟ رغم أنَّ علاج مريض ما من خلال سرد الحكايات لا يبدو أسلوبًا مألوفًا، وليس له فوائد يعتدّ بها، ولكنه قد يكون سبيلًا لبناء علاقة من نوع ما بيننا. سيتحتم علي المراوغة كالعملاء المتخفين للإيقاع بها، ولكن إن كان ذلك سيساعدني على كسب ثقتها، فأنا لا أمانع. كما يجب أن أحتفظ بكل كلمة تقولها في ذهني، ومقارنتها مع الأدلة والقرائن اللتين أحصل عليهما، تمامًا كمحقق بوليسي، من أجل حل هذا اللغز. لا يبدو الحديث عن النساء، عن مشاكلهن، هوسهن بالجمال فكرة سيئة.

- إذًا فأنت تعتبرين نفسك دميمة! آه من النساء! أتعلمين الأذى الذي تحملنه في سبيل الجمال، عبر مختلف مراحل التاريخ؟
- ماذا تعنين بالأذى؟
- بحلول نهاية القرون الوسطى، ومع انتشار استعمال المرآة بين النساء على نطاق واسع، بدأت صناعة التجميل تخطو أولى خطواتها. كانت البدايات كما في كل مجال آخر متخبطة، ولم تكن جميع المنتجات- التي كان بعضها غريبًا إلى حد كبير- تحقق الغرض المرجو منها، فعلى سبيل المثال كانت ملكة فرنسا إيزابو البافارية تستحم بحليب الحمير، وتضع على وجهها خليطًا من دماغ خنزير بري، وإفرازات غدد التمساح ودماء الذئب. وكانوا يظنون في تلك الحقبة أنَّ براز الطفل الذي لم يكمل عامه الأول مفيد جدًا للبشرة، فكانت هناك خادمة مختصة بمراقبة هؤلاء

الرضع الذين يتم إحضارهم إلى منازل النبلاء، وما إن يتبرز الرضيع حتى تسرع بأخذ برازه إلى سيدتها.

- يععع.. لابد أنَّ الرائحة كانت كريهة!
- بالطبع، وللقضاء عليها كانوا يمزجون البراز مع الحليب أولًا، ثم مع مرطب يعدونه من مغلي أزهار عطرية.
- بقيت حتى مرحلة متأخرة من طفولتي أتبرز على ثيابي.. ولا زلت أذكر كم كانت الرائحة كريهة.

تلتقي نظراتنا لوهلة، لا يزال الحقد والغضب في عينيها يتقدان بالزخم ذاته. أدرك أن لا فائدة من الأسئلة لأنَّها غير مستعدة للبوح بعد، بل علي مواصلة السرد، لأنَّ الموضوع أثار اهتمامها، كما بدأت الإفصاح عن بعض المعلومات، بسرعة أكبر مما كنت أتوقع.

- في القرن السادس عشر، كانت البندقية تتصدر العالم في مجال التجميل. واعتبر سيروز البندقية أفضل مادة تجميلية على الإطلاق، واحتفظ بهذه المكانة حتى القرن التاسع عشر.
- ما هو السيروز؟..
- يسمى الاسبيداج أيضًا، وهو مادة مكونة من الرصاص الأبيض والخل، وكان يضاف الزئبق إليه أحيانًا. هذا المزيج له مفعول سمي حين تمتصه خلايا البشرة، ورغم كل تحذيرات الأطباء، استمرت النساء بتغطية وجوههن مع الرقبة وجزء كبير من الصدر بطبقة سميكة من هذه المادة، التي كانت تتسبب بعد فترة من استعمالها بتساقط أسنانهن، وتسميم الأجنة في أرحامهن، وتخريب البشرة وإتلافها بسرعة، ورغم ذلك لم يتوقفن عن استعمالها، ويقال إنَّ الملكة إليزابيث الأولى ومع تقدمها في العمر زادت من استخدامها لها، حتى إنَّ أحد الكتاب قد علّق على الأمر حينها بالقول "كانت تضع كميات هائلة من المكياج، حتى غدت أشبه

بحطام سفينة نجت من أهوال المعارك والعواصف"، كانت المستحضرات الكثيرة التي تضعها سببًا في شيخوختها المبكرة، ولإضفاء الحمرة على وجنتيها الشاحبتين، كانت تستخدم مصلًا تضيف إليه كبريتيد الزئبق ويدعى الزنجفر. وفي تلك الحقبة كانت العديد من سيدات القصور يشربن شرابًا مصنوعًا من مزيج الرماد، الفحم والشمع الدهني، لاعتقادهن أنه يسهم في تفتيح لون البشرة، لكن الناجيات من هذه الخلطة المسمومة، كن يقضين بقية حياتهنّ ببشرة مائلة للخضرة.

- كانت أمي بالغة الجمال.. لكنها لم تكن تستخدم مستحضرات التجميل أبدًا.

إنَّها تتجاوب مع القصة من خلال سرد معلومات عنها، ممّا يعني أنَّ الحكايات ستسهل مهمة التعرف إلى حياتها بصورة أكبر.

- هناك الكثير من الغرائب الأخرى، فعلى سبيل المثال كانوا يطعمون الغراب بيضًا مطبوخًا مدة أربعين يومًا، ثم يذبحونه ويقومون بهرس لحمه، لتغطي به النساء وجوههن. في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أعيا مرض الجدري العالم برمته، وكان يترك على وجوه الناجين حفرًا وآثارًا لا تمحى، وقد لجأت النساء مرة أخرى للسيروز مخاطرات بحياتهن للتغطية على هذه الآثار، فأودى هو أيضًا بحياة الكثير من النساء.
- تتقنين سرد ما قرأته بطريقة غاية في الجمال.. كنت أتمنى.. لو أنِّي أستطيع التحدث بهذه الانسيابية.. هل ستسردين عليّ المزيد في زيارتي القادمة؟
- بالطبع سأفعل.. هل ترغبين في المجيء؟
- لا أرغب في إرهاقك أكثر.. وقد تأخر الوقت.. أشكرك على استقبالك لي اليوم.
- وأنا أشكرك على باقات الورود، وكما ترين فهي تغمر المكان كله، لكن بما أنَّنا تصالحنا الآن، فلا داعي لإرسال المزيد. اتفقنا؟

- اتفقنا.. عمت مساءً.
- مع السلامة.

تنهض وتخرج من الغرفة على عجل، وتترك الباب خلفها مفتوحًا، فيصل حديثها مع تونا إلى مسامعي. يا إلهي! أرجو ألا تعطيها موعدًا متأخرًا. أضغط زرّ الهاتف، فترفع تونا السماعة، لكن من الممكن لآلا أن تسمع حديثنا، لذا أطلب إليها في صوت هامس:

- لا تؤخّري موعدها كثيرًا.
- حسنًا.

فتاة غريبة بكل المقاييس! لم تشرب الكحول اليوم، لكنها اعترفت بتعاطي المخدرات بين الفينة والأخرى، لذا عليّ أخذ قابليتها للإدمان بعين الاعتبار. ذكاؤها حاد، كما أنَّ حدسها أيضًا قوي، إضافة إلى أنَّ مستواها الدراسي والمعرفي فوق كل التوقعات. أسلوبها المتقطع في الكلام لا ينتمي إلى أيّ مجموعة من اضطرابات النطق المعروفة. تتحدث في جمل قصيرة، تفصلها سكتات غير متوقعة، دون أن يخل ذلك بقدرتها التعبيرية، كما أنَّ نبرة صوتها حادة إلى درجة ترهق السمع، وأقرب إلى صوت الأطفال. وردة فعلها خلال سردي الحكايات- على فتورها- تشي باستجابة ما من عالمها الداخلي، وما سرد الحكايات بالنسبة إلى كل منا سوى وسيلة لغاية أخرى. واللافت أيضًا علاقتها الغريبة بالسلطة، والتي بدت لي مزيجًا من الافتتان والخوف. وأغلب الظن أنَّ هذه الإشكالية تنبع من سبب يتعلق بماضيها. هذه الفتاة سترهقني حتمًا.

أنهض بتثاقل من الكرسي، وقد تصلبت كل عضلاتي من طول البقاء جالسة. أشعر بمرارة في فمي. لا تزال آلا في الخارج تتحدث مع تونا، وفيما أغلق باب غرفتي، تلوح لي بيديها بحركات طفولية، فأبادلها الرد بضحكة خفيفة. أتجه كعادتي نحو النافذة، حين أرغب في التخفيف قليلًا من الإرهاق، وأتأمل مشهد أنقرة الليلي. ما إن أفتح النافذة حتى تتدفق نسمات منعشة باردة. غريب! لا أثر للضباب هذه

الليلة، أرفع نظري نحو السماء فتومض النجوم وتخبو متعاقبة، وكأنها تلقي عليّ تحية المساء. أتنفّس أنفاسًا عميقة، كي أملأ صدري قدر ما أستطيع بهذا الهواء النقي. أطفئ الأضواء الواحد تلو الآخر، ثم أتجه نحو الشموع، فيتراقص لهيبها نحو الأمام والخلف مع أنفاسي النافخة، وتهتز في ارتعاشة أخيرة قبل أن يبتلعها الظلام.

الفصل الثالث

لا أظنني تغيرت منذ أن بدأت تحمل المسؤولية، فأنا ملاحقة دومًا بما أقوم به أو بما يتعيّن عليّ القيام به. ولا أنكر أنَّ هذا الإيقاع يكلفني الكثير من الجهد، ولكن ما العمل وأنا لم أُمنح سوى حياة واحدة، أريد أن أنجز الكثير خلالها، وأن أشعر بأني ساعدت أحدًا، أو أضفت شيئًا إلى الحياة قبل رحيلي؟ فالسعي وراء سعادتي الشخصية أو رغباتي الخاصة، هو أحد الأمور التي أتململ منها، ما لم أتمم لائحة مهامي على أكمل وجه. حتى قبل قضاء عطلة ما، عليّ التأكد من أنَّي جديرة بها، وإلا تغدو عطلتي ساعات لا متناهية من النكد.

لا أعتقد أنَّي قضيت عطلة واحدة دون أن أكون جديرة بها، لأنَّي أعمل طوال الوقت بزخم هائل. فمنذ سن السابعة عشرة، حين أنهيت دراسة الثانوية في كلية (TED)، وبدأت دراسة الطب في الجامعة، وأنا أعمل دون توقف. لم أشتكِ يومًا من العمل، لكن المحيطين بي كانوا يتبرمون ويشتكون من الأمر بدلًا مني. أمي، إخوتي، ومن ثم زوجي وأبنائي، وأخيرًا أصدقائي. مرضاي فقط هم الممتنون من هذا الوضع، وإن ترك الأمر لهم فما ينبغي لي الذهاب إلى البيت أبدًا. أعلم أنَّ أحبتي لا يريدون أن أجهد نفسي كثيرًا، والأهم أنَّهم راغبون في أن أبقى إلى جوارهم ما أمكن، ولكن العمل بات جزءًا أساسيًا من حياتي. وكبقية الأمهات العاملات، كان ترك أطفالي الصغار من أجل الذهاب إلى العمل، يحزّ في قلبي، ويشعرني بتأنيب الضمير. لم أكن أمتلك حينها رفاهية ترك العمل، لذلك كنت أثمّن غاليًا الوقت الذي أقضيه معهم كل مساء، فكنت أخزن كل طاقتي، وكأني قضيت نهارًا من أمتع ما يكون، وخبأت كل تلك الطاقة حتى المساء، لأظل بكامل نشاطي

حتى لحظة خلودهم إلى النوم. كنت ألعب معهم، أقص عليهم الحكايات، نستحم معًا، أخيط مع ابنتي أثوابًا لدماها، أسبح كالبطة مع ابني، وعلى ضوء مصباح السرير، أروي لهم حكايات طويلة قبل النوم. في تلك الأزمنة كنا نستخدم المدافئ الكهربائية، فاعتدت وضع ملاءات مبللة على أجهزة التدفئة المركزية، كي تضفي بعض الرطوبة على الهواء. ولم أكن أفارقهما حتى أتأكد من أنهما غارقان في نوم هانئ.

ثم أجلس مع آيدِن لبعض الوقت، حينها أدرك كمّ التعب الهائل الذي أرزح تحته. وخلا أمسيات السبت، كنت حريصة على قضاء كل أمسياتي في المنزل، لتعويض طفلي عن ساعات غيابي الطويلة. ولأنَّ زوجي لم يكن شخصًا يهوى السهر والتسكع خارج البيت، كما كان مولعًا بالطفلين، لم يعترض على هذا الروتين. ومع مرور السنين اعتاد جسدي واعتادت روحي أيضًا على هذا الإيقاع. وبما أنَّ أقدار الجميع تكون مكتوبة منذ لحظة ولادتهم، ولكل منهم دور منوط به، فهذا هو الدور الذي منحتني إياه الحياة، لكنها منحتني بالمقابل القدرة على التحمل والرغبة في التقبّل. الدور الأول كالخطيئة الأولى، كلاهما يحدد أقدارنا منذ البداية.

الآن بتّ قادرة على فهم طبيعة هذا الدور الأولي أكثر، فهو من وضع أسس حياتي الحالية، وخطّ أقداري. كانت أمي تحبنا محبة جمّة، ولكنها كانت متسلطة قدر محبتها. ولم تبد أدنى تهاون إزاء ضرورة تحملي المسؤولية. فجملة "لا أستطيع" ليس لها مكان في قاموس حياتي، لأنَّها لم تسمح لي بذلك. "*كيف لا تستطيعين؟ عليك إيجاد طريقة ما للقيام بالأمر*" كنت أكبر إخوتي، لذا كلفتني منذ الصغر بمسؤوليات أكبر من سنّي. لم يخطر لي مطلقًا الشجار مع إخوتي أو الشعور بالغيرة منهم كما يحدث عادة بين الأشقاء، رغم أنَّ فارق السنّ بيني وبينهما لم يكن كبيرًا، ذلك أنَّي كنت مكلفة بحمايتهما وتقديم يد العون لهما، والوقوف إلى جانبهما في المواقف كافة، حتى غدت هذه المهمة جزءًا أساسيًا من شخصيتي،

وربما الغاية الوحيدة التي استقبلني لأجلها هذا العالم. وكانت مساعدتهم على الدراسة وكتابة الواجبات المدرسية، والحصول على علامات ممتازة من ضمن قائمة المهام الموكلة إلي. كانت علاقة أقرب إلى التبني منها إلى الأخوّة. وقد تمسكت بهذا الدور، وكأنه أكثر الأشياء اعتيادية في العالم، وشعرت بأنّ هموم الآخرين ومشاكلهم تعنيني أكثر مما تعنيهم، فكانت أكثر لحظاتي سعادة، حين أنجح في تنفيذ مهامي. فكلما نجحت في هذا الدور، كنت أتلقى المزيد من المحبة والقبول والاهتمام من عائلتي. كانت عملية تجارية بحتة، فكلّما أعطيت، حصلت على مقابل لعطائي، وهكذا أصبحت متمسكة أكثر بالدور المنوط بي.

منذ طفولتي كنت أستمتع بالقراءة، وتعلم أشياء جديدة، ومعرفة كل ما يمكن معرفته حول هذا العالم. لمَ؟ لأنَّ هذه الميول كانت موجودة لدي، كما أنَّ والديّ كانا يشجعانني باستمرار، ويتباهيان بذكائي ونجاحاتي وسعة ثقافتي، ويحرصان على إظهار هذا التشجيع بصورة شديدة الوضوح. وبذلك سُلبت حرية عدم الرغبة في إنجاز بعض الأمور، كما حُرمت من خيار الفشل. فقد اعتدت تحقيق ما أرغب فيه أو ما يتحتم علي، مهما كان الثمن. والآن أستحضر هذا الإصرار بشيء من المباهاة أحيانًا، ومن الحزن أحيانًا أخرى.

لو لم تتصرف معي أمي بهذه الطريقة، هل كنت سأصبح ما أنا عليه الآن؟ أم كنت سأعيش حياة مغايرة بشخصية مغايرة؟ هذا ما لا أستطيع تخمينه؟ لكنني بالتأكيد ما كنت سأتمتع بهذه القدرة على القيام بعدة مهام في وقت واحد، وعيش عدة حيوات في عمر واحد. ما كان لمركز ماداليون أن يوجد، ولا كنت سأؤلف كتبًا. فالظروف التي ينشأ فيها الطفل، والعائلة التي يكبر في كنفها، هي التي تحدد أقداره في الحياة منذ لحظة ولادته.

على النقيض من طفولتي، فقد تربى زوجي آيدِن كأمير مدلل، فشقيقه يكبره بثلاثة عشر عامًا، وشقيقته بأحد عشر عامًا، وقد كان مجيئه المتأخر فرحة لوالديه والأسرة كلها، فتمتع بكل ميزات آخر العنقود. وكانت شقيقته من تشرف على تعليمه. لكنه حين

فقد والده أولًا ثم والدته، اضطر إلى العيش وحيدًا، وعندها فقط تعلم تحمل المسؤولية. كبر ليغدو شابًا لافت الوسامة، واسع الثقافة بسبب شغفه بالقراءة. لم يحمل على كاهله أعباء أكبر من عمره، حتى إنَّه لم يكن يكلف نفسه عناء ملاحقة الفتيات، فهنّ من لاحقنه. لقد منحته الحياة دورًا مغايرًا للدور الذي منحتني إياه.

كلانا يعرف الكثير عن ماضي الآخر لأنَّنا كنا زملاء في الدراسة، وقد أمضينا معظم سنين شبابنا معًا. إلى جانب وسامته اللافتة، فقد كان يتمتع بالاستقلالية، يتمسك بمبادئه، واثقًا بنفسه إلى حد الغرور، وفي الوقت ذاته نقي السريرة، كان بارعًا في عقد الصداقات، ومحبوبًا من الجميع، فكل فتيات الكلية كنّ معجبات به، وكأنّ ذلك لا يكفي، فقد كانت لديه لائحة طويلة من المعجبات من خارج الكلية أيضًا. وقد شغله ذلك عن الدراسة فرسب عدة سنوات، فيما كنت أجتاز كل سنة بنجاح، حتى أصبحنا زملاء. وتصادف أن أرقامنا التسلسلية كانت متعاقبة، وبذلك قدمنا الامتحانات كافة معًا، وتدربنا في كل الستاجات جنبًا إلى جنب. طوال هذه السنوات، تعامل كل منا مع الآخر على أساس من الصداقة والاحترام المتبادل، مع شيء من التحفظ، حيث لكل منا حياته الخاصة. خلال دراستي اشتهرت بكوني واحدة من ألمع طالبات الكلية على شاشة التلفاز، وأخذت المجلات والجرائد تنشر عني مقالات بين الحين والآخر مرفقة بصوري، وكان كتاب المقالات يحبون تخصيص زاوية لي بين الفينة والأخرى. ولم يكن من المتوقع لفتاة من هذا النوع أن تكون ناجحة في مكان مثل كلية الطب، وأن تجتاز امتحاناتها بتفوق. كما لم يكن مفهومًا لمَ فضلت ممرات المشافي الخاوية الباردة، على ليالي السهر والحفلات الصاخبة. لكن الحقيقة هي أنَّي كنت كساعة مضبوطة مسبقًا، وكان معروفًا منذ البداية متى سيرن جرسها. حين تقدمت بطلب التخصص في قسم الطب النفسي في جامعة حاجي تيبة، سألني أستاذي المحبوب أورهان أوزتوك:

- هل أنت متأكدة من تخليك عن التلفاز يا بنتي؟ فهذا اختصاص بالغ الصعوبة، ولن تجدي فيه بريق الأضواء الذي على الشاشات، فهو يتطلب

الكثير من التكريس. كانت قدماي تقودانني إلى هذا المجال، دون أن يدرك ذهني حينها حقيقة دوافعي.

مع قرب انتهاء الدراسة، تغير شكل علاقتي بآيدِن، وانغمسنا في متعة اكتشاف بعضنا من جديد، وكأننا لم نقض كل تلك السنوات معًا، ثم تزوجنا. طوال سنين زواجنا، التي وإن تخللتها بعض الخلافات، لم أشعر بالندم ولو لحظة واحدة على زواجي به، وبقيت على الدوام أحبه وأثق به بشدة. وكان يبادلني المشاعر ذاتها، ولم تقل محبتي في قلبه عن محبته لأبنائنا. إن لم يكن هذا هو الحب، فهي محبة عميقة، ورابطة قوية من الصداقة والثقة. فإن أصابه أدنى مكروه، كنت أشعر بالألم في قلبي. ومنذ أول أزمة قلبية تعرض لها وهو في التاسعة والثلاثين، بات يتصدر قائمة أولوياتي ويحظى بكامل رعايتي، وأصبحت أراقب أدنى شحوب في بشرته بهلع. فأنا التي تواجه كل المواقف بجرأة مشهود لها، كان فقدانه فكرة تثير في نفسي رعبًا لا يوصف. وحين كان يمرض، ينتابني الجزع، وأكاد أعجز عن التصرف. ولسنوات طويلة ظلت أكبر كوابيسي هي أن يصلني فجأة الخبر الذي أخشاه. وهكذا تسلل الاحتواء والتبني إلى هذه العلاقة بصمت، وباتت هي أيضًا نوعًا من الالتزام والتكريس.

كان الاهتمام بيننا متبادلًا، وأقصى أمنياته هي رؤيتي سعيدة وفي كامل قوتي وحيويتي، وهذا ما كنت عليه دومًا. وأدنى شكوى مني، تدفعه إلى بذل كل ما في وسعه لأجل راحتي. وإن رغبت في شيء، كان يجوب أنقرة كلها، حتى وإن كان ذلك بعد منتصف الليل، كي يحضر لي ما أريد. شكواه الوحيدة، هي أنّي لم أكن أقضي معه وقتًا كافيًا.

عانى آيدِن من مشاكل قلبية سنوات طويلة، وقد اعتدت الأمر رغم صعوبته، وبمرور الوقت تعلمت التعايش مع مخاوفي، حتى لو لم أتمكن من تخفيفها، لكن كلينا لم يكن ليتوقع أن يضاف إلى هذه المعاناة المريرة، مرض مميت آخر. فهو كان يعاني بالفعل من مرض خطير، ولم يكن واردًا في الحسبان أن تتسع القائمة

لكارثة أخرى. لكن للحياة حساباتها الخاصة، فهي لا تحفل كثيرًا بما نرغب حين تتلاعب بنا. كشفت الفحوص عن المرض الخطير الذي يعاني منه، في وقت لم يكن متوقعًا أبدًا.

أكثر ما أتذكره عن تلك الأيام هو العصيان الذي اشتعل في داخلي، فكل الصبر الذي أتحلى به في الأزمات، والتعقل الذي أواجه به المواقف، تلاشى فجأة، وأصبحت شخصًا مختلفًا. كنت عاجزة عن تقبل الحقيقة، والسيطرة على الغضب الذي ألهب كياني كله، حتى إنِّي شعرت بالغضب من آيدِن نفسه، وكأنه استدعى الموت عامدًا، كان الهلع من فكرة تركي وحيدة يجمد أوصالي. وعلى العكس من اضطرابي، أظهر ثباتًا عظيمًا، وانتظر مصيره في تقبل. فقد واجه الموت قبل سنوات عديدة، ولم يكن يتوقع أن يحيا حياة طويلة، ولا يمكن لومه، فقد اتفق معه جميع زملائه الأطباء حول هذه الفكرة، وكنت الوحيدة التي ترفض تقبل الحقيقة، ربما لهذا السبب لم أتمكن من تجاوز مخاوفي.

كنت أتأمله أحيانًا بإعجاب كبير، فهو لم يكن رجلًا شديد التدين، فكيف له تقبل الموت بهذا الرضا؟ حينها تيقنت أنَّ التقبل والتدين هما وجهان لذات العملة! زاد مرضه الأخير من عمق نظراته وأضفى نعومة على صوته، وكلما نظرت إليه كان الألم يتعاظم وينهش روحي أكثر، دون أن أتمكن من تخفيفه.

مع بدء مرحلة العلاج، قمت بتنظيم حياتي لأكون معه في كل لحظة. أرافقه في جلسات العلاج الكيميائي والإشعاعي، وأشاركه في شرب كل العلاجات الطبيعية التي نحصل عليها من العطارين. بمرور الوقت أفسح الغضب الذي في صدري، المكانَ لألم عميق يعصف بي حين أراه شاحبًا خائر القوى بالكاد يقوى على التنفس أحيانًا. وبقيت أواسي نفسي بالآمال الزائفة التي تحاول الحياة إغواءنا بها.

كنت لا أعمل في المركز سوى مرة أو اثنتين في الأسبوع، وذلك للحالات الطارئة. أراد آيدِن أن أبقى إلى جواره، وقد حققت له هذه الرغبة حتى النهاية. ورغم أنَّه كان طبيبًا، لكنه لم يكن يحب المشافي، ويتململ من البقاء فيها حتى ولو

ليلة واحدة، فكنت حريصة على إبقائه في المنزل قدر المستطاع، بعيدًا عن المشافي، وإن اقتضت الضرورة، كنت أرافقه خلال فترة إقامته فيها.

كانت يحب البقاء في البيت، وقضاء الوقت معي، وبدل التحدث عن مرضه وآلامه، كان يفضل أن نجول معًا في دروب الذاكرة الضبابية لسنوات شبابنا معًا. سنوات الدراسة، ولادة أبنائنا، الرحلات التي قمنا بها معًا، أصدقائنا القدامى، أساتذتنا في الجامعة، المحاضرات والامتحانات التي كنا نقدمها معًا. كنا نشاهد التلفاز أحيانًا، وأحيانًا نلعب الكنستة، كان يستنكر الخسارة حتى في اللعب، فأحاول تمكينه من الفوز، رغم أنَّه لم يكن بالأمر الهين مطلقًا. لكنه أحد الأدوار التي كنت أتقنها مسبقًا.

كان يحب الرحلات، ولا تهمه الوجهة طالما أنّي إلى جواره، وبعد اكتشاف إصابته بورم خبيث، قمنا بالعديد من الرحلات معًا، إلى إسطنبول، قبرص، وأخيرًا أردنا أن نقضي عطلة مطولة في منزلنا في ديدم. طوال فترة مرضه لم يشتك من الألم، ولم يظهر التمرد، لا من الألم ولا على الموت الذي كان يتحاشى التحدث عنه. كان يستمتع بمشاهدة صورنا القديمة، ويدعوني أحيانًا لنشاهدها سوية، ونتذكر تلك الأيام ونحن نضحك ونتمازح، وأحيانًا نسخر من بعضنا أيضًا.

لكن المصائب لا تأتي فرادى، وكأنّها تعمدت أن تقبل في موكب. ففي الوقت الذي كنا نستمد الدعم النفسي من العديد من الأصدقاء، ممن تأثروا بشدة عند سماع خبر المرض الذي أصاب آيدِن، وبكوا بحرقة على صديقهم، وظلوا يواظبون على زيارتنا أو الاتصال بنا يوميًا، لرفع معنوياتنا- وكان هذا الاهتمام الصادق والتواصل يخففان عن كلينا بعض الشيء- زلزلت أخبار موتهم المتعاقبة، الواحد تلو الآخر، أسس عالمنا المتهاوي أصلًا، فكنا نتلقى الضربة تلو الأخرى، ولا نكاد نتماسك قليلًا، حتى نسمع بخبر وفاة أحد آخر، وعلى وقع هذه الفواجع المتلاحقة، كنا نترقب في رعب اقتراب مصيرنا المماثل.

هذا الوضع لم يؤثر فينا كلينا فقط، فحسن وياغمور-ابنانا- أيضًا كانا منهارين، يبحثان عن سبل لمساعدتنا، ولا ينجحان، ويحاولان رعايتنا بأعين جعلها

الخوف أكثر اتساعًا وقلقًا. ورغم مضي عام منذ التشخيص الأول للمرض، لكن مخاوفنا كانت تتعاظم مع كل يوم جديد. كانت ابنتي ياغمور تظل مع والدها حتى المساء، لا تكاد تفارقه لحظة واحدة، وحين تذهب إلى منزلها مساء، كان قلبها يظل معلقًا إلى خيط، حتى عودتها صباح اليوم التالي. فقد كانت تربطها منذ طفولتها علاقة فريدة مع والدها، فيما حسن يهيم حولنا في جزع صامت. كانت زيارات أصدقائه اليومية تكاد لا تنقطع، وأكثرهم مواظبة كان صديقه إيمره، ذلك الشاب النحيل، اللطيف، الذي حاز مكانة خاصة في قلوبنا جميعًا.

زفت لنا ياغمور بشرى حملها في نهاية شباط من العام 2007، فتنفسنا الصعداء ونحن نسمع أخيرًا، خبرًا يسعد قلوبنا. وقرر حسن أن يقوم برحلة مع أصدقائه إلى كارتالكايا[1]، فسررنا جميعًا لخروجه بضعة أيام من هذه الأجواء الكئيبة. في ساعة مبكرة من ذلك الصباح، قاموا بتعليق ألواح التزلج على السيارة، وانطلقوا في رحلتهم. كانت الثلوج تنهمر يومها، وبعد عدة ساعات بدأ الهاتف بالرنين، أبلغونا أنَّ إحدى السيارات على الطريق السريع خرجت عن السيطرة، واصطدمت بالسيارة التي تقل أربعة من أصدقائه من الخلف، لم يصب ثلاثة منهم بأدنى خدش، لكن إيمره الذي أخرجته قوة الضربة من السيارة، وألقت به أرضًا، لقي حتفه على الفور.

حين أبلغني آيدِن بالخبر، كان كل ما شعرت به هو ثقل غيمة الرعب السوداء الرهيبة التي أخذت تسحق صدري، والمصيبة أنَّ مهمة إبلاغ عائلته كانت من نصيبي. كان عليّ حمل سماعة الهاتف، وإخبارهم بموت ابنهم، وكما هو الحال دائمًا معي، لم يكن "*لا أستطيع*" حلًا ورادًا، فصوتي الداخلي كان يأمرني كعادته، أن ألتزم جادة الصواب، وأفعل ما يتعيّن عليّ فعله.

إن منحتني الحياة فرصة العثور على مصباح علاء الدين السحري يومًا ما، فسأطلب من المارد ثلاثة أمور، أولها مسح ذلك اليوم الذي أبلغت فيه والد إيمره

---

(1) مركز للتزلج في جبال كور أوغلو في محافظة بلول بتركيا..المترجم –

بالخبر، من ذاكرتي، فإن لم يكن المارد قادرًا على إحيائه من جديد، فليقم على الأقل بإزالة تلك اللحظات من ذاكرتي، وكأني لم أعشها قط.

لكن ذاكرتي تستعيد هذه التفاصيل مرارًا وتكرارًا، ذهب إيمره، ثم آيدِن، وبقيت الحياة مستمرة. وها أنا جالسة هذا الصباح في مركز ماداليون، المكان دافئ ونظيف. أطلب إلى نيفين كأسًا من الشاي، لأنَّي شربت قهوتي هذا الصباح في البيت، ثم أضغط زر الهاتف لأخبر تونا بأني جاهزة لاستقبال المريض الأول، وأنهض من مكاني لأفتح الباب. يدخل زوجان في حوالي الأربعين من العمر، كلاهما أنيق المظهر، لبق التصرفات، ترتسم على محياهما دلالات الدعة. للوهلة الأولى أرجح أنَّ مشاكلهما متعلقة بالعلاقة الزوجية، بسبب قدومهما معًا، لكن كليهما يتصرف بهدوء ولباقة، وهذا ما يزيد الاحتمالات في ذهني.

أصافح كليهما بابتسامة، وأنتظر جلوسهما قبالتي. من الواضح أنَّها زيارتهما الأولى إلى طبيب نفسي، فهما يتبادلان نظرات حائرة، ولا يعرفان من أين عليهما بدء الحديث. أحاول دفعهما إلى تخطي هذا الحاجز، فأبدأ حديثًا عاديًا عن الطقس والربيع، وأزمة المرور، وعلى الفور تنشأ دائرة من تبادل الآراء، وبعد تجاوز الرهبة الأولى، أخاطبهما:

- تفضلا! يمكنني سماع مشكلتكما.

الزوج رجل أربعيني، يرتدي طقمًا رمادي اللون، ربطة عنقه ومنديل الجيب من اللون ذاته، بدرجة فاتحة. يضع نظارة ذهبية الإطار، وقد وخط الشيب بوضوح كلا سالفيه. يبدأ الحديث بهدوء ووضوح، فيما يرمق زوجته بنظرات جانبية بين الحين والآخر.

- نحن متزوجان منذ عشرة أعوام، وقد وهبنا الله طفلًا، ولم نكابد أيّ مشاكل في علاقتنا. زوجتي أنهت دراستها الجامعية، لكنها لم تعمل. أمورنا المالية بخير والحمد لله، فأنا لدي شركة خاصة، كما أنَّي رجل متعلق بزوجتي وطفلي، وإن حدثت بعض المشاكل الصغيرة بين الحين

والآخر، فأنا أعترف أنَّي كنت السبب فيها غالبًا. فزوجتي امرأة هادئة، شديدة التعلق بي، وليست من النساء اللواتي يفضلن المشاوير والرحلات، فإن عرضت عليها الخروج معًا توافق، وإلا فهي لا تطالب بذلك. كانت تحضر بين الحين والآخر جلسات دينية، لكنها توقفت عن هذا الأمر مؤخرًا، لاعتلال مزاجها. فهي لا تنام كما يجب، كما امتنعت عن الكلام تمامًا، رغم أنَّها لم تكن قط امرأة ثرثارة. حين أسألها عما يكدرها ترفض الإجابة، كما أنَّها كانت رافضة فكرة زيارة الطبيب، لكني أجبرتها على القبول، وقد أحضرتها اليوم رغمًا عنها، أما حقيقة الأمر، فلتحدثك هي بنفسها.

المشكلة مختلفة تمامًا عما خيل لي في البداية، فالزوجة هي سبب المشكلة، لكن الزوج هو من ينوب عنها في الحديث. الأمر الذي لا يروق أبدًا، فحين يرفض الشخص التحدث، ويرفض حتى فكرة زيارة الطبيب، فذلك يشير غالبًا إلى مشكلة جدية لا يجب الاستهانة بها.

ألتفت نحوها مبتسمة. عيناها الواسعتان، زرقتهما رائعة. لا تضع مستحضرات تجميل على وجهها. ترتدي بدلة كحلية أنيقة، من الواضح أنَّها باهظة الثمن، وقد شبكت دبوسًا ماسيًا من الواضح أنه هو الآخر يكلف ثروة صغيرة بياقة سترتها. تبادلني النظر بابتسامة لطيفة. أتفحصها خلال هذه النظرات بطريقة مهنية، حريصة على ألا تلحظ ذلك، فأبدأ من ملامح وجهها باحثة عن إشارة على قلقها أو اضطرابها، دون أن أعثر على شيء لافت، بل على العكس تمامًا، تبدو غاية في الهدوء وهي تبتسم في وجهي. مظهرها في غاية الأناقة، لا يوجد طلاء على أظافرها، لكنها نظيفة ومشذبة بعناية واضحة، أما شعرها فمصفوف في تسريحة ناعمة خلف رأسها، بشرتها مشرقة، وأسنانها مصفوفة بطريقة جميلة، رغم أنَّها ليست ناصعة.

- لا تلقي بالًا لكلام عزمي يا دكتورة، فهو يميل إلى تهويل الأمور، رغم أنَّي لا أنكر عدم قدرتي على النوم جيدًا، خاصة في الفترة الأخيرة.

- وما السبب؟ هل تعانين من الأرق باستمرار؟
- ليس دائمًا.. وعزمي يعرف ولعي بالنوم، ولو تُرك الأمر لي، لقضيت النهار كله نائمة.
- أهناك ما يشغل بالك، أو يسبب لك القلق؟
- على العكس تمامًا، فأنا يجب أن أكون أكثر سعادة هذه الفترة، لكن يبدو أنَّ الخوف يمنعني.

تبدو الأمور وكأنها تسير على خير ما يرام، لكنني أشعر بشيء خفي غائب عن الصورة. تتحدث كزوجها بهدوء تتخلله ضحكات خفيفة، ومن الواضح أنَّ زمام القيادة في هذه العلاقة بيدها هي وليست بيد الزوج، فهي تتقدمه بخطوة. ولا يوجد ما يشير إلى معاناتها في علاقتها معه، فلا آثار للتوتر أو الاضطراب بينهما. فهي شديدة الوثوق بزوجها، وبمحبته لها، ولا يبدو أنَّ هناك ما يشوب هذه العلاقة عاطفيًا. ورغم اعترافه أنَّه أرغمها على المجيء، لكن لا تبدو أنَّها تشعر بالاستياء، بل وكأنها تتقبل هذا الأمر من زوجها كبادرة اهتمام.

إلا أنَّي أتوقف عند جملتها الأخيرة، هناك أمر محير، فما الذي تعنيه بأنَّ الخوف يمنعها من أن تكون أكثر سعادة هذه الفترة. من الواضح من النظرات المتسائلة التي يرمقها بها زوجها، أنَّ الأمور قد اختلطت عليه هو الآخر.

- من عادة الأطباء النفسيين أن يرغبوا في معرفة كل الأحداث، السعيدة منها والحزينة، لأنَّ كلًّا منها يؤثر بطريقة معينة في حياة الإنسان.
- في الحقيقة لم يكن الأمر مفاجأة بالنسبة إليّ، لأنَّي أشعر ببوادره منذ فترة طويلة، وإن لم يكن بهذا الوضوح. رؤيته تثير في انفعالًا كبيرًا، فهي تشعرني بسعادة غامرة، لكنها تسبب لي الحيرة والخوف أيضًا.. لقد خفت، ولم أعد أعلم من أكون على وجه التحديد.. وبات عليّ التفكير في كل شيء من جديد، فهناك الكثير مما يجب أن أغيره.
- إجلال، عمّ تتحدثين بحق السماء؟ ومن الذي رأيته؟

- لا تقم بتهويل القصة مرة أخرى يا عزيزي! فقد أخبرتك سابقًا بأنّي شخص بالغ الأهمية في العالم الآخر، وهو الأمر الذي كنت أدركه طوال الوقت، لكني لم أتحقق منه بشكل واضح.. ألا تذكر تلك الاجتماعات التي حدثتك عنها؟
- أيّ اجتماعات؟
- عزمي! لا تتصنع الجهل أرجوك، وهل هناك اجتماعات أخرى أحضرها؟
- أتعنين دروس تعلم القرآن؟
- إنَّها ليست دورس تعليم القرآن، بل اجتماعات لزيادة ثقافتنا ومعارفنا الدينية، فهناك نتلو القرآن، كما أنَّ الشيخ يزودنا كل مرة بمعلومات جديدة تلقي الضوء على خفايا العالم الآخر. وقد أدرك منذ اليوم الأول أنَّي مميزة عن كل من حولي، وعاملني باحترام بالغ. وهذا أمر طبيعي إن كان قد تلقى الرسالة، وأدرك الحقيقة قبلي.
- أيّ رسالة؟

تدير السيدة إجلال رأسها نحوي، وتكمل متأسفة:

- يبدو أنَّ كل الرجال من طينة واحدة يا دكتورة، إنَّهم كالأطفال حقًا.. فعزمي يحبني بشدة، وهو يبدي إعجابه بكل ما أقوم به ولا يعترض عليه، لكنه منفعل اليوم بعض الشيء، لقد حدثته عن الموضوع البارحة مساء بالذات، والآن يدّعي النسيان.
- عن أيّ موضوع تتكلمين بحق السماء؟ لن تموتي إن كررته مرة أخرى.
- يا إلهي! ألا تذكر أنَّي أيقظتك البارحة مساء من النوم؟ ما خطبك اليوم؟
- هل تتحدثين عن ذلك الحلم؟
- وأخيرًا استعدت ذاكرتك؟ يبدو أنَّك بحاجة إلى أن تفحصك الطبيبة أكثر مني.
- وما الغريب بشأن ذلك الحلم؟ لقد أخبرتني بأنّك رأيت الرسول (ص) في منامك، أليس هذا كل شيء؟

- استغفر ربك يا رجل! ما قصتك اليوم؟ وهل هناك ما هو أعظم من ذلك؟ لقد أطلعوني على الحقيقة بكل وضوح.

ها قد أطلت العقدة برأسها. إنَّها بوادر جنون العظمة، واختلال آلية إدراك الواقع، وليس من المستبعد أن يتفاقم الأمر معها حتى ينتهي بها المطاف إلى ادعاء النبوة، والغريب في الأمر أنَّ زوجها لم يلحظ أيًّا من هذه العلامات. من الواضح أنَّه يكتشف تفاصيل الحكاية معي الآن، لقد تسلل المرض في مكر وهدوء. لكن إصراره على إحضارها إلى هنا اليوم، دليل على إدراكه أنَّ هناك شيئًا جوهريًا لا يسير كما يجب. علي الآن أن أحاول جمع أكبر قدر من المعلومات. ولا تفوتني ملاحظة الشحوب الذي ظهر على وجه زوجها، فسماع هذه التفاصيل قد هز كيان المسكين، وبات متيقنًا أنَّ زوجته تعاني خللًا نفسيًا.

لدي الآن مهمتان؛ الأولى هي فهم المريضة بشكل جيد، والثانية إقناع الزوجين ببدء العلاج، وإلا فإن مرضها سيتطور بسرعة، وقد تصبح مصدرًا للخطر ليس على نفسها فحسب، بل على زوجها وطفلها أيضًا. كثيرًا ما نقرأ على صفحات الجرائد الفظائع التي يرتكبها المرضى من هذا النوع، فأولئك الذين يرتكبون جرائم بحق أسرهم أو من حولهم بسبب أوامر إلهية يعتقدون أنَّهم تلقوها، هم ضحايا هذا النوع من الأمراض. كل هذا الاضطراب يمور في داخلها، رغم أنَّ مظهرها الخارجي يوحي بأنّها سيدة متزنة تمامًا. ولو سألت تونا التي تعمل معي منذ سنوات طويلة، وتجالس يوميًا عشرات المرضى، وتتبادل معهم شتى الأحاديث، عن رأيها في أكثر الأشخاص الذين بدت عليهم علامات المرض ممن جاؤوا اليوم، فأنا واثقة بأنّها ستترك إجلال في ذيل القائمة، بل ستمتدح لباقتها ولطفها الشديدين.

على السيد عزمي أيضًا أن يدرك كل أبعاد الموضوع، وإلا فسيستخف بالأمر، لذا أبقيه في الغرفة، فيما أواصل حديثي مع زوجته.

- أتفق معك تمامًا سيدة إجلال، فالرجال حقًا كالأطفال أحيانًا. لكن من الواضح أنَّ زوجك يوليك اهتمامًا خاصًا، ويتأثر بشدة بكل ما يتعلق

بك. كما لا أخفيك أنَّ هذه الحلم أثار فضولي، هلا رويته لي من فضلك؟

- في الحقيقة ليس من المستحسن إطلاع الآخرين على هذا النوع من الرؤيا، لكنك طبيبة. حسنًا، لقد بدأت الأحلام الغريبة تراودني منذ فترة لا بأس بها.. أحلام متداخلة، وتبعث الضيق أحيانًا، ويعجز المرة عن إدراك معانيها.. وكأني أرى شخصًا من بعيد، دون أن أدرك من يكون، لأنَّه كان يوليني ظهره على الدوام، رجل طويل القامة، يرتدي عباءة بيضاء تغطي الأرض من حوله، ولا يحدثني مطلقًا.. قبل بضعة أيام كان لدينا اجتماع آخر، وكان الشيخ ينظر إلي طوال مدة حديثه، وأحيانًا يبادرني بابتسامة لطيفة، فشعرت بالحيرة من تصرفه، وعندما حان دوري لتلاوة القرآن، رفضت رغم إصراره، وكنت أشعر بطنين في أذني، وكأنّ أحدهم يحاول إخباري بشيء ما، لكني لم أفهم حينها ما كان يُقال لي. ومن ثم اقترب الشيخ مني، وأشار بيده إلى آية ما في القرآن الكريم، كانت كلمة "الله"، حين ذلك رددت اسم الله بصوت مسموع، فقال الشيخ: "الآن تمّ الأمر"، والتفت الجميع نحوي، ورددوا بصوت واحد: "الله".. عزمي يعرف كم أنا خجولة، لذا شعرت في تلك اللحظات بأنّ قلبي يكاد يقفز من صدري، واحمّر وجهي من الخجل. لقد كانت كلها إشارات وكنت عاجزة عن رؤيتها، فأحيانًا لا ندرك الحقيقة رغم أنَّها تكون ماثلة أمام عيوننا. عدت إلى البيت وأنا أشعر بدوار ونشوة، فنمت على الفور. حين عاد عزمي إلى البيت مساءً، سألني" ما بك؟ هل أنت مريضة؟"، فأجبته: "ليس تمامًا، ولكن الجميع يعرف، فهل كنت تعرف أنت أيضًا؟"، فأجابني: "الأمر واضح على وجهك"، حينها أدهشتني إجابته، فقد كان يعلم الحقيقة منذ البداية، ولكنه لم يطلعني عليها. وربما كان أول من أدركها- على الرغم منه أنَّه يرفض الاعتراف بها الآن- لأنَّه ومنذ أول يوم لزواجنا، يعاملني

بتقدير بالغ، ولا يرفض لي طلبًا، وليس مرد الأمر إلى المحبة وحدها، فهو هو يهابني بطريقة ما.. تلك الليلة فكرت في الأمر كثيرًا قبل أن أنام، وراودني ذلك الحلم، فالرسول (ص) الذي كان يرفض أن يوليني وجهه سابقًا، سمح لي أخيرًا بأن أرى وجهه بكل وضوح في تلك الرؤيا. كان يقبل نحوي رويدًا رويدًا، وحين اقترب مني حياني بإيماءة من رأسه، ثم هتف: "الله"، ومن ثم ارتفع نحو السماء عاليًا بسرعة البرق.. يا إلهي! كلما تذكرت هذه الرؤيا، أشعر بإحساس غامض أعجز عن وصفه، يرتعش جسدي كله، أترين كيف ترتعش يداي؟

ترفع يديها وتريني إياهما فيما تتحدث، فلا ألحظ خاتم الزواج في يديها، ولكني بالمقابل أشاهد خاتمًا ذهبيًا سميكًا في بنصر الزوج الأيسر. المسكين استحال إلى فزاعة من الرعب إزاء اعترافات زوجته، وهو يمسد شاربه الخفيف بطريقة آلية طوال الوقت.

- أجل، الأمر واضح سيدة إجلال، فقد ترك هذا الحلم أثرًا بالغًا فيك، ولكن ما تفسيرك له؟
- وهل يحتاج إلى تفسير؟ ألا تؤمنين بالله يا دكتورة؟
- وهل يعقل ذلك؟ أنا امرأة شديدة الإيمان بالطبع.
- لقد لاحظت ذلك، فحال دخولنا، قمت باستقبالنا بحفاوة بالغة، والسيدة تونا أيضًا عاملتنا باحترام شديد، وبذلت كل جهدها للاهتمام بنا. يبدو أنَّ الجميع يعلم الحقيقة، وأنا الوحيدة التي كنت غافلة عنها حتى الآن، رغم أنَّي كنت أتلقى العديد من الإشارات، لكني لم أعلم قط بأنّي على هذه الدرجة من الأهمية. وأعترف لك أنَّ مهمتي الآن بالغة الصعوبة، فأنا لم أفكر بعد من أين عليّ البدء، لأنَّ الأمر قد حصل بشكل مفاجئ، فالله وحده يعلم ما يتعيّن عليّ فعله لأكون جديرة بهذه المهمة.
- وما الذي يتعيّن عليك فعله؟

- أنا أكثر من الدعاء، لكني بصراحة لم أكن أواظب على أداء الصلاة، فقد شغلتني الحياة الزوجية وتربية طفلي عن ذلك، لكني منذ انضمامي إلى هذه الجلسات الدينية، تداركت خطئي، فعدت للمواظبة على الصلاة، والإكثار من الدعاء.. لو فعلت ذلك منذ البداية، لكان ذلك أفضل.
- حسنًا، وماذا عن الطفل؟ من سيهتم به؟
- لقد أرسلته منذ ثلاثة أشهر إلى والدتي لتعتني به، فأنا لا أستطيع القيام بكل شيء في وقت واحد، عليّ التفرغ لأشياء أهم حاليًا.
- أشياءمثل ماذا؟
- ذلك أمر يتطلب بعض الوقت، فهم لا يخبرونني كل شيء دفعة واحدة. كما أنهم سيأتون قريبًا، لرفعي إلى الأعلى.
- الأعلى؟
- أرجوك يا دكتورة، لا تتصنعي الجهل! فمن المحتم أن يأتوا لأخذي ما إن تنتهي مهمتي هنا. وسأنجز ما تبقى هناك.

لقد أخذت الأوهام تتجسد، وأزيحت الستارة عما تخفيه، لتأخذ كل فكرة مكانها الطبيعي في لوحتها الذهنية، فأصبح بإمكاني رؤية اللوحة كاملة. إنَّها أعراض جنون العظمة، ففي البداية تختلط الأمور في ذهن المريض، ويهجس بحدوث أمور غريبة وخارجة عن المألوف في حياته اليومية ومحيطه، لكن دون أن تكتسي طابعًا واضحًا. خلال هذه الفترة عادة ما يعاني المرضى من القلق وتسوء علاقاتهم مع الآخرين، ويشوبها الشك والارتياب، ويحاولون استنباط معانٍ خفية لكل ما يجري من حولهم، وهي المرحلة الأولية التي تتسم بالتشوش الذهني، فالأفكار لم تجلس في مواضعها بعد، ويعتقدون بأنَّ كل ما يجري من حولهم، يبث لهم رسائل مشفرة، ابتداء من الأصوات في الشارع، أضواء السيارات، الأحاديث العادية والضحكات العابرة في محيطهم، كل كلمة تقال لهم، أخبار الجرائد، برامج التلفاز، وليس انتهاء

ببكاء طفل رضيع على سبيل المثال، فهي كلها تحمل معنىً خفيًا ورسالة مشفرة، والنقطة الجوهرية المشتركة بين هذه الإشارات كلها، هي الدلالة على مكانتهم العظيمة، ومع تطور الأعراض يتوهم البعض منهم أنَّ كل أجهزة المخابرات في العالم تلاحقهم، أو أنَّ العالم كله مولع بهم، أو أنَّ زوجاتهم أو أزواجهن يقومون بخيانتهن، أو أنَّهم يتلقون رسائل إلهية بالغة الأهمية، ولعل هذه الأخيرة هي الأخطر من بين كل ما سبق، لأنَّ مضمون هذه الرسائل يختلف، وقد يضطرون بناء على نوع المهمة التي كلفوا بها، إلى القيام بأعمال بالغة القسوة والوحشية، فليس من المستبعد التضحية بأبنائهم مثلًا كقرابين إلهية، أو إنهاء حياة آخرين، عقابًا لتحالفهم مع الشيطان كما يظنون. ولأنّ حالتهم الذهنية تستدعي الدخول إلى مشفى للأمراض العقلية وليس السجن، يتم إعفاؤهم من العقوبة.

في هذا النوع من الجرائم في بلادنا، يتم تحويل الجاني إلى لجنة الطب النفسي للكشف عن حالته الذهنية، وحين يتم إثبات المرض، يوضع المريض في مشفى الأمراض العقلية بدل السجن، لتلقي العلاج اللازم، وغالبًا ما يتم إطلاق سراحه بعد انقضاء عام أو أكثر بقليل. الأمر المؤسف أنَّه من الأمراض التي تكون احتمالية عودتها عالية جدًا، ومن الصعب بلوغ الشفاء، ما لم يستمر العلاج مدى الحياة. لكن معظم المرضى، يتوقفون عن تعاطي الأدوية بعد مدة من الزمن، حينها يطل المرض برأسه من جديد. واحتمالية تكرار ارتكاب جريمة أخرى بالنسبة إلى أولئك الذين لديهم سجل إجرامي من ضحايا هذا المرض، مرتفعة جدًا.

وما تلك الأخبار التي نقرؤها في الجرائد بشكل متواتر، عن قيام رجل بقتل زوجته أو عشيقته لاعتقاده بخيانتها، إلا دلالات على مدى خطورة هذا المرض ما لم تتم السيطرة عليه.

من الواضح أنَّ السيد عزمي قد منح زوجته الأمان الكافي، لذا لجأ المرض إلى اتجاه آخر للكشف عن نفسه، ولا يبدو أنَّه تكبد عناء كبيرًا، فقد وجد ضالته في الدروس الدينيَّة التي تحضرها السيدة إجلال.

بينما أحاول ترتيب هذه الأفكار في رأسي، تنتقل نظرات السيد عزمي بيني وبين زوجته، وقد جحظت عيناه من هول الصدمة. يتمسك بطرفي سترته ويشدها نحو الأمام بين الفينة والأخرى متململًا في مقعده، فهو أكثرنا دهشة مما سمع. فمع سرد زوجته الأحداث، أخذ لون المسكين بالامتقاع، لكن إرغامه زوجته على المجيء اليوم، يدل على إدراكه أنَّ الأمور لا تسير على ما يرام. والآن تكمن مهمتي الأساسية في إقناع السيدة إجلال بالعلاج، وهي مهمة تتطلب كل ما في مخزوني من هدوء وروية. فلو صارحتها بالقول "أنت تعانين من مرض نفسي، وهو مرض غاية في الخطورة، وقد يشكل تهديدًا جديًا على حياة كل من يحيط بك"، فستواجه كلامي بالضحك، وستخرج دون عودة. وإن اجتمع الكون كله لأجل إقناعها، فلن تهتز لها شعرة، بل ستتمسك بأوهامها أكثر. لذا عليّ البحث عن سبيل آخر.

تبدو سيدة لطيفة، وودودة جدًا، لكن زوجها قد أعطاني أولى الدلالات، فهي هادئة كثيرًا، قليلة الكلام، ولا تخرج من المنزل ما لم يعرض عليها ذلك، ممّا يعني أنَّها منطوية على نفسها، وهي صفة ملازمة لمعظم ضحايا هذا المرض، فهم أشخاص هادئون، لا يثير العالم الخارجي اهتمامهم كثيرًا، وعلاقاتهم الاجتماعية في حدودها الدنيا، لا يصرّحون بمشاعرهم، تراودهم الكثير من الأوهام، شديدو الحساسية والتأثر بكلام الآخرين، ميالون إلى تضخيم الأحداث في أذهانهم، ثقتهم بأنفسهم متدينة، وغير متصالحين مع ذواتهم، ويربضون فوق مخزون هائل من الغضب تجاه هذا العالم الذي لا يقدرهم حق قدرهم، ولا يوليهم الاهتمام اللازم.

الأمر المحزن هو عدم قدرتها على الاعتناء بطفلها، الذي أرسلته إلى والدتها للاعتناء به منذ ثلاثة أشهر، وهي ليست مدة وجيزة. هل يجب علي البدء من هذه النقطة؟

- طفلك الآن في رعاية والدتك، أليس كذلك؟..
- أجل، وقد أحسنّا فعلًا بإرساله، فلدي الكثير من العمل للقيام به حاليًا.

- كم عمره؟
- خمس سنوات ونصف، سيدخل المدرسة العام القادم.
- ولم تريه منذ ثلاثة أشهر؟
- أراه في حلمي أحيانًا.
- ليس من الجيد أن يبقى طفل في هذه السن بعيدًا عن والديه فترة طويلة، لكنك تبدين متعبة سيدة إجلال.
- أجل، متعبة جدًا.. فأنا غير قادرة على النوم منذ أشهر، وكلما أغمضت عيني قليلًا، تعاودني تلك الأحلام الغريبة.
- إذًا فالأرق هو السبب؟
- كما أشعر بالدوار أحيانًا، فحين أنحني أثناء الصلاة أشعر بأني على وشك السقوط.

يتدخل زوجها معلقًا:

- لكن صلاة الناس تنتهي في خمس دقائق، أما صلاتك ما إن تبدأ، فلا تنتهي. إنَّها تقضي نهارها كله على سجادة الصلاة يا دكتورة.
- لا تتدخل أرجوك، فأنت لست قادرًا على إدراك هذه الأمور.

إذًا فهي تقضي ساعات طويلة في الصلاة، ممّا يعني أنَّ المرض قد بدأ منذ فترة لا بأس بها.

- السيدة إجلال محقة، فلا يجب علينا التدخل في كل شيء، هي أدرى بما يجب عليها القيام به في هذه المرحلة، لكن وبصفتي طبيبة أودّ التدخل حرصًا على صحتك، فأنت بحاجة إلى أن تكوني بكامل قواك حاليًا، كما أنَّ تحسن صحتك، قد يساعدك على استرداد طفلك أيضًا، فمن يدري كم اشتاق إليك الآن! بالمناسبة ماذا عن شهيتك؟
- لا بأس بها، حتى وإن لم آكل شيئًا فلن يضيرني ذلك.

يعود زوجها للتدخل معترضًا:

- إنَّها لا تطبخ يا دكتورة، ولا تأكل أيضًا. كيف لن يضيرك عدم الأكل؟ ألست من لحم ودم؟!
- أرجوك، سيد عزمي!- ثم التفت نحوها- يكون الرجل شديد التعلق بزوجته، فهو يتدخل في كل ما يخصها. سأصف لك دواءً واحدًا حاليًا سيدة إجلال، ويتعيّن عليك أخذه مساء، لينتظم نومك ويختفي الدوار، ثم سنهتم بأمر فقدانك الشهية، التي قد تستمر لوقت أطول بعض الشيء، ولكن لا تقلقي، سنبدأ بعلاج المشكلة لاحقًا. وأرجو ألا تأخذي أيّ أدوية أخرى حاليًا، فوضعك لا يستدعي مطلقًا الكثير من الأدوية.
- أنا لا أحب الأدوية عادة، لكني سأتناول ما ستصفينه لي، لأنّي بحاجة إلى استرداد قواي، فهناك الكثير من العمل بانتظاري.
- حسنًا، لا تقلقي، سينقضي كل ذلك. ها هي الوصفة، وهذه بطاقتي وعليها أرقام الهواتف كافة، بإمكانك الاتصال بي في أيّ وقت تحتاجين.

يسارع السيد عزمي بأخذ الوصفة والبطاقة من يدي قبل زوجته، ويخرج الاثنان بعد أن يقوما بمصافحتي. يحدق الزوج إلى عيني بإصرار، ومن الواضح أنَّ عشرات الأسئلة التي لا يستطيع طرحها الآن، تدور في ذهنه. فأومئ له بعيني مطمئنة، وأسأله مشددة على كلماتي:

- لقد أعطيتك البطاقة التي تحمل أرقام الهواتف كما أظن، سيد عزمي.

يدرك ما أرمي إليه، ويبدو عليه الارتياح قليلًا وهو يرفع البطاقة بيده. ليس من الصعب التخمين أنَّ أول ما سيقوم به حين تتاح له الفرصة هو الاتصال بي.

السيدة إجلال تعاني من مرض نفسي خطير، وطبيعة شخصيتها تشكل بيئة مناسبة لاحتضان هذا المرض، فهي حساسة، تتجنب افتعال المشاكل. ومن المؤكد أنَّ محبة زوجها ورعايته ساهمتا في تسهيل حياتها، وربما أخّرا ظهور ذلك المرض أيضًا، لكن رغم كل شيء فالمرض موجود في جيناتها، وتلك الجينات قد خطت أقدار السيدة إجلال، حتى قبل ولادتها. لكن ليس من الحكمة إطلاق إحكام قاطعة

الآن، فما نعزوه إلى الجينات حاليًا، قد نكتشف لاحقًا أنَّه قابع في زوايا طفولتنا الغامضة المعتمة، ودروبها الضبابية.

هذا المرض الذي نسميه عادة "البارانويا"، يغزو ذهن المريض في مكر شديد، فيبدأ الارتياب بمن حوله، ويصبح أكثر حساسية وريبة، وبمرور الوقت وربما تحت وطأة ظرف ما، تختلط الأفكار في ذهنه وتستحيل إلى ألغاز يصعب عليه فك طلاسمها، ويعجز عن العثور على إجابة توضح له الحقيقة. حينها يتوهم أنَّ صوتًا ما يناديه، ويحاول أن يكشف له عن سرٍّ ما، سرٍّ سيغير المعاني والألوان التي اعتادها كل هذه السنوات، دون أن يتمكن من معرفة جوهره رغم كل محاولاته، أو حتى التخلص من هذه الفكرة. فيعاني من القلق والتوتر، ويعجز عن بلوغ الراحة والهدوء مهما حاول، فيما تشتد في ذهنه العواصف وتتلاطم أمواج الأوقيانوس الهائل، لتقذف بقاربه يمينًا وشمالًا دون أن يكون قادرًا على مقاومتها، وسط رعبه من أن يبتلعه ذلك المحيط الهائل في أعماقه المعتمة. وأخيرًا، في يوم ما، في لحظة غير متوقعة بالنسبة إليه، يتغير كل شيء، فتهدأ الأمواج، وتشرق شمسه الخاصة، وتحت صفاء بريقها المخادع، يكتشف الشخص حقيقة نفسه التي أعياه البحث عنها. ولا يستهجن تلك الحقيقة التي يكتشفها هناك *"فأحيانًا لا ندرك الحقيقة رغم أنَّها تكون ماثلة أمام أعيننا"*، ويتمسك بما يعتبره حقيقة بكل قواه. فهو من الآن فصاعدًا، إما رسول إلهي يحبه الملايين ويلهثون خلفه، أو شخص يملك من المعلومات ما قد يغير أقدار هذا الكون، لذا تلاحقه كل أجهزة المخابرات في هذا العالم، وإما شخص باهر الجمال، شديد الجاذبية، يغزو القلوب بنظرة واحدة، لا ضير أن يموت في سبيله الآلاف. تختلف تفاصيل القصة التي تلف شباكها حول المريض من حالة إلى أخرى، لكن الفكرة الجوهرية المشتركة بين هذه القصص هي اعتقاد المريض أنَّه شخص بالغ الأهمية؛ شخصية مقدسة، عظيمة، تعيش حياة لا تماثل حياة الآخرين مطلقًا، ومكلف بمهمة ستغير مصيرنا جميعًا.

بعد انصراف السيد عزمي وزوجته، أستقبل مريضين آخرين قادمين من مكان بعيد، وفي كل مرة أنهض فيها لفتح الباب، لاستقبال أو توديع مريض، أجد آلا

قبالتي، جالسة على مقعد قريب من طاولة تونا، فقد جاءت مستبقة الموعد بوقت طويل كما في المرة السابقة، وكلما التقت نظراتنا تبادلنا ابتسامة خفيفة. فاتني موعد الغداء كعادتي، أخرج من الغرفة راكضة فيما تراقبني في دهشة وبعض الخوف، وتحاول تونا إخباري بشيء ما، فتنزع السماعة عن أذنها، وتسرع للحاق بي صاعدة الدرج، وهي تخبرني بأنّ: "الدكتور محمد عاكف يودّ التحدث إلي"..

- إن كان لديه وقت الآن، فأخبريه بأني في انتظاره فوق، سأتحدث إليه وأنا أتناول الغداء.

وقبل أن أكمل تناول صحن الحساء، يظهر ممو عند الباب بقامته الطويلة، ثيابه كلها بيضاء كعادته، ويكاد بياض قميصه يتلألأ. يجلس قبالتي بابتسامته المعهودة. الكافيتريا دافئة، مضاءة، رائحتها الندية تشبه رائحة منزل طفولتي، مزيج دافئ من الرطوبة وبخار الطعام الزكي. نيفين تنتقل بين الطاولات بخفة. لم يبق أحد في الكافيتريا سوانا، وبعد أن تحضر لممو كأسًا كبيرة من الشاي، تتركنا وتمضي لإتمام عملها. يرغب ممو في استشارتي حول حالة أحد مرضاه الذي يشرف على علاجه منذ مدة، ولكن أعراضه تشير بوضوح.إلى أحد أنواع البارانويا، ويطلب إليّ أن أقابل المريض.

- يجب البدء بمرحلة العلاج الدوائي. يقول.
- هل لدى المريض مشكلة من هذه الناحية؟
- كانت لديه بعض التحفظات، لكني تمكنت من إقناعه في النهاية.

يسألني بدوره عن حالة آلا، فأشرح له أنّي مضطرة إلى استخدام أسلوب نادر في العلاج النفسي، من خلال سرد الحكايات، فيستحوذ الموضوع على اهتمامه، ويقترح قائلًا:

- ربما من الأفضل عقد ندوة حول هذا الأسلوب في المركز، ما رأيك؟
- حسنًا، ربما يشدّ الموضوع انتباه بقية الزملاء، وسيكون من المفيد لو تبادلنا بعض الأفكار.

ننتهي من الطعام والنقاش، ويسرع كل منا بالعودة إلى مرضاه، فلا يزال بانتظارنا الكثير. ما إن أدخل الردهة، حتى تنهض آلا، وهي تحدق إلى عيني تونا بسعادة طفولية، أخيرًا حان دورها، فتسرع للحاق بي إلى الغرفة.

لا تنسى إغلاق الباب خلفها هذه المرة، أصافحها بابتسامة، وألحظ أنَّها قد تخلصت من الخرقة التي كانت تلف بها إبهامها، لكن من الواضح أنَّها تلقت إصابة بالغة، فهو لا يزال متورمًا، وقد استحال لونه إلى صفرة مزرقة. تبادلني ابتسامة خفيفة وهي تجلس على المقعد قبالتي. ذوقها في الثياب غريب كعادتها ولا يناسب عمرها، فهي ترتدي سترة صوفية قديمة، وبنطالًا فضفاضًا، كلاهما بني اللون. أكمام السترة الطويلة تنسدل من الجانبين حتى تصل ما تحت ركبتيها، وإن حاولتُ نفض سترتها، فستغرق الغرفة في سحابة من الغبار والوبر والقذارة، عدا عن القشرة التي تغطي كتفيها بطبقة لا يمكن ألا يلحظها المرء. الأكمام طويلة جدًا، ومهما حاولت رفعهما إلى الأعلى لا أتمكن من رؤية يديها. وخلال محاولاتها المتكررة رفع كميها، ألحظ إسواري الذهب المبرومين في يدها، كان لدي اثنان منها، قدمتهما لي حماتي هدية. لم ترتديهما يا ترى؟ فهي ليست من الأشياء التي يرتديها شباب هذه الأيام. حتى أنا لم أقم بارتدائهما سوى مرتين مجاملة لحماتي، ومنذ ذلك الحين وهما قابعان في أحد أدراج الخزانة. تستند بظهرها إلى الأريكة، وهي تؤرجح قدميها، ورغم ارتدائها خفي البلاستيك، لكن ذلك لا يخفي تشققات حذائها الجلدي الأسود، والواسع كبقية ما ترتديه، فمع كل حركة من قدميها، يخرج الكعبان. كيف تستطيع السير بهذا الحذاء الواسع؟ وما الذي يجعلها تبدو بهذا المظهر الغريب؟ يا إلهي! عشرات الأسئلة ترافق حضورها، إنَّها أشبه بكرة صوف تشابكت وتعقدت، ولا أدري كيف سأعثر على رأس الخيط، لفك عقدها.

لا تنظر نحوي مطلقًا، وكأنّ ما من أحد في الغرفة سواها، وإن لم أقم بكسر هذا الصمت، فإنَّها ستظل تؤرجح قدميها قبالتي كما يبدو، محتفظة بصمتها إلى الأبد. في كل مرة أكتشف أنَّي لا أعرف عنها سوى النزر اليسير.

- أهلًا بك.
- شكرًا.
- كيف حالك اليوم؟
- بخير.. لقد كانت المعلومات التي أخبرتني بها ممتعة جدًا.. هل ستروين المزيد؟

من الواضح أنَّها تلجأ إلى الحكايات، كلما رغبت في تحاشي أسئلتي، ولكن كيف يمكن تقييم نتيجة هذه الجلسات دون طرح الأسئلة؟ ليتني لا أشعر حيالها بكل هذا النفور، حينها ستغدو مهمة سرد الحكايات أسهل بالتأكيد.

- ولكن لا يمكن أن أستمر بالسرد، وأنت في الصمت! ما رأيك أن تسردي لي شيئًا مما تقرئين، طالما أنَّك مولعة بالمطالعة؟
- حسنًا، ربما سأفعل ذلك يومًا ما.
- كم وزنك؟ تبدين بالغة النحول.
- واحد وأربعون كيلو.
- وطولك؟
- متر وواحد وسبعون سنتيمترًا.
- أليس هذا الوزن قليلًا جدًا بالنسبة إلى طولك؟
- ألن تسأليني.. عن خصري أيضًا؟..
- إذًا فلا تزالين مستاءة من طرحي الأسئلة؟
- لا، لا.. ليس الأمر كذلك.. بالمناسبة، محيط خصري هو خمسة وأربعون سنتيمترًا.

لا ترغب في طرح الأسئلة عليها، وتأبى أن تحدثني عن نفسها، ورغم ذلك فهي مصرة على المجيء. بشرتها رقيقة جدًا، رغم البثور التي تغطيها، حتى إنَّ الأوردة الرقيقة الصاعدة من وجنتيها نحو صدغيها تظهر بوضوح تحت هذه الطبقة الرقيقة. لكن تلك الأوردة النازلة نحو عنقها، ثخينة وبارزة بصورة لافتة، ومائلة إلى

زرقة قاتمة. سترتها الفضفاضة تحول دون رؤية جسدها شديد النحول. قد يستدعي مظهرها الشفقة، لكني رغم محاولتي، أخفق في الشفقة عليها. أحاول النبش في أعماقي بحثًا عن أدنى شعور إيجابي تجاهها، فأخفق مجددًا، وهو الأمر الذي يزيد من غضبي واستيائي.

تظل صامتة وهي جالسة قبالتي محنية الرأس، وكأنها جالسة في الموقف بانتظار الحافلة. عليّ كسر هذا الصمت الثقيل، وإلا فستزداد وطأته ويستحيل إلى كآبة. من الأفضل البدء بسرد شيء ما.

- إذًا فخصرك خمسة وأربعون سنتيمترًا؟
- هم هم.
- أتعلمين أنَّ النساء الأوربيات في القرن التاسع عشر، اعتدن ارتداء مشدات خصر بالغة الضيق، لتبدو خصورهن نحيلة. وحتى بدايات القرن التاسع عشر كانت المشدات مصنوعة من الجلد بسماكة سنتيمتر ونصف. وكان مظهر النساء بتلك المشدات التي تمتد من خصورهن وحتى القفص الصدري، أشبه بمظهر نملة أدخلت في أنبوب ضيق، وبالنسبة إلى المواظبات منهن على ارتداء المشدات، كانت عضلات الخصر والظهر تصبح ضعيفة جدًا، فتستحيل إمكانية الجلوس دون مشدّ، حتى إنَّهن كن مضطرات إلى ارتدائه أثناء النوم أيضًا. وكانت الفكرة السائدة حينها، أنَّ ذوات الخصر النحيل، يمتلكن جاذبية جنسية أكثر من سواهن. فبفضل هذه المشدات، ومهما كان صدر المرأة صغيرًا، فقد كان يعلو حتى ما قبل ذقنها بقليل، مما كان يضفي عليها مظهرًا مثيرًا.

تكركر ضاحكة كالأطفال، فأدنى تلميح جنسي يدفعها للضحك من أعماق قلبها، رغم أنَّ ضحكتها أيضًا غريبة كأسلوبها في الكلام، وكأنها تتعلمها توًّا. يتبدد القلق الذي كان يخيم على الأجواء سابقًا، فيما تواصل الاستماع إلى قصتي في فضول، وهي تلوح بقدميها نحو الأمام والخلف.

- تركت المشدّات آثار نفسية إلى جانب تلك الجسدية على النساء. وقد أظهر تشريح أجساد النساء من العهد الفيكتوري، أنَّ هذه المشدات ألحقت أضرارًا جسيمة بالكبد، حتى إنَّها في بعض الحالات قد أدت إلى تمزيقه إلى قسمين، ورغم الدلائل العلمية كافة التي كانت تشير إلى الأضرار التي تلحقها المشدات بأجساد النساء، فقد تجاهلن تلك المحاذير، وواصلن ارتداءها حتى عهد ليس بالبعيد، وكل ذلك في سبيل الحصول على خصور نحيلة، حتى خلال فترة الحمل واصلن ارتداء المشدات، وكان ذلك السبب في وفاة الكثير من الأجنة.
- الجمال عنصر أساسي في حياة النساء.
- أجل، وقد كان الأمر كذلك خلال العصور كافة.
- وماذا عن النساء القبيحات.. ماذا يجب أن يفعلن؟
- لا توجد في رأيي امرأة دميمة، بل هناك امرأة حمقاء.
- وهل أبدو لك حمقاء؟
- لا أدري، من الصعب أن أطلق هذه الصفة على فتاة متفوقة في دراستها، ما رأيك أنت؟
- لست غبية.. ولكن هناك الكثير لأتعلمه.. وأنت ستعلمينني.

أسلوبها أشبه بمن يلقي الأوامر، ترى أهي وقحة إلى هذا الحد، أم إنَّها بالفعل لا تتقن آداب الحديث؟ لم أصل إلى قناعة بعد في هذا الأمر. حتى نظراتها وهي تطلب إليّ أمرًا ما تزعجني. قد تكون هذه المشاعر السلبية تجاهها، هي ما يمنعني من اكتشاف حقيقتها، فنسير كلانا في درب معتم متلمستين جدران هذا النفق الذي لا نعلم متى سينتهي، وما الذي ينتظرنا في نهايته. لو أنَّي أعثر في خبايا روحي على بعض المحبة تجاهها، فربما يخفف ذلك عني مشقة الدرب، فهذا عادة ما أقابل به مرضاي، لكني رغم المحاولات كافة أعجز عن تحقيق ذلك. كما أنَّي لا أملك فرصة تحويلها إلى زميل آخر لمواصلة علاجها، وليس أمامي الآن سوى تركها

لمصيرها، أو مواصلة هذا الطريق معها، رغم وعورته.

- إن أخبرتني ما تحتاجين إلى معرفته، فربما تصبح مهمتي أسهل.
- أحتاج إلى الكثير.. أليس لديك حكاية أخرى؟
- حكاية أخرى؟
- اعتبري الأمر حاجة.. ألا يمكنك؟
- حسنًا، ما رأيك بقصة أخرى عن النساء؟
- رائع.. عن الجمال مرة أخرى؟
- ربما.
- لتكن عن الجمال.. هيا ابدئي!

مكتبة
t.me/soramnqraa

تجلس وقد استدارت نحوي، يداها تحت ذقنها، ونظراتها مليئة بالخوف والفضول والترقب، تمامًا كطفل ينتظر سماع حكايته المفضلة، ألم تكبر هذه الفتاة قط؟ أحيانًا تبدو لي طفلة بريئة، وأحيانًا قطة تخرمش كل من يقترب منها، وأحيانًا أخرى تبدو كثعلب ماكر.

- عبر التاريخ، كانت ضريبة الجمال دومًا باهظة الثمن بالنسبة إلى النساء، ففي بعض قبائل إفريقية على سبيل المثال كانت النساء معتادات ارتداء حلقات معدنية في أعناقهن لتصبح طويلة، وكن لا ينزعنها حتى وفاتهن، صحيح أنها كانت تمنحهن أعناقًا طويلة، لكنها كانت تمنع عضلات العنق من النمو.
- وهل العنق الطويل.. شيء جيد؟
- كانت هذه المعايير رائجة في إفريقية حينها، ولكن حتى في عصرنا الحالي تعتبر المرأة طويلة العنق محظوظة.

تحني رأسها نحو الأمام والخلف، وهي تحاول قياس طول عنقها بيديها، وأراقبها فيما تفعل ذلك.. لديها عنق طويل ونحيل، يبدو بالكاد قادرًا على حمل رأسها.

- في رأيك هل عنقي طويل؟
- أجل، إنَّه كذلك.
- حسنًا، وماذا عن الصين.. كانوا يفعلون شيئًا لتصغير الأقدام...؟ هل تعرفين تلك الحكاية أيضًا؟
- أعرفها، ولكن يبدو أنَّك أيضًا تعرفينها، لذا لا داعي لكي أحكيها.
- لا، لا.. أرجوك أريد سماعها.

إنَّها تملي علي ما يجب أن أقوله، أتأملها لوهلة محاولة معرفة السبب الذي يدفعني إلى النفور منها إلى هذا الحدّ. ما الذي يثير في رغبة بالكاد أتمكن من كبحها، في تسديد لكمة إلى وجهها يا ترى؟ أهي نبرة صوتها الحادة، أم أسلوبها المتقطع في الكلام؟ أم عي عيناها الباهتتان كعيني جثة، واللتان تحدق بهما في إصرار يستفزني؟ أتذكر آيدِن حين كان يحدثني عما يزعجه في العمل أحيانًا، فقد كان طبيب تخدير، وخلال العمليات كانت تفوح من بعض المرضى رائحة نتنة، وكان مضطرًا إلى البقاء قريبًا من المريض، واستنشاق هذه الرائحة لساعات أحيانًا، وهذا ما كان يشعره بضيق شديد. ورغم نفوره من الأحاديث الطويلة أو المكرورة، لكن هذا الأمر كان من بين الأمور النادرة التي يواصل الحديث عنها متشكيًا. وهذا ما أشعر به تمامًا إزاء هذه الفتاة الآن، ولا أظنني الوحيدة في ذلك، فكما كان كل من في غرفة العمليات ينال نصيبه من تلك الروائح المزعجة، فإنَّ كل من يرى هذه الفتاة أو يتعامل معها، يشعر بالضيق والنفور بكل تأكيد، والمفارقة أنها مدركة هذه الحقيقة.

يمكن لصاحب الرائحة النتنة أن يستحم ويتخلص من رائحته، ولكن كيف ستتخلص هذه الفتاة من الانطباع الذي تتركه لدى الآخرين؟ ربما من الأجدى التوقف عن التذمر، وترك مشاعري السلبية جانبًا، ومواصلة مهمتي في بذل كل ما بوسعي لمساعدتها.

- استمرت عادة ربط أقدام النساء في الصين لأكثر من ألف عام، حتى تسلم الشيوعيون السلطة بقيادة ماو تسي تونغ، الذي منع هذه العادة بشكل

رسمي. وقد بدأ هوس الصينيّين بأقدام النساء الصغيرة منذ عهد كونفوشيوس، فقد كان يُنظر إلى القدم الكبيرة حينها بدونية، لأنَّها دلالة انتماء صاحبتها إلى الطبقات الدنيا. ويقال إنَّ الحكاية بدأت مع الإمبراطور الصيني لي يو في التانغ الجنوبية، الذي وقع في غرام محظيته الحسناء صغيرة القدمين المسماة العذراء الحلوة، وكان مولعًا بمشاهدتها وهي ترقص، حتى إنَّه بنى صالة أرضيتها من الذهب الخالص على شكل زهرة اللوتس، لترقص عليها محبوبته، وقد أمر أن تثني وتربط قدميها بأربطة من الحرير الأبيض على شكل هلال وأن ترقص على تلك الزهرة الذهبية، وفيما كان يشاهد في نشوة كبيرة المحظية الحسناء تعلو وتهبط كغيمة بيضاء، كانت الفتاة تكابد أشدّ الآلام التي جعلت الدموع تطفر من عينيها، بسبب ربط قدميها المحكم، ممّا زاد من تأثر الإمبراطور بالمشهد. وهكذا انتشرت التقليعة، وحاولت كل نساء البلاط والنبيلات التشبه بها، والحصول على أقدام صغيرة، والمشي بخطوات قصيرة متقاربة، وكان السبيل لذلك ربط أقدامهن، ولكن هذه العادة كانت تؤدي بمرور الوقت إلى فقدان معظم النساء قدرتهن على المشي.

- أتعنين أنّهن يصبحن عاجزات عن المشي تمامًا؟
- للأسف، هذا ما كان يحدث، فلا يعود بوسعهن التجول سوى على محمل أو في عربة، وبمرور الوقت أصبحت هؤلاء النساء الكسيحات، رمزًا من رموز ثروة أزواجهن في المجتمع. ومن جهة أخرى فإن فقدان النساء قدرتهن على الحركة، وتحولهن إلى كتلة عاجزة من الشحوم، زاد من شعور الرجل بالتفوق، والظهور بمظهر الحامي لهؤلاء النسوة الضعيفات.

تواصل التحديق إلى وجهي دون أدنى حركة، أحاول سبر أغوارها لتخمين ما تشعر به، لكنها لا تمنحني ما يكفي من الأدلة.

- وقد كتب راهب كاثوليكي زار الصين في القرن الرابع عشر، عن قيام الأمهات بربط أقدام بناتهن الصغيرات بسرور بالغ، فمستقبل هؤلاء الصغيرات، مرهون بحجم أقدامهن. كانت كل قدم تربط بأربطة عرضها خمسة سنتيمترات، وبطول ثلاثمئة سنتيمتر. وفيما عدا الإصبع الكبير الذي يترك خارجًا، يتم طي الأصابع الأربعة الباقية، نحو الأسفل، وربطها بإحكام. وهكذا يمنعون نمو القدم التي لا يتجاوز طولها عشرة سنتيمترات، حتى وإن كبرت الفتاة وأصبحت شابة، وتسمى هذه الأقدام الصغيرة "قدم اللوتس"..
- ألم يشعرن بالألم؟

تسألني في صرخة أقرب إلى الاستنكار، إذًا فهي تتأثر بشدة من معاناة النساء من الألم، أراقبها بطرف عيني. أظنها كابدت الكثير من الألم، لذا فهي تعرفه جيدًا.

- بالطبع، كان إجراءً في غاية الألم، لكن البكاء كان محظورًا على الفتيات الصغيرات خلال عملية ربط أقدامهن. عليهن البقاء صامتات، وفي حال الاعتراض، كانت العقوبة ضربًا مبرحًا.
- ولِمَ لم يلفوا الإصبع الكبيرة أيضًا؟
- لأنَّه بعد عدة أشهر، ترتفع الإصبع الكبيرة نحو الأعلى تلقائيًا في شكل هلال، أما البقية فكانت تجف وتتساقط بمرور الزمن، أو تلتصق بباطن القدم. رغم كل هذا الألم والتشوهات، كانت النساء ينتعلن في أقدامهن الصغيرة أحذية مزينة وموشاة، معتبرات أنَّ قدم اللوتس أو القدم الذهبية كما كانت تسمى أحيانًا، سبيلهن إلى حياة من الرغد والرفاه حتى وفاتهن. وكان حجم قدم العروس وشكلها، له أعظم الأهمية في تلك الحقبة، فحين تنزل العروس من المحفة لتدخل منزل زوجها، كان كل الجيران والأقرباء يجتمعون أمام الباب، للتحقق من حجم قدميها، وصاحبة القدم الصغيرة كانت تتلقى المديح من العائلة والمعارف، وكان هذا مصدر

فخر لعائلتها، كما أنَّ العريس الذي كان سيرى زوجته للمرة الأولى، يشعر هو أيضًا بالزهو.

- وماذا إن لم تكن قدماها صغيرتين؟

تسألني بقلق شديد، وكأنها تلك العروس.

- كانت تتحول إلى مصدر للسخرية، كما أنَّ الزوج وعائلته يشعرون بالعار، ويعانون من هذا الشعور مدى الحياة. وكإجراء احترازي، كان من حق العريس أن يقيس قدم الزوجة وفق مقاييس محددة، وإن لم تطابق قدمها المواصفات، كان من حقه السخرية منها، وإلغاء الزواج من الأساس. وكانت عادة إجراء مسابقات جمال بين النساء، دارجة أيضًا في تلك الحقبة، ولم تكن المتسابقات سوى صاحبات أقدام اللوتس، وكن يعلّقن إلى أحذيتهن الصغيرة، أجراسًا أو أجنحة وفراشات تتحرك وترن مع كل خطوة، أما نساء الطبقات الدنيا، ممن لم يكنّ يربطن أقدامهن، فكن يشاهدن هذه المسابقات من بعيد، وسط شعورهن بالدونية والخزي. وكان يُطلق عليهن لقب جرن اللوتس، أو أقدام البطة، ويصبحن مصدرًا للتندر. ومع تسلم الزعيم الشيوعي ماو تسي السلطة، قام بتنظيم حملة كبيرة في مقاطعات البلاد كافة لإلغاء هذه العادة، وهكذا أُنقذ ملايين النساء من هذا الإجراء التعسفي، الذي كان مصدر ألم كبير لقرون طويلة.

- لكن لم يتم إنقاذهن جميعًا.. أليس من الغريب حقًا.. أنَّ أشد أنواع القسوة على النساء.. يكون بتأييد النساء أنفسهن.. وكأنهن يستمتعن بالألم.. وبإطاعة القوانين التي يضعها الرجال.. بل يتحمسن لها أكثر منهم. ويصبحن ملكيين أكثر من الملك.. من الصعب فهم نفسية النساء.

إنَّها المرة الأولى التي تكمل فيها حديثًا حتى النهاية، وتعبر عن رأيها حول أمر ما، وتحلل الموضوع بطريقة غاية في الوضوح والحكمة، وهو ما لم أتوقعه منها. إنَّها تستمر في مفاجأتي.

- لقد قمت بتحليل الأمر بطريقة غاية في الدقة والموضوعية، وهو تحليل ينطبق على كل الظواهر التي تحدثنا عنها. أعترف بأنّك دقيقة الملاحظة.
- شكرًا لك.. أعتقد أنَّه لولا دعم النساء العادات والتقاليد.. فلن يستطيع الرجال.. مهما حاولوا، مواصلة الأمر لفترة طويلة.. لكنها رغبة المرأة.. إنَّها ترغب في العقاب.. بل ترغب في الموت.

تدهشني جملها عميقة المغزى، رغم سوء التقطيع. وكأنها باحثة اجتماعية تحلل ظاهرة ما بكل حيادية وموضوعية. لو تمكنت من إغماض عيني للحؤول دون رؤيتها، فستكون جلسة ممتعة لتبادل الأفكار. لكن لسوء الحظ، عيناي مفتوحتان على اتساعهما، ولا أستطيع أن أخفيها عن مجال رؤيتي مهما حاولت. إن كانت تملك هذه القدرة على التحليل العميق، والوعي اللازم لفهم ما يعجز الكثير عن فهمه، فلمَ هي على هذا الحال؟ تنتابني رغبة في الإمساك بها من كتفيها، ونفضها بكل قوة. فكيف لفتاة بهذا الذكاء، أن تتجول كشمطاء ممسوسة، وأن تثمل قبل جلستها، وتتقافز كالمجانين؟

- النساء يا آلا، يكابدن الألم منذ اللحظة التي تطأ فيها أقدامهن هذا العالم.
- لقد ناديتني باسمي.. هذا دليل على أنَّك تتقبلين وجودي.

رغم أنَّي معتادة مخاطبة الجميع بأسمائهم، لكن يبدو أنَّها المرة الأولى التي أخاطبها فيها باسمها. لم تفوت ملاحظة الأمر الذي غاب عني. هذه الفتاة تسبقني بخطوة على الدوام، لذا يجب عليّ من الآن فصاعدًا الانتباه لخطواتي.

- الفضل لك أنت أيضًا في ذلك.
- أعلم.. فأنا أحاول التصرف بحذر.
- ماذا تعنين؟
- أحاول ألا أثير غضبك.. وأبذل كل ما في وسعي في سبيل ذلك.. حتى إنِّي أحيانًا أتخيل أمورًا.

- ماذا تتخيلين؟
- أعني أتمنى أن تكون جلساتنا.. طويلة جدًا.. أنت تتحدثين، وأنا أستمع إليك.
- أعترف أنَّ خيالك واسع.
- لم أكن أتخيل أيّ شيء.. مهما كان تافهًا.. لكني أفعل ذلك الآن.
- حسنًا، هذا يسعدني، ربما تتمكنين من تخيل أمور أكثر واقعية في المستقبل.
- ربما.. شكرًا لك.

تصافحني بملامسة خفيفة، ثم تخرج محنية الرأس. يداها كيدي جثة باردة ولزجة. إذًا فحلمها أن تظل إلى جوراي تستمع إلى القصص التي أرويها! ومن الواضح أنَّها أدركت سبب عزوفي عن مخاطبتها باسمها. ترى ما مستوى ذكائها؟ وما هي طموحاتها وأحلامها؟ لا يروقني أن تقحمني في أحلامها، لأنَّ الود بيننا ليس متبادلًا. العلاقة بين الطبيب والمريض لابد أن تتخللها بمرور الوقت مشاعر الطرفين، في عملية نطلق عليها اسم "العبور"، وهي آلية يتبادل فيها الطرفان المشاعر، وغالبًا ما تساهم في تسهيل مهمة الطبيب. وقد بدأت هذه الآلية مع هذه الفتاة منذ اليوم الأول، وبعنف بالغ، حيث تبادلنا مشاعر غاية في السلبية. الآن انقلبت مشاعرها، حتى باتت تتمنى البقاء معي ساعات طويلة، أما أنا فلا زلت غير قادرة على كبت نفوري منها.

من الممكن أن يلجأ الطبيب أحيانًا إلى الاستفادة من مشاعر المريض الإيجابية نحوه، وتعلقه به، بل وحتى تبجيله، لخدمة خطة العلاج، لكنه ملزم في نهاية المطاف بإقناع المريض بالوقوف على قدميه مجددًا، والعودة إلى الحياة. عادة ما تكون علاقتي بالمرضى انسيابية لا أشعر فيها بكل هذا الضغط، فهي تنشأ وتتدفق كتيار طبيعي بيننا خلال الجلسات، وتستقر الحجارة في مواضعها الطبيعية، بحكم التجارب وخبرة عشرات السنين من العمل، خاصة أنَّي لا أحمل تجاه أيّ منهم

مشاعر سلبية. لكن الآية تنقلب في حالتها، وكل ما أقوم به معها، أقوم به مرغمة، ولولا هذه الحكايات، لكان من المحال بناء أيّ نوع من العلاقة معها. لكن بما أنَّني انهمكت في المهمة، يتعيّن عليّ البحث عن مفاتيح شخصيتها في كل كلمة من كلماتها وإيماءاتها، وتوخي الحذر وأنا أخطو في عالمها الملغز.

الفصل الرابع

كان لموت إيمره وقع كارثي علينا، وبعد مضي أسبوع على وفاته، دعتني عائلته لحضور مولد العزاء. كان البيت يضج بالمعزين، فاخترت الجلوس في زاوية نائية، وما إن بدأ الشيخ بتلاوة القرآن، حتى أجهشت بالبكاء. لم تكفني علبة مناديل الجيب التي في حقيبتي، فكانت والدته تضطر إلى إعطائي بين الفينة والأخرى مناديل جديدة. كنت أعلم أنني لست من يجب عليها البكاء بكل هذه الحرقة، في هذا المجلس، حتى إنِّي شعرت ببعض الحرج أيضًا، لكني لم أكن قادرة على كبح دموعي. كانت حالة آيدِن قد بدأت تسوء في تلك الفترة، ولم يعد يقوى على الخروج من البيت، فأخذ يمضي معظم وقته على أريكته أمام التلفاز دون حراك تقريبًا. كنا نذهب معًا لإجراء الفحوص التي يطلبها أطباؤه، لكنه يرفض مرافقتي أثناء استلام النتائج ومناقشتها مع الطبيب المختص. وكنت أشرف على أدويته، وأوقات تناولها، فكان يتناول ما أعطيه دون اعتراض. وقد اعتاد حسن الاعتكاف في غرفته بعد عودته من العمل مساءً، وإن خرج فإنه يخرج لزيارة عائلة إيمره، وقضاء ليلته هناك. فكما أنَّ إيمره كان يقضي عندنا الكثير من الوقت، وكأنه فرد من العائلة، كان حسن أيضًا كثيرًا ما يقيم في بيت صديقه، فقد ترعرع الاثنان معًا. وخلال الفترة التي أعقبت الحادث، كان والد إيمره يرغب في أن يظل حسن إلى جواره.

في تلك الفترة بالذات مرضت ياغمور، وكانت لا تزال في الشهر الثاني من حملها، حين بدأ بطنها بالانتفاخ بشكل مبالغ فيه، فأمرها الأطباء بالبقاء في المشفى، لأنَّ حالتها كانت خطرة، وأخبروها أنَّ المشكلة ستحل من تلقاء نفسها، إن وافقت على إجهاض الجنين. رفضت ياغمور الفكرة بشكل قاطع، وكانت مستعدة

للتضحية بحياتها إن تطلب الأمر، من أجل إنجاب طفلها.

وسط كل هذه الضربات المتلاحقة، اختلطت الأفكار في رأسي بصورة رهيبة، وفقدت ميزتي في اقتراح الحلول. كنت أهرع في الاتجاهات كافة، وأنا أشعر بأني أكاد أسحق تحت وطأة الصخرة الهائلة التي تجثم على صدري، وتسحبني نحو الأعماق دون رحمة.

كنت أقضي معظم نهاري مع ياغمور في المشفى، لأعود مساء إلى المنزل، فأطمئن على آيدِن وأجالسه لبعض الوقت، ثم أهرع إلى المشفى مجددًا، وأقضي ليلتي هناك مع ابنتي. كان الأسبوع الأول بالغ الحرج، لأنَّهم أخذوا يحقنونها كل يوم حقنًا سبّب لها آلامًا مبرحة، ويسحبون الدم عدة مرات لإجراء الفحوص، والتحقق من مستوى الهرمونات. في أربعينية إيمره، لم تكن حالتها قد شهدت أيّ تحسن ملحوظ. كان حسن في منزل عائلة إيمره، وأنا في المشفى مع ياغمور. وكان آيدِن الذي بقي وحده في المنزل، يشعر بالضيق. ورغم تعلقه الشديد بابنته وخوفه عليها، لكن ما قاله في ذلك المساء، أثار دهشتي وألمي معًا:

- أنت تقضين معظم وقتك في المشفى مع ياغمور، ولا تهتمين بي على الإطلاق.

إن عثرت على مصباح علاء الدين، وخرج لي المارد، فستكون أمنيتي الثانية، هي محو تلك الليلة من حياتي. هذه الذكريات تعاودني في تواتر مؤلم، وها أنا أستعيدها اليوم من جديد فيما أشرب شاي الصباح. يرن الهاتف، ليخبروني من المركز أنَّ أحد مرضاي قد ساءت حالته كثيرًا، وهم غير قادرين على تهدئته، ويسألون إن كان بإمكاني الذهاب باكرًا قليلًا. أتجهز على عجل، وأذهب إلى المركز. في ردهة الانتظار يحاول ثلاثة رجال جهدهم- أحدهم من موظفي المركز- ضبط الشاب الذي يتوسطهم دون طائل. أتعرف إليه على الفور؛ إنَّه عمر، كان يعاودني في العيادة القديمة مع والدته، فكلاهما مريض. يتوقف لوهلة حين يراني، فأستغل هذه اللحظة، وأمسك يده بهدوء محكم، وأقوده معي نحو الغرفة.

إنَّه شاب في الثلاثينيّات من عمره، طويل القامة، ضخم الجثة، وقد ازداد وسامة خلال فترة تغيبه عن زيارتي. لا يزال يرمقني في دهشة وقد احتقن وجهه.

- مرحبًا بك عمر، تفضل بالجلوس. حسنًا، دعوه يجلس في المكان الذي يريد.
- ولكن يا دكتورة.
- أرجوكم أن تدعوه- أخاطب الرجلين اللذين دخلا برفقته- لقد تغيرت كثيرًا منذ آخر مرة رأيتك فيها، اجلس هنا. ما بك يا عزيزي؟ هل عاودك المرض مجددًا؟ اجلس من فضلك.

يرمقني والشرر يتطاير من عينيه، فاقترب منه في محاولة لمسك ذراعه، لكنه يبتعد مصدرًا صوتًا ككلب هائج. من الواضح أنَّه شديد الاضطراب، ويبدو بالكاد قادرًا على ضبط نفسه. إنَّه شاب رائع، ويكن لي محبة كبيرة، ولكن حالته اليوم سيئة جدًا، ومن الممكن أن تصبح أسوأ مما هي عليه، فيحيل المكان بمن فيه إلى حطام. أتراجع نحو الخلف قليلًا، فيجلس حينها على إحدى الأرائك منهارًا، ويقف الرجلان المسنان بالقرب منه، تحسبًا لنوبة هياج جديدة.

يخبرني مرافقاه أنهما والده وخاله، ويقولان إنَّ عمر توقف عن تناول أدويته في الفترة الأخيرة، وبعد وقوع خلاف في العمل، تكدر مزاجه كثيرًا، حتى إنَّه لم ينم منذ ثلاثة أيام، ثم انهارت حالته. فحطم كل ما طالته يداه، وقد تكبد الاثنان مشقة كبيرة في إحضاره إلى هنا.

أيها المسكين! لـمَ توقفت عن تناول أدويتك؟ ألم تكن الأمور قد بدأت بالتحسن قليلًا؟ يبدو شديد الإعياء، ويطلق تنهدات مستمرة، وهو يرمق من حوله بنظرات فارغة. أحاول إخبار الأب بما يتعيّن عليه فعله في عجالة. لكن حالته بالغة السوء وتتطلب تدخلًا سريعًا. أفتح أحد الأدراج فيما أطلب من تونا كأسًا من الماء، وأضع حبتين في يد عمر، وأخبره بضرورة تناولهما على الفور، يتردد لوهلة وهو يحدق إلى عيني، ثم يرمي الحبتين في فمه، ويعقبهما بكأس الماء. يعجز عن تمالك

نفسه أكثر، فيثب على قدميه واقفًا، وقد أحكم قبضتيه، وتقلصت كل عضلات جسده، واحتقن وجهه وكأنه يكابد في التنفس، فيسرع الاثنان للإمساك به مجددًا، لكن أخاطبهما قائلة، وأنا أقترب منه بهدوء:

- دعوه.. دعوه! فعمر لن يقوم هنا بشيء.

يخلي الاثنان سبيله، فأخاطبه بكل هدوء ومحبة نابعين من قلبي، وأنا أنظر مباشرة إلى عينيه:

- لا تخف، يا عمر! ستنقضي هذه الأزمة، لتعود كما أنت دومًا، عمر المهذب والوديع وذو الأخلاق الحسنة. لن أعتبر مجيئك اليوم زيارة، لأنَّي أرغب في أن تزورني حين تتحسن، لنجلس ونتبادل الحديث حول آخر أخبارك، اتفقنا؟ أعلم أنَّك غاضب كثيرًا الآن، ولست قادرًا على التخلص من هذا الغضب، لكن لا تخف، ستتحسن وتهدأ عما قريب.

يضرب قبضتيه المحكمتين ببعضهما أولًا، ثم يسدد لكمات متلاحقة إلى صدره. هكذا هم معظم مرضاي، فحتى في اللحظات التي يفقدون فيها السيطرة، يضربون أنفسهم بدلًا من ضربي. أحاول الاقتراب منه بحذر، ولمس ذراعه، لكنه يصرخ ثائرًا:

- ابتعدي.. لا تلمسيني.. لا تلمسوني، إياك، إياك! وإلا فسأحرقكم.. سأحرقكم جميعًا.

اضطر إلى الابتعاد من جديد، فيما يواصل الصراخ في هياج، ثم يبدأ بالدوران حول نفسه، ويزيد من سرعته، حتى يسقط على الأرض منهارًا، وتظل قبضتاه محكمتي الإغلاق. أعطي التعليمات اللازمة للأب والخال، اللذين يرفعانه بهدوء، ويخرج الثلاثة فيما عمر يلتفت نحو الخلف بين الحين والآخر وهو ينظر إلي. أتابعه وأنا أشعر بالأسى، يا للحظ العاثر! كيف لجيناتنا في ظروف معينة أن تسلبنا كل شيء! وليس بيد المسكين من حيلة سوى تقبل ما شاءت له الأقدار، ولكن أليس هذا عجزًا تامًا وسلبًا لحرية الاختيار؟

لا أستبعد أن يكون كل من حوله يلقبه "عمر المجنون"، ويحاولون تجنبه على الدوام. دكان صغير، وأم مريضة، وشقيقة منهارة من كل هذا العبء، وأب يحاول النأي بنفسه عن المشاكل وتحمل المسؤولية. لقد حكم عليه بالعيش مقيدًا إلى كل هذه الظروف، وإلى تلك الأفكار القاتمة التي ترهق روحه، وتحول دون استمتاع شاب مثله بمباهج الحياة.

الفصام اسم شائع لمرض يكاد الناس لا يعرفون عنه شيئًا يذكر. وهو في معظم الأحيان يرافق الإنسان منذ لحظة ولادته، مطبوعًا كشيفرة سرية على جيناته. وغالبًا تظهر أعراضه بعد سن المراهقة، ضحاياه عادة ما يكونون أشخاصًا خجولين منطوين على أنفسهم، قليلي الكلام، ولا يمتلكون القدرة على بناء علاقات اجتماعية مع الآخرين بسهولة. لكنهم في المقابل شديدو الذكاء، ومتفوقون في الدراسة، وهم من الطلبة الأوائل في المراحل كافة. قد يظهر المرض نتيجة ظرف ما، وقد يظهر دون سبب أيضًا. بداية يشعر المريض بضيق شديد، وكأنّ فيضانًا من الألم اجتاح سدوده، وأغرق روحه، ليرزح تحت آلام نفسية أقسى من كل ما قد يتخيله المرء. ومع ارتفاع منسوب الألم، تبدأ السدود بفتح أبوابها للحيلولة دون الانهيار، ليفقد المريض أيّ أمل في المقاومة. وإن تدخل الطبيب في هذه المرحلة، فسيتمكن بفضل العلاج من إعادة إغلاق الأبواب مرة أخرى، فيشعر المريض بالراحة بعد مدة معينة، ولكن معظم المرضى يأتون إلى الطبيب بعد انقضاء هذه المرحلة، بعد أن تكون الفيضانات قد دمرت في طريقها كل شيء، وهدمت السدود. صحيح أنَّ المريض يشعر بالراحة بعد هدوء العواصف، لكن بنيته النفسية تكون قد دمرت بالفعل، وبدأت شتى أنواع الأفكار الغريبة تجتاح رأسه دون رقيب، ممّا يسبب صدامًا بينه وبين بيئته الاجتماعية، لاختلال آليات التفكير والسلوك لديه، بعد أن أحالته الفيضانات إلى مجرد أنقاض. يحاول الطبيب ترميم ما يستطيع، وإعادة بناء الأنقاض، فيبدو المريض من الخارج وكأنه شخص طبيعي، لكن مهما حاول فلن يتمكن من إعادة ما انكسر إلى حالته الطبيعية.

المشاعر في هذه الحال هي من تتلقى النصيب الأكبر من الضرر، وكأنّ أحدًا ما قد كتم صوتها، ومهما حاول المريض، فلن يتمكن من رفع صوتها سوى إلى الحد الأدنى، وبمرور الوقت يستمر هذا الانخفاض، حتى يختفي صوتها، ويفقد المريض القدرة على الإحساس بما حوله. إنَّ الشخص الذي سُلبت منه قدرته على الإحساس، مختلف عنا تمامًا، فهو قادر على الكلام والتفكير والإدراك، لكنه يفتقد ميزة الإحساس بكل ذلك. لذا فالخطوط التعبيرية في وجوه المرضى تتغير بمرور الوقت، وتتلاشى مع تلاشي المشاعر، حتى إنَّ التجاعيد أيضًا تختفي، ويفقد الوجه ملامحه التعبيرية، ليغدو صفحة باردة باهتة، وكأنه حُقن بحقن البوتكس التي باتت موضة رائجة لدى النساء حاليًا.

ورغم كل ذلك، يعتبر الفصام من الأمراض النفسية التي قطعنا أشواطًا كبيرة في علاجها، فالبدء بالعلاج في الوقت المناسب، يسفر عن نتائج رائعة، فيخفف من أعراض المرض بنسبة هائلة، ويحول دون تعرض المريض لأضرار كبيرة. عادة ما يظهر هذا المرض على شكل نوبات نفسية تجتاح ذهن المريض، وتسلبه في كل مرة شيئًا ما. ويعتمد العلاج النفسي المنتظم في جوهره على منع تكرار هذه النوبات، وبذلك تكون فرص العلاج كبيرة.

أيها المسكين عمر! ألم أطلب إليك بإصرار ألا تتوقف عن تناول الأدوية؟ ألم تكن الأمور تسير على ما يرام، وكنت قادرًا على مواصلة حياتك اليومية دون مشاكل؟ انظر الآن الفوضى التي أغرقت فيها نفسك مجددًا! في زياراته السابقة كان قد أصبح ودودًا جدًا يبادلني الابتسام والحديث. لنرَ الآن مقدار ما نستطيع استعادته من المرض في هذه النوبة.

يتعيّن عليه البقاء في المشفى هذه الفترة، حتى يستعيد بعضًا من توازنه النفسي. وما إن يغادر المشفى، حتى يعود إليّ من جديد، لنواصل خطة العلاج. في هذه الأثناء يرن الهاتف بإصرار، أرفع السماعة، إنَّها تونا.

- ما الأمر تونا؟

- السيد عزمي يود التحدث إليك، إنَّه زوج السيدة إجلال.
- حسنًا، حولي المكالمة إلي.
- ألو.
- أهلًا سيد عزمي، كنت أنتظر مكالمتك.
- مرحبا دكتورة. في الحقيقة أنا منهار، ما الذي حصل لزوجتي فجأة؟ لو استمرت في الحديث أكثر، فربما أعلنت نفسها أحد الأنبياء، أيعقل أنَّ هذه الأفكار دخلت رأسها فجأة؟ هل أصابتها عين حاسد؟ ما الذي حصل لها؟..
- طبعًا، لم يحدث الأمر فجأة سيد عزمي، ولم أكن راغبة في سؤالك حينها، ولكن ما الذي حدث مؤخرًا، حتى قررت أن تحضرها إلى طبيب نفسي؟
- حدثت أشياء كثيرة، لكني لم أكن أدرك مدى خطورتها، ولا أدري من أين أبدأ. نحن متزوجان منذ عشرة أعوام، ولم يحدث أن لاحظت سابقًا ما يشير إلى اضطراب نفسي لديها، فهي هادئة، لا تثور بسرعة، وليس لديها رغبات أو عادات غريبة. صحيح أنَّها تحب الانعزال نوعًا ما، وقضاء وقتها في المنزل، وعدم الاختلاط مع الناس كثيرًا، وأحيانا تمرّ شهور دون أن تخرج من المنزل، كما أنَّها ليست كبقية النساء، تطلب هذه وذاك، حتى في العطل، لا ترغب في القيام برحلة ما لم أدفعها دفعًا إلى ذلك، وهي تحب النوم ولو أنَّ الأمر بيدها لنامت حتى المساء. لكن نومها بات مضطربًا في الآونة الأخيرة، ولن أبالغ إن قلت لك إنَّها لم تنم كما يجب منذ ثلاثة أشهر، ومن الواضح أنَّها تحت وطأة ضيق شديد، تكاد لا تتسع له روحها، فهي تذرع البيت طوال الوقت جيئة وذهابًا، ولا تنام خلال النهار، وقد أجبرتُ على إرسال الطفل إلى أمها، لأنَّها أهملت رعايته تمامًا، وتوقفت عن إعداد الطعام والاهتمام بشؤون البيت أيضًا. صحيح أنَّي رجل مقتدر والحمد لله، وأستطيع أن أطلب لها طعامًا جاهزًا كل يوم لو شاءت، لكنها لا ترغب في الأكل، إنَّها لا ترغب في أيّ شيء.

- متى بدأت الذهاب إلى هذه المجالس الدينية؟
- منذ حوالي أربعة أشهر، في الحقيقة كانت ترفض الفكرة، لكني أرغمتها على الذهاب. فقد أردت لها الانشغال بشيء ما، لأنَّها لم تكن تخرج من المنزل نهائيًا. لكنه يبدو لي قرارًا خاطئًا، فهذا الهوس بالصلاة قد بدأ منذ ذلك الحين. فهي لم تكن متدينة إلى هذه الدرجة في السابق، حتى إنَّها كانت لا تصوم، ولا تصلي على الإطلاق. في البداية ظننت أنَّ الأمر نزوة عابرة نتيجة هذه الدروس الدينية، ولكني لاحظت بمرور الوقت أنَّ هناك خطبًا ما، فقد باتت تقضي معظم النهار على سجادة الصلاة، وحتى في الليل، تنهض فجأة، وتجلس على السجادة ساعات، هل تتخيلين أنَّها لم تكن تعرف كيف تتوضأ، فقد كانت تسألني في البداية. لكنها مؤخرًا لم تعد بحاجة إلى الوضوء خمس مرات، لأنَّها لا تقوم عن السجادة إلا نادرًا. يبدو أنَّ الخطأ خطئي، فقد كان عليّ إحضارها إليك مبكرًا، وربما لو لم تذهب إلى هذه المجالس، لما أصابها ما أصابها.
- لا أظن، فالمرض كان قادمًا بجميع الأحوال، ووجد في هذه المجالس ذريعة، لذلك لا تلق اللوم على نفسك.
- وهل ستتعافى في رأيك؟
- بالطبع ستتعافى، لا تقلق.
- لكنك لم تعطيها سوى دواء للنوم، وهل يمكن علاج مرض كهذا بحبوب منومة؟ ألم تسمعيها؟ فهي تظن نفسها نبيًا، وربما أكثر من ذلك.. أستغفر الله العظيم.
- لم يكن ذلك منومًا، بل دواء شديد الفاعلية، على شكل جرعة يومية واحدة. ولأنَّه قوي المفعول، فهو يسبب خمولًا لدى المريض ويدفعه للنوم، لكنها ستتمالك نفسها بعد فترة، حين يعتاده جسمها، وما أرجوه منك أن تتابع الأمر بعناية فائقة، وتتأكد من أخذها الدواء بانتظام، ويجب

عليك ألا تتركها وحدها في هذه الفترة، فكما رأيت بنفسك، لا يمكن التنبؤ بما قد تفعله.

- ما الذي يمكن أن تفعله، يا دكتورة؟
- لا أستطيع أن أحصي كل الاحتمالات الآن، ولكنها قد تشكل خطرًا جديًا على نفسها وعليك أيضًا. لذا أرجو منك توخي الحذر الشديد، هل تستطيع إدراك ما أعنيه؟
- أجل، أجل.. أدرك ذلك.
- ولا تقم بإحضار الطفل إلى البيت، حتى تتماثل للشفاء بشكل تام.
- وهل سيطول الأمر؟
- سأخبرك بذلك بناء على حالتها، وإن حدث أيّ شيء، فإنّك تستطيع الاتصال بنا فورًا. أتمنى لها الشفاء العاجل، إلى اللقاء.

من الواضح أنَّه ضرب على حين غرة، وكان على وشك البكاء مع كل كلمة، فالصدمة التي تلقّاها ليست بالأمر الهين، خاصة أنَّه يحب زوجته كثيرًا، وهذا بالطبع من حسن حظ السيدة إجلال.

تطل تونا برأسها من الباب.

- كما في كل مرة، فقد نسيت أن تجوعي. هل أطلب إليهم إحضار الطعام إلى هنا، أم ستصعدين إلى الكافيتريا؟ الطقس رائع اليوم، ما رأيك أن نتناول الطعام معًا على الشرفة؟

تونا محقة، فالطقس رائع، والسماء زرقتها تبعث في النفس البهجة، زرقة صافية دون وجود حتى غيمة واحدة. يقع المركز وسط منطقة تشغلها السفارات الأجنبية، التي تحيط بها حدائق خضراء، فأشعر أحيانًا وكأننا في مدينة مختلفة. الأشجار دائمة الخضرة، باسقة، ترنو برأسها نحو السماء، ومعظمها من الصنوبريات على اختلاف أنواعها. من خلال الفسحات، يظهر حوض السباحة في حديقة السفارة الإيطالية، بمياهه الفيروزية. وإلى اليمين، مساحة خضراء تمتد حتى القصر الرئاسي، وأمامنا

مباشرة يتم عرض مسرحية (جورية الفوسفورية)، على مسرح جاغداش من جديد. نتناول الطعام أنا وتونا ونتبادل أطراف الحديث، ففي جعبتها الكثير من الأخبار والطرائف. وخلال وقت قصير يحيط بنا باقي الأطباء والاختصاصيين النفسيين في المركز. من بعيد تلوح لي قامة جنكيز، وهو يحمل كتابًا بيده، فيقترب منا مبتسمًا حين يرانا، وعلى الفور ينهض زملاؤنا الشباب، ليفسحوا مكانًا لأستاذهم إلى جواري. كلانا يعمل في الطابق الرابع، لكني لم أره منذ ما يقارب الأسبوعين. فنحن نهرع إلى غرفنا حال وصولنا، ولأنَّني أفوت وجبات الغداء معظم الأحيان، فمن الصعب أن أجتمع ببقية زملائي. يلقي علي البروفيسور الدكتور جنكيز غوليج التحية محتضنًا، قبل أن يجلس إلى جواري، ويريني الكتاب الذي في يده بانفعال شديد "منصور الحلاج". وفيما أتفحص الكتاب في فضول، يبدأ هو بالحديث:

- تذكرين فكرة عقد ندوة عن العلاج النفسي والروحانيات، لقد أعددت كل شيء، ونستطيع تحديد الموعد حالما تكونين جاهزة.

إنَّه أحد المواضيع التي أرغب في التبحر فيها منذ فترة طويلة، لذلك أسرُّ من سماع هذه الخبر. فقد بدأ اهتمامي الحقيقي بالموضوع خلال فترة مرض آيدِن، في تلك الفترة قرأت الكثير من الكتب حول الروحانيات، وقد كان لها فائدة نفسية كبيرة لديّ.

- إذًا ما رأيك في يوم الأربعاء من الأسبوع القادم؟

وبعد مناقشة قصيرة حول المدة التي يجب أن تستمر فيها الندوات، أنهض على عجل إثر تذكير من تونا، رغم رغبتي في الجلوس معهم وتبادل الحديث لفترة أطول، لكن لا يجب أن ينتظر المرضى مطولًا. يمسّد جنكيز لحيته البيضاء وهو يرمقني بطرف عينه، وقد ارتسمت ابتسامة لطيفة على وجهه، فيما يلوح بإبهامه منبهًا. ففي كل مرة أهمله فيها، يحاول أن يعاتبني بتنبيه لطيف.

تنتظرنا آلا قبالة الدرج تمامًا، وقد شعرت بالقلق حين لم تر أيًّا منا هناك. تسألني تونا:

- هل أدخلها على الفور؟

ترافقني بالدخول، وتستقر كل منا في مكانها المعتاد، ألاحظ أنَّها تراقبني بانتباه شديد. وكأننا نتبادل الأدوار، فعادة ما يرمق الطبيب مريضه بهذه النظرات المتفحصة، أقابل نظراتها بابتسامة لطيفة. كعادتها ترتدي تلك الثياب الغريبة دون أيّ تناسق، ترى من أين تشتري هذه الأسمال؟

- كيف حالك آلا؟
- بخير.. كنت في الطابق العلوي.. في الكافيتريا على ما يبدو؟
- أجل، من أجل الغداء.
- أنا متأكدة.. أنَّ المشهد رائع من هناك.
- إنَّه كذلك، وفي الصيف يغدو أجمل بكثير.
- أكنت.. مع أصدقائك؟
- أجل، لمَ تطرحين هذه الأسئلة؟
- وهل تركتهم.. من أجلي؟

ما الذي تعنيه يا ترى؟ أتلمح إلى أنَّها أكثر أهمية من أصدقائي؟ هل استطاعت أن تخمن أنَّ ذهني بقي هناك معهم؟ أهو استنتاج منطقي، أم حدس قوي؟ لقد أفلحت هذه المرة أيضًا في تشتيت ذهني منذ اللحظات الأولى من الجلسة.

- لم يكن لي أصدقاء مطلقًا؛ لذا أحسد من له أصدقاء. ألديك الكثير منهم؟
- أجل.
- جيد. لكني لا أحسدك.
- لماذا؟
- أتمنى أن أصبح صديقتك. هل تحكين لهم الحكايات التي تحكينها لي؟
- أحيانًا نفعل ذلك في الجلسات المهنية، فنتبادل هذه الحكايات حين تقتضي الحاجة.
- وهل تكون هذه الجلسات صاخبة؟

لا ترغب في أن أطرح عليها أيّ سؤال، لكنها لا تتوانى عن طرح ما يحلو لها، بإمكاني وضع حدٍّ لهذا الاستجواب، لكني غير راغبة في قطع سيرورة الحديث. كما أنَّها تطرح أسئلة سطحية، لا تحرك ركود الأعماق، ولا ضير في الإجابة عنها.

- أجل، فكل زملائنا في المركز ينضمون إليها.
- ألا يمكن أن يحضرها من لا يعمل هنا؟
- أحيانًا يأتي بعض زملائنا من الجامعة، لمَ كل هذه الأسئلة؟
- هل يمكنني الانضمام؟

إذًا، هذا ما كانت تدور حوله طوال الوقت، إنَّها ترغب في حضور الندوات العلمية، ولكن ما غايتها؟

- لمَ ترغبين في ذلك؟
- لطالما شعرت بالفضول لمعرفة الأحاديث التي يتبادلها الأطباء النفسيون فيما بينهم.
- لكنك تقرئين كتبًا حول هذه المواضيع، أليس كذلك؟
- أجل.
- من الجيد أنَّك تقرئين. في الحقيقة هذه الندوات مخصصة فقط لزملاء المهنة، ولكن إن رغبتِ في معرفة أيّ شيء، يمكنني أن أجيبك عنه.
- أشكرك. فأنت تفعلين ما بوسعك. أنا أدرك ذلك. تروين لي قصصًا رائعة، وتفعلين ذلك لي وحدي. في الحقيقة، لم يقم أحد في طفولتي؛ أعني لم يحكِ لي أحد أيّ حكاية. عندما أتذكر طفولتي، لا أرى سوى صورة فتاة دميمة كمسخ ممسوس، تتراكض هنا وهناك. حينها أيضًا لم يكن أحد يحبني، لم يكن لدي سرير خاص، كنت أنام حيث أتعب. حتى في برد الشتاء القارس، كنت أنام على أريكة في الصالون، وكان الصالون واسعًا جدًا، ومليئًا بقطع الأثاث. في الليل كانت تدّب فيه الحياة، فترعبني كثيرًا. وأكثر ما كان يخيفني هو البعبع.

غريب! فهذه هي المرة الأولى التي تبادر بالحديث عن طفولتها دون أن أسألها. وهي علامة مبشرة، تشير إلى أنَّ الحكايات قد بدأت تؤتي ثمارها. كما أنَّ ردّي على أسئلتها برحابة صدر قد طمأنها على ما يبدو.

- أما زلت تخافين الآن؟
- ليس من البعابع. ولكن هناك الكثير مما يزرع في قلبي الخوف.
- حدثيني عنها.
- كانت زوجة عمي الصغيرة تضع أصغر أبنائها في حجرها، وتمسد شعره فيما تروي له الحكايات. كنت أستمع إليها من بعيد. وحين يبكي، تهدده قائلة: "سأعطيك للبعبع". فيغمض الطفل عينيه، ويخبئ رأسه في حجر أمه. أنا أيضًا كنت طفلة حينها، لكن لم يكن لدي أحد أخبئ رأسي في حجره.

ترفع رأسها، وتحدق إلى وجهي متفحصة، وكأنها تريد تخمين الانفعالات التي تظهر عليّ. وفيما أحاول تخيل المشهد الذي روته، تظهر في ذهني صورة السندريلا وهي تستمع من خلف الباب إلى قصة ترويها زوجة الأب لطفلها، فتظهر ملامح الأسى على وجهي دون أن أشعر، لكنها تلتقطها على الفور، وتقابلها بابتسامة ساخرة، ثم تبدأ بتحريك رأسها من جهة إلى أخرى، في تواتر بطيء، وكأنها تمعن التفكير في أمر ما، بينما تواصل الحديث:

- في السابق، كانت البعابع تخيفني. أما الآن فالبشر أكثر من يخيفونني. أليس لديك حكاية عن البعابع؟

لقد تهربت من السرد إلى الاستماع، لا أشتكي هذه المرة، بل أحاول الحفاظ على مظهري هادئة، دون أن أدعها تلحظ ما يجول في ذهني من أفكار وانفعالات مرة أخرى. ينتابني إحساس غريب بأنها أمسكت بي في لحظة تأثر لم أكن راغبة في الاعتراف بها. أحاول من جهة اللحاق بها وهي تتقدمني، ومن جهة أخرى إخفاء مشاعري التي تغلبني. في الحقيقة، هذه جلسة علاج نفسي مثالية، فالطبيب أيضًا يجب أن يراقب مشاعره وانفعالاته، تمامًا كمراقبته مشاعر وانفعالات مريضه.

ورغم إدراكي هذه الحقيقة، لكني أشعر أنَّ قلقًا مبهمًا يخيم على جلساتي معها.

لقد وضعت يديها تحت ذقنها، واستعدت وهي تحدق إلى وجهي للاستماع إلى حكاية جديدة، والفضول يبرق في عينيها، حتى قبل أن أبدأ.

- ليست لدي حكاية عن البعابع، بل سأروي لك حكاية عن الساحرات. في الحقيقة، الساحرة ليست جزءًا من موروثنا، لكنها شكلت وعلى مدى قرون جزءًا من الموروث الثقافي في أوروبا، ودرات حولها العديد من الحكايات، وكانت البعبع الذي تتم إخافة الأطفال به عادة. ووصل الأمر بهم في حقبة ما، إلى الامتناع عن السفر ليلًا، خوفًا من الساحرات المتجولات على مكانسهن تحت جنح الظلام. في القرن الخامس عشر، كانت الصورة المتعارف عليها للساحرات، والتي صدرتها الكنيسة، هي أنهن عجائز مخيفات المنظر، يحلقن فوق المكانس أو التيوس، ويقمن اجتماعات لعبادة الشيطان. وهن قادرات على ارتكاب الكثير من الفظاعات من بينها؛ إلقاء اللعنات السحرية، قتل الأطفال الصغار، ممارسة الشعوذة، تحويل الناس إلى حيوانات أو طيور. وبمرور الوقت، عبرت هذه الصورة للساحرة من الخيال الشعبي إلى الأعمال الأدبية، واحتلت مكانة بارزة في كتابات ذلك العصر، ليتم تصديرها إلى أنحاء العالم كافة. ومن ثم ظهر صائدو الساحرات، الذين اعتقلوا الكثير من النساء المسنّات بهذه التهمة، حيث كان يتم تعرية المسكينة من كل ثيابها، وغرز إبر حادة في كل أنحاء جسدها، للتحقق من شعورها بالألم، فإن لم يكن صراخها مقنعًا، فذلك دليل على أنَّها ساحرة.

- لو عشت في ذلك العصر، لاعتبروني ساحرة بالتأكيد.

ما الذي ترمي إليه بالضبط؟

- لماذا؟

- لأنَّي لا أصرخ بسرعة حين أتلقى الضرب. ثم ماذا حدث؟

- بدأ الأمراء والنبلاء بإصدار أوامر تنص على اعتقال كل الساحرات اللواتي في ممتلكاتهم، وكل من تم اعتقالهن وتثبيت التهمة عليهن، تم وضعهن على خوازيق في ساحة القرية، وإحراقهن أحياء. ولكن كان عليهن قبل ذلك وتحت وطأة التعذيب الرهيب، الإدلاء بأسماء باقي الساحرات، فكانوا يسحقون أصابعهن بالمطارق، ويرفعونهن نحو الأعلى بحبال مربوطة إلى أرساغهن، ثم يتم فلت الحبال فجأة. هذه الممارسات الوحشية كانت تمارس أمام جماهير حاشدة. كانت الكثير من هؤلاء النسوة يقبلن بهذه التهم المنسوبة إليهن نتيجة التعذيب، ويذكرن لجلاديهن أسماء نساء بريئات من معارفهن، للخلاص من هذا العذاب الرهيب، والموت بأقصى سرعة.
- طالما اعتقدت أنَّ الساحرات شريرات بالفعل.

لكن ذهني لا يزال مشغولًا باعترافها حول امتناعها عن الصراخ خلال تعرضها للضرب، هل تعني ضرب الرجال الذين ترافقهم؟ أم ترمي إلى ما هو أقدم من ذلك؟ من يدري ما الذي تخبئه حول ماضيها؟

- كان الأمر في تلك الحقبة أشبه بهيستيريا جماعية أصيب بها الجميع دون استثناء، أودت بحياة الكثير من النساء البريئات. وقد غذّى اعترافهن بالتهم المنسوبة إليهن- تحت وطأة التعذيب- هذا الجنون إلى أقصى الحدود. وتحولت لائحة الأسماء التي قد تنطق بها تلك العجائز المنهارات من الألم، إلى كابوس جماعي. فمن جهة كان الناس مرعوبين من ذكر أسمائهم في تلك اللائحة، ومن جهة أخرى كانوا مقتنعين بأنّ الآلاف من الساحرات لازلن يتجولن بينهم متخفيات، حتى بات شبح التهمة يحوم فوق جميع الرؤوس. كما تم استجواب بعض النسوة ممن يعانين من تخلف عقلي، أو أمراض نفسية، وخلال جلسات الاستجواب، وبفعل شتى أنواع التعذيب والتحقيق، كن يقبلن بهذه التهم، ويدلين باعترافات سخيفة، كسلق الأطفال

في قدور الماء المغلي، أو تلذذهن بشرب مزيج من دماء الأطفال والغربان، وسواها من الترهات؛ مما جعل مستوى الجنون يرتفع أكثر بين الناس، حتى خرجت الأمور عن السيطرة، وأخذ كل من يشعر بالغيرة من أحد، أو ينقم عليه، يلفق له تهمة الشعوذة ويشي به. ومع انضمام الهيئات الرسمية إلى الحركة، زادت قوة الجائحة بشكل رهيب. فعلى سبيل المثال، قام رئيس الأساقفة في ألمانيا بحرق نساء قريتين بالكامل، ولم يترك في كل قرية سوى امرأة واحدة. وحين أدرك أنَّ أحد المكلفين بالتحقيق مع الساحرات يبدي التعاطف معهن، وجه إليه التهمة ذاتها، وقام بتعذيبه ثم حرقه هو الآخر. ومهما بدا أنَّ ألمانيا كانت تتصدر هذه الموجة، فإنّ رياح الجنون كانت تعصف بالقارة كلها، من سويسرا وحتى إيطاليا.

- لقد كان الألمان جهلة حقًا. لم يكن لدينا أمر مماثل، أليس كذلك؟
- في تلك العصور، وبينما كان الجهل يعصف بأوروبا، كانت الإمبراطورية العثمانية في أوج قوتها. وتهمة السحر التي تحولت إلى كابوس كل امرأة أوروبية، لم تعثر على باب لتدخل منه إلى بلادنا. كانت المرأة في ألمانيا، وللاعتراف بالتهمة المنسوبة إليها، تخضع إلى إجراء بالغ القسوة، فبعد حبسها في غرفة معتمة أيامًا متواصلة، ومنعها من النوم، كان يزورها شخص يتنكر في هيئة الشيطان، ويخبرها بأنّه سينقذها من الخازوق والحرق على قيد الحياة، إن وافقت على عبادته. فكانت المسكينة تتمسك بهذا الأمل للنجاة بنفسها، وتقبل بكل ما يطلبه، الأمر الذي يعتبر اعترافًا منها بأنها ساحرة، فتطبق عليها العقوبة على الفور. ويبدو أنَّ الألمان وجدوا متعة غريبة في هذه المزحة القاسية، فكانوا يترنمون بها لعصور في أغانيهم وأشعارهم.
- إذًا، فحتى المجتمعات يمكن لها أن تمرض!

تثير فكرة الأمراض الجماعية انتباهها، وكأنها تشعر بنوع من العزاء حين تدرك أنَّ المرض النفسي يصيب مجتمعات كاملة وليس الأفراد فقط.

- لو ألقينا نظرة على تاريخ البشرية، فسنجد أنَّ المجتمعات التي عانت من أمراض نفسية، ليست بالظاهرة النادرة، وإن كانت شدتها تختلف من عصر إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر، وهي ظاهرة لا زالت تتكرر حتى في عصرنا. فهل لك أن تتخيلي أنَّ محاكمة الساحرات ومعاقبتهن، استمرت في بريطانيا حتى القرن الثامن عشر؟
- ورغم ذلك، فنحن منبهرون بالغرب، ونظنه أكثر تحضرًا منا. علينا أن نقرأ كثيرًا.
- في تلك الحقبة، اتبعت محاكم التفتيش إجراء "كرسي الغطس" حيث تقيد المتهمة إلى كرسي، ويلقى بها في بحيرة أو حوض ماء، فإن غرقت فهي بريئة، وإن طفا الكرسي ونجت، تم إثبات التهمة عليها.
- الموت هو سبيل النجاة دومًا. لمَ نحن متمسكون جدًا بالعيش في هذا العالم الفظيع؟ حقًا لا أعرف.

يا لها من نظرة قاتمة!

- لكن العالم ليس بهذه القسوة على الدوام، فهناك أيام ولحظات حلوة أيضًا في الحياة.
- إنَّه أمر يختلف من شخص إلى آخر، وهو مرهون بالحظ الذي لا أملكه.

ترفع كتفيها وتفتح يديها وهي تقول، وكأنها تدلي باعتراف لا تستطيع إزاءه شيئًا، فألاحظ مرة أخرى الورم القرمزي الذي لا يزال يحيط بإبهامها. لمَ لا يتعافى هذا الإصبع أبدًا؟

- لقد ماتوا، وأنا لا أزال حية. إن أخبرتك بالحقيقة، هل ستتأسفين وتتحسرين علي؟

سؤال غريب! هل تخشى من الشفقة؟ أتخاف أن يتعاطف معها أحد؟ ربما تعتبر الأمر نوعًا من الإذلال؟ علي أن أخطو بحذر على حقولها الملغّمة، خاصة أنَّ شرارات الحقد والغضب عادت لتبرق في نظراتها، مهددة بالانفجار في أيّ لحظة.

- أعترف بأني شخص عاطفي، أتأثر بسرعة، أفرح وأغضب، لكن لا تتوقعي مني الكثير من التحسر والشفقة، لأنَّني اعتدت مواجهة الحياة بواقعية كبيرة، ثم أليس التحسر على الماضي مضيعة للوقت؟
- إذًا، كيف يمكن استخدام ذلك الوقت في رأيك؟

سؤال لا يقل ذكاءً عما سبقه، علي تذكير نفسي دومًا بأنّي أجلس قبالة فتاة حادة الذكاء. أشعر بأني أخوض مباراة ملاكمة ضد خصم بالغ القوة، فهذه الفتاة الهزيلة تسدد لكمات عنيفة، في لحظات لا أتوقعها على الإطلاق.

- الوقت هو كنز الإنسان الأغلى، لا يجب أن يهدر عبثًا في رأيي. وإن كنا نعي بأننا سنغادر هذا العالم يومًا ما، فعلينا تحديد هدفنا في أسرع وقت ممكن، وأن ندرك بوضوح ما الذي نحيا من أجله.
- وهل تعرفين ما الذي تحيين من أجله؟
- بالطبع.
- لو طلبت إليك أن تخبريني عنه، فلن تفعلي، أليس كذلك؟ عادة، لا يتحدث الأطباء عن أنفسهم للمرضى، وهم بارعون في التهرب إن دار حديث حولهم.
- ربما سأخبرك بذلك يومًا ما، ولكن هل تعرفين ما الذي تحيين من أجله؟
- أعرف. أعرف ذلك منذ البداية، رغم أنَّ هذه المعرفة عديمة الجدوى.
- لا زلت شابة في مقتبل العمر، ولديك مهنة رائعة، لكن هذه الأمور وحدها لا تكفي.
- ظننت لوهلة أنَّك تحاولين التخفيف عني.
- من الخطأ انتظار المواساة من البسيكياتريست.
- لمَ تستخدمين كلمة بسيكياتريست بدلًا من كلمة بسيكياتر؟
- كلتاهما كلمتان أجنبيتان، الأولى إنكليزية، والثانية فرنسية، لكني أرى أنَّ الأولى تناسب اللغة التركية أكثر.

- إذًا، فالأطباء النفسيون لا يواسون الناس!
- للمواساة دوافع حسنة النية، ولكنها إجراء غير فعال، وسيتلاشى أثرها قبل أن تخرجي من هذا الباب. لذا أميل إلى التصرف بواقعية أكثر، فربما كانت الحقائق قاسية في معظم الأحيان، لكنها تبين الإمكانات المتاحة أمامنا بوضوح، وتمكننا بالتالي من التحرك على ضوء هذه الإمكانات.
- أعجبني الأمر.
- إذًا، فقد نال إعجابك!
- هل أغضبتك؟
- تبدين أقرب إلى مفتش، منك إلى شخص جاء لطلب المساعدة.
- لأنَّي حتى الآن لا أعرف كيف أتحدث. أرجوك استمري في صراحتك.
- ولكنها كطريق في اتجاه واحد، فأنا لا أتلقى منك المثل.
- بداية يجب أن أثق بك.
- وكم عدد الاختبارات التي يتعيّن عليّ أن أخضع لها، لأحظى بثقتك؟
- هل تظنين أنه من السهل على الإنسان أن يسلم زمامه لشخص آخر؟
- لا تنظري إلى الأمر وكأنه عملية استسلام، فأنت أتيت إلى هنا طلبًا للمساعدة.
- في الحقيقة، ما كنت لأفعل لو لم أكن مضطرة. فحتى الآن لم يساعدني أحد. إن كان أقرب الناس إلي لم يفعل، هل سيساعدني شخص غريب؟
- هذه مساعدة مهنية يا آلا، وأنا أقدمها لكل من يأتي إلى هنا، ويكون بحاجة إليها. ليتك تثقين بي بعض الشيء.
- أمر صعب.

إذًا، فالأمر صعب عليها! تعترف بذلك، واليأس يخيم على نظراتها الباهتة. وسيلتها الوحيدة للوثوق بي، هي هذه الاختبارات التي تخضعني لها، وكأنها لعبة ملغزة، لا خاسر أو رابح فيها، فإما أن نفوز معًا، أو لن يكون هناك فائز.

- إنَّ إحدى أساسيات مهنتنا هي مواجهة ما هو صعب وتخطيه. وإن كان هدفك من كل هذه الحكايات التي تطلبين إليّ سردها، هو رغبتك في التعرف إليّ، فأنا لا أمانع طالما أنَّه سيعزز الثقة بيننا، ويمكنني من مساعدتك في النهاية.
- لقد رويت لي أشياء غريبة حقًا، وكأنك تعرفين حكايتي، وتعرفين ماضيّ، وكل تلك العذابات التي مرت بها النساء. لابد أنك خمنت الأمر بطريقة ما. كما أنَّك تحبين الكتب مثلي. هل شارف وقتي على الانتهاء؟
- يكاد.
- إذًا في المرة المقبلة، ستروين لنا حكايات جديدة ربما.
- تعنين أنَّ الحديث لن يدور حولك مرة أخرى.
- أنا واحدة من بين ملايين البشر. وكل ما تحدثنا أو سنتحدث عنه، يعنيني بطريقة ما. والأهم أنّي أستمتع كثيرًا بالاستماع إلى شخص يروي لي شيئًا؛ فهذا يشعرني بالتميز. كما أنَّي أتعرف إلى الماضي وما حدث فيه، وإلى أشياء جديدة. التعرف إلى ما هو جديد دومًا كان متعتي المفضلة. إنَّه أهم من الماء والطعام بالنسبة إلي. لقد سبق أن بقيت دون طعام، ولكن ليس دون كتب أبدًا. فهم أصدقائي الوحيدون. والآن أصبح لدي أنت أيضًا. أراك الأسبوع المقبل. إلى اللقاء.

تجرجر جسدها المنهك، وهي تخرج بخطا متثاقلة. ترفض الوثوق بي، ولكنها تمنحني مكانة مميزة في حياتها. في حضورها- وخلافًا لما أنا عليه مع بقية مرضاي- أفقد القدرة على التصرف براحة وثقة، فتختلط الأفكار والمشاعر، والسبب الأساسي لهذا الخلط هو الجهل، فأنا أكاد لا أعرف عنها شيئًا. لكن أيًا كان الجاني، فقد سلب هذه الفتاة كل شيء؛ الثقة بمن حولها والإحساس بالعدالة، والأهم قدرتها على الاستمتاع بالحياة. ترى ما الذي دمرها إلى هذا الحد؟

الفصل الخامس

بدأت الشمس ترينا وجهها رويدًا رويدًا، بعد أن أمضينا شتاء طويلًا جدًا هذا العام. لقد تاقت المدينة إلى الشمس، والدفء، والخضرة وانتعاش الطبيعة. حين رأيت الشمس مشرقة هذا الصباح، ارتديت سترة خفيفة، وخرجت فورًا. ركبت سيارة أجرة قاصدة شارع تونالي حلمي، وحين ترجلت في بداية الشارع، أدركت أنَّ الكثيرين يشاركونني المشاعر والرغبة ذاتها، فالطريق يعج بالناس في هذه الظهيرة الدافئة، وكل من تاق مثلي إلى الربيع والنور والدفء، خرج للتنزه مستمتعًا، خاصة الشباب، فهم يضجون مرحًا وصخبًا.

عادة ما أرى هذه البهجة والراحة على وجوه المصطافين خلال العطلات، حينها تكون ملامح الناس مختلفة تمامًا، فالهموم والمشاكل لا ترافقهم خلال عطلاتهم. إنَّها لحظات هرب قصيرة، فكل شيء هناك بانتظارنا حال عودتنا، وحتى إن لم نكن سعداء مرتاحين، فنحن نحاول أن نبدو كذلك خلال العطلات، فنعثر على وسيلة ما للتحيُّل على أنفسنا. لهذا السبب، أحب أماكن الاصطياف، وأحب مراقبة وجوه الناس هناك.

لكن إن كنتم تعيشون في مدينة كأنقرة، فستختلف الأمور قليلًا. فهي مدينة عملية، تكاد لا تنتهي سلسلة تحدياتها، ذات طابع محافظ، كما أنَّها تفتقر إلى الأماكن التي قد يلجأ إليها المرء للتخفيف عن نفسه قليلًا. ولا يمكن مقارنتها بإسطنبول التي هي أشبه بغادة حسناء، مغناج مرحة. في أحسن الأحوال، تبدو أنقرة كموظف حكومي وخط الشيب رأسه، يغادر منزله باكرًا كل صباح مرتديًا بدلته الرسمية، ولا يكاد يتأخر في عودته عن السادسة مساء، له من الخبرة العملية ما

يخوله القيام بما هو ضروري على الدوام. هذا الموظف هو والدكم، أخوكم الأكبر، أو عمكم، لذا فأنتم تحبونه. حتى إن لم يكن وسيمًا، أو باسم الثغر، فأنتم جميعًا مدينون له. إنَّها مدينة لا تشعرك بحريتك الشخصية، فكيف لك أن تشعر بها، وأنت تعيش مع كل أفراد عائلتك في بيت واحد، ولكنه رغم ذلك يظل بيتك. حين تذهبون للاصطياف في مكان آخر، وبرغم كل المناظر الخلابة التي ترونها، والموائد الشهية التي تجلسون إليها، وبرغم البحر، ونسماته الرطبة المنعشة، ستشتاقون إليها، كما تشتاقون إلى رائحة صحن الحساء الدافئ على مائدة الأسرة أيام الشتاء، هذه هي أنقرة، رائحة امتزجت بمشاعركم، لن ترغبوا في التخلي عنها ونسيانها.

أقف لوهلة عند التقاطع الذي يربط شارع تونالي حلمي بشارع كينيدي، السماء رائعة الزرقة، وكل شيء على الأرض يتلألأ تحت وهج الشمس البرّاق. هذه المناطق ليست غريبة علي، فإلى الأسفل يسارًا من جادة كنيدي، حيث تبدأ جادة بوكلوم، هناك يقع منزلي السابق. على طرفي هذه الجادة، تمتد الأشجار الباسقة التي تتحول في الصيف إلى جدار أخضر يحجب رؤية السماء. كان الأطفال صغارًا حينها، حسن في الإعدادية، وياغمور في الثانوية، وكلاهما كان يدرس في كلية (TED). بعد ذلك، انتقلت إلى الشارع الذي يليه، شارع بيستيكار، وبقينا هناك عشرة أعوام. أرنو إلى بنايتنا البيضاء الجميلة بطوابقها الأربعة من بعيد، حينها كانت عيادتي في شارع مشروعيت. ومع قدوم الربيع، كنت أتوقف عن الذهاب للعمل بسيارة الأجرة، بل أجتاز شارع أتاتورك كل صباح سيرًا على الأقدام. كانت تلك اللحظات الوحيدة التي أتواصل فيها مع العالم الخارجي، لأنَّني نادرًا ما كنت أخرج، كنت أعمل ساعات أطول بكثير من الآن، فينقضي نهاري كله في العمل. لسنوات طويلة، كانت حياتي كلها تدور حول البيت والعيادة، وكنت سعيدة في كلا المكانين.

حين أصل إلى جادة أتاتورك، أجتاز الطريق إلى الجانب المقابل، وأسير بمحاذاة السفارة الأمريكية، وصولًا إلى مركز ماداليون. الساعة تجاوزت الواحدة

ظهرًا، لكنها كانت جولة جميلة، نادرًا ما أقوم بمثلها. أمام باب المركز، يهرع سائقي آيدِن لاستقبالي.

- خيرًا إن شاء الله، يا دكتورة؟ لمَ أتيت سيرًا؟ هل حدث أمر ما؟ هل تعرضت سيارتك لحادث لا قدّر الله؟
- لا، لا شيء من هذا القبيل، لكني أردت السير قليلًا.
- الحمد لله، لقد خفت من وقوع مكروه حين رأيتك قادمة سيرًا على الأقدام.

هذا آيدن آخر يكن لي محبة عميقة، ويشعر بالخوف علي. يهرع لفتح الباب لي، ويودعني بضحكة لطيفة. إنَّه شاب وسيم طويل القامة، متناسق التقاطيع، يعمل بتفانٍ كبير، أب لطفلين، فتاة جميلة كقطعة حلوى، كما رزق بولد بداية هذا العام، لكنه لا يتمكن من رؤيتهما كما يجب، لأنَّه يعمل في المركز حتى وقت متأخر من الليل. لا يتذمر على الإطلاق، فهو يحب العمل، وعمله في المركز على وجه الخصوص.

أحيّي بإيماءة من رأسي موظفي الاستقبال في المركز، وأستقل المصعد إلى الطابق الرابع. أول ما أفعله حين أصل غرفتي هو فتح النوافذ، فقد تعرق جسدي، رغم ثيابي الخفيفة. آلا تنتظرني في الردهة، إذًا هي أولى مرضاي اليوم! أجلس إلى طاولتي وأشغّل الحاسوب. تقبل تونا، فأحدثها عن الجولة التي قمت بها.

- خيرًا فعلت.
- أدخلي آلا على الفور.

لكنها تسألني إن كنت قد تناولت الغداء. لم أفعل، ولم يخطر لي الأمر.

- لا يجوز.

وتدخل آيتان بعد لحظات مع صينية عليها عدة أطباق من الطعام، أحاول الأكل بأسرع ما يمكنني، لكن كل من يعرفني، يعرف أيضًا بأنَّي لا أستطيع الإسراع في الأكل، حتى إن كان الجوع يفتك بي. وإن كانت معدتي التي أتركها فارغة

ساعات طويلة صمدت دون تقرح حتى الآن، فذلك لأنّي أرسل إليها الطعام مطحونًا بشكل جيد، كي لا أجهدها. أترك نصف الطعام في الصحون، وأنهض بعد أن أمسح فمي بالمناديل المبللة.

تدخل آلا الغرفة قبل أن أتمكن من الجلوس في مكاني، تبدو في شحوب الأموات كعادتها. أشعر ببرود نظراتها كموجة صقيع تلامس جسدي، ورغم محاولتها الابتسام لرؤيتي، لكن لا شيء يذيب صقيع نظراتها. بعد الجلوس، أطرح عليها الأسئلة المعتادة:

- كيف حالك؟ كيف تسير الحياة معك؟ ما الجديد؟

فتجيب بكلمة واحدة عن كل منها. من الواضح أنها متشوقة للمجيء، رغم جلوسها قبالتي متكتمة، دون أن تتكلم أو تبوح بشيء. هذا التصميم الذي يدفعها إلى الالتزام بالمجيء إلى هنا، يمنحني الأمل بأنّ ربيعها أيضًا قد يأتي قريبًا. من الأفضل البدء دون مزيد من المماطلة. في جعبتي الكثير من الحكايات، فكوني أعاني من الأرق هذه الفترة، أقضي ساعات أطول في القراءة.

- آلا، لا يبدو لي أنّك تتناولين الكثير من الطعام.
- في البيت، لا يوجد من يعد لي الطعام.
- لكنك لا تبقين جائعة طوال الوقت، أليس كذلك؟
- لا، فأنا أعثر على ما يؤكل.
- هل تحبين البطاطا؟
- أحبها مقلية.
- إذًا، دعيني أروي لك حكاية عن البطاطا اليوم.
- حسنًا. أنا أصغي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رغم محاولتها التزام اللطف والاحترام في حديثها، لكن هناك تململًا خفيًا بين السطور. لابد أنّها تبذل جهدًا هائلًا لإخفاء وجهها الحقيقي، لكنني سأراه يومًا ما بكل تأكيد.

- كان مكتشف البطاطا، ومن عرّف الشعب البريطاني بها، هو السير فرانسيس دراك. فقد اكتشف دراك البطاطا على سواحل البيرو، وقام بشحنها عبر فرجينيا إلى إنكلترا، ومن هناك إلى قصر الملكة إليزابيث الأولى مباشرة. وقد اعتبر الفرنسيون الأمر حينها اعتداءً على المطبخ الفرنسي، وشعروا بغيرة هائلة من الإنكليز، ووصلت بهم الغيرة إلى تحريم تناول البطاطا في فرنسا. ومن ثم راجت شائعة تقول بأنّ البطاطا تسبب الجذام، ولمدة مئة عام لم يقربوا البطاطا من شفاههم، خوفًا من الجذام.
- يبدو أنَّ الأوربيين كلهم مجانين.
- في تلك الأعوام، عانت ألمانيا وسويسرا من مجاعة قاسية، وقد فضل الناس الموت جوعًا على تناول البطاطا. لكن الفرنسيين كانوا الأكثر صمودًا من بين الجميع، فقد استمروا مئة عام بتجنب هذه الثمرة الشهية والمفيدة أيضًا، رغم حصار الجوع والموت، وقد مات الكثير من القرويين جوعًا.
- كم كانوا جهلة! هذا أيضًا يبدو كمرض جماعي. كل شيء يتغير بسرعة، فشائعة سخيفة يمكن لها أن تودي بحياة الناس. لا بد أنّ هذا ما يطلقون عليه اسم سيكولوجيا المجتمع.

كل تعليقاتها وملاحظاتها منطقية وذكية، رغم أنَّ مظهرها ونبرة صوتها يخدعان المرء، فيستخف بها للوهلة الأولى.

- في عام ألف وثمانمئة وخمسة وأربعين؛ أي خلال الحقبة التي كانت الكثير من الدول الأوربية ترفض فيها تناول البطاطا، كانت إيرلندا قد خصصت معظم حقولها لزراعة هذه الثمرة. كان اقتصاد إيرلندا حينها يعتمد على الزراعة بشكل كلي، وأصحاب الأراضي في معظمهم من الإنكليز المقيمين هناك. كان القرويون يعملون في هذه الحقول لقاء أجور زهيدة، ويعتمدون في طعامهم على البطاطا فقط؛ حتى أصبحت رمزًا

وطنيًا للبلاد. ولسنوات طويلة، وفيما كان ملايين الأوربيين يتجنبون البطاطا لاعتقادهم أنَّها سبب الكثير من الأمراض، كان الإيرلنديون يراقبونهم في سخرية، ويتناولون طعامهم المفضل في شهية كبيرة.

- أكانوا يتناولون البطاطا فقط؟

- كانت الوجبة الأساسية للفقراء، فهي غنية بالمعادن، وبفيتاميني بي واحد وبي اثنان، كما تساعد الجسم على تخزين فيتامين سي أيضًا، وبذلك فقد ساهمت في اختفاء مرض الإسقربوط الذي كان يعاني منه الفلاحون سابقًا. وكانت هريسة الحليب والبطاطا، تشكل وجبة غنية تمد الجسم بحاجته من فيتاميني "د" و"أ"، لذا كان الفلاحون يتمتعون بصحة جيدة. كما ساهمت هذه الوجبة في زيادة خصوبة النساء؛ مما ضاعف عدد سكان البلاد بسرعة كبيرة. ففي عام ألف وسبعمائة وثمانين، كان عدد السكان يبلغ مليوني نسمة، لكن هذا الرقم وصل في عام الوباء الذي لم يكن قد عصف بالبلاد بعد، إلى تسعة ملايين نسمة. كان الوباء الذي اجتاح القارة في عام ألف وثمانمائة وخمسة وأربعين، لا يقل وحشية عن ذلك الذي ضربها في القرن الرابع عشر، وكانت له أضرار وخيمة على كل شيء بما فيها البطاطا، فقد جف نصف المحصول في ذلك العام، وفي العام الذي يليه جف المحصول كله. وحين فقد القرويون طعامهم الأساسي، أخذوا يموتون جوعًا، كما أصيب الكثير من الأطفال بالعمى نتيجة نقص فيتامين دي، الذي أدى إلى جفاف العين بدرجة خطيرة أفقدتهم البصر.

- لمَ كانوا يعتمدون على البطاطا وحدها؟ ألم تكن زراعة محاصيل أخرى ممكنة؟

ترف بعينيها، وتطرح سؤالها في خجل واضح.

- كانوا يزرعون بالفعل الكثير من المحاصيل المتنوعة في السابق، كالشوفان والقمح والشوندر وسواها، لكن هجمات الجيش الإنكليزي المتعاقبة

على أراضيهم، كانت تؤدي إلى تلف هذه المحاصيل تحت حوافر الخيول، ولم ينجُ من هذه الهجمات، سوى البطاطا التي وصلت إليهم من العالم الجديد، لأنَّ ثمرتها تنمو تحت الأرض، فاعتبروها معجزة نجاتهم، وتحولت خلال وقت قصير إلى المادة الأساسية للزراعة. إلا أنَّ ربط مصيرهم بمنتج واحد، كلفهم ثمنًا غاليًا فيما بعد، لذا هاجر قسم كبير من السكان إلى أمريكا بعد المجاعة، وخلال عشرين عامًا هبط عدد سكان البلاد إلى النصف.

- ألم يساعدهم أحد؟
- للأسف، لم يفعل أحد ذلك. فإنكلترا التي تقع على الطرف الآخر من البحر الإيرلندي، كانت في تلك الحقبة من أغنى دول العالم بسبب مخازنها الغذائية. وحين لاحظ الإنكليز أنَّ جيرانهم يموتون جوعًا، اعتبروا الأمر مشيئة القدر، وأنَّ تركهم ليواجهوا مصيرهم بأنفسهم، هو أفضل الحلول. كما أنَّ الحكومة الإنكليزية لم تكن في تلك السنوات، تساعد حتى الفقراء من أبناء شعبها. واعتبر رجال الاقتصاد الإنكليز أنَّ المجاعة تدبير إلهي، لتنظيم الكثافة السكانية المتزايدة في إيرلندا، حتى إنّ وفاة مليون شخص منهم لن تكون كافية لحل مشكلات البلاد. وحين ارتفع عدد الوفيات بسرعة قياسية، وبعد العديد من المباحثات والصفقات، استورد الإيرلنديون الذرة من الإنكليز، لكن الشعب لم يكن يعرف الذرة، ولم يعرف كيفية طبخها وتناولها، وقد أطلقوا على دقيق الذرة اسم "الملح الأصفر" أو "لحاء الكبريت"، ولم يستخدموا هذا المنتج.
- كانوا محقين.
- لِمَ كانوا محقين؟ أليس هذا ضربًا من الجهل؟
- لأنّ إنكلترا لم تساعدهم حين كانوا يموتون جوعًا. ولو كنت مكانهم، فما وافقت على تناول ما سيرسله بلد كهذا.

لا يقل اعتدادها بنفسها حدّة عن غضبها.

- وهل نجا من هاجر منهم إلى القارة الأمريكية؟

- لقد انطلق الملايين هربًا من الموت في رحلات طويلة وقاسية، على متن سفن أطلقوا عليها لقب "التوابيت"، ولقي قسم منهم حتفه خلال الرحلة نتيجة التيفوس أو الدزنطاريا. أما الناجون منهم، فلم يلقوا ترحيبًا جيدًا في المناطق التي وصلوا إليها. ففي أحد الجزر مثلًا تم حجزهم في أكواخ كانت الملاريا قد عصفت بسكانها، وقد توفي نتيجة ذلك المئات من النساء والأطفال. ومن لم يملكوا منهم ما يكفي من النقود لعبور المحيط الأطلسي، فقد توجهوا إلى إنكلترا، وسكنوا في أفقر أحيائها، وعاشوا تحت أقسى الظروف. كل هذه العوامل زادت من نقمة الإيرلنديين، وأججت أحقادهم القديمة على الإنكليز.

- الحقد والنقمة شعوران لا ينموان بسهولة، كما لا يغادران بسهولة أيضًا. وماذا فعل الإيرلنديون بعد ذلك؟ كيف تمكنوا من التغلب على هذه المشاعر؟

- بمعاداة الإنكليز ومحاربتهم سنوات طويلة.

- لقد أحسنوا الفعل.

- لكن ما من رابح حقيقي في هذه الحروب الانتقامية. كما أنَّ ضحايا هذه الدوامة من العنف، لم يكونوا من الإنكليز الذين أجحفوا بحقوق الإيرلنديين، بقدر ما كانوا من الإيرلنديين أنفسهم، فلأجيال متعاقبة من الأبناء والأحفاد، رزحوا تحت وطأة هذه العداوة المتبادلة، تمامًا كجميع قضايا الثأر التقليدية.

- ليكن. على المرء أن ينتقم لنفسه بطريقة ما. وإلا لا يمكن نسيان الألم.

من الواضح أنَّي اخترت الموضوع المناسب، فنيران الانتقام تلهب روحها، ربما هذا هو سبب نفوري من هذه الفتاة. فالحقد الذي في عينيها، يصيبني بالهلع،

ورغم الطاولة التي تفصل بيننا، لكنني أنسحب نحو الخلف، في محاولة للابتعاد عن أنفاسها الباردة ما أمكنني. تقوس ظهرها أكثر، وترمقني شزرًا بنظرات جنونية، ومع احتدام الغضب في صدرها، يتجلى الموت والحقد أكثر في نظراتها الباهتة، وتغدو أكثر قبحًا من السابق. وهي من الذكاء بحيث لا يمكن أن يخفى عليها النفور والاستياء اللذان أشعر بهما تجاهها. لو تمكنت فقط من العثور على بصيص من المحبة تجاهها في قلبي، لهان الأمر، لكنني كلما أرغمت نفسي ازداد نفوري، فالمحبة لا تأتي قسرًا.

- الانتقام لا ينسينا الظلم والألم.
- وهل يجب تركهم ينجون بما فعلوا؟ كل جريمة ولها عقابها.
- أعتقد أنَّك أكثر اطلاعًا مني على الأمر، بحكم دراستك الحقوق، فكل جريمة لها عقابها بكل تأكيد، والبشر يحاولون منذ آلاف السنين خلق منظومة قانونية تتيح لهم تحقيق المزيد من العدالة، ورغم ذلك لا يمكن الادعاء بأنهم حققوا نجاحًا كبيرًا في هذا المجال. الغضب والحقد والنقمة مشاعر بالغة القسوة، وهي تسبب ألمًا كبيرًا لصاحبها، وتستهلك طاقته، لذا من الحكمة عدم هدرها على هذا النوع من المشاعر. ليت الناس يتعلمون استخدام هذه الطاقة بطريقة أفضل.
- ماذا تعنين؟
- فكري في حياة تدور حول الحقد والغضب. أليس الانتقام وإلحاق الأذى بالآخرين يسعر نيران الحقد بدلًا من أن يخمدها؟ ألا تلاحظين مقدار الضرر الذي تسببه هذه المشاعر لصاحبها؟
- لكن المرء لا يفعل ذلك راغبًا، ولا أحد يختار هذا المصير بإرادته. ثم هل يمكن للعقل أن يقف في وجه الغضب؟

سؤال غريب! لكن الغريب أكثر أنَّها لم تعد تحاول إخفاء الغضب الذي يغلي في صدرها. قد يكون هدفها الأساسي من المجيء، هو البحث عن سبيل لإيقاف غضبها.

- لا يمكنه ذلك، لكنه قد يتمكن من توجيه هذه الطاقة السلبية التي تضره قبل الآخرين، وجهة مغايرة.
- أيّ وجهة مثلًا؟
- لا أعلم إن كنت قد لاحظت ذلك، لكن عادة ما نرى في أنقرة انفجار أنابيب المياه، وهدر آلاف الأطنان من الماء، التي تعطل حركة المرور، وتمنع الناس من التحرك بسهولة، وتحيل الشوارع إلى مستنقعات موحلة. هذا ما تتحول إليه روح الإنسان تحت فعل الحقد والغضب، فهي مشاعر تهدر طاقته حتى تجفف منابعه الداخلية، وتلحق الأذى بمن حوله أيضًا. لقد عانيت من هذه المشاعر السلبية فترة طويلة بسبب مرض زوجي، لذلك كلما رأيت هذا المشهد في الطريق، أتخيل الدمار الذي تلحقه هذه الطاقة السلبية الفالتة من عقالها بروح الإنسان. لو تم توجيه هذه الطاقة المهدورة نحو قنوات أخرى، فلن يكون صاحبها وحده المستفيد، بل كل من حوله.

فيما أحدثها، أستحضر كل تلك الطاقة السلبية التي اجتاحت روحي بعد وفاة آيدِن، والتي وجهتها نحو العمل. فحتى في أحلك لحظات حياتي، كانت مهنتي إلى جانبي. لعلها معجزة حقيقية أن يحب الإنسان عمله.

- التاريخ حافل بأمثلة من هذا النوع، فبعض من أعظم الفنانين، نجحوا في تحقيق هذه المعادلة، وتركوا لنا أعمالًا خالدة. ربما ستتمكنين أنت أيضًا من تحقيق ذلك يومًا ما.
- لكن الشر والقسوة والوحشية كلها جزء من طبيعة الإنسان.
- كما أنَّ الخير والرحمة والمحبة أيضًا جزء من طبيعته.
- هل يمكن تحويل الشر إلى خير؟

سؤال عميق حقًا! فقد حكمت على نفسها بالشر. أتذكر ما قاله لي السيد أصلان: "*الشر أمرٌ يثقل كاهل المرء*". إنَّها لا تدرك ذلك، فقد أحاطت نفسها بشر عميق وصاف، لكن من الواضح أنَّ روحها تتوق إلى بصيص من النور.

- ألا يستحق الأمر المحاولة في رأيك؟
- هل يمكن للإنسان أن يغير أقداره؟
- الإنسان يكتب جزءًا من أقداره بنفسه.
- لكني لم أكتب منها حرفًا واحدًا. لو عاد الأمر لي، فما كتبتها بهذه الطريقة أبدًا.

تحدق إلى عيني بغضب، وهي تقول ذلك مشددة على كل حرف بعناد. أتأمل هذا الوجه الطفولي الدميم، والغارق في الألم، فتحزنني حقًا رؤيتها تحت وطأة كل هذا العذاب واليأس، وهي في هذه السن الصغيرة.

- أنت لا تزالين في بداية الطريق. الأطفال غير قادرين على كتابة أقدراهم، فالأقلام بأيدي الآباء والأمهات. وقد بدأتِ توًّا بحمل هذا القلم في يدك لتخطي أولى الحروف على لوحك، لكني لا أرى عليه ما يسر، فما ستكتبينه لا يحتاج إلى التخمين.
- وما الذي سأكتبه؟
- ستواصلين حياتك تحت ظلال اليأس والوحدة، منهكة من وطأة الحقد وهوس الانتقام، الذي ستكونين أولى ضحاياه. ربما لم أتعرف إليك بعد كما يجب، ولكن إن لم نجد سبيلًا لنخمد هذه النيران، فسيكون مصيرك بائسًا.

تشعر بالاستياء من كلماتي، وتبدأ بضرب قبضتيها المكورتين ببعضهما، فتظهر آثار الجروح على ذراعيها. لا بد أنها قامت بإحداث هذه الجروح، في لحظات مماثلة من الألم واليأس، من هذا الغضب العارم. لا أعرف بعد ما الذي دمر روحها إلى هذا الحد، ولكني واثقة بأنَّها تلقت جروحًا بليغة في الماضي. وإن لم أتمكن من كسر هذه السلسلة التي تربطها بماضيها، فستمضي بقية عمرها، تلعنه وتحيا تحت ثقل ظلاله. لو أمكنني تحويل لوح أقدارها نحو وجهة أخرى، ولو لبضعة مليمترات، فسيتغير الكثير في مسارها.

- أنت امرأة شديدة الخطر.

توجه غضبها نحوي. يبدو أنَّ تعرية الحقيقة أمام ناظريها، قد سببت لها ألمًا كبيرًا. لم أكن راغبة في التسبب بمزيد من الألم لها، فمن الواضح أنَّ لديها ما يفوق حاجتها، لكن تغيير الأقدار يتطلب تضحيات جسيمة، ولا تضحية دون ألم.

- لِمَ تقولين ذلك؟
- لا تحاولين تلطيف كلماتك. لم يفعل ذلك معي بقية الأطباء.
- لكنك لم تقدريهم حق قدرهم.
- معك حق. فالطيبة لا تليق بي، لأنَّي اعتدت الشر.

يبدو أنَّها تعنيني بهذا الشر. لقد أطلقت العنان لمكنون قلبها اليوم، وهي تصرح بكل مشاعرها السلبية نحوي واحدًا تلو الآخر.

- يبدو أنَّني مصدر الشر الذي تعنينه؟
- أجل، أنت. وهذا ما يدفعني إلى المجيء إليك. فأنت تدركين أنَّ هذه الكلمات تؤلمني كثيرًا، لكنك لا تبالين. لا أريدك أن تتوقفي. فمهما تألمت فسيأتي يوم، وأتعلم منك كيف أغدو قوية. حينها لن يستطيع أحد أن يؤلمني مطلقًا.

يا للفتاة التعسة! أتظن أن القوة تمنعنا من الشعور بالألم؟ لقد تألمت كثيرًا دون أن يلحظ أحد ذلك. قد تكون هذه هي القوة الحقيقية؛ قدرتنا على إخفاء مشاعرنا. ولازال الألم يعصف بروحي، لأنَّ خوفي المزمن من فقدان آيدِن اختفى بعد رحيله، وتحول إلى جرح غائر لا يندمل أبدًا.

مواجهة الوجه البارد للموت، تجربة تختلف عن كل ما عداها. الموت، تلك الأنفاس الباردة، والنظرات الباهتة، هذا ما أراه في وجهها، وهذا ما يدفعني إلى تجنبها. أخيرًا عثرت على الجواب الذي أرقني البحث عنه. لقد حاولت منذ لحظة لقائي بها أن أتقبلها، لكني أخفقت على الدوام. فرغم شرارات الحقد والغضب التي قد تتوهج في نظراتها للحظات عابرة، لكن لا يمكن للمرء أن يرى فيهما سوى

برودة الموت الرهيبة. كأنَّها جسد غادرته روحها، جسد ملأته بمعلومات وكلمات من الكتب التي تقرؤها، ليس إلا.

وفي كل مرة تصافحني فيها، أشعر أنَّ يدي لامست جثة، فتنتابني القشعريرة. يدها باردة وتغلفها رطوبة لزجة، كأنها جثة لم تعِ موتها بعد. لقد رأيت مشهدًا مماثلًا في أحد الأفلام، لكن الفتاة كانت ملائكية الجمال. أما آلا، فليس فيها أدنى ملمح ملائكي، وفي أفضل الأحوال، يمكن تشبيهها بملاك الموت، خاصة حين يتدفق الحقد والغضب من عينيها كأمواج موحلة، فيتجسد الموت في مظهرها بأقسى أشكاله.

كيف لم ألحظ الأمر منذ البداية؟ فلو تجسد عزرائيل في صورة امرأة، وأردت رسمه، لرسمته بهذه الهيئة تمامًا. إنَّها تشارك الموت في برودته القاسية، وإصراره الرهيب على تعقب المرء حتى النهاية.

آه! أشعر الآن بأني أفضل. ولكن لمَ لا أرى في هذه الفتاة سوى الموت؟ هل لأنّها باردة ودميمة؟ أليس للأمر علاقة بي؟ هل من قبيل المصادفة أن أرى فيها الموت الذي تجول ظلاله الباهتة في ذهني؟ لمَ تغمرني بهجة الحياة كلما رأيت ابنتي ياغمور أو فكرت فيها؟ ولمَ لا أستحضر سوى الموت في حضور آلا؟ هل عايشت هذه الفتاة الموت إلى هذا الحدّ يا ترى؟ ما مصدر هذا البرود الشاحب الذي يخيم على نظراتها؟ لابد من وجود رابط يجمعنا معًا، قد تكون هي أيضًا واجهت قسوة الموت مثلي.

- هل تعتقدين أنَّ القوة تبعد عنا الألم، يا آلا؟
- لقد ناديتني باسمي مرة أخرى. لست أعلم بعد إن كنت قد تقبلتني أم لا.
- لم يكن الأمر سهلًا، لكني فعلت.

وأخيرًا يضيء وجهها ببريق طفيف، إذًا فقد كانت خائفة طوال الوقت من رفضي إيّاها، وعدم الاهتمام بها. ربما كان هذا سبب ثورتها علي قبل قليل.

- هل شعرت بالألم؟ هل عانيت كثيرًا؟

- بالطبع، وهل ينجو أحد من هذه المعاناة؟ كما أدركت الآن حتى لو حاولتِ إخفاء الأمر، أنَّك عانيت الكثير من الألم، وواجهت الموت مرات كثيرة.

تحدق إلى عيني لوهلة مندهشة، ثم تخفض نظراتها في ألم عميق. تحرك رأسها إلى الجانبين، وكأنها تريد طرد الأفكار التي تجول فيه على هواها، ثم تبدأ الحديث في تمتمة خافتة.

- لم يتركني الموت ولو لحظة، فقد عشت وتربيت في حجره.

ما الذي تعنيه بأنها تربت في حجر الموت؟ لا يمكنني فهم كل ما تحاول قوله، لكن مشاعري لم تخطئ. فقد ترك الموت رائحته على جسدها النحيل، وأنا بت قادرة على تمييز هذه الرائحة. تواصل الحديث بأسلوبها المتقطع، لكن دون توقف.

- لكن من المحال أن يخمن المرء حين ينظر إليك أنَّك عانيت من الألم. أيعني ذلك أنَّي لو أصبحت قوية، فسأظل أتألم، لكني سأنجح في إخفائه؟ إن أصبحت قوية، هل سأتمكن من تغيير قدري؟
- بالطبع. فالقدر لا يجب أن يعني الولادة والموت فقط، فبين هذين الاثنين توجد حياة كاملة، لها طابعها وألوانها، وهذا ما يمكننا تغييره.
- سوف أغير هذه الحياة. لقد أخبرتني سابقًا أنّ الإنسان إن أراد بشدة يمكنه النجاح، وأنا أرغب في ذلك بشدة. كل ما قلته منذ قليل كان صحيحًالو تركت الأمر؛ أعني لو تركت نفسي لأهوائها. فمصيري واضح. في الحقيقة لست سوى فتاة تعسة، ولكن لا أعلم لمَ لا أثير شفقتك. لكن هذا بالذات ما يروقني في علاقتنا؛ فأنا أكره الشفقة التي أراها في عيون الآخرين.

إذًا، هي ليست هنا طلبًا للشفقة. والغريب أنَّ نفوري منها، ورؤيتي الموت في عينيها، عادا بفائدة غير متوقعة على علاقتنا الغريبة. لكن ألم أشعر نحوها بالشفقة حقًا؟ كيف يمكن لشخص مثلي أن ينجح في ذلك؟

- لم تحبني أمي قط. وبعد الأحداث الفظيعة التي مررنا بها، تركنا منزل العائلة، وجاء بنا أبي لنقيم في أنقرة، في البيت الذي أقيم فيه حاليًا. بعد تلك الحادثة ثم انتقالنا، بدأت حالة أمي النفسية تتدهور بسرعة. في أحد الأيام، كنا وحدنا في المنزل، وكانت قد تناولت طعامها، وبدأت تتراكض في أرجاء البيت كحصان هائج. كانت تفعل ذلك حين تشعر بالضيق، تتجول جيئة وذهابًا دون أن تتوقف لحظة، وهي تبحث عن ذريعة لضربي. كنت أدرك ذلك جيدًا، لذلك أتكور على نفسي في زاوية ما، ولا أجرؤ على التحرك، حتى إنِّي لا أذهب إلى المرحاض، وأتحاشى على وجه الخصوص النظر إليها. في ذلك اليوم، شعرت بجوع شديد. في الحقيقة، لم أعتد تناول الطعام في وجبات منتظمة؛ لذا لم أكن أشعر بالجوع غالبًا. كانت قد أعدت سجقًا مقليًا، وتناولته ولم تطعمني، لكن الرائحة فاقمت من جوعي. شاهدتها تدخل الحمام وتغلق الباب، فظننتها ذهبت إلى المرحاض. لذا قفزت من مكاني، وعبرت الصالون إلى المطبخ مسرعة، بحثًا عما يؤكل في البراد. عثرت على بعض البقايا، لكن عيني وقعت على علبة حمص مفتوحة في الرف العلوي. أخذت من العلبة حفنة صغيرة، وحين كنت أهمّ بإرجاعها مرتعشة من الخوف، سقطت من يدي. وقبل أن أتحرك من مكاني، خرجت راكضة من الحمام. لقد أمسكت بي، والمصيبة أنَّي كنت أحاول سرقة الطعام. ارتسمت على وجهها تلك الابتسامة الرهيبة، فقلت في نفسي ستقتلني هذه المرة. كانت تقف فوق رأسي كملاك الموت الذي جاء ليقبض روحي.

ملاك الموت! هي تسميه ملاك الموت، وأنا أسميه عزرائيل. لكن من الواضح أنَّ ذهنينا يعزفان مقطوعة واحدة. أكانت تتلقى هذه المعاملة على يد أمها؟ هل كانت تتعمد تجويعها حقًا؟ ألهذا السبب هي نحيلة إلى هذا الحد؟ وما الأحداث التي ألمحت إليها في بداية كلامها؟ ما الذي مرت به عائلتها يا ترى، حتى تركها الأمر مجرد حطام؟

يرتفع صوتها بصورة آلية، وتستمر بسرد الأحداث، وكأنها تصرخ تحت وطأة سياط ألمها القديم.

- اقتربت بهدوء ورفعتني من شعري، ثم جرتني خلفها إلى الصالون، وألقت بي بقوة حتى الطرف الآخر من الغرفة، فارتطمت بطاولة عليها مزهرية، وسقطت على الأرض. تحطمت المزهرية، وأصبحت الأرض مغطاة بقطع الزجاج وحبات الحمص التي تناثرت من يدي، وبدت الغرفة كساحة حرب حقيقية. حين يصل الألم إلى حدوده القصوى، يفقد الإنسان الإحساس به، فلا يبكي ولا يصرخ.

إنَّها محقة تمامًا، فحين يشعر الإنسان بألم رهيب إلى هذا الحد، لا يحاول أن يصرخ أو يبكي. هذا ما فعلته أنا أيضًا.

- ثم اقتربت مني، فحملت المذبة البلاستيكية المعلقة على الحائط، وبدأت ضربي بطرفها المسطح، على رأسي وعيني، و كل مكان وصلت إليه. ثم بدا لها أنَّ هذه الضربات لا تؤلمني بما يكفي، فأدارت المذبة، ولوحت بها في الهواء فأصدرت أزيز السياط، ثم أخذت تضربني بساقها الطويلة على ساقي وظهري. هل سمعت أزيز السوط حين يلوح به أحد في الهواء؟

تحدثني ونظراتها مصوبة نحوي بصلابة دون أن يرف لها جفن. كيف لي أن أجيب عن سؤال كهذا يا ترى؟ أبحث عبثًا عن الإجابة، لكن سوطًا حارقًا من الألم يجلد صدري.

- هناك أسئلة يقف حيالها حتى الأطباء حائرين، كحالتك الآن. بعد أزيز المذبة التي تعلو وتهبط في الهواء، بدأت صرخاتي بالارتفاع، وكأن فرقة سيمفونية كاملة تعزف في الصالون. فرقعة السوط، ثم صرخات أمي الصادحة، وأخيرًا صرخاتي التي هدأت بعد أن بلغ الألم حدوده القصوى. استمرت تصدح حتى أنهكها التعب، ولم تعد قادرة على رفع يدها أكثر. وحين انتهت المعزوفة، كانت هي منهارة على الأريكة،

والسوط على الأرض، وأنا مكومة كيفما اتفق. كان الظلام مخيمًا حين استعدت الوعي. وكانت قد نظفت الصالون، وجلست على الأريكة القريبة مني تدخن سيجارتها باستمتاع، وهي ترمقني بطرف عينها بين فينة وأخرى. حاولت النهوض فلم أستطع، كانت قواي خائرة. فنهضت وأمسكت بي من شعري، جرتني حتى غرفتي، ورمت بي على السرير كخرقة بالية. كان وجهي مغطى بالدماء، وأحسست بفراغ في فمي. فيما بعد، أدركت أنني خسرت اثنتين من أسناني في هذه الحرب، ونصف شعري. ساقاي كانتا ثخينتين تغطيهما خطوط دامية قاتمة الزرقة، وكان جنبي الأيمن الذي سقطت عليه حين رمت بي متورمًا ومزرقًّا بالكامل.

تحدق إلى عيني مجددًا؛ إما إنَّها تنوي أن تطرح علي سؤالًا سأعجز عن الإجابة عنه، أو تحاول تخمين إن كنت أشفق عليها أم لا. من المحال الاستماع إلى ما تقوله دون تأثر، وخاصة بالنسبة إلى شخص مثلي. الآن بت أعرف لمَ يبدو شعرها القصير خفيفًا أشعث، وينتصب في الهواء وكأنه تعرض لصعقة كهربائية.

تلتقي نظراتنا لوهلة، لا تعابير في عينيها، جامدة وباردة كعادتها. لو أنَّ أحدًا آخر استذكر كل هذه الفظائع، لفاضت دموعه أنهارًا. ولكن من يدري؟ لعلنا نجلس يومًا ما ونبكي معًا.

لقد حولت العذابات الرهيبة قلبها الفتي إلى قطعة جليد، فحين يفوق الألم حدود التحمل، يغدو الإنسان قطعة حجر. الدماغ عضو مدهش، فهو يقرر إن كان على الإنسان في لحظة معينة، أن يواصل الإحساس بالألم أم لا. وما لم يمنح الموافقة، فلن يتم الإحساس بأي ألم. فلكل ألم عتبة معينة، إن تجاوزها ووصل حدًا لن يتحمله الإنسان، قام الدماغ بحظره. أتذكر أمًا شابة، فقدت طفلها الصغير لسبب واهٍ، فحضرت جنازته بثوب زهري اللون. وفيما الجميع يذرفون الدموع، كانت هي الوحيدة التي تتطلع حولها بنظرات خاوية، وقد استحالت عيناها إلى قطعتي جليد. أحيانًا قد يغدو حتى البكاء رفاهية لا تتاح للكثيرين.

أنتظرها، لكنها صامتة، لا تسأل ولا تتحدث، بل تواصل التحديق إلى عيني بالجمود ذاته. بعد برهة، تحني رأسها، وتعاود السرد مجددًا، واللافت في كلامها اليوم أنّه يتدفق بسهولة أكبر، دون أن تتخلله الكثير من الوقفات، كما أنَّها بدأت تحدثني عن نفسها أخيرًا.

- لا عدالة في هذا العالم، أعلم ذلك جيدًا. والألم كباقي الأشياء لم يوزع بعدالة على الجميع. لقد مات الله بالنسبة إلي بعد أن رفض الاستجابة لأدعيتي، رغم سماعه لها. الآن أنا أيضًا بتّ لا أهتم به، وسأسبب له الألم، كما فعل بي. وحتى لو أراد، فلن يكون قادرًا على تعذيبي بعد الآن؛ لأنَّني قادرة على تحدي كل عذابات هذا العالم. ولو جاءت كلها مجتمعة، فلن يرفّ لي جفن. ورغم ذلك أتعلمين لمَ أنا على قيد الحياة حتى الآن؟ لكي أنتقم منه، ومن كل البشر الذين خلقهم، ومن ذلك الوحش الذي على هيئة ملاك الموت. هذا ما دفعني إلى دراسة الحقوق. فكرت حينها كثيرًا هل عليّ دراسة الطب أم الحقوق. فأنتم قادرون على تعذيب المريض بقدر ما تشاؤون. لكن رغبتي في الاستمتاع برؤية المظالم التي تسود هذا العالم الذي تنتفي فيه العدالة، وزيادة هذا الظلم ما أمكن، هي ما دفعتني إلى دراسة الحقوق. كان من المفترض أن أموت منذ زمن طويل، لكن بقائي حتى الآن على قيد الحياة، يعني أنَّ هناك الكثير مما عليّ القيام به.

يا إلهي، ما كل هذه النقمة والغضب اللذين لا حدود لهما؟! حين أسمعها وهي تتكلم بكل ذلك الإصرار والحقد، أشعر وكأن طوفانًا من النقمة سيغرق العالم كله. ولكن هل يمكن إلقاء اللوم عليها، بعد الفظائع التي مرت بها؟ المشكلة أنَّها لا تدرك كم المعاناة الذي ستسببه لنفسها، إن لم تتمكن من السيطرة على كل هذا الغضب.

- وما الذين تنوين القيام به؟

- ليس بطولة أن تعذب طفلًا صغيرًا. إن كانوا قادرين، فليأتوا الآن، رغم أنَّي لست مستعدة بعد للحرب. وهناك الكثير مما يجب عليّ تعلمه؛

فليس كل الأشياء يحصل عليها الأطفال في بطون أمهاتهم. هناك ما يجب إتقانه في ساحة الحياة. لكني سأتمم نواقصي يومًا ما، وأغدو أفضل منهم. لدي الذكاء الكافي، وأنت من سيعلمني كل ما أحتاج إليه.

اختفى الجمود وسط شرارات الحقد التي تقدح في عينيها. هذه الفتاة تغدو أكثر خطورة، كلما ازدادت قوة. وهي تملي عليّ أوامرها، في أول فرصة تلوح لها، وترغب في أن أعلمها كيف تصبح قوية. في الحقيقة يمكن اعتبار القوة مغناطيسًا بالغ الجاذبية، يسحب نحوه كل من يميل إليه. كما أنَّ تعلق البشر بالقوة والسلطة، ظاهرة موغلة في القدم وملازمة تاريخهم. فكلما اجتمع البشر حول القوة، أحسوا بالأمان أكثر، وكأنها بديل أرضي للإله.

إنَّها تدّعي انقطاع صلتها بالله، وبالمقابل لا تستطيع التخلي عن انجذابها إلى القوة. علينا مناقشة هذه الأفكار مطولًا، لكنها الآن غير مستعدة بعد، وأنا كذلك.

- لقد بدأت بإلقاء الأوامر مجددًا.
- لا، لم أكن أعني ذلك. لا تلقي بالًا إلى كلماتي. فأنا لا أعرف كيفية التحدث إلى الآخرين كما يجب. وربما بمساعدتك، سأتعلم هذا الأمر أيضًا. أستطيع أن أعدك بأمر واحد، يخفف من ثقل عيوبي. فأنا طالبة مجتهدة، يكفيني ذكر الأمر مرة واحدة. لذا، لن أرهقك كثيرًا.

لن ترهقني كثيرًا؟ هذه الجملة ترن في ذهني منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها وحتى الآن. أهي قادرة على قراءة أفكاري أيضًا؟

- أستطيع أن أدرك رغبتك في صب جام غضبك على شخص ما، ولن ألومك في ذلك. فمن الواضح أنَّ ما مررت به، ليس تجربة مألوفة، أو ألمًا يمكن الاستخفاف به. ولكن لا تسخطي على الله، فليس هو من فعل بك ذلك. فحتى أفضل الناس يمكن لهم أن يعانوا أسوأ التجارب، ربما علينا أن نجرب الضعف، ونعاني الألم، كي نتعلم القوة. ربما بعد كل ما مررت به، ستصبحين في غاية القوة، وتبلغين قمة النجاح في حياتك.

- أنت لا تعلمين ما مررت به بعد. ما رويته لك ليس سوى نقطة من بحر، لكن الألم يساهم في ارتقاء الإنسان. هذا ما قرأته في الكثير من الكتب. وهو جزء من هذا العالم، شئنا ذلك أم أبينا، وسيبقى كذلك. ولا أحد منا قادر على تغيير هذه الحقيقة. لن أعتبر ما قلتِه توًا مجرد عبارات للمواساة. فمن الواضح أن الألم ليس شعورًا غريبًا عليك. كما أنَّك شخص عاطفي جدًا، لكنك ماهرة في إخفاء مشاعرك. لذا، أود أن أصارحك بأنّي ارتضيت أن أسلمك زمام نفسي. وكما ترين فقد حدثتك عن أمور، ما كنت لأتخيل أنَّي قادرة على البوح بها. ربما سأكمل بقية القصة يومًا ما، لكن أرجوك ألا تتركيني لمصيري. فأنا خائفة.

تنطق آخر كلماتها في صوت أقرب إلى الهمس. تكابد مشقة في الوثوق بي، ومن جهة أخرى تخشى أن أتخلى عنها. يا إلهي، كم هي وحيدة هذه التعسة!

- حين آتي ولا أجدك هنا، أقول بأنها قد تخلت عني هي الأخرى وذهبت. أعلم أنَّ لديك الكثير من المشاغل. لكني لا أستطيع منع الخوف الذي ينتابني، وعلي الاعتراف بأنّي ضايقت السيدة تونا مجددًا، وأظنها استاءت مني. لكنها وبعد إصراري الشديد، رضيت أن تعطيني الموعد الأول. إنَّها تمتلك قلبًا طيبًا. ورغم رقة قلبها وطيبتها، لكنها لم ترزق بالأطفال. أيّ عالم لعين هذا؟! فأسوأ النساء يصبحن أمهات، فيما يحرم الله امرأة مثلها من الأطفال. وحده الله يعلم ما تفكرين فيه الآن؟

- وما الذي أفكر فيه برأيك؟

- لا بدأنك تقولين، وما شأنك أنت أيتها التعسة. ألا يكفيك ما أنت فيه؟ فهل من شأنك التدخل في مشيئة الله، في المنع والعطاء؟ على أيّ حال، من الأفضل لي أن أغادر قبل أن أثير غضبك أنت أيضًا. سآتي في أقرب موعد ممكن سيدة غورلسِران.

هي أيضًا بدأت تناديني باسمي، وهذا يعني أنّها تحاول الوثوق بي.

بالكاد تلامس يدي مصافحة، وتسرع بمغادرة الغرفة. لو أمكن تغيير مظهر هذه الفتاة ونبرة صوتها، لو أنَّ أحدًا أخذ مكانها واستلم مهمة البوح عنها، لو تمكنت من سماع صوت روحها فقط، فستتغير الكثير من الأمور حينئذٍ. حتى إنِّي قد أتمكن من الحديث عنها في كتابي، لكن دون أن أتطرق لصوتها أو نظراتها، ولا إلى المشاعر التي تعتمل في صدري عندما أسمعها. ما يدهشني حقًا، أنَّ جزءًا من قلبي بات متعلقًا بها بصورة غريبة، خاصة حين أغمض عيني لوهلة، وأتخلص من نبرة صوتها، وأكتفي للاستماع إليها بقلبي فقط، في تلك اللحظات، أشعر أنَّ روحي قريبة جدًا من روحها.

بينما أغوص عميقًا مع أفكاري ومشاعري تجاه آلا، تطل تونا بوجهها اللطيف وابتسامتها الحانية من الباب.

- أتيت لألقي نظرة لأنَّك لم تتصلي، والمرضى في الانتظار. يبدو أنَّ الأفكار أخذتك بعيدًا، لكني أعلم فيما تفكرين يا عزيزتي.

أحتاج برهةً لأدرك ما تعنيه، لابد أنّها تظنني أفكر في آيدن، لكن آلا من كانت تشغل تفكيري. ألملم شتات نفسي، وألتفت نحو شاشة الحاسوب لأرى من المريض التالي. إنَّها امرأة، اسمها عائشة، وهي في السادسة والثلاثين من عمرها. ما إن تخرج تونا، حتى أسمع طرقة خفيفة على الباب، ثم تدخل امرأة ناعمة القوام، بنية الشعر، ترتدي بدلة أنيقة، وبعد أن تغلق الباب خلفها في تأنٍ، تتجه نحوي بخطوات وئيدة، وكأنها تخشى الاقتراب مني. أنهض لأحييها بابتسامة، فتصافحني في لباقة، وتختار الجلوس على أقرب أريكة من الباب. وبعد أن تضع حقيبتها على الطاولة الصغيرة، تتجه نحوي بنظرات حزينة. تغطي وجهها طبقة ناعمة جدًا من المكياج، وشعرها مسرح بعناية، ولكن ليس في صالون تجميل، وقد تقشرت أطراف طبقة المناكير الوردية على أناملها. خاتم الزواج الذهبي في إصبعها، بهت لونه، وإلى جواره خاتم بفصٍّ ألماسي، وقد فقد بريقه هو الآخر. أما الساعة التي ترتديها في معصمها الأيسر، فقد اختفت موضتها منذ زمن طويل. وبالتدقيق في خطوط وجهها، يتضح أنَّها ليست من النوع الذي يضحك بسهولة. قميصها الأبيض

مزرر بعناية حتى الفتحة ما قبل الأخيرة. وقد علقت على ياقة سترتها دبوسًا قديمًا، لكنه جميل. لو جاز لي التخمين، لقلت إنها من النوع الذي يؤثر الآخرين على نفسه. ووحده الله يعلم ثقل المسؤوليات على كاهلها.

يستمر هذه الصمت وسط نظراتنا المتبادلة لوهلة، فيما أتساءل عن سبب الحزن العميق في عينيها. لكن مهما يكن ما ستخبرني به، فلن يكون شيئًا مستحدثًا؛ لأنَّ الحزن لا يستقر في العيون بين ليلة وضحاها، إنَّه شيء عتيق، ويحتاج إلى سنوات ليبني عرشه.

- أهلًا بك، سيدة عائشة.
- شكرًا سيدة غولسِران. أنا أعرفك.
- حقًا؟ هل تعارفنا سابقًا؟ اعذريني، فأنا لا أذكر.
- لم نتعارف، ولكني قرأت كتبك. قبل قليل حين خرجت من الغرفة، كنت جالسة في القاعة. في الحقيقة، كنت أشعر بفضول كبير لرؤيتك، لكني لم أتخيلك بهذه الصورة مطلقًا. تخيلتك أكبر سنًا، وأطول قامة.
- لا أعلم ما سبب ذلك، ولكن هذه هي الصورة العامة لي في مخيلة معظم الناس.
- تبدين أكثر شبابًا بكثير مما تخيلت.
- شكرًا لك، فمرضاي لا يسمحون لي بأن أشيخ باكرًا، وأنا أحاول الحفاظ على حيويتي لأجلهم. كما أنَّ عمري الروحي هو خمسة وأربعون، ولم أتجاوز هذه السن منذ سنوات طويلة. فمع نهاية العشرينيات، انتقلت إلى هذا العمر، ولم أبارحه منذ ذلك الحين.

تستمر في تعليقاتها اللطيفة خلال الجلسة، فترتسم على وجهي ابتسامة واسعة. من اللطيف حقًا سماع هذه العبارات الجميلة من شخص آخر.

- أنا سعيدة جدًا بالتعرف إليك. لطالما رغبت في أن أحدث أحدًا عن نفسي، لكني لم أنجح في ذلك. وكنت أعتقد أنَّ الذهاب إلى الطبيب

النفسي، يستدعي وجود مشكلة حقيقية. وقبل المجيء، ترددت كثيرًا، وتخيلت حيرتي إن سألتني عن مشكلتي، فما الذي عليه قوله؟ لا أعتقد أنَّي أعاني من مشكلة أو مرض. كما أنَّ حياتي تسير على ما يرام، لكني أشعر برغبة عارمة في إطلاع أحد ما على كل تلك الأشياء التي تعتمل في داخلي. أعني أنَّ كلًا منا لديه أسرارٌ يحرص على كتمانها عمن حوله، حتى عن أقرب أصدقائه، وهذا ما أودّ البوح به.

- أنت محقة، فهناك أمور لسنا قادرين على مشاركتها حتى مع أقرب المقربين.
- لكني لا أريد أخذها معي إلى القبر، ربما لو صارحتك بها، لتخلصت منها، رغم أنَّ الإنسان لا ينسى ما مرّ به.

من الواضح أنَّها ستبدأ بالحديث دون أن تكبدني مشقة إقناعها، فهي قد أتت إلى هنا للبوح والاعتراف بما يعتمل في صدرها منذ سنوات. على الفور أقارنها بآلا، ليتها تقتنع هي الأخرى، وتتوقف عن إرهاقي.

- بالطبع، لا يمكن نسيان أحداث الماضي سيدة عائشة، ولكن التحدث عنها، ومشاركتها مع شخص مختص، قد يقلص من حجمها في ذاكرتك، ويخفف من أثرها، وفي بعض الأحيان، يغير تمامًا من المعنى الذي نضفيه عليها. أول ما لفت انتباهي حين دخولك، هو ذلك الحزن في نظراتك، لمَ تنظرين إلى الحياة بكل هذا الحزن؟
- إذًا، فقد لاحظت الأمر! رغم أنَّ أقرب الناس إليّ لم يخطر لهم أن يسألوني عن الأمر. وفي الحقيقة، حتى أنا لا ألاحظ هذه النظرة دومًا. ربما من الأفضل أن أبدأ بسرد كل شيء، وأتخلص من هذا العبء، فمنذ اليوم الذي طلبت فيه موعدًا معك، لم أستطع النوم كما يجب. كنت أفكر طوال الوقت، ماذا سأقول؟ كيف سأبدأ؟ وما الذي ستقوله الدكتورة؟
- حسنًا، من الأفضل أن تبدئي من حيث تشائين.

تحني رأسها برهةً، وكأنها تستجمع أفكارها، ثم تبحث عن شيء ما في حقيبتها التي على الطاولة. فأدرك على الفور أنّها تبحث عن مناديل البكاء، فهي تدرك أنّها ستبكي حتى قبل أن تبدأ البوح. على الفور، أعطيها منديلًا من العلبة الموضوعة أمامي على الطاولة. تطوي المنديل وتفتحه، ثم تكوره في قبضتها، في محاولة لتستجمع شجاعتها. وأخيرًا تبدأ البوح بصوت كسير:

- كنت في حوالي السادسة من العمر، ألعب مع أصدقائي في فناء المنزل الخلفي. كنا أربعة أطفال، بنتين وصبيين، وكلنا في عمر مماثل. نزلنا إلى القبو وواصلنا اللعب هناك، ثم اقترح أحد الصبية أن نخلع ملابسنا الداخلية ونتفرج على بعضنا. لم يكن في القبو أحد سوانا، فخلعنا كلنا ملابسنا معًا، وأخذنا نتفرج على أعضائنا. نظرت إليهم، وهم أيضًا فعلوا ذلك، ثم شعرنا بالخجل فجأة، فارتدينا ملابسنا على عجل، وصعدنا إلى الأعلى. حين عدت إلى المنزل، شعرت بالذنب، وفي المساء حين استلقيت في السرير، رويت كل ما حدث لأمي. أذكر أنَّ عينيها اتسعتا، وهي تستمع إلي في فضول. ثم أخذت تسألني، إن لمسني أحد أو اقترب مني، فأجبتها بالنفي، لكني لاحظت حينها الخوف في عينيها وهي ترمقني. كما أنّها غضبت، وأمرتني ألا أنزل إلى القبو مرة أخرى. سألتها عن سبب غضبها، فأخبرتني بأنّ ما قمت به أمر سيئ جدًا. قالت بأني ارتكبت ذنبًا فظيعًا، وأصبحت آثمة، كما أمرتني بحزم ألا أحدث أحدًا عن هذا الذنب، وألا أكرره مطلقًا.

بدأت الدموع تنهمر من عينيها مع جملتها الأخيرة. أتأملها وأنا أفكر في أنَّ ثلاثين سنة قد مرت، ولكنها لم تكن كافية لمسح هذه الكلمات التي حُفرت في ذاكرتها. تروي قصة مألوفة، في غاية البراءة، فمعظم الأطفال قد مروا بهذه التجربة بشكل أو بآخر، لكنها لا تعرف هذه الحقيقة البسيطة على ما يبدو. أمدّها بالمزيد من مناديل البكاء، فتمد يدها كل مرة في خجل واضح من بكائها وهي تأخذها من يدي. تنظر نحوي في ندم شديد، وكأنها ارتكبت توًّا أعظم ذنوب الأرض. آه من

الأمهات! أليست غايتي الأساسية من هذه الكتب هي أن تقرأها الأمهات قبل الجميع؟ أنا واثقة بأنَّ أمها لم تدرك قط، أنَّ تلك الكلمات التي تفوهت بها، قد أحالت حياة ابنتها إلى جحيم مزمن. ترى هل كانت تفعل ذلك، لو علمت أثرها العميق في حياة هذه المرأة الرقيقة؟ كل ما اتخذته من قرارات، في مهنتها، زواجها، علاقاتها الاجتماعية، علاقتها مع أبنائها وزوجها، وحتى مع الله، تغير مسارها جميعًا. أتساءل في رغبة حقيقية لمعرفة مصيرها، لو أنَّها لم تسمع تلك الكلمات من أمها. هل كان لها أن تعيش قدرًا مغايرًا يا ترى، لو لم تتفوه أمها بتلك الكلمات؟

تدهشني الحياة كل مرة أرى فيها كيف أنَّ مجرد حصى نصادفها في طريقنا، قد تغير مسارات دروبنا بطريقة درامية لا يمكن التراجع عنها. ففي حين أنَّنا قادرون أحيانًا على القفز فوق صخور هائلة، لكننا نتعثر بحصى صغيرة يضعها أحبتنا في طريقنا، لتتبدل وجهاتنا إلى حيث لا نعلم. من المؤكد أنَّ هذه المرأة المرهفة الإحساس، قد ذرفت من الدموع ما يكفي ليغدو جدولًا، ورغم ذلك لم تتمكن من غسل أثر تلك الندبة، التي لم تكن سوى رغبة طفولية بريئة، لا ذنب لها فيها، لكنها وصمت حياتها إلى الأبد.

أتصل بالكافيتريا وأطلب كأسين من الشاي، لنشربهما معًا، فكلانا بحاجة إلى دفء الشاي وحلاوته. وبينما نيفين تضع كأس الشاي أمام كل واحدة منا، تنظر إليّ السيدة عائشة بطرف عينها مبتسمة، فأبادلها الابتسامة. وحين تخرج نيفين، أبدأ التحدث بروية وهدوء.

- إنَّ القصة التي رويتها لي أكثر الأمور براءة واعتيادية في هذا الكون. إنَّها بريئة كبراءة الطفولة.

تعاود الدموع لتفيض من عينيها على وقع كلماتي، فتحني رأسها كي لا ألحظ.

- كنت أصغر من أن أدرك هذه الحقيقة حينها، وحتى الآن لا يبدو أنّي أدركتها بالشكل الكافي. بعد تلك الحادثة، انطويت على نفسي، قسوت عليها، وفقدت الحياة بهجتها السابقة بالنسبة إلي. بدأت أقضي معظم

وقتي منزوية بعيدًا عن الآخرين، لشعوري بالذنب. ومهما كان ما أفعله، فإحدى عيني كانت ترنو إلى أمي على الدوام، فهي الوحيدة التي تعلم فظاعة الذنب الذي ارتكبته. كانت مستاءة مني بشدة ولم تسامحني. وأخذت أبحث في كل كلمة توجهها إلي عن معنى خفي، وفي كل نظرة عن لوم مبطن، فيزداد شعوري بأني قذرة ومذنبة.

- ألم تحاولي التحدث إليها في هذا الأمر؟
- حاولت مرارًا، وكنت أفتعل الذرائع للاقتراب منها حين تكون وحيدة، كنت أقف قربها في صمت، لكنها لم تدرك غايتي. ثم بدأت أبكي لأوهى الأسباب، وأفتعل المشاكل كي أزعجها، فكانت تغضب، حتى إنَّها بدأت تضربني. كنت أغرق في المستنقع أكثر، فكلما كانت تضربني، كنت أزداد عنادًا، ومع زيادة عنادي كنت أتلقى معاملة أقسى من كل من في البيت، وخاصة في فترة المراهقة، فقد ساءت الأمور إلى درجة كارثية، حتى استجلبت عداوة الجميع، ونتيجة لذلك، أُرسلت إلى مدرسة داخلية في المرحلة الثانوية. وبعد دراسة الجامعة، باتت علاقتي مع عائلتي شبه مقطوعة.

هفوة صغيرة من الماضي، تتدحرج لتغدو جبلًا جليديًا هائلًا. لو أخبرت والدتها الآن بما فعلته، هل ستدرك خطأها يا ترى؟

- رغم أنَّي تجاوزت المراهقة، لكني لم أتجاوز شعور الذنب الذي لازمني. وكنت أشعر بأني مختلفة عن بقية أصدقائي، فأنا قد اقترفت ذنبًا كبيرًا لا يعلمون عنه شيئًا. كل واحدة من صديقاتي كان لديها صديق، أما أنا فلم أجرؤ على الاقتراب من أحد. كنّ يتحدثن عن مشاعرهن ومغامراتهن بكل جرأة، فيما أستمع من بعيد، مقتنعة أنَّ كل ذلك ليس من حقي. كنت ناجحة في دراستي، لكني أتحاشى المشاركة في أيّ نشاط، أتفوق في الامتحانات الكتابية، وأخفق في الشفوية. كنت مجرد فتاة

ضعيفة الشخصية، مهزوزة الثقة بنفسها. ثم تعرفت إلى زوجي، وقد بادر هو إلى الاهتمام بي، وفي كل مرة كنت أقابله فيها، كنت أتردد في إخباره بما أعانيه، ثم أعجز عن البوح. بعد ذلك، تزوجنا وصار لدينا ولدان.

- ولم تخبريه بالأمر حتى الآن؟
- لم أستطع. في الحقيقة، لا أستطيع البوح بهذا الأمر لأحد، فأنا دائمة الخشية من نبذهم لي ازدراءً.
- ولم تصارحي والدتك كذلك؟
- للأسف لم أفعل، كما أنَّها توفيت منذ عامين. في السابق، كنت حاقدة عليها بشدة لما فعلته بي، حتى إنَّي اتهمتها بتدمير حياتي، لكني لم أصارحها بمشاعري مطلقًا. الآن لم أعد واثقة كما في السابق إن كانت هي من دمرت حياتي، أم إنَّها مشيئة الأقدار أن أعيش في الظل. ففيما تقبع شهادتي الجامعية في درج منسي، حقق معظم زملائي نجاحات مهنية لافتة. حاولت خوض بعض التجارب في العمل، لكني أدركت أنَّي غير قادرة على الاستمرار، فآثرت البقاء في المنزل. قد تبدو حياتي من الخارج ناجحة سعيدة، فزوجي يكسب الكثير، لكن الحقيقة أنَّي أشعر بالتعاسة والوحدة، وأشعر على الدوام بأنَّي فاشلة. هناك شعور عميق بالذنب ينهش روحي باستمرار.

لقد حوّلت كل مشاعرها الغاضبة تجاه أمها، إلى نفسها. حتى إنَّ حنقها على والدتها الميتة، سبب كاف يدفعها إلى مزيد من الشعور بالذنب.

- أنا امرأة تعيسة، ولا أعلق أيّ آمال على الحياة، لكني أشفق على زوجي والولدين. فالله وحده يعلم كيف تنعكس تعاستي هذه على حياتهم. في فترة معينة، حاولت اللجوء إلى الدين، فكنت أصلي وأدعو الله كثيرًا، لكن الأمر لم يجد نفعًا. حتى الله لم يشفق علي ويستجب لدعائي.
- إذًا، فأنت مذنبة إلى هذا الحد؟

تجفل من السؤال وتنظر إلي في رعب، لأنَّ هذا ما تشعر به في أعماقها. أستدير نحوها بكرسي، وأقترب ما أمكن، وأبدأ معها حديثًا مطولًا، في هدوء وحنان. فهذا ما كانت بحاجة إليه طوال هذه السنوات. هي بحاجة إلى من يستطيع أن يشعر بما تعانيه، ويخبرها بأنَّها بريئة، لم تقترف أيّ ذنوب. فالصورة الآثمة التي كونتها عن نفسها بسبب فضول طفولي بريء، خيمت على عالمها كله، وغدت تلك القطرة الصغيرة بحرًا عميق القرار. وفيما أواصل الحديث تنتحب حتى تكاد تغص بدموعها، لكني أستمر في مصارحتها بكل ما فكرت فيه، وهي تسرد عليّ قصتها. أوضح لها كيف أنَّ كل ما حدث في طفولتها، كان من أكثر الأمور براءة وتكرارًا في حياة كل طفل تقريبًا. ثم تسألني عن الله، وما الذي قاله في أمرٍ كهذا؟ وهل يعتبر ما فعلته ذنبًا، وسيحاسبها عليه؟ أوضح لها أنَّ الله في أعماقنا، وأنَّه قد وهبنا العقل لندرك حقيقته التي هي المحبة والخير المطلق، كما أحاول أن أوضح لها أنَّ أكثر البشر قربًا من الله، هم الأكثر تسامحًا ورحمة مع أنفسهم كما مع الآخرين. فتطرح عليّ سؤالها الأخير:

- في رأيك أنا لست مذنبة؟

أضحك ضحكة رأفة وشفقة، ضحكة أم إزاء طفل لا يعرف بعد كيف يفرق بين الذنب والهفوة. في نهاية الجلسة ننهض معًا، وأخيرًا ألحظ أنَّ ستائر الحزن قد أزيحت عن نظراتها، فهي ترمقني في محبة وامتنان عميقين، فأبادلها الامتنان لأنَّها منحتني الإحساس بأنّي فعلت شيئًا جميلًا في نهاية يومي. تمدّ لي كلتا يديها مصافحة، فأصافحها أيضًا بكلتا يدي. ستعود مرة أخرى، وسنتحدث عن هذه الأمور مطولًا.

لدينا ندوة تدريبية اليوم مساء في المركز. سنتعشى معًا، ثم نبدأ بمناقشة موضوع الندوة "فرويد والتحليل النفسي"، لأننا سنتبادل جميعًا الأفكار خلال النقاش، لذا عليّ الإسراع.

الفصل السادس

الطقس متقلب هذه الفترة، وأمطار نيسان تنهمر صاخبة على أنقرة، فيما يطغى اللون الأخضر على مشهد المدينة، معلنًا حلول الربيع. تزدان حديقة بنايتنا الواسعة بمختلف الألوان، فلا أكتفي بمراقبتها من الشرفة، بل أقوم بجولتي الصباحية بين شجيراتها كلما سنحت لي الفرصة، مستمتعة بملامسة أزهارها، وتنشق عبيرها المنعش. حتى إنِّي في بعض الأحيان، أحمل خرطوم المياه المركون في إحدى زوايا الحديقة، وأقوم بسقايتها. ألوان الربيع، تمامًا كبياض الثلج، تذكرني ببهجة الحياة، بالحياة والموت معًا. فأينما وجدت الحياة، فسيوجد الموت حتمًا. كيف لنا ألا ندرك واحدة من أكثر حقائق الحياة بداهة، ونستنكرها؟ نرحب بالحياة ونرفض الموت. نريد أن نحيا إلى الأبد، ونرفض أن نموت. الموت يخيفنا ويسبب لنا الأسى والحزن، فأن نودع أحبتنا، ماضينا، والحياة ذاتها، أمر في غاية الصعوبة. وكأننا في عطلة مع أحبتنا، وفي أجمل لحظات عطلتنا، يردنا اتصال من العمل، ليبلغنا بضرورة العودة. كأن الجميع سيبقى للاستمتاع بالعطلة، ونحن وحدنا من سيغادر هذه الجنة المؤقتة. هناك شعور خفي بالظلم والغبن في نظرتنا إلى الموت. فنحن نعتقد أنَّ الكل سيواصل العيش، لكننا أو أحد أحبتنا سيخسر الحياة ويغادرها.

قررنا الاحتفال بالذكرى السنوية لتأسيس مركز ماداليون المصادف في الثاني عشر من نيسان، في فندق الشيراتون. وتمت دعوة شخصيات من الداخل ومن خارج البلاد أيضًا، إلى جانب كل العاملين في المركز. وقد تقرر أن يلقي بروفيسور أمريكي شهير كلمة بهذه المناسبة، ثم ننتقل إلى العشاء. انخرط الجميع في الإعداد للحفل لعدة أيام، وبصفتي مديرة المركز، تعيّن عليّ المشاركة في الحفل أيضًا. كان

آيدِن يعلم ذلك، ويبدو أكثر حماسًا مني في متابعة التفاصيل، وفي الوقت ذاته يغتم بشدة، لأنَّي سأتركه وحده بضع ساعات في تلك الليلة. رغم أنَّنا لم نكن سنتركه وحده بأي حال، فأمي وشقيقتي يوكسلان جاءتا لزيارتنا قبل يوم من الحفل، وقررتا لسبب أجهله قضاء الليلة معنا، فليس من عادتهما المبيت عندنا. عصر ذلك اليوم ذهبت إلى المركز، وقابلت بعض المرضى، مستمدة الجرأة من وجودهما مع آيدِن، لكني كنت أتصل كل نصف ساعة، لأطمئن على صحته. كنت متوجسة من حدوث أمر سيّئ، رغم أنَّ هذا الشعور بات يلازمني طوال تلك الفترة، كلما ابتعدت عن آيدِن قليلًا.

كان قد مضى شهران على وفاة إيمره، كما أنَّ ياغمور كانت قد غادرت المشفى، بعد أن استردّت عافيتها، وصحة الجنين كانت جيدة أيضًا. كنا في تلك الفترة نسينا الضحك تقريبًا، لكني في ذلك اليوم، وكلما اتصلت بالمنزل، أسمع صوت قهقهات صاخبة. كان آيدِن يكنّ محبة كبيرة لأمي وشقيقتي، ويعتبرهما كوالدته وأخته، ويستمتع كثيرًا بممازحة يوكسلان في كل أمر، وكانت يلدز- شقيقة آيدِن الكبرى- وياغمور أيضًا هناك. وحين عدنا أنا وحسن مساء إلى البيت، استمر هذا الجو من المرح. كان آيدِن أكثر من يتحدث ويلقي النكات، ولا يرغب لأحدٍ منا أن يتركه ويذهب، وحين علم أنَّه سيقضي يومه التالي مع الصحبة ذاتها، شعر بارتياح واضح. استعادة هذه الأجواء المبهجة التي افتقدناها وقتًا طويلًا، جعلتنا جميعًا نشعر براحة عميقة. قبلت آيدِن على وجنتيه، ثم قمت بتبديل ثيابي على عجل، واخترت ارتداء بنطال قطني مريح، وبلوزة بيضاء. حين عدت إلى الصالون، أخذ زوجي يرمقني مطولًا وكأنه يراني المرة الأولى، قبل أن يعلق قائلًا:

- لقد أخبرتك على الدوام أنَّ عليك ارتداء اللون الأزرق فهو يناسبك كثيرًا، انظري إلى هذه البلوزة الزرقاء كم هي جميلة عليك.

ترددت لوهلة قبل أن أحني رأسي للتأكد من لون بلوزتي. إنَّها ناصعة البياض! انتابني شعور مبهم، لكني استبعدته على الفور، معتبرة ذلك مجرد التباس بصري

بسيط، واخترت الجلوس على أقرب أريكة منه، لأشاركهم الصحبة.

بدا آيدِن مبتهجًا كما لم يكن منذ زمن طويل، يتحدث باستفاضة وجذل. وحين جلسنا إلى مائدة العشاء، واصل التحدث وإضحاكنا جميعًا بنكاته. استمرت جلستنا حتى منتصف الليل، وحان وقت النوم، ونهض كل منا إلى غرفته. تلك الليلة كانت المرة الأولى التي عانى فيها آيدِن من صعوبة في النهوض والوقوف على قدميه، وقد وثبت يوكسلان قبلي، وأسندته إلى كتفها، حاول آيدِن الاعتراض، لكنها رافقته إلى الغرفة وهي تقول:

- لقد رافقتني حتى غرفة الولادة، فهل تستكثر عليّ أن أمسك بذراعك مرة واحدة يا دكتور؟

لم يرغب في أن نتركه حين استلقى على السرير، وطلب إلينا أن نحضر كراسي ونجلس إلى جواره، ونواصل المسامرة. فلبينا طلبه، وجلسنا نحن الثلاثة إلى جوار السرير، وواصلنا صحبتنا. بين الفينة والأخرى كان حسن يأتي لينضم إلينا، ويستمع إلى أحاديثنا، ثم يعود إلى غرفته، وقد بدا منشرحًا وهو يرى والده بهذه السعادة.

كانت ياغمور ويلدز قد غادرتا إلى منزليها، بعد العشاء بقليل. قضينا ليلة رائعة، ولكن التعب تمكن منا أخيرًا. وحين استلقينا للنوم، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بكثير. لم يغمض لي جفن، فقد كنت أتقلب وأنهض بين الفينة والأخرى لأطمئن على آيدِن، كان نائمًا يتنفس بهدوء ويبدو بخير. لا أدري متى غفوت، ولكني وثبت مرتاعة على صوته، وهو يناديني:

- غولسِران.

حتى حسن سمع صرخة والده من غرفته التي في نهاية الممر، وجاء مهرولًا. وثبت من سريري، وجلست إلى جوار سريره وأمسكت بيده، دون أن أدرك ما الذي جرى له.

- كم الساعة؟ سألني في خفوت.

- الرابعة والنصف. فتح عينيه، ونظر إلى وجهي مبتسمًا، ثم غادر.

كان من المقرر أن نحتفل بذكرى تأسيس ماداليون السنوية، وكنت سأترك آيدِن تلك الليلة بضع ساعات، لكن الحياة تتلاعب بنا وتفاجئنا على الدوام. فلم أكن أنا من غادر بل آيدِن، وليس لبضع ساعات، إنما في رحلة أبدية لا عودة منها.

إن حصلت على مصباح علاء الدين السحري يومًا ما، وخرج لي المارد وسألني عن أمنيتي الثالثة، فسأطلب إليه أن يمحو من ذاكرتي ما عانيته في الساعة الرابعة والنصف من فجر ذلك اليوم. إن كان غير قادر على إعادة آيدِن إلى الحياة مرة أخرى، فليمحُ من ذاكرتي ما عانيته في تلك اللحظات.

عدت إلى العمل في أقرب فرصة أتيحت لي، وإلى الاهتمام بمرضاي بعد فترة طويلة من الإهمال. لم يكن سبب إسراعي بالعودة للعمل، يعود فقط إلى حبي الكبير لعملي، ولكني كنت أحتمي به في تلك اللحظات العصيبة، وأشعر بأنّي أفضل حالًا في المركز من أيّ مكان آخر.

فحين أجلس قبالة مرضاي، يخف الوجع في أعماقي، وأخرج من عالمي، لأغوص في عوالمهم، وربما أنا مدينة لعملي بتجاوز تلك الأيام الرهيبة، في هدوء أكبر من توقعاتي ومخاوفي.

على وقع هذه الأفكار، أصل إلى بوابة مركز ماداليون، القاعة الرئيسة تحتشد بالمرضى الجالسين في هدوء على مقاعدهم. وأمام ركن الاستقبال حشد من المرضى. أنظر إلى صورتي في المرآة التي تغطي الجدار الأيمن من القاعة كله، فأشعر بالرضا من مظهري الأنيق. أعيد بهدوء المزهرية الكبيرة بأوراقها الخضراء إلى مكانها الذي أزيحت عنه قليلًا، وأفعل الأمر ذاته مع الشمعدانات الموضوعة قبالة المرآة. تلفت انتباهي أريكة جوزفين المخملية الخضراء وسط القاعة، والتي تبدو مائلة هي الأخرى عن مكانها، فأرغب في تعديلها، لكني أتحرج من القيام بذلك.

ينهض موظفو الاستقبال لتحيتي، فأبادلهم التحية بابتسامة، وأتجه نحو المصعد. وكما في كل مرة، يرافقني سائقي آيدِن حتى المصعد، ليفتح الباب بنفسه

لي. وبعد حديث ودي قصير معه، أصعد نحو الطابق الرابع. ألاحظ أنَّ هوسي بالنظام يزداد بمرور الوقت، فعيناي لا تكلان عن المراقبة. تستقبلني تونا بابتسامتها الدافئة، لكن عينيّ تجولان على المرايا، واللوحات، والتماثيل، والمزهريات للتحقق إن كانت في مواضعها الصحيحة. أدخل غرفتي، وأسوي أهداب سجادتي الأفغانية بقدمي، قبل أن أجلس وراء طاولتي.

أهم برفع السماعة لطلب القهوة، فيدخل حسن إلى الغرفة، نحتضن بعضنا في شوق كبير، يمعن النظر في وجهي كعادته، وهو يسألني:

- أنت بخير؟

- بخير.

لم يعد يقيم في المنزل، فبعد مضي عام على وفاة والده، وبتشجيع مني، بات يسكن وحده. ورغم أنَّنا نظل معًا في المركز حتى المساء، لكن ضغط العمل لا يتيح لنا سوى لقاءات قصيرة في الصباح قبل استقبال المرضى، كحالنا الآن، أو قبل انتهاء العمل مساءً.

يرتدي بنطالًا كحليًا، وقميصًا أزرق اللون. وبغض النظر عن برودة الطقس، فهو لا يرتدي سوى قميص رقيق على الدوام. لابدّ أنَّ هذا ما نسميه عنفوان الشباب. أسأله:

- أتشرب القهوة معي؟ يومئ برأسه موافقًا، وهو يفتح النافذة، فتملأ رائحة الربيع المنعشة الغرفة. أتصل بالكافيتريا لطلب القهوة، وقبل أن يجلس يبادرني بالسؤال:

- كم لدينا من الوقت؟

أنظر إلى ساعتي، موعد مريضي الأول بعد خمس وأربعين دقيقة من الآن، من الواضح أنَّ لائحة المواضيع التي يرغب في مناقشتها معي طويلة كعادتها. فاعتبارًا من الأسبوع القادم، سيبدأ البروفيسور الدكتور فاتح أونال بالعمل معنا في المركز، يطلعني على مستجدات تحضير الغرفة التي ستخصص له، والتي تتطلب تأثيثًا

خاصًا، لأنَّه مختص بمشاكل الأطفال النفسية، لذا يجب أن تجهز غرفته ببعض الألعاب، إضافة إلى طاولات صغيرة للاختبارات. حسن يميل إلى الوقوف على التفاصيل كافة، ويكره ترك الأمور تسير عشوائيًا. فأقترح عليه أن يقتبس الأفكار من غرفة الدكتورة البروفيسور عائشة يالن. كما يطلعني على تجهيزات قاعة الألعاب التي تم تخصيصها للأطفال في المركز. فقد وصلت السجادات، لكن الألعاب لم تصل بعد.

ثم يضع أمامي طلبات التوظيف التي تقدم بها الاختصاصيون النفسيون، إثر إعلان المركز عن حاجته إليهم للعمل. ويخبرني أنَّ علينا مقابلتهم اليوم مساء بعد انتهاء العمل، لاختيار أربعة من بينهم. هناك واحد وعشرون طلبًا أمامي. ألقي عليها نظرة سريعة، معظم الطلبات من النساء، أما عدد الرجال فقليل جدًا، وهو الحال أيضًا في المركز، فمعظم الاختصاصيّين النفسيين هم من النساء.

ننتقل إلى الملف الآخر، وهو الشكاوى التي تصلنا من المرضى. بعضها ليس سوى عبارات مديح وشكر، وبعضها الآخر شكاوى تدور في معظمها حول قصر المدة الزمنية التي نقضيها معهم، رغم أنَّ تخصيص الطبيب النفسي الوقت الكافي لمريضه، من أهم عوامل العلاج الناجح. فمهمتنا الأساسية هي الاستماع إلى كل ما يقوله المريض الجالس أمامنا، دون إغفال حتى أدق التفاصيل، لنتمكن من رسم صورة واضحة عن حالته. إنَّهم محقون.

- ألا يمكننا تمديد مدة الجلسات أكثر؟
- محال، فنحن غير قادرين في معظم الأحيان على إعطاء المريض الذي أنهى جلسته، الموعد الذي يرغب فيه. فأقرب موعد يكون عادة بعد شهر.

تشترط علينا الوزارة منح المريض موعدًا ثانيًا خلال مدة لا تتجاوز عشرة أيام، لكنها في الوقت ذاته تمنعنا من تشغيل أطباء جدد.

أستمر في قراءة الشكاوى، البعض غير راض عن الطبيب، والبعض حانق على السكرتيرة التي ألغت جلسته لتأخره قليلًا. حتى إنَّ أحدهم قد كتب مشتكيًا: "أنا

أغير ثلاث حافلات للوصول إليكم، لكني لست مسؤولًا عن فوضى المرور. إن كنتم لا تقدرون ذلك، على الأقل فأعيدوا إلي أجرة المواصلات التي دفعتها عبثًا".

وكتب آخر: "بالكاد أستطيع أخذ إجازة من العمل، ولكني بسبب عدة دقائق من التأخير، منعت من مقابلة الطبيب، والموعد التالي الذي حصلت عليه بعد شهر، وقد انتهت أدويتي. ما الحل الآن؟ حاولوا أن تفكروا فينا قليلًا".

وبينما أواصل قراءة الرسائل بصوت عال، يستمع حسن كعادته مبتسمًا.

- أتسمع يا سيادة المدير العام؟ لا يبدو أنَّ الناس ممتنون من إدارتك على الإطلاق. أقولها ضاحكة، وفي تلك الأثناء تدخل نيفين حاملة صينية القهوة، ترتدي مئزر العمل الأحمر، وتتحرك في الأرجاء بخفة غير متوقعة من جسدها المكتنز. أستنشق رائحة القهوة المنعشة عميقًا، ونتبادل نظرات متسائلة، حول كيفية التغلب على سلسلة التحديات التي تكاد لا تنتهي. يبدأ حسن الحديث بصوته الهادئ، وأسلوبه المتأني:

- إن الموافقة على استقبال مريض تأخر عن موعده عشرين دقيقة، يعني انتظار كل المرضى الباقين عشرين دقيقة. ثم يضيف: كما تعلمين، فنحن نتصل بكل مرضى اليوم التالي، للتحقق من حضورهم في الموعد المحدّد، ونؤكد القدوم في الوقت المحدد، رغم ذلك نواجه المشكلة ذاتها مرارًا. ففي حين ينتظر بعض المرضى أيامًا وأسابيع من أجل الحصول على موعد، فإن نسبة خمسة عشر إلى عشرين من مرضانا، رغم تأكيد الموعد هاتفيًا، يتأخرون أو لا يأتون مطلقًا. إن قام المرضى بإبلاغنا مسبقًا، عدم قدرتهم على حضور الموعد، فستنتهي المشكلة، ولن يضطر المريض التالي والطبيب أيضًا، للانتظار عبثًا؛ مما سيمنحنا وقتًا إضافيًا، لكن هذا لا يحدث بكل أسف. وكإجراء جديد، نقوم بإرسال رسالة نصية إلى هواتفهم المحمولة، تتضمن تاريخ وتوقيت الموعد، لكن لا يبدو أنَّ هناك حلولًا ناجعة لهذه المشكلة.

لا ألومه بالطبع، فهو يقوم بكل ما يجب القيام به، لكن المشكلة لا تزال قائمة؛ لأنَّ الأمر يتعلق في جزء منه بعادات متجذرة في مجتمعنا. وكلنا نعاني من هذه النقيصة، ولا أستثني نفسي من الأمر، فأنا من أكثر الأطباء الذين يتركون مرضاهم في قاعة الانتظار. هذا لا يعني أنَّي أتأخر على عملي، لكني لا أعرف كيف أنهي موعدي مع المريض دون أن أتحقق من فعل كل ما يتعيّن عليّ فعله. لذا غالبًا ما تتداخل المواعيد؛ حتى إنَّ بعض مرضاي ممن باتت لديهم الخبرة الكافية مع هذه المشكلة، يحاولون أخذ أولى المواعيد في الصباح، أو إنهم يتصلون بتونا للتحقق من أنَّ مواعيدهم ستكون في الوقت المحدد.

ثم نناقش موضوع أدوية المرضى، فأطلب إليه الحرص على أن يحصل المرضى- ممن هم بحاجة إلى الدواء- على وصفة طبية، حتى وإن تأخروا عن الموعد. فيوضح لي الإجراء المتبع بالنبرة الهادئة نفسها:

- نحن نقوم بحل هذه المشكلة، عن طريق نظام المناوبة الطبية، وإن كان المريض بحاجة إلى دواء، فهو يحصل عليه حتى إن أتى دون موعد مسبق، رغم أنَّ هذا الإجراء يكون على حساب وقت الأطباء وبقية المرضى. وكما ترين ففي بعض الأحيان نتأخر نحن عن مرضانا، وفي بعض الأحيان يتأخرون هم عن مواعيدهم.

لا يبدو أن سلسلة المشاكل ستنتهي، لكن وقتنا انتهى. تطل تونا برأسها، وهي تخاطب حسن:

- حسنًا يا عزيزي، لقد وصل أول مرضانا، وعلينا إدخاله دون تأخير.
- حظًا موفقًا في العمل. ويومئ برأسه مودعًا قبل أن يغادر.

أتفحص جدول المواعيد على شاشة الحاسوب بسرعة، موعدي الأول مع آلا. وبينما تحمل تونا صينية الفناجين وتخرج، لتدخل آلا بخطاها المتثاقلة. يرتسم على وجهها الخالي من التعابير عادة، حزن غير مألوف. لا تغير ملحوظ في مظهرها، وطريقة لبسها، لكن هناك بوادر تغيير ما تلوح على وجهها. ربما التغيير

أصابني أنا، بعد أن بدأ نفوري منها بالتلاشي، وتخليت عن النظر إليها كجثة.

- كيف حالك آلا؟
- بخير، سيدة غولسِران. وأنت كيف حالك، بخير؟

حسنًا، يبدو أنَّي محقة، فالثلوج التي بيننا تذوب رويدًا رويدا.

- أنا بخير. أخبريني ماذا لديك اليوم؟
- في الحقيقة، شهيتي جيدة هذه الفترة، مقارنة مع السابق. ويبدو أنَّ وزني قد زاد قليلًا.
- يبدو مظهرك أجمل، استمري في الاهتمام بطعامك.
- هل سترويين لي حكاية اليوم؟
- بالطبع سأفعل، وأنا متأكدة أنَّ حكاية اليوم ستروق لك كثيرًا.
- آه. يا ليت. فأنا أعاني من الأرق منذ ما يقارب الأسبوع. تنتابني كوابيس فظيعة حول تلك المشاهد التي رويتها لك. لا أستطيع أن أمحوها من ذاكرتي.

إنَّها تعاني أكثر مما كنت أتخيل بكثير، لو ترك لي الخيار، لعملت على تخفيف معاناتها بأسرع ما يمكن، لكن لا خيار أمامي سوى مجاراة رغبتها في السير بخطوات وئيدة.

- أتحبين الحيوانات؟
- أجل، خاصة القطط. حين كنت صغيرة، كان هناك العديد منها في حديقة منزلنا؛ حتى إنَّ إحداها أنجبت ثلاث قطط صغار.
- إذًا، دعيني أروي لك قصة عن القطط اليوم.
- حسنًا.
- لقد عانى الإنسان سنوات طويلة من الحشرات، والأمراض التي تنتقل إليه عن طريقها. حتى اكتشف مبيد الـ (دي دي تي) الذي كان مفعوله كتأثير قنبلة نووية على عالم الحشرات. وكما أنَّ الطاقة النووية سيف ذو حدين،

فقد كان هذا الاكتشاف مماثلًا في أضراره على الحشرات والبشر معًا. في عام ألف وتسعمائة وستين، حين استخدمت منظمة الصحة العالمية هذا المبيد في ستٍّ وسبعين دولة للقضاء على الملاريا، كانت النتيجة تدمير التوازن البيئي في الكثير من مناطق العالم الثالث، التي تم رشّ مستنقعاتها بشكل عشوائي، بهذه المادة الفتاكة. ففي ولاية ساراواك في ماليزيا، لم يقض مبيد الـ (دي دي تي) على البعوض فقط، بل على الصراصير أيضًا، ثم نفقت القطط التي كانت تتغذى على هذه الحشرات المسمومة؛ مما أدى إلى زيادة هائلة في أعداد الفئران التي غزت حقول تلك المنطقة بالكامل وأتلفت المحاصيل، كما أنها نقلت الكثير من الأمراض القاتلة للقرويين ومنها التيفوس والطاعون. حينها أدركت منظمة الصحة العالمية، الكارثة البيئية التي تسببت بها، فقامت وبمساعدة من الأسطول الجوي للعائلة الملكية، بتخصيص عشرات الطائرات والمروحيات، لإنزال المظلات الجوية المحملة بمئات القطط على القرى المصابة، وذلك بهدف إعادة التوازن البيئي للمناطق المنكوبة، وتدارك الكارثة قبل تفاقمها.

- إذًا، حتى القطط تلعب دورًا مهمًا في بعض الأحيان؟
- لن نخصص كامل جلستنا للقطط اليوم. ما رأيك أن تحدثيني عن أحلامك؟
- ليست أسوأ مما عشته في الحقيقة.
- أستطيع تحسين نومك.
- هل ستصفين لي دواء؟
- إن شئت ذلك.
- ربما لاحقًا.
- حسنًا، دعينا نتحدث إذًا عن سبب اختيارك ملابس لا تناسب مقاسك أو عمرك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لا يقل وقع كلماتي عليها، عن أثر الـ (دي دي تي) على الحشرات، فتجحظ عيناها رعبًا، وهي تنظر إليّ. الشك واليقين، كالليل والنهار، لا يمكن أن يواجد أحدهما دون وجود الآخر. يدفعها اليقين إلى الوثوق بي، لكن لسعات الشك تحاول جرها بعيدًا. ولا يغيب عن ناظري تضخم العرق الذي في صدغها الأيمن كأفعى زرقاء ملتوية، وهي ترمقني بحدة، وكأنّها تنوي الوثوب والانقضاض علي. تتنحنح عدة مرات، في محاولة للرد عليّ، ولكن من الواضح أنَّها عاجزة عن الكلام، فيخيم صمت ثقيل على الغرفة. تزداد دمامة وجهها الذي تتقلص ملامحه تحت وطأة الألم. أفضل الاحتفاظ بالصمت، لأنَّي لا أدري كيف يمكنني مواساتها. وأخيرًا، تبادر قطرات المطر التي ترتطم بزجاج النافذة في صخب، بكسر هذا الصمت العميق والقاسي.

كل شخص منا كتاب قابل للقراءة، لكن هذه الفتاة كتاب دفتاه مطبقتان، مخبّأ تحت طبقات من الخرق والأغطية، ومربوط بإحكام يعجزني عن فتحه وقراءة صفحاته. لا يمكننا الوصول إلى نتيجة، إن بقيت تتهرب من المواجهة، وبقيت ألاحق الاحتمالات في عتمة ماضيها، لكن دوام الحال من المحال، والنفس البشرية تفاجئنا دومًا بقدراتها المذهلة على النهوض من الرماد، وهذا ما أرجوه لها من قلبي، وما أنسج خيوطه بتروٍّ في ذهنها؛ النهوض والمواجهة.

أبحث عن حكاية تخفف وطأة هذا الصمت الذي يرهق روحها، ولكن أيّ نوع من الحكايات يجب أن تكون هذه المرة؟ خفيفة مسلية؟ أم شائقة تستحوذ على انتباهها، وتجد فيها انعكاسًا لبعض ما مرّت به؟ يبدو لي الاحتمال الثاني أفضل، لذا علي تقمص شخصية المحقق السري مرة أخرى، فإن تركت الأمر لها، فلن تخبرني بشيء على الإطلاق. وطالما أنّها أخبرتني أنَّها أصيبت بلعنة جائرة، سأروي لها حكاية عن إحدى اللعنات التي عايشها عالمنا منذ وقت ليس بالبعيد، فربما تتمكن من التعرف إلى لعنتها بالذات.

- ما رأيك في حكاية أكثر تشويقًا هذه المرة؟ سأروي لك قصة لعنة الملك توت عنخ أمون.

- هم هم.

هذه الهمهمة التي ترد بها محنية الرأس، تكشف مدى الحزن العميق في روحها، وكم أنَّها تحيا حياة قاحلة وقاسية، فيغمرني الأسى مجددًا. لكنّ عزائي يكمن في رؤيتها تتكور على نفسها كقطة صغيرة، فيما يلوح الاهتمام والفضول في عينيها الباهتتين، وهي تستعد للاستماع إلي. فأبدأ السرد.

- كان الباحث الأثري هوارد كارتر قد أمضى مع فريقه، وبتمويل مادي من جامع تحفيات ثري، سبع سنين من البحث والتنقيب في وادي الملوك بمصر، دون العثور على شيء يذكر. كان عام ألف وتسعمائة واثنين وعشرين، فرصته الأخيرة للعثور على كشف يهز العالم، وإلا فسيقوم الراعي الثري بقطع التمويل عنه. وفيما كانت الحفريات تستمر بوتيرة عالية في سباق مع الزمن، عثر العمال على سلم منحوت في الصخر، يؤدي إلى الأسفل، وعند نهايته وجدوا أنفسهم أمام مدخل مكسو بالملاط، ومختوم بختم ملكي كبير الحجم، عليه نقش لتسعة أسرى راكعين أمام تمثال ابن آوى؛ مما يشير إلى أنَّ صاحب القبر شخصية هامة، وليس من المستبعد أن يكون ملكًا.

تستمتع إلي في اهتمام واضح، وقد اختفت كل أمارات الغضب من وجهها، بل تشوب عينيها نظرة ارتياح لأنَّي غيرت الموضوع، ولم أحاول الضغط عليها بحديث يثير استياءها. من حسن الحظ أن يكون للقصص هذا الأثر الإيجابي فيها، فهي تلهيها عن الصراعات التي تعتمل داخلها، وتجعل تقبلها الأفكار أسهل. لذا أواصل السرد في سلاسة وهدوء.

- حين رأى كارتر هذا المشهد الذي ظل يحلم به منذ سنوات، كاد يطير فرحًا، وأدرك أنَّه أمام كشف أثري بالغ الأهمية. وعلى الفور، أرسل تلغرافًا إلى اللورد الذي يموله في إنكلترا، والذي أصبح فيما بعد واحدًا من أشهر التلغرافات في العالم، وقد كتب فيه ما يلي: "وأخيرًا اكتشفت

شيئًا رائعًا في وادي الملوك. وقد أسدلت الغطاء على الأبواب والسرداب، حتى تصل أنت بنفسك وترى، أهنئك".

- ثم ماذا حدث؟
- كانت مقبرة الملك الفتي توت عنخ آمون، والتي لم يتم العثور عليها بين مقابر بقية الملوك والفراعنة، أحد أكثر المواقع الأثرية التي يبحث عنها علماء الآثار منذ عام ألف وتسعمائة وعشرين. وكان كارتر نفسه يحلم بالعثور على هذه المقبرة منذ سنوات، ويجمع الأدلة وينقب فيها بدقة. وما إن استلم اللود كارنارفون التلغراف، حتى سافر مع ابنته إيفلين إلى مصر على الفور. ودون إضاعة المزيد من الوقت، توجه الجميع إلى مكان الحفر. وبعد تنظيف الختم الموضوع على الباب، ظهر الاسم الذي كان الجميع يتمناه (توت عنخ آمون). كانت لحظات لا توصف من الإثارة والانفعال. فقاموا بكسر الختم، وأخذوا بالنزول جميعًا ليجدوا أنفسهم في دهليز تراكمت فيه الأنقاض، وفي نهاية هذا الدهليز الذي يبلغ طوله حوالي عشرة أمتار، وجدوا مدخلًا آخر محكم الإغلاق بختم ملكي، عليه النقوش السابقة ذاتها. فقام كارتر بإحداث فتحة صغيرة في الباب، وإدخال قضيب معدني من الفتحة، خشية وجود غاز سام في الداخل لحماية الضريح من اللصوص، ثم عمل على توسيع الفتحة أكثر، وأدخل شمعة ليرى ما بداخل الغرفة. في البداية وبسبب الهواء الساخن المندفع من الداخل، تراقص لهيب الشمعة فلم يتمكن من الرؤية جيدًا، لكن ما إن اعتادت عيناه الرؤية، حتى بهره بريق الذهب الذي يتلألأ في كل أرجاء الغرفة، كان الجميع يتحرقون شوقًا لمعرفة ما بالداخل، ويسألونه عما يراه، فأجابهم بهذه الكلمات: "إنَّي أرى أشياء رائعة".
- لحظات شائقة حقًا!

تهتف كطفل يستمع إلى قصة شائقة، وكأن كل ذلك الغضب والمخاوف التي كانت تعصف بها قبل قليل قد تلاشت. ردود أفعالها عفوية كردود أفعال الأطفال تمامًا، ومن الجيد أنَّها ابتعدت ولو لوهلة قصيرة عن مشاعرها السلبية.

- وأخيرًا تم كسر الختم، ودخلوا جميعًا إلى الغرفة، وكان بانتظارهم منظر يحبس الأنفاس. فتلك الغرفة الصغيرة كانت مليئة حتى التخمة بآلاف القطع من تماثيل ذهبية، أقمشة وملابس الفرعون المزينة بالذهب، عربات حربية بعجلتين، قطع أثاث وألعاب، أطباق ذهبية وفخارية، ثلاثة أسرّة، أدوات زينة وعلب مرصعة ومليئة بالحلي، والكثير مما قد يحتاج إليه الفرعون الشاب في العالم الآخر. إضافة إلى تمثالين بالحجم الطبيعي مغطيين بصفائح من الذهب، يحرسان بابًا آخر عليه ختم ملكي. فقام كارتر ومن معه بكسر ذلك الباب أيضًا، والدخول إلى غرفة الضريح التي تضم رفات الملك الفتي. بعد كسر هذا الباب الممهور بأربعة أختام مليكة، وجدوا أنفسهم في غرفة تحوي أربعة توابيت الواحد داخل الآخر، وفي آخر التوابيت الأربعة، عثروا أخيرًا على مومياء توت عنخ آمون. كما أنَّ هذه الغرفة كانت تؤدي إلى غرفة أخرى، والتي ضمت أكثر الأشياء قيمة. كانت لحظات لا يمكن وصفها بالنسبة إلى أولئك الذين عاشوها، ليس لأنَّهم عثروا على الكنز الذي يبحث عنه العالم أجمع منذ سنوات طويلة فقط، بل لأنَّهم كانوا يطؤون مكانًا سريًا لم تطأه قدم إنسان منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام. لقد كانت إحدى اللحظات النادرة في التاريخ التي يتلاقى فيها الماضي بالحاضر، كأنهما كونان متوازيان يلتقيان لوهلة عابرة.

أشعر بزخم الانفعال ينتقل إليها، وكأنها تقف إلى جوار أبطال القصة داخل قبر الفرعون الفتي.

- قام كارتر بوصف تلك اللحظات الهامة في مذكراته بكل تفاصيلها، وإلى جانب وصفه الدقيق كل المقتنيات الهامة التي تم العثور عليها في المقبرة،

فهناك تفاصيل أخرى استرعت انتباه العالم الأثري. على سبيل المثال، شمعة مطفأة في كأس نصف مملوءة بالجص الذي ختمت به الأبواب، أكاليل الورد على عتبة الغرفة والتي تفتت حال لمسها، وكأن تلك التفاصيل الصغيرة قد أوقفت الزمن بين جدران تلك الغرفة. من يدري وسط أيّ أجواء من الحزن، تم دفن ذلك الفتى؟ وهل تخيل أولئك الذين ودعوا ملكهم وهو في ريعان شبابه، أنَّ آلاف السنين ستمضي، وأنَّ كل ما في هذا العالم سيتغير، قبل أن يظهر هذا الملك الفتي للعلن مرة أخرى؟

- لقد أتقنوا إخفاء ملكهم بالفعل. فرغم أنَّ العالم كله كان يبحث عنه، لكنه لم يظهر إلا بعد أكثر من ثلاثة آلاف عام.

- أجل، لقد أتقنوا إخفاء المقبرة بصورة مذهلة، لأنَّها كانت تحوي أكثر من خمسة آلاف قطعة، وهي كل ما يحتاج إليه الملك الفتي في رحلته إلى العالم الآخر، بحسب معتقداتهم. فعلى سبيل المثال، احتوت المقبرة على ما مجموعه مئة وثلاثون من العصي المخصصة للمشي والعديد من رؤوس النمور، وقد عثر على نقش لافت على واحدة من هذه العصي: "قام جلالته بقطع هذه القصبة بيده". تم ترقيم كل قطعة من تلك القطع، وتخزينها بعناية فائقة. كما قام المكتشفون بالتقاط صور للمكان ولكل قطعة وجدت فيه. وبسبب خشيتهم من أن يطال التخريب بعض القطع، لم يقوموا بتحريكها من مكانها على الفور، فقد كانت أبصار العالم كله على هذا الاكتشاف، الذي واكبته وسائل الإعلام كافة في ذلك العصر، وكانت صور المقتنيات التي يتم العثور عليها في ضريح الملك الشاب، تتصدر الصفحات الأولى لكل الصحف والمجلات العالمية. وقد نجح اللورد كارنارفون في تحويل هذا الاهتمام العالمي، وهذا الكشف الهام إلى صفقة رابحة، حين باع حقوق نشر الاكتشافات الجديدة وأعمال التنقيب في الضريح، لصحيفة التايمز. وفي الوقت الذي سببت فيه هذه

الصفقة خسارة مدوية للصحافة العالمية، فقد أثارت ثائرة الشعب المصري، الذي طالب بأحقيته في إدارة كنوزه وتراثه الخاص.

- إذًا، فقد تخاصموا جميعًا لأجل الملك الملعون.

تقول ذلك على استحياء وقد حنت رأسها، وكأنها تشارك توت عنخ آمون في سمعته بصفته صاحب لعنة، ترى ما اللعنة التي تسببت بها هذه الفتاة؟

- كانت الأساطير حول لعنة الفرعون توت عنخ آمون، قد انتشرت على مستوى العالم كله، منذ عام ألف وتسعمائة وعشرين. فقد ألف العديد من كتّاب تلك الحقبة بمن فيهم السير آرثر كونان دويل مؤلف شخصية شارلوك هولمز الشهيرة، قصصًا وروايات تدور أحداثها حول لعنة الفرعون الشاب. وفي الحقيقة، تعود فكرة نسج القصص المرعبة واللعنات المميتة حول الموت، إلى مصر القديمة، وذلك لإبعاد لصوص القبور وترويعهم. ورغم أنَّ معظم أضرحة الملوك والفراعنة قد تم العثور عليها، لكن ضريح الملك الفتي الذي بقي عصيًا على الاكتشاف، زاد من تضخيم هذه الأساطير حول شخصيته وموته. وانضمت القوى الخارقة للطبيعة إلى اللعنات المميتة، ليصبح الموضوع مادة إعلامية دسمة لكل من يتسم بسعة الخيال.

- ولكن ما سبب اكتشاف أضرحة بقية الملوك، وبقاء ضريحه مخبأً لآلاف السنين دون أن تمسه أيدي اللصوص؟

- رغم كل اللعنات التي نُسبت حينها إلى المومياوات، لكن الجواب الحقيقي وصلنا من علماء الجيولوجيا، فقد كان مدخل القبر مطمورًا تحت ركام من أنقاض مقابر أخرى شيدت لاحقًا، إضافة إلى الطمي الذي غطاها بفعل السيول القادمة من المرتفعات. فوادي الملوك بمنحدراته وأخاديده الضيقة التي تحيط بها صخور قاسية، أقرب إلى مدرجات مسرح ضخم. كما أنَّ السيول المفاجئة ليست ظاهرة نادرة

الحدوث في ذلك المكان، فباستطاعة غيمة واحدة، أن تحمل ما وزنه نصف مليون طن من المياه، وهي تسكب كل هذه الكمية الهائلة من المياه، خلال عشرين دقيقة من الهطول. ولأنَّ مدخل المقبرة محاذٍ لمجرى السيول التي تنحدر من تلك المرتفعات، فقد تجمعت الحجارة والطمي أمام المدخل، حتى بلغ علو هذا الركام أكثر من متر، كما أنَّ شمس الصحراء أكسبت هذه الطبقات المترسبة بمرور السنين صلابة الأسمنت. فبدا المدخل لكل من يمرّ به جزءًا من المشهد الطبيعي. لذا، لم يكن الفرعون ملعونًا، بقدر ما كان محظوظًا من هذه الناحية، حيث بقيت رفاته سليمة لآلاف السنين.

- أهو الحظ أم المصادفة أم شيء آخر؟ لا أحد يعلم.
- ما رأيك أنت؟

لا يبدو أنَّ احتمال الحظ يرضيها، فهي تبحث عن سبب أكثر غموضًا.

- ربما هي إرادة الله. فقد جعل السيول تحاذي المدخل وتخفيه.
- أهذا ما تعتقدينه حقًّا؟
- وما الغريب في الأمر؟ كما أنَّ اللعنة حلت لاحقًا على كل من شارك في ذلك الاكتشاف.

وكأنها تبحث عن مكان لها إلى جوار الملك الذي تشاركه وسم اللعنة، للحصول على هذه الحماية الإلهية.

- كان الناس في تلك الحقبة يفكرون مثلك تمامًا، واثقين بأنَّ كل من شارك في ذلك الاكتشاف ودخل المقبرة، ستصيبه اللعنة. وكانت الصحافة تغذي هذه الأفكار وتضخمها، ولم يطل الانتظار كثيرًا، حتى بدأت اللعنة تلاحق المشاركين في أعمال الحفر الواحد تلو الآخر. وكانت الضحية الأولى اللورد كارنارفون الذي مرض ومات بعد مدة وجيزة، فانتشر الذعر بين العاملين في أعمال الحفر، وجاء موت كلب اللورد الذي سقط

من مكان مرتفع وكأنه يؤكد هذه المخاوف. ثم انتشرت روايات تقول بأنّ أفعى كوبرا التهمت عصفوره الكناري حيًا، حتى باتت هذه الأخبار المادة الرئيسة لكل الصحف والجرائد. ومن بين الأخبار التي تداولتها الصحف حينها، أنَّ الكهرباء انقطعت في كل أرجاء مصر، في اللحظات التي فارق فيها اللود كارنارفون الحياة في أحد مشافيها، رغم عدم وجود عطل وراء هذا الانقطاع المفاجئ بحسب مزاعمهم. وحين توفي سكرتير اللورد ثم والده واثنان من إخوة اللورد في فترة زمنية متقاربة، اتفقت كل الآراء على أنَّ السبب وراء حصاد الموت هذا، هو لعنة الفرعون وليس شيئًا آخر. والأسوأ أنَّه خلال جنازة اللورد، دهست السيارة التي تحمل نعشه طفلًا صغيرًا، وقتلته. كما أنَّ عالم الأشعة الذي قام بمسح سيني للمومياء، تعرض هو الآخر لحادث سيارة. ومن بين الضحايا الأمير المصري علي كامل فهمي الذي قتل بعد فترة وجيزة من زيارته قبر الفرعون. ولعل أغرب واقعة تم الترويج لها، هي العثور على أثر لسعة بعوضة سامة على خد الفرعون الشاب الأيسر، بعد نزع القناع الذهبي عن وجهه، والتي تركت أثرًا على خده، رغم أنَّها لم تكن سببًا في موته. والمفارقة أنَّ بعوضة سامة قد لسعت اللورد كارنارفون أيضًا قبل وفاته بفترة، وعلى خده الأيسر بالذات، وكانت بحسب الادعاءات السبب في موته، فكان موضع الإصابة متطابقًا لدى الاثنين بصورة مذهلة.

- وتعتبرين كل ذلك مجرد مصادفة؟

- لو كنت أعيش في تلك الحقبة، فربما اعتقدت ما اعتقده الجميع حينها، خاصة أنَّ الصحف كانت تنشر كل يوم المزيد من الأخبار والروايات الغامضة، حول خوارق ولعنات جديدة. وكما في القصص السابقة، فقد أصابت لوثة جماعية الناس في تلك الحقبة.

- تعنين أصابهم الجنون؟

وكأنها تعيش في تلك الحقبة، فهي مقتنعة كما كان الناس مقتنعين حينها، أنَّ كل هذه الأحداث، من المحال أن تكون مجرد مصادفات، ولا بدّ من وجود قوى خفية تحركها بهذه الصورة.

- لا يمكن أن يثار جنون الناس دون سبب، لا بد من مسببات تمهد لمثل هذه الظواهر.
- حسنًا. وما هي تلك المسببات؟
- لقد انتقلت لعنة توت عنخ آمون من كونها مجرد أسطورة، إلى الموضوع الأساسي الذي بات يشغل الناس والرأي العام في إنكلترا، والعديد من الدول الأوربية، إضافة إلى الشعب المصري. فكانت تلهيهم ولو بصورة جزئية، عن المشكلات العديدة التي يواجهونها. فنحن نتحدث عن الأعوام ألف وتسعمائة وعشرين وما يليها، وطالما أنَّك تقرئين الكثير، هل لك أن تخبريني كيف كان الوضع في تلك الفترة؟

يفاجئها السؤال، فتستقيم في جلستها، وترفع رأسها نحو السقف لتفكر قليلًا، قبل أن تجيبني في صوت خافت، تعوزه الثقة.

- في عام ألف وتسعمائة وثمانية عشر، كانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت.
- صحيح، هذا ما حدث. وكما تعلمين، فقد كانت حربًا رهيبة فقد فيها الملايين آباءهم وإخوتهم وأزواجهم وأطفالهم. وكان الفقر والمجاعة يهددان حياة الكثير، والأسوأ أنَّ الأنفلونزا الإسبانية التي انتشرت في تلك الفترة، أثقلت كاهل القارة الأوربية بالمزيد من الموت، فقد كانت تستهدف الشباب على وجه الخصوص، حيث أودت بحياة الملايين خلال فترة وجيزة. كل هذه النكبات المتعاقبة، زرعت اليأس في نفوس الجميع. لكن هناك حدثًا آخر له أهمية خاصة، هيا حاولي أن تخمني ما يكون؟

ترفع بصرها نحو السقف مجددًا.

- أعطيني إشارة صغيرة.
- فكري في روسيا.
- الثورة الشيوعية في عام ألف وتسعمائة وسبعة عشر.
- صحيح، فتلك الثورة التي كان العالم كله يتابع أحداثها بقلق، بدأت بتغيير مصير الجميع، واقتلعت الكثير من الصخور من مواضعها. كما أنَّ الثورات كانت تعصف بإيرلندا أيضًا، وقد انقسمت الجزيرة إلى شطرين. إلى جانب حدث آخر لا يقل أهمية عما سواه، وهو تمكن حزب العمال في بريطانيا من الفوز في الانتخابات البرلمانية، وهكذا منحت النساء لأول مرة حق التصويت، وبدأن دخول سوق العمل بشكل رسمي، وحيازة الاستقلال الاقتصادي، الأمر الذي كان له تداعيات كبيرة على المجتمع. فقد غير منظومة العلاقات الأسرية بشكل جوهري، وقلب الأدوار الاجتماعية رأسًا على عقب، وزلزل ثبات العادات والتقاليد، وهو ما شجع النساء وحفزهن أكثر. فتلك النساء العاجزات المضطهدات في البيوت لقرون، أصبحن يتجولن بحرية في شوارع لندن، يحملن سيجاراتهن علنًا، ويقهقهن في صخب، دون خشية من سلطة الرجل. هل لك أن تتخيلي الآن الأعاصير الهائلة التي كانت تعصف بالعالم حينها؟ فمن جهة الحروب والأمراض والموت، ومن جهة الثورات والحرية والحقوق المكتسبة. في هذه الأجواء من الفوضى الاجتماعية، جاءت لعنة الفراعنة لتتلاعب بالعقول، وتنقلها من مشاكل الحاضر إلى عالم من السحر والغموض.
- يبدو أنَّك أدركت بأني ملعونة أيضًا. لذا تروين لي هذه الحكاية، أليس كذلك؟

تسألني في صوت خافت، وبريق من الخجل والحقد الدفين يتراءى في نظراتها. فهي تأتي إلى هنا راغبة من أعماق قلبها، في أن يتم قبولها وإدراك آلامها من قبل

شخص ما، ومن جهة أخرى فإن أكثر ما تخشاه، اكتشاف ما يعتمل في صدرها. إنَّها تبني أحلامها في ذات الوقت الذي تعيش فيه خيبة الأمل، وكأنها مصير لا مفر منه.

- لا، هذا ليس صحيحًا، كما أنّي لا أعرف عنك الكثير. والأهم أنَّي لا أؤمن باللعنات، ولا أعتقد أنَّ هناك أحدًا ملعونًا. لكن بما أنَّك تحدثت بصراحة، فسأبادلك بالمثل، ما لاحظته هو تلك الأفكار السلبية التي تعتقدينها عن نفسك.

- حتى عندما تروين القصة، فذهنك مشغول بشيء آخر.

حتى وإن كانت راغبة في منحي ثقتها، لكنها تظل نهبًا لشكوكها، وتحليلها كل كلمة أقولها. لكني يجب عليّ أن أواصل الأسلوب الذي قررت اتباعه معها حتى أكسب ثقتها؛ الكثير من الصبر، والتفهم، والصدق.

- لا، ليس مشغولًا بشيء آخر، فأنا أفكر فيك.

- لست صريحة معي دومًا.

- على العكس تمامًا، وأنا أعترف لك بأني أحاول ما في وسعي لإيجاد طريقة تمكنني من مساعدتك، لأنَّ هذه رغبتك أيضًا. لكنك لست شجاعة بقدر ذكائك، فأنت ترتعبين من مجرد الكشف عن حقيقة مشاعرك، ورغم معرفتك التامة بحاجتك الكبيرة إلى المساعدة، لكنك تختبئن في أقرب جحر حين أحاول طرح سؤال ما. أليس ذلك جبنًا؟

إن كان لي وصف الجنون المطبق، فهو تلك النظرات التي ترمقني بها الآن، والتي قد تثير رعب إنسان عادي لم يعتد رؤية هذه التعابير، أما بالنسبة إلي، فقد مضى زمن طويل منذ أن تعلمت فيه عدم الخشية ممن يرمقني بهذه النظرات. بل على العكس، فهي تثير الأسى في نفسي، لأنَّي أعلم جيدًا ما الذي تعنيه؛ إنَّها انعكاس للألم والخوف، وتجسيد لسنوات طويلة من العذاب النفسي الذي يعاني منه المريض. الإنسان ككأس طافحة بالمشاعر، إن تلقى المحبة والحنان، فستطفح كأسه كشلال من البهجة والمحبة، مشرقًا، جياشًا يسقي كل أرض يمر بها، ويحيلها

جنة دون أن ينضب. لكن الحياة لم تمنح هذه الفتاة وجهها المشرق، فكل ما حولها ومن حولها، يبث في نفسها الرعب والحقد، ولن يكون من السهل إفراغ كأسها من هذه المشاعر.

إنَّها أشبه بآلة تعزف نغمات شاذة، لذا عليّ الحذر في كل مرة أحاول وضع يدي على وتر ما من روحها، فليس من الواضح كيف ستكون نغمتها التالية. وإن كان من جانب إيجابي لما حدث في لقائنا الأول، فهو إدراكها أنَّ نغماتي أيضًا لا تخرج بالتوازن المطلوب، لذا فهي تحاول توخي الحذر وضبط نفسها قدر المستطاع، الأمر الذي يسير حتى الآن لصالحنا كلينا. تعقد يديها بإحكام، وتعض بأسنانها المتراكبة شفتها السفلى، قبل أن تحاول التحدث وهي تهز رأسها يمينًا ويسارًا، لكنها لا تفلح، فالضيق الذي يعتمل في صدرها، يكاد يحبس أنفاسها، ومن الواضح أنَّها ليست مستعدة بعد للبوح. فلا أجد بدًا من التراجع خطوة، لأنَّ هدفي ليس زيادة معاناتها.

- هناك أمور من الصعب التحدث عنها، أليس كذلك يا آلا؟

تصمت، لكن من الواضح أنَّها تشعر بالراحة من هذا السؤال، فهي تدرك أنَّي أتفهم معاناتها وألمها، وتظهر على وجهها تعابير الحزن، وهي تعابير تروق لي، لأنَّها من اللحظات القليلة التي تبدو فيها كسواها من المرضى. لا يجب عليّ أن أدعها تخرج من هذا الباب، وهي تشعر بكل هذا الحزن والانكسار. فلا يمكنها السير على درب الحياة، وهي تحمل كل هذا الألم.

- لدي الكثير من الحكايات لأرويها لك يا آلا، خاصة حكاية البلهاء، التي ستروقك كثيرًا.
- البلهاء؟
- أجل، قد لا تكون مضحكة، لكن حماقات البشر رغم قسوتها، تثير السخرية أحيانًا، ومن يدري فقد نضحك معًا؟
- نضحك معًا؟

- أجل، نضحك.
- هل تضحكين كثيرًا؟

يا له من سؤال غريب! أفكر لوهلة هل أنا حقًا كثيرة الضحك؟ في الحقيقة، كنت أضحك كثيرًا في السابق، ولكن ذلك كان منذ سنوات طويلة، كنت أتذرع بكل شيء لأضحك، وكان أصدقائي يعلقون على قهقهاتي الصاخبة، لكن ولسبب أجهله، أخذت ضحكاتي تخفت رويدًا رويدًا. وبمرور الوقت، أصبحت سيدة أكثر رزانة، وأقل صخبًا. فالزلازل القوية والخفيفة التي هزت حياتي، والواقع الذي بات يحتل مساحات أكبر من الأحلام كلما تقدم بي العمر، والتجارب الحزينة والقصص المؤلمة التي أستمع إليها بحكم عملي من الصباح وحتى المساء، كل ذلك جعلني أضحك بصورة أقل.

ما تفعله الحياة بمشاعرنا، يشبه ما يفعله الزمن بقمم الجبال من حت وتعرية. كأزهار الخريف الذابلة، تذبل مشاعرنا وتذوي مع تقدم العمر، فتتحجر القلوب، وتختفي الرقة والمودة، وتقسو المشاعر، وبعض الناس يبدو عليهم الذبول أكثر من غيرهم، وقد كنت أعتبر نفسي محظوظة في هذا الشأن، لأنَّ العمر لم يتمكن من روحي كجسدي، لكن موت آيدِن أثبت لي أنَّ تقلب الحظوظ لا يستثني أحدًا. وبتّ أفكر لو أنَّ الزمن أكسب قلبي بعض القسوة، ومشاعري بعض الجمود، فما كابدت كل ذلك الألم الرهيب بعد رحيل زوجي. أستحضر أغنية أُكثر الاستماع إليها في الآونة الأخيرة: "كخيط دخان لعود بخور، يعلو الوجع في قلبي المكسور"، كنت قد استمعت إليها أول مرة بصوت جنكيز أوزكان.

تنتظر آلا ردّي على سؤالها، وهي تتفحصني بفضول. إلى أيّ مدى يتعيّن عليّ مصارحتها بما يجول في ذهني يا ترى؟

- لا أعلم إن كنت أضحك كثيرًا، لكني لا زلت أحب أن أضحك كلما أمكن ذلك. وماذا عنك؟ ألا تضحكين؟
- لا أضحك.

- لـمَ يا آلا؟ لـمَ لا تضحكين؟
- لـم أتعلم الضحك. فما من أحد كان يضحك في بيتنـا. ومـن يضحك دون سبب. تعلمين ما يُقال عنه.
- حسنًا، لنحاول أن نضحك معًا، فأنا أيضًا بحاجة كبيرة إلى الضحك هذه الأيام.
- لـمَ؟
- ربما لأنَّ الضحك دومًا مفيد لصحة الإنسان.
- ألن تروي لي حكاية الأبله اليوم؟
- لندعها للمرة القادمة.
- أليس لديك حكاية عن الأميرات؟
- الأميرات؟
- أليست كل الحكايات تدور حول الأميرات؟
- حسنًا، سأبحث لك عن حكاية للأميرات أيضًا.
- إذًا، عليّ أن أذهب الآن. لا أريدك أن تعتقدي بأني لا ألاحظ اهتمامك بي. وهو أمر يعني لي الكثير بالفعل. شكرًا لك، أشكرك على كل ما تفعلينه من أجلي. إلى اللقاء.

بالكاد تلامس يدي في مصافحة عابرة كعادتها، وتغادر مسرعة. يا لها من فتاة غريبة الأطوار! إذًا، فهي تدرك اهتمامي بها، وأنَّ مشاعري تجاهها قد تغيرت بسرعة ملحوظة. ورغم كل محاولاتي، لكنها تقاوم وتأبى أن تصارحني، ولا حيلة بيدي سوى المزيد من الصبر والتسامح. ورغم أنّي أتعمد سرد قصص عن مشاكل اجتماعية وظواهر عامة، كي لا تأخذ مغزى القصة على محمل شخصي، لكنها تنجح كل مرة في ربط الأمر بنفسها بطريقة ما. والآن تريدني أن أروي لها حكاية عن الأميرات، ما غايتها يا ترى؟ حتى بعد خروجها من الغرفة، لا أتمكن من إخراجها من رأسي، فهي تبرع في تشتيت أفكاري على الدوام.

يستمر المرضى بالدخول واحدًا تلو الآخر، وينساب الوقت دون أن أشعر حتى يحلّ المساء. غالبًا ما أشعر بالرضا من مضي الوقت بسرعة، لقناعتي بأنّي قمت باستغلاله على أفضل ما يمكن مع مرضاي. فرغم معاناتهم التي يشاطرونني إياها، ورغم اللحظات المؤلمة التي نتقاسمها، لكن بارقة أمل صغيرة قد تلوح على وجوههم قبيل مغادرتهم الغرفة، تنسيني كل تعبي.

مع انتهاء العمل، أصعد إلى الكافيتريا لاستنشاق بعض الهواء النقي. الشمس على وشك المغيب، وقد صبغت حمرة الشفق كل شيء، وغدت الغيوم التي بللت شوارع المدينة بأمطارها الصاخبة قبل قليل، متناثرة هنا وهناك، وكأنّ أحدًا قد طاردها فتفككت في الأرجاء وتبعثرت إلى ندف مكتنزة. وقد تحلّق البعض من زملائي الأطباء والاختصاصيّين النفسيين حول البروفيسورة عائشة يالِن، وهم يشربون الشاي، ويتأملون مثلي روعة المشهد، فإمكانية رؤية إطلالة طبيعية خلابة وسط مدينة كأنقرة، يعد ضربًا من الحظ. حين أقترب منهم، ينهضون ليفسحوا لي مكانًا إلى جوار عائشة، فأنضم إلى جلستهم، وتحضر لي نيفين كأسًا من الشاي.

مضى على آخر لقاء بيني وبين عائشة وقت طويل، لقد عملنا معًا سنوات طويلة في مشفى حاجي تيبة. إنّها امرأة تهتم بأناقتها اهتمامًا بالغًا، وتبدو على الدوام جذابة. أستحضر حادثة تعود إلى فترة عملنا معًا، ففي أحد الأيام وبينما كنا نسير في نزهة قصيرة في حديقة المشفى بعد الغداء، بدأ المطر ينهمر فجأة، ولم يبال أحد إلّا أنا وهي بالمطر، حيث ركضنا مسرعتين إلى الداخل، وسط نظرات الدهشة التي أخذ الجميع يرمقنا بها، دون أن يدركوا السبب. وحدنا نحن الاثنتان كنا ندرك نتائج المطر الكارثية على مظهرنا. ففي تلك الفترة، درجت موضة ارتداء الجلد، وكانت ترتدي بدلة جلد فضية، أما أنا فكانت بدلتي بنية اللون، وبضع قطرات من المطر على بدلتينا، كانت كفيلة بتحويل أناقتنا إلى كارثة حقيقية. أروي لها هذه الحادثة، فنضحك على وقع الحنين للماضي.

تحضر عائشة هذه الفترة، بحثًا مع الأطباء والاختصاصيين النفسيين، حول "العلاج النفسي للأطفال عن طريق اللعب"، وقد شارفت على الانتهاء، وهي بصدد

البدء بتدريبهم، وهناك أطباء واختصاصيّون من خارج المركز أيضًا يودون الالتحاق بالبرنامج التدريبي، وهم يسألونني عما يجب فعله. لكن البرنامج يحتاج إلى فترة طويلة، كما سيتم تطبيقه بشكل عملي، وبالنظر إلى الكثير من الأسباب الأخرى، نقرر بعد المناقشة، رفض طلبات الانضمام من خارج المركز، لكني أقترح وضع البرنامج ضمن خطة محاضرات التدريب السنوية، حينها يمكننا قبول كل من يودّ الحضور، فتوافق عائشة أيضًا على هذه الفكرة.

في الحقيقة، لا يزال الجو باردًا بعض الشيء، ومن السابق لأوانه الجلوس على الشرفة، لكن شتاء هذا العام الطويل، جعلنا نتوق إلى أوهى أمارات الربيع. أستنشق الهواء المنعش بأعمق ما أستطيع، وفيما يختفي قرص الشمس في الأفق، تجعلني برودة النسمات أرتعش قليلًا. أنظر إلى الساعة، يجب عليّ النزول بسرعة، لأنَّ موعد اختيار المرشحين للعمل لدينا قد حان. تنزل عائشة برفقتي، فهي أيضًا ضمن أعضاء لجنة التعيين. لقد سبقنا محمد عاكف وجنكيز في الوصول، وحين يصل حسن والاختصاصية النفسية صليحة دولاشير، يكتمل الكادر. يبدأ الاختصاصيون النفسيون بالدخول واحدًا تلو الآخر، فيطول حديثنا مع بعضهم، فيما يخرج البعض بعد جمل مقتضبة. في الحقيقة، كلنا متفقون على اختيار ذوي المؤهلات العلمية الأعلى من بينهم، لكن الميزات الشخصية أيضًا أمر له بالغ الأهمية في هذه المهنة.

بعد انتهاء المقابلات، نتناقش لما يقارب الساعة لتحديد المقبولين منهم، وأخيرًا يقع القرار على قبول شابتين فقط. لا يبدو حسن راضيًا، فهو راغب في اختيار أربعة منهم على أقل تقدير، لذا سيجدد الإعلان عن الوظيفة. كلنا متعبون وجائعون أيضًا، ونستحق عشاءً دسمًا حتى وإن بات الوقت متأخرًا، وفيما نتناقش لاختيار مكان مناسب دون أن نحسم أمرنا، يهب حسن لنجدتنا، ويأخذنا إلى مطعم بأضواء باهرة في جانكايا، وتنتهي ليلتنا على وقع مواويل جنكيز أوزكان الحزينة.

الفصل السابع

تناولت الغداء اليوم مع بقية الزملاء في الكافيتريا، وهي رفاهية لا تتاح لي معظم الأحيان. أنزل الدرج مبتهجة، فأرى آلا جالسة على أحد المقاعد القريبة من تونا، وهما تتبادلان حديثًا وديًا، لكنها تسكت حين تراني، وتهب واقفة لتحيتي، كطالبة رأت مديرة المدرسة. أرد على تحيتها بإيماءة من رأسي، وأدخل الغرفة.

لقد تغيرت علاقتنا بسرعة ملحوظة، فهي باتت تدخل غرفتي ضاحكة، ولا تتحاشى النظر إلي حين تصافحني، كما كانت تفعل في الفترة الأولى، والأهم أنَّها لم تعد تخشى الكلام كما في السابق. أما علاقتها مع تونا، فقد أصبحت مناقضة تمامًا لما كانت عليه في أول زيارة لها. ورغم أنَّها لم تتخلَ عن ارتداء تلك الثياب الفضفاضة قديمة الطراز، لكنها تظهر بعض الاهتمام بنظافتها الآن. وقد زاد وزنها بشكل ملحوظ، حتى بشرتها اكتسبت بعض النضارة واللمعان. كل هذا التطورات، توحي بأنّ الأمور تسير على الطريق الصحيح، وإن كانت وتيرتها بطيئة. يجب علي التحدث مع تونا في هذا الشأن، وسؤالها إن كانت هي أيضًا تلاحظ هذه التطورات التي ألاحظها.

حين تدخل نيفين حاملة صينية القهوة، أطلب إليها:

- أخبري تونا أن تأتي إلي.

تدخل تونا مهرولة، في انفعال واضح.

- أهلًا تونا، كيف حالك؟

- بخير دكتورة، شكرًا لك. لكني شعرت ببعض القلق من طلبك رؤيتي، هل الأمور على ما يرام؟

- لا داعي للقلق، فقط أردت سؤالك عن فتاتنا المجنونة.
- ما بها؟
- ألا تلاحظين أنَّها تغيرت مؤخرًا؟ ما السبب في رأيك؟
- أجل، أجل، لقد تغيرت بالفعل، وربما ستسخرين مني لو أخبرتك بأنّي بدأت أحبها. لا أنكر نفوري من رؤيتها في البداية، وأظنك كنت كذلك، لكنها في الحقيقة فتاة لطيفة، كما أنَّها مؤدبة ومحترمة إلى درجة لا تصدق، وكأنها ليست تلك العفريتة التي أثارت جنوننا في أول يوم لها هنا! وهي لا تأتي دون أن تحضر معها أشياء صغيرة جميلة.
- أشياء مثل ماذا؟
- أحيانًا علبة شوكولا، أو صحنًا من البوريك، وأحيانًا باقة جميلة من الورد. وقد أخبرتها أكثر من مرة ألا تحضر شيئًا، فقد نسينا ما حدث، وانتهى الأمر، لكنها تواصل إحضار هداياها اللطيفة. وهي تأتي دومًا قبل الموعد، وأحيانًا تمنح المريض الذي يليها دورها إن كان على عجلة من أمره، ولا تحاول إزعاجي مهما طال جلوسها. في زيارتها السابقة، كانت القاعة تعج بالمرضى، والهاتف لا يتوقف عن الرنين، فجأة بدأت هي أيضًا بمساعدتي والاهتمام بالمرضى، أعتقد أنَّها تشعر بالراحة معنا. وقد لاحظت أنَّ هاتفها الجوال لا يتوقف عن الرنين حين تكون جالسة في ردهة الانتظار. من الواضح أنَّها فتاة نشيطة تعمل كثيرًا، ومعظم المكالمات من أصحاب الدعاوى، وأحيانًا يتصلون بها من المكتب أيضًا. وهي تقفل الهاتف حين تدخل إلى غرفتك، لذا فأنت لا تلاحظين الأمر. واللافت أنَّها بدأت تخاطب من يتصل بها بأسلوب لطيف، ومغاير لأسلوبها القديم، وكأنها كانت تجهل التحدث بلباقة، فقد كانت تتلعثم، وتجيب بجمل قصيرة غير مترابطة. لكن أسلوب حديثها قد تحسن كثيرًا مقارنة بالسابق، إلا أنَّها لا زالت تخشاك كثيرًا.

- تعنين أنَّها تخاف مني؟
- أجل، فهي تحبك، وتخاف منك بالقدر ذاته.
- ولكن لمَ كل هذا الخوف؟ ما الذي فعلته لها؟
- لا أقول أنَّك فعلت شيئًا، لكنها رغم ذلك تشعر بالخشية منك. قبل عدة أيام، اتصل بي مديرها، ليطلب موعدًا لأحد موظفيه، وطلب إليّ أن أبلغك تحياته، وقال بأنّك استطعت ضبط فتاته المجنونة. كما أخبرني بأنَّه ينوي زيارتك قريبًا.
- فتاته المجنونة؟ هو أيضًا يلقبها بالمجنونة؟

تقهقه تونا في صخب.

- كنت أظننا أول من أطلق عليها هذا اللقب، لكني كنت مخطئة، فقد سبقنا الرجل، كان الله بعونه. للأسف، عليّ الآن قطع هذا الحديث الجميل، ما لم يكن هناك شيء آخر، لأنَّ الهاتف سيلحق بي إلى هنا ما لم أذهب للرد عليه.
- حسنًا، اذهبي واطلبي إليها أن تدخل.
- لن أدخلها الآن، فهناك مريضة أخرى ستدخل.
- أليس الآن موعد آلا؟
- لقد أخبرتني أنَّها لا تمانع الانتظار قليلًا، حين رأت أنَّ السيدة الأخرى على عجلة من أمرها.

تسرع بالخروج رغم رغبتها في البقاء ومواصلة الحديث حتى المساء دون أن تشعر بالتعب، فجعبتها مليئة دومًا بالكثير من الأخبار والأحداث، كما أنَّ حديثها لا يبعث الملل، فهي بارعة في إضحاك مستمعيها لأنَّها تحب الضحك كثيرًا. إنَّها امرأة تفيض بالحيوية طوال الوقت، وهو أمر رائع.

إذًا، فقد تنازلت آلا عن دورها لمريضة أخرى! يبدو أنَّ جعبتها مليئة بالمفاجآت أيضًا.

تدخل امرأة شابة الغرفة، فأتعرف إليها حال رؤيتي إيّاها.

- أهلًا بك غولتان، كيف حالك؟
- شكرًا دكتورة، أنا بخير، بل في أحسن حال.
- تفضلي بالجلوس. لقد مضى وقت طويل على آخر لقاء بيننا.
- حوالي أربع أو خمس سنوات على ما أظن.
- وما أخبار زواجك؟ أتمنى أن تكون الأمور على ما يرام.
- بخير، الحمد لله، وقد كبر الولد. وأنا أتذكر نصائحك طوال الوقت، ولن أبالغ إن أخبرتك بأنّي نسيت متى كانت آخر مرة تشاجرت فيها مع زوجي. لو أنَّنا افترقنا حينها، لكان ذلك مؤسفًا لنا وللطفل أيضًا. أحيانًا حين نتحدث عن تلك الأيام ومتاعبها، نتذكر فضلك علينا ودعمك الكبير لنا، وندعو لك بالخير على الدوام.
- حسنًا، سماع هذه الأخبار يسعدني أيضًا.
- لقد أتيت اليوم من أجل موضوع آخر. فكما تذكرين، لقد كنت في تلك الفترة على خلاف مع عائلة زوجي أيضًا، لكن الأمور تحسنت لاحقًا، وتجاوزنا تلك المشاكل؛ إلا أنَّ حماتي لا تبدو بخير في الآونة الأخيرة، ولا نعرف أنا وأوميت كيف نساعدها، لقد حاولنا إقناعها بالذهاب إلى الطبيب، لكنها ترفض الفكرة. ولأنَّه ابنها الوحيد، فليس للمسكينة أحد يهتم بها سوانا، لذا رأينا أنّ من الأفضل أن نستشيرك في الأمر، لعلك تستطيعين مساعدتنا.
- خيرًا، ما مشكلة حماتك؟

يدهشني أنَّها آتية اليوم من أجل حماتها التي سببت لها الكثير من المعاناة والألم في الماضي.

- حماتي امرأة مهووسة بالنظافة والنظام، لا تدع شيئًا يفلت من رقابتها. وقد توفي زوجها قبل ثلاثة أعوام، ومنذ ذلك الوقت وهي وحيدة، رغم أنَّ

علاقتها بزوجها لم تكن على ما يرام، فقد كانت تتدخل في أتفه تفاصيل عمله، وتملي عليه كل شيء، وتحصي عليه حتى أنفاسه، لكني لا أنكر أنها تفانت في الاهتمام به خلال فترة مرضه، وحزنت كثيرًا على موته. ومنذ ذلك الوقت وهي وحيدة، رغم أنَّنا نزوها مرة في الأسبوع، لكننا لا نستطيع البقاء معها طوال الوقت. وقد تدهورت نفسيتها بشكل واضح، بعد أن قام لص باقتحام بيتها منذ فترة وجيزة، وسرق كل ما كانت قد خبأته طوال هذه السنين، ورغم إبلاغ الشرطة، لكنهم لم يتمكنوا من فعل شيء.

- كيف وضعها المادي؟
- جيد، فهي تحصل على راتب زوجها التقاعدي، كما أنَّ ملكية البيت تعود لها، إضافة إلى رصيد في البنك؛ أي إنّها ليست بحاجة إلى أحد، بل لديها ما يفيض عن حاجتها. والحمد لله، فأمورنا المالية تسير على ما يرام، ولا أحد يطالبها بشيء. لقد اشترى زوجي سيارة جديدة منذ فترة، فالعمل يسير بشكل جيد. ونحن نسرع لتلبية كل احتياجاتها ما إن تطلب، لكنها لا تقدّر كل ما نفعله.
- حسنًا، وما مشكلتها على وجه التحديد؟ ممَّ تعاني؟
- في الحقيقة، الأمر محرج بعض الشيء، ولكنها مريضة. لو أنَّها بكامل عقلها، فما فعلت ما تفعله.
- لا حياء في الطب يا عزيزتي، هيا حدثيني عن المشكلة.
- حماتي تهوى جمع الأشياء يا دكتورة، لطالما كانت كذلك. لكن الأمر زاد على حده مؤخرًا، فهي تخبئ كل ما يقع تحت يدها. وبسبب تدهور حالتها، بدأت أزورها مرتين في الأسبوع، وفي كل مرة أندهش من كم الأشياء الجديدة التي تتراكم في كل مكان، فهي لا ترمي أيّ شيء؛ قشور الليمون، أكياس النايلون، زجاجات الماء، كل أنواع العلب، زجاجات الحليب، علب اللبن، علب المناديل الورقية، حتى إنَّها أصبحت تحتفظ

بمناديل الحمام المستعملة، فغدت رائحة حمامها لا تطاق. وفي المطبخ، هناك حوض بلاستيكي تحتفظ فيه بمياه الأطباق القذرة، وتغسل فيه الأطباق كل مرة دون تبديل، حتى المياه التي تفرغها غسالة الأتوماتيك أثناء غسل الثياب، تحتفظ بها حماتي في أوعية بلاستيكية، لتشطف بها المنزل. والكارثة أنَّها حرّمت على نفسها استخدام المياه العادية في المنزل، فهي تعيد استخدام الماء نفسه لمختلف الأغراض.

- وهل تأذن لك باستخدام المياه حين تزورينها؟
- في الحقيقة، هي تدرك أنَّها لا تستطيع منعي، ولكنها تتمنى لو كان باستطاعتها. وحين أدخل الحمام، أشدّ سيفون المرحاض مرارًا، وأنظف الحوض والمغسلة وإن كان على عجل. لكنها لا تسمح لنا برمي أيّ شيء، حتى أوميت يمتنع عن رمي شيء أمامها، فهي تبكي إن شاهدتنا نفعل ذلك. وقد لجأنا إلى حيلة جديدة حاليًا، فنحن نأخذ بعضًا مما تراكمه في كل زيارة، مدّعين أنَّنا بحاجة إليه، وإلا فلن تسمح لنا برمي كل تلك العلب والأكياس والبقايا. لكن الأمور تخرج عن السيطرة بمرور الوقت. فهي تجمع حاليًا مختلف أنواع المناديل الورقية، والمشكلة أنَّها تأخذها من البيوت والأماكن التي تذهب إليها، وتضعها سرًا في حقيبتها، وهذا ما تفعله بمناديل الحمام التي تسرقها من حمامات الآخرين. ليس هذا فقط، بل أعواد تنظيف الأسنان، المحارم المعطرة، الممالح، منافض السجائر، وكل ما يمكن أن يقع تحت يدها. هناك أطنان من هذه الأشياء في بيتها، والمصيبة الأكبر أنَّها بدأت مؤخرًا تختلس النقود أيضًا، وخاصة العملات المعدنية، ورغم أنَّ عمرها ناهز الثمانين، لكنها تحب الزيارات ولديها الكثير من الأصدقاء والمعارف، وعلى ما يبدو فهي تأخذ كل ما تطاله يداها من هذه البيوت التي تزورها. حتى الآن لا يبدو أنَّها تأخذ أشياء ثمينة، لكننا نخشى أن تقدم على أخذ ما هو أكثر قيمة من هذه

التفاهات، حينها سيتحول الأمر إلى كارثة حقيقية.

إنَّها امرأة طيبة القلب إلى درجة لا تصدق، فهي تخشى على حماتها- المرأة التي كابدت الكثير بسببها- وترغب في مساعدتها وحمايتها. رؤية هذه الرحمة والمشاعر الإنسانية الصادقة، أمر يثير البهجة في قلبي على الدوام.

- وهل تعتني بنفسها؟
- لا، فقد كانت ماهرة في الطبخ سابقًا، لكنها الآن باتت لا تطبخ لأنَّها تخشى من التبذير. ورغم أنَّ الأطعمة تفسد وتتعفن، لكنها لا ترمي منها شيئًا، بل تتناولها، وقد أهملت نظافتها الشخصية بشكل تام. كما أنَّها تغسل الفواكه والخضار بالمياه ذاتها مرارًا وتكرارًا، تجنبًا لاستخدام المياه. أكداس الأشياء والخردة تتراكم في المنزل، ولا يسعنا فعل شيء، سوى أن نغافلها بين الحين والآخر، فيحاول أوميت إشغالها، بينما أقوم بالتخلص من تلك القمامة ما أمكن، لكننا لا نستطيع رمي كل شيء خشية أن تدرك الأمر. تخيلي أنَّها تحتفظ حتى بالأدوية القديمة، وتقول إنَّها قد تفيدنا يومًا ما، أليس هذا مرضًا يا دكتورة؟
- للأسف، إنَّه كذلك.
- وما العمل؟ فهي لا ترضى بالقدوم لزيارتك.
- ماذا عن قدراتها العقلية؟ هل ذاكرتها جيدة؟ هل تستطيع إدراك وفهم ما يقال لها بصورة صحيحة؟
- في الحقيقة، تعاني من بعض النسيان أحيانًا، لكنها تتابع كل المسلسلات الدرامية، وتعرف الأحداث والشخصيات بدقة تامة. رغم ذلك تبدو مضطربة، فهي لا تنام جيدًا، وتعاني خوفًا مستمرًا من التشرد والجوع. وهي تذهب إلى أبعد الأماكن سيرًا على الأقدام، وتحتفظ ببقايا الخبز ولا ترمي منه شيئًا، فتتناول حتى الفتات. ولا تدع البواب يشتري لها شيئًا، بل تتسوق بنفسها أرخص ما في السوق.

- إن وصفت لها دواءً، هل ستوافق على تناوله؟
- أنا أقوم بإعطائها الأدوية عادة، ولا تعرف ما تتناوله بالضبط، لذا ليس من الصعب أن أعطيها دواءً جديدًا.
- حسنًا، هذا جيد. لا يمكن حل المشكلة عن طريق الأدوية بصورة جذرية، لكنها ستساعد على تهدئتها، وتحسين نفسيتها نوعًا ما، وتخفيف اضطرابها الناجم عن الأوهام التي تعانيها خوفًا من الجوع والتشرد، ومع تحسن مزاجها سيخف هوسها أيضًا. ومن الواضح أنها تعاني بعض أعراض الخرف نتيجة تقدمها في السن. واظبي على إعطائها الأدوية التي سأصفها حاليًا، وراقبي حالتها، وسنلتقي بعد شهر لتقييم الوضع مرة أخرى.
- أشكرك كثيرًا. سأعود بعد شهر من الآن. إلى اللقاء.
- بلغي أوميت تحياتي.
- سأفعل.
- كما أريد أن أهنئك، فبعد كل ما فعلته بك حماتك، ها أنت الآن تهتمين بها وكأنها أمك. أنت إنسانة رائعة.
- شكرًا دكتورة. حين يكون أوميت معي، يبدو كل شيء أسهل بكثير.

الوضع ليس سهلًا، فالمرأة تشعر بوحدة فظيعة بعد رحيل زوجها، الذي قضت معه معظم عمرها. وكلما تقدم العمر بالإنسان، كابد مشقة أكبر في تقبل خسارات من هذا النوع، فقابليته للتأقلم مع تغير الظروف والمستجدات تغدو أقل مرونة، وتتضاعف الأعباء النفسية، رغم أنَّ الأمور تبدو معكوسة لمن ينظر إليها من الخارج. يمكن مقارنة ذلك بجرح أو كسر يتعرض له الجسم، فحين يكون فتيًا، سرعان ما تلتئم جروحه، وتجبر كسوره، لكن الأمر يختلف مع التقدم في العمر، وما يرافق ذلك من ضعف ومشاكل. فتغدو خسارة من هذا النوع، خاصة إن رافقتها الوحدة، جرحًا غائرًا له آثار مدمرة. فالمسكينة فقدت مع رحيل زوجها، توازن

حياتها، وبمرور الوقت بدأت حالتها بالتدهور. ورغم ذلك، فهي محظوظة بوجود كنّة مثل غولتان، لتهتم بها، وتساعدها.

الآن حان دور آلا. أحيانًا قد نجد في صحبة البعض، ومقاسمتهم همومهم وآلامهم، عبئًا ثقيلًا يرهق أرواحنا. هذا ما أشعر به اتجاه آلا دون سواها. فمن جهة أرغب بشدة في مساعدتها وفك طلاسم لغزها، ومن جهة أخرى أشعر بالضيق، لأنَّها لا تمنحني دليلًا على وجهتها، ولا على ما تبقى من الطريق. يتعيّن عليّ توخي الحذر معها على الدوام، وهذا ما يؤثر سلبًا في علاقتي بها. ورغم أنَّ الوقت قد حان لإقناعها بتناول الأدوية، لكني أخشى من رفضها، وعدم قدرتي على إقناعها، خاصة أنَّها أخبرتني بأنها لم تتناول الأدوية التي وصفها لها زملائي من قبل.

بعد طرقات بالكاد تسمع، تتسلل إلى الغرفة بهدوئها المعتاد. أول ما يلفت انتباهي، هو الربطة الحمراء التي زينت بها شعرها. فقد لملمت خصل شعرها الشعثاء التي تغطي عادة نصف ملامحها، بربطة شعر حمراء عليها دعسوقة منقطة جميلة، كتلك التي تزين شعر الأطفال. وبذلك نرتاح كلتانا من تلك الخصل الملبدة الفوضوية، التي كانت تزعجني بقدر ما تزعجها.

تجلس بعد مصافحتها الخاطفة، وتتأمل وجهي في إمعان يوحي بأنّها ترغب في أن أدرك ما يجول في ذهنها، وقد قوست ظهرها كعادتها. ما الذي تريده مني يا ترى؟ أهي ربطة الشعر؟

- من الجيد أنَّك لملمت خصل شعرك بهذه الربطة، فهي لا تغطي وجهك بعد الآن.
- اشتراها لي والدي حين كنت طفلة، وظلت هناك في الدرج. فوضعتها اليوم.
- حسنًا فعلت.
- لا ذنب في الأمر. أليس كذلك؟

ها قد بدأنا بأولى الألغاز، أيّ سؤال هذا بحق السماء؟

- ولما سيكون فيه ذنب؟
- ما الذي يحصل لنا حين نرتكب الذنوب؟
- الذنوب ترافق الحياة في كل مكان، ولكن لما تخشين الذنوب إلى هذا الحد؟
- هل ترتكبين أنت أيضًا ذنوبًا؟
- وهل يمكن للإنسان أن يكون إنسانًا دون ذنوب يا آلا؟ ليس مهمًا ارتكاب الذنوب من عدمه، بقدر إدراكنا حقيقة أنفسنا. فبدلًا من هدر طاقتنا في الخوف من ارتكاب الذنوب، من الأفضل استغلالها في تحسين سلوكنا.

تستمع محنية الرأس، وهي تحاول فهم ما أقوله، ووضعه في سياق مناسب داخل عقلها. وهذا ما أفعله أنا أيضًا، فحتى ارتداء ربطة شعر تخيفها، عليّ وضع هذه القطعة مع ما يناسبها، في لوحتها التي أجمع قطعها في ذهني.

يبدو أنَّها سبقتني في الانتهاء، ترفع رأسها بسرعة، لتسألني:

- ما هي حكاية اليوم؟ أنا متشوقة لسماعها.
- ما رأيك أن تحدثيني أولًا عن هذه الربطة الحمراء؟
- وماذا إن بكيت؟
- وما المشكلة؟
- هل يبكي كل من يدخل هذه الغرفة؟
- معظمهم.
- وما الذي تشعرين به حينها؟

تستجوبني مرة أخرى. عادة ما ألتف على هذا النوع من الأسئلة، وأتحاشى الرد، لكني لن أفعل ذلك اليوم.

- حسب الحالة، أحيانًا تعتريني رغبة عارمة في مشاركتهم البكاء، لكني أتمكن من كبتها، وربما أفشل في ذلك أحيانًا أخرى.
- أتبكين معهم؟

- أجل، أيدهشك الأمر كثيرًا؟
- الأطباء لا يبكون عادة. لكن كل شيء معك مغاير، ويمكن توقع كل شيء معك.
- يبدو أنَّك محقة هذه المرة.
- وهل علبة المناديل الورقية على طاولتك من أجل أولئك الذين يبكون؟
- أجل، واسمها "مناديل الدموع"، لقد أطلقت عليها نيفين، الفتاة التي تأتي أحيانًا وتحضر لنا الشاي، هذا الاسم.
- لقد اختارت لها اسمًا جميلًا. هل لي بواحدة منذ الآن؟
- لما كل هذا القلق؟ إنَّها مجرد بضع دموع ستذرفينها كما يفعل الجميع، الأمر ليس مرعبًا كما تتخيلين.
- وماذا إن بكيت معي؟
- فليكن، لست أخشى البكاء مثلك.

وبينما تمد يدها لتأخذ عدة مناديل دفعة واحدة، أفكر فيما قلته توًا. أحقًا لا أخشى البكاء؟ لا يبدو أنَّي صادقة كما أدعي. لو لم أكن أخشى البكاء إلى هذا الحد، وحده الله يعلم الشلالات التي كنت سأذرفها حتى الآن. لكن ما الذي يدفع الناس إلى الخوف كثيرًا من البكاء؟ أهي الخشية من ظهور ضعفهم أمام الآخرين؟ لا أعتقد. أغلب الظن أنَّهم يخافون اكتشاف حقيقة أنفسهم، واكتشاف ضعفهم. وهذا ما أخشاه تحديدًا.

علي تصحيح هذا الخطأ، ومشاركتها حقيقة ما أفكر فيه، فهي تحب سماع الحقيقة.

- كنت أفكر فيما قلته لك توًا، لا أعتقد أنَّي كنت محقة، فأنا أيضًا أخشى البكاء.
- إذًا، فأنت أيضًا تخافين؟ صراحتك هذه تجعلني أشعر برغبة في البكاء. فقد كنت أعلم بالفعل أنَّك تخافين؛ لأنَّ رؤية الآخرين ضعفنا وعجزنا ليس أمرًا سهلًا.

- معك حق، لكن للقصة وجهًا آخر، فنحن لا نظهر ضعفنا أمام الآخرين فقط، بل لأنفسنا أيضًا؛ مما يعني أننا نقف وجهًا لوجه أمام عجزنا. ولكن يبدو أنَّ هذا ما يعنيه أن نكون بشرًا. دعينا من كل هذا الآن، ولنعد إلى ربطتك الحمراء. قلت إنَّ والدك اشتراها لك، أليس كذلك؟

تخفي وجهها بكلتا يديها، وكأنها تخجل من شيء ما، وتظل برهة على هذا الحال. ترفع يديها أخيرًا، ولكنها تبقي رأسها محنيًا، متحاشية النظر إلي، وتبدأ الحديث في صوت ضعيف، أقرب إلى التمتمة.

- لقد قدم لي أبي هذه الربطة في اليوم الأول لتعارفنا. كان عمري سبعة أعوام، حين تعرفت إليه المرة الأولى. كان منزل العائلة الكبير حاشدًا، والحماسة تطغى على الأجواء في ذلك اليوم، لأنَّه سيتم الإفراج عن أبي بعد سنوات من السجن. كنت أعلم أنَّ لدي أبًا، حتى إنّي رسمت له صورة في مخيلتي. لقد أرتني أمي صوره، لكننا لم نذهب لزيارته مطلقًا. مع حلول المساء، وصل أبي. كان أكثر وسامة وهيبة مما تخيلته بكثير. طويل القامة، أسمر البشرة، عيناه السوداوان الواسعتان، يعلوهما حاجبان سميكان، وشاربه الأسود الكث يضفي على وجهه جاذبية ومهابة، وحين يتحدث تظهر غمازتان على وجنتيه. بدا لي كأحد فناني السينما في وسامته. كانت أمي قد ألبستني ثوبًا أحمر، بعد أن حممتني وقلمت أظافري، ومشطت شعري وجمعته بواسطة ربطة حمراء. كنت في غاية الانفعال، وأخيرًا سيظهر شخص يحبني. أخيرًا سيصبح لي شأن في ذلك المنزل. وسأركض لملاقاته مساءً متعلقة بساقيه، وأنا أناديه "بابا" كما يفعل بقية أولاد عمومتي. حين طرق الباب، أسرعت لفتحه، لكنهم لم يسمحوا لي. وضعت بين الحشد الذي تجمع أمام الباب، ثمّ دخل مع أعمامي وبقية المرافقين الذين ذهبوا لاستقباله، وبقيت هناك منسية في مكاني. أخيرًا وحين جلس على الأريكة التي تحتل صدارة الصالون،

تذكرني. فسأله من حوله "أهذه الفتاة هي آلا؟". هو من أطلق عليّ اسمي. في الحقيقة، من اختار لي الاسم كان صديقه الشاعر الذي تعرف إليه في السجن. لكنه لم يرغب في رؤيتي طوال سبع سنوات، لذلك لم يقم أحد بأخذي إليه.

في تلك اللحظة، تستخدم المنديل لأول مرة، لمسح دموعها التي بدأت تنهمر في غزارة، وتواصل حديثها الشجي، بأسلوب غاية في الجمال والإتقان.

- حين التقت عينانا المرة الأولى، شعرت أنَّ تيارًا كهربائيًا يسري في كل جسدي. كنت أرتعد، وكانت عيناه محتقنتين، ولم تكن نظراته تشي بالمحبة، بقدر ما تشي بالفضول وهو يتأملني. أما عيناي فلم يكن فيهما سوى الخوف كعادتي. كنت أخشى ألا يحبني هو أيضًا. في تلك اللحظة، وضع يده في جيبه وأخرج هذه الربطة الحمراء. فقام أحدهم بأخذي إليه على الفور. مسد على رأسي بيده الكبيرة، ووضع في شعري هذه الربطة، وقد آلمني كثيرًا بينما كان يفك عن شعري الربطة الأخرى، لكني لم أبال بالألم وأنا قريبة منه.

تأخذ منديلًا آخر، وتبكي في صمت، وتغرورق عيناي أيضًا. من المحزن حقًا لطفل في ذلك العمر، أن يبحث عن لمسة حنان، حتى وإن كانت مصحوبة بالألم.

تسحب بضعة أنفاس عميقة، وهي تتنهد، قبل أن تواصل سرد قصتها من حيث توقفت.

- كان البيت يعج بالضيوف ذلك اليوم، فالجميع كان هناك. وقد انتهى الدور المخصص لي، واستحوذ بقية أولاد عمومتي على اهتمام الحضور، وبدأ والدي يعطيهم الهدايا التي أحضرها، واحدًا تلو الآخر. وسرعان ما ابتلعني النسيان مجددًا، وأيقنت أنَّ مخاوفي كانت في محلها؛ فهو ايضًا لن يحبني. إنَّه رجل، والرجال يحبون الصبية لا الفتيات. لقد أنجبت أمي قبل ولادتي ثلاثة أولاد، لكنهم ماتوا جميعًا قبل إتمام

الأربعين. كان كل ولد منهم أجمل من شبل أسد، هذا ما كانوا يرددونه. وعندما سُجن أبي، كانت أمي حاملًا في شهرها الثاني. في الحقيقة، لم تكن تعلم أنَّها حامل. كنت أنا في بطنها، قيل لي أنّي كنت كتلة مجعدة أشبه بمسخ دميم، حين ولدت، ولم يهتم بي أحد، متوقعين موتي قبل مضي الأربعين. لكن في حين أنَّ أولئك الأشبال الثلاثة فارقوا الحياة قبل إتمام أربعينهم، تمكنت أنا من البقاء على قيد الحياة. وقد منحوني اسمي بعد أن أصبح عمري أربعة أشهر، حين أدركوا أخيرًا أنهم لن يتخلصوا من هذه المصيبة بسهولة.

- إن لم تحاولي التمسك بالحياة كما فعلت حينها، فستكون مهمتنا شاقة جدًا.

من الصعب تخيل أنَّ مجتمعنا المعاصر لا يزال يعاني من مشكلة التمييز بين الذكور والإناث، هذه المشكلة التي اعتقدنا أنَّنا تركناها خلفنا، مع كل ما ينجم عنها من تداعيات، لكن يبدو أنَّنا مخطئون. ترى في أيّ منطقة لازالت كل هذه الأفكار منتشرة؟ أغلب الظن أنَّ مناطقنا الشرقية تعاني منها حتى الآن.

كم هو أمر مجحف رفض كائن بشري جاء إلى هذا العالم أنثى! لقد سمعنا جميعًا قصصًا من هذا النوع، لكننا لم نواجه جميعًا المشكلة بشكل شخصي. فالفتاة التي تولد في عالم مماثل تعاني الخسارة منذ اللحظة الأولى، فهي بالنسبة إلى من حولها، كائن منقوص، لن يرقى إلى الكمال. ولكن ما الذي ينقصها؟ أهو نقص في قدراتها العقلية أم الجسدية؟ يؤكد لنا العلم، كما تؤكد المجتمعات المتحضرة التي تحظى فيها المرأة بحقوقها، أنَّ جنس الطفل لا علاقة له بقدراته العقلية، والتي تتعلق إضافة إلى العوامل الجينية، بالكثير من الظروف الاجتماعية، والبيئة التي ينشأ فيها الطفل. ولأنَّ معظم مجتمعاتنا محكومة بسلطة الرجل الذي يمثل القوة والسلطة، تصبح حصة المرأة بشكل آلي هي النقيض، فهي تمثل الضعف والتبعية والخضوع. لكن أليس لنا دور نحن معشر النساء فيما نعانيه؟ وهل من عدو أكثر شراسة لنا سوى أنفسنا؟

- لم تكن أمي راغبة في بقائي على قيد الحياة، ولم تحبني يومًا. كما كانت هي منبوذة أيضًا في ذلك المنزل، وكانت تعقد الآمال على إنجاب أبناء ذكور يعززون من مكانتها بعض الشيء، لكنهم ماتوا جميعًا. ولم يبق لها سوى تلك الدميمة الصغيرة. والأدهى أنَّ ألسنة السوء بدأت تطالها، بعد أن أنجبت فتاة دميمة، وزوجها في السجن. فكان الجميع يتساءل: إن كان والداها بهذا الجمال، فكيف لابنتهما أن تكون بهذه الدمامة؟ في الحقيقة، لم يكن هذا السؤال لمجرد دهشتهم من انعدام الشبه بيني وبين والديّ، بل كان في الآن ذاته اتهامًا مبطنًا لأمي بخيانة زوجها القابع في السجن. ومن المؤكد أنَّ هذه الأقاويل بلغت مسامع أبي أيضًا؛ وإلا فما سبب عدم رغبته في رؤية زوجته وابنته طوال تلك السنوات ولو مرة واحدة؟
- أيّ نوع من الرجال كان والدك؟
- كان وسيمًا، مهيب الطلعة، لكنه مقامر وكحولي. عصبي المزاج. وقد سجن بسبب هذه الصفات.
- وماذا كان يعمل؟
- كانت العائلة تمتلك شركة نقل حافلات كبيرة. في الحقيقة، كانت ملكية الشركة تعود لعائلة جدتي لأبي، والتي كانت وحيدة ليس لها إخوة. أما جدي فكان يمارس أعمالًا أقل تواضعًا. لكنه بعد زواجه بجدتي، وبدعم والدها، بدأ العمل في الشركة، وتمكن من جعلها إحدى أكبر شركات المواصلات والنقل في منطقتنا. وعندما أنجبت جدتي ثلاثة ذكور، تلقت المزيد من الدعم والاهتمام من عائلتها. فقد شعر الجميع بالراحة، بعد أن اطمأنوا أنَّ هؤلاء الأبناء الذكور سيحافظون على إرث جدهم وعائلتهم. أكبر الأبناء وهو أبي، ترك المدرسة في سن مبكّرة، وأخذ يعمل مع والده في الشركة. ولكن بمرور الوقت، بدأ إدمانه على الكحول والمقامرة. ومع وفاة جدي المبكرة، انتقلت المسؤولية كلها إلى أبي، فكانت سلطته لا

تحد وكلمته لا ترد. فهو يدير شركة ضخمة يعمل فيها مئات الموظفين، وكان عمله يتطلب منه السفر باستمرار من محافظة إلى أخرى. كما أنَّ المقر الرئيسي للشركة كان في إسطنبول، هناك تعرف إلى أمي. كانا في مقتبل العمر حينها، وأحبها أبي منذ اللحظة الأولى، وعقدا قرانهما سرًا، ثم اصطحبها معه إلى مسقط رأسه. وقد ثارت ثائرة جدتي حينها. لو أنَّك تعرفت إليها، لاستطعت إدراك ما أعنيه بصورة أفضل. كانت امرأة متميّزة لا تشبه بقية النساء، وكانوا يسمونها السلطانة أسما.

- لما؟ أعني لما لقبونها بالسلطانة؟
- لا أعلم. فكل أفراد العائلة، وأيضًا كل معارفها من أهل المدينة كانوا ينادونها بالسلطانة. وقد عملت ما بوسعها لتستحق هذا اللقب. فكانت تعامل كل من في البيت خلا أبنائها، وكأنهم عبيد لها. فلا تجرؤ زوجات أبنائها على القيام بشيء في المنزل دون موافقتها. حتى إعداد الطعام، أو إكرام الضيوف بكأس شاي، كان يتطلب موافقتها ومشورتها. كانت تذهب إلى السوق لشراء ما يحتجن إليه، ونادرًا ما تصطحبهن معها في المناسبات الرسمية، كالأعراس والمآتم.

لقد توقفت عن البكاء، وانتصبت في جلستها قبالة المرآة الدائرية على طاولة الزينة الأثرية المواجهة لها، والتي تحدق إليها بإمعان، وكأنها تشاهد ما ترويه على صفحة تلك المرآة. ترمش أحيانًا حين ينتابها الانفعال، فيما تتحدث بصوت أقرب إلى المواء.

ليتها تواصل البوح بهذه الطلاقة على الدوام، فتفاصيل قصتها، تشتت ذهني عن نبرة صوتها المستفزة، كما أنَّ تحاشيها النظر إليّ أثناء الحديث، لا يجبرني على مبادلتها النظر طوال الوقت، وهو ما يريحني.

- في إحدى المرات، اضطرت السلطانة أسما لأخذ كنائنها معها إلى عرس أحد أقرباء العائلة. كان قريبًا من الدرجة الأولى، لذلك كانت مضطرة لاصطحابهن. فبدأت الكنائن التحضيرات قبل العرس بأيام، دون لفت

انتباهها. فكن يتهامسن في المطبخ طوال الوقت حول تحضيراتهن للمناسبة. وفي يوم العرس، ارتدت كل واحدة منهن كل ما تملك من مصاغ، وأجمل ثوب لديها. ذهبنا جميعًا إلى العرس في هياج وحماسة، خاصة أنَّي كنت سأحضر عرسًا للمرة الأولى. كان أبي قد خرج حديثًا من السجن. الأعراس في مدينتنا ليست مختلطة، لكن السلطانة أسما كانت تعتبر نفسها من الفريق الذكوري. وهكذا تركتنا نتجه إلى حيث اجتمعت النساء، وانضمت هي إلى الرجال. كانت ردهة الحفلة واسعة وصاخبة. النساء يرقصن على أنغام الموسيقى، والأطفال يتراكضون في كل الاتجاهات. أما أنا فقد جلست إلى جوار أمي، وأخذت أراقب هذا الحشد المبتهج في فضول كبير. كان أبناء عمومتي يرتدون أجمل الثياب، وقد ألبسوني أيضًا شيئًا ما، لكن جهودهم معي كانت تذهب عبثًا، فلا يمكن أن أصبح بجمال البقية. وكما في كل مرة، لم يكن هناك من ينافس الأميرة في جمالها وأناقتها.

- - ومن هي الأميرة؟

- ابنة عمي. ابنة الكنة الوسطى. تكبرني بثلاثة أعوام، وكانت فتاة باهرة الجمال.

إذًا، فقد كان لديها ابنة عم جميلة تعيش معها في البيت ذاته، وما من شك أنَّ الخسارة كانت من نصيبها دومًا، حين تقارن نفسها بها.

- كان شعرها الأحمر ينساب حتى أسفل ظهرها، وكانت السلطانة أسما تعاملها معاملة خاصة مختلفة الجميع، وتلبي لها كل ما ترغب فيه، حتى إنّها كانت تمشط لها شعرها كل صباح قبل أن تذهب إلى المدرسة. وفي تلك الليلة، كان ثوبها هو الأجمل. بعد جلوسنا بوقت قصير، اقتربت منا الداعية للرقص.

- ما هي الداعية للرقص؟

- ليس من عادتنا أن ترقص النساء دون دعوة. ففي كل عرس، تدور امرأة عجوز، بيدها عصا طويلة على النساء والفتيات، لتجبرهن على الرقص، رغم أنَّ هذا ينافي الحقيقة تمامًا. فكلهن يتحرقن شوقًا للرقص والتباهي أمام الأخريات بثيابهن وما يرتدينه من حلي ومصاغ. لكن الرقص دون دعوة يعتبر أمرًا معيبًا. وهكذا أجبرت تلك المرأة أمي وزوجات عمي على النهوض للرقص. كانت أمي ترتدي ثوبًا من المخمل الكحلي، وقد رفعت شعرها بطريقة جميلة، ووضعت بعض المكياج على وجهها، وهو أمر نادرًا ما كانت تفعله، وكان جمالها يحبس الأنفاس تلك الليلة. ورغم أنَّ بقية نساء الأسرة قد بذلن كل جهدهن لإبراز مفاتنهن، لكن تلك الجهود كانت دون طائل إزاء جمال أمي الباهر. وفيما نراقبهن أنا والأميرة، شعرت بفخر لا يوصف وأنا أشاهد أمي كالملكة وسط بقية النسوة. كما أنَّ رشاقتها في الرقص وحركاتها البديعة المتقنة أثارت دهشتي. وهي التي لا تكاد تبتسم، وتتصرف بتحفظ مع الجميع. وما إن بدأت بالرقص والدوران، حتى شخصت نحوها كل الأبصار. وبينما أمي وزوجتا عمي يرقصن، جاءت السلطانة أسما من الجانب الآخر، وأخذت تتفرج علينا من النافذة، لتتحقق مما نفعل. وحين رأت مشهد الكنائن الثلاث وهن يرقصن مبتهجات، جن جنونها، وأسرعت لتخبر إبناءها.
- هل لك أن تشرحي لي بالضبط، لـمَ كانت جدتك تجلس في القسم المخصص للرجال؟
- لأنَّها كانت تعتبر نفسها رجلًا، كما أخبرتك، وتستاء من معاملتها بصفتها مثل باقي النساء. كانت تقول بأنّها تركت الأنوثة منذ زمن طويل، وباتت رجلًا.

تبدو شخصية السلطانة أسما غريبة بالفعل، فما أعرفه عن عادات مناطق الأناضول، هو أنَّ التقدم في العمر لا يمنح المرأة الحق في مخالطة الرجال بهذه

الطريقة، مهما كانت سلطتها على أبنائها وأفراد عائلتها كبيرة. إنّها لظاهرة غريبة حقًا أن يُسمح لامرأة بالجلوس في مجلس الرجال، حتى وإن تقدم بها العمر.

- ولمَ استاءت حين رأت كنائنها يرقصن؟
- في الحقيقة، لم يكن الوحيدات. فكل النساء كن يرقصن؛ لكنها استاءت حين رأتهن يقضين وقتًا ممتعًا. كانت تفعل ما بوسعها، كي تسبب لهن التعاسة والأسى. فأسرعت لتحرض أبناءها قائلة: "اذهبوا واضبطوا زوجاتكم، فهن يتمايلن كالراقصات أمام الجميع، يجب وضع حد لهذه الفضيحة". حينها هب الثلاثة معًا، وأرسلوا أحدًا من أهل العريس، ليخبرنا بأنّ أبي وأعمامي بانتظارنا. شعرت أمي والأخريات بالدهشة، وأسرعن بالخروج. سبقنا الرجال بعدة خطوات، فيما نحاول اللحاق بهم عائدين إلى البيت، دون أن يشرح لنا أحد سبب كل هذا الغضب. وما إن وصلنا، حتى تلقت كل كنة من زوجها صفعة مدوية على وجهها، ثم ذهبوا برفقة أمهم إلى العرس مرة أخرى.
- تعنين أنهم أعادوكنّ إلى المنزل، ثم عادوا من جديد إلى العرس؟
- أجل، لقد تركونا في المنزل، فيما رافقت السلطانة أسما الرجال مجددًا. انسحبنا باكيات مع أمهاتنا إلى غرفنا، بينما عادوا هم في وقت متأخر من الليل، بعد أن استمتعوا كما يحلو لهم. كان الرجال يترنحون من فرط الثمالة، والسلطانة أسما منتشية من انتصارها. فقد نجحت مرة أخرى في حبس كنائنها، وإفساد متعتهن. هذا ما كانت عليه الحياة مع جدتي.
- امرأة غريبة حقًا! لقد سمعت بالفعل أن الحماة في مناطق الأناضول لها سلطة كبيرة على أبنائها، ولكن ليس إلى هذا الحد. أكان والدك أيضًا يخشى السلطانة أسما؟
- أجل، كان يخشاها؛ لكنه لا يتورع في الوقت ذاته، عن فعل ما يحلو له. فقد كانت السلطة بيده منذ أن كان فتى صغيرًا، لكن زواجه بأمي واصطحابه لها

للعيش في منزل العائلة. كان بداية الكارثة بالنسبة إليه. وقد بذلت جدتي كل ما بوسعها للتخلص منها، لكنها لم تنجح. كان من الصعب عليها أن تتقبل وجود امرأة قادمة من إسطنبول، لا يعرف لها أصل من فصل، كفرد من عائلتها. لم تحظَ أمي بعرس، رغم أنَّ الجميع كان يتطلع إلى عرس الابن البكر لعائلة من أثرى عائلات المنطقة وأعرقها. بدلًا من ذلك، أقاموا مولدًا متواضعًا في البيت. وبدلًا من ثوب العرس الأبيض، ارتدت أمي قفطانًا يعود للسلطانة؛ لكن جمالها الباهر جعلها تأسر قلب كل من رآها. حتى إنَّ الناس كانوا يأتون أفواجًا إلى بيتنا، من أجل رؤيتها. وقد أهدتها جدتي في ذلك المولد ستة أساور ذهبية مبرومة.

أتذكر أنَّها كانت ترتدي اثنين من هذه الأساور في إحدى زياراتها لي، وربما لا تزالان حول معصمها، لكن أكمامها التي تكاد تمسح بها الأرض، لا تتيح لي فرصة رؤيتها. للمرة الثانية أتساءل عن السبب الذي يدفع فتاة في عمرها لارتداء مثل هذه الأساور.

- يبدو أنَّ جدتك قامت بما يمليه الواجب في النهاية، وإن كانت مرغمة.
- في الحقيقة لم تفعل ذلك؛ لأنَّها حين زوّجت ولديها الآخرين لاحقًا، أقامت لكل واحد منهما عرسًا باذخًا، وأهدت كل عروس ثروة هائلة من الذهب. وكانت أساور أمي بالمقارنة معها، مجرد فضلة هزيلة. حتى إنَّ ثوب عرس كل واحدة منهما أحضر لها خصيصًا من باريس. ولو عاد الأمر لجدتي فما أهدت أمي شيئًا. لكنها اضطرت لتقديم بعض التنازلات، خشية من أبي. كانت أمي تملك خاتمًا ألماسيًا، أهداه لها أبي حين تزوجها في إسطنبول. وكان الفص الماسي كبير الحجم إلى درجة لافتة، فغدا قبلة مطامع الجميع. وقد حاولوا كثيرًا حتى نجحوا أخيرًا في إخفائه.
- وكيف فعلوا ذلك؟
- في أحد الأيام، لم تجد أمي الخاتم في مكانه المعتاد، فبحثت عنه كثيرًا

دون طائل. وقال لها كل أفراد العائلة لدى سؤالها لهم "لابد أنّك نسيتِ أين وضعته"، وتناسى الجميع القصة. لكن أمي كانت واثقة بأنَّ جدتي تقف وراء اخفائه.

- ألم يشترِ لها والدك خاتمًا بديلًا؟
- لم يفعل. ولم تكن تضع سوى خاتم زواج قديم.
- لمَ ذلك؟
- هناك سلسلة طويلة من الأسباب، لا أدري من أين أبدؤها. كما أنَّ هذه القصة قد تدوم ساعات طويلة دون أن تنتهي. هل أنت واثقة برغبتك في الاستماع لها حتى النهاية؟
- واثقة بالطبع. استمري بالسرد، فقصتك تبدو مليئة بالأحداث المثيرة.

لقد استهلكت المناديل التي معها، وانحنت لأخذ دفعة جديدة. تسترعي الزرقة التي تحيط بإبهامها المتورم انتباهي. لم تعد تلفه بتلك الخرق البالية كما في السابق، ولكن ما قصة هذا الإصبع الذي لا يبدو أنه يتماثل للشفاء أبدًا؟ لو أنَّه كان مكسورًا، أليس من المفترض أن يتحسن بعد كل هذه الشهور؟ يشغلني إبهامها كلما رأيته، لكني لم أستطع السؤال عنه حتى الآن. فمجرد سؤالي لها عن طراز ملابسها المرة السابقة، كاد أن يوقف قلبها.

في الحقيقة، لا يستوجب ما حدثتني عنه كل هذا البكاء، لكنها لم تتوقف عن ذرف الدموع منذ بداية الحديث. حتى طريقتها في البكاء غريبة، فلا يمكن ملاحظة بكائها سوى من خلال دموعها المنهمرة في صمت، دون أدنى تنهد أو شهقة، ولا يمكن ملاحظة تغيير على حركة جسدها فيما هي تبكي.

- لا أرغب اليوم في التحدث عن أمي. هل لنا أن نترك ذلك لمرة قادمة؟
- كما تشائين.
- أشعر أنَّ الماضي يسحبني نحوه بشدة. حتى إنّي أفقد معظم الأحيان صلتي بالحاضر، لذا أتجنب التحدث عنه دومًا. فكلما تحدثت عنه،

أغرق في ثناياه أكثر. وفي الوقت ذاته، أرغب في مصارحتك ببعض الأمور، وكأنك إن عرفت حقيقة ما جرى لي، فستمدين لي يدك لتخرجيني من ذلك المكان.

وأخيرًا، ها هي الأخبار الرائعة التي أنتظرها! هذا يعني أنَّها بدأت الوثوق بي، وباتت تزهر في روحها الآمال، وإن كانت لا تزال خيوطًا رقيقة. عليّ أن أتمسك بهذه الفرصة جيدًا، وأتصرف بمنتهى الحذر، وأنا أمد لها يدي التي تنتظرها، لأخرجها من لجة البئر قبل أن تنقطع الحبال.

- صدقيني. هذا ما أرغب فيه من أعماق قلبي، فماضيك الذي يبدو مترعًا بالمآسي، يجعلك أكثر من تستحقين العودة للحياة مجددًا.
- أشكرك. لن أتحدث عن أمي اليوم، لكنني لا أمانع الحديث عن أبي إن شئت.
- حسنًا، لمَ دخل والدك السجن؟
- كان والدي ثملًا كالعادة في ذلك اليوم، حين دخل في شجار مع عدة أشخاص. حدث الأمر في مرأب الحافلات التابع للشركة. ولا أحد يعلم على وجه التحديد سبب الشجار، لكن جدتي ظلت موقنة أنَّ للأمر علاقة بأمي.
- وما علاقتها بذلك؟
- بحسب مزاعم السيدة المسترجلة، فقد نشب الشجار بسبب أمي.
- ومن هي السيدة المسترجلة؟
- ومن ستكون سوى جدتي؟ حين تزوجت أمي بأبي، وذهبت لتقيم مع عائلته، نسج كل شخص في المدينة رواية في خياله عنها، لأنَّ أصلها لم يكن معروفًا. فقد جاءت وحيدة دون أن يرافقها أحد من أفراد أسرتها. وطوال سنوات زواجها، لم يظهر أحد من عائلتها أو أقربائها لزيارتها والاطمئنان عليها. كانت تنتمي إلى عائلة ألبانية، هاجرت منذ سنوات

طويلة إلى تركيا. وقد ادعوا أنَّ سبب الشجار في ذلك اليوم، كان الأقاويل المسيئة عن أمي، والتي رددها البعض أمام أبي. ثارت ثائرة أبي لدى سماعه ما قيل، وأخرج مسدسه، وبدأ يطلق النار عشوائيًا؛ مما تسبب في موت أحدهم وإصابة ثلاثة آخرين. في الحقيقة، عائلة أبي قوية، ولها سلطة نافذة. ولو شاؤوا فما تركوه يومًا واحدًا في السجن. لكنهم لم يفعلوا.

ما الذي تعنيه يا ترى؟ لقد قتل والدها رجلًا، ومن الطبيعي أن يدخل السجن.

- في الحقيقة، لم أفهم ما تعنينه؟
- أعني لو شاءت العائلة، لوجدت من ينسب التهمة إلى نفسه مقابل المال، ويأخذ مكان والدي في السجن. لكنهم لم يرغبوا. فقد كانت القوة والسلطة حتى ذلك الوقت بيده. وهو الأمر الذي لم يرض البعض، وعلى رأسهم جدتي التي كانت تحب السلطة أكثر من أبنائها. وما زاد الأمور سوءًا بالنسبة إليه، أنَّه قرر الزواج على هواه، دون موافقة السلطانة أسما، وأحضر كنة غريبة إلى بيتها. ولا أستبعد أن تكون السيدة المسترجلة، قد سرت من الحادثة بدل حزنها على سجن ابنها. فحين تم إلقاء القبض على أبي بتهمة القتل، استغلت العائلة هذا الوضع، على أفضل ما يكون، وتركته أكثر من سبعة أعوام في السجن. وخلال هذه الفترة، انتقلت السلطة بكاملها إلى جدتي. فقد كان ابناها الآخران ضعيفي الشخصية، مذعنين لها، وكانت السلطانة أسما تتلاعب بهما كدميتين.
- وماذا كان موقف والدك مما حدث؟
- كالعادة، ثار وغضب. لكن طوال مدة سجنه، لم تذهب أمي أو جدتي لزيارته. وبطبيعة الحال، لم يفكر أحد في أخذي إليه ليراني. ورغم أنَّهم أغرقوا السجن بالأموال والهدايا، ليقضي مدة عقوبته في أقصى رفاه ممكن، لكنهم لم يسمحوا له بالخروج. لم يكن أبي غافلًا عما يجري، إلا

أنَّ محاولاته ذهبت هباءً. فقد تذرعوا بشتى الأسباب للمماطلة وللتملص من مطالبه، حتى اضطر أخيرًا إلى الرضوخ للواقع. وبعد خروجه من السجن، نشبت شجارات مريعة في البيت، وكان أبي في كل مرة يقيم الدنيا ولا يقعدها. لكن جدتي واجهته بحزم، ولم تضعف أمامه. فوجد نفسه مرغمًا على تقبل بعض الأشياء في النهاية؛ أي إنَّه استسلم وتصالح مع جدتي. كانت تعامله على الدوام معاملة تختلف عن ولديها الآخرين، وتحاول دومًا إرضائه، وتجلسه دومًا إلى جوارها، فيما تحتل هي صدارة المجلس. لكنه كان قد خسر سلطته السابقة، وخرجت الأمور من يده. والمشكلة أنَّ والدي كان رجلًا فوضويا، كما أنَّ ولعه بالشرب والقمار والنساء كان معروفًا للجميع. فلم يكن من عادته العودة إلى البيت في أوقات محددة، وكان يسهر حتى الفجر ويتسكع على هواه. كما أنَّه سريع الغضب، وحين يغضب يحيل ما حوله إلى خراب. يكره تحمل المسؤولية والالتزام بما لا يوافق هواه. وخلال فترة سجنه، أخذ عمي الأصغر يسافر إلى إسطنبول للإشراف على مقر الشركة، حيث ينتهي من مهمته في غضون أيام قليلة ويعود. على عكس أبي الذي كان يختفي هناك، دون أن يعلم أحد مكانه أو موعد عودته.

يبدو أنَّ لوثة الجنون سمة عائلية، فالأب أيضًا أقرب إلى الجنون منه إلى العقل، وقد فشل في إدارة عمله، وحماية المرأة التي أحضرها من إسطنبول، ومن الواضح أنَّه فشل في حماية ابنته أيضًا.

- ألم يسمحوا لوالدك بالسفر إلى إسطنبول مجددًا؟
- كان يسافر أحيانًا للمتعة. فقد خسر معظم صلاحياته.
- وكيف كانت علاقتك بوالدك لاحقًا؟
- وهل نشأت بيننا علاقة من الأساس؟ قد أخبرتك أنَّ أبي كان يهوى العيش على مزاجه، ولم يتحمل مسؤولية شيء، حتى يتحمل مسؤوليتي.

لم يولني أدنى اهتمام، وتجاهلني بعد لقائنا الأول. لذا لم أستطع مناداته "بابا" رغم رغبتي الشديدة. كنت أعيش مع والديّ وسط عائلة حاشدة، دون أن يكون لي مكان في ذلك المنزل الكبير. وكان أفضل ما يمكنني فعله، هو التواري عن الأنظار، والانزواء أبعد ما يمكن. كنت أنفذ ما يطلب إليّ في صمت قدر المستطاع، وأقضي معظم وقتي في ركن قصي، متحاشية الآخرين. هكذا انقضت معظم سنوات طفولتي، حتى وقوع ذلك الحادث.

- أيّ حادث؟
- هل من الممكن أن نترك الحديث عنه لجلسة أخرى. الآن حان دورك.
- لم كل هذا البكاء يا آلا؟
- في الحقيقة، يجب أن تسأليني لمَ حبست دموعك كل هذه السنوات. أتعلمين أنَّ البكاء أمام الآخرين بالنسبة إليّ خطوة كبيرة، لا أقدم عليها عادة؟ أحيانًا أشعر بأنّ قلبي قد تحجر، وأعجز عن البكاء، وفي أحيان أخرى أكاد لا أحبس دموعي، لكنني لا أبكي أمام الآخرين. كما أنَّ ما أخبرتك به اليوم، لم أشاركه مع أحد سابقًا. فهذه الذكريات أشياء شديدة الخصوصية بالنسبة إليّ. لا أعلم إن كان سبب عجزي عن البوح يكمن في شخصيتي، أم إنَّه نتيجة عدم اهتمام الآخرين. لا أعلم حقًا. كل ما أعلمه أنَّ الماضي نصل حاد، ما إن يتحرك حتى يدمي عيني وروحي. مجرد استحضار تلك اللحظات حتى في صمت، يدفعني للبكاء ساعات، وكأن غازًا سامًا يرافق تلك الذكريات، فتذرف عيناي الدموع رغمًا عني. فكل لحظة من ذلك الماضي مترعة بالألم. على أيّ حال، دعك مني الآن، ولنستمع إليك. هل ستروين لي حكاية البلهاء التي حدثتني عنها في الجلسة السابقة؟
- بالطبع، فقد وعدتك بذلك.

أستجمع شتات أفكاري، وأملأ كأس الماء من الإبريق الزجاجي الموضوع على طاولتي، أشرب كعادتي بتأنٍ، ثم أسترخي في جلستي، مستندة بظهري إلى الكرسي، وأبدأ سرد الحكاية.

- في وقت من أوقات الزمان، كانت هناك قبيلة تدعي زوسا، تعيش في أفريقيا. كانت جدتي عادة ما تبدأ حكاياتها بالقول"*في وقت من أوقات الزمان*"، بدل أن تبدأها بكان يا مكان في قديم الزمان، حينها كنا نعتبر مقدمتها كلمات طبيعية، لكن حين أفكر في الأمر الآن، أتساءل إن كان للزمن وقت.
- لكنها مقدمة تليق بالحكايات.

تتكوم المناديل التي مسحت بها دموعها، كَتلّة بيضاء أمامها. لقد بكت كثيرًا!

عيناها تحدقان إلى وجهي في ثبات، لكن ذلك الألم المريع قد بدأ يتلاشى خلف الفضول الطفولي الذي يظهر على ملامح وجهها، وكأن الحكايات علاج سحري لآلامها. تعدّل جلستها قليلًا، وتضع كلتا يديها تحت وجنتيها، مستعدة للاستماع بكل جوارحها.

- في عام ألف وثمانمئة وستة وخمسين، عاشت قبيلة زوسا القاطنة آنذاك في جنوب أفريقيا سلسلة من الأحداث، يكاد من المحال التصديق أنَّها كانت وقائع حقيقية، وليست أساطير من نسج الخيال. في ذلك العام، كانت المجاعة تضرب القارة السوداء مجددًا، وكانت تعيش في القبيلة شقيقتان، ومن عادتهما كل صباح التوجه إلى الحقول لمطاردة الغربان وإبعادها عن المحصول. وفي إحدى صباحات شهر نيسان، ذهبت الفتاتان لمطاردة الغربان وطردهما من أحد الحقول على ضفاف نهر غارها (Gxarha). فادعت كبرى الشقيقتين بعد عودتها إلى القبيلة، أنَّ الأرواح قد ظهرت لها على ضفاف النهر، بينما كانت تشرب الماء، وكلفتها بإيصال نبوءة إلى أفراد قبيلتها. وتنص هذه النبوءة على أنَّ بعثًا

جديدًا سيتحقق عما قريب، ومقابل ذلك اشترطت الأرواح على القبيلة ذبح كل الأبقار والمواشي التي يملكونها وإتلاف لحومها، وحرق كل المحاصيل، وبعد تحقق النبوءة، سترسل إليهم الأرواح من السماء كل ما يحتاجون إليه من طعام.

- ولكن كيف سيتمكنون من العيش، إن أحرقوا وأتلفوا كل طعامهم؟
- في البداية، لم يصدق أحد الفتاتين، بل سخروا منهما، لكن الشقيقتين واصلتا في إصرار سرد الحكاية ذاتها، في كل مرة تعودان فيها من ضفة النهر. وحين استمر الجميع بتكذيبهما، طلبت الفتاتان إلى عمهما أن يقوم بمرافقتهما بناء على طلب الأرواح. في صباح اليوم التالي، توجه الجميع برفقة الفتاتين والعم إلى ضفة النهر. في البداية، لم يشاهد العم أو يسمع شيئًا، لكن الفتاة الكبرى ظلت مصرة على قصتها، وأخبرته أنَّ الأرواح الآن واقفة إلى جوارهم، وهي تتحدث إليها. بعد قليل، أعلن العم أيضًا أنَّه يسمع أصواتها، وإن لم يتمكن من رؤيتها، وادعى سماع صوت يقول له: "اذبحوا كل مواشيكم، وأحرقوا كل محاصيلكم، ولا تزرعوا الأرض مرة أخرى". رغم أنَّ إحدى أشهر الحكم الإفريقية تقول: "الماشية كالنسب، وإن مات النسب مات العرق".
- كيف صدق العم هذه الحكاية على الرغم من عدم رؤيته الأرواح؟
- لم يكتف بتصديقها، بل بات مؤمنًا بها، ومن فوره ذهب لإيصالها إلى رئيس القبيلة صاريلي.
- يا له من رجل غريب الأطوار!
- معك حق، فقد كان رجلًا غريبًا بالفعل، فقبل هذه الواقعة بفترة وجيزة، قام بتغيير ديانته، معتنقًا الديانة المسيحية، وكان يحلم أن يصبح أعظم أنبياء الدين المسيحي؛ مما يدل على أنَّ قدراته العقلية لم تكن بالتوازن المطلوب. وحين عجز عن بلوغ النبوّة، وجد في هذه الحادثة ضالته

المنشودة، فصحيح أنَّه لم يصبح نبيًا، لكنه غدا رسولًا من الأرواح، مكلفًا بحمل رسالة مصيرية إلى أفراد قبيلته. وليضفي المصداقية على مهمته، قام بذبح مواشيه، وإحراق حقله، ودعا المقربين منه ليحذو حذوه. فبدأ المقربون والجيران واحدًا تلو الآخر بتطبيق تعليماته. ورغم أنَّ زعيم القبيلة لم يصدق الأمر في البداية، واستخف به، لكنه كان يواجه ظروفًا غاية في الصعوبة، ويبحث عن قشة يتمسك بها كغيره. كما أنَّ قصة الفتاتين كانت تنتشر كالنار في الهشيم بين أفراد القبيلة، وتكتسب بمرور الأيام، زخمًا وأحداثًا جديدة.

- ولمَ كان زعيم القبيلة يبحث عن قشة يتمسك بها؟ هل كان يعاني من مشاكل؟

- كانت تلك الأجزاء من أفريقيا تخضع لسيطرة البريطانيين، الذين كانوا يخوضون معارك شرسة مع محاربي قبيلة الزوسا، ويقتلونهم بوحشية، لذا فقد كان زعيم القبيلة صاريلي، يحقد على البريطانيين بشدة، لكنه لم يكن يمتلك القوة الكافية لطردهم من أراضيه. وقبل عام من ظهور هذه النبوءة، قتل أحد أشهر قادة الجيش البريطاني على يد القوات الروسية خلال حرب القرم. حين بلغت هذه الأخبار قبيلة الزوسا، أقاموا احتفالات صاخبة، فقد قتل العديد من أفراد القبيلة بطريقة وحشية على يد هذا القائد البريطاني. وبسبب العداوة القائمة حينها بين الروس والبريطانيين، اعتبر أفراد قبيلة الزوسا أنَّ الروس حلفاء وأصدقاء لهم، حتى وإن كان هؤلاء لم يسمعوا بهم. وكانوا يحلمون أنَّ يأتي اليوم الذي يقوم فيه الروس بالقدوم إلى إفريقيا لتخليصهم من البريطانيين. وهكذا فقد وجدت هذه النبوءة على غرابتها، أرضًا خصبة تحتضنها. كان الأفارقة الذين يتجولون شبه عراة، ويطلون جذعهم العلوي الذي يتركونه عاريًا بالطين الأحمر، يمقتون البريطانيين لرائحتهم النتنة على وجه

الخصوص، حيث الشمس الإفريقية التي تسفح العرق من أجسادهم سيولًا، تحت بدلاتهم العسكرية التي لا يغسلونها أو يبدلونها إلا فيما ندر، تجعلهم كقطيع من الثيران العطنة.

نتيجة لهذه الظروف، اقتنع الزعيم أيضًا بالقصة، أملًا في التخلص من أعدائه. وبمرور الوقت، اتخذت تلك الأرواح التي تخاطب الشقيقتين شكل جنود روس بجلود سمراء، وثياب عسكرية.

- كيف ذلك؟ أهناك روس من ذوي البشرة السوداء؟

أسئلتها بين الحين والآخر تشير إلى خروجها من عوالم قصتها، واندماجها مع قصتي، كما أنَّ ذكاءها الحاد يتجلى من خلال ملاحظتها الدقيقة، خاصة حين تكون هادئة. هذه القصص التي أختارها بعناية، لها فعل المهدئ على نفسيتها، فحتى تعابير وجهها تبدو أكثر استرخاء وهي تستمع إلي. لكني لا أدعي بالطبع نجاحي في كل مرة، فأحيانًا تعجز كل القصص والمحاولات عن السيطرة على غضبها الذي يبرق كالصواعق في عينيها، فتحاول بكل السبل إفراغ غلّها، واستفزاز الآخرين.

- يبدو أنَّ لا شيء يفوتك يا آلا! في الحقيقة، لم يكن أولئك الأشخاص الذين تدعي الفتاتان ظهورهم في ثياب عسكرية، سوى أرواح محاربي القبيلة الذي قتلوا في حروبهم ضد البريطانيين. ومع تحول النبوءة إلى أسطورة، بدأ الشعب يتسلق القمم من أجل رؤية البحر.

- ما الذي كانوا يودون رؤيته في البحر؟

- كانوا ينتظرون وصول الروس القادمين لإنقاذهم. في هذه الأثناء، كان ممثلو السلطة البريطانية في تلك المنطقة عاجزين عن فهم ما يجري، فاعتبروا الأمر تمردًا على سلطة بريطانيا العظمى، وأرسلوا على الفور رسالة تهديد إلى الزعيم صاريلي، أخبروه فيها بأن يوقف هذه الممارسات الغريبة، وإلا فسيتدخل الجيش البريطاني لإيقافها، وسيدفع شعبه ثمنًا باهظًا. كانت هذه الرسالة كافية لإخراج الزعيم الثائر عن طوره، فقرر

مرافقة الفتاتين بنفسه إلى المكان الذي التقتا فيه بالأرواح أول مرة، وعاد ليخبر الجميع بأنّه شاهد روح ابنه المقتول هناك، والذي قدم لوالده الذرة وشراب الجعة. وبدأت الأقاويل تنتشر بسرعة حول عدم تحقق النبوءة، ما لم يتم ذبح كل قطعان الماشية، وإحراق كل المحاصيل وإتلافها. وهكذا انخرط الجميع في هياج محموم، وأخذوا يذبحون ما تبقى من الأبقار والجواميس وكل حيوان يستفيدون منه، ويحرقون المحاصيل التي كانت مصدر غذائهم الأخير.

وحين بلغت الهيستيريا الجماعية أوجها، قام العم بتحديد اليوم الذي ستتحقق فيه النبوءة، وهو نهاية تموز حين اكتمال القمر. ومع اقتراب الموعد، كان الحماس يزداد، وأخيرًا وفي صباح ذلك اليوم، اجتمع كل أفراد القبيلة، وبدؤوا تسلق القمم منتظرين مخلصيهم المجهولين، قادمين من البحر. استمروا في الانتظار حتى المساء، لكن لا أشرعة لاحت في الأفق، ولا هبط أحدٌ من السماء. ورغم خيبة الأمل الكبيرة، لكنهم وجدوا عزاء لذلك، فقد حاولوا تفسير الأمر بعدم كفاية القطعان التي تم ذبحها. وبعد مضي حوالي شهر على هذه الحادثة وفي ظهيرة أحد أيام شهر أغسطس، غطى ضباب كثيف المنطقة، فاعتبرته القبيلة علامة على قرب تحقق النبوءة والخلاص، وانزوى الجميع في بيوتهم منتظرين في حماس كبير ما سيحدث، لكن الضباب تلاشى دون حدوث أيّ خوارق.

- المساكين كانوا ينتظرون يوم الخلاص، لكن خيبة الأمل كانت بانتظارهم.

خيبة الأمل أحد أكثر المشاعر التي تعرفها آلا، فحتى خيبة أمل تعرض لها أناس قبل مئات السنين، تثير حزنها وتعاطفها معهم. لا أعتقد أنَّ أحدًا منا لم يتجرع مرارة الخيبة، لكن إن لم يتمكن المرء من تحقيق أيّ شيء يرومه، وغدت حياته خيبات متلاحقة، فما الذي سيدفعه للتمسك بالحياة؟

- بحسب النبوءة، كانت ستظهر في سماء اليوم الموعود شمسان مرسلتان من الجنة، ستصطدمان معًا، وتندفع الحمم المتفجرة لتحرق كل البريطانيين، وتغرقهم في أعماق البحر. كما سيظهر الشيطان الذي لن يكتفي بالانتقام من البريطانيين وحدهم، بل من كل شخص في القبيلة لم يقم بذبح مواشيه وإتلاف محاصيله رغم كل التحذيرات. وسيغرق العالم في ظلام حتى تظهر شمس جديدة لتضيئه من جديد، ومع إشراقة الشمس سيُبعث الموتى من قبورهم، وستعود الدروع التي صنعت من جلود الثيران المدبوغة، لتدق أهازيج الحياة والنصر من جديد وستعلو أصواتها لتبلغ عنان السماء. حينها سيتحقق اليوم الموعود المنشود، وتظهر قطعان الماشية، وتنمو المحاصيل وتزدهر في كل الحقول، وسيتعافى جميع المرضى، ويتمكن المقعدون من السير مجددًا، وسيبصر الأعمى، ويستعيد المسنون شبابهم، ولن يضطر أحد إلى العمل والكدح. سيختفي الشر، أما الأشرار فمصيرهم الموت غرقًا أو بلدغة أفعى سامة. أليس من الغريب أنَّ أحلام الناس تتشابه في كل مكان وزمان؟
- الغريب أن يكونوا بهذه الحماقة.
- لا أعتقد أنَّها حماقة. وأنا متأكدة أنَّ شعب قبيلة الزوسا، أو سواهم من القبائل الإفريقية، لم يكونوا يعانون من أيّ تخلف عقلي أو نقص في الذكاء، لكنهم كانوا يعانون من الجهل والضعف، كانت أحلامهم تتحطم الواحد تلو الآخر كما ينهار عالمهم دون أن يملكوا القوة لإيقاف الغزاة، فكانوا يبحثون عن بارقة أمل أو طريق للخلاص. وهكذا صُدّرت لهم هذه الأسطورة، كما صُدّرت أسطورة توت عنخ آمون للأوربيين لاحقًا.
- لكن الفرق أنَّ هؤلاء هم من اخترعوا هذه الأسطورة، ولم يصدرها لهم أحد.

- صحيح. لكن الجنون أحيانًا يكون كالوباء، إن استفحل فلا رادع له. وهذا ما حصل مع هؤلاء المساكين، الذين كانت النهاية المأساوية بانتظارهم، فقد أحالتهم المجاعة إلى هياكل عظيمة، وكان الأطفال يتساقطون جوعًا، فيما الأمهات عاجزات عن إيجاد ما يبعد شبح الموت عنهم. وقد بدأ الموت يحصد القطط والكلاب في البداية، والتي احتشدت على جثثها الغربان، ثم بدأ بالأطفال والأمهات وأخيرًا الآباء.

يعتصر الحزن قلبها ألمًا على مصير أولئك الناس، حتى إنَّ عيناها تغيمان مجددًا، لكنها تستجمع شجاعتها، وتسأل في صوت أعلى من المعتاد.

- وماذا عن الفتاتين اللتين أشاعتا هذه القصة، وعمهما المجنون؟ ماذا حدث لهم؟
- لم ينجوا هم أيضًا من الموت، فكما ترين لم تكن القصة دسيسة أو ما شابه. لقد كانت خطأً فادحًا، لكن دون أن يكون هناك طرف مستفيد على حساب الآخرين، وهكذا انطبق عليهم المثل الذي ردده أجدادهم في حكمة طوال قرون: "الماشية كالنسب، وإن مات النسب مات العرق". وما دفعهم للتخلي عن الحكمة كان اليأس وليس سواه. وقد اعتبرت هذه الواقعة "أكبر ظاهرة لقوة الإيمان في التاريخ"، ووصفها البعض بأنّها "انتحار تقليدي جماعي".
- تعنين بالإيمان مجموعة من المعتقدات لدين ما؟
- صحيح. فقد كانت النبوءة قناعة دينية راسخة، آمنوا بها حتى اللحظة الأخيرة.
- أحيانًا يتحول الإيمان إلى تهديد أكثر خطورة من الموت. الإنكار والإيمان الأعمى، كلاهما حماقة.

لقد اعترفت لي في زيارتها الأولى أنها لم تعد تؤمن بالله، ربما إن تبادلنا الحديث حول هذه الأمور، فستتغير قناعاتها. فالسخط على الله، هو سخط المرء على نفسه قبل كل شيء، إنّه تعبير عن يأسه، وعن حزنه العميق وتعاسته.

- السخط على الذات الإلهية يا آلا، هو سخط الإنسان على نفسه، لذا أودّ أن أناقش معك هذه الفكرة يومًا ما.
- حسنًا، ولكن ماذا حدث بعد ذاك؟
- اضطر من تبقى على قيد الحياة من أفراد القبيلة إلى ترك أراضيهم بحثًا عن الطعام، وحين عادوا أخيرًا، وجدوا الأوربيين قد احتلوا أراضيهم. وكانت نتيجة هذا الاعتقاد الجنوني، أن خسر هذا الشعب المسكين معظم أبنائه، إضافة إلى أرضه. حينها أدركوا أنَّ يوم القيامة الحقيقي قد جاء بالفعل، لكن بعد فوات الأوان.
- وهل مات زعميهم أيضًا؟
- لقد اضطر الزعيم المهزوم أن يعيش مع من تبقى من شعبه، تحت سيطرة البريطانيين، على أرض صغيرة قاحلة منحوه إياها على الضفة المقابلة للنهر.
- قصة كوميدية تراجيدية. لا يدري المرء هل يضحك أم يبكي لسماعها. فكيف لإنسان عاقل أن يصدق كل هذه السخافات ويقتنع بها؟
- معك حق، لكن إن كانت الظروف مواتية، فلا مفر من النتائج. الجنون الجماعي أخطر دومًا من الجنون الفردي، فهو وباء قابل للعدوى، ومع زيادة المصابين يطوّر من خصائصه ليغدو أقوى، فكل فرد يضيف إليه شيئًا حتى يأخذ بعد فترة وجيزة شكلًا مغايرًا تمامًا، لكنه مطابق لاحتياجات المجتمع، تمامًا كالطفرات التي تحدث لدى الفيروسات.
- كان الأطفال هم الضحية الأكبر. إنَّ وعي الأبوين هو أمر جوهري بالنسبة إلى الطفل. فأخطاء الكبار تكون دومًا كارثية العواقب على الصغار.

وهكذا ربطت الحكاية بنفسها بطريقة ما، لكنها محقة. فطبيعة الأب والأم ترسم بكل تأكيد الخطوط الرئيسة في حياة الإنسان، فهما من يحددان قدره بطريقة أو بأخرى.

- صحيح، فعقولهم صغيرة تمامًا كأجسادهم، ويعتمدون كليًا على الآباء. فحين قام البالغون من أفراد القبيلة بإتلاف مصادر الغذاء، كان الأطفال الضحية الأولى للجوع، وكان من المحال عليهم إدراك الحقيقة، ومعرفة سبب تركهم عرضة للجوع ثم الموت. ولا أستبعد أنّه لو نجا أحدٌ منهم، لعانى من مشاكل نفسية عميقة، حتى إنَّ الناس كانوا سيتهمونه بالجنون أيضًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- سيكون من المحال إدراك ما مرّ به.
- من الممكن أحيانًا أن نتفهم معاناة الآخر وما مرّ به، حتى إن كان مقتنعًا بأنَّ حقيقة معاناته لا يمكن أن يدركها أحد. وهذا الاعتقاد ما يدفعه لرفض المساعدة، والتهرب من الناس.
- أكان سيهرب هو أيضًا؟
- لا أعلم، ما رأيك أنت؟
- كان سيهرب. وفي الوقت نفسه، سيفعل المستحيل لمنع نفسه من الهرب.

حتى وإن بدا أنَّها ترفض العلاج وتصعب الأمور على طبيبها، لكن ما قالته تعبير صادق عن حقيقتها. فهي تهرب، وتحاول جهدها كي تمنع نفسها من الهرب.

- إذًا، فقد كان سيفعل المستحيل كي لا يهرب. أظنني أفهم ما تعنين.
- أنا أفعل المستحيل كي لا أهرب من هنا. هل تصدقينني؟
- بالطبع، فأنا ألاحظ المجهود الذي تبذلينه، ولكن لن يمر وقت طويل حتى نتمكن معًا من تحقيق ما تعتبرينه الآن مستحيلًا. لذا ما رأيك أن نناقش اليوم مسألة الأدوية أيضًا؟
- أيّ أدوية؟
- لقد رفضت تناول الأدوية التي وصفها لك الأطباء سابقًا. ورغم أنّي تمهلت في اتخاذ هذه الخطوة، لكني أعتقد أنَّه من المستحسن عدم التأجيل أكثر.

- هل أنا مريضة إلى درجة أحتاج فيها إلى الأدوية؟
- سؤال خاطئ. فالطبيب النفسي لا يصف الأدوية للحالات المستعصية فقط، فحتى الاكتئاب الخفيف يتطلب أحيانًا دواء لتجاوزه، تمامًا كما نستعمل مضادات الالتهاب في حالة الزكام. وفي الحقيقة، هدفي الأساسي من الدواء هو حمايتك.
- حمايتي من أيّ شيء؟
- من أمراض أكثر جدية. لا أعتقد أنَّك تعانين من مرض نفسي خطير، لكن مجموعة منها تحوم حولك. سأمنحك حرية ضبط جرعة الدواء، حاولي البدء بتناول جرعات صغيرة وراقبي نفسك، فأنا لا أريده أن يسبب لك النعاس أو التراخي، وبمرور الوقت تستطيعين زيادة الجرعة، كما أنَّنا نلتقي باستمرار، وإن حدثت أيّ مضاعفات، فسنقوم بحل المشكلة على الفور.

تنظر نحوي بتردد، فهي ترغب في تناول الدواء، وتخشى هذه الخطوة في الوقت ذاته. لكني متأكدة من أنَّها ستفعل.

- كما تعلمين، فأنا أعمل حاليًا. وهذه الأدوية.
- لا أريد سماع أدنى اعتراض، كما أنِّي مطلعة على كل ظروف عملك، لذا طلبت إليك أن تحددي الجرعة التي تناسبك. اتفقنا؟
- حسنًا.

بالكاد أسمع صوتها، لكنها ستوافق رغم ترددها، كما أنِّي لم أصف لها سوى دواء واحد.

- لا أظنك تواصلين السماح للرجال بضربك هذه الفترة، صحيح؟
- صحيح. كما أنِّي لا أتواصل مع أحد حاليًا.
- ولمَ ذلك؟
- لأنِّي أخشى أن تقومي أنت بضربي، إن أتيتك كل مرة والكدمات تغطي جسدي.

أضحك من قلبي، لأنَّ خشيتها هذه دليل على تمسكها بالعلاج، وقدرتها على إنهاء أمر تدرك أنَّه يسير على نحو سيّئ في حياتها. لقد عانت هذه الفتاة تجربة مماثلة للجنون الذي أودى بأطفال تلك القبيلة، فهي أيضًا ضحية لما فعله بها والداها، ولكن إدراكها العلة دليل على قابليتها للشفاء، وما هذه الربطة الحمراء التي تجرأت على وضعها، سوى إشارة على بدء قيامتها الداخلية. إنَّها واثقة بعدم تفهم الآخرين معاناتها، ولن أدعي العكس، فإدراك ما يجول في ذهنها، وفك طلاسم لغزها، ليس بالمهمة السهلة على الإطلاق. وأكثر ما أخشاه أن تكون محقة، وأن أخفق في محاولة فهم ما عانته، رغم كل محاولاتي، هذه الخشية التي لا أذكر أنَّني عانيتها مع مرضى آخرين. يعيدني صوتها الطفولي من متاهات الأفكار، فأحاول جهدي التركيز على كل ما تقوله، لعلني أعثر على إشارات جديدة في دروبها المتداخلة.

- أليس لديك حكاية أخرى؟
- بالطبع لدي، فمخزوني من الحكايات لا ينضب.
- وهل هي أيضًا شائقة كهذه الحكاية؟
- إنَّها كذلك، فهي توضح لنا كل ما مر به الإنسان من تجارب ومآسٍ، حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن، كما أنَّها تعيد إلى أذهاننا الأخطاء التي ارتكبها، والتي كان بعضها دون وعي وإدراك، والألم الذي دفعه ثمنًا لها. لن تعثري على هذه التفاصيل الإنسانية في كتب التاريخ، فهي لا تحدثنا عن تجارب الإنسان الفردية، بل عن الأحداث الكبرى التي شارك فيها الناس مجتمعين. لكننا بحاجة حقيقية إلى التعرف إلى هذه التجارب الفردية أيضًا، لنتمكن من فهم أنفسنا والآخرين، بصورة أفضل.
- وهل ستروين لي حكاية الأميرة أيضًا؟
- أترغبين في حكاية عن الأميرات؟
- أجل، فأنا أحب هذه الحكايات كثيرًا.

- سأفعل، ما رأيك بحكاية من حقبة ليست بالبعيدة جدًا؟ الأميرة ثريا أم الأميرة ديانا، أيهما تفضلين؟

يشرق وجهها سرورًا، لكن ما سرّ تعلقها بالأميرات يا ترى؟

- اسم أمي أيضًا ثريا. لقد خسرت هاتان الأميرتان في النهاية.
- هذا ما حصل للأسف، فحكاية كل منهما حزينة جدًا.
- رغم أنَّ الأميرات دائمًا يكسبن، والخاسرات هنّ الإشبينات.
- لِمَ تعتقدين ذلك؟
- لأنَّها الحقيقة.
- ما رأيك أن تروي لي أنت حكاية الأميرة؟
- لا، لن أفعل. لكن الاستماع إلى قصة أميرة حزينة سيكون أكثر تشويقا. هيا ابدئي! أريد أن أسمعها الآن.
- ليس اليوم، فقد انتهى وقتك. وما هذا الأسلوب في الكلام؟ "هيا ابدئي"! عليك التحدث معي باحترام.
- أنا آسفة. لكني حين ذكرتِ الأميرات، نسيت نفسي. أعتذر. متى سترويين لي الحكاية؟
- المرة القادمة.
- حسنًا. من الأفضل أن أغادر الآن.

هل يعود هوسها بقصص الأميرات، إلى ابنة عمها التي حدثتني عنها؟ فقد لقبتها بالأميرة. ربما، فمن الواضح أنَّ العلاقة بين الفتاتين حينها لم تكن على ما يرام. لكن أكثر ما يلفت انتباهي، هو قيامها باستغلال أدنى تساهل من جانبي، لتعود إلى أسلوبها الوقح في الحديث، وإن تُرك الأمر لها، فستفرغ كل جام غضبها عليّ، وهذا سيدمر علاقتنا بطريقة لا يمكن إصلاحها مرة أخرى. تنهض وتنحني باحترام بالغ، وهي تصافح يدي قبل أن تخرج. أراقبها من الخلف، وأتساءل عن سبب دمامتها إلى هذا الحد. ألا يقال إنَّ حظوظ الدميمات، كوجوه الحسناوات؟ فأين هو حظها حتى الآن يا ترى؟

من الواضح أنَّ لديها مشكلة جدية مع السلطة، ففي السابق كانت الجدة السلطانة أسما رمز السلطة بالنسبة إليها، وقد أكسبتني هذا الرمز الآن. وربما يعود اختلال علاقتها بي، وعدم قدرتها على التواصل معي بصورة طبيعية إلى هذا السبب. هذه الجدة قاسية القلب، التي كان من الواضح أنها تعاني مشاكل إزاء هويتها الجندرية، مهووسة بالسلطة، تسعى للتحكم بحياة الجميع، وقد ناصبت آلا ووالدتها عداءً شرسًا، وجعلت آلا تقييم نفسها معظم الأحيان بعينيها هي. ورغم أنَّها تحاول أن توجه عداءها وكرهها القديم للسلطانة أسما، نحوي بطريقة أو أخرى، لكن هذا التداخل في وعيها بين الشخصيات، وعلى عكس المتوقع، سيساعدني على العلاج بصورة كبيرة. فحين أجعلها ترى نفسها بمنظوري الشخصي المغاير تمامًا لمنظور الجدة، ستتخلص رويدًا رويدًا من شعور الدونية المتراكم عبر كل هذه السنوات.

لا زالت تواصل التحدث بجمل متقطعة، لكن معاني جملها مترابطة، بل هي مختزلة في ذكاء حاد. كما أنَّ قوة الأنا لديها رغم ترنحها واضحة، لم تتحطم. إضافة إلى أنَّ آليات الدفاع التي تستخدمها، لم تنزلق حتى الآن إلى مهاوي المرض. ومع تضاؤل احتمال إصابتها بالشيزوفرينيا، فإن بوادر اضطراب الشخصية الحدّية هي التي تتصدر حالتها.

الفصل الثامن

لا شيء يستمر إلى الأبد، لا الحزن ولا الفرح، فالحياة تستمر. في العام الذي فقدنا فيه آيدِن، رزقنا بطفل جديد، كنا نقف أمام باب جناح التوليد في انفعال شديد، ولم يمض وقت طويل، حتى أتت الممرضة وهي تحمل طفلًا رائعًا بشعر أشقر، وعينين بزرقة البحر، ووسامة جده، لتضعه في أحضاننا. كانت فرحة صافية كصفاء عينيه اللتين غمرتا قلوبنا. أنجبت ابني حسنًا بعد مضي عدة أعوام على موت والدي، وقد اختار له آيدِن اسم والدي حتى دون أن يخبرني، وحين قام باستخراج بطاقة حسن الشخصية، قدمها لأمي، فبكت من فرحتها طويلًا. وقد أعاد صهري تولغا ما فعله زوجي، واختار لابنه اسم آيدِن. كانت أمي محقة في بكائها الطويل. إنَّها فرحة مشوبة بالحزن، لكن نكهتها تدوم طويلًا لحسن الحظ. والآن يناديني آيدِن الصغير "جدتي"، وهو لطيف وشقي كجده. اعتدت قضاء عطلات نهاية الأسبوع معهم، وفي الحقيقة لا يمكن لي أو لحسن، البقاء طويلًا دون رؤية زينب وآيدِن الصغير. لقد كبرت زينب بسرعة، وهي مصدر فخرنا بالميداليات التي تحصل عليها في رياضة "الجمباز الإيقاعي"، لكن المسكينة في وضع لا تحسد عليه، فآيدِن الصغير لا يكف عن ملاحقتها طوال الوقت، فهو متعلق بها كثيرًا، ويريدها أن تقضي كل وقتها في اللعب معه.

العمل في مركز ماداليون كعادته لا ينتهي، فمن جهة المرضى، ومن جهة مشاكل المركز ومسؤولياته، ولا يمكنني العودة إلى البيت مساءً قبل الثامنة. وها هو يوم جديد من العمل على وشك الانتهاء. سيدخل آخر المرضى بعد دقائق. أشعر بالإرهاق، فأقف أمام النافذة كعادتي متأملة الظلال المتطاولة للمدينة مع اقتراب الغروب.

وأخيرًا اقترب الصيف، وطالت ساعات النهار، وتحولت سحب الشتاء إلى ندف صغيرة بيضاء تجول على مهلها في السماء، فتحيل أشعة الشمس حوافها إلى اللون الذهبي، الذي يروقني رؤيته، لأنَّه بشارة لصيف طويل ودافئ بات على الأبواب.

لكن هذه اللحظات الهانئة لا تدوم طويلًا، فعلى الهاتف تسألني تونا:

- هل يمكن أن تدخل آلا الآن؟
- حسنًا، فلتدخل.

وقبل أن أستقر في مكاني، تدخل كعادتها محنية الرأس، لتجلس في مكانها بعد مصافحتها الخاطفة. لم تعد ملامسة يدها تسبب لي تلك الرعشة القديمة. في المرة السابقة، استطاعت أن تبوح لي بالكثير عن ماضيها، لكن وجهها اليوم عابس، ترى ما خطبها؟

- أهلًا بك، آلا.
- شكرًا لك، دكتورة.
- ما الأمر؟ لمَ كل هذا العبوس؟
- لا، لست عابسة، لكني مضطربة الذهن قليلًا.
- هل بدأت أخذ الدواء؟
- هم هم. لكن بمقدار ضئيل جدًا. ربع حبة قبل النوم.
- ألديك شكوى من الدواء؟
- لا شيء حتى الآن.
- إذًا، باشري بأخذ نصف حبة منذ اليوم.
- حسنًا.

من الواضح أنَّها مبرمجة على وضعية الصمت اليوم، وعليّ التحري بسرية المحقق مجددًا حول ما يشغل بالها. تنتابني دفقة من الحنان تجاهها، ورغبة في معاملتها بلطف ورقة أكبر، لعل ذلك يساعدها على التحسن.

- لقد حدثتني المرة الماضية عن المنزل الذي نشأت فيه بطريقة رائعة، حتى إنَّي تخيّلت تفاصيله، بل شعرت بأنَّي عشت فيه.
- المنزل؟
- أجل، تخيلته بيتًا واسعًا مؤلفًا من طابق واحد، بحديقة رحبة.
- لم يكن كذلك. كان بيتًا كبيرًا من طابقين، ولكنك محقة، فقد كانت له حديقة تحيط به من الجوانب الأربعة. وفي الحديقة الخلفية فسقية واسعة، نافورتها لا تتوقف عن ضخ الماء في خيوط رفيعة تتدفق في شلالات. ولسبب أجهله، كنت أحب صوتها الرتيب كصوت التبول على أرض رخامية. كنت أجلس عادة في المطبخ الذي يطل بابه الخلفي على الحديقة. قرب النافذة، كانت هناك أريكة وثيرة، أتكوم عليها حين يكون المكان خاليًا، وأستند برأسي إلى النافذة وأستمع إلى صوت المياه المتدفقة. كانت لحظات متعتي الوحيدة في ذلك البيت. لم يكن المطبخ يبقى خاليًا لوقت طويل في العادة. الخادمات، وزوجتا عمي، والأطفال، كانوا يأتون ويخرجون طوال الوقت. ولأنّه كان واسعًا جدًا، فقد كان يستخدم كغرفة جلوس أيضًا. وتظل المواقد مشتعلة حتى المساء؛ فإطعام كل أولئك الأشخاص والضيوف الذين لا تنتهي زياراتهم، لم يكن بالمهمة السهلة. لذا كانت طبقة رقيقة من البخار تغطي النوافذ دومًا، خاصة في أيام الشتاء. وحين يكون المكان خاليًا، كنت أرسم بأصابعي على ذلك الزجاج.
- ما الذي كنت ترسمينه؟
- كنت أرسم فتيات جميلات. فتيات لهن بشرة بيضاء مشرقة، وأنف صغير، وعينان واسعتان. لكني أفعل ذلك، والرعب يشلني. رعب من أن يمسك بي أحد، ويكتشف ما أفعل.

للجمال أهمية بالغة في حياة هذه الفتاة، فعلى خلاف جمال والدتها الباهر، جاءت هي إلى هذا العالم، بوجه لا تبدو عليه آثار الجمال. عادة ما تتخذ الفتاة

اعتبارًا من لحظة ولادتها، أمها نموذجًا لتقتدي به، ومع العمر تتسلل المنافسة إلى هذه العلاقة، وإن بشكل غير ملموس، وترغب الفتاة التي تغدو شابة، أن تكون المنتصرة في هذه المنافسة، لتدخل الحياة الخارجية، من بوابة الثقة بالنفس. لكن الأمور في حالة آلا كانت في غاية المأساوية، فالأم التي اتخذتها نموذجًا، هي امرأة قاسية وغريبة، وهي غريبة بقدر ما هي جميلة أيضًا. وعلى عكس الدور المنوط بالأم، فقد نبذتها، بل عاملتها كعدوة.

أذكر أنَّي أيضًا كنت أحب الرسم على الزجاج المغطّى بالبخار في طفولتي، دون خشية الإمساك بي، بل كنت أستمتع بخلق عالم جميل من الأحلام، لا يتخلله الخوف. لكن هذه الفتاة التعسة، كانت تعاني الرعب حتى وهي تجسد أحلامها على البخار.

- ممّ كنت تخشين؟
- كان كل ما أقوم به في ذلك المنزل ذنبًا. بقية أبناء عمومتي كانوا أبناء العائلة، ولا أحد يسخط عليهم، ولا تقابل أخطاؤهم بقسوة على الإطلاق. لكن الأمور كانت مغايرة تمامًا بالنسبة إلي؛ فحتى الخدم كان يحق لهم معاقبتي وزجري. فكانوا يجرونني من ذراعي، ويرمون بي خارجًا، دون أن يكلف أحد نفسه عناء السؤال عن السبب، بل كان يرددون في سخط: ما الذي فعلته هذه الفتاة التعسة مجددًا؟ رغم أنَّ ما أتذكره عن طفولتي هو أنَّي كنت هادئة جدًا، لكنه لم يكن هدوءًا طبيعيًا، بل ذعرًا. فقد كنت فتاة منبوذة دائمة الخوف والخجل. أحيانًا كان الصبيان يحطمون شيئًا ما خلال لعبهم، ثم ينظرون إلى عيني بكل جرأة، ويرفعون أصابع الاتهام نحوي. فكنت أكتفي بالبكاء كعادتي، فتثبت التهمة عليّ أكثر وهم يقولون: "إنَّها تبكي لتنجو بفعلتها". لم يكن لدي أم تحميني، وتدافع عني كبقية الأطفال.

هذا هو جوهر المشكلة، لقد كبرت دون حماية. ولكن ما سبب رفض والدتها لها؟ لا أحد أكثر شقاءً في هذا العالم من طفل منبوذ، ففيما بقية المخلوقات تتمتع

ببنية تمكنها بطريقة أو بأخرى من الوقوف على قدميها بعد فترة وجيزة من قدومها إلى هذا العالم، فإنَّ الأمر مختلف مع صغار البشر، الذين لن يتمكنوا من العيش دون الرعاية اللازمة، وإن عاشوا نتيجة مصادفة ما، فهذا ما ستكون عليه النتيجة.

الأم التي تنجبنا، هي قدرنا الحقيقي في هذا العالم.

- ألم تلعبي في تلك الحديقة؟
- لو سمحوا لي لكنت سأفعل، لكنهم لم يسمحوا لي قط. كان الصبية يلعبون في الحديقة، بينما الأميرة تلعب بدماها. كنت أحصل على دماها القديمة، التي ملت من اللعب بها، لكنني كنت أرفض حتى لمس تلك الدمى. فتعلق زوجتا عمي على الأمر قائلتين: إنني لست طفلة طبيعية. فهل هناك فتاة ترفض اللعب بالدمى؟ ربما لم أكن أعرف كيف ألعب! كيف يتعلم الأطفال اللعب؟
- كيف يتعلمون اللعب؟ في الحقيقة، لم يسبق لأحد أن طرح عليّ هذا السؤال من قبل. لكن اللعب حاجة غريزية، ويمكن اعتباره مرحلة تمهيدية للحياة الواقعية. فللعب دور رئيسي في حياة الطفل. أحقًا لم تلعبي مطلقًا، وأنت طفلة؟
- لم أفعل. فلم أكن أتمتع بهذه الرفاهية في ذلك البيت، حتى في المدرسة لم أكن كبقية الأطفال. لذا كانوا يرفضون مرافقتي، كانوا يركضون ويلعبون ويضحكون. أما أنا فلم أكن أتقن أيًّا من هذه الأشياء. كنت أراقبهم في حسد وانبهار، وكأني من كوكب آخر. كما كنت عاجزة عن الكلام والتعبير عن نفسي؛ لأنّ أحدًا لم يكن يكلمني في ذلك البيت. لقد تعلمت الكلام ليس من الممارسة، بل من الاستماع إلى الآخرين. لذا لا أعرف كيف أتحدث بصورة طبيعية كالبقية.

من الصعب تصديق كل ما مرت به، ففي ذلك المنزل الكبير الحاشد، لم يكلف أحد نفسه عناء التحدث إلى هذه الفتاة. هذا هو سر جملها المتقطعة،

والوقفات المفاجئة في حديثها، وكأنها تتعلم اللغة حديثًا. ولكن ماذا عن المدرسة؟ ألم يتحدث المعلمون أيضًا معها؟

- وماذا عن أبناء عمومتك؟ ألم تتحدثي معهم أيضًا؟
- لم أفعل. لم يكونوا يقتربون مني. كانوا يهربون مني، وكأني مصابة بالجذام. هذا ما كان الجميع يفعله، ليس الأطفال وحدهم.
- وكيف كنت تجيبين عن أسئلة معلميك في المدرسة؟
- كنت أمقت القراءة بشدة. فما إن أبدأ الكلام، حتى يضحك الصف كله. كنت أتأتئ ببعض الأحرف، قبل أن أصمت، وأعجز عن الردّ، حتى لو عرفت الجواب. وحين أدرك المعلمون ذلك، لم يعودوا يطلبون إليّ القراءة إلا فيما ندر. ورغم كل ذلك، فما كنت أعرفه لم يكن أحد من زملائي يعرفه. كنت أحصل على أعلى الدرجات في الاختبارات الكتابية، لكن ذلك لم يمنحني محبة المعلمين.
- وكيف أدركت أنَّهم لا يحبونك؟
- كان الأمر واضحًا. كانوا يتجنبونني، ولا يتحدثون إليّ إلا فيما ندر، ويتجاهلون وجودي كما يفعل البقية. لا ألومهم، فلو كنت مكانهم، لتحاشيت أنا أيضًا الاقتراب من فتاة دميمة ومقيتة مثلي.

يلفني حزن عميق، ليتها لم تكن بكل هذا الذكاء، والإحساس المرهف.

- وكيف قوبل تفوقك الدراسي في البيت؟
- أخذ الجميع يقول: وحده الله يعلم إن كانت مجنونة أم عاقلة. حينها حتى أنا لم أكن أعلم على وجه التحديد، إن كنت مجنونة أم عاقلة.
- وهل تعلمين الآن؟
- أعلم. فأنا لم أجنّ حتى الآن، لكنني لا أعلم ما سأكونه غدًا. ما رأيك أنت؟

أتلقى سؤالها كلكمة مباغتة، وأتساءل في ذهول: ترى ما هو رأيي الحقيقي؟

- ليست لديّ إجابة محددة عن هذا السؤال حاليًا، فأنا لم أتعرف إليك بما يكفي.
- أتعلمين؟ إنَّها إجابة موفقة، على الأقل صريحة. لكنني أرغب في طرح هذا السؤال عليك لاحقًا: هل سيكون جوابك بهذا القدر من الصراحة، حين تتعرفين إليّ بما يكفي؟
- بالطبع، كوني واثقة من هذه الناحية. لنعد الآن إلى ذكرياتك عن ذلك البيت.
- كان بيتًا واسعًا. يتكون الطابق الأرضي من صالون هائل الحجم، ومطبخ واسع جدًا وحمام كبير، وغرفة نوم لم يكن أحد يستعملها كثيرًا. أما الطابق العلوي ففيه الكثير من الغرف، ولكل غرفة حمامها الصغير الخاص. وكانت بعض تلك الغرف تخصص للضيوف الذين يبقون للمبيت عندنا، فقد كنا نستقبل الكثير منهم عادة. كما كانت غرفنا جميعًا في ذلك الطابق. فأولى الغرف المقابلة للدرج النازل إلى الطابق الأرضي، وأجملها هي للسلطانة أسما. ثم يليها بالترتيب غرف كنائنها. كانت غرفتنا هي الأخيرة، وتطل على الحديقة الخلفية، وكانت معتمة نوعًا ما. لكن أمي لم تكن تسمح لي بالنوم إلى جوارها، حتى خلال فترة سجن أبي. كنت أنام على الأريكة المخملية الصغيرة، الموضوعة في الزاوية. في الحقيقة، كنت أمقت النوم مع أمي في الغرفة ذاتها. لذا غالبًا ما كنت أنام على أريكة المطبخ، أو على الأريكة الوثيرة التي في الصالون، والتي كانت السلطانة أسما تقضي عليها ساعات القيلولة. وكانوا يزجرونني عادة حين يمرون بي نائمة هناك قائلين: "ألا تعرف هذه الشقية أين يجب عليها أن تنام؟".

أستمع إلى حكايتها في صمت، دون أدنى تعليق أو إيماءة. فيما تواصل السرد وهي تحدق إلى المرآة أمامها، وكأنها تشاهد تلك الذكريات على شاشة تلفاز.

- كـان بيتنـا بـاردًا في الشـتاء، تعجـز التدفئـة عـن كسـر برودتـه. في صـدارة الصالون، وإلى جوار طقم الأرائك المخصـص للضيـوف، كانـت أريكـة جـدتي الـوثيرة التـي تجلـس عليهـا، وبـالقرب مـن البـاب طاولـة الطعـام الضخمة. رغم أنَّ الصالون كان هائل الحجم، لكنه يظل مكتظًا بالضيوف دومًا، حتى يكاد المرء لا يجد متسعًا للجلوس. في أوقـات كتلـك، كانـت صدارة المجلس للسلطانة أسما. كانت تبرع في إلقاء الأوامر على كنائنها بحركة من طـرف عينهـا، أو إيمـاءة مـن رأسـها، وكـن يتحـركن على وقـع أوامرها في الأرجاء بخفة ورشاقة كالفراشات. كنا نقيم الـولائم للضيـوف باستمرار. حينها تستقدم العائلة طباخين لهذا الغرض، فتظل القدور على المواقد حتى المساء. كانت زوجتا عمي تتذمران بسرعة، وتشـتكيان مـن عبء العمل. كانتا مدللتين. لكن أمي لم تكن تتعب، فما إن تبدأ العمل لا تتوقف مطلقًا، وكأنّ طاقتها كانت تتجدد مع زيادة التعـب. وهـذا مـا يثير حفيظة زوجتي عمي، فكانتا تتآمران عليها، وتكيدان لها باستمرار.

تنساب الكلمات من فمها في سلاسة، على عكس ما بدا لي حين رأيتها تـدخل الغرفة مغمومة، وتخوفت من إحدى نوبات صمتها العنيدة.

- بعـد رفـع الأطبـاق عـن المائـدة وتنظيفهـا، كانـت تغطـى مجـددًا بمـلاءة الدانتيل البيضاء التي طرزتها أمي. كانت عادة ما تغسل تلك المـلاءة على يدها مرة في الشهر، ثم تعلقها لتنشـف، وأخيـرًا تقضـي سـاعات طويلـة في كيّهـا. كانـت مـلاءة بديعـة. وعـادة مـا كـان ضـيوفنا يتفحصـونها بـتمعن، منبهـرين بجمـال نقوشـها. وعنـدما كـان الصـبية يكتبـون وظـائفهم علـى الطاولة، تُغطى الملاءة بغطـاء مـن النـايلون، كـي لا تتسـخ. كمـا أنَّ سـتائر الصالون أيضًا كانت مطرّزة على يد الكنائن، لكن زوجتي عميّ لـم تكونـا ببراعة أمي، وكان من السهل تمييز نقوش أمي عما سـواها. كانتـا تشـعران بـالغيرة، وتحـاولان تعلـم نقـوش جديـدة مـن الجـارات، لكـن المهـارة لا

علاقة لها بالشكل. رغم ذلك، لم تمتدح جدتي ولو بكلمة صغيرة مهارة أمي.

لا أرغب في إيقاظها من هذا الحلم الذي استغرقت في تفاصيله، والذي ترويه لي بأسلوب غاية في العذوبة والجمال. مستندة بمرفقي إلى الطاولة، ويداي تحت ذقني، أواصل الإنصات لحكايتها مستمتعة.

- كانت أمي تستيقظ باكرًا، وتبدأ بتحضير الفطور، حتى قبل وصول الخالة أمينة والخالة هاجر. كانتا تقومان بغسل الثياب والسجاد، وتنظيف البيت ومسح النوافذ، لكن جدتي كانت تطالب كنائنها بخدمتها وليس الخادمات، وخاصة أمي، لأنَّها كانت ماهرة وتتقن القيام بكل ما تطلبه إليها. لكن كل ما تقوم به، كان يذهب هباءً. فحتى لو أوقدت أصابعها العشرة شموعًا لجدتي، لم تكن تسمع منها كلمة شكر. وكأن الأخريات بناتها، وأمي ابنة الضرة. وقد نلت نصيبي من هذه العلاقة؛ لأنَّي كنت ابنة كنتها المنبوذة، وفوق ذلك فتاة ولست صبيًا. لقد أنجبت أمي ثلاثة صبيان، لكنهم ماتوا صغارًا. أما تلك الفتاة الدميمة القميئة، فقد عاشت. كانت جدتي تلقبني بالمنحوسة؛ فقد دخل والدي السجن، حين كانت أمي حاملًا بي. لذا كانت تلقي باللائمة علي، وتقول إنّي فأل سيئ على أبي. ربما لهذا السبب لم يكن أبي يحبني، ولأي شيء قد يحبني المرء؟ أما بقية الأحفاد فقد كانوا ينعمون بالدلال، خاصة الأميرة، فقد كانت معشوقة الجميع. فجدتي كانت تمشط لها شعرها بيديها كل صباح، قبل أن تذهب إلى المدرسة. كانت أمي تملأ طاسة الحمام، وتحضرها، وتغمس جدتي المشط في الماء بين الفينة والأخرى، وتمشط في أناة، شعرها الطويل الأحمر، ثم تجدله في جديلتين بكل عناية، وتعقد طرف كل جديلة بيكلة بيضاء.

- ومن كان يمشط لك شعرك؟

- لا أحد. فقد كانوا يقصون شعري دومًا، فكنت أصفه بأصابعي، دون حاجة إلى تمشيطه. كنا نخرج معًا من البيت، فتاتان وصبيان. كانت جدتي تمسك بيد الأميرة، وأنا في المؤخرة أحاول اللحاق بهم.
- أكانت جدتك تأخذكم إلى المدرسة؟
- بالطبع. وهي من تأتي لاصطحابنا خلال العودة؛ فالكنائن لا يحق لهن الخروج من البيت. وكانت هي من تتسوق، وتقرر ما سيتم طبخه كل يوم. ولم تكن كنائنها يجرؤن على التحرك دون إشارة منها. كانت تحب حساء السكالي[1]، فتأمر بتحضيره كل يوم على مائدة الطعام. كانت لها روح ديكتاتور. تحاول طوال الوقت الاستحواذ على انتباه أبنائها للاهتمام بها بدلًا من أن يهتموا بزوجاتهم. ولا تتوانى عن اتباع كل الحيل للوصول إلى غايتها.
- ماذا كانت تفعل مثلًا؟
- كانت تدعي المرض أحيانًا، فتمتنع عن تناول العشاء، وهي تتأوه وتشتكي. فيهرع أبناؤها الثلاثة ليجتمعوا حولها في قلق، ويحاول كل واحد منهم إرضاءها وتلبية كل طلباتها. ويستدعون الطبيب على الفور، فيجري لها فحصًا دقيقًا، لكن حين يخلد الجميع إلى النوم، كانت تنزل خلسة إلى المطبخ، وتأكل حتى التخمة.

إنَّ جرأتها تبلغ حد الوقاحة، فكيف استطاعت أن تكذب بهذه الصورة، أمام كل أولئك النسوة، دون أن تبالي بمعرفتهم الحقيقة؟ وكيف استطاعت كنائنها تحمل كل هذه الألاعيب يا ترى؟ أشعر أنني جالسة مع صديقة نتبادل حديثًا عائليًا، فيما تواصل قصتها بأسلوبها العذب، وأنا أستمع في فضول متشوقة لمعرفة المزيد.

- وكيف كنت تعرفين أنَّها تدعي المرض؟
- لأنَّها كانت توقظ أمي، بعد أن ينام الجميع.

---

(1) حساء مكون من العدس وصلصة الطماطم ونوع من المعكرونة. م.المترجم -

- كان والدك في السجن حينها؟
- كانت تفعل ذلك حين كان في السجن، وحتى بعد خروجه. فكانت أمي تنهض في صمت، وتعدّ لها الطعام.
- ألم تكن والدتك تخبر الآخرين بالحقيقة؟
- لم تكن تفعل. كما أنَّ الأخريات كنّ يعلمن أنَّها تكذب. كن يعرفن، ولكن لا يجرؤن على إخبار أزواجهن. وقد استمرت بهذه الألاعيب حتى بعد خروج والدي من السجن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أيّ نوع من النساء كانت أمك؟
- من الصعب وصف شخصيتها. كانت مختلفة عن الآخرين، وكان الجميع يشبهونها بتوركان شوراي[1].
- أكانت تشبهها حقًا؟
- أجل، كان قوامها وكل ما فيها باهرًا بصوة استثنائية. كانت لا تهتم بنفسها، ولا تتكلم ما لم تُسأل. تعمل حتى المساء كواحدة من الخادمات، وتقضي معظم وقتها في خدمة السلطانة أسما، وكأن كل غايتها أن تنال رضا جدتي، وتحظى بقبولها، رغم أنَّ السلطانة كانت تعلن مرارًا وتكرارًا أمام الجميع، أنَّها لن ترضى عن ثريا، ولو أحضرت لها لبن العصفور. وكانت أمي تدرك هذه الحقيقة، لكنها تواصل خدمتها في عناد، لكن زوجتي عميّ لم تكونا كذلك.

أيّ نوع من الاختلال النفسي كانت تعانيه الأم يا ترى؟ أهو الاكتئاب؟ فكيف لامرأة بكل هذا الجمال، وقد أصبحت كنة لواحدة من أغنى العائلات، أن تعمل كخادمة طوال اليوم، لتحظى برضا امرأة متسلطة لا تتورع عن إهانتها وإلحاق الأذى بها؟ إنَّها مزيج نفسي غريب، لكن هناك الكثير مما لا أعرفه بعد في هذه القصة.

---

(1) توركان شوراي واحدة من أجمل ممثلات السينما التركية، في منتصف القرن المنصرم. م.المترجم -

- وكيف كانت زوجتا عميك؟
- لم تكن السلطانة أسما تعامل الكنة الشقراء والدة الأميرة بهذه الطريقة؛ لأنَّ عائلتها كانت غنية وذات سلطة، وهي من اختارتها بنفسها. فحين تزوج أبي، وأحضر أمي معه إلى البيت، قامت على الفور بتزويج ابنها الأوسط بالشقراء. كانت عيناها غائرتين، يغطي النمش وجهها، بلهاء الملامح، دميمة، ولكنها غنية. اعتاد أفراد عائلتها وأقاربها زيارتنا باستمرار. وفي كل زيارة يحضرون معهم الكثير من الهدايا القيّمة للجميع، وعلى رأسهم السلطانة أسما. ولأنَّ الأميرة أولى حفيدات أسرة أمها، فقد كانت محبوبة الجميع. وبعد فترة قصيرة قامت جدتي بتزوج ابنها الأصغر أيضًا. ولأنها اكتوت بطلبات الكنة الوسطى وتكبرها، فقد تعمدت هذه المرة اختيار ابنة أفقر عائلة في قريتها، لكنها كانت جميلة جدًا. كانت زوجة عمي الصغرى أطيب من في ذلك البيت قلبًا. كانت قصيرة القوام، متناسقة الملامح، لها أنف صغير، ووجه مدور، وبشرة وردية مشرقة. ولأنها كانت من عائلة فقيرة جدًا، فقد كان كل شيء في بيت زوجها جديدًا ومثيرًا بالنسبة إليها. كانت نحيلة القوام حين تزوجت، لكن شراهتها التي لا تنتهي، حولتها إلى كتلة من الشحوم. وبسبب قصر قامتها، فقد تكورت تمامًا. كانت تقضي معظم وقتها في المطبخ، وتأكل كل ما يمكن أن يؤكل. وكانت السلطانة أسما تستشيط غضبًا، وهي ترى فمها مليئًا دومًا بشيء ما، فتزجرها بشدة وتهينها. لكن زوجة عمي لم تكن تبالي بكل ذلك، بل تكتفي بوشوشة سرية هنا وهناك مع زوجة عمي الشقراء، في نميمة على السلطانة أسما. وكانتا ترغبان في أن تنضم أمي أيضًا إليهما، وتشارك في النميمة والوشاية، لكن أمي لم تكن تفعل، بل تبقي نفسها بعيدة عن الجميع. لذا كانتا تحقدان عليها، وتضيفانها إلى قائمة المشمولات بالنميمة والتآمر، وكانتا تقولان عنها: "تتكبر علينا، وتتذلل للعجوز كالخادمة" مكتبة .. سُر مَن قرأ

- هل كانت أمك متكبرة حقًا؟
- لا، لم تكن كذلك مطلقًا. رغم أنَّ هذا ما كان الجميع يعتقده، لكنها كانت لا تحب نفسها. في الحقيقة، كانت أمي لا تحب أحدًا، لا نفسها ولا الآخرين.

لا تبدو هذه أعراض اكتئاب، بل تشي بمشكلة نفسية أكثر خطورة.

- حتى أنت؟
- لا، لم تكن تحبني. حتى إنَّها لم تكن تحب أبي أيضًا. الشخص الوحيد الذي كان يهمها هي السلطانة أسما. ولست أعلم على وجه التحديد، إن كانت تفعل ذلك محبة أم خشية.
- ألم تكن تهتم بك؟
- مطلقًا. فهي لم تكن تحتضنني أو تقبلني أو حتى تقترب مني. كانت زوجتا عمي تهتمان طوال الوقت بأبنائهما، وتفرطان في تدليلهم. حتى إنَّ السلطانة أسما كانت تنهرهما قائلة: "توقفوا عن إفساد هؤلاء الأطفال". زوجة عمي الصغرى هي الوحيدة التي كانت تبدي نحوي بعض الاهتمام، وتحدثني أحيانًا ونحن في المطبخ. أما والدة الأميرة، فكانت لا تطيق رؤيتي، وتلقبني برأس العفريتة. حتى إنَّها كانت توبخ زوجة عمي الصغرى، وتقول لها ما الذي تحبينه في رأس العفريتة هذه؟
- وكيف كانت علاقتك بأبناء عمومتك؟
- كان للصبيين عالمهما الخاص، أحدهما كان أكبر مني بعام، والآخر يصغرني بعام. وكانا بين الحين والآخر يمسكان بي في ركن قصي بعيدًا عن الأعين، وينزعان عني ثيابي الداخلية، ثم يسخران ضاحكين: "انظر ليس لديها شيء هناك". في البداية، ظننت أنَّ الآخرين يكرهونني لأنَّي لا أملك عضوًا كالأولاد، وقد شعرت بحزن عميق. لكني اكتشفت في أحد الأيام أنَّ الأميرة أيضًا مثلي، ليس لديها عضو. حينها اختلطت الأمور في

ذهني بصورة رهيبة. كانت الأميرة تعتبر الجميع أدنى مرتبة منها، وتتجاهل وجودي معظم الأحيان، إلا حين تأمرني بتنفيذ أحد طلباتها. كانت مدركة كم يجرحني ذلك، فتستهزئ بي وهي ترمقني بابتسامة لئيمة. كانت غبية. ورغم أنَّ المعلمين كانوا يأتون إلى المنزل لتدريسها وكتابة وظائفها، لكنها لم تحصل على درجات جيدة في المدرسة. كانت تتقدمني بثلاث سنوات دراسة، لكنها تجبرني أحيانًا على كتابة وظائفها. لم تساعد الآخرين قط على أعمال البيت، بل اعتادت أن تدعي المرض على الدوام، لتجعلهم يقدمون لها الفطور في السرير. حتى إنَّها كانت تأمرني أن أعقد لها أربطة حذائها، بحجة أنَّها تعاني الدوار، ولا تستطيع الانحناء. تقضي معظم وقتها أمام التلفاز، وتعرف عن حياة الفنانين والمشاهير أكثر مما تعرف عن دروسها. كانت مهووسة بالثياب والأناقة، وتحصل على أجمل وأغلى الثياب دومًا. كما كانت تحب الرسم بالألوان المائية، لكنها تهدر عشرات الأوراق واللوحات، وتلطخ المكان كله. وفي المدرسة كان كل الفتيان يلاحقونها. كانت مهووسة بلفت الانتباه. تتلفت حولها في غرور، ولا تطيق أن ترى أحدًا أجمل منها، وغالبًا ما كان الفتية يتقاتلون فيما بينهم من أجلها. فتغمرها نشوة عارمة.

- وما كان رأي جدتك؟

- لم تكن تعلم بكل هذه التفاصيل، لكنها كانت تنظر إلى الأميرة بإعجاب كبير، وتشعر بالرضا حين ترى الكل معجبًا بها، وكانت تردد دومًا: ستصبح شابة حسناء عما قريب، ولن تستطيع حتى ثريًا منافستها.

كانت الفتاة الجميلة تحظى باهتمام الجميع ومحبتهم، فيما آلا منسية ومهملة. لقد تعلمت الهزيمة والنبذ منذ أن بدأت تعي الحياة من حولها.

- إذًا، فقد كان جمال والدتك مضربًا للمثل.

- أجل، فقد أخبرتك سابقًا. حين أحضرها أبي إلى بيت العائلة، بدأ الناس يتوافدون أفواجًا من أجل رؤيتها، لكنها لم تكن تشعر بقيمة جمالها. حتى زوجها، ورغم كل هذا الجمال، كان يخونها باستمرار.

ابنة العم أميرة مدللة، والأم باهرة الجمال، وآلا ليست سوى شقية، شاءت الأقدار أن تمنحها أتعس الحظوظ. والأسوأ أنَّ أمها كانت تنبذها، وتتركها دون حماية. ربما هذا ما يمكن تسميته بالحظ العاثر.

- أكانت أمك تعلم أنَّ والدك يخونها؟
- بالطبع، كانت تعلم. ولم تكن هي الوحيدة، فكل أهل المنطقة يعلمون أيّ نوع من الرجال كان أبي. وكانت السلطانة أسما تتعمد إيصال هذه الأقاويل لأمي بنفسها، وهي تنهرها قائلة: "لو كنت امرأة كباقي النساء، لعرفت كيف تحافظين على زوجك".
- وما كان ردّ أمك؟
- لا شيء. كعادتها كانت لا تظهر أدنى ردة فعل. تجلس شامخة الرأس، وهي تواصل الاستماع إلى إهانات السلطانة أسما، محدقة إلى عينيها بصمت. لم يكن لأحد أن يخمن ما تشعر به، أو تفكر فيه. فلم تكن تضحك أو تبكي وتشتكي. ومهما حصل، كانت ترفض أن تحني رأسها، أو تتنازل بالرد. فيغص الآخرون بكلماتهم ويصمتون. حتى وإن كانت لا تهتم بجمالها أو زينتها، وتخفي شعرها تحت غطاء أبيض، فخطواتها وهي تسير كانت تميزها عن الأخريات. وحتى مجرد ثوب ممزق، يبدو جميلًا عليها. كانت لا تشبه أحدًا. ولا أحد يعرف من أين أتت، وما الذي رمى بها إلى تلك البقعة القصية. لكن كان واضحًا أنَّها لا تنتمي إلى ذلك المكان. كانت تعمل طوال النهار، وتكاد يداها لا تجفّان من الماء ومساحيق التنظيف، ورغم ذلك كانت أناملها رقيقة ناعمة، كأنامل نجمات السينما. وكانت زوجتا عمي محقتين في استيائهما منها، فهما لا

تتوقفان عن التذمر والشكوى، ولائحة طلباتهما طويلة لا تظهر نهايتها أبدًا. وعلى العكس منهما، كانت أمي تكاد لا تطلب شيئًا؛ مما يثير حنق الاثنتين أكثر. وفيما تتجولان في أرجاء البيت، كواجهتي محل للصياغة، كانت أمي لا تضع سوى خاتم الزواج في إصبعها. لكن حين يأتي الضيوف، كانت السلطانة أسما تطلب إلى أمي أيضًا أن تتزين، وتهتم بنفسها. فكانت أمي تكتفي بخاتمها الماسي، وأساورها الذهبية المبرومة، وتزيل الغطاء عن رأسها، فينسدل شعرها الأسود الكثيف في تموجات رائعة مغطيًا ظهرها. حينها يعجز كل من حولها عن رفع ناظريه عنها. حتى عمّاي كانا يختلسان النظر إليها، وخاصة الأوسط.

وهذا أمر غريب آخر! عمها الأوسط كما أتذكر، هو زوج الكنة الشقراء، التي قالت عنها بأنها دميمة، لكنها من عائلة مقتدرة.

- وحين اختفى الخاتم، لم يتبق لها سوى الأساور، وقد بهت بريقها، وحال لونها من كثرة الاستعمال. ولم تكن أمي تحبها.
- أعترف بأن شخصيتها غريبة.
- كانت غريبة. وقد أخذت أسرارها معها وغادرت، ولم يتمكن أحد من فهمها.
- لكنك ترغبين في فهمها على ما أظن؟
- مجرد التفكير فيها، يجعلني أتخيل غيمة سوداء كتلك الغيوم الشتائية المحملة بأمطار طوفانية، والتي تجثم على سماء المدينة. فلا هي تغادرها، ولا تمطر فتسقيها. هذا ما تذكرني به أمي. كانت تقسو على نفسها، وعلي أيضًا. ربما كانت تكرهني، لأنّي جزء منها. من يدري؟!

تتوقف عن السرد، فيما أفكر في غرابة التفاصيل التي روتها لي اليوم، وفي قدرتها على تحليل المواقف بصورة مذهلة، رغم العبء الوجداني لكل واحدة من تلك التفاصيل. إنّها تحلل القصة، وترويها بأسلوب أدبي متقن. يحتقن وجهها

ويضطرب كبحر هائج فيما تتحدث، وتنهمر الدموع بغزارة على بشرتها التي تغطيها البثور، وكلما حاولت مسحها أرى إبهامها المصاب، ترى ما حكاية هذا الإبهام الذي لا يتعافى مطلقًا؟

من الواضح أنَّها لا ترغب في رواية المزيد، فحين يقترب الحديث من والدتها، تسوء حالتها دومًا، وكأنها تفزع من مجرد التحدث عنها. رغم يقيني أنَّها ترغب في مشاطرتي الكثير من الأمور حولها، فكل خيوط قصتها تشير نحو ذلك الثقب المظلم، لكني أرغب في أن أسدي إليها معروفًا صغيرًا وأخفف عنها قليلًا، فأوجه الحديث في وجهة مغايرة.

- لقد أتعبك الحديث، ما رأيك في الاستماع إلى قصة جديدة؟
- حسنًا. شكرًا لك. فأنت طيبة القلب، رغم أنَّك شريرة أيضًا.

أضحك من كلماتها، لكنها لا تشاركني الضحك، بل تحدق إلى وجهي بنظرات حذرة. إذًا، فأنا لا زلت مزيجًا من الخير والشر في نظرها. أجيل النظر في أعماقي، باحثة عن مشاعر سيئة اتجاهها؛ لا شيء. لم أعد شريرة بعد الآن. لقد أصبحت أتمنى لها أن تغادر لائحة الخاسرين، وتجد لها مكانًا بين صفوف الرابحين، وأن تعود إلى الحياة مجددًا.

سأروي لها الآن حكاية عن أميرة تحمل اسم أمها؛ الأميرة ثريا، وأراقب ردة فعلها. لعلّ حكاية اليوم توضح لي المزيد عن سبب الحقد والغيرة اللتين تكنهما للأميرات.

- سأروي لك اليوم كما اتفقنا في المرة السابقة، حكاية عن الأميرات، ما رأيك بحكاية الأميرة ثريا؟
- الأميرة ثريا؟ حسنًا، تبدو مصادفة جيدة.
- وأريد أن أوضح لك أمرًا قبل البدء بالحكاية. أنا لم أعد شريرة.
- هل ظلمتك؟
- نوعًا ما.

تحني رأسها قليلًا كطفلة ارتكبت ذنبًا، وتحمر وجنتاها خجلًا. وقبل أن تحاول تبرير الأمر، أبدأ بسرد الحكاية.

- في عام ألف وتسعمائة وواحد وأربعين، جلس آخر شاه على عرش الإمبراطورية الفارسية، الشاه محمد رضا بهلوي. كان والد الشاه يكن إعجابًا كبيرًا لتركيا، ولكمال أتاتورك. ولكي يتمكّن ابنه من تحقيق أحلامه في تطوير إيران، قام بإرساله إلى سويسرا لإتمام تعلميه، وحرص على تنشئته نشأة غربية. وفي عام ألف وتسعمائة وثمانية وثلاثين، تزوج الشاه الشاب محمد رضا بناء على رغبة والده بالأميرة فوزية ابنة الملك فؤاد، ملك مصر، لكنه اضطر بعد عشرة أعوام إلى إنهاء هذا الزواج؛ لأنَّ الأميرة لم تنجب له سوى فتاة واحدة، وقد أعلن الأطباء حينها عدم قدرتها على الإنجاب مرة أخرى. وبذلك افترق الشاه عن الأميرة التي عجزت عن منحه وليًا للعهد.

فيما أروي لها القصة، أراقب وجهها عن كثب، كي ألحظ تأثير كل كلمة فيها. عادة ما يكتسي وجهها ببعض الحزن حين تأخذ الأحداث منحىً تراجيديًا في القصة، لكنها اليوم وعلى العكس من ذلك، تكاد ابتسامة فرحة تضيء وجهها وهي تسمع مصير أولى الأميرات. من الواضح أنها تكن للأميرات حقدًا شديدًا.

- وهكذا كان مصير الأميرة فوزية حزينًا.
- ولمَ ذلك؟ أهي الوحيدة التي تركها زوجها لأنَّها لم تنجب له ابنًا؟ كونها أميرة، لا يعني أنَّها أفضل من بقية النساء.
- لم أقل إنَّها أفضل. كل ما في الأمر أنَّي أشعر بالأسى على كل امرأة تواجه هذا المصير.
- لا تشعري بالأسى على الأميرات، ولا تقلقي، فلن يتعرضن لما هو سيّئ أبدًا.
- وكيف تعلمين أنَّهن لن يتعرضن لذلك؟

- لأنَّهن أميرات. وأتفه مشاكلهن تثير تعاطف العالم كله. يمتلكن المال والجمال والمكانة الراقية ومحبة الجميع، لكن لا يمكن أن يمنحهن الله الكمال المطلق. فقد منحها كل شيء، وحرمها من إنجاب ولد. ولن أشعر بالتحسر عليها. ثم ما قصة هوس الناس بالصبيان؟ هذا أمر لم ولن أفهمه مطلقًا. أهو ذنب أن أُخلق فتاة؟ هل الأولاد أذكى من البنات مثلا؟ ها هو رجل تعلم في أفضل المدارس، ويجلس على عرش إمبراطورية، يعجز عن إدراك هذه الحقيقة. لقد ذهب إلى سويسرا ليتعلم كل شيء، لكنه غفل عن تعلم هذه الحقيقة البسيطة. ما الفرق بين هذه القصة وبين قصة بلهاء أفريقيا؟ والأدهى أنَّ كل هذا يحصل في القرن العشرين، وليس في القرون الوسطى مثلًا. من الواضح أنَّ هذه كانت إرادة الشعب الجاهل. وقد لبى الشاه رغبتهم بكل صدر رحب. فهو لن يخاطر بعرشه لأمر تافه كهذا.

لقد اختلطت الأمور في ذهنها، وبات الكل في مرمى نيرانها؛ الأميرة كونها أميرة، والشاه لتفضيله الصبيان على البنات، وحتى الشعب لأنَّه أراد للشاه وريثًا. إحدى مهامي الصعبة معها، هي التغافل دومًا عن نوبات غضبها العاصف، والالتفاف حول الزوبعة، وإلا فإن نظراتها المتقدة، وأنفاسها اللاهثة وأناملها التي تطرق أطراف الطاولة في رتم ساخط، كلها تهدد بأن أيّ خطوة خاطئة، ستجعلني في مرمى نيرانها.

- ليس من المستبعد أنَّ الشاه انفصل عن الأميرة فوزية للحفاظ على عرشه، ولكن البحث عن أميرة جديدة، بدأ دون إضاعة مزيد من الوقت. كان والد ثريا سليل واحدة من أعرق العائلات الإيرانية، وقد أحب فتاة ألمانية وتزوجها. وفي عام ألف وتسعمائة واثنين وثلاثين أنجبا ابنتهما الوحيدة ثريا. أتعلمين معنى كلمة ثريا؟

- هو اسم لمجموعة من سبعة كواكب، واقعة في عنق برج الثور.

يـا للغرابـة! لـديها ذاكـرة حاسـوبية، لقـد سـألتها لمجـرد تبـادل الحـديث، لكنها ردت بدقة علمية، ودون تردد. ترى ما حجم ما تخزنـه هـذه الفتاة في ذاكرتها العجيبة؟

- لا يبدو أنَّ هناك ما لا تعرفينه يا آلا! كان للرقم سبعة دلالة خاصة في حياة ثريا، فقد أنجبتها أمها بعد سبع سنوات من زواجها، لـذا سـميت بهذا الاسم، كما أنَّ زواجها بالشاه دام لمدة سبعة أعوام.
- هل كان لأحد أن يهتم بهذا الرقم ويحصي الأعوام لو لم تكن أميرة؟

أتمنى أن أتمكن من إتمام الحكاية، فهي تكشف لي الكثير عن خباياها، لكني أخشى من غضبها العارم، فهي تنتهز كل فرصة لتقذف المزيد من حممها.

- كانت ظروف البلاد في تلك الحقبة كارثية. فمعظم أفراد الشعب يرزحون تحت فقر مدقع، وكانت المجاعة والأوبئة تتناوبان الفتك بهم. لذا لم ترغب الأم في أن تعيش ابنتها وتكبر في ظل هـذه الظروف، فتمكنت من إقناع زوجها بالانتقال للعيش في برلين، لكن الأب اضطر بحكم عمله، للعودة إلى بلاده في عام ألف وتسعمائة وسبعة وثلاثين. فدرست ثريا في مدرسة ألمانية في أصفهان، ثم في مدرسة بريطانية. وفي عام ألف وتسعمائة وسبعة وأربعين توجهت إلى سويسرا، وبعد عامين انتقلت إلى لندن لإتمام دراستها. وهناك تم تدبير كل شيء، فقد كانت إحدى قريباتها التي تعيش في لندن، صديقة مقرّبة من والدة الشاه، وقد اتفقت المرأتان، وأرسلتا صور ثريا إلى الشاه. فأثارت الصور إعجابه الشديد، وعلى الفور أرسل أخته إلى لندن لتعرض على ثريا رغبته في الزواج بها.
- دون أن يراها؟
- أجل، دون أن يراها. رغم أنَّ الشاه حصل على كل المعلومات المتعلقة بها، لكنهما لم يتقابلا حين عرض الزواج عليها أول مرة. عادت ثريا مع أخت الشاه إلى إيران، وحين وصولها تمت دعوتها إلى القصر، وهناك

وبعد تناول العشاء، عرض عليها الشاه الزواج بشكل شخصي. وقد أبلغته ثريا بموافقتها في اليوم التالي.

- هي لا تفكر في شيء سوى أن تصبح أميرة، وهو لا يهمه شيء سوى حماية عرشه. فلتذهب كل الأميرات إلى الجحيم.

يحتقن وجهها ويتقد، وكأنها تحترق في الجحيم، حتى بياض عينيها يحتقن غضبًا، لكنها تحني رأسها على الفور، كي تخفي مشاعرها عني. فأتجاهل ما أراه بدوري، وأعود لإتمام الحكاية من حيث توقفت.

- كانت ثريا في السابعة عشرة من عمرها، في ذلك الحين. لاحقًا حين نشرت مذكراتها، وصفت مشاعرها تلك الليلة، وكيف أنَّها وقعت تحت تأثير الشاه، وأحبته من النظرة الأولى، وأنها لم تندم قط على القرار الذي اتخذته.
- هي وأمثالها لن يندمن حتى الموت. فكل ما يهمهن هو أن يصبحن أميرات.
- لو كنت في مكانها، هل كنت ستوافقين على عرض مماثل؟
- لن أكون في مكانها مطلقًا. لذا لا تضيعي وقتك في طرح هذا السؤال علي.
- حسنًا. بعد موافقتها بدأت تحضيرات العرس على الفور، لكن أوضاع البلاد المزرية، والفقر الذي يرزح تحته معظم الشعب الإيراني، جعلا الشاه وخلافا لما اعتادته عائلة بهلوي المعروفة بحبها للبذخ، يتجنب إقامة عرس باذخ، بل تقرر الاحتفال بالعروسين في حفل بسيط. لكن النحس بدأ بملازمة الأميرة منذ تلك اللحظة، فقبل العرس بفترة وجيزة أصيبت ثريا بالتيفوئيد، وهكذا أقيم العرس الذي تم تأجيله لوقت طويل، في الثاني عشر من شهر شباط عام ألف وتسعمائة وخمسين، في يوم بارد ومثلج. لم تكن ثريا قد تعافت بعد، لكن الوضع السياسي المضطرب للبلاد، جعل الشاه يتعجل في زواجه. كان فستان الزفاف الذي صممه لها كريستيان ديور، مطرزًا بالفضة، ومرصعًا بالألماس والذهب، ويزن

عشرين كيلو غرامًا، وبالكاد تمكنت الأميرة التي لم تكن قد تماثلت للشفاء التام، من التماسك تلك الليلة حتى النهاية، ويقال إنَّه كاد يغمى عليها في لحظة ما، فقام بعض مرافقيها، دون لفت الانتباه، بقص حوالي عشرة أمتار من ذيل الفستان، لتخفيف وزنه قليلًا.

- لا بد أنَّها كانت مهمة غاية في الصعوبة.
- لا أعلم حقيقة إن كانت مهمة صعبة أم لا، لكن العملية تمت ببراعة وإتقان بحيث لم يلحظ الأمر أحد.
- ولابد أن أحدًا لم يلحظ المرافقين من الأساس. فبوجود الأميرة لا أهمية لأحدٍ سواها.

من يثير تعاطفها الحقيقي هن المرافقات، وكأنّها عاشت هذه التجربة سابقًا، وكانت مرافقة، لذا فهي تشعر بكل هذا الحقد على الأميرات. من المحتمل أنَّ ابنة عمها الأميرة، كانت تعاملها كمرافقة لها.

تجبرني هذه الفتاة على تقمص شخصية محقق سري، وتفحص كل كلمة وكل إيماءة لفهم دوافعها، لكني لا أملك خيارًا آخر.

- زُينت قاعة المرايا في قصر غوليستان الذي أقيم فيه العرس، من السقف وحتى الأرض بمختلف أنواع الأزهار؛ مئتي زهرة أوركيد، مئتي غصن محمل بأزهار الكرز، ألف قرنفلة حمراء، وألف ومئتي عنقود من الليلك. وقد اصطف جميع الضيوف الذين بلغ عددهم ألفي شخص، في الممر المؤدي إلى القاعة من أجل تهنئة العروسين، اللذين اضطرا لإلقاء التحية عليهم جميعًا؛ مما أجهد الأميرة بصورة كبيرة.
- يا للأميرة المسكينة! هل أزعجها ثوبها المرصع بالألماس؟ وهل أتعبها إلقاء التحية على الناس المصطفين للقائها؟ كلّهن من الطينة نفسها. غنج وتذمر من كل شيء. تبذل المرافقات أضعاف هذا الجهد في صمت، ودون أدنى شكوى. أما الأميرة فتشتكي حتى من نسمة هواء؛ لأنَّها رقيقة،

مرهفة المشاعر، وقد يصيبها مكروه. أما الأخريات، فإلى الجحيم. المهم هو إرضاء الأميرة.

- هل كنت إحدى مرافقات الأميرة ثريا؟
- لقد كنت مرافقة الأميرة ثريا التي أنجبتني. فبدلًا من أن أكون الأميرة، تحولت بسببها إلى مجرد مرافقة. ولو شاءت لأصبحت ملكة في ذلك المنزل، لكنها لم تفعل. بل اختارت لنفسها أكثر الأقدار قسوة، وجرتني خلفها على هذا الطريق. لقد جعلت نفسها عبدة للسلطانة أسما، وتغاضت عن تحولي إلى خادمة لتلك الشيطانة ذات الشعر الأحمر.

كيف فاتني الأمر؟ فهي لا تعني ابنة عمها فقط، بل هناك أمها أيضًا. الأم التي لم تكن أقل من ملكة في جمالها. وحين تصب جام غضبها على ابنة عمها، تظل الأم هي الهدف الحقيقي لنقمتها وغضبها.

- ربما لو تمكنت يومًا ما، من سرد حكايتي كلها، فستفهمين ما أعانيه. في الحقيقة، حكايتي ليس فيها الكثير خلا الجنون والموت وأنت. والآن أرجو أن تكملي قصة الأميرة ثريا من فضلك.

أفكر فيما تقوله مندهشة، الموت والجنون وأنا! لقد لخصت كل حياتها في ثلاث كلمات. ورغم أنَّ حكمها عليّ لا يزال يتأرجح بين موازين الخير والشر، دون أن ترجح كفة على الأخرى بعد، لكن الثقة التي في صوتها، باتت تشي بأكثر مما تقول، وأكثر مما في نظراتها المتعبة من الألم والحزن.

تلتقي عيوننا لوهلة، فأحاول أن أفصح لها عن مشاعري، أريدها أن تعلم أنَّي هنا، ومعها على الدوام. ولأنَّ وقت الكلام لم يحن بعد، أكتفي ببث مشاعري في نظراتٍ حانية.

ثم أواصل سرد حكايتي بصوت هادئ ورقيق.

- توجت ثريا ملكة على إيران في حقبة تعد الأسوأ في تاريخ البلاد، وقد رأى البعض أنَّ الشاه لم يقم بما يجب عليه القيام به لإنقاذ شعبه من أوضاعه

المزرية، وسمح للقوى الخارجية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، بالتدخل في شؤون البلاد الداخلية. وفيما الغالبية العظمى من شعبه كانت تقاسي المجاعة والفقر، كان هو يعيش في بذخ وترف، مع ثروة تتضاعف كل يوم. وقد كان مصير كل من ينتقده من المتنورين ودعاة الإصلاح هو الاعتقال والتعذيب، فانتشر الرعب في كل أرجاء البلاد، وباتت الرقابة تخنق الحياة والحريات. لكل قصة وجهان، فهناك من يرى أنَّ الشاه كان يعيش في بساطة وتواضع، وقد فعل كل ما يستطيع لحماية بلاده وشعبه. وقد نشرت العديد من الكتب والدراسات حول وجهتي النظر، لكن الجدل لم يحسم لصالح أيّ منهما حتى الآن.

- في رأيي أنَّ الشاه كان من أكثر الحكام قسوة، ولم يكن يهتم بمصير شعبه على الإطلاق. وقد باع بلاده من أجل مصلحته الخاصة، كما أنَّه مارس أقسى أنواع العنف على الشعب من أجل تخويفه.

لا أعتقد أنَّها تعني الشاه بهذه الكلمات، بقدر ما تعني بها والدها بالذات، فهي ترى في إهمال الشاه شعبه، انعكاسًا للعلاقة بينها وبين والدها، الذي تخلى عن واجبه وكان يفكر في نفسه فقط. إنَّها ترى في هذه القصة كما في كل قصة، إسقاطًا لأفكارها وعالمها الداخلي.

- إذًا، فهذا هو رأيك؟
- بل هذه هي الحقيقة.
- ربما هي كذلك. تعتبر مجوهرات التاج الملكي الإيراني، أشهر مجموعة للمجوهرات في العالم، وتروي ثريا في مذكراتها، ذكرياتها مع هذه المجوهرات حين أصبحت ملكة. في الحقيقة، لم تكن ملكية تلك المجوهرات تعود للشاه، بل لخزينة الدولة، وكانت بديلًا عن العملة الوطنية، ومن أشهر قطع المجموعة صولجان الشاه المرصع باللآلئ والألماس، السيوف الإنكشارية المرصعة بالياقوت والزمرد، وماسة بحر

النور أشهر ألماسة في العالم، بوزن مئة وستة وثمانين قيراطًا، والمحاطة بأربعمئة وخمس وسبعين ألماسة أصغر منها. وقد أحضرها نادر شاه من الهند.

- هؤلاء المتبجحون يظنون أن ثروة البلاد ملك لهم. فالعرش يطيح بعقولهم. الله وحده يعلم كيف بددوا هذه الثروة.
- لا دراية لي بتفاصيل هذا الموضوع، لكن ثروة إيران النفطية الهائلة، جعلتها قبلة للمطامع على الدوام.
- الأمريكان والبريطانيون يلهثون وراء البترول أينما وجدوه. وقد أباح لهم الشاه انتهاك ثروة بلاده، في سبيل بقائه على العرش، لكن لا أحد يمكن له بلوغ الخلود. فإن كان السلطان سليمان قد مات، هل سيُخلّد رجل كالشاه؟
- عدتِ للغضب.
- بالطبع سأغضب. هذا شاه، وتلك أميرة. هلا أخبرتني ما الذي يميزهم عنا نحن الناس العاديين؟ بمَ يتفوقون علينا؟

تعاود فتح نيرانها الداخلية، وترفض أن تمتاز عنها الأميرة في شيء. كأنَّها تتمرد على والديها اللذين لم يقوما بحمايتها ورعايتها، ولم يظهرا تجاهها المحبة اللازمة، بل تغاضيا عن انتهاك كرامتها. وهي محقة بالطبع.

- أنت من طلب حكاية عن الأميرات، ورغم أنَّ نهاية الأميرة فيها ليست سعيدة على الإطلاق، لكنك تحتدين غضبًا، ماذا ستفعلين لو رويت لك قصة عن أميرة بنهاية سعيدة؟
- لا يحق لأي أميرة أن تحظى بنهاية سعيدة، ولكن لا عليك. استمري أرجوك.
- في عام ألف وتسعمائة وواحد وخمسين، وبعد ما يقارب العام على زواج ثريا بالشاه، أصبح محمد مصدّق رئيسًا للوزراء، وكان أول ما قام به،

تأميم صناعة النفط، لكن هذه الخطوة أثارت استياء كل من إنكلترا والولايات المتحدة الأمريكية.

- أجل، فالوطنيون أعداؤهما.

تجد في شخصية مصدق حاميًا للفقراء والضعفاء. من الواضح أنَّها لم تحظ في حياتها بحامٍ أو سند، فهل سأتمكن من لعب هذا الدور يا ترى؟

- إضافة إلى التأميم، كان مصدّق يحاول القيام بثورة على حكم الشاه، ويحظى بتأييد شعبي واسع، لكن هذه الأوضاع التي كانت تهدد مصير الشاه بجدية، تغيرت بشكل جذري، بعد التدخل الأمريكي. وقد اضطر الشاه في تلك الفترة إلى مغادرة البلاد برفقة ثريا متوجهًا إلى روما، لكن الانقلاب الذي أطاح بمصدق، مكّنه من العودة إلى البلاد مجددًا، بعد أسبوع فقط من مغادرته. هذه الواقعة كانت أحد المنعطفات المفصلية في حياة ثريا، فلو أطيح بالشاه حينها، فربما عاشت بقية حياتها إلى جوار زوجها في المنفى. لكن ما حدث كان مختلفًا تمامًا.

من الغريب أنَّها لم تعترض هذه المرة! أظنها تخشى من إثارة غضبي. تحمل العدالة الاجتماعية قيمة جوهرية بالنسبة إليها، وهو أمر يشاركها فيه معظم من تعرض للظلم، وحرم من حقوقه في المراحل المبكرة من حياته. لكن درجة العنف التي يتعرض لها هؤلاء الأشخاص، والسن التي يتعرضون فيها للعنف، تحددان مستوى تمردهم، كما تحددان قدرتهم من عدمها على هذا التمرد من الأساس. فالأشخاص الذين نشؤوا منذ الطفولة في ظروف قاسية، وتعرضوا لظلم ممنهج، عادة ما تنتفي لديهم روح التمرد والعصيان، وتصبح العبودية والإذعان من السمات الطابعة لشخصياتهم. فيخضعون للسلطة بكل أشكالها، ويفتقدون تقدير الذات واحترامها. لهذا السبب بالذات، تجد الشعوب المسحوقة، تحترم شخصيات ديكتاتورية مثل هتلر، فيحتل هؤلاء السلطة في بلدان تدّعي الديمقراطية، دون أن يكون لديها من الديمقراطية سوى الاسم. لذا فإن تمرد هذه الفتاة على السلطة

وثورات غضبها، تثير في نفسي البهجة، لأنَّها تشير إلى أنَّ روحها لا تزال تتقد، ولديها ما يستحق الصراع لأجله.

- بعد عودة الشاه إلى البلاد بفترة وجيزة، قام مصطحبًا معه ثريا، بجولة رسمية على العديد من البلدان، من ضمنها زيارته إلى تركيا في عهد رئيس الوزراء عدنان مندريس، وقد استضاف جلال باير رئيس البلاد، ورئيس حكومته مندريس، الشاه وزوجته في إسطنبول. وكوالده، عبر الشاه محمد رضا عن إعجابه وتقديره لشخصية كمال أتاتورك. كانت ثريا خلال فترة زواجها، تدعم حركات الإصلاح والتنوير في البلاد، وبذلك فقد كسبت محبة الشعب. لكن السنين كانت تمر دون أن تمنح الشاه وريثًا لعرشه، وبعد فترة أكدّ الأطباء عدم قدرتها على الإنجاب. فقام الشاه بإقناع زوجته أن تسافر إلى الخارج، حتى تهدأ الأجواء في القصر. شعرت ثريا وهي تغادر بلادها، بأَنها لن تتمكن من العودة مجددًا، لكن ما باليد حيلة. رغم أنَّ الشاه الذي حاز الموافقة على الزواج مرة أخرى، عرض عليها لاحقًا، العودة وقضاء بقية حياتها ملكة، لكن ثريا رفضت هذا العرض بصورة قطعية.

- يا له من أناني! يطلب إليها العودة، وهو ينوي الزواج بأخرى. لقد أصبح شاهًا، لكنه لم يصبح رجلًا على الإطلاق.

تعترض على تصرف الشاه مع زوجته، وأظنه- وإن كانت لا تعترف بذلك- احتجاجًا مبطنًا على تعامل والدها المجحف مع أمها.

- ترفض الأميرة الكسيرة القلب هذا العرض، وبذلك تبقى وحيدة بعد أن خسرت العرش والتاج ومكانتها، والأدهى أن عيون الصحافة كانت تترصد كل تحركاتها. فكان الصحفيون يلاحقونها أينما ذهبت، وفي كل يوم تخرج بحقها أقاويل وشائعات كاذبة، كتلك التي ادعت أنّ الشاه قد منحها ثروة هائلة، أو أهداها كل مجوهرات العائلة المالكة، وسواها من

الأقاويل الكاذبة. والحقيقة أنَّ الشاه قد خصص لها دخلًا يضمن لها مستوى لائقًا من الحياة، لا أكثر. حسنًا، ألن تعلقي بشيء؟

- لا أظنك تتوقعين مني القول: يا للأميرة المسكينة! أليس كذلك؟
- بالطبع لا أتوقع ذلك، فقد أوضحت لي بما يكفي مدى نقمتك على الأميرات.
- لابد أنَّها عثرت على رجل غني آخر في النهاية.

مرة أخرى تقوم بشخصنة الأحداث، وتجد فيها بطريقة ما انعكاسًا لعلاقة والديها، إذ تمكنت الأم الجميلة من العثور على زوجها الغني دون تكبد أيّ مشقة.

- في عام ألف وتسعمائة وثلاثة وستين وقفت ثريا أمام الكاميرا، ومثلت في فيلم بعنوان "ثلاثة وجوه لامرأة"، لتحقق بذلك حلمها القديم قبل الزواج، بأن تصبح ممثلة سينمائية، لكن الفيلم اختفى من العرض بعد فترة وجيزة، لأنَّ الشاه كما قيل حينها، اشترى النسخ كافة. وفي هذه الأثناء، نشأت قصة حب بين الملكة ومخرج الفيلم فرانكو أندوفينا، لكن سعادتهما لم تدم سوى مدة قصيرة، فالأقدار السيئة ظلت تلاحقها حتى وهي في المنفى، حيث مات فرانكو أندوفينا في حادث طائرة عام ألف وتسعمائة واثنين وسبعين. وعلى أثر هذه الفاجعة، غادرت ثريا روما، لتستقر في باريس، وقد توفيت في شقتها هناك في الخامس والعشرين من تشرين الأول من عام ألفين وواحد، وهكذا تنتهي حكاية الأميرة ذات العينين الحزينتين.
- لقد كانت بالفعل تعيسة الحظ.

للمرة الأولى استطاعت أن تتعاطف مع الأميرة، وتتخيل معاناتها، الأمر الذي لا يبدو لي مصادفة عادية. فمن الواضح أنَّها تشعر بالأسى على أمها، وإن كان ذلك للحظات عابرة.

- وأخيرًا اقتنعت بالفكرة.

- مهما كان مقدار تعاستها، فقد عاشت حياتها أميرة. ليتني كنت أميرة تعيسة مثلها، ولا أمانع إن متّ في عمر مبكّر.
- هل أنت جادة؟ أنا لا أرغب مطلقًا في أن أكون أميرة تعيسة. لمَ هذه الرغبة في أن تكوني أميرة؟
- أودّ أن أعيش تلك التجربة ولو ليوم واحد، وأشعر بذلك الإحساس، ولأمت بعدها.
- يبدو لي أنك تعتبرين الأميرة وحدها جديرة بالحياة! هلا شرحت لي سبب هذا الاعتقاد. أريد فهم وجهة نظرك.
- إن كنت أعتبر نفسي غير جديرة بالحياة، لا أعتقد أنّ اللوم يقع علي، لأنَّ أحدًا لم يعاملني على هذا الأساس.

كلّما حاولت هذه الفتاة التحدث عن نفسها بهذه الطريقة، يغمر أسى عميق جوارحي، وأتذكر اليوم الأول الذي جاءت فيه، وكيف حاولت التخلص منها. أشعر بالحزن لما حدث، لكني لا أنكر أنَّها كانت بارعة في تشجيعي على ذلك، فإن كانت قد نجحت في إثارة غضب امرأة رقيقة القلب كتونا، فكيف لي أن أنجو؟

الرفض، النفور، والإجحاف ركائز أساسية في تاريخها الشخصي، وهي تتأرجح بين رعبها من أن يتكرر هذا التاريخ، وبين يقينها التام من مصيرها المشؤوم، والذي تحضر نفسها له منذ الآن في خطوة استباقية. وأخشى ما أخشاه أن تقوم يومًا ما بتجاوز أحد خطوطي الحمراء، فتضع بذلك نهاية لعلاقتنا، وتحقق هذا المصير المحتوم الذي تسعى إليه دون وعي. وإن كنت أبصر في أعماقها جذوة من الأمل قد تبعدها عن هذه النهاية المأساوية، فإنّ كلَّ ما خلا ذلك يسوقها إلى قدرها دون رحمة. عليّ أن أقوي الدرع الذي أحتمي به من هجماتها، كي لا ترتد النيران التي تطلقها على نفسها فتصيبني في مقتل. ربما هذا ما يميز الطبيب النفسي؛ قدرته على تخطي إنسانيته، للوصول إلى بعد أعمق وأكثر قوة، يمكّنه من مدّ يد العون لمن يحتاج إليها.

- أفكر في كل ما وقع بيننا منذ أول يوم لك هنا، ويتراءى لي أنَّك لا تحبين أن يعاملك الآخرون بشكل جيد.
- الأمر ليس كما تظنين. لكنني أقوم بتكرار ما اعتدته، وأرغب في استباق النهاية التي أعلمها مسبقًا.
- ألا يمكن أن تكوني مخطئة، وأن تكون تصرفاتك هي التي تقودك إلى هذه النهاية التي تثير الذعر في قلبك؟

لا تجيب على الفور، بل تفكر بجدية والخوف يعلو وجهها، كتلميذ اختار له المعلم أكثر سؤال يخشاه في الامتحان، وكأنه يقول له: "بما أنَّك ستجيب يومًا ما عن هذا السؤال، فحاول أن تفعل ذلك الآن".

لكنها ترفع رأسها بحركة مفاجئة وتحدق إلى عيني بإصرار، وهي تجيب عن السؤال بسؤال:

- هل تؤمنين بالقدر؟

سؤال آخر غريب، في توقيت غريب. فقد كنت توًّا أفكر في الأقدار التي جعلتها على هذا الحال، وإذا بها تقرأ أفكاري مجددًا.

- أجل، وأؤمن أنَّ هناك أشياء لا يمكننا تغييرها في حياتنا. فعلى سبيل المثال، اختيار والدينا هو أمر خارجَ إرادتنا تمامًا، رغم أنَّه يحدد خطوط أقدارنا الأساسية في الحياة. لكني بالمقابل لا أنزع إلى الاستسلام المطلق، فلدي روح محاربة تسعى دومًا للتغيير والتمرد، وهذا هو الدرب الذي أحاول أن أدفع مرضاي نحوه عادة. إن قرأت التاريخ بإمعان، فستجدين الكثير ممن استطاعوا تغيير أقدارهم بصورة جذرية، وهذا ما أسعى إليه معك. فإن حاربت بما يكفي، فقد يكون النصر من نصيبك في النهاية.
- لهذا أنا هنا. ولكن هل لنا أن نحارب دون أسلحة؟
- على كل منا أن يكتشف أسلحته الخاصة في داخله، والتي تناسب حربه. لكني لم أعثر حتى الآن على أسلحتك.

- و هل بإمكانك إدراك رغبتي القوية في الانتصار؟
- أشعر برغبتك، لكني لا أراك تحاربين لأجلها. فغالبًا ما تستسلمين للغضب الذي يستحوذ عليك، رغم أنَّك فتاة ذكية، يمكن لها أن تتصالح مع نفسها. إنَّك تفعلين ما في وسعك لكي ينبذك الآخرون، ويشعروا نحوك بالنفور. تتعمدين أن تظهري بمظهر بائس، وكأنك تحاولين جهدك أن تبعدي عن نفسك كل احتمالات التقبل والتقدير.
- ألا يمكن. اعتبار كل ذلك. نوعًا من التمرد؟

في الحقيقة، لم يخطر لي مطلقًا أن يكون التمرد دافعها، لكنه احتمال وارد بكل تأكيد.

- لم يخطر لي ذلك من قبل، ولكنك قد تكونين محقة. ربما هو بالفعل نوع من التمرد، لكن للتمرد وجهين؛ التمرد لمجرد التمرد، والتمرد لتحقيق هدف ما، فأيهما تفعلين؟
- هل سبق أن دهست قطة بسيارتك؟
- لا، وأرجو ألا يحدث ذلك، لأنَّي سأشعر بحزن شديد.
- أنا لست سوى تلك القطة. قطة بائسة دهستها سيارة، وتُركت لمصيرها وسط الطريق.

يا لها من صورة قاسية! ألهذا الحد تشعر هذه الفتاة بالعجز؟

- لا تفعلي ذلك يا آلا، أرجوك. لا تبخسي قدرك إلى هذا الحد. الآن أنا من سيتمرد عليك، فأنت محامية تكافح من أجل تحقيق العدالة للآخرين، فكيف تعتبرين نفسك عاجزة لهذا الحد؟ أليس من الأجدى مساعدة نفسك؟
- لابد أنَّ الملايين قد شعروا بالأسى، وهم يقرؤون قصة الأميرة ثريا في الصحف. لكن لم يخطر لأحد أن يفكر في تلك القطة المرمية وسط الطريق. عليكِ أن تكوني أميرة، لتستحقي تعاطف الآخرين ومحبتهم. حينها سيشعرون بك.

لا يمكن تجاهل كلماتها بعد كل ما عانته، فهي تعتبر نفسها مجرد قطة صغيرة متروكة لجراحها. مجرد تخيل هذه الصورة، يجعلني أشعر بغصة في حلقي.

- لكي تحقّقي شيئًا هامًا في حياتك، لا يجب أن تكوني أميرة. فلديك الكثير للاعتماد عليه؛ أنت شابة في مقتبل عمرك، ذكية، وتعمل بجد، حاولي استغلال هذه الصفات في معركتك.
- وهذا ما أفعله. ألا ترين استماتتي في المجيء إليك؟ هذا كل ما يمكنني فعله في الوقت الحالي. وأرجو أن نتمكن معًا من تحقيق الباقي.
- إن شاء الله.
- لقد أخذت من وقتك الكثير كعادتي.
- لا عليك، وأنا متشوقة لما ستروينه لي في المرة القادمة.

تكاد عيناها تجحظان هلعًا.

- لمَ كل هذا الهلع يا فتاة؟ فأنا لست محققًا جنائيًا، وأنت لست هنا في مخفر الشرطة. كل ما هنالك أنَّي سأستمع إليك إن شئت البوح، وإن لم ترغبي، فسأروي لك حكاية جديدة.
- حقًا ستروين لي حكاية؟ لديك أسلوب رائع في قص الحكايات. ولا أبالغ إن قلت لك إنَّي أعيش أسعد لحظات، حين آتي إلى هنا. حينها أنسى أنَّي تلك القطة، وأغدو كالآخرين؛ كائنًا يحظى بالاهتمام وإن كان دميمًا أو ممقوتًا.
- اليوم منحت دورك لمريض آخر، وانتظرت حتى أنهى جلسته. أود أن أشكرك على هذا التصرف اللبق.
- لم أفعل ما يستحق الشكر.

بالكاد تلامس يدي مصافحة وتخرج، فيغمرني حزن غريب يثقل على أنفاسي، كبخار حار وثقيل في الحمام الساخن. وكأنّ معاناتها عدوى تنتقل إلى من حولها، رغم أنَّها غادرت اليوم وهي في مزاج رائق، وأخبرتني أنَّها تعيش هنا أسعد لحظاتها، وهي المرة الأولى التي أسمعها تقول بأنَّها تشعر بالسعادة من أمر ما.

أذرع الغرفة جيئة وذهابًا، على وقع طقطقة حبات المسبحة بين أناملي، وأنا أرجو ألا يدخل أحد، ويرى حالتي هذه التي ستثير القلق والتساؤلات، وهو آخر ما أرغب فيه حاليًا. لذا أتجه نحو النافذة لمشاهدة ما تتيحه لي من هذا العالم. شمس المغيب تظهر وتختفي بين الغيوم، هذه الشمس التي تمنح الحياة لكل ما ينبض على هذا الكوكب. أفتح النافذة ليدخل مع النسمات المنعشة، هدير المدينة القادم من بعيد، فأردد في صمت "الحياة تستمر"، لكنها قبل لحظات تجمدت برهة قصيرة، وحبست أنفاسي.

أسمع طرقات خفيفة على الباب قبل أن تدخل نيفين ومعها صينية عليها كأس الشاي، وبعض قطع البسكويت. مريلتها الحمراء، وجنتاها المكتنزتان كوجنتي الأطفال، البريق الصافي في عينيها وهي تحدق إلى المرء، ورعشة يديها في كل مرة تدخل فيها غرفتي حاملة شيئًا بيدها، كل ذلك يشي بالحيوية والشباب والبهجة، وأنا أحوج ما يكون إلى شيء يعيد الحياة إلى هذه الغرفة. كثيرًا ما تطرق الباب فيما أنا مع أحد المرضى، فتثير هذه المقاطعة استياءنا كلينا، ولكن هذا الشعور سرعان ما يتلاشى حين تدخل وعلى وجهها تلك الابتسامة الطفولية الوجلة، فنراقبها في صمت ومحبة حتى تنهي عملها وتخرج. لا تسمح لها تونا بالدخول عادة، وغالبًا ما تردها مع الصينية عند عتبة الباب. لكنها تتمكن أحيانًا من تجاوز رقابتها بطريقة أو بأخرى، وتطل على الغرفة كشمس الصباح، ومن بوسعه أن ينزعج من شمس الصباح؟ تعمل نيفين مع والدتها في الكافيتريا، فوالدتها آيتان بدأت العمل عندي منذ سنوات طويلة، وهي أم لثلاث بنات. حين تعرفت إليها كانت كبرى بناتها في المرحلة الابتدائية من دراستها، ولم تكن نيفين تذهب بعد إلى المدرسة. تواصل الأم عملها منذ سنوات، دون أن تشتكي أو تتعب، وقد تمكنت من تعليم بناتها، فالكبيرتان أنهتا دراستهما الجامعية، وتمكنت كل منهما من إيجاد عمل وزوج مناسبين أيضًا. وبقيت نيفين مع أمها، في منزلهما المتواضع الذي هو ثمرة كل هذه السنوات من العمل والتعب. في كل صباح تبدأ الأم وابنتها العمل باكرًا، وهما راضيتان عن عملهما معنا، ونحن كذلك.

جاء هذا الشاي في وقته، فقد جفّ حلقي، وقبل أن أنهي الكأس تدخل تونا الغرفة. أنظر إلى جدول المواعيد على شاشة الحاسوب، لا يزال هناك الكثير من المرضى الذين عليّ مقابلتهم اليوم. تبدأ الحديث، وقد عقدت يديها على صدرها:

- السيد حسين مع عائلته في ردهة الانتظار، ليس لديه موعد لكنه يرغب في رؤيتك ولو برهة وجيزة. لقد اتصلوا بي صباحًا، وأخبروني أنَّهم وصلوا توًا إلى أنقرة، وأنّهم يرغبون في لقائك لأنَّ الأمر عاجل، فأخبرتهم أنَّ بإمكانهم المجيء، وسنخصص لهم بعض الوقت، لكن كثرة المرضى والاتصالات أنستني إعلامك بالأمر. إنَّهم هنا منذ ما يقارب الساعة.

تنتظر ردي في وجل، فليس من عادتها أن تفعل أمرًا مماثلًا دون مشورتي، ولكن لا ضير من بعض التجاوزات أحيانًا.

- عن أيّ حسين تتحدثين بالضبط؟
- حسين الذي يعمل أستاذ مدرسة. كان يأتي مع زوجته كثيرًا. ألم تتذكريه؟
- أها، أجل، أجل، تذكرته. ولكن ماذا عن مرضانا الذين لديهم مواعيد مسبقة؟
- لم يعترض أحد منهم حين رأوا حالة المسكين. وإن لم يكن لديك مانع، فسأدخله قبل الآخرين.

كيف أنسى رجلًا مثل حسين؟ إنَّه يعمل مدرسًا في إحدى البلدات الصغيرة، وزوجته تعمل موظفة في البنك، لديهما بنتان، وقد تفانى الزوجان من أجل تعليمهما، والآن أصبحت كلتاهما في المرحلة الجامعية. عائلة نموذجية من عائلات الأناضول، فأواصر المحبة تجمع أفراد الأسرة، ولا يتوانى أحدهم عن فعل كل ما يلزم لإسعاد البقية، لكن في لحظات الغضب يمكن لهم أن يقسوا على بعضهم بشدة.

كانت أول زيارة لهم إلى عيادتي قبل حوالي عشرة أعوام، حين تعرض السيد حسين لأولى نوبات اكتئابه. وقد زار بعض الأطباء في بلدته، لكن حالته لم تتحسن، حتى وصل الأمر به إلى حدود الانتحار. لم يعد قادرًا على الذهاب إلى عمله، فكان

يقضي الليل كله يذرع البيت، دون أن يتمكن من النوم. في تلك الفترة كان قد مرّ ببعض المشاكل في المدرسة، ولم تدرك زوجته لمَ أثّر فيه الأمر إلى هذا الحدّ الكبير. أخبرتني بأنّه لا يأكل ولا يشرب، بل يقضي النهار كله منزويًا، يفكر فيما لا يفصح عنه، وكانت خائفة من أن تتدهور حالته أكثر ويفقد عمله؛ مما يعني كارثة للأسرة. لكنه بعد عدة جلسات، ومع الأدوية التي وصفتها له، تحسن بصورة كبيرة. مضت فترة لا بأس بها قبل أن يعودوا إلي بمشهد مغاير تمامًا. فقد جاء السيد حسين، وابتسامة عريضة تعلو وجهه، كان لا يتوقف عن الحديث، ويقول إنَّه بأفضل حال، لكن زوجته ولسبب لا يعلمه، أصرت على إحضاره مرة أخرى. لكني حال دخوله إلى الغرفة، أدركت أنَّ حالته هي أحد أعراض الاكتئاب ثنائي القطب، التي تجعل المريض يعاني من تقلبات مزاجية حادة. فقد تحول اكتئابه إلى النقيض.

لقد أحببت هذه العائلة منذ اللقاء الأول، وعادة ما استقبلهم عند الباب وكأنهم أقرباء قادمون لزيارتي من مكان بعيد. رفض السيد حسين تناول المزيد من الأدوية، لكنه اقتنع في النهاية، وقد وصفت له دواءً خاصًا لمنع نوبات المرض. وعادة ما يأتون لزيارتي مرة في السنة على الأقل، وقد كان وضعه مستقرًا طوال الفترة الماضية، ترى ما الذي دفعهم إلى المجيء على عجل؟

أنهض من مكاني وأطل من الباب، فينهض الزوجان حال رؤيتهما لي، ويقتربان مني. يا إلهي! مريضي العزيز يبدو في حالة بائسة، ترى ما الذي استجد؟ أصافحه بكلتا يدي، وأطلب إليهما الجلوس. عينا الزوجة مغرورقتان بالدموع، فيما هالة معتمة تحيط بعيني السيد حسين، وهو يرمقني في ضيق يكاد لا يستطيع إخفاءه. نوبة اكتئاب شديدة، ولكن ما السبب هذه المرة؟

تروي الزوجة تفاصيل القصة، فمع اقتراب موعد السنة الدراسية الجامعية، تعيّن على الأب مرافقة الفتاتين عدة مرات لتأمين سكن جديد لهما، والاهتمام بهما ريثما تستقران، وخلال هذه الرحلات المتعاقبة ذهابًا وإيابًا، أهمل تناول أدويته، وقد تهاون كلاهما معتقدين أنَّه بعد كل هذه السنوات من العلاج، لن يكون لذلك تأثير يذكر، لكن

الأمور لا تسير على هذا النحو، فحتى لو تناسوا المرض، فإنه يظل لهم بالمرصاد، مستغلًا أدنى هفوة للهجوم مجددًا. المسكين في حالة يرثى لها، فبينما زوجته تتحدث، يكاد لا يستطيع الاستقرار في مكانه، فينهض متجولًا على غير هدى في أرجاء الغرفة، متمتمًا: "أشعر بأني سأختنق، ألا يمكن لأحد مساعدتي؟". أشعر بالأسى لحاله، فهو رجل ذو أخلاق حسنة، وأنا متأكدة أنَّه مدرّس رائع، يحظى بمحبة طلابه. والمسكينة زوجته ليست في حالة أفضل من حاله، فهي تحبه كثيرًا.

أحاول تهدئة مخاوف الزوجين وتهوين الأمر عليهما ما أمكنني:

- لا تقلقا. ستتمكن من اجتياز هذه الأزمة أيضًا، كما فعلت المرة السابقة، ولكننا بحاجة إلى بعض الوقت.

أصف له الأدوية، وأوضح لهما الجرعات وأوقات تناولها في أناة وصبر، وأنا أنظر إلى عيني الزوجين، محاولة بث أكبر قدر من الثقة والطمأنينة. لا جدال أنَّ الاكتئاب إحدى أكثر العلل فتكًا بالنفس، وأنَّ المعاناة التي يمرّ بها المريض تسحق روحه، لكني لا أملك حاليًا سوى تقديم المشورة، ولأنِّي أعلم أنَّ الأمر يحتاج إلى وقت حتى يزول، أضيف إليه أدوية أخرى تخفف من أعراض الضيق الذي يشعر به، وأنا أطمئنه قائلة:

- ستتمكن بفعل هذه الأدوية من النوم بشكل منتظم، وتستعيد شهيتك للأكل، وستزول الأزمة عما قريب.

ينهض الزوجان مستمدين القوة من بعضهما، ويشكرانني عشرات المرات قبل خروجهما، فأوقن أنَّ هذه المحبة التي تجمعهما، أكثر نجاعة من كل أدوية العالم. أشعر بالمرارة في حلقي، وكأنّ الأسى المتراكم على جدران غرفتي، وعلى أرائكها الحمراء، ينتقل إلى هواء الغرفة. عليّ الإسراع في استقبال بقية المرضى، ففي انتظاري مساءً أحد اجتماعات العمل التي تكاد لا تنتهي، ولا أدري على وجه التحديد إن كنت سأجتمع مع الأطباء، أم الاختصاصيين النفسيين، أم مع بقية فريق العمل في المركز.

الفصل التاسع

أقوم بجولة قصيرة في حديقة المبنى قبل أن أستقل السيارة متجهة إلى العمل هذا الصباح، وهي العادة التي اكتسبتها خلال فترة مرض آيدِن، حين كنت أمكث معه فترات طويلة في المنزل، فكنت أستغل الطقس حين يكون رائقًا. أسير متمهلة في جولتين قصيرتين بين الشجيرات، أتنفس بعمق، فتسترخي تعابير وجهي، وتعتدل حالتي النفسية ولو قليلًا قبل الذهاب إلى العيادة. حديقة المبنى رحبة ومنسقة بعناية، وهي تنجح كل مرة في تعديل حالتي المزاجية. حين أرى طبيبًا نفسيًا عابس الوجه وإن كان على شاشة التلفاز، أشعر بالاستياء. فأولئك الذين يقصدون الطبيب النفسي للتخلص من تعاستهم، سيكون آخر ما يتمنون رؤيته، طبيب يقابلهم بهذه التعابير العابسة. فكل مريض ما إن يقرر الذهاب إلى الطبيب النفسي، حتى يرسم له صورة في مخيلته، وأعتقد أنَّ أول صفة للطبيب في أذهانهم، هي وجهه الباسم. فالبشاشة، إضافة إلى الأناقة والتركيز على المريض بشكل تام، هي الخطوات التمهيدية الأولى لكل جلسة. على الطبيب الاستماع إليه بتركيز تام، لا يجب أن يتشتت انتباهه ولو لحظة واحدة، أو أن يفكر في أمر آخر، فهذا ما يتوقعه المريض منا، ولو كنت مريضة لكنت توقعت المثل من طبيبي. لهذا السبب، اعتدت أن أعير انتباهًا خاصًا لأناقتي وشعري ومكياجي قبل الذهاب إلى العيادة. حتى عطري، اختاره بعناية خاصة.

كما أطالب بقية زملائي في العمل، بالاهتمام بهذه التفاصيل، فدائمًا ما أقول لهم: "هذه ليست عيادة عادية، إنَّها عيادة نفسية، عليكم دومًا التحلي بالأناقة والابتسامة".

أتجه إلى السيارة بعد إتمام جولتي الصباحية، وأبحث بين محطات الإذاعة عن أغنية سريعة الإيقاع، تشعرني بالحيوية. حين أصل إلى المركز، أجيل نظري في المكان، منتبهة لأدق التفاصيل، بدءًا من عمال النظافة وموظفي قسم الاستقبال، وانتهاءً بأصص الأزهار والمرايا، ثم أصعد إلى الطابق الرابع. تونا كعادتها أنيقة، والمكان في غاية التنسيق، فهي تعلم مدى اهتمامي بهذه التفاصيل.

ما إن أدخل الغرفة، حتى أبدأ بفحص كل شيء، دون أن تغيب عن نظراتي المدققة أدنى هفوة، لكن كل شيء مرتب بما فيها طاولتي، وفي مكانه المعتاد. أشغل الحاسوب، وعلى الشاشة تظهر لي قائمة المواعيد الطويلة اليوم. أنظر إلى ساعتي، ليس لدي متسع من الوقت، عليّ استقبال المريض الأول على الفور.

رغم كل هذا التدقيق والفحص، لكني أشعر بأني فوّت أمرًا هامًا اليوم؛ إنَّها قهوتي الصباحية. هذا هو سبب الستار الضبابي الذي لا زال يخيم على ذهني. إنَّها إدماني الصباحي، لكني لحسن الحظ لا أشرب سوى فنجان في اليوم. لو ترك الأمر لي، لشربت فنجانًا ساعة العصر أيضًا، لكنها تسبب لي مضاعفات من المستحسن تجنبها. لذا أتصل بالكافيتريا على الفور، لطلب قهوتي.

الآن أستطيع استقبال أول مرضاي. تدخل سيدة في أوسط العمر بعد طرقة خفيفة على الباب. تسير بخطا وئيدة في ثيابها السوداء، وتغلق الباب خلفها بهدوء، وبعد مصافحة لطيفة تجلس على الأريكة التي أشير إليها، وهي تلملم أطراف ثوبها. أول ما يسترعي انتباهي فيها، هو الحزن العميق الذي يبدو أنَّه استقر في عينيها إلى الأبد. فأشعر بالقشعريرة وأنا أنظر إليها. هل فقدت أحد أفراد عائلتها يا ترى؟ أهمّ بالترحيب بها بالعبارات المعتادة التي أستقبل بها مرضاي، لكني لا أفعل. فالهالة السوداء التي تحيط بعينيها، تضفي على نظراتها الغائرة حزنًا يدفعني إلى الصمت، فأتوجس حتى من سؤالها عن اسمها. من الأفضل التريث، ومنحها دفة الحديث.

تصمت برهة محنية الرأس، ثم تبدو وكأنها تهم بالكلام في تمتمة غير مسموعة، قبل أن تتراجع. تضع الحقيبة السوداء التي في حجرها على الطاولة

أمامها، ثم تبسط يديها، وتتأملهما في انتباه شديد، وكأنهما تمتلكان أسرار حكايتها. أراقب بدوري يديها من بعيد، دون أن أجد فيهما شيئًا غير مألوف، سوى أنَّهما تبدوان تالفتين، من الواضح أنَّ هذه المرأة قد عملت كثيرًا.

أحاول من خلال تسريحة شعرها، وتعابير وجهها الحصول على مزيد من التفاصيل، فأخمن أنَّها ليست من سكان أنقرة. فطراز ثيابها، وحقيبتها، و حذاؤها والخاتم ذو الحجر الأحمر في إصبعها، كلها لا تنتمي إلى هذه المدينة، وكأنها قادمة من المناطق الشرقية للبلاد، وما يعزز توقعاتي، ذلك الانطباع الخاص الذي يظهر على وجوه سكان تلك المناطق، والذين عانوا الكثير. إنَّها أقرب إلى ربة منزل شرقية، كما أنَّها عاملة، وإن كنت غير قادرة بعد على تخمين وظيفتها. أهي معلمة يا ترى؟ لو باشرت بالحديث، لاتضح كل شيء. فالمعلمون عادة يتسمون بنبرة صوت وأسلوب حديث يميزانهم عمن سواهم، لكنها لا تتكلم.

يزعجني هذا الصمت الذي يطول، أكثر مما يزعجها، وأفكر أنَّه من الأفضل أن تبدأ في قول شيء ما، لكنها بدلًا من ذلك تنزع خاتمها ذا الحجر الأحمر من إصبعها، وتمده نحوي. لوهلة أتردد فيما يجب فعله، فما الذي يعنيه هذا الخاتم لها؟ آخذه من يدها، وأبدأ بتأمله بإعجاب، خاصة أنَّ الأحمر أحد ألواني المفضلة. من الواضح أنَّ الفص ليس ياقوتًا، لكنه بديع جدًا بشكله المربع، ولونه القاني، وسط خاتم ذهبي رقيق، من المحتمل أنَّه من العيار ثمانية. ليس فيه صنعة زخرفية مميزة، لكن إن كانت له قيمة ما، فربما لكونه عتيقًا، استخدمته الكثير من الأجيال حتى وصل إليها، وكأنه يشاركها عبء السنوات الذي تحمله على كاهلها.

بينما أقلب الخاتم في يدي، تطرق نيفين الباب وتدخل حاملة معها صينية القهوة. فاستغل الفرصة على الفور، وأسألها:

- هل ستقبلين دعوتي إلى فنجان قهوة؟

تنظر إليّ متفاجئة، قبل أن تنفي بحركة من رأسها. وما إن تخرج نيفين، حتى آخذ أول رشفة من قهوتي، يا الله، كم هي رائعة! رائحتها تنعش كل حواسي. الآن أنا

أكثر استعدادًا، أقلب الخاتم مرة أخرى في يدي، قبل أن أخاطب السيدة الجالسة أمامي، وأنا أمعن النظر في عينيها:

- يبدو أنَّ له قيمة معنوية كبيرة؟
- لا، ليس له أيّ قيمة مادية أو معنوية، لكني لا أملك شيئًا آخر لأقدمه لك.
- تقدمينه لي؟ ولأي سبب تريدين أن تقدمي لي شيئًا؟
- لقد أتيت من مكان بعيد، رغم أنَّ لدينا أطباء نفسيين في منطقتنا، لكني لم أذهب إلى أحد منهم. لقد قرأت كتبك، كان ابني قد أعطاني إياها. وحين حلّت بنا هذه المصيبة، قلت في نفسي: ما من أحد سيفهمني سواها، فأتيت إليك. أريد أن أعلمك من البداية أنّي لا أملك أجرة المعاينة، لكن إن قبلت هذا الخاتم، سأظل ممتنة لك طوال عمري. وإن رفضت، فسأخرج دون أدنى اعتراض، فلا جهد دون مقابل.

ينتابني شعور غريب، وأنا أنظر إلى هذا الخاتم، ترى متى قامت بشرائه؟ ثم تلفت انتباهي ساعتها بحزامها الجلدي المهترئ. من الواضح أنَّ هذا الخاتم حليتها الوحيدة، وهي تريد الآن أن تمنحني إيّاه. إن وافقت على أخذه فهي غصّة، وإن لم أوافق فهما غصتان. لا يطاوعني قلبي على أخذ حليتها الوحيدة، لكني من جهة أخرى لا أريد لها أن تشعر بأني أتعمد إهانتها إن رفضت أخذه. رغم أنَّ أحد أهدافي الأساسية من فتح مركز ماداليون، كان مساعدة الجميع، حتى من لا يملك المال، ليتلقى العناية الطبية اللازمة على يد مجموعة من خيرة الأطباء والاختصاصيين النفسيين، وقد كرست سنوات من حياتي لتحقيق هذه الغاية. أليس لديها تأمين صحي يا ترى؟

قيامها بهذه الرحلة الطويلة يشير إلى أنَّ لديها مشكلة حقيقية، لذا أؤجل البت في شأن الخاتم، وأحاول فهم مشكلتها. أترك الخاتم على سطح طاولتي، وأباشر بسؤالها:

- هل لي بمعرفة اسمك؟

- سندس.
- حسنًا، سيدة سندس، ما هي المشكلة؟
- هل أنت موافقة؟
- أجل، أجل. والآن أرجو منك إخباري بمشكلتك.
- سيدة غولسِران، أنا أعمل في وظيفة حكومية متواضعة، وزوجي كذلك. بقينا سنوات طويلة دون أن نرزق بأبناء، ثم أكرمنا الله وأنجبت ولدًا، وأصبح قرة أعيننا أنا وزوجي. وقد كان ابنًا بارًا، ليس شقيًا كبقية الأولاد، بل يلازمنا طوال الوقت، ولم نحاول بدورنا إرغامه على شيء. فهو من اختار ألا يكون كأقرانه، ومع الوقت اعتدنا الأمر، واعتقدنا أنَّه بالغ الحساسية، يميل إلى الهدوء ولا يحب الجلبة والهرج. وقد أصبح شابًا الآن، وسينهي دراسته الثانوية هذا العام، واستطاع أن يجتاز كل مراحل دراسته بنجاح. لكنه قبل أسبوع، وفيما أنا ووالده جالسان في الصالون، أخبرنا بأنّه يرغب في أن يحدثنا في أمر ما. في البداية لم نتمكن من إدراك ما يعنيه على وجه التحديد، فقد كان يتحدث وسط دموعه، ولكنه أوضح لنا بأنّه ليس شابًا تام الذكورة، إنَّه كما يطلقون عليه ذلك الاسم.
- مثلي الجنس؟
- أجل، وقد أخبرنا أنَّه لم يعد قادرًا على إخفاء الأمر عنا أكثر، وبعد أن أنهى حديثه اتجه إلى المطبخ، وعاد حاملًا السكين، وهو يقول "إن شئتم فسأقطع عنقي على الفور لأنتهي من هذا العذاب" فجنّ جنوننا، وبالكاد استطاع والده أن يأخذ السكين من يده. المسكين يشعر بالتعاسة أكثر منا، وأكثر ما يرعبه أن يكتشف أحد حقيقة الأمر. وقد اعترف أنَّ هذا ما يدفعه إلى البقاء معظم الوقت في البيت، بعيدًا عن الجميع. معنوياته محطمة تمامًا. كما أنَّه قد فقد أمله في المستقبل، فهو يعتقد أنَّه حتى لو أتم الدراسة، كيف وأين سيعمل؟ لقد صدمنا بهذا الاعتراف، ولم نستطع أنا

وزوجي أن ننام تلك الليلة، كلانا انتحب باكيًا، ولطم نفسه حتى الإنهاك. ومن وقتها، زوجي لا يكل عن السؤال مرعوبًا: "ماذا سأقول للناس؟ كيف سأواجههم؟". نحن الثلاثة نتخبط من الألم دون أن نملك حلًا، ولو تعرض ابننا الوحيد لحادث ومات، فما كان حزننا أشد مما هو عليه الآن. ولا يمكننا أن نلومه، فهو الآخر منهار، ولا نملك وسيلة لمساعدته. وأخيرًا بعد أن استعدت وعيي قليلًا، فكرت في المجيء إليك، فأخذت أول رحلة إلى أنقرة دون إضاعة مزيد من الوقت، وقلت لنفسي: ما من أحد يمكنه أن يساعدنا سواها. والآن أرجوك أخبريني ما الحل؟ وهل لهذا الأمر من علاج؟ إن كان العلاج موجودًا، فسأبيع روحي إن اقتضى الأمر، حتى أساعد ابني وأنقذه من هذه المصيبة.

يا للمرأة المسكينة! ولكن كيف سأصارحها بأنّ حالة ابنها ليست مرضًا، بل هي حقيقة عليهم تقبلها والتعايش معها؟ كيف سأشرح لها أنَّ هذا الشاب المسكين، ليس شخصًا غير عادي، أو عديم الشرف كما يعتقدون؟ وأنَّه يستحق الدعم والمساندة، ولا يجب أن يعامل بدونية؟ كيف سأوضح لها حجم العذاب الهائل الذي يعانيه هذا الفتى المسكين منذ سنوات، والوحدة العميقة التي يشعر بها؟

الآن بت قادرة على فهم ذلك الأسى العميق في نظراتها، إذًا ليس الموت وحده ما يسبب لنا كل هذا الألم. حان الوقت لأظهر مهاراتي في الإقناع، فالأدوية لا دور لها في حالة لا تعتبر مرضًا، بل اختلافًا.

أتنفس نفسًا عميقًا، وأرتشف قهوتي التي أصبحت باردة، فقد أنستني قصة السيدة سندس القهوة.

- سيدة سندس، لقد وصلت توًا من رحلة طويلة، ولا بدّ أنَّك بحاجة إلى كأس شاي. لقد رفضت دعوتي إلى القهوة، ولكن أرجو أن تقبلي الآن، أن نشرب الشاي معًا.

وقبل أن تجيب، أتصل بالكافيتريا وأطلب كأسي شاي، فتقابل دعوتي بنظرات ممتنة.

- أعترف أنَّ مشكلتك على غاية الجدية، وهي لا تتعلق بك وبزوجك فقط، فهي تخص ابنك بالدرجة الأولى، ومن الواضح أنَّ الوضع قد أثّر فيكم جميعًا. ولا ألومك، فغالبًا يكون من الصعب كثيرًا التعامل مع هذه الحالات، خاصة في بلاد كبلدانا. أنا أقدر عاليًا ثقتك العميقة بي، والتي دفعتك إلى قطع كل هذه المسافة، وسأحاول أن أكون جديرة بهذه الثقة، وأناقش المشكلة معك، وكأنّها تخصني بشكل شخصي، وأقترح عليك الحلول التي كنت سأقترحها على نفسي، لو كنت في مثل وضعك.
- فليحفظك الله أنت وأحبتك من كل سوء، ويجزيك كل خير، سيدة غولسِران.

أشعر براحة بالغة حين أسمع هذه الأدعية، فهي تشعرني بأنّي قمت بأمر جيد. أقلب حبات المسبحة الصغيرة بين أصابعي، بينما أفكر كيف سأبدأ معها الحديث. ومع حضور الشاي، يرن صوت الكؤوس عندما نحركها، فهي أيضًا مثلي تشرب الشاي مع السكر. أبدأ الحديث بأناة دون أن أقارب صلب الموضوع مباشرة، فأوضح لها كيف أنَّ العادات والتقاليد تتغير عبر العصور، من خلال أمثلة من تاريخ البشر الممتد لآلاف السنين، وأنّنا لو تخلينا عن مخاوفنا من آراء الناس، فسنتمكن من تقبل الكثير من الأمور بسهولة أكبر بكثير، رغم أنَّ ما يهم حقًا هو ما نشعر به تجاه أنفسنا وأحبتنا المقربين، وليس ما يقوله الآخرون عنا. أحدثها عن لوعة الأمهات اللواتي يفقدن ابنًا أو زوجًا، فتكون أقصى أمنياتهن أن يعود للحياة، أن يعلمن أنّه حي في مكان ما، حتى وإن لم يتمكن من رؤيته أو سماع صوته مرة أخرى.

ثم أسألها عن مدى إيمانها، فتجيب دون تردد:

- من كل قلبي. لكنها تضيف في تردد وجِل، بأنّها باتت تشعر مؤخرًا بعدم قدرتها على تقبل ما حصل.

فأوضح لها أنَّ الله، إلهنا جميعًا، وهو إله ابنها أيضًا. وطوال هذه السنوات التي أخفى الأمر عنهما، كان يصارح الله بآلامه ويشكو إليه ما يعانيه، ومن المرجح أنَّه استمد الشجاعة من قوة إيمانه حتى تمكن من مصارحتهما بالحقيقة. لقد لجأ إلى الله، لأنَّه يدرك أنَّ من حوله قد يتخلى عنه. وأطلب إليها ألا تتخلى هي ووالده عن ابنهما، الذي سيظل جزءًا منهما سواء رضيا بذلك أم رفضا. كما أوضح لها أنَّ تكاتفهم في هذه الأزمة، ووقوفهم إلى جانب ابنهم، سيسهل عليهم جميعًا تقبل الأمر بسلاسة، وسيجعله يمضي في الحياة بثقة أكبر.

تسترخي تعابير وجهها وهي تستمع إلي، ويبدو عليها التأثر بكلماتي، فأشدد عليها أن تحضر معها ابنها إلى العيادة، موضحة لها بأبسط ما يمكن، أنَّ وضعًا كهذا قد يكون له تبعات ومظاهر جسدية، ومن الضروري لفتى في مقتبل عمره، أن يكتسب هويته الجنسية المناسبة في الوقت والشكل المناسبين، لذا على زملائي من الاختصاصيين الاستماع إليه، وفهم مشاعره وتحليل الموقف كله بشكل علمي للتمكن من مساعدته.

كما أبين لها أنَّ هذا الوضع، سواء أكان ناتجًا عن عوامل اجتماعية أم عضوية، خارج عن إرادة الابن، الذي يجب ألا يعامل كمذنب أو مسؤول، وأكرر لها أنَّ الأمر في مثل حالته ليس اختيارًا على الإطلاق.

تسمعني حتى النهاية في انتباه، ثم تفتح حقيبتها السوداء، وتخرج منها منديلًا أبيض اللون كبيرًا ومزينًا بنقوش فضية، وتمسح الدموع الغزيرة التي فاضت من عينيها في هدوء. وبعد أن تعيد طي المنديل بعناية، وتضعه في الحقيبة، تنهض ببطء، لكنها تبدو أكثر ارتياحًا مقارنة بلحظة دخولها، فهي تدرك أنَّ عليها تقبل الحقيقة رغم قسوتها. في تلك الأثناء، تقع عيناي على الخاتم ذي الحجر الأحمر على طاولتي، وبعد أن أتفحصه برهة، أعيده إليها قائلة:

- أرجو أن ترتديه مرة أخرى، ليذكرك دومًا بهذا اليوم، وبالحديث الذي دار بيننا هنا.

بعد لحظة من التردد، تمدّ يدها، فأضعه في إصبعها بهدوء، ليستقر بكل سهولة في الموضع الذي اعتاده منذ سنوات. تعانقني بحرارة، وتعاود البكاء.

- سأحضر ابني في أقرب وقت ممكن.

أرافقها حتى باب الغرفة مودعة، فتبتعد محنية الرأس، متهدلة الكتفين، في خطوات متثاقلة.

أغلق الباب، وأقف أمام النافذة، وقلبي مفعم بالحزن. كنت أرغب في مساعدتها من كل قلبي، لكني لم أستطع، وأنا متيقنة أنَّ كل ما أخبرتها به، لن يخفف من حزنها، فقد كنت ملاذها الأخير وأملها الوحيد.

تدخل تونا كعادتها متحمسة، وتسألني إن كنت أشعر بالتعب، لأنَّ هناك الكثير من المرضى في انتظاري. أقوم بتصفيف شعري بأناملي أمام المرآة، قبل أن أعاود الجلوس في مكاني. فتنظر إلي في فضول، وقد حضرت في ذهنها قائمة لا تنتهي من الأسئلة، فأستبق محاولتها:

- كل شيء على ما يرام، هيا استدعي المريض التالي، ليدخل.

ويبدأ المرضى بالدخول واحدًا تلو الآخر، وينساب الوقت كعادته في غفلة مني، حتى يحل المساء. آخر مرضاي ستكون آلا، ثم سيكون بوسعي أخيرًا الذهاب إلى البيت.

تدخل كعادتها محنية الرأس، ورغم حلول الصيف، لكنها لا تتخلى عن تلك الثياب الصوفية القاتمة، شعرها أشعث كما هو الحال دومًا، لكن البكلة الحمراء لا تزال في مكانها. حين تنظر نحوي، لا أرى في وجهها تلك الدمامة التي كنت أراها في زياراتها الأولى. ورغم أنَّ مظهرها بحالة مزرية، فخصل شعرها القصير الملبد، تحيل رأسها إلى كرة مطاطية انفجرت توًا، لكني ألحظ بعض الحيوية في وجهها.

تضع حقيبتها الجلدية البالية على الطاولة، وتحاول خلع السترة الصوفية السوداء المغبرة، والملطخة بكل أنواع البقع. لا أستبعد أنَّها ترتدي الملابس ذاتها منذ سنوات دون أن تقوم بغسلها. حين تنزع عنها السترة، تظهر بوضوح آثار

الجروح على ذراعها الأيسر. سابقًا كانت تحرص على إخفاء هذه الآثار، وتحول دون أن أراها، لكنها الآن تنزع عنها السترة، رغم إدراكها أنَّ هذه العلامات ستظهر للعلن. إنَّها ليست سوى جلد رقيق يغطي كومة عظام، ورغم ذلك فهي تبدو بحال أفضل، ولا تقف مقوسة الظهر كما في السابق. ومع اكتسابها بعض الوزن، فقد اختفت أوردتها التي كانت تلف جسدها كشبكة زرقاء.

- ما هذه الجروح التي في ذراعك؟
- أنا فعلت ذلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لماذا؟
- كي أشعر بالألم.
- ألا تشفقين على نفسك؟
- لا. هل تشعرين بالشفقة نحوي؟
- لقد طلبت إليّ أن أكون صريحة معك، أليس كذلك؟
- هذا ما اتفقنا عليه منذ البداية.
- بالتأكيد، أشعر بالشفقة عليك، رغم معرفتي أنَّك لا تحبين أن يشفق عليك الآخرون، لكني أشعر بالأسى حين أرى ما تفعلينه بنفسك، فلا يمكن للمرء أن يقدم على أمر مماثل، إلا إن كان يشعر بألم داخلي عميق، فيحاول تشتيت ألمه الروحي الذي يقف عاجزًا حياله، من خلال هذه الإصابات الخارجية.

لوهلة تظهر الحيرة في عينيها وهي تستمع إلي، قبل أن تسألني:

- هم. أهناك سبب آخر يدفعه إلى ذلك؟
- الغضب الشديد. فحين يعجز عن القيام بشيء حيال الشخص الذي يثير غضبه، يوجه هذا الغضب إلى نفسه، ويقوم بتخفيف حدته من خلال إحداث هذه الإصابات.
- يبدو هذا سببًا معقولًا. وماذا أيضًا؟

- من الواضح أنَّك عدت لتستجوبيني، لكني سأستمر. أحيانًا قد يفعل ذلك لجذب الاهتمام وكسب التعاطف. فأيًا من هذه الأسباب تختارين؟
- كلها.
- ومن هو الشخص الذي أثار غضبك إلى هذه الدرجة؟
- كل من يخطر ببالك، يثير غضبي، وخاصة...
- وخاصة؟
- أعتقد أنَّك بت تعرفين الكثير عني. فكل من عشت معه يومًا يثير غضبي، حتى زوجة عمي الصغرى التي كانت لطيفة معي، كانت تغضبني، لأنَّي لم أكن قادرة على الوثوق بها. فهي تضحك في وجهك اليوم، وغدًا تعبس وتعتبرك عدوًا. لا يمكن الوثوق بشخص ضعيف، لأنَّه سيبيعك عاجلًا أم آجلًا. أما الآخرون فكانوا على الأقل لا يبدلون ألوانهم. وماذا عنك، هل تثقين بالآخرين؟
- أنا؟ أجل، أثق بهم.

ترفع كتفيها في حركة تنم عن سأمها من الحياة.

- بالطبع ستفعلين. فالثقة أمر سهل كالماء بالنسبة إليك. لو كنت مكانك، لوثقت أنا أيضًا بكل من حولي.
- ولِمَ ذلك؟
- لأنَّك قوية. لقد تركت الخوف للآخرين؛ ولعلي لهذا السبب أحبك. أنا أحبك وبتّ أثق بك أيضًا. فأنت لا تنحنين أو تترددين، ولا تحاولين إخفاء الحقيقة، وإظهارها على غير ما هي عليه؛ لأنَّك لست بحاجة إلى هذه الألاعيب. من الجيد أن أتعالج لديك، لكني لا أرغب في التعامل معك في الحياة العادية؛ لأنَّي سأشعر بالخوف منك. ورغم ذلك فأنا راغبة في أن أصبح مثلك يومًا ما. فالإنسان لا يبلغ الحرية ما لم يكن قويًا، والحرية ليست متاحة للضعفاء. لعلي أوضح مثال على ذلك. فأنا شابة،

لدي مهنة جيدة والكثير من المال. وأبدو لمن لا يعرفني فتاة حرة، لا أحد يتدخل في حياتها أو يلزمها بشيء، لكن حقيقتي هي النقيض تمامًا. وأنا عاجزة عن استغلال كل هذه الميزات التي لدي. لمَ؟ لأنَّي ضعيفة. هذا الضعف الذي تسلل إلى روحي منذ لحظة ولادتي. ومهما حاولت أعجز عن التخلص منه. فالذكاء والتفوق والموهبة والاجتهاد، كلها قشور لا تمنحك القوة. وبينما من يمتلكون نصف ما لدي، يجتازونني بسرعة الضوء، وأنا أراقبهم في بلاهة متيبسة في مكاني. هل سأتمكن يومًا ما من امتلاك، ولو قليلا من القوة؟ هل تظنين حقًا أنَّي سأتمكن من تحقيق ذلك؟

أعتقد أنَّ مشوارنا معًا سيكون أسهل مما سبق، وإن لم يصبح الدرب ممهدًا بعد، لكنها على الأقل باتت تثق بي، بل تحبني أيضًا. وسؤالها الأخير تعبير واضح عن مدى تمسكها بالحياة.

- لديك أسلوب بديع في التعبير عن مشاعرك. أما بالنسبة إلى الأمل، فأنا أرى رغبتك القوية، وأؤكد لك أنَّك ستحققين ما تريدينه، حين ترغبين فيه بكل جوارحك. هذا ما أنا واثقة به حتى النهاية. لكن ما لم نتخلص من هذا الغضب الذي يعصف بك، فعلى الدنيا السلام.
- تخشين أن ألحق الأذى بالآخرين. صحيح؟
- أجل، فأنت بارعة في فهم كل ما أعنيه.
- وما الضير؟ ليلحق بعض الأذى بالآخرين أيضًا.
- أحقًا هذا ما ترغبين فيه؟
- لم أصل بعد إلى المرحلة التي تخولني التفكير في الآخرين. بالكاد أنا قادرة الآن على التركيز على نفسي.
- الإنسان القوي قادر على التفكير في الآخرين بقدر ما يفكر في نفسه. ولو توازى هذان المساران في الحياة، فسيغدو ذلك رائعًا. لكن السلطانة أسما

ليست مثالًا يحتذى به. فقد بدت لي من قصتك أنَّها شخص أناني، يخشى فقدان عرشه، ومستعد لارتكاب كل الشرور للحفاظ على مكانته.

- هي لم تكن قوية بل شريرة، وكانت تستمد قوتها من هذا الشر. لقد قرأت الكثير عن حياة العبيد؛ فالعبد لم يكن يخشى سيده لأنَّه قوي، بل كان سيده يخيفه لأنَّه سيده فحسب. وهي أيضًا كانت كذلك.

لديها قدرة رائعة على تحليل المواقف والمفاهيم، فهي تدرك أنَّ القوة تختلف عن الشر.

- وماذا عن الأميرة؟

- في الحقيقة، كانت أكثرهم ضعفًا؛ فليس لديها ذكاء ولا موهبة أو قوة لتحمي بها نفسها. كانت تعتمد على جمالها، وتتوقع من الجميع أن يقعوا في غرامها، ويكنوا لها الإعجاب. هذا كان الشيء الوحيد الذي يغذي روحها. ورغم ذلك، فقد كانت من ضمن من تجاوزوني بسرعة الضوء. ففي ذلك البيت، كانت هناك حفيدتان فقط، أنا وهي. هل لك أن تتخيلي أنَّ فتاة بلهاء مثلها، كانت تمتاز بمكانة أعلى مني بما لا يقاس. كانت وكأنها سيدة البيت وأنا خادمتها. بالطبع، كانت أمي السبب الرئيسي وراء ذلك، فكل شيء بدأ من عندها. ففيما كانت أمها كنة ذلك البيت، كانت أمي تبدو وكأنها خادمة البيت لأنَّها تصرفت منذ البداية على هذا الأساس. وإن كان لجمال الأميرة دور في مكانتها إزاء دمامتي، فماذا عن أمي التي كانت المقارنة بينها وبين الكنة الشقراء، تكاد تكون مستحيلة. فهي ملكة جمال، والأخرى عجلة صفراء.

- ماذا قلت توًا؟

- العجلة الصفراء. فقد كانت السلطانة أسما تلقبها في غيابها، بهذا الاسم حين تستاء منها.

- ولماذا لقبتها بالعجلة الصفراء؟

- لا أعلم على وجه التحديد، ولكن من الواضح أنَّها كانت تسخر منها. كانت تطلق على كل واحد منا لقبًا. فكان لقبي رأس العفريتة، أو التعسة.
- وماذا كانت ألقاب البقية؟
- أمي كانت تلقب بالبغلة، وزوجة عمي الصغرى المغرفة. فقد كانت تشبه أمي بالبغلة بسبب قامتها الطويلة. وزوجة عمي الصغرى كانت تملك أنفًا صغيرًا، وفي مسقط رأسي يلقبون من لديه أنف صغير بالمغرفة. رغم أنَّ الناس يجرون عمليات تجميل للحصول على أنف مماثل، لكن عظمة أنفها كانت تبدو مسطحة.
- ألم تطلقوا أنتم أيضًا لقبًا عليها؟
- ومن يجرؤ على فعل أمر كهذا؟ فهي من أطلقت على نفسها لقب السلطانة. وكان الجميع في المنطقة ينادونها بالسلطانة أسما.
- هل ترغبين في التحدث عن أمك؟
- لم يكن لدي أم. هي لم تكن أمي، لقد ألغت وجودها بنفسها. لم تكن شخصيتها تظهر إلا معي. كنت الوحيدة التي تثبت أنَّها موجودة ولديها مشاعر حتى وإن كانت سلبية. فقد كانت ترمقني بنظراتها النارية، كيفما تحركت. لم تنظر إليّ عيناها ولو مرة واحدة بمحبة. أتساءل أحيانًا: إن كانت قادرة على كل هذا الغضب، كيف لم تكن قادرة على الحب ولو برهة عابرة؟ لكنها كانت تمقتني. تمقتني بشدة.

كيف لإنسان أن يكبر دون محبة؟ كيف يمكن له أن يحب نفسه ويمنح الآخرين الحب؟ إنَّه أشبه بوصف الألوان لشخص أعمى. إنَّه مذاق لم تشعر به في روحها، ولا ترك أثره في تعابير وجهها. ومن الصعب على المرء أن يحب شخصًا كهذا، لكني رغم ذلك لم أعد أشعر بالنفور منها كما في السابق، بل إنَّ إعجابي بها يزداد في كل مرة. فهي رغم كل شيء لم تفقد الأمل، بل ما زالت تقاوم، وستنتصر يومًا ما بكل تأكيد، ولكن من سيخسر مقابل انتصارها، هذا ما يشغل تفكيري حين

أراها. فذكاؤها الحاد، وتفانيها في العمل، وصراعها المرير من أجل الخلاص، وأخيرًا اختيارها طبيبة مستعدة لمساندتها في كفاحها حتى الرمق الأخير، كل هذا عن أيّ نتائج سيسفر يا ترى؟ هذا ما أحاول تخمينه في ترقب حذر.

لو أنَّ أحدًا آخر مرّ بما مرت به، لتخلى عن المقاومة منذ زمن طويل، لكنها لم تفعل. وقد تمكنت حتى مني، فبعد أن كانت بالنسبة إلي مريضة، أتحاشاها وأحاول التخلص منها، ها أنا الآن أخصص لها ساعات من وقتي، وأقضي معظم أمسياتي في القراءة، لتكون لدي حكاية جديدة أرويها لها، وأبذل كل جهدي لتخزين كل كلمة تقولها، في ذاكرتي، لأنَّي أريد لها أن تنتصر، فمن يرغب في تحقيق هدف ما ويسعَ إليه بكل هذا الإصرار، يستحق بلوغه.

- يبدو أنَّ أمك لم تكن تحب أحدًا، بمن فيهم أنت.
- أنت محقة. فهي لم تحب أحدًا. كانت لها روح عبد، رغم أنَّ الذكاء لم يكن ينقصها. فما كانت تقوم به من أعمال منزلية، وما تطبخه، تعجز الأخريات عن القيام بنصفه، لكنها كانت تعاني من مشاكل في مشاعرها. كانت مثلي لا تعرف كيف تحب نفسها، وتشعر بانجذاب غريب نحو السلطة. وكانت السلطانة أسما بالنسبة إليها مصدر السلطة الوحيد. لذا باتت غايتها الوحيدة، أن تحظى برضاها، وتنال إعجابها. ولم يكن يعنيها في شيء إن أحبها زوجها أم لم يفعل. كان الخنوع يسم روحها، وقد ورثت عنها هذه الروح. فكل من عرفتهم من الرجال يشتركون في سمة وحيدة، وهي الغرور. وطالما حامت خياراتي دومًا حول أكثر الرجال صلفًا، وأكثرهم قسوة وعدوانية وادعاءً متوهمة أنَّ حبهم لي، أو حتى مجرد تقبلهم، سيجعلني أتقبل نفسي. لكن كما هو متوقع، لا أحد منهم أحبني أو تقبلني.

ترفع رأسها، وترمقني بنظرات تراوح بين بريق الأمل وخبو اليأس، وهي تكمل:

- لكن رغم ذلك، فأنت أصبحت قادرة على تقبلي. أعلم أنَّك لم تفعلي ذلك في البداية، لكن ما حدث لاحقًا أذهلني. فقد أوليتني اهتمامك،

وتعاملتِ معي بإنسانية، ولم تتخلي عني. بدأت تروين لي الحكايات، وحاولتِ التعرف إليّ بكل صبر، ولم يشغلك شيء عني خلال وجودي معك. كنت حريصة على الاهتمام بكل ما أقوله لك. ورغم أنَّي أثير غضبك في بعض الأحيان، لكنك غالبًا ما تتعاملين معي بمحبة. وحتى إن لم تعبري عن ذلك بالكلمات، فأنا أستشعر ذلك في نظراتك الحانية. أحيانًا أسأل نفسي: ترى هل تعلم مدى أهمية كل هذه التفاصيل الصغيرة بالنسبة إليّ؟ ولا أدري إن كنت لاحظت ذلك أم لا، لكنك أصبحت رمز السلطة بالنسبة إلي. ربما لهذا السبب بالذات، فالاهتمام الذي تولينني إياه، هو أكثر الأشياء قيمة في حياتي. في الحقيقة، كانت تقلباتي المزاجية العاصفة خلال زياراتي الأولى، تعود إلى عدم ثقتي بك، أو تصديق ما تقولين. وكنت أعتبر تعاملك معي، مجرد جزء من واجبك المهني لا أكثر. وأقول في نفسي: هي تفعل ما يجب عليها فعله، وتقول ما يجب أن يُقال. لكن حين تعرفت إليك أكثر، أدركت أنَّ الأمر أعمق مما كنت أظن. فغضبك أو رضاك نابع من أعماقك. وحين بدأت تسردين لي الحكايات إزاء صمتي، بدل أن تحاولي التخلص مني. يا إلهي! كاد قلبي أن يتوقف. فهذا ما لم يفعله معي أحد طوال حياتي. هذه التفاصيل البسيطة، هي ما كنت أحلم بها، وأتمناها من كل قلبي.

في الحقيقة، كنت أعلم أنَّ هذه الأمور على أهمية كبيرة بالنسبة إليها، لكن ما أذهلني حقًا هو قدرتها على إدراك كل هذه التفاصيل بوضوح تام، وكأنّي أجلس قبالة طبيبة نفسية، تحلل كل ما أقوم به بدقة متناهية. ذكاؤها الحاد يدهشني بقدر ما يخيفني.

- رغم كل هذه المشاعر، كان الضيق ينتابني في زياراتي الأولى. فرغبتي في إخبارك بما أشعر به، كانت دائمًا مقترنة بخوف شديد. كنت أخشى فقدان اهتمامك بي، بعد أن أطلعك على تفاصيل قصتي. لكن يبدو أنَّ البوح بجزء من الحكاية، يجعلها تكرّ ككرة الصوف، ولا يمكن التوقف دون التخلص

من كل القمامة والقذارات المتراكمة في ذهني. ترافقني خشيتي كظل يأبى مفارقتي، وأنا أسير على درب الاعتراف. رغم أنّي لم أطلعك بعد على نهاية القصة وجوهرها، لكني سأفعل. أتعلمين؟ لم يخطر لي يومًا أنّي سأتمكن من مشاطرة حكايتي مع أحد. فلا أحد يعرفني في هذه المدينة الكبيرة. وكنت أنوي الاحتفاظ بسري، مطبقة عليه فمي وقلبي حتى النهاية، وكأنّي لم أعش كل ذلك. لكن مع استعادة الماضي، تبدأ محاسبة الذات وتقييمها بأقسى الطرق. أنا محامية، أعمل وفق القوانين، وبحكم عملي يروي لي العملاء كل تفاصيل حياتهم. وهذا يعني أنّي يجب أن أدافع عن الكثير من المذنبين، وألا أعاملهم كما أعامل نفسي، بل عليّ فهم دوافعهم، لأنَّ ارتكاب جرم ما ليس أمرًا عابرًا، فالناس لا يرتكبون الجرائم دون دوافع قاهرة. وأنا أكثر من يعلم كم هي الحياة بالغة القسوة على البعض، وكيف يمكن لها أن تجبره على حمل الخطيئة على كاهله. لكن البشر غالبًا ما يتعلقون بأوهى الذرائع لتبرير ذنوبهم، في محاولة لإقناع أنفسهم قبل إقناع الآخرين. فكل منا يدرك أنَّ مكمن العلة في داخله بالذات، رغم أنّنا نتلوى في أتون تلك العلة، ونكتوي بها قبل أن نكوي الآخرين. كان أحد أساتذتنا في الجامعة يقول: "لو حفرت أعماق المذنب، فستجد هناك إنسانًا". لكن النفس البشرية بالمقابل، مزيج رهيب من التناقضات، من الخير والشر. ففي الوقت الذي يبذل فيه المذنب قصارى جهده، كي يتفادى العقوبة، فإنّ المرء يرى في نظراته أمورًا مناقضة تمامًا. في تلك اللحظات، أتمنى من أعماقي أن يحكم عليه القاضي بأقسى عقوبة؛ فأنا أعلم أنَّ العقاب خير علاج للجريمة. ويبدو لي أنَّ هتلر، أحد أكبر مجرمي التاريخ، كان ينشد العقاب بعد كل ما فعله. أعتقد أنَّه كان معاصرًا لفرويد، أليس كذلك؟

- أجل، لقد عاشا في الحقبة ذاتها، ولفترة وجيزة في المدينة ذاتها أيضًا.
- ترى ما كان رأي فرويد في شخصية هتلر؟

- كان هتلر من الأشخاص الذين أثروا بشكل مباشر في حياة فرويد، وبالمقابل هناك اعتقاد أنَّ هتلر قد استفاد من كتابات فرويد واستغلها.
- لقد أثارت هاتان الشخصيتان اهتمامي على الدوام. أحدهما بذكائه الحاد، والآخر بقدراته المدمرة. على المرء أن يفهم الشر أيضًا.

تتحدث الآن كفيلسوف، موقنة أنَّ فهم الشر هو أحد سبل فهم الحياة، وهي محقة بالطبع، خاصة أنَّها قضت حياتها بين الأشرار، وأغلب الظن أنَّها تصنف نفسها كواحدة منهم. ربما تتيح لها قصة هتلر وفرويد الفرصة للتعبير عن أفكارها بصورة أوضح.

- ما رأيك أن نتحدث قليلًا عنهما؟
- موافقة.
- في نهاية عام ألف وتسعمائة وتسعة، كان هذان الرجلان اللذان سيغيران العالم، كل بطريقته، يعيشان في فيينا. أحدهما هو سيغموند فرويد، إحدى أكثر شخصيات القرن العشرين جدلًا، ومؤسس مدرسة التحليل النفسي، كان حينها في الثالثة والخمسين من العمر. أما أدولف هتلر فقد انتقل للعيش في فيينا لدراسة هندسة العمارة والفن، والسعي وراء الثروة. كان شابًا في مقتبل العمر، يشارك أحد أصدقائه العيش في شقة صغيرة، ويقضي وقته في الدراسة والمطالعة، وتأليف المقطوعات الموسيقية. وبالمبلغ القليل الذي ورثه عن والدته، كان يعيش حياة متواضعة، يأكل القليل، ويدفع أجرًا زهيدًا مقابل سكنه. وأكبر بذخ يقدم عليه، هو حضور حفلات الأوبرا، وكان مولعًا بشكل خاص بمؤلفات فاغنر. كان قد تقدم مسبقًا للدراسة في أكاديمية الفنون الجميلة، لكن طلبه قوبل بالرفض. ولأنَّ شخصيته تتسم بالتمرد، فقد كانت علاقته مع مدرسيه سيئة على الدوام، كانوا يسخرون من أعماله، ويجدونه مفتقدًا الموهبة، لكنه كان موقنًا من أنَّه سيصبح رسامًا شهيرًا، أو مهندسًا معماريًا بارعًا.
- لو تمكن من تحقيق ذلك، لتغير وجه التاريخ كله.

- صحيح، فلو تمكن من أن يصبح رسامًا أو معماريًا ناجحًا، لتغير التاريخ بالتأكيد، ولأثّر ذلك حتى في حياتنا أيضًا بطريقة أو بأخرى. فكما ترين، أقدارنا جميعًا مترابطة. وإن كنا لا نعلم بعد كيف ستكون شخصيتك في نهاية هذا العلاج، فإني متيقنة من أنَّ ما ستعيشينه لاحقًا، سيكون له أثر في أقدار الآخرين أيضًا.

تجلس في الوضعية ذاتها حين تستمع إلى حكاياتي، كلتا يديها تحت ذقنها، وتستمع إلى كل كلمة أقولها في فضول شديد.

- تتحدثين وكأني شخص له أهمية في هذه الحياة.
- أجل، فأنت كالجميع لك أهميتك في الحياة.
- لست كذلك بعد، لكن إن قمت بأشياء شريرة، وتأثرت بها حياة الآخرين، فسأغدو حينها شخصًا مهمًا، تمامًا مثل هتلر.
- لست مضطرة لتكوني شريرة حتى تكسبي الأهمية. ولم يكن هتلر شريرًا بقدر ما كان يبحث عن المكانة والأهمية، لكنه أخفق في ذلك بطريقة فظيعة.
- أعتقد أنَّ الحياة أجبرته على أن يصبح شريرًا.
- كما قلتِ قبل قليل: *"لو حفرت أعماق المذنب، فستجد هناك إنسانًا"*.

قبل انتقاله للعيش في فيينا، وخلال الجولات المسائية التي كان يقوم بها في بلدته لينز، أحب امرأة تدعى ستيفاني، ورغم أنَّه لم يتحدث معها ولو مرة واحدة، لكنه كان يأمل أنَّ النجاحات التي سيحققها في فيينا، ستثير إعجابها به. وكان وفيًا لحبه، فلم ينغمس في ملذات العاصمة. ورغم أنَّه كان محور اهتمام معظم النساء من حوله، لكنه لم يتلفت لأيٍ منهن. حتى إنَّه في حفلات الأوبرا التي يحضرها بين الحين والآخر، كثيرًا ما تحاول إحداهن التقرب منه، بل ترسل إليه رسالة تطلب فيها لقاءه، لكنه بحسب ما كان يردده، كان مصرًا على عدم تلويث نفسه بـ*"لهيب الحياة"*.

- أليس من الغريب حقًا أن تهتم النساء برجل لا أثر للوسامة في شكله؟ كما أنَّه لم يكن حينها قد بلغ الشهرة بعد.
- لقد حاول فرويد سنوات طويلة معرفة ما ترغب فيه المرأة، ورغم أبحاثه التي دامت سنوات طويلة، لم يتوصل إلى نتيجة. وبالعودة إلى هتلر، فقد كان مرهف الإحساس منذ طفولته، وكان طفلًا يعاني من أزمات عصبية ونوبات بكاء، كما كان يحب الحيوانات كثيرًا، ولا يتحمل أن يراها تتعرض للأذى. لم يكن يشرب الكحول ولا يحبها، وكان مقتنعًا بأنَّ التدخين عادة مضرة بالصحة.
- كم كان بريئًا في طفولته! وكان مثلي هو الآخر يحب الحيوانات. إذًا، فالحياة هي من تجبر الإنسان أحيانًا أن يختار الشر.

وكأنها مقتنعة مسبقًا بأنَّها ستغدو شخصًا شريرًا، وتبحث عن المبررات المناسبة لذلك. حتى إنَّها وجدت ما يجمعها بشخصية هتلر. هذه الفتاة التي لا تعرف شفتاها الابتسامة، ولا أحلامها بريق الأمل، أحقًا لا ترى سوى الشر خيارًا وحيدًا أمامها في الحياة؟

- كانت أحد أضخم مشاريعه العمرانية لاحقًا في مدينة فيينا، هي المساكن المريحة الواسعة التي تم بناؤها لعمال المدينة الذين كانوا يقطنون في أزقتها المعتمة، لأنَّه عاش خلال شبابه في تلك الأزقة تحت ظروف غاية في القسوة.
- ولكن كيف لرجل كهذا أن يقتل عشرات الآلاف من الأشخاص في غرف الغاز، دون أن يرف له جفن؟ الحياة تغير المرء بطريقة دراماتيكية أحيانًا.
- كان وحيدًا، وقد شارف ما معه من مال على النفاد. فعاش فترة متشردًا في أزقة فيينا، ينام على عتبات المباني ومقاعد الحدائق العامة. ويقال إنَّه في تلك الفترة قد تسول أيضًا.
- تسول؟

- هذا ما تورده بعض الكتابات. في نهاية المطاف، لجأ إلى مأوى للمشردين، ثم سكن جماعي وضيع للعمال. كان ينسخ المناظر الطبيعية على البطاقات البريدية، ويسترزق من بيع هذه اللوحات للسائحين والتجار، ويقضي معظم وقته في القراءة، كما كان يلقي الخطب على من يشاركونه السكن. وخلال التجمعات التي تعقد في غرفته، كان يفصح عن آرائه حول اليهود والحركة الشيوعية، ويؤكد أنَّ قدر ألمانيا يُلزمها أن تسود بقية الأمم. في بعض الأحيان، كان أحد الحاضرين يقوم سرًا بربط سترة هتلر إلى الطاولة التي يجلس عليها، أثناء واحدة من خطبه الطويلة تلك، ثم يتعمد أن يلقي عليه سؤالًا سياسيًا يثير جنونه، فيهب هتلر محتدًا صارخًا، لترتفع الطاولة معه، ويتحول إلى مادة تثير ضحك الحاضرين وسخريتهم.

- كان مثلي يقرأ كثيرًا، لكن الآخرين يسخرون منه دومًا.

تشعر بأنَّها قريبة من شخصية هتلر، لكن محاولتها التشبه بإنسان مثله، تثير قلقي، وتشعرني بالذنب نوعًا ما، لأنَّي فتحت لها هذا الباب. إن كانت هذه حقيقتها، يجب عليّ إدراكها منذ الآن، والبحث عن سبل لتقويم هذا الاختلال. يبدو أنَّ هذا الموضوع سيفتح لي الكثير من خبايا أفكارها، وتصوراتها عن نفسها والحياة.

- كان الكثيرون ممن عرفوه حينها، يعتقدون أنّه يعاني من لوثة عقلية، ولم يخطر لأحد منهم، أنّه سيغدو الشخص الذي سيغير أقدار العالم كله يومًا ما. في فترة إقامة أدولف هتلر في فيينا، كان سيغموند فرويد الذي يشاركه العيش فيها، قد بلغ أوج شهرته. كان رجلًا مهيب الطلعة، متين البنية، في أوسط العمر، بشعر كث، ولحية أنيقة، تشي ملامح وجهه المعبرة بالهوس والرزانة على حد سواء. يتوسط وجهه أنف معقوف، وعينان فيهما بريق يسترعي الانتباه. كان شخصًا على درجة كبيرة من الثقة بنفسه، وله تأثير قوي فيمن حوله، يمتاز بذكاء حاد، إلى جانب حس الفكاهة.

- نظرًا إلى كل هذا المديح، من الواضح أنَّك تحبينه.

يستشف المرء من نبرة صوتها، ظلالًا من الغيرة. ترى أيّ الشخصيتين ستختار في النهاية للتطابق معها؟ هل ستختار الطيبة والنجاح، أم الشر والشهرة؟

- أجل، فأنا من أشد المعجبين به، كما أنَّنا جميعًا نسير على الدرب الذي خطه لنا، لفهم النفس البشرية بصورة أكثر إنسانية وواقعية. وهكذا ففيما كان هتلر يعيش حياة تشرد في عام ألف وتسعمائة وتسعة، كان فرويد قد نجح في جذب انتباه العالم بأسره من خلال الكتب والدراسات التي نشرها حتى ذلك الوقت. كان حلمه أن يصبح مفكرًا عالميًا، وهذا ما حققه لاحقًا بعد أن كشف عن خرائط اللاوعي وآليات الدفاع النفسية، والعديد من النظريات النفسية الأخرى التي أكسبته شهرة عالمية. فقد أوضح الصراعات التي يولدها الكبت في النفس البشرية، كما حلل آلية خضوع البشر عبر آلاف السنين للطغاة، وتماهيهم مع إيديولوجية الطاغية، بل الإعجاب بشخصيته والتماهي معها، والآثار النفسية المدمرة المترتبة على ذلك.
- إذًا، فشخصيات مثل هتلر كانت تثير فضوله، ويحاول فهمها.
- إن كانت المصادفات قد شاءت حينها لقاءهما في أحد شوارع فيينا، فليس من المستبعد أنَّ فرويد قد شبهه بفأر شارع بائس، أما هتلر فقد حاول دومًا التقليل من شأن فرويد، وكان يعتبره أحد أولئك المتبجحين من أفراد الطبقة العليا في فيينا، والتي كان يحقد عليها بشدة، خاصة أنَّه كان يهوديًا.

تنتفض على الفور، لتساند الشخصية التي لا تزال حتى الآن تقف في صفها.

- سيأتي اليوم الذي يتمكن فيه ذلك الفأر البائس، الذي لم يعتبره فرويد وأمثاله جديرًا بالحياة، من طردهم جميعًا خارج حدود بلاده.

ترى هل تحرضها نيران الانتقام المستعرة داخلها، للقيام بفظاعات مماثلة؟ فمن الواضح أنَّها متماهية مع شخصية هتلر.

- كانت الظروف العالمية تسير لصالح هتلر، فخلال الحرب العالمية الأولى، عمل مراسلًا حربيًا، وقد أظهر من الشجاعة ما لفت الأنظار

نحوه، وحصل على العديد من الأوسمة. بعد انتهاء الحرب، انضم إلى حزب سياسي صغير في ميونخ، وتمكن من تحويله بمرور الوقت، إلى قوة سياسية فعالة. وفي عام ألف وتسعمائة وثلاثة وعشرين، شارك في انقلاب على الحكومة، لكن المحاولة باءت بالفشل، وتم سجنه. وفي السجن، قام بتأليف كتاب "كفاحي" الذي يتحدث فيه عن ماضيه، كما يوضح فيه رؤاه المستقبلية حول ألمانيا. وفي السنوات العشر اللاحقة، واصل الكفاح ولم يتنازل قط عن أحلامه، حتى تمكن في عام ألف وتسعمائة وثلاثة وثلاثين من تولي منصب مستشار البلاد. لكن أكبر أحلامه كان الاستيلاء على النمسا، البلد الذي ينحدر منه.

- من فأر أزقة إلى مستشار؟ هذه هي الحياة إذًا؟ والسر يكمن في عدم التخلي عن الأحلام.

- صحيح، وهناك مئات الأمثلة في التاريخ. فالأمل، والعمل المتواصل دون يأس، هما الخلطة السرية للنجاح على الأغلب.

- وأنا أيضًا لن أيئس. من يدري؟ فربما أحقق النجاح يومًا ما.

يشي صوتها رغم نبرته الطفولية الحادة، بتصميم قوي. لذا أوقن بما تقوله، وأعلم أنَّها ستنجح في النهاية.

- هذا ما أتمناه لك من كل قلبي، لكني أرجو ألا تكون نجاحاتك كنجاحات هتلر.

- من الغريب للإنسان وبعد تحقيق أحلامه، أن يغدو بهذه القسوة والجبروت!

إنَّها بارقة أمل، فهي ترغب في أن تتخلص من هذا الغضب المستعر داخلها، بعد تمكنها من تحقيق أحلامها.

- في الحقيقة، لقد أشار بوضوح في الصفحات الأولى من كتابه "كفاحي" الذي ألفه خلال فترة سجنه، إلى أنَّ النمسا جزء من الأمة الألمانية، ومع تسلمه السلطة، بات أكثر تصميمًا على تنفيذ هذه الفكرة. فالسنوات التي

قضاها في فيينا، لم تغب عن باله قط. غالبًا ما كان يردد بأنّه وصل تلك المدينة كطفل يتوجه إلى حضن والدته، لكنها علمته القسوة بمرور الوقت. وأحيانًا كان يمازح من حوله قائلًا: إنَّ مسح هذه المدينة بالأرض سيكون أمرًا ممتعًا بالفعل.

- إنَّه محق. فقد عانى في تلك المدينة الكثير، ومن الصعب على المرء أن ينسى لحظات كتلك.
- وهو ما فعله هتلر، فلم ينس شيئًا. في شتاء عام ألف وتسعمائة وثمانية وثلاثين، كان من بين الذين استقبلوا هتلر في فيينا، سيغموند فرويد الذي كان قد أصبح عجوزًا وتفاقم مرضه حينها، إلى جانب مئة وسبعين ألف يهودي من أبناء المدينة. كان النازيون يكرهون فرويد، حتى إنَّهم خلال تظاهرات عام ألف وتسعمائة وثلاثة وثلاثين التي جرت في ألمانيا، قاموا بإحراق كتبه في الشوارع. وحين وصل إلى فرويد خبر إحراق كتبه، علق بالقول: "لقد تطورنا حقًا، فلو كنا في العصور الوسطى لكانوا أحرقوني، لكنهم الآن يكتفون بإحراق الكتب فقط". لكن النازيين الذين عادوا إلى فيينا عام ألف وتسعمائة وتسعة وثلاثين، لم يكتفوا هذه المرة بإحراق الكتب فقط.
- لقد قرأت بعض الكتب عن تلك الحقبة، والتي تتحدث عن الأحداث القاسية التي وقعت في المدينة. فقد تجرد الناس من مشاعر التعاطف والرأفة، وأصبح الجيران أعداء لجيرانهم. لم يكن هتلر الشرير الوحيد بينهم. كل ما فعله أنَّه أوقد جذوة الشر في أرواحهم، فانتشر الجنون بين الجميع.

أنظر بإمعان إلى تعابير وجهها وهي تتحدث، هناك برود جليدي يعلو وجهها، ذلك البرود الذي يبديه من اتخذ قراره مسبقًا، ويعلم تمامًا أين سيتجه. لكنها محقة فيما تقوله، فهتلر رغم كل شيء، لم يقم سوى بإيقاد تلك الجمرة النائمة في النفوس.

- في عام ألف وتسعمائة وثمانية وثلاثين، كان فرويد عجوزًا خائر القوى، يبلغ واحدًا وثمانين عامًا، ويعاني من سرطان الحنجرة الذي أفقده العزيمة وروح

المقاومة، وقد استحال شعره القليل ولحيته إلى اللون الأبيض، وبنظارته ذات الإطار الأسود، كان أشبه ببومة هرمة. ونتيجة العمليات الجراحية الكثيرة التي خضع لها، والتي خسر معها معظم أسنانه وبعضًا من عظام وجهه وفكيه، التي استبدلت بفك اصطناعي، لم يعد قادرًا على الكلام بصورة واضحة، لكن عينيه لم تفقدا قط بريقهما، ولا تلك النظرة الثاقبة التي تميز بها. في هذه الأثناء، كان هتلر قد بدأ بتنفيذ مخططه القديم، فاستدعى مستشار النمسا. لقد أصبح ذلك الفأر الفقير الذي كان يتجول في أزقة العاصمة، زعيمًا قويًا يأمر قادة الدول بالمثول أمامه. كان المستشار رجلًا منطويًا، يرتدي نظارة دون إطار، ويشعل سيجارة تلو الأخرى، ولم يكن يمتلك المؤهلات الكافية لمواجهة الفوهرر. كان الاجتماع أقرب إلى إنذار حرب نهائي، منه إلى جلسة ديبلوماسية بين الرجلين، فطلب إليه هتلر عقد مؤتمر للإعلان عن انضمام النمسا إلى الأمة الألمانية العظيمة. شعر المستشار بالاستياء كثيرًا، إذ صرح لاحقًا، أنَّه تمنّى لو استطاع إحضار محلل نفسي معه ليتمكن من التغلب عليه، فقد صارحه هتلر قائلًا: "ربما تجدنا ذات صباح حين تستيقظ من نومك، وقد دخلنا المدينة. حينها ستسفك الدماء غزيرةً كأمطار الربيع"

- كيف يتحدث إليه بهذه الطريقة، في لقاء ديبلوماسي؟ زعيم مجنون، ومستشار إمّعة. ولكن ما قصة الطبيب النفسي؟ هل كان من المألوف حينها اصطحاب طبيب نفسي في لقاءات كهذه؟ أم إنَّها إحدى أفكار المستشار الجبان؟
- لقد حاولت السياسة في كل أنحاء العالم الاستفادة من علم النفس، وخاصة الأمريكيّين، فهم رائدون في هذا المجال.
- وفي رأيك هل لذلك من فائدة؟
- بالطبع. فالسياسيون يستهدفون الناس، ويرغبون في التواصل مع كل شخص من الجماهير، ولا أحد أقدر من الاختصاصيّين النفسيين على تحقيق هذا الهدف.

- إذًا، سيكون من المفيد لمن يعمل في مجال الحقوق أن يتعرف إلى سيكولوجيا الفرد. لو استلمت قضية كبيرة، هل ستوافقين على مساعدتي؟
- حينها سنقرر ذلك معًا.

من المبهج حقًا أن أراها تعبر عن طموحاتها.

- في الوقت الذي كان هتلر يعيش فيه أوج قوته وسطوته، كان فرويد الذي يعاني من سرطان الحنجرة منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، في أضعف مراحل حياته. ورغم ذلك فقد ظل متمسكًا بنزعته المتمردة، فكان لا يتوانى عن التعبير عن رأيه في إصرار وعزيمة حتى النهاية، وخوض غمار ما يخشى معاصروه الاقتراب منه. وإن اقتنع بصحة فكرة ما، كان يدرسها ويقوم بنشرها مهما كان الثمن.
- هذه هي الشجاعة.
- حين أدرك مستشار النمسا أنَّ هتلر ينوي الاستيلاء على بلاده، استنجد بكل دول العالم، وعلى رأسها إنكلترا وفرنسا طالبًا المساعدة، دون أن يلتفت أحد لاستغاثته، ليترك المستشار المسكين يواجه مصيره وحده.

تميل برأسها قليلًا، والتعاطف باد في عينيها مع محنة الرجل الذي وصفته بالجبان.

- يا للقسوة! ربما لو لم يتجاهلوه حينها، لتغير قدر العالم كله.
- وهذا ما أعتقده أيضًا، لكن من الواضح أنَّ أحدًا منهم لم يخمن أنَّ هذا المصير بانتظارهم واحدًا تلو الآخر. في تلك الأثناء، تلقى فرويد الذي بات الخطر النازي على حياته جديًا، أول عرض لحمايته من الولايات المتحدة الأمريكية، لكنه رفض الفكرة، لأنَّه لم يحب الأمريكيين يومًا. إلا أنَّ الأوضاع في فيينا بدأت تزداد خطورة بمرور الساعات، ففي جميع الأحياء ارتفعت شعارات "الموت لليهود".
- لقد رفض عرض الأمريكيين، حتى حين كانت حياته في خطر! كان رجلًا شجاعًا بحق، وصادقًا مع نفسه.

وأخيرًا استطاعت الإعجاب بفرويد، ووجدت فيه شيئًا يجذبها.

- حين بدأ سكان المدينة اعتداءاتهم ورشقوا محالّ اليهود بالحجارة، كانت الدولة الوحيدة المؤيدة لهذه الانتهاكات في العالم، هي إيطاليا التي يحكمها موسيليني. وفي الثاني عشر من آذار عام ألف وتسعمائة وثمانية وثلاثين، دخلت القوات الألمانية العاصمة النمساوية دون أدنى مقاومة. وهكذا تحقق الانضمام، أو كما أطلقوا عليه "أنشلوس". في صباح اليوم التالي، سجل فرويد جملة وحيدة في يومياته: "انتهت النمسا".
- وحده الله يعلم الخوف الذي شعر به فرويد في ذلك اليوم.

تبدو خائفة، وكأن الخطر يتهدد حياتها.

- أجل، فقد اشتدت عليه وطأة المرض كثيرًا. في تلك الأثناء، كان الجيش النازي الذي احتل المدينة، يحظى باستقبال الفاتحين. وقد فرشت الجماهير الحاشدة التي خرجت لاستقبالهم، كل الطرقات التي مروا بها بالأزهار، حتى إنَّ الجنود تلقوا أوامر بارتداء نظارات؛ كي لا تخدش أعينهم الأزهار التي يلقيها الناس عليهم.
- يا إلهي! هذا هو الجنون بعينه. كيف يستقبلون المحتلين بهذه الطريقة؟
- لقد تحدثنا حول هذا الموضوع مسبقًا، فالمجتمعات أيضًا تصاب بالأمراض. وقد كانت رغبات الناس في تلك الحقبة تميل إلى الوحدة والبساطة. فهم لا يمانعون في حاكم طاغية، طالما أنَّه يؤمن لهم حياة واضحة المعالم، ويعفيهم من عناء الاختيار. كانوا يرغبون في شخص قوي على خلاف ضعفهم، يقودهم في مجتمع يهيمن عليه حزب واحد، وعرق واحد، وقائد واحد ينظم لهم تفاصيل حياتهم كافة.
- إنَّه الضعف مجددًا. ففي أعماق هذه الرغبة، يقبع العجز. لطالما رأيت الخطر في القوة، لكن يبدو أنَّ الضعف في كثير من الأحيان لا يقل خطورة عن القوة.

إنَّه أحد أكثر المواضيع التي تشغل ذهنها، القوة والضعف، السلطة والخنوع. لكن ذهنها الذي يعمل بدقة ساعة سويسرية، قادر على تحليل كل ظاهرة بمنطق باهر.

- قبل أن نعود إلى هتلر، أودّ أن أخبرك أنَّ تعليقاتك هذه أكثر ما يثير إعجابي. كان هتلر في تلك الأثناء يتجه إلى النمسا في سيارة مرسيدس مكشوفة. وفي حوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر، وصل إلى مكان يدعى "برواناو أم إين"، حيث تم استقباله بهتافات صاخبة، وبعد أربع ساعات كان في مدينة لينز التي قضى فيها طفولته. دقت أجراس الكنيسة، وأخذ الحشد المجتمع أمام مبنى البلدية يهتف في حماس: "شعب واحد. أمة واحدة. قائد واحد"، وقد ترك الفوهرر على قبري والديه اللذين زارهما باقات الأزهار. الأمر اللافت أنَّ هتلر نفسه لم يكن يتوقع هذا الاستقبال الحاشد، والاحتفاء العظيم به. كان يأمل أن يخضع النمساويون لألمانيا، لكن الشعب كان قد تخطى مرحلة الخضوع، حيث استقبله في فرحة عارمة، وكأنه المخلص وليس المحتل. فقد غدا هتلر في نظرهم، القائد الذي سيخلصهم من اليهود الذين اتُهموا بأنهم السبب الوحيد لكل الفقر والضعف والمشاكل التي يعانون منها.

- يبدو أنَّ المستشار السابق كان مجرد أرنب مذعور؛ لذا بدا لهم هتلر البطل المنقذ.

- خلال الطريق وكيفما تلفت حوله، يرى أعلام الصليب المعقوف ترفرف في كل الشرفات، الأمر الذي زاده غبطة. كان سيغموند فرويد واحدًا من أهم الأهداف التي وضعها نصب عينيه، وهو يتجه في الرابع عشر من آذار إلى فيينا. كان النازيون يعترفون بالتحليل النفسي الذي وضع أسسه فرويد، باعتباره علمًا حقيقيًا، لكنه علم يخص اليهود. فهو قد أسس من قبل يهودي، ولا يخاطب سوى اليهود فقط. فالدوافع الجنسية المكبوتة في اللاشعور، والتي تظهر نفسها على شكل ميل إلى العنف، تخص اليهودي دون سواه.

- لا يبدو أنَّهم اعترفوا بالتحليل النفسي، بقدر سخريتهم منه ومن اليهود، وكأنهم يحاربونهم بسلاحهم.

تقول ذلك في بهجة طفل حصل على قطعة حلوى. وهي لا تظهر هذه المشاعر المختلفة في تقلباتها، إلا عندما تستمع إلى حكاية ما.

- في ذلك اليوم، كان هتلر يقف في سيارة المرسيدس المكشوفة، ممسكًا نافذة السيارة بيده اليسرى، فيما يلوح للجماهير الحاشدة التي خرجت لاستقباله بيمناه.
- لقد شاهدت هذه المشاهد مرارًا على شاشة التلفاز.
- لكنه كان قلقًا، يحيي الجماهير مرغمًا دون رغبة، فقد كان يمر وسط تلك الحشود الهائلة مكشوفًا دون حماية. وأخيرًا توقفت السيارة أمام فندق إمبريال، ذلك الفندق الذي لطالما تمنى هتلر الشاب الذي كان يقطن في نزل بائس حينها، أن يخطو داخله. وقد غطى علم أحمر يحمل راية الصليب المعقوف، واجهة الفندق كلها. صعد إلى الجناح الملكي المخصص له، فيما الجماهير الغفيرة في الخارج تردّد أغنية، كان الألمان يغنونها عادة عند شربهم الكحول، وقد غيروا كلماتها، وهم يهتفون في صوت واحد: "لن نذهب إلى البيت". ظلت الحشود حتى ساعات المساء تغني وتهتف، ولم تغادر حتى خرج الفوهرر إلى الشرفة ليلقي عليهم أحد خطاباته، كما خرج ليلتها عدة مرات إلى الشرفة ليلقي عليهم التحية.

يشرق وجهها بابتسامة كبيرة، فانتصار هتلر يبدو وكأنه يخفف آلام جراح غائرة في مكان ما من روحها.

- لقد اجتمعوا كلهم، وكأنما ليزيدوه جنونًا وهوسًا.
- هذا ما حصل بالفعل يا آلا، رغم أنَّ أولئك الناس حينها لم يدركوا أنَّهم يرسمون مصيرًا قاتمًا ورهيبًا، سيُغرق البشرية لاحقًا في دوامة من الرعب والدماء. مع حلول المساء، أخذ هتلر يستحضر ذكرياته التي عاشها في

فندق إمبريال قبل ثلاثين عامًا من ذلك اليوم، وبدأ واحدًا من خطاباته الطويلة. كان يقول عن نفسه عادة "الرجل الوحيد، والقادم من العدم". في هذه المونولوجات الطويلة التي تستمر ساعات، كان هتلر يتكلم صارخًا دون تعب. وقد خاطب من حوله تلك الليلة قائلًا: "حين كنت أمرّ من هنا مساءً، أرنو إلى الأضواء الكريستالية البراقة لردهة الفندق من الخارج، وأعلم أنَّ الدخول أمر محال. في إحدى الليالي، كان الثلج قد تراكم بعلو متر أمام باب الفندق، فأدركت أنَّ تنظيف الطريق أمام المدخل، سيمنحني أجرًا يكفيني لشراء بعض الطعام. فقمت أنا وخمسة عمال آخرين بإزاحة الثلوج من أمام الفندق الذي كان يستضيف تلك الليلة أفرادًا من العائلة المالكة من آل هابسبورغ، وقد شاهدتهم ينزلون من العربات، ويسيرون على السجادة الحمراء التي فرشت تحت أقدامهم في زهو وخيلاء. أما نحن التعساء، فقد كنا نحمل الرفوش، ونرفع قبعاتنا كلما مرّوا من أمامنا. لم يكن أحد منهم يكلف نفسه عناء النظر إلينا، رغم أنَّ عبير العطر الشذي الذي كان يفوح لدى مرورهم، لا يزال حتى الآن عالقًا بذهني. لم تكن لنا قيمة في أعينهم ولا في أعين فيينا، إلا بقدر الثلج الذي نزيحه من تحت أقدامهم. ورغم البرد القارس تلك الليلة، لم يكلف موظفو الفندق أنفسهم عناء إكرامنا بفنجانٍ دافئٍ من القهوة. كان صوت الموسيقى العذب القادم من الداخل، يثير شجوني ورغبتي في البكاء، لكني لم أكن أملك حتى رفاهية البكاء حينها، وهذا الظلم كان أكثر ما يثير حنقي وجنوني. في تلك الليلة بالذات، قررت أنّي سأعود يومًا إلى هذا الفندق، لأسير على السجادة الحمراء التي فرشت تحت أقدام آل هابسبورغ، وأدخل الردهة الفخمة التي كانوا يرقصون فيها على أنغام الموسيقى. لم أكن أعلم حينها كيف ومتى سيتحقق هذا الحلم، لكن لم يراودني الشك قط في حدوثه. وهأنذا هنا اليوم".

- كان ثملًا من نشوة الانتصار. لكن ما عاشه في الواقع، تعدى كل أحلامه وطموحاته.

تتحدث في انفعال وتأثر شديدين، وكأنها تشاهد فيلمًا شائقًا، وتضع نفسها مكان أبطال الفيلم فتعيش مشاعرهم وتتقمص شخصياتهم، متناسية واقعها. هذه الحماسة والبهجة المرتسمة على وجهها من جهة، وتحليلاتها المذهلة من جهة أخرى، تنعكس عليّ أيضًا، فأسرد عليها الحكايات دومًا في متعة.

- كما يقول المثل: "كان الأعمى يبحث عن عصا، فمنحه الله عينين"، هذه الحماسة أذهلت هتلر أيضًا. وبقدر ما كان اليوم التالي؛ أي الخامس عشر من آذار، يومًا حزينًا لفرويد، كان مبهجًا ومدعاة للفخر بالنسبة إلى هتلر، الذي احتفل أمام حشد مكون من مئتين وخمسين ألف شخص، بانضمام النمسا التي كان يسميها "وطني" إلى الرايخ الألماني. في هذه الأثناء، كان العنف ضد اليهود قد بدأ بالفعل، وتحولت التظاهرات في أحياء العاصمة إلى هجمات عنصرية من العنف والجنون، أحالت المدينة إلى محرقة جهنمية. حيث انتحر العديد من اليهود، فيما تمّ اعتقال المئات من الرجال والنساء منهم لتنظيف حمامات النازيين، وكان المسنون منهم ممن لهم لحى بيضاء، يجبرون على الركوع والهتاف "يعيش هتلر"، قبل أن يكدسوهم محتجزين في الكنس. وكانوا يعطون بعضًا من رجال الأعمال اليهود فرش أسنان، ويأمرونهم بتنظيف الشوارع.
- بعد مرور كل هذه السنوات، تبدو هذه التصرفات غير منطقية. ولكن بالنظر إلى ما عاشه الرجل، أعتقد أنَّي كنت سأفعل المثل لو كنت مكانه.
- أحقًا كنت ستفعلين ذلك يا آلا؟

عاد وحشها الغاضب يطل برأسه من الأعماق، وهي تحدق إلى وجهي بحقد جنوني.

- كان اليهود يحاولون مغادرة المدينة، لكن النازيين الذين ينتظرونهم في محطات القطارات، يلقون القبض عليهم، ويمنعونهم من المغادرة. كانوا يسجنونهم، ويستولون على أماكن عملهم ومنازلهم، ويرمون بهم وسط الطريق، ويتعمدون إذلال الآباء والأمهات أمام أبنائهم، ويبصقون في وجوههم.
- هذا فظيع. لو كنت مكانهم، فما فعلت أمرًا مماثلًا أمام الأطفال.
- تحولت النظافة والخوف من الأمراض المعدية إلى هوس جدي لدى النازيين، فكانوا يطالبون اليهود طوال الوقت بتنظيف الشوارع والحمامات، ويخشون من الأمراض التي قد ينقلها هؤلاء إليهم. لكن هذا الهوس سيتطور لاحقًا، بحيث لن يطالبوا اليهود بالتنظيف، بل سيقومون بمحاولة القضاء عليهم جميعًا، لتنظيف المجتمع منهم بشكل جذري.
- متى بدأت هذه العداوة تجاه اليهود؟
- العداء الألماني تجاه اليهود بدأ بعد تولي هتلر السلطة، وخلال خمس سنوات تحول إلى الركيزة الأساسية في سياسته. لكن برلين كانت أكثر أمانًا لليهود من فيينا، لأنَّ النمساويين احتلوا الصدارة في هذا الشأن، وأذهلوا العالم كله، من القسوة التي يمكن للإنسان أن يصل إليها. فالشعب النمساوي الذي كان يعتبر الأكثر تسامحًا بين الشعوب الأوربية، وخلال بضعة أيام فقط، تحول إلى النقيض، وفي سعار محموم، شن هجمات بالغة الوحشية على يهود المدينة. كل هذه الوحشية المفاجئة أذهلت فرويد، كما أذهلت صديقه المقرب الكاتب اليهودي ستيفان تسفايغ.
- إنَّه أحد أفضل الكتاب. وهو بارع جدًا في البيوغرافي.

من الواضح أنَّها قرأت الكثير، فهي أشبه بمكتبة متنقلة.

- أنا أيضًا أستمتع بكتاباته. بعد هذه الأحداث المريرة، ترك بلاده متجهًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لينتحر هناك بعد وقت قصير.

- صحيح، لقد انتحر. كان كل المفكرين والأدباء والفنانين الكبار يعيشون في فيينا في تلك الفترة.
- لأنَّ فيينا حتى ذلك الوقت كانت تعارض هذه الوحشية، كما كانت عاصمة العالم الفنية والثقافية.
- يا للمفارقة الغريبة! فهذه الممارسات الوحشية لا تقع في مجاهل أفريقيا، بل في عاصمة الحضارة والتطور.
- اهتم فرويد دومًا بنزعات الإنسان السادية، وكان موقنًا أنَّ الشعوب حتى أكثرها تمدنًا ورقيًا، لديها ميول إلى العنف والاغتصاب والسلب. وبحسب اعتقاده، هناك مجرم في أعماق كل واحد منا، لذلك فقد تقبل ظهور هتلر والنازيين باعتبارها إحدى حقائق النفس البشرية، ولم يُذهل كثيرًا مما حدث لاحقًا، لأنَّه كان مدركًا تمام الإدراك بصفته كاتبًا ومفكرًا ومحللًا نفسيًا، الشطط الذي يمكن أن يبلغه النسق السلطوي الذي اتبعه هتلر وأعوانه، إن أتيحت لهم الظروف المناسبة.
- إذًا، فهو يقول إنَّ الشروط المواتية قد تدفع حتى الأشخاص الطبيعيين إلى ارتكاب كل تلك الفظاعات؟ وماذا عن شخص عاش ظروفي؟ هل تتخيلين ما الذي سيفعله؟

سؤال غريب لا أملك الإجابة عنه، لأنَّي لا أعلم بعد ما عاشته على وجه التحديد. لكنها البداية، لأنَّي واثقة بأنَّها ستروي لي القصة كاملة عما قريب. أما الآن فهي تحاول أن تفهم نفسها أولًا، قبل أن تبحث عن القبول والتفهم لدى الآخرين.

- إن لم نرغب في السيطرة على مشاعر العنف التي أوضح فرويد أنَّها قابعة داخل كل واحد منا، فلن يتمكن أحد من أداء هذه المهمة لنا. فلا القوانين ولا الأعراف ولا حتى الأديان، تستطيع السيطرة عليها. فأنا أيضًا أؤمن من أعماق قلبي، بأنَّ وحشًا يقبع في أعماق كل منا، وإن تفاوتت قوته. لكن الإنسان دومًا يبحث عن سبل لتهذيب هذا الوحش، ولن يفعل ذلك سوى

بمحض إرادته الخالصة. فهو مذنب إن استسلم له، وبريء إن حاول تطويعه.

- وكيف ستتمكن من تطويعه؟

إنَّها مدركة الوحش الغاضب في داخلها، لكنها لا تعلم كيف تسيطر عليه وتوقفه.

- لقد قضى فرويد سنوات وهو يدرس ويحلل الأحلام، الحكايات الشعبية، زلات اللسان والقلم، النكات، سلوكيات الأطفال، الأساطير والفن، ويبحث عن الحقيقة في الأعماق المنسية والبسيطة للنفس البشرية. وكان مقتنعًا بأنَّ معرفة الإنسان رغباته الدفينة، ستمكنه من تقبل ذاته بصورة أفضل، وسيغدو أكثر تحررًا وراحة. وكان يقول: لسنا مرغمين على تلبية الرغبات كافة، يكفي مجرد التصريح عنها بالكلام، وإعادتها إلى دائرة الشعور، فهذا الاعتراف يساعدنا على تقبل ذواتنا، وتذوق السعادة بين الحين والآخر.

- ألهذا السبب ترغبينفي أن أتكلم وأن أحدثك عن كل ما عشته في الماضي بكل تفاصيله؟

- هذا هو أساس التحليل النفسي.

- هل سأشعر بالراحة لو تحدثت، وسأتمكن من إخراج الشيطان القابع في داخلي؟

إنَّها قادرة على تمييز الخير من الشر بوضوح، ولديها معرفة بالأسس النظرية للتحليل النفسي، وما أسئلتها هذه سوى رغبتها في تلقي المساعدة، لتطبيق معارفها عمليًا.

- هذا ما أرجوه.

- لكني كلما تحدثت تزداد حالتي سوءًا. حتى إنِّي أعجز عن النوم في الأيام اللاحقة.

- وهذا ما نريده بالضبط، فإخراج ذلك الشيطان لن يتم في هدوء وسلاسة، سيحدث بعض الفوضى، وسيحاول تدمير ما يقع في طريقه، ويغرز

خنجره في أعمق مكان تصله يداه قبل أن يخرج، لكن الضرر الذي قد يلحقه بنا، ليس بتلك الخطورة، فهو قابل للإصلاح بسرعة. ما يهم هو أن يخرج من مكمنه ويغادرنا.

- في رأيك هل غادر شيطاني؟
- لا، لم يفعل بعد. ولكن يومًا ما، إن أردت له الخروج بكل إرادتك، فلن يتمكن من البقاء أكثر. هذا ما أؤمن به من كل قلبي.

تنظر إلي في أمل، فتصبح تعابير وجهها المتجهمة أكثر نعومة، وتبدو أقرب إلى فتاة صغيرة لطيفة.

- كان فرويد مقتنعًا بأنَّ البشر منجذبون إلى السلطة، وخاصة المدمرة منها. فعادة ما تكون أقوى رغباتنا، هي العثور على شخصية تجسد هذه الرغبات، وفي الوقت نفسه لديها القدرة على توجيهها، والتحكم بها نيابة عنا. لهذا السبب بالذات، نرضى بالخضوع للسلطة ونذعن لها. كما اعتبر الحشود البشرية ظاهرة خطيرة، فتولي شخص يمتلك زمام الردع والإباحة، القيادة، سيحيل هذه التجمعات إلى قوة بالغة الخطورة. وفي تلك الفترة بالذات، ظهر هتلر على مسرح الأحداث، ليشكل نموذجًا عمليًا مطابقًا لتحليلات فرويد، فهو زعيم لديه برنامج واضح، لا يتنازل عن أهدافه مهما كانت تبعاتها الأخلاقية، وقد حدد أعداءه بصورة واضحة تمامًا وهم: اليهود، الشيوعيون، ومؤيدو معاهدة فرساي، كما حدد أهدافه أيضًا وهي: توحيد الشعب الألماني، تشكيل جيش قوي يمتلك ولاء مطلقًا لدولته، وتأسيس إمبراطورية عظيمة. وكان يعلن أنَّ قوة ألمانيا تعتمد على قائد قوي يعبر عن إرادة الشعب. وبالطبع، كان هو هذا القائد، الذي يستمد سلطته من الإرادة الإلهية. فعندما نحلل علاقة هتلر مع الجماهير من منظور روحي، نجد أنَّ الناس كانوا يعتبرون سلطته، تجسيدًا إلهيًا لإرادتهم، وأنَّه الممثل الأعظم والأوحد لكل أحلامهم

وطموحاتهم، فهو يعلم تمامًا ما هو الصواب، ويرشدهم إليه بيقين تام.

- في رأيي، القائد الحقيقي يجب أن يكون مثله. حقًا إنَّه أمر رائع، أن يكون هناك شخص يملي عليك ما يجب أن تقوم به، ويوجهك نحو ما تفعله. حين أفكر في الأمر، أجد أمثالي من الناس، سيشعرون بأفضل حال في وسط كهذا.
- ولمَ أمثالك بالذات؟
- لأسباب كثيرة. فرجل مثله يستطيع القضاء على حقيقة مريعة كالوحدة. فهو الفوهرر القائد الذي سيحمينا، وسيعاقبنا حين تقتضي الحاجة، ويكافئنا في الوقت المناسب. وهو مستعد دومًا لحمايتنا من كل الشرور. هناك شخص ما يحيا من أجلنا ويفكر عنّا. وهذا مبعث للراحة والسلام النفسي. حتى وإن رغب المرء، فلن يرتكب الأخطاء؛ لأنَّ الفوهرر لن يسمح بحدوث ذلك.
- لقد حللت الأمر بطريقة رائعة يا آلا، وبهذا الذكاء الاستثنائي، لن تكوني قادرة على ارتكاب الأخطاء حتى وإن رغبت في ذلك. ولسخرية الأقدار، كان الرجل الذي يستميت في الدفاع عن فكرة العرق الآري، قصير القامة، أسمر البشرة، لا ملمح للجمال في مظهره، وله شارب مضحك. كان أكثر ما يستهويه الجلوس إلى المائدة مع الزمرة المحيطة به من المداهنين، وتناول المعجنات المحلاة، والثرثرة مطولًا حول وفاء كلابه. وبين الحين والآخر، كان يشاهد حفلات الأوبرا المصورة، ويحدث حاشيته عن تجاربه وذكرياته عن الحرب. كان رجلًا بالغ الحساسية إلى درجة تدعو للذهول في حياته الخاصة، وسريع البكاء أيضًا. لكن حين تقتضي الحاجة، كان يتقن لعب الدور الذي رسمه فرويد ببراعة، فيدعي معرفة الصواب دومًا، ويتخذ كل قراراته دون أن ينتابه الشك والتردد. وتتحدث بعض المصادر عن أنَّه كان يقرأ كتب فرويد، ويتصرف وفق ما جاء فيها. وكان الشباب والنساء على وجه الخصوص الأكثر تأثرًا بشخصيته،

فيشعرون حين الاستماع إلى خطاباته، وكأن نبيًا جديدًا قد ظهر إلى العالم. وكانت النساء عادة ما يتسابقن من أجل لمسه، أو حتى رؤيته عن قرب. حتى إنَّ إحداهن راهنت على حياتها، وتمكنت من رمي نفسها في حضن الفوهرر، ونجحت في تقبيل وجنته، لكنه استاء من هذا التصرف، وظل يمسح وجنته بيده طوال الطريق إلى فندقه.

- رجل غريب الأطوار حقًا. يبدو وكأنه جاء إلى هذا العالم ليصبح الفوهرر. فالشخص الطبيعي لا يقوم بما قام به. لكن فرويد جدير بالتقدير حقًا، فقد حاول أن يتفهم، حتى ألد أعدائه، ويحلل نفسيته.

تراوح بين بطلي القصة، دون أن تحدد بعد في صف أيّ منهما ستقف. إنَّه صراع الخير والشر داخلها، والذي لم يحسم بعد.

- لم يكن فرويد أقل غرابة منه، فلم يكن يحب الطعام والشراب مثلًا، وقد أنجبت زوجته مارثا ستة أبناء، وكرست حياتها من أجل راحته، لكنها لم تكن تملك أدنى فكرة عن طبيعة عمل زوجها. ورغم كل ما حدث، لم يرغب في ترك فيينا، واعتبر الأمر كالربّان الذي يفر من سفينته المهددة بالغرق.

- لقد أنشأ في ذهنه مملكة كاملة، وكان مطلعًا على كل قوانين تلك المملكة، ومتيقنًا أنَّ البشر يسيرون وفق هذه القوانين اللامرئية دون وعي منهم. إنَّها عبقرية نادرة.

تصف نظريته بطريقة مبسطة ورائعة.

- إنَّه وصف مذهل يا آلا، فلا أظن أنَّ أحدًا استطاع أن يعبّر عن أفكار فرويد حتى الآن، بهذه البساطة والدقة.

- شكرا لك. كلماتك هذه تعني لي الكثير.

- ربما كانت الميزة الوحيدة التي تجمع الرجلين، هي محبتهما العميقة للكلاب وتعلقهما الشديد بها. فكلاهما يستمتع بقضاء الوقت مع كلابه ليطعمها، ويعتني بها، ويحدث الآخرين دون تعب عن مدى وفائها. وفيما

كان هتلر يردد متفاخرًا، أنَّ الله قد اختاره لمهمة بعث الأمة الألمانية من جديد، كان فرويد يستمد متعة سرية من قدرته على التنبؤ مسبقًا، بالمسار الوحشي الذي اتخذته الأحداث، وكان يقول: "الفاشية تبدأ مع الانجذاب إلى شخصية دكتاتورية تمتلك الكاريزما، وتُظهر الثقة المطلقة بنفسها وبكل ما تقوم به". ومهما بدا هتلر غريب الأطوار ومختلفًا عن الصورة النمطية في حياته الخاصة، لكنه أتقن دوره ببراعة أمام الجماهير. فهو المجسد الحقيقي لنموذج الرجل القوي، الذي سيوجه طاقاتهم في مسار واضح محدد. كان السؤال الجوهري بالنسبة إلى فرويد، هو معرفة السبب الذي يجعل القائد المطلق على هذه الأهمية والضرورة بالنسبة إلى البشر، وما الذي يدفعهم إلى إظهار كل هذا الاحترام لشخصية مثل هتلر؟ والذي كاد أن يشبه نفسه بشخصية المسيح، حتى إنَّه خاطب الجماهير الحاشدة في فيينا، والتي استمعت إلى كلماته في صمت ويقين، فيما كان يهتف بعينين دامعتين، ورأس مكشوف: "أؤمن أنَّ مشيئة الله هي التي اقتضت أن يتم إرسال ذلك الشاب إلى الرايخ، ليترعرع ويصبح قائدًا، حتى يعود ليضم بلاده إلى الرايخ. إن لم يكن كل ذلك مشيئته، فلا مناص من الشك في وجوده". وقد أنهى خطابه، والدموع تنهمر من عينيه: "لقد آمنت بعظمة ألمانيا حتى في أكثر فتراتها ضعفًا".

يظهر الحماس عليها، ويشرق وجهها وكأن موجة من تلك المشاعر الجياشة في فيينا، قد وصلت إليها.

- ترى هل كان يقول ذلك عن قناعة؟ أم إنَّها مجرد خطابات يلقيها ببراعة تمثيلية؟
- أعتقد أنَّه كان مقتنعًا بكل ما يقوله، والمشاهد التصويرية لتلك اللحظات تعزز فكرتي هذه. فلو لم يكن مقتنعًا بما يفعله، فما استطاع أن يقنع الملايين ويقودهم. من يدري؟ فربما اعتقد حينها بأنه نبي حقًا! وقد

حاول فرويد جاهدًا تحليل شخصيته. كان مقتنعًا بأنَّ "*الإنسان ليس كلًا متكاملًا*"، بل هو مجموعة من الأجزاء التي هي في صراع مستمر مع بعضها. فشخصية الإنسان بحسب رأيه مقسمة إلى ثلاث طبقات: الهو، الأنا، والأنا الأعلى. يقع الهو أسفل هذا السلم، وهو المكان الذي تجتمع فيه الرغبات، ويتصف بأنّه نزق، طائش، متطلب كطفل صغير لا تنتهي طلباته، لكن الأنا الأعلى أو الضمير الذي يقع في قمة هذه التراتبية، غالبًا ما يتصدى لهذه الرغبات، ويعاقب الهو. فالأنا الأعلى هو ذلك الجزء من شخصيتنا، الذي يتطور من خلال تقدمنا في العمر، وانسجامنا مع المجتمع الذي نعيش فيه، ملتزمين بالقوانين والأعراف، ومتبنين الأفكار الدينية السائدة. وبذلك يرشدنا إلى ما يجب فعله، ويميز بين الخطأ والصواب. إنَّه أشبه بأم عصبية المزاج، تحمل في يدها عصا، وتغضب لأتفه الأسباب.

- أظنك لاحظت أنَّي اختبرت هذه الأقسام، وخاصة الأنا الأعلى. أليس كذلك؟

فطنتها في إدراك أصغر التفاصيل، وتحليل الوقائع بدقة متناهية، تشعرني وكأني أمام أحد أساتذة علم النفس، وليس مريضة تعاني مما تعانيه.

- أعلم ذلك بالطبع، وأنا لا أذكر لك هذه المعلومات إلّا لتدركيها بصوة أفضل. أما الأنا أو الإيغو، فهو عالق بين الاثنين، بين رغبات الإنسان التي لا تنتهي، ولا يمكن إشباعها مهما حاول، وبين الأنا الأعلى أو الوعي الذي يحول دون تحقيق معظم هذه الرغبات، ولا يكتفي بمعاقبة الهو على أفعاله، بل حتى على أفكاره. وهكذا يبقى الأنا في حيرة من أمره، لا يعرف السلام، فيحاول أن يخفف من سلطة الطرفين، ليحظى بالراحة، لكنها إحدى أصعب المهام التي قُدّر للبشر القيام بها.

- ماذا تعنين بالعقاب؟

- أعني الشعور بالذنب، فالفرد يبحث قبل كل شيء عن التقبل الذاتي، لأنَّه سبيله الوحيد للسلام الداخلي.
- السلام الداخلي؟ كم هو أمر صعب!

تعترف بذلك، وهي ترفع يديها في عجز، وعلى وجهها أمارات تفكير عميق.

- الأمر ليس صعبًا عليك وحدك يا آلا، فهي مهمة صعبة بالنسبة إلى الجميع. فالأنا ليس أفضل حالًا من رجل يدين بالمال لثلاثة مرابين معًا. العالم الخارجي الذي لا تنتهي لائحة المهام التي يطالبنا بالقيام بها، واللاوعي أو الهو الذي لديه لائحة مماثلة من الرغبات، وهناك بالطبع الرقيب الصارم وهو وعينا أو ضميرنا.
- هل الأمر على هذا النحو لدى الجميع؟
- دون استثناء، لكن هناك العديد من العوامل التي تؤثر في سير هذه الآلية، فعلى سبيل المثال بالنسبة إلى شخص قضى طفولة طبيعية، في وسط مريح نفسيًا، وتلقى المحبة والرعاية اللازمتين ممن حوله، ولم تقمع شخصيته، سيمضي هذا الميكانيزم بصورة أسهل، مقارنة بك.
- آه وأخيرًا. أخيرًا تقبلتِ هذه الحقيقة، واعترفت بها!

تتنهد بعمق وهي تتكلم، وكأنّ حملًا ما أزيح عن كاهلها.

- لقد أدركت هذه الحقيقة منذ اليوم الأول، وهو ما يدفعني إلى الوقوف معك في هذه المعركة الصعبة. لكني لا أريد لك أن تظني أنَّ الناس جميعًا ينعمون بالراحة والسلام، وأنت وحدك من تعانين وتتألمين.
- ولكنك قبل قليل، قلت أنَّ معاناتي ليست كسواها.
- صحيح، فالمجيء إلى هذا العالم فرصة رائعة، بقدر ما هو عبء ثقيل. فنحن بصورة أو بأخرى نواجه التحديات ذاتها تقريبًا، لذا من المحال علينا بلوغ الكمال. ففي حين أنَّ نصفنا يعيش الصيف، يخيم الشتاء على نصفنا الآخر، وليس من السهل أن يحل الربيع على النصفين معًا. عادة ما

تقوم المخدرات والكحول بإضعاف صوت الضمير، وتخفف من وطأة أحكام الوعي، وهذا ما يدفع من يعانون من خلل في عالمهم الداخلي، إلى اللجوء لهذه المواد.

- هذا يعني أنَّي لست الوحيدة في هذا العالم، التي تصارع بين نصفيها؟
- بالطبع، لست كذلك. فكلنا نعاني هذه الازدواجية، كل ما في الأمر أنَّ حدة هذا الصراع تتفاوت من وقت إلى آخر. حتى أكثر الناس سعادة، لن تستمر سعادتهم إلى الأبد، والحقيقة ما السعادة إلا نسمة عابرة، تنعش أرواحنا من وقت إلى آخر، لكن البعض لم يتذوق هذا الشعور إلا نادرًا.
- مثلي أنا.

تقول ذلك وهي ترفع يديها مجددًا، والشرود بادٍ في عينيها وكأنها تحاول البحث عن لحظات سعادتها النادرة. فيلفت ذلك الإبهام المزرق انتباهي مرة أخرى، ما باله لا يبلى ولا يتعافى؟ كلما رأيته انتابني فضول شديد لمعرفة سرّه، فمن غير المنطقي أن يتورم ويزرقّ هذا الإصبع بالذات دون البقية، ولا يتماثل للشفاء أبدًا. أيضًا هذه الثياب الغريبة الطراز التي ترتديها، ما قصتها؟ أودّ اكتشاف كل هذه الأسرار، لكن الوقت لم يحن بعد لسؤالها، رغم مضي شهور على معرفتنا.

- لم تخبريني بعد برأي فرويد حول هتلر. أعني ما موقفه من شخصية هتلر؟

إنَّها تناور حول هذا السؤال منذ بداية القصة، فهي تريد معرفة رأي الطبيب النفسي، الذي وضع أسس علم النفس الحديث، في شخصية كشخصية هتلر.

- لقد اعتبر فرويد أنَّ علاقة الجماهير بالسلطة، وبقادة من أمثال هتلر، قائمة على نوازع جنسية. كما أنَّ هتلر كان يقول بأنّه يمارس الحب مع الشعب الألماني خلال خطاباته. وبحسب تعبير فرويد، فالقائد من هذا النوع ينوم الجماهير مغناطيسيًا، فيتبنون مفاهيمه عن الخطأ والصواب بطريقة آلية. فلا يعود الفرد يشعر بالحيرة، أو يجاهد في التفكير لتمييز الحقيقة، فهي

هناك رسمها له القائد بكل وضوح. وبذلك يسود السلام عالمه الداخلي، وينفذ ما يطلبه إليه قائده المحبوب، الذي يخلصه من عبء المسؤولية عن أعماله.

- تمامًا كالله.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- آلا، أنت تدهشينني في كل مرة!
- لمَ؟
- لأنَّ كل تعليقاتك في غاية الذكاء والدقة يا عزيزتي. أشعر وكأني أتبادل نقاشًا ممتعًا مع أحد زملائي، والذي يفهم ما أعنيه بأوضح ما يكون. أجل، تمامًا كالله.

تخرج الكلمات من فمي، دون تفكير أو تدبير، فهي تعبر عن مشاعري الحقيقة، رغم أنَّنا لا نعبر عن كل انطباعاتنا أمام المرضى عادة، حتى وإن كانت إيجابية. ولا يفوتني التدقيق في وجهها لمعرفة ما تشعر به، لكنها كما في كل مرة، تكتفي بالصمت، ويحمر وجهها خجلًا. فأعود لإتمام الحديث، دون إضاعة المزيد من الوقت.

- في هذه الحال، يشعر كل فرد من الجمهور أنَّه يساهم في الأحداث المهمة التي تجري في محيطه، وهو ما يمنحه الشعور بالقوة، كما يعدّ تلبية لرغباته.
- فرويد محق في تحليله. فالعلاقة هنا تنطبق عليها سمات العلاقة الجنسية. وأعتقد أنَّ هتلر لم يكن - كما روج عنه- شخصًا عديم المشاعر، بل أظنه قد قرأ كتابات فرويد، وتمكن من فهمها بصورة واضحة.
- أمر وارد. من ميزات هذه العلاقة بين الطرفين، هي اختفاء الفروق الفردية، فالقائد يعزز المساواة التامة بين كل الأفراد من تلك الحشود. ولو عدنا إلى النمسا في تلك الفترة، فسنجد أنَّ هتلر نجح في إقناع الجميع بأنَّ اليهود هم العدو المشترك، وأنَّه القائد الذي سيقودهم لبناء

إمبراطوريتهم العظيمة. هل تتخيلين ما فعله؟ لقد نجح في توحيد أحلامهم جميعًا.

- التحليل النفسي أشبه شيء بالسحر. فإن كان هتلر يقوم بكل ذلك متعمدًا وعن وعي، فإنّ لديه من الذكاء والإبداع ما يدعو للإعجاب حقًا.
- لا أظن، فحتى أكثر الأشخاص ذكاء وتوازنًا نفسيًا لن يستطيعوا القيام بكل ذلك عن وعي. إنَّها مهمة تتطلب فريقًا من الاختصاصيين النفسيين، ممن يملكون خبرة ومعرفة واسعتين جدًا. إحدى المميزات الأخرى التي يتمتع بها هذا النمط من الشخصية القيادية، هو تحكمه في آلية الردع والسماح. عادة ما يحول ضمير الإنسان دون ارتكابه الانتهاكات، كالعنف والسرقة والسلب، لكن هذا الضمير الجمعي الذي يظهر فجأة متجسدًا في شخصية القائد، يبيح للفرد القيام بذلك ضمن شروط معينة. وبذلك تتاح له الفرصة، ليلبي نوازعه العنيفة بأفضل صورة ممكنة، دون أن ينتابه شعور بالذنب، أو يطاله تنديد من المجتمع.
- يستطيع المرء أن يحطم ويقتل ويدمر، دون أن يشعر بذرة تأنيب. أعتقد أنَّي بحاجة إلى قائد مماثل.

تقول جملتها الأخيرة مع ابتسامة هازئة. إنَّ الأنا داخلها لا يزال قويًا، يقف بكل صلابة، فكل تعليقاتها تنم عن وعي عميق وفهم واضح لأساسيات المشكلة، وهو الأمر الذي ينعش الأمل داخلي.

- معك حق، ولست وحدك في ذلك، فالجميع سيشعر بالراحة في وضع مماثل. ففي حين أنَّ كل الديانات السماوية تمنع القتل بكل أشكاله، وتجعل القاتل عرضة ليس للعقاب فحسب، بل لتأنيب الضمير أغلب الأحيان، يظهر القائد الذي يحاول أن يأخذ مكانة الإله بطريقة ما، ليخبرهم أنَّ قتل اليهود ليس ذنبًا، بل هو نوع من تطهير المجتمع من الشر والقذارة. وهذا ما حوّل سكان فيينا الذين كانوا معروفين حتى ذلك

الحين بتسامحهم وتحضرهم، إلى حشود هائجة، قادرة على الاعتداء على جيرانهم اليهود، دون أدنى شعور بالذنب. فهذا الاعتداء كان يلبي حاجتين في الوقت ذاته؛ التعبير عن أكثر الدوافع البشرية عنفًا وتدميرًا، والمساهمة في بناء مجتمع أكثر نقاء وتفوقًا، حسب اعتقادهم. كانوا مقتنعين بأنَّ ما يقومون به هو الصواب، بعد أن تخلصوا من الصراع الداخلي بين النزوع نحو العنف من جهة، ورقابة الضمير الذي يردعهم عن ذلك من جهة أخرى. حتى وإن كان ما يقومون به يتسم بالوحشية، لكنه يستمد اليقين من تلك الرغبة الجمعية الهائجة.

- لقد كان التلبية الأمثل لرغبات العالم الداخلي.
- لقد عبر هتلر عن ذلك بالقول: "الحشود ترغب في القادة أكثر من رغبتها في المتضرعين".
- ما الذي يعنيه؟
- أي إنَّ الحشود الكبيرة، عادة ما تظهر ميلًا إلى الأنظمة التوتاليتارية التي يتزعمها ملك أو إمبراطور، أكثر من ميلها إلى الأنظمة الديمقراطية. كان فرويد أيضًا مقتنعًا بهذه الفكرة، التي نشر عنها الكثير من الأبحاث والمقالات.
- أي إنَّ الاثنين كانا مقتنعين بالأفكار ذاتها.

وكأن صراعها الذهني وحيرتها بين الشخصيتين، يهدأان مع هذه النتيجة.

- صحيح، فقد أوضح فرويد أنَّ الإنسان في سعي دائم للسلام الداخلي. وظهور شخصية قوية لديها عقيدة واضحة، قادرة على تفهم آلامنا، وتحديد أعدائنا، تبيح لنا إفراغ طاقاتنا المكبوتة، كما تسمح لنا بتحقيق رغباتنا الممنوعة براحة ضمير تامة، سيحولها إلى المخلص الذي يبحث عنه الجميع. إن ظهرت هذه الشخصية في الوقت المناسب، واستطاعت خداعنا بالكلمات المناسبة، فستكتسب حياتنا بعدًا أعمق، وسيمنحنا

ذلك شعورًا بالراحة والوحدة، أكثر مما يمنحه الحب أو الكحول، وستتخلص من نقصنا وضعفنا ومن القلق والصراعات الداخلية التي تكاد لا تنتهي. لكنه يجب أن يمتلك مهارة فائقة لتحقيق كل لذلك. وحتى إن لم يكن بالقوة المطلوبة، فعليه إظهارها أمام الآخرين. يجب أن يظهر أمام الجماهير كلي القدرة، مطلق السلطة، في غنى عن كل ما قد يضعفه، يقوم بما يقوم به عن قناعة تامة، لا يعتريه ضعف أو تأنيب ضمير. وقد يصل الأمر أحيانًا إلى اعتبار هذه الشخصية ممثلًا عن السلطة الإلهية وضامنًا لها. وبغض النظر عمن يكون، سواء أكان هتلر، أم ستالين، أم ماو، فقد كان ما يجمعهم هو أنَّهم وعدوا شعوبهم بإنقاذهم من الفوضى، وتوحيدهم تحت أهداف وغايات واضحة.

- نستطيع القول أيضًا: سواء أكان هذا الشخص هتلر أم غولسِران بودايجي أوغلو.
- على رسلك يا عزيزتي! أحقًا تشبهينني بهتلر؟
- لقد وعد هتلر الشعب بأنه سيحقق له الراحة، وأنت تعدينني بالأمر ذاته. لقد كان مخلصهم، وأنت كذلك بالنسبة إلي. كما أنَّه كان يفعل ما يفعله عن قناعة تامة، وأظنك مثله.

مقاربة غريبة، لم أتخيلها يومًا! لكني لا أعترض هذه المرة.

- أظنّ أنَّ هناك فارقًا صغيرًا غاب عنك؛ كان الشعب يثق بهتلر حتى النهاية، لكن يبدو لي أنَّك لا تثقين بي وتصدقينني بتلك الدرجة.
- على العكس تمامًا، فأنا أصدقك. لكن هناك ما يزرع الشك في نفسي. فتمامًا كأولئك الناس، أنت تمثلين سلطة إلهية بالنسبة إلي. إله يعرف كل شيء. لكن اتضح في النهاية أنَّهم كانوا مخطئين. ليسوا هم فقط، بل من آمن بستالين أو ماو أيضًا، وقد دفع الملايين حياتهم ثمنًا لهذا الخطأ. ورغم أنَّي لم أشعر براحة الإيمان المطلق بشيء أو شخص ما، لكنه ظل

على الدوام حلمًا أتمنى أن يتحقق. إن منحتني الحياة فرصة العثور على مصباح علاء الدين يومًا ما، وظهر المارد أمامي، وسألني عن أقصى أمنياتي، فستكون أمنيتي الوحيدة هي تصديق أحدهم حتى النهاية. لم يكن في حياتي شخص يمكن لي تصديقه والوثوق به. والآن تقولين لي: "صدقيني. ثقي بي". كيف لي أن أتيقن أنَّك لن تتخلي عني في منتصف الطريق؟

تعبر بوضوح عن مخاوفها وقلقها. هذه الجلسة حول هتلر وفرويد تبدو مفيدة جدًا.

- من الرائع تبادل الحديث بهذه الصراحة والوضوح، أليس كذلك يا آلا؟ فأخيرًا تمكنت من التصريح عن السؤال الذي يشغلك منذ اليوم الأول.
- أكنت تدركين هذا الأمر أيضًا؟
- لا تجعليني أشعر وكأنني أتجسس عليك، فهذا جزء من عملي. ثم أليس هذا ما يدفعك إلى المجيء؟ وبالعودة إلى مسألة التخلي عنك.
- إنَّها أهم مسألة بالنسبة إلي. تقاطعني بصوت قلق.
- أنا طبيبتك، وسأكون إلى جانبك دومًا حين الحاجة، وسأزداد امتنانًا حين أراك سعيدة وناجحة ومتفائلة.
- أهذا كل شيء؟
- ما الذي تريدينه أيضًا؟

يصل بنا الحديث إلى نقطة شائكة، فكلتانا تعلم تمامًا ما تريده؛ أن أحبها، وأظهر نحوها المزيد من الاهتمام، بل أن أغدو بصورة ما أمها وحاميتها، وأظلّ إلى جوارها طوال الحياة. وهي ليست الوحيدة في هذا الشأن، فالكثير من المرضى النفسيين يتوقعون هذه المشاعر من طبيبهم، لكنهم بمرور الوقت وتمكنهم من مواجهة مشاكلهم وحلها، وازدياد ثقتهم بأنفسهم، تبدأ أجنحتهم بالظهور، ويحلقون بعيدًا. لكن من الصعب عليهم إدراك هذه الحقيقة في منتصف العلاج،

فهم يخشون من خسارة مساعدة طبيبهم؛ إلا أنَّ مخاوف آلا في هذا الشأن أكثر عمقًا من الآخرين.

- ليتك تستمرين في جرأتك كما فعلت قبل قليل.
- كان هتلر يحب تلك الجماهير التي تعبده. وهذا ما أريده. أريدك أن تحبيني. وأنت تدركين هذه الحقيقة أكثر مني. حينها وإن لم أبلغ الكمال، فلن أشعر بكل هذا النقص أيضًا. لكني لست سوى جزء من عملك؛ إن تحسنت حالتي، فأقصى ما قد يعنيه لك ذلك أنَّك بارعة في مهنتك، لا أكثر ولا أقل.

إنَّها إحدى استغاثاتها اليائسة، فهي تتوقع مني المحبة، محبة عميقة وصادقة، وهذه الأحلام ليست غريبة على شخص لم يحظَ بالحب أبدًا. ألقي نظرة على ما يجول في صدري، فأرى كم أصبح من السهل عليّ تقبلها، بل حتى إنَّ الكثير من المحبة تخالط هذا التقبل، وتدفعني إلى مساعدتها بكل جهدي.

- أتمنى أن يأتي ذلك اليوم الذي ستحبين فيه وتصبحين محبوبة أيضًا، فالمحبة هي العلاج الوحيد لكل جراحنا النفسية، وأنا أدرك تمامًا مدى حاجتك إلى ذلك. خلال مرحلة العلاج النفسي، تنشأ علاقة من نوع خاص بين الطبيب والمريض، فكلاهما في النهاية لديه مشاعر وأحاسيس، ولا يمكنهما مواصلة الجلسات بمرور الوقت، من منظور مهني بحت، فكل العلاقات الإنسانية ما هي إلا نوع من تبادل المشاعر بين الطرفين، وهذا الوضع يساعدنا كثيرًا خلال العلاج. ما رأيك أن أطلعك على وجهة نظر فرويد حول هذا الموضوع؟
- حسنًا.
- لاحظ فرويد خلال جلسات العلاج، أنَّ بعض المرضى وقعوا في حبه، ولكنه كان مدركًا أنَّ السبب الوحيد لا يكمن في جاذبيته الشخصية، بقدر ما يكمن في توجيه المريض للمشاعر التي كان يكنها لوالديه أو أيّ من رموز السلطة في

حياته، نحو طبيبه النفسي. واكتشف أنَّ الطبيب من خلال هذا التوجه العاطفي، يستطيع معرفة آليات المريض اللاشعورية ودوافعه الداخلية بصورة أفضل، وبحسب فرويد فإن استسلام المريض في بداية العلاج لهذه المشاعر، والوقوع تحت تأثير جاذبية الطبيب، أحد عوامل نجاح العلاج.

- هذا يعني أنَّنا نسير في الطريق الصحيح. فمنذ اليوم الأول، شعرت نحوك بإعجاب غريب.

كم هو رائع تعبيرها عن مشاعرها بهذا الوضوح والسلاسة! لعل هذه الجلسة أكثر جلساتنا فائدة وتأثيرًا فيها.

- وهذا ما أنا مقتنعة به، لأنَّه إحدى ضرورات العلاج النفسي.
- تعنين أنَّ العلاج لن ينجح، دون هذا الإعجاب الذي أكنّه لك؟
- العلاج الحقيقي يتطلب تبادلًا للمشاعر، لكنني بالطبع لا أتحدث عن المشاعر الإيجابية فقط. فأحيانًا يحدث العكس تمامًا، ويشعر المريض بحنق بالغ على الطبيب، بل قد يكرهه. وأعتقد أنَّنا مررنا بهذه المرحلة أيضًا.
- حسنًا، لن أنكر أنِّي نقمت عليك بشدة في بعض الأحيان.
- أنا معجبة بصراحتك. كان فرويد باعتباره طبيبًا ورجلًا، هدفًا للمشاعر الجياشة من قبل مريضاته النساء على وجه الخصوص. رغم أنَّ حدوث العكس أيضًا كان واردًا، فيغدو هدفًا لكره المريض ونقمته العميقة. وقد عاش داخل حدود عرينه، محاطًا بكتبه العلمية وتماثيله وسجاداته الشرقية، حياة إيروتيكية غنية. فكان هناك الكثير ممن أحبوه وأعجبوا به، واتخذوه قدوة، إلى جانب من استهزأ به، أو جاهر بعدائه. لكنه كان مدركًا أنَّ هدف العلاج الأساسي، هو كسر طوق السلطة المطلقة. فبمرور الوقت، تتغير طبيعة علاقة المريض برغباته القديمة والمستجدة، كما تتغير وجهة نظره حيال السلطة أيضًا، وينعكس ذلك على طبيعة علاقته مع الطبيب. وبعد أن يتمكن المريض في نهاية العلاج من عبور

وادي الآلام، يصبح قادرًا على رؤية الطبيب بصورة أكثر واقعية، فهو مجرد فانٍ آخر، يعاني مثله الألم والضعف. يمكن لإعجابه بذكاء الطبيب وشخصيته أن يستمر، لكنه يتوقف عن النظر إليه كأحد الآلهة. وغاية العلاج القصوى من خلال التحليل النفسي، هي تحطيم رموز السلطة في ذهن المريض. وإن كان الطبيب يسمح للمريض في بداية مراحل العلاج، أن يمنحه مكانة سلطوية، فذلك لتمكين المريض لاحقًا من حلّ علاقته مع السلطة من خلال هذه العلاقة الناشئة مع الطبيب. وبالعودة إليك، فمشاعرك واضحة تجاه رموز السلطة في حياتك، وهم والداك وجدتك. فقد حاولت على الدوام أن تحبيهم، لكن النتيجة كانت اضطرارك لكرههم. ولا أدري إن كنت لاحظت ذلك، لكنك تعاملينني بالحيرة ذاتها، فأنت راغبة في أن أمنحك محبتي العميقة؛ مما سيجعلك تثقين بي، لكن تجاربك الماضية لا تسمح لك بذلك. فأنت تعجزين عن محبة شخص ما والثقة به، وتكررين ما أنت بارعة فيه على الدوام؛ تحقدين علي ولا تثقين بي. وأنا أتعقب هذه المشاعر على الدوام، عندما أسمعك تتحدثين. لكني أؤكد لك أنّك حين تتعلمين الوثوق بالسلطة يومًا ما، وإصلاح علاقتك بها، ستشعرين بالراحة. عندها سيتعيّن على الطبيب أن يقوم بالمرحلة التالية من العلاج، وهي تحطيم رمز السلطة الأخير. وبذلك تتمكنين من رؤيتي كما أنا، أكثر تواضعًا وإنسانية. سيتقلص ذلك المارد ليصل إلى حجمك، وستتقلص معي رموز السلطة في ماضيك؛ والداك وجدتك. لا أدري إن كنت قد أدركت ما أتحدث عنه.

- أظنني أدركت ما تعنين تمامًا. فقد قرأت هذه الأفكار في عشرات الكتب، لكني لم أكن قادرة على مواءمتها مع نفسي.

- وهذا أمر طبيعي، فالكتب تُنشر لقراءتها، أما العلاقة مع الطبيب فهي شرط أساسي للعلاج. وما أناقشه معك اليوم من أفكار، لا يناقشها عادة الأطباء

النفسيون مع مرضاهم، بل يطبقونها. فالطبيب يولي عناية خاصة لدوافع كل مريض، وينطلق من الأساسيات التي يعرفها، لتوجيه مريضه الوجهة التي ستساعده. لكنك لا تشبهين بقية المرضى، فلديك ذهن متقد، ولا يفوتك شيء. ومن الواضح أنَّك قارئة نهمة، وقد تمكنت من فهم بعض الحقائق بصورة مذهلة. وكل ما أفعله هو ترتيب هذه المعلومات في ذهنك، بالطريقة الأنسب.

- أشكرك كثيرًا على سعة صدرك، وأعلم أنَّي مهما أبديت امتناني لك، فلن يكون كافيًا. لكني أحيانًا أنحرف عن الطريق بعنف تتحطم معه كل مكابحي.
- وهو أمر طبيعي جدًا، لا تقلقي.
- ما رأيك أن ننهي قصة فرويد، لأنَّي أخذت الكثير من وقتك كالعادة؟
- حسنًا، رغم إصابة فرويد بسرطان الحنجرة نتيجة التدخين، لكنه لم يتخل عن السيجار مطلقًا، ولم يكن يجد غضاضة في الاعتراف بأنّ تعلقه الكبير به، قد يعود إلى التعويض عن أحد أكثر الدوافع القديمة في أعماق الفرد وأكثرها انتشارًا وهي الاستمناء. في عيد ميلاده الثاني والثمانين، انتشرت أقاويل حول منحه جائزة نوبل، لكنه استاء من الخبر، فقد كان معروفًا بتمرده، والمتمردون لا يُمنحون الجوائز الكبيرة. وبمرور الوقت، ترسخت في ذهنه فكرة مغادرة النمسا، فقد أراد كما كتب ذلك مرارًا *"الموت حرًا"*، كما أنَّ النازيين سيطروا على كل شيء عدا حياته، وإن كانوا قد سمحوا له بالعيش حتى ذلك الوقت، فليس لسبب سوى خشيتهم من إثارة امتعاض العالم كله. في الرابع من حزيران، وبرفقة كل من زوجته مارثا، وابنته آنا، وطبيبه، وكلبه المحبوب، استقل قطار الشرق، وذلك بمساعدة العديد من أصدقائه من كل أنحاء العالم، وفي مقدمتهم الأمريكيون، ليصل في يوم الأحد الموافق السادس من حزيران

إلى محطة فيكتوريا في لندن. ولتفادي الحشود التي كانت في استقباله، توقف القطار قبل الوصول إلى المحطة بقليل، لأنَّ حالته الصحية كانت سيئة، بحيث لم يكن قادرًا على الوقوف على رجليه. كان رجلًا مولعًا بالتحديات، وبقدر رغبته في صديق قوي يقف إلى جواره في صراعاته، فقد كان يحتاج إلى عدوٍّ قويّ ليواجهه. كما أنَّ انتماء مؤسس التحليل النفسي، إلى أحد الشعوب التي تعرضت للاضطهاد عبر مختلف مراحل التاريخ، لا يمكن اعتباره مجرد مصادفة. كان فرويد مولعًا بالشهرة، و النجاح، وكل أساليب العيش البرجوازية. وفي سنواته الأخيرة، واجه ازدواجية أخلاقية حقيقية؛ هل يتعيّن عليه التمتع بثمار نجاحاته، ومواصلة حياة هانئة، أم الاستمرار فيما يجيده بإتقان؛ أي الإبداع المجنون؟ فقد كان يعمل في تلك الأثناء على واحد من أكثر كتبه إثارة للجدل "موسى والتوحيد"، والذي قد ينسف مشاعر الترحيب والحفاوة التي قوبل بها في إنكلترا. هذه المشاعر التي عاشها في عام ألف وتسعمائة وتسعة، خلال زيارته الولايات المتحدة الأمريكية. يتحدث "موسى والتوحيد" عن تاريخ الشعب اليهود، ويضع هوية موسى موضع تساؤل، ويحاجج بأنه لم يكن يهودي الأصل، بل مصريًا. ويذهب أبعد من ذلك، حين يعتبر أنَّ عبادة الإله الواحد، لم تظهر على يد موسى واليهود، بل هي فكرة مصرية حاول موسى نقلها إلى اليهود، الذين قاموا بقتله بسبب هذه الفكرة بالذات. وهذا يعني أنَّ شعب الله المختار قام بقتل نبيه الأعظم.

- يا له من رجل غريب حقًا! فحياته كانت مهددة لكونه يهوديًا، لكنه لا يتوانى عن التصريح بما يؤمن به. وفي سبيل الفكرة التي اقتنع بها، لا يمانع في التخلي عن شعبه بالذات.

رغم الإعجاب في نبرة صوتها، لكن تشوبه علامات الحيرة، فهي تحاول فهم شخصية فرويد، لكنها لا تعرف كيف ترتب الأفكار في مكانها الصحيح.

- لم يكن الأمر في نظره تخليًا، بقدر ما كان رغبة في كشف الحقائق مهما كانت صادمة، ولم يكن يهمه العرق والدين ولا حتى الله، فقد عاش ملحدًا، وظل وفيًا لأفكاره حتى لحظة موته.
- وهل نشر كتابه؟
- أجل، رغم الصراع النفسي العميق الذي مرّ به، لكنه لم يستطع كبح جماح نفسه، ونشر الكتاب الذي قوبل كما توقع له، باعتراض شديد، لكنه أصبح من أكثر الكتب مبيعًا في العالم حينها. أي إنَّه نجح حتى قبل موته بفترة وجيزة بافتعال عاصفة جديدة، زلزل بها أفكار الناس، ليظل دومًا الشخص الذي يكشف الحقائق التي يخشاها الآخرون، ويخلق الفوضى أينما حل.
- لديه روح ثائر.

يظهر على وجهها الانفعال ذاته حين تتحدث عن هتلر، فجرأة فرويد تثير إعجابها.

- بحسب فرويد، فكل تصرفات الإنسان نابعة من خبراته الطفولية؛ أي ما تعلمه الطفل حتى سن السابعة. فما مرَّ به، وطبيعة مشاعره حينها، ستحدد مسار شخصيته حين يكبر، وهو يرى أنَّ أحداث الزمن الحاضر، هي انعكاسات لتجارب الماضي وتكرار لها بطريقة ما.
- إذًا، فالويل لي.
- لكننا معًا الآن لكي ننقذك من هذا المصير. وهي المهمة التي حاول فرويد القيام بها من خلال التحليل النفسي، وذلك بتغيير المشاعر والأفكار التي برمجت الدماغ خلال مرحلة الطفولة. فهو يقول إنَّ الإنسان الذي يستسلم للخوف، يخلق الآلهة لتقوم بتخليصه. كما كان يصرّ على القول إنَّ النساء يعشقن الطغاة.

تتأمل كلماتي، وهي تنظر إلى السقف.

- لا يبدو لي كلامًا منطقيًا، لكنه واقعي غالبًا. فهو لم يكن يقول الأشياء العادية.
- بالضبط، فقد سعى دومًا للتنويه إلى الأمور التي يصعب على الإنسان تقبلها. لذا، فقد كان له أعداءٌ، بقدرما كان له محبّون. والحقيقة أنَّ ثائرًا مثله كان سيتمرد على المحبة ذاتها، إن تلقاها من الجميع. كان لديه خمس شقيقات، كبراهن آنا، التي كانت متزوجة بشقيق زوجته، وقد توفيت في نيويورك عام ألف وتسعمائة وخمسة وخمسين، وهي في السابعة والتسعين. أما دولفي فلم تتزوج قط، وقضت حياتها مع والدتها تعتني بها، وفي أيلول عام ألف وتسعمائة واثنين وأربعين، توفيت نتيجة الجوع في أحد مخيمات اليهود. أما شقيقاته الثلاث الباقيات، فقد أخذن إلى أحد معسكرات الاعتقال في عام ألف وتسعمائة واثنين وأربعين، وتم قتلهن على يد النازيين. وفي الأول من أيلول وبينما كان فرويد يصارع آلام حلقه المبرحة، دخل النازيون بولندا، ورغم مقاومة البولنديين المستميتة، فقد سقطت البلاد خلال فترة قصيرة، وقد كان هتلر في الصفوف الأمامية ليكون قريبًا من جنوده، وخلال وقت قصير، راودته فكرة القضاء على البولنديين كافة، لكن إعلان كل من إنكلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا بعد يومين من هذا التاريخ، حال دون تطبيق هذه الفكرة المجنونة.
- إنَّه أكثر جنونًا من كل من عرفت. لقد تسبب بنشوب حرب عالمية مدمرة. رغم أنَّي قرأت الكثير حول التاريخ، لكني لم أدرك أنَّ كل ما جرى، بدأ مع جنون رجل واحد.
- لست المذنبة، فهم لا يعلموننا التاريخ على حقيقته. حين وصل خبر احتلال بولندا إلى فرويد الذي كان على فراش الموت، علق قائلًا: "الحروب ستستمر، لكن هذه ستكون آخر حروبي". وبحسب وجهة

النظر الفرويدية، فإن التاريخ البشري هو تعاقب مستمر لحقب السلام والرفاه التي تطغى فيها ميول الإنسان الثقافية على دوافع التدمير والحرب. أما الحقب التي تتمكن فيها هذه الدوافع من الظهور، فتتوجه إما نحو الخارج على شكل فتوحات، أو من خلال انتشار جرائم القتل والاغتصاب في المجتمع.

تتمهل لوهلة وكأنها تحل مسألة رياضية في ذهنها قبل أن تعلّق:

- ما الحل إذًا؟ ألم يقترح حلًا يساعد البشرية؟

- كان البديل الذي اقترحه فرويد، توجيه هذه الطاقات المكبوتة نحو مجالات أخرى، كالفن والعلم والتجارة وسواها من مجالات الثقافة والعمل فيما أسماه بآلية التسامي. فهو يرى تمامًا كبلزاك أنَّ من لا يمنح لا يأخذ في المقابل. لم يشتك فرويد من الآلام الجسدية التي عانى منها نتيجة مرضه، لأنَّ أعظم مخاوفه كانت فقدان ملكاته العقلية، فقد كان يرغب في الموت وهو لا يزال قادرًا على العمل والعطاء. وكانت حقيقة إدراكه لاحقًا، أنَّ البشر لا يرغبون دوماً في الحرية والمساواة، كفيلة أن تصدم حتى رجلًا متمرد الروح مثله، فقد لاحظ أنَّ الكثيرين كانوا يعتبرون الديمقراطية نظامًا ضعيفًا لا يمتلك ما يكفي من السطوة والعظمة، وبرر هذا النزوع نحو السلطة المطلقة، بقدرتها على تنظيم العالمين الداخلي والخارجي للشخصية، على عكس الديمقراطية التي تشوش هذين العالمين. فمهما كان الشر الذي يعتمل في نفوس البعض، فهم يحلمون بخلق نظام يناسبهم. والفاشية هي أكثر الأنظمة التي تلائمهم، لأنَّها تعمل على إنهاء صراعاتهم الداخلية؛ مما يشعرهم بالقوة، وبالتالي من الصعب عليهم التخلي عن هذه المشاعر.

- لو لم يكن ثائرًا وجسورًا في الوقت ذاته، فما استطاع التصريح بهذه الحقائق.

- أتفق معك تمامًا، وبحسب ما أدركته من قراءاته، كان اكتشاف هذه الحقيقة صعبًا عليه، قبل الآخرين. فقد كان يتحدث عن نظام شكل تهديدًا مباشرًا على حياته، وقتل الكثير من أفراد عائلته. بمرور الوقت تدهورت حالته، وأصبح غير قادر على العمل، خاصة بعد إحداث ثقب كبير في وجنته، وكانت حدة الآلام تزداد بمرور الأيام. كان فرويد قد ناقش فكرة موته قبل سنوات طويلة مع طبيبه شور، فقد كان يرغب في تلقي مساعدة طبيبه حين يحتم عليه المرض مغادرة هذا العالم، وحين قرر ذلك، خاطب شور قائلًا: "*لقد غدت الحياة مجرد عذاب، ولم يعد لها أيّ معنى*". فأدرك الطبيب ما يعنيه، لذا تحدث مع ابنته آنا، ليحصل على موافقتها، ثم قام بحقن مريضه الذي حاول سنوات أن يخفف عنه وطأة الألم، والذي يكن له الكثير من المحبة والاحترام، بجرعات متتالية من المورفين. ونشرت الصحف كافة في الثالث والعشرين من أيلول عام ألف وتسعمائة وتسعة وثلاثين، أنَّ فرويد توفي نتيجة السرطان. ظلّ هذا الرجل المتمرد وفيًا حتى النهاية لمعتقداته، فلم يدفعه الموت إلى الخوف، أو طلب الغفران أو المساعدة الدينية، بل تمسك بما آمن به حتى الرمق الأخير.

يظهر الحزن على وجهها، وكأنها شهدت توًّا موت بطل الفيلم الذي تتابعه بشغف.

- لا يمكن للمرء سوى أن يحترم شخصيته. لقد أحزنني مصيره، لكني تعلمت الكثير اليوم.

تنهض كعادتها بتثاقل، وحين تصافحني، أشعر بنفسي أقرب إليها من أيّ وقت مضى. تنظر إلى عيني وهي تقول في صوت شبه هامس:

- شكرًا لك.

فأبادلها الشكر بابتسامة. من الواضح أنَّها سرت بما سمعته اليوم، فهناك العديد من الحجارة التي اتخذت موضعها المناسب في ذهنها المتقد. إنَّها تعرف

الكثير حول نفسها وحول الحياة بشكل عام، لكن هل هذه المعرفة مفيدة أم لا؟ ذلك ما يراودني الشك بشأنه، لأنَّ المعرفة الزائدة قد تشوش ذهن الإنسان أحيانًا، فيهمل مشاعره، ليحاول فهم الأحداث، بطريقة تجريدية عن طريق العقل والمنطق فقط.

إنَّها تجد انعكاسًا لماضيها، بكل ما عاشته من عذاب وظلم وتهميش، وما نتج عنه من غضب وحنق في شخصية هتلر، لكنها مهتمة بمعرفة رأي فرويد حول هتلر وتحليله لشخصيته. وقد شبهتني بهتلر، لتعرف رأيي وانطباعاتي أيضًا حول شخصيته، دون أن تخشى إثارة غضبي، لأنَّها باتت تتوقع ردود أفعالي بدقة.

الحرية والقوة بالنسبة إليها حلقتان في سلسلة واحدة، وفي الوقت الذي يزداد إعجابها بدكتاتورها الحالي المتمثل في شخصيتي، فإنها تشعر بالنقمة على نفسها، لأنَّها توليني هذه المكانة. لكن الأهم أنَّ كل ما تدلي به من تعليقات حاذقة، يشير إلى امتلاكها القدرة على تغيير أقدارها والانتقال بها إلى مسارات جديدة. لكن هل تفعل وتقول ذلك عن وعي؟ من الصعب التحقق من ذلك في هذه المرحلة.

حل المساء منذ وقت طويل، والمدينة تتلألأ اليوم أمام ناظري بطريقة ساحرة، رغم الثقل الذي لا يزال راسخًا في ثنايا قلبي، لتلك الآلام التي تدفقت بين جدران هذه الغرفة. أفتح النافذة وأتنفّس قدر ما أستطيع من هواء المساء الرقيق إلى أعماقي، لكن هذا لا يكفيني، فأحمل حاجاتي بسرعة وأغادر. أنا بحاجة ماسة إلى المزيد من هذا الهواء المنعش.

الفصل العاشر

ليس من السهل العثور على الحكايات المناسبة، فكتب التاريخ باتت مكدسة على الطاولة الصغيرة قرب سريري. صحيح أنَّها مليئة بالكثير من القصص، لكنها يجب أن تحقق شرطين محددين لتدخل قائمة السرد: أولًا، يجب أن تلائم حالة آلا النفسية في الجلسة. وثانيًا، عليها أن تتوافق مع الهدف العلاجي الذي أصبو إليه. لذا عادة ما أحضّر في ذهني ثلاث أو أربع حكايات قبل بدء الجلسة. لقد مرت عصور على تلك الأزمنة التي كنت أدرس فيها في المنزل، وهذه المهمة الآن تعيدني إلى تلك المرحلة. في بعض الأحيان، تستغرقني القراءة وأنسى النظر إلى الساعة، فأنا بطبعي طائر ليلي، ولو ترك الأمر لي فما نمت أبدًا، لذا فأنا أستغل هذه الذريعة حتى النهاية.

وهناك مهمة العثور على الكتب المطلوبة، لكني ولحسن الحظ ألقيت بها على عاتق أصدقائي الذين يتجولون على مكتبات المدينة ويعثرون لي على كل هذه الكتب الغريبة. لذا فمهمتي تقتصر على القراءة، وحفظ الحكاية في ذهني.

حين أعود مساء إلى البيت، وبعد قسط من الراحة، أختار واحدًا من أكثر المسلسلات التي يتحدث عنها الناس ويشاهدونها، لكي أتابعه. فلا يمكن العيش في غفلة عن تلك الأحداث التي يتابعها الملايين من المشاهدين. لا أريد أن أظهر وكأنني في كوكب آخر، حين يتحدث مرضاي ومعظم زملائي في العمل عن أحداث مسلسل ما أو أبطاله. ولكن المشكلة أنَّها تسبب الإدمان.

ورغم ذلك، فأنا أتابعها وفي قلبي غصة، لأنّي أنتمي إلى جيل الستينيات، جيلٍ كان يعيش على وقع انفعالات أكثر زخمًا وواقعية، كان الجميع وكأنّهم استفاقوا توًا

من نوم عميق. حين أفكر في تلك السنوات، يبدو لي وكأننا كنا قد أتينا إلى العالم توًا، يبهرنا كل ما هو جديد، ونحاول اللحاق به، تمامًا كالأطفال. حتى إنَّنا كنا نعجز في بعض الأحيان عن كبح جماح هذا الانفعال والفضول، فنتعرض لما ليس في الحسبان، ولكن متعة العيش بالحواس كاملة، العيش بيقظة وإدراك تامين لما يجري من حولنا، لا تضاهيها متعة أخرى. كانت محطات الإذاعة تبث أغاني جديدة، لم نسمعها ونألفها من قبل، ولكنها تحرك فينا مشاعر مختلفة تمامًا، كنا نرتدي بطريقة مغايرة لما اعتاده آباؤنا لسنوات، نفكر بطريقة مغايرة لهم، ونلاحق أحلامًا، لا تشبه أحلامهم في شيء. كانت رياح الحرية تعصف بكل ما في المجتمع، وكانت عقولنا كما قلوبنا، تبحر بأشرعة مفتوحة مع هذه الرياح. الآن يرقد المجتمع من جديد تحت موجة من الخمول، فقد نام اليقظون، واستفاق النائمون.

رغم أنَّ العمل يستنزف نهاري كله، لكني بين الحين والآخر، أتمكن من الجلوس ليلًا أمام شاشة الحاسوب، لأكتب قليلًا عن أحداث المركز، وحكايات مرضاي، وكل ما يتعلق بآلا، إضافة إلى أفكاري ومشاعري حول كل ما يجري. الكتابة تختلف عن كل ما عداها من التجارب، وكأنّ المرء يعاود خوض ما عاشه، وحين أرفق الكتابة بإحدى المقطوعات الموسيقية التي أحبها، يكاد الوقت يمضي خفيفًا كالنسيم، لا أشعر به، بل أقضيه مستمتعة.

في صباح اليوم التالي، عادة ما يكون الاستيقاظ أكثر صعوبة، ولا يستعيد ذهني توازنه إلا بعد فنجان من القهوة المركزة. وما إن أدخل المركز، حتى يستقبلني حسن ومعه حمولة من الملفات والتقارير، فنناقش مشاكل المركز والتعديلات والقرارات التي نحتاج إليها، حتى حلول أول المواعيد، والتي تستغرقني حتى المساء.

أولى مريضاتي اليوم، سيدة جاءت من خارج أنقرة، شقراء، مكتنزة، في نهاية العقد الثالث، أنيقة المظهر، جميلة الوجه، لكن عينيها توحيان بأنها على وشك البكاء في أيّ لحظة. أستقبلها عند الباب، وبعد أن تجلس كلتانا، أسألها عن اسمها، فتقول إنَّه سيربيل، وتبدأ سرد قصتها حتى قبل أن أسألها.

تزوجت في سن صغيرة جدًا، والأصح أنَّ عائلتها زوجتها بابن إحدى العائلات الغنية المقتدرة في المدينة. كانت حينها في السادسة عشرة من عمرها فقط، وكان زوجها رجلًا غيورًا جدًا، بدأ بضربها منذ الأيام الأولى، ورغم أنَّها أنجبت منه ثلاثة أبناء ذكور، لكن علاقتهما لم تتحسن. فاستمرت المشاحنات، وتركت المنزل مرارًا، لكنها كانت تعود في كل مرة خوفًا من تهديدات زوجها لها بالقتل. ومرت السنوات وغدا ابنها البكر في السادسة عشرة الآن، لكنه لا يختلف عن والده في شيء، فهو يستغل كل فرصة لإهانة والدته وضربها. وتقول إنه قبل أسبوع من زيارتها لي، قام بضربها ضربًا مبرحًا، ولاتزال آثار الكدمات على جسدها. حتى إنَّها باتت تخشى أن يقدم على قتلها في إحدى المرات.

تتوقع السيدة سيربيل، أن أجد حلًا سحريًا لمشاكلها المستمرة منذ أكثر من عشرين عامًا، خلال جلسة واحدة. أسمع قصتها دون مقاطعة، وأنا أحاول تحليل الأحداث في ذهني. لا جدال أنَّ الابن يكرر ما يفعله الأب، ولكن لمَ تنال هذه المرأة كل هذا القدر من الضرب؟ أيّ نوع من الشخصيات هي؟

تنظر إليّ بعينين راجيتين، وبينما أناقشها، أحاول تحديد أيّ من زملائي الأطباء والاختصاصيين النفسيين، يمكنهم العمل على هذه الحالة المعقدة والخطيرة في آن واحد. فليست وحدها من تحتاج إلى الاهتمام، بل كل فرد من عائلتها. ومصيبتها الكبرى أنَّها تكاد تخسر أبناءها الثلاثة، الذين لا يمتلكون قدوة حسنة في محيطهم. فالأب الذي يقتدون به، رجل غير ملتزم، يغيب معظم أيام الأسبوع عن المنزل، ويحاول تعويض الأبناء عن غيابه بالهدايا الثمينة، يشرب الكحول بكثرة، وغالبًا ما تكون إقامته النادرة في المنزل، مصحوبة بالشجار مع زوجته وتعنيفها.

أضع يدي على كتف السيدة سيربيل، ونحن نخرج معًا في نهاية الجلسة من الغرفة، وأطلب تحديد موعد عاجل لها مع زميلي محمد عاكف سايلغان. وعندما أقترب من طاولة تونا لكي تحدد موعدًا لمريض آخر، تبرق عيناي حين أرى ممو

يقترب. تعرفت إليه عام ألفين وخمسة، ونحن ننشئ مركز ماداليون النفسي، كان كل منا قد سمع بالآخر، لكن لم نلتق حتى ذلك الوقت، فقد بدأ العمل في جامعة حاجي تيبة، بعد أن تركت العمل هناك مباشرة، وقد درّس فيها سنوات طويلة. وبدعوة من جنكيز، اجتمعنا كلنا على الغداء في أحد مطاعم أنقرة الفخمة ذلك العام. كما كانت البروفيسورة عائشة يالن، زميلتي في العمل من أيام جامعة حاجي تيبة، ضيفتي ذلك اليوم، وفي تلك الجلسة بالذات تقرر إنشاء المركز. ومنذ تلك اللحظة، نشأ بيننا رابط قوي، فلا يمكن لأي شخص يتعرف إليه، سوى أن يقابله باحترام شديد. فما إن يضطلع بعمل ما، حتى يتقنه بشكل تام، أو لا يقوم به من الأساس. ويمكن الاعتماد عليه في كل شأن بثقة مطلقة، لأنَّه لا يوافق على أيّ شيء، ما لم يقتنع به منذ البداية. وهو يعلم أنَّه وسيم ومهيب الطلة إلى درجة تلفت الأنظار نحوه، لكنه يتحاشى دومًا لفت أنظار الآخرين بسبب هذه الميزة. وكل ما في غرفته يعبر عنه بوضوح تام، فإلى جانب كونها مشرقة، فهي مؤثثة بطريقة عصرية أنيقة ومنظمة جدًا.

يبتسم حين رؤيته إيّاي، فأعرفه إلى السيدة سيربيل، وأدعوه إلى غرفتي لحديث قصير، وأشرح له الحالة على عجالة:

- الوضع خطير وجدي بدرجة كبيرة، فالأطفال أيضًا بحاجة إلى المساعدة. أرجو أن تهتم بهذه الحالة وتبذل كل جهدك، عليك أن تقنع الثلاثة بالمجيء، وتحدد لهم مواعيد مع اختصاصيي الأطفال لدينا، كما يجب عليك أن تجد طريقة للتواصل مع الأب أيضًا، وتولي مهمة الجلسات العائلية حاليًا.
- حسنًا، لا تقلقي، سأعتني بمريضتك جيدًا. يقولها، وعلى وجهه واحدة من تلك الابتسامات. يبدو أنِّي بالغت كعادتي.

حين أرى اسم محمد على لائحة المواعيد، أشعر ببهجة، فهو أحد المرضى المقربين إلى قلبي، يزورني منذ سنوات، وأشعر بأنه رفيق درب أكثر من كونه مريضًا.

كان حينها شابًا دخل الجامعة حديثًا، انطوائيًا، قليل الكلام، حساسًا، لا يشارك حتى أفراد عائلته مشاكله، يعيش في عالمه الخاص، وإلى جانب كونه شابًا وسيمًا، طويل القامة ومهيب الطلعة، فقد كان حريصًا على أناقته، ويبدي اهتمامًا واضحًا بنظافته الشخصية. لم يكن لديه علاقات مع الفتيات، وكان يجد صعوبة في تكوين علاقة حتى مع أقرانه من الذكور. كان العالم الخارجي بالنسبة إليه غريبًا، وعصيًا على الفهم. ومع انغماسه أكثر في عالمه الداخلي، بات مهووسًا بفكر معينة، رغم أنَّها لم تكن حقيقية، لكن هذا ما لم يكن يدركه حينها، وما كان لأحد مهما حاول أن يقنعه ببطلانها. وأكثر ما يخيفه أن يغدو هدفًا لسخرية الآخرين، إن أدركوا ما يدور في رأسه. لكنه وبطريقة ما وبمرور الوقت، تمكن من الوثوق بي، وهي إحدى الركائز الجوهرية لنجاح العلاج. كيف تمكنتُ من كسب ثقة ذلك الشاب الذي كان يرى العالم كله عدوًا له؟ ولمَ اختارني دون الجميع؟ لا توجد خلطة معينة، كل ما في الأمر أنَّي أحببته كثيرًا، وحاولت تفهم ما يعانيه، وأحسست به، وقد وصله هذا الإحساس.

بمرور الوقت، أصبحنا صديقين مقربين، ووافق على تناول الأدوية التي وصفتها له دون إهمال، وهو يزورني بين الحين والآخر. بعد إنهاء دراسته الجامعية، تمكن من العثور على عمل جيد. ورغم أنَّه لم ينشئ صداقات عميقة مع زملائه، ولم ينخرط في أجوائهم، لكنه واظب على الذهاب إلى عمله دون انقطاع، وصحيح أنَّه لم يحصل على ترقيات سريعة كالآخرين، وسار في مشواره المهني بخطا متمهلة، لكنه لم يستسلم لليأس. واستطاع أن يعتمد على نفسه، وتمكن أخيرًا من العثور على الفتاة التي أدركت طيبة قلبه ونقاءه، وتزوجا ورزقا بأطفال، وكونا معًا أسرة جميلة.

وها هو يزورني اليوم. أنهض لاستقباله حتى قبل أن أسمع طرقاته على الباب، ليجدني أقف أمامه حال دخوله، وما إن يراني حتى تشع عيناه بذلك البريق المحبب، فنتصافح بحرارة، ويسأل كل منا عن أخبار الآخر، فقد مرّ ما يقارب العام على آخر زيارة له. ينتابني الفضول لمعرفة ما جرى خلال هذا الوقت، إنَّه فضول من طرف واحد، وهي إحدى ميزات أن يكون المرء طبيبًا. فأنا من أتقاسم معهم دومًا أحداث

حياتهم، دون أن يعلم أيّ منهم ما يجري في حياتي الخاصة. كل ما يرغبون فيه، رؤيتي قوية، أمتلك الصحة والحيوية والطاقة اللازمة لمساعدتهم. كما يتوقعون أن أكون في انتظارهم، حين يقررون زيارتي. والأهم أنَّهم يرغبون في محبتي واهتمامي، وأن أولي كل واحد منهم عناية وأهمية خاصتين.

البعض تنتابه الشكوك فيما إذا كان الأمر مجرد سلوك مهني، وكثيرًا ما طرحت السؤال ذاته على نفسي: أهو مجرد التزام مهني؟ لكني وبمرور الوقت أدركت أنَّ الأمر ليس شعورًا زائفًا، بل مشاعر حقيقية. فحين يتعلق الأمر بمشاعرنا وأحاسيسنا، لا تملك الالتزامات المهنية سطوة عليها.

يجلس محمد قبالتي، وهو بالنسبة إليّ شخص قيّم، ولعل هذه القيمة تأتي من الجهد المبذول، فقد بذلت جهدًا كبيرًا مع محمد.

ترى لو أنَّ أحدًا آخر أبدى الاهتمام الذي نبديه بأبنائنا، وبذل في تربيتهم ونشأتهم كل ما بذلناه من جهد وتعب حتى كبروا، ثم قدمهم لنا، هل سيمتلكون كل هذه القيمة في أعيننا؟ أظن الأمر كتعتيق النبيذ، فسر الخلطة يكمن في الجهد المبذول، مترافقًا مع مرور الزمن.

ينظر كل منا إلى الآخر بتلك المحبة المعهودة، لكني خلال ذلك أحاول ملاحظة أدنى تغير طرأ عليه خلال غيابه. يبدو بحال جيدة، وقد ارتدى كعادته قميصًا مربع النقشات، مع بنطال الجينز. شعره أطول من السابق، كما أنَّ لحيته القصيرة تزيده وسامة.

أشير بيدي نحوه، مستفسرة عن سر اللحية، فيشرح لي قائلًا:

- لقد تركت العمل منذ ما يقارب الشهر.

ينتابني القلق عليه، هل أصبح عاطلًا عن العمل؟

- يجيب: لا، صحيح أنَّهم أقالوني من وظيفتي الأخيرة، لكني سرعان ما سأجد وظيفة جديدة. وقد قمت باستغلال الفرصة، وأخذت استراحة قصيرة من العمل.

يخبرني بأنّ والده توفي مؤخرًا، فباع الإخوة منزل العائلة، وتقاسموا ثمنه.

- عليك إنفاق هذه النقود بشكل جيد، فهي ستساعدك كثيرًا.

يضحك مبتهجًا من اهتمامي به، ويعلق قائلًا:

- لا تقلقي، فقد أصبحت بخيلًا بعض الشيء مؤخرًا.

ويواصل حديثه بصوته الخافت وأسلوبه الهادئ المتأني. لو أنَّ أحدًا سوانا في الغرفة، فما سمع ما يقوله، لكني اعتدت طريقته في الكلام، وأستطيع تخمين ما سيقوله حتى قبل أن يتم جملته. يحدثني عن زوجته وطفلته التي بلغت الخامسة، ويقول لي إنَّ زوجته كانت تستاء كثيرًا في بدايات زواجهما من عزلته، وترغب في أن يكون أكثر حيوية واندماجًا مع الآخرين، لكنها اعتادت في النهاية. فخفت خلافاتهما، وأصبحا أكثر تفاهمًا. كما يخبرني أنَّه يهاتف والدته بين الحين والآخر ليطمئن عليها. لا يتابع التلفاز، لكنه يقرأ الجرائد، كما أنَّه يمارس الرياضة صباحًا في الآونة الأخيرة.

- من الواضح أنَّك خسرت بعضًا من وزنك. أعلق.

- أجل، فالمشي صباحًا ساعدني كثيرًا.

سابقًا كان ينام حتى الظهيرة، ويقضي الليل كله مؤرّقًا، لكن ها هو ينام باكرًا كالجميع، بل ينهض في ساعة تمكنه من ممارسة الرياضة صباحًا. وهي تفاصيل على غاية الأهمية بالنسبة إليه.

في أولى زياراته لي، دونت في ملفه الخاص ملاحظة "مصاب بالشيزوفرينيا"، لازالت تلك الصفة ملازمة ملفه، وما كنت لأكتبها لولا أنَّ التوصيف أمر ملزم، ولكني أتمنى أحيانًا لو لم يكن التوصيف المرضي أمرًا ملزمًا في مهنتنا. لو أنَّي استطعت أن أكتب شيئًا مختلفًا عن محمد في ملفه، فأنا لم أصنفه في ذهني مطلقًا، مع مجموعة الانفصام من مرضاي. كان القدماء يقولون في مثل هذه الحالات "فريد من نوعه". وأنا أعتبر محمدًا أيضًا "فريد من نوعه"، ولم أفقد الأمل في علاجه مطلقًا، فالأمل لا يقتصر على المريض فقط، بل يشترط قناعة الطرفين.

أخيرًا، نناقش جرعات أدويته التي لم ينقطع عن تناولها مطلقًا. يصافحني بحرارته المعهودة، ويغادر مبتسمًا. لا يسألني متى يجب عليه العودة، ولا أطلب إليه ذلك، فأنا أعلم أنَّه إن لم يعد بعد شهر، فسيفعل بعد سنة.

آخر مرضاي اليوم هي آلا، ترى هل سأشعر نحوها يومًا ما، بما أشعر به نحو محمد؟ تنظر إليّ من الباب المفتوح قبل أن تدخل بخطاها الوئيدة. أضع ابتسامة على وجهي، الأمر الذي له أهمية خاصة بالنسبة إليها؛ ابتسامة أكثر اتساعًا من المعتاد. ترتدي كعادتها سترة صوفية رقيقة، لكن بشرتها تبدو وكأنها تحسنت، حتى أنفها بات أصغر حجمًا، وذلك بفضل اكتسابها المزيد من الوزن، فلم تعد كومة العظام التي كانت عليها سابقًا، حتى نظراتها لم تعد باهتة، وكأن الحياة بدأت تدّب فيها. تقترب مني، وللمرة الأولى أشم رائحة عطر تفوح منها، إذًا فقد تحسنت الأمور إلى درجة أنَّها باتت تتعطر!

- أهلًا بك آلا، تبدين لي اليوم بأفضل حال.
- أجل، فقد تحممت قبل المجيء، ومشطت شعري. لم يعد دخول الحمام يخيفني كما في السابق.
- إذًا، فقد كان الخوف ما يمنعك سابقًا من الاستحمام؟
- هم هم. سابقًا كنت أكره تذكر منزل طفولتي، والأحداث التي وقعت هناك. أما الآن حين أتذكر ما وقع، فلا أحاول الهرب وطرد الذكريات من ذهني.
- يبدو أنَّك تفكرين في الماضي كثيرًا، ولكن ما الذي تتذكرينه مثلًا؟

من المفاجئ أنَّها تبدأ الكلام دون أن أطلب إليها ذلك، فقد خفت مقاومتها السابقة، وباتت أكثر استعدادًا للعلاج.

الصبر يثبت لي مرارًا وتكرارًا أنَّه مفتاح جميع العقد التي في هذا العالم.

- أتذكر أبناء عمومتي. كم كانوا مدللين! تدللهم أمهاتهم، وأحيانًا السلطانة أسما، التي كانت تهزهم على ساقيها، وتغني لهم تهويدات جميلة. كنت

أحسدهم. أحسدهم بشدة. كان الكبار يجرون خلفهم ليقنعوهم بتناول الطعام، ويشترون لهم الألعاب، ويسمحون لهم باللعب في الفناء الخلفي، وصنع سفن ورقية واللعب بها في الفسقية. وحين كبروا قليلًا، اشترى لهم آباؤهم الدّراجات.

من الصعب تخيل طفلة تعامل بكل هذه القسوة والتمييز، وهي تعيش مع بقية الأطفال في البيت نفسه، وليست أقل منهم في شيء.

- كنت أبكي كثيرًا، أبحث عن أدنى عذر للبكاء، أحيانًا في صمت، وأحيانًا أصرخ بكل ما لدي من قوة. حتى حين كنت أبكي، كانت عيناي تبحثان عن حضن دافئ، أو طرف ثوب أتمسك به، دون طائل. كانوا يتذمرون قائلين: "عادت التعسة للبكاء مجددًا"، ويرمقونني بنظرات شرسة، ويضربونني بين الحين والآخر. وأكثر ما كان يثير استياءهم، بكائي أمام الضيوف الذين كانوا لا ينقطعون عن المنزل. فكانت زوجة عمي الصغرى تخدعني قائلة: "إن توقفت عن البكاء، فسيحضر لك عمك لعبة هذا المساء حين يعود". كنت أصدقها على الفور وأتوقف عن البكاء، ولكن في معظم الأحيان كانت السلطانة أسما ترمق أمي في قسوة، وهي تقول: "أخرسيها". فكانت أمي تجرني من ذراعي إلى المطبخ، وهي تهددني بحبسي في الغرفة، أو تشد شعري وتقرصني، كي أسكت. لكن لم يكلف أحد نفسه عناء السؤال: "لمَ تبكي هذه الطفلة على الدوام؟".

هذا السؤال عادة ما يطرحه الاختصاصيون النفسيون، لكن ليت الأمهات والآباء أيضًا، يطرحون هذا السؤال في الوقت المناسب.

- أكنت تدركين حينها سبب بكائك المستمر؟

- لم أكن أعرف أنَّ السبب هو افتقادي المحبة، لكني أدرك ذلك الآن. مر زمن طويل على تلك الذكريات، وما عدت أبكي كما في السابق، رغم أنَّ لدي من الأسباب الكثير لتدفعني إلى البكاء.

يا له من اعتراف حزين! يلسعني سوط رفيع. فليس هناك أضعف من الأطفال في هذا العالم، وكل ما يحتاجون إليه بعض المحبة والحنان، فإن حرموا منهما، فستكون النتيجة شخصًا مثل آلا؛ فتاة سُلبت جوهر الحياة.

- في الأيام التي كنت أبكي فيها كثيرًا، وأتلقى الكثير من الضرب والتقريع، كنت أنتظر حلول المساء وعودة أبي. ورغم معرفتي أنَّه لن يهتم بي، لكن الأمل يدفعني لانتظاره. كان عمّاي يعودان إلى المنزل دون تأخير، فيركض أبناؤهم لاستقبالهم. كنت أراقبهم خلسة وأقول في نفسي: "حتى هم يتشوقون مثلي لعودة آبائهم إلى المنزل"، لكن أبي لم يكن يعود. حينها كنت أبحث عن ذريعة ما، وأعود للبكاء. كان الجميع يشعر بالاستياء، وكلما زاد استياؤهم زاد بكائي. وهكذا يزداد نفورهم مني. كان البكاء هو سلاحي الوحيد ضدهم جميعًا، لم يكن لدي سلاح سواه.

تعبر عن مشاعرها بسلاسة ووضوح. يداها متشابكتان في حجرها، ورأسها محني، وكأنها مذنب يعترف بجريمته، تواصل البوح بكلمات متمهلة، لكن بتعابير عميقة.

- كان يعود متأخرًا وثملًا. كنت أستلقي على الأريكة التي في الصالون، دون أن أستغرق في النوم منتظرة عودته. وما إن أسمع قلقلة المفتاح حتى أنهض وأسير مترنحة الخطا مثله. كان ينهرني حين يراني قائلًا: "ما الذي تفعلينه في هذا الوقت هنا؟". كانت عيناه المحتقنتان تستاءان من رؤيتي، ويدفعني بيده بعيدًا، كي لا يسقط فوقي، وهو يجرجر خطاه المترنحة نحو الدرج. هذا المشهد كان يتكرر دومًا. ورغم يقيني من تكراره، كنت أنتظر وصوله دومًا، فآمال الأطفال من الصعب أن تخبو بسرعة.

تحلل مشاعرها بطريقة فلسفية محكمة. حين رأيتها أول مرة، استخففت بها، ولم أتوقع لديها كل هذا العمق الروحي. بمرور الوقت، بتّ أستمع إليها في دهشة ممزوجة بإعجاب حقيقي.

- لاحقًا، تعلمت التخلي عن الأمل، والبحث عن الحقائق وفهمها. وأخيرًا أدركت أنَّ ليس كل طفل يبكي، يحصل على لهاية. بالنسبة إلى أبي كنت شخصًا لا أهمية أو قيمة له. وقد انتشرت أقاويل وشائعات كثيرة، لأنَّني ولدت بعد دخوله السجن. كما كانت أمي موصومة بعار كونها قادمة من إسطنبول، دون أن يعرف أحد من تكون، أي كما يقال لا يعرف أصلها من فصلها. ربما لهذا السبب ظلت دودة الشك تنخر رأس أبي باستمرار. فهل أنا ابنته أم لا؟ لا بدّ أنّه كان يسأل نفسه هذا السؤال كلما رآني. وكانت السلطانة أسما تغذي هذه الشكوك باستمرار؛ لأنَّها لم ترغب في تحسن علاقته بنا.
- ما رأيك أنت في هذه الفكرة؟
- لا أعلم. لقد فكرت سنوات في الأمر، ولايزال السؤال يشغل ذهني أحيانًا، لكني لم أعثر على إجابة. فأمي التي أعرف لم تكن امرأة من هذا النوع، لكني لم أعرفها قط، ولم يتمكن أحدٌ من معرفتها على حقيقتها.
- حتى والدك؟
- حتى هو. لقد انبهر بجمالها، وهو الشيء الوحيد الذي امتلكته. ولكن ما حدث لاحقًا، غير حياتنا إلى الأبد، وقد دفعت أسرتي الثمن غاليًا.
- من تعنين بالتحديد بأسرتك؟
- أنا وأمي وأبي. رغم أنَّنا لم نكن قط أسرة طبيعية، لكن الجميع تكاتف لإبعادنا. وهكذا وجدنا أنفسنا في أنقرة، ومنذ ذلك الوقت لم نر أحدًا منهم. والآن لا أعلم عنهم شيئًا منذ سنوات، ولا فكرة لدي إن كانوا أحياء أم أمواتًا.
- أتعنين تم إرغامكم تقريبًا على الانتقال إلى أنقرة؟
- ليس تقريبًا، بل أجبرنا على المغادرة. فخلال فترة سجن أمي، كان أبي قد اشترى هذا المنزل في أنقرة، وجهزه بما يلزم. وفي اليوم الذي تم فيه إخلاء سبيلها، توجهنا إلى هنا فورًا دون المرور بمنزل العائلة.

إذًا، فأمها قد دخلت السجن أيضًا، ولكن ما السبب يا ترى؟

- كم كان عمرك حينها؟
- كنت قد أنهيت المرحلة الابتدائية؛ أي إحدى عشرة سنة تقريبًا. وبسبب انتقالنا القسري، فقد كنا نمقت المدينة، كما أنَّ حالة أمي تدهورت سريعًا بعد انتقالنا إلى هنا.
- ممَّ كانت تشتكي؟
- أعني حالتها النفسية، فقد تفاقم جنونها. هل مثل هذه الأمراض وراثية؟ هل سأمرض مثلها؟
- لكني لا أعلم بعد المرض الذي كانت تعاني منه؟
- لو عاشت في بيئة طبيعية، فربما ما كانت ستمرض. لكني حين أفكر في الأمر، أجد كل الشروط اللازمة قد اجتمعت لدفعها نحو مصيرها. والأمر ينطبق علي أيضًا. فلا يجدر بي استثناء نفسي خاصة في الآونة الأخيرة، فكل عفاريت الأرض تتراقص في ذهني، لكنها لا تقارن بما كنت عليه حين أتيت أول مرة. لا يجدر بي أن أحكم في هذا الشأن؛ فأنت من يجب أن تحددي ذلك. يبدو أنَّي أتحدث نيابة عنك.
- ليس لدي اعتراض على ما تقولينه. كما أنَّ التحسن باد عليك. هل تتناولين دوائك بانتظام؟
- أجل. وهو لا يسبب النعاس كما كنت أخشى.
- هذا خبر جيد.
- ألا توجد حكاية اليوم؟
- بلى، لكني أتمنى أن تواصلي الحديث أكثر.
- لا أستطيع.

تقولها بنبرة حاسمة، وقد تعلمت أنَّ الإصرار لا يجدي معها نفعًا. ولكن أيّ نوع من الحكايات علي أن أروي اليوم؟ أعتقد أنَّ حكاية فيها بعض الأمل ستكون

جيدة. ربما تمنحها حكاية الفتاة التي تحولت من غسّالة إلى إمبراطورة لروسيا، جرعة من التفاؤل.

- بالطبع لدي حكاية، اليوم أريد أن أقص عليك حكاية الإمبراطورة كاثرين زوجة القيصر الروسي بيتر الأول.
- تلك المرأة التي أشيعت الأقاويل حول علاقتها مع محمد باشا البلطجي.
- أحسنت يا عزيزتي، لا يبدو أنّ هناك ما لا تعرفينه، ولهذا السبب أنا أستمتع دومًا بالتحدث إليك.
- هل أنت جادة فيما تقولين؟
- جادة إلى أبعد الحدود. فكما أصارحك بما لا يعجبني في شخصيتك، أصارحك أيضًا بما يعجبني.

تحمر حتى أذناها، إما لأنَّ الإعجاب يشعرها بالخجل، وإما لأنَّه أحد المشاعر الغريبة التي لم تختبرها. في لحظات كهذه، يرتفع فمها نحو اليسار قليلًا فيما يشبه الابتسامة، لكنها سرعان ما تتمالك نفسها. حينها يمكنني رؤية أسنانها المصفرة المتراكبة. تحاول كسر هذا الصمت الذي يربكها، بأول سؤال يخطر ببالها:

- كانت تعمل غسّالة على ما أظن؟
- صحيح، لقد ولدت كاثرين طفلة غير شرعية، وقد رفض والدها المتزوج بامرأة أخرى، تقبلها منذ البداية. والأسوأ أنَّ أمها ماتت أثناء ولادتها. كان اسمها حينها مارتا، وقد قام الجد بحملها، ووضعها أمام باب منزل والدها. لقد كان بقاؤها على قيد الحياة معجزة بحد ذاتها، فقد نشأت وكبرت محرومة من حنان الأم، في منزل أب فقير وعاجز، لم يرغب في وجودها من الأساس، وزوجة أب تكرهها وتعنفها باستمرار.
- حياتها تشبه ما عشتُه في طفولتي.

أليس هذا ما دفعني لاختيار هذه الحكاية؟

- عادة ما كانت تذهب مع إحدى صديقاتها إلى النهر لغسل الثياب، فقد كانت تغسل ثياب كل العائلة على يديها الصغيرتين منذ سنوات.
- أعترف أنَّ وضعها أسوأ. فلم يرغمني أحد على العمل، وحتى الآن لا أعرف كيف أقوم بالأعمال المنزلية.
- كانت حينها في الخامسة عشرة من عمرها، في ذلك اليوم الصيفي الدافئ، وبعد أن أنهت هي وصديقتها عملهما، قامتا بخلع ثيابهما، للتمتع بمياه النهر المنعشة.
- لم تفقد بهجتها على ما يبدو. ما كان ليخطر لي مطلقًا الاستمتاع بهذه الطريقة.
- في تلك الأثناء، رأى بعض المارة من الرجال الفتاتين، وفي ذلك اليوم بالذات طُرق باب منزل أسرة مارتا مساء، ليضع أحد أولئك الرجال حفنة من النقود في يد زوجة أبيها، ويضع مارتا على صهوة جواده، ويأخذها إلى بيته.
- رغم أنَّ قيمتي في البيت كانت معدومة، لكن ما كانوا ليمنحوني لرجل غريب، ليس محبة بي ولكن خوفًا من كلام الناس.

إن استمرت على هذا الحال، فستروي لي قصة حياتها كاملة مع انتهاء الحكاية.

- في الحقيقة، حاولت زوجة الأب كما في قصة السندريلا، أن تقنع الرجل بأخذ ابنتها بدلًا من مارتا، لكن الرجل كان مصممًا على أخذ الفتاة التي رآها تستحم في النهر.
- يا للمرأة الفظيعة! كانت ستعطيه ابنتها، وكأنه أمر جيد أن تبيعه ابنتها.
- للمرة الأولى أصبح لدى مارتا غرفة خاصة بها في المنزل الذي ذهبت إليه، وثياب جميلة وجديدة. وقد نشأت علاقة جيدة بينها وبين مدبرة المنزل وبقية الخدم، كانت تقفل باب غرفتها كل ليلة قبل أن تنام، إلى أن ظهر سيدها في إحدى الليالي أمامها فجأة.

- مسكينة، انتهت أيامها الحلوة.
- استيقظت في إحدى الليالي على صوت خلع القفل، فشعرت بالذعر وحاولت الدفاع عن نفسها وإبعاده، لكن الرجل كان ثملًا، وقابل كل محاولاتها بالضرب، فكانت أسوأ ليلة بالنسبة إليها. شعرت بنفور شديد من هذا الرجل العجوز الدميم الذي تفوح من أنفاسه رائحة الكحول، والذي يعاملها بقسوة بالغة، لكنها كانت عاجزة عن المقاومة. وبعد أن نام الرجل وارتفع شخيره، واصلت هي البكاء والنحيب حتى الصباح. بعد عدة أشهر ومع انتهاء البرد، أخذت الشمس تغمر المدينة، وتذيب صقيع الأنهار، لتطفو على سطح الماء جثث العديد من النساء، دون أن يعيرها أحد الانتباه، وكأنه أمر مألوف أن تطفو على سطح النهر جثث نساء مقتولات. لكن مدبرة المنزل شدت مارتا من أذنها خلسة، وطلبت إليها أن ترضي سيدها إن لم تكن راغبة في أن تغدو واحدة من تلك الجثث الطافية.
- تشبه زوجة عمي الصغرى. فقد كانت تنصحني خلسة أن أصبح مطيعة؛ وإلا فمصيري الهلاك.
- شعرت مارتا بالذعر، فقد كانت حينها في الخامسة عشرة، وفي كل ليلة كانت مضطرة لتحمل نزوات رجل تنفر منه، لكن الخوف من المصير الذي ينتظرها إن حاولت مقاومته، كان يشلها. لم يعد للثياب الجميلة، ولا الطعام الشهي قيمة لديها. فصممت على البحث عن طريقة تخلصها من نزوات ذلك الرجل الليلية.
- كانت حينها في الخامسة عشرة.
- أجل، كانت صغيرة جدًا. وفي إحدى الليالي طفح بها الكيل، ولم تعد قادرة على تحمل المزيد، فأخرجت قطعة الحديد التي كانت تخبِّئها تحت مخدتها، وأنزلتها بكل قوتها على رأس الرجل فيما كان نائمًا إلى جوارها.

تتسع عيناها دهشة، وهي تستمتع في فضول طفولي شديد، وقد أنستها الأحداث الحزن الذي بدا عليها قبل قليل.

- لم تبال بالدم الذي يتدفق من جمجمة الرجل المحطمة، بل استلقت إلى جوار جثته لبعض الوقت.
- يا لها من فتاة جريئة!
- بعد برهة من الوقت، بدأت تدرك ما أقدمت عليه، فوثبت مذعورة نحو غرفة مدبرة المنزل، لتروي لها كل ما فعلته بالتفصيل. ذعرت المرأة للوهلة الأولى، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها، بل شعرت بالامتنان لتخلصها من ذلك السيد المستبد، ولم يطاوعها قلبها أن تعاقَب تلك الفتاة الصغيرة بالجلد حتى الموت. كان الفجر على وشك البزوغ، وعليها أن تجد حلًا، فقامت بتغيير ثياب الفتاة، ومنحتها بعض المال، ودلتها على مكان قافلة البريد التي ستنطلق بعد قليل، وأسرعت بإخراجها من المنزل، ثم اتجهت إلى غرفة سيدها المقتول، فنثرت محتويات الغرفة في فوضى توحي بأنها جريمة سرقة.
- امرأة طيبة القلب.
- استقلت مارتا عربة البريد، لتصل إلى البلدة التي وصفتها لها مدبرة المنزل، على حدود السويد. لكن سائق العربة الذي لاحظ الحيرة في عيني الفتاة، سألها عن سبب مجيئها إلى هذه المدينة، فأخبرته الشابة المسكينة أنَّها غسّالة ولا تعرف أحدًا هنا، لكنها جاءت باحثة عن العمل. على الفور أمسك بها السائق من ذراعها، وأخذها إلى أقرب ماخور ليبيعها هناك.
- رجل حقير. يا إلهي، ما أكثر الأشرار في هذا العالم!

يبدو أنَّ مزاجها الناري قد عاود الظهور مع تأزم الأحداث، فهي تكاد لا تسيطر على نقمتها على الشر حين يظهر.

- كانت مارتا شابة في مقتبل العمر، جميلة جدًا، لكنها وحيدة تمامًا وعاجزة، ليس لديها أحد تلجأ إليه لحمايتها، لكنها لم تستسلم لمصيرها البائس، فبعد عدة أشهر من مكوثها في ذلك الماخور، هربت لتلجأ إلى إحدى الكنائس. كان القس رجلًا عطوفًا، فأخذها إلى منزله، وسلمها إلى زوجته. وهكذا أخذت تعمل خادمة في منزل القس، لكن الخطر لم يكف عن ملاحقتها حتى هناك، فابن القس الذي كان شابًا، أخذ يحاول التقرب من هذه الفتاة الحسناء. وحين لاحظت زوجة القس ما يجري، قامت بتزويج مارتا على الفور بأحد الجنود. وهكذا بدأت مارتا العيش مع زوجها في أحد أكواخ الثكنة العسكرية، لكن طبول الحرب سرعان ما بدأت تقرع، وخلال أيام وصلت جحافل الجيش الروسي إلى بوابات المدينة، وبدت الهزيمة أمرًا لا مفر منه. ومع دخول الجنود الروس إلى المدينة، بدأت عمليات السلب والنهب، ووقع زوجها أسيرًا، لتصبح المسكينة وحيدة مرة أخرى.
- سوء الطالع لا يترك المسكينة وشأنها.
- تم أسرها على يد مجموعة من الجنود، الذين ضروبها بعنف كلما حاولت مقاومتهم، وبدؤوا يتناقلونها فيما بينهم وهي شبه فاقدة لوعيها. فهب لنجدتها أحد ضباط الجيش الروسي، الذي دخلت الرأفة في تلك اللحظات قلبه، وأنقذ الشابة المسكينة من يد الجنود، ليأخذها إلى خيمته، ويأمر بمعالجتها. ومع تماثلها للشفاء، انبهر الضابط بجمالها، لكن ضابطًا آخر من المقربين للقيصر، والذي حل ضيفًا عليه في تلك الأثناء، رغب في أخذ هذه الحسناء إلى القيصر، وهكذا مهد أمامها الطريق لتصبح الإمبراطورة كاثرين الأولى.
- يبدو أنَّ الحظ بدأ يحالفها. ترى هل سيحالفني أيضًا يومًا ما؟
- ألا يقال"*لا بد لليل أن ينجلي*"؟ أتمنى أن ينجلي ليلك أيضًا، ويصبح الحظ حليفك قريبًا.

تبتهج كطفلة، ويشع بريق الأمل في عينيها، وهو ما نحتاج إليه كثيرًا في رحلة العلاج.

- وهكذا بدأت أيامها السعيدة، فقد أظهر القيصر بيتر اهتمامًا كبيرًا بها، ولم يمض وقت طويل حتى أعلنها عشيقته. وبعد أن تحولت إلى المذهب الكاثوليكي، تزوجها القيصر، لتكسب بذلك لقب إمبراطورة روسيا. هذا القيصر العظيم استطاع أن يحقق الكثير من الإنجازات لبلاده، وما مدينة سان بطرسبورغ الرائعة سوى واحدة من الكثير من إنجازاته. لقد زرتها العام الماضي، مدينة رائعة الجمال، لقد أبهرتني لأقصى الحدود.
- أغبطك. ليتني أتمكن من رؤيتها يومًا ما.

تحلم وتبني الآمال، وترغب في فعل ما يفعله الطبيب. أخيرًا بدأت الآمال تزهر في صدرها الفتي.

- إن شاء الله، فستفعلين ذلك، وستخبرينني إن أثارت المدينة إعجابك أيضًا. في تلك الحقبة، لم يكن البقاء على العرش أمرًا سهلًا، فحتى الابن قد يغدو تهديدًا لعرش والده، وهذا ما دفع بيتر الأول لقتل ابنه الوحيد، ليموت هو أيضًا بعد فترة دون أن يترك وريثًا للعرش؛ مما مكن الإمبراطورة كاثرين الأولى من حكم البلاد سنوات طويلة. هل أحببت هذه الحكاية؟
- أجل.
- لم تعتبريها شريرة، ولم تنقمي عليها.

كانت واحدة من أعظم ملكات روسيا وإمبراطوراتها، ورغم ذلك لم تعد تشعر بالحقد على شخصية مثلها. لكن هل لكونها عاشت ماضيًا تعيسًا، أم إنَّ ثورة غضبها قد بدأت تخبو بشكل عام؟

- لا أستطيع أن أنقم عليها؛ فقد كانت غسّالة بائسة، عاشت في ماخور. هل يمكن النقمة على فتاة مثلها؟ ولكن ماذا عن علاقتها مع محمد باشا البلطجي؟

- لقد شاركت كاثرين الأولى بنفسها في مفاوضات السلام مع الصدر الأعظم العثماني محمد باشا البلطجي، وذلك في موقعة بروت، وقد أثيرت الشائعات حول علاقة نشأت بينهما، وانتهت بهما في سرير واحد. ولد محمد باشا البلطجي عام ألف وستمائة واثنين وستين، في بلدة أوصمانجيك التابعة لولاية جوروم العثمانية، ثم بدأ العمل في القصر مع فرقة البلطجية[1]، وارتقى حتى تولى منصب الصدر الأعظم. كان قائدًا محنكًا حقق النصر في العديد من المعارك، ولكن ذلك الصعود القوي نحو القمة، وهي ظاهرة ميزت حكم العثمانيين، غالبًا ما كان ينتهي بانحدار مماثل. وبالعودة إلى اتفاقية السلام التي وقعها مع الروس، والتي وضعت نهاية مسيرته، فأقل ما يقال عنها إنَّها أظهرته قائدًا فاقد البصيرة. فرغم تمكنه من إخضاع الروس، لكنه لم يستثمر ذلك لصالحه، ولم يجبر الجنود الروس الذين كان يحاصرهم على الاستسلام، فلو أطال أمد الحصار قليلًا، لاستسلم له الجنود الذين باتوا تحت رحمة الجوع. كما أنَّ شروط المعاهدة تبدو غاية في التساهل، فهو لم يأخذ أسلحة الجيش الروسي مثلًا. وقد شكلت هذه المعاهدة علامة سوداء في تاريخنا.

- وماذا كان مصيره؟

- تم عزله عام ألف وسبعمائة وأحد عشر؛ أي بعد معركة بروت مباشرة، ونفي إلى جزيرة مدللي، ليفارق الحياة هناك في عام ألف وسبعمائة واثني عشر، وهو لا يزال في الخمسين من عمره.

- هل الموت في الخمسين مبكر برأيك؟

سؤال غريب! ترى في أيّ عمر توفي والداها؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) اكتسب لقب بلطجي من الفرقة العسكرية العثمانية (البلطجية) والتي كانت مسؤولة عن تمهيد الطريق أمام الجيوش البرية، وكلمة بلطة -بالتركية تعني الفأس. م. المترجم -

- *"الموت في أيّ عمر كان، موت مبكر"* هذا ما قاله جمال ثريا. لكن قديمًا كان السلاطين أيضًا يموتون جراء التهاب بسيط، وهم في الثلاثين أو أقل. لذا كان الشخص الذي بلغ الأربعين يعتبر مسنًا. لكننا الآن نعتبر أنَّ الحياة تبدأ في الأربعين، فمعدل الأعمار يزداد بمرور الوقت، لكن مهما طال عمر الإنسان فسيظل غير كافٍ على ما يبدو. فكما يقول ناظم حكمت *"الحياة جميلة"*.
- لم أشعر يومًا أنَّ الحياة جميلة وقيّمة. ففي بيتنا لم يكن أحد يحب الحياة، وكانوا ينتظرون الموت بلهفة. وحين أدركوا أنَّ الموت قد يتأخر، ذهبوا إليه بأنفسهم. يبدو أنَّي بلبلت أفكارك مرة أخرى. أتعلمين؟ اليوم عيد ميلادي. أكره أعياد ميلادي، فلم يحتفل بها أحد لتتحول إلى أعياد، وعادة ما ينتابني الحزن فيها. لذا لم أكن راغبة في مواصلة الحديث اليوم، ولم أرغب في تذكر ما عشته. لكني سأفعل المرة القادمة إن شاء الله، وسأروي لك ما حدث بكل تفاصيله.
- حسنًا يا عزيزتي، لا عليك. أتمنى لك عيد ميلاد سعيدًا، وعمرًا مديدًا.

أنهض بسرعة، وأخرج من الغرفة لأطلب إلى تونا أن توصي على كعكة عيد ميلاد جميلة بالشوكولا، وأن يكتبوا عليها "عيد ميلاد سعيد يا آلا". تنظر إلي في ذهول لوهلة، لكنها سرعان ما تحمل سماعة الهاتف، فيما أعود إلى الغرفة مجددًا، وأنا أفكر في غرابة قصتها، وكم هي عصية على التصديق. فتطغى الشفقة نحوها على كل ما سواها، حتى تكاد الدموع تطفر من عيني. لمَ الحياة قاسية بهذا الشكل المروع على البعض منا؟

تنظر إلي بحيرة، دون أن تدرك ما حصل، فأحاول أن أطيل أمد الجلسة بالتحدث عن الطقس والعمل، حتى وصول الكعكة، وهي تسألني بين الفينة والأخرى:

- ألم ينته الوقت المخصص لي؟

لو أنَّ أحدًا آخر في مكانها، لأدرك على الفور من خروجي المفاجئ من الغرفة، وتحدثي الهامس إلى تونا، أنّي أحضر لها مفاجأة. لكن آلا لا تدرك شيئًا لم يسبق لها أن عاشته من قبل، أو قام به أحد لأجلها.

تدخل تونا بعد طرقة خفيفة على الباب حاملة الكعكة، وتعقبها آيتان ونيفين، تحمل آيتان صينية الشاي، وتحمل نيفين بيدها مجموعة من الصحون والشوك. تنظر آلا في حيرة نحوي، ثم نحو الكعكة والشاي، وأنا أراقبها بدقة، لاكتشاف ردة فعلها، والبحث عن ابتسامة سعادة، لكني لا أجد شيئًا.

أنهض وأمسك بيدها، وأنا أخاطبها:

- هيا يا آلا!

تبدو أكثر لحظات حياتها دهشة. تضع آيتان كؤوس الشاي أمام كل واحدة منا، فيما تشعل تونا الشمعة الصغيرة على الكعكة، وتبتسم لها قائلة:

- هيا يا آلا، هذه كعكتك، أطفئي الشمعة.

تقرأ بإمعان العبارة المكتوبة على الكعكة، وبعد برهة من الحيرة تنفخ على الشمعة بهدوء، فنصفق لها جميعًا، ثم تقبل كل واحدة منا وجنتها متمنية لها عيد ميلاد سعيدًا. لكنها تبدأ البكاء حتى قبل أن نقطع الكعكة. تعطيها تونا منديلًا، وتضمها إلى صدرها، فتنكمش في حضن تونا دون أن تبدي اعتراضًا، رغم أنَّ مجرد ملامسة يدها كان تستفزها في السابق. نأكل الكعكة معًا، وتلف اللوحة البيضاء المصنوعة من السكر، والتي كتب عليها "عيد ميلاد سعيد يا آلا" بعدة مناديل، وتضعها بحرص بالغ في حقيبتها، ثم تصدر صوتًا أقرب إلى التمتمة من شفتيها اللتين لا تعرفان الابتسامة، وهي تشكرنا بتأثر بالغ. أعجز عن تحليل تلك التعابير الغريبة على وجهها، أهي الفرح، أم الحزن، أم المزيد من الألم؟ لكنها تغرق قلبي أسى. تنهض بتثاقل أكثر من المعتاد، وتكاد تجرجر خطاها، وهي تخرج من الغرفة محاولة التوازن بجسدها النحيل، تحت ثقل سنوات من الألم.

لعل أكبر ذنوبها أنَّها لم تلحق بإخوتها الذين ولدوا قبلها، وغادروا هذا العالم سريعًا. لقد عزز أقرب الناس إليها هذه المشاعر في نفسها، إنَّها رغبة دفينة في

الموت. ومن الواضح أنَّ حالة الأم ساءت بعد دخولها السجن، رغم أنَّها لم تخبرني عما حدث بالتفصيل لكن كل هذه الدلائل الصغيرة تشير إلى سبب اختيارها دراسة الحقوق، والتخصص في قانون العقوبات على وجه التحديد.

أخيرًا، انتهيت من آخر مواعيدي، لكن بعد قليل ستبدأ ندوة الدكتور جنكيز غوليج حول "الروحانية وعلم النفس". سنصعد جميعًا إلى الكافيتريا لنستمع إليه، وسنتناول العشاء معًا. قبل فترة، اطلعت على بعض المعلومات حول هذا الموضوع، فقبل ما يناهز الألف عام، وتحديدًا في عام تسعمائة واثنين وعشرين في مدينة بغداد، تم قطع رأس منصور الحلاج بفتوى من الملالي، بعد اتهامه بالزندقة. ذنبه الوحيد أنَّه تجرأ على الإعلان أمام الملأ عن علاقته الخاصة بالله، ورغم مرور أكثر من ألف عام، لكن تهمة التفكير لا تزال قوية بما يكفي، لتودي بصاحبها إلى الموت. لا يمكنني تخيل العالم قبل ألف عام مهما حاولت، فكل شيء يتغير بسرعة مذهلة، لكن لا يزال الكثير قابعًا في القعر، ويقاوم رياح التغيير.

الفصل الحادي عشر

اليوم سأتناول الغداء مع آلا في أحد مطاعم جادة الأرجنتين، ليس من عادتي لقاء مرضاي خارج المركز، لكن الوضع في هذه الحالة على قدر كبير من الخصوصية. فأنا أحاول التقرب منها قدر المستطاع، أولًا لحاجتها إلى هذا التقارب الإنساني، كما أنَّ الوقت قد حان لمناقشة بعض الأمور التي ينبغي أن تتغير في حياتها. يصل سائقي آيدِن بعد منتصف الظهيرة بقليل ليقلّني إلى المطعم، فمن الصعب عليّ العثور على مكان لركن السيارة في تلك المنطقة. وعندما تقترب السيارة من مدخل المطعم، أشاهد آلا واقفة تحت ظلال إحدى الأشجار بانتظاري، أصافحها ضاحكة وندخل المطعم معًا.

تشي تصرفاتها ونظراتها الوجلة بأنَّها غير معتادة على ارتياد هذه الأماكن. تجلس قبالتي في ارتباك وخجل. لا آثار للمكياج على وجهها كالعادة، ولكنها لم تعد في نظري تلك الفتاة الدميمة المنفرة، التي كانت في السابق. وأظن أنَّ زيادة وزنها الطفيفة، واهتمامها بنظافتها ساهما في تحسين شكلها أيضًا، خاصة أنَّها اليوم أظهرت اهتمامًا خاصًا بملابسها ومظهرها. تكاد تمشي منتصبة القامة، وقد اختفت تلك الطبقة الرقيقة من الغبار التي كانت تغطي رأسها وكتفيها سابقًا، ولم تعد خصل شعرها مبعثرة تغطي وجهها وعينيها، بل تحاول تصفيفها بما لها من خبرة متواضعة في هذا المجال.

وكأنها خرجت توًا من سجن قضت فيه سنوات طويلة، فهي تكاد تكون جاهلة بأساليب الحديث، كما تجهل الضحك، والتصرف مع الآخرين. نجلس متقابلتين، وتبذل جهدًا في تناول الطعام الذي طلبناه، فيما نتبادل جملًا مقتضبة. أترك لها

محاولة بذل جهد لقول شيء ما، وكسر هذا الحاجز، ورغم رغبتها الشديدة، لكنها تخفق، ومع إخفاقها يزداد ضيقها.

- لست الوحيدة العاجزة عن إدارة دفة الحديث بطلاقة يا آلا. فلطالما عانى الكثير من هذه المشكلة منذ أقدم العصور وحتى الآن؛ فحتى الشعب الأمريكي الذي يعتبر الصمت مخلًا بآداب الصداقة، يعاني أربعون بالمئة منه، الخجل وعدم القدرة على التعبير عن أنفسهم بوضوح.

تظهر بوادر الارتياح عليها وهي تسمعني، وترمقني بطرف عينها في خجل. أتريث لبضع ثوانٍ، لعلّها تستجمع شجاعتها، لكن استمرار صمتها يدفعني إلى مواصلة الكلام.

- الكلام تبادل للأفكار والمشاعر بين طرفين على الأقل.
- تتحدثين عن فن الحوار كما أظن. كان سقراط المعلم الأول في هذا الشأن.
- يبدو أنَّ لا شيء قد فاتك أيتها الشابة الصغيرة. أجل، لقد كان سقراط أول من أشار إلى أهمية الحوار ومعناه، كما كان أول من قال إنَّ المرء لا يكون ذكيًا وحده، بل يحتاج إلى تأثير الآخر المحفز باعتباره شرطًا أساسيًا. كان يتجول عادة في أسواق أثينا، ليطرح أسئلة على أصحاب مختلف المهن، وكان رجلًا دميم الوجه إلى أبعد حد.
- إلى هذه الدرجة؟

لقد تقصدت التطرق إلى دمامته، لثقتي بأنَّ الأمر سيثير اهتمامها. لنرَ ما الذي ستقوله في هذا الشأن.

- لقد كان دميمًا، لكنه حاول أن يثبت أنَّ النقاش الذي يدور بين شخصين متقابلين، قد يجمّل صورة كل منهما لدى الآخر. كانت والدته قابلة، وكان يرى نفسه يقوم بالمهمة ذاتها، مقتنعًا بأنَّ الأفكار أيضًا تحتاج إلى مساعدة قابلة، كي ترى النور، وربما تعدّ هذه واحدة من أعظم الأفكار

الفلسفية. لكن كما هو مألوف في التاريخ البشري، عادة ما يكون مصير العظماء مأساويًا، ولم ينجُ هو الآخر من هذا المصير، حيث اتهمه الناس بتخريب عقول الشباب، لأنَّه لا يتوانى عن مناقشة حتى أكثر الأفكار رواجًا وقبولًا من المجتمع الأثيني، ويقوم بالتشكيك بها. كان ذكيًا جدًا، وعادة ما يلجأ إلى السخرية، ويستخدم في أحاديثه مفارقة صادمة، حيث يمكن تأويل ما يقوله على كلا الجانبين. كما كان يسخر من الديمقراطية أيضًا، مؤكدًا أنَّ الديمقراطيين لا يمكنهم أن يكونوا عادلين على الدوام، ومخاطرًا بحياته بسبب هذه الانتقادات. وقد خاطب هيئة المحلفين التي حكمت عليه بالموت قائلًا: *"إنَّ الحياة بدون تساؤل لا تستحق العيش"*، وتجرع السم الذي حكم عليه بشربه، في جرعة واحدة دون تردد.

- هذه الثقة المطلقة بالنفس أمر رائع، أليس كذلك؟
- كما أنَّ جلوس شخصين مثلنا، يتبادلان حوارًا ممتعًا، هو أيضًا أمر رائع، أم إنَّك ترين خلاف ذلك؟

تحني رأسها جانبًا، ويحمر وجهها خجلًا، وكأنها اقترفت ذنبًا. ربما تشعر بالخجل حقًا من التحدث، ومشاركة الآخرين ما تشعر به، أو من الثناء عليها. لكني أواصل الكلام متجاهلة ما طرأ على وجهها من انفعالات.

- في إسبانيا في القرن الثامن عشر، ابتدع الأزواج مصطلح "فن الهمس"، للدلالة على الحوار الذي يدور بين الزوجة ورجل غريب وحدهما، والذي لم يكن سوى عشيق الزوجة. كان على هؤلاء العشاق، إضافة إلى إبداء بطولات تحمل طابعًا مستلهمًا من فروسية القرون الوسطى، إتقان فن الحوار خلال ملاطفتهم عشيقاتهم. ولأنَّ معظم هذه العلاقات اتخذت طابعًا أفلاطونيًا، لم يعترض عليها الأزواج كثيرًا. وليظهر العشيق ولاءه التام للمرأة التي لن يقدّر له امتلاكها مطلقًا، يغدو أقرب إلى العبد الأحمق منه إلى العشيق، فيتفانى في خدمتها، ويركع أمام سريرها مع أولى ساعات

الصباح، ويقدم لها الشوكولا، ويقترح عليها ما سترتديه في ذلك اليوم، ويرافقها في جولاتها، كما يواصل إرسال الهدايا وباقات الورود إلى بيتها.

- هل حدثت هذه الأمور حقيقة؟
- أجل، لقد حدثت بالفعل، رغم أنَّها تبدو الآن غير قابلة للتصديق. لكن يجب علينا معرفة من أين وكيف وصلنا إلى ما نحن عليه الآن. حينها يمكننا فهم بعض الأمور بصورة أفضل. كان أهم ما في هذا النوع من العلاقات، العثور على مواضيع جديدة لمناقشتها كل يوم، حتى وإن كانت تثير الضجر في معظمها، فلم تكن تتعدى تبادل أحاديث عن الخدم، والخيول، والأزياء، وسواها من التفاصيل. ولم تكن إسبانيا الوحيدة في هذه الشأن، فقد عاشت بلدان أخرى هذا النوع من العلاقات البسيطة الساذجة. فمثلًا في عام ألف وسبعمائة وثلاثة وخمسين، علق رجل من جنوة على هذه المسألة قائلًا: "نحن الأزواج عادة ما نكون مشغولين جدًا بالعمل الذي يستغرق كل يومنا، ولدى نسائنا فائض من الوقت، لا يمكنهن قضاؤه دون شريك، فهن بحاجة إلى عشيق محترف، أو ربما كلب، أو حتى قرد".
- يا له من رجل وضيع!
- معك حق، وبما أنَّ الكنيسة حينها كانت قد أعلنت حربًا ضروسًا على هذا النوع من المحادثات بين الرجال والنساء، فقد اندثرت هذه العادة بين طيات التاريخ. لكن رغبة البشر في الحوار وتبادل الأفكار ظلت قائمة، لذا فهم يكافحون ويستمرون بابتكار مختلف الطرق والوسائل، لتحقيق هذا النوع من التواصل فيما بينهم.
- إذًا، فهي تكاد تكون مشكلة عالمية، أليس كذلك؟
- تمامًا، وإن كان الاعتقاد السائد الآن، بأنَّ البشر قد اعتادوا على مرّ التاريخ، تبادل الحوار ومشاركة الآخرين مشاعرهم وهمومهم، أفراحهم

ومخاوفهم، فإنّ الاطلاع على التاريخ بصورة جيدة، يخبرنا أنَّ الوضع لم يكن كذلك على الدوام. إنَّ الإحساس بالآخرين، وتفهم الأسباب التي دفعتهم إلى القيام ببعض الأمور، هي إحدى ميزات الجنس البشري، وأولى الخطوات على طريق فهم الذات. وحقيقة الأمر أنَّ جهودًا كبيرة قد بذلت من أجل الحيلولة دون خلق لغة عالمية مشتركة بين جميع أبناء الجنس البشري، فالنخب تعمدت على الدوام تطوير مصطلحاتها، وانتقاء الألفاظ الراقية، مشددة على ضرورة الانتباه إلى الفوارق الثقافية، باعتبارها وسيلةً لإثبات وترسيخ تفوقها الطبقي. وهذا ما حدث في بلادنا أيضًا، فلم يكن هناك تطابق قط بين لهجة إسطنبول، ولهجات مناطق الأناضول، وتم التقليل دومًا من شأن هذه اللهجات، بل نبذها. لكن لدينا أسباب تاريخية أخرى وراء هذه الظاهرة، فنحن نعيش في بلد يمتد على مساحة شاسعة، تقطن فيه العديد من القوميات والأعراق المختلفة والتي تمتلك لغاتها الخاصة. لكن رغم الفروق اللغوية، والفروق الدينية أيضًا، فقد استطعنا أن نتعايش مئات السنين بشكل أكثر انسجامًا، مقارنة مع الشعوب الأوربية على سبيل المثال.

- يبدو أنَّك ممتنة، لأنَّك خلقت في هذه المنطقة من العالم!

إذًا، فهي ليست ممتنة، وإن سألتها الآن فسترفض الإجابة، لكن الذين تملأ التعاسة قلوبهم، لن يشعروا بالامتنان من أيّ شيء. أعرف الكثير ممن يعتقدون أنَّهم لو عاشوا في بلد أكثر تقدمًا كإحدى الدول الأوربية، أو الولايات المتحدة مثلًا، لسارت الأمور بشكل مختلف بالنسبة إليهم، وهم يظنون أنَّهم قد يبلغون السعادة والسلام النفسي في مكان آخر. لكني بالطبع لا أستطيع أن أصارحهم بالقول: "إن ذهبتم بهذه الحمولة النفسية إلى أيّ مكان في العالم، فلن يتغير الكثير بالنسبة إليكم".

من الأفضل الاستمرار دون طرح المزيد من الأسئلة، فلا أريد لها أن تشعر بأنّها محاصرة. ومن الواضح أنَّ أكثر ما يمتعها هي قصص التاريخ التي تتحدث عن

النفس البشرية، وكيف تطورت إلى ما هي عليه الآن، لأنَّها شغوفة بالمعرفة، لكنها كجهاز الراديو الصامت، لأنَّ أحدًا لم يضغط زر التشغيل بعد.

- أنا ممتنة على الدوام، لأنَّي خلقت على هذه الأرض، وأحب الناس هنا، لأنَّي أعرفهم أكثر من البقية. فأنا أشبههم وهم يشبهونني، وأعتقد بصدق إن تعرف البشر يومًا ما إلى بعضهم بصورة أفضل، ونجحوا في عقد صداقات بينهم، ومشاركة ما يهمهم، فستتمكن حينئذٍ جميعًا من أن نحب بعضنا.
- إذًا، فالمحبة تشترط التعرف إلى الآخر!
- والتعرف يقتضي حورًا متبادلًا، فمن المحال علينا أن نحب شخصًا لم نتعرف إليه، ولا أن نكرهه أيضًا. لكن البشر لازالوا حتى الآن يكرهون تلك الفئات التي لا يعرفونها، ويحاولون مساءلتها. أليس هذا تصرفًا خاطئًا في رأيك؟
- أظنه كذلك. لكني لا أعرف أحدًا، ولا أحد يعرفني. لذلك فمشاعر الحب تبدو بالنسبة إليّ مجرد سراب بعيد.

لا أعرف أحدًا يمتلك موهبة التعبير عن نفسه بهذه البساطة والعمق في آن واحد، مثلها. وإن سمعها شخص ما وهي تتحدث، فسيظنها ضليعة في إدارة الحوارات، لكنها سيدة التناقضات في كل شيء.

- يبدو أنَّي تحدثت كثيرًا كعادتي. ما رأيك في طبق من الحلوى؟ أنا مغرمة بالحلويات.
- حسنًا.
- هل لديك طبق مفضل؟ فلديهم هنا قائمة في غاية التنوع واللذة.
- لا، سأختار ما تفضلينه.
- ما رأيك في طبق من المثلجات المنوعة؟
- حسنًا.

أخبر النادل بما اخترناه، وما هي إلا لحظات حتى تصل المثلجات بألوانها الجميلة، في قدحين زجاجيين. تأكل على مهلها بطرف ملعقتها، غارقة في صمت حزين. لقد ألغيت اليوم كل مواعيد ما بعد الظهر، لرغبتي في رؤية المكان الذي تعيش فيه، والتعرف إليها بصورة أفضل.

- ما هي مشاريعك اليوم، بعد أن ننهي لقاءنا؟
- لا شيء.
- إذًا، هيا بنا لنذهب إلى بيتك، أرغب في رؤية البيت الذي تعيشين فيه.
- بيتي أنا؟
- أجل، ستقومين أنت باستضافتي اليوم.
- ولكن.- لوهلة يبدو أنَّ الرعب يشلها.
- ماذا؟
- حسنًا، فلنذهب.

أستدعي النادل لدفع الحساب على عجل، ونخرج معًا من المطعم. ترتعش المسكينة، ولا أنكر أنَّي أشعر ببعض الانفعال، ففكرة الذهاب إلى ذلك المنزل تقلقني أنا أيضًا. ما إن نخرج حتى أرى السائق ينتظرنا أمام المدخل، يترجل ليفتح أبواب السيارة لنا، ثم يسألني:

- أين سنذهب الآن، سيدة غولسِران؟- فأخبره أنَّ آلا سترشده.

نتجه إلى واحدة من مناطق أنقرة الراقية، وبعد اجتياز العديد من الفيلات الفخمة، تتوقف السيارة أمام منزل منعزل عن البقية، ومختلف عنها في الشكل، معظم طلائه متقشرّ، ويتوسط حديقة واسعة، لكنه مع حديقته استحال إلى خربة.

تترجل من السيارة مرتبكة ووجلة، وتحاول أن تخرج المفتاح من حقيبتها بسرعة، لكن ارتعاش يديها يكلفها وقتًا إضافيًا. وما إن ندخل حتى يعصف الذهول بي، فالمكان ككهف مغطى بطبقات سميكة من الغبار، والعفن الذي تطغى رائحته على كل شيء. نتجه صوب ردهة معتمة، فتشعل الأضواء. بالقرب من الباب،

يوجد مشجب معاطف قديمة، علق عليه معطفان باليان، أحدهما رجالي والآخر نسائي. لابد أنهما يعودان إلى والديها، ولكن رؤيتهما معلقين وكأنهما لا يزالان يقطنان في هذا المكان، يجعل صدري ينقبض.

ثم ندخل صالونًا واسعًا، فيه طقم من الأرائك الملكية قديمة الطراز، مع طاولات خشبية صغيرة تزين قوائمها نقوش محفورة، وقد اصطفت حول طاولة الطعام المربعة الضخمة، كراسي تزينها نقوش مماثلة. تلفت الملاءة التي تغطي الطاولة انتباهي، لا بد أنَّها تغطي هذه الطاولة منذ سنوات طويلة، حتى أصبحت ملتصقة بها. أنظر إليها بإمعان، من المرجح أنَّها الملاءة التي طرزتها ثريا على يدها، فأتساءل: كيف يمكن إتقان هذه النقوش الدقيقة على اليد؟ على الأرض سجادات سميكة ونفيسة، والستائر المخملية التي تغطي النوافذ، تزيد من عتمة المكان بلونها البني القاتم. لقد حالت الألوان، وتهالكت قطع الأثاث المغبرة ككل شيء في هذه الغرفة، بفعل الزمن. هذا الشعور يذكرني بمدينة القاهرة، فإن استثنينا ضفتي النيل، تبدو المدينة وكأنها مغطاة بغلالة بنية، تجعل كل الألوان تبدو باهتة. لكن الغلالة التي تغطي هذه الغرفة قاتمة للغاية، وأينما تلفت المرء، يضق صدره.

فوق الخزانة الخشبية الضخمة المستندة إلى الجدار، صورة مؤطرة بالفضة، لسيدة رائعة الجمال، وهي تنظر نحونا. أقترب أكثر للإمعان في الصورة. لابد أنها ثريا، والدة آلا، فيبهرني جمالها. لا أعتقد أنَّ تفاصيل وجهها تشبه توركان شوراي كثيرًا، لكنها تمتاز مثلها بذلك الشعر الأسود الطويل، والعينين الواسعتين، والشفاه المكتنزة المثيرة، ورغم ذلك لا يمكن التغاضي عن الحزن العميق في عينيها. أظنها كانت في بداية العشرينيات من عمرها، حين التقطت هذه الصورة، وربما لم تكن قد تزوجت بوالد آلا بعد. فالمرجح أنَّها لم تمتلك الفرصة لالتقاط صورة مماثلة بعد الزواج. لكن اللافت في الصورة، أنَّ وجهها مغطى بطبقة كثيفة من المكياج، رغم أنَّ آلا أخبرتني أنَّ والدتها لم تكن تستخدم مساحيق التجميل. أيعقل أنِّي مخطئة؟

- آلا، أهذه أمك؟!

- أجل، أمي.
- متى التقطت هذه الصورة؟
- قبل زواجها. وبعد وفاتها قام أبي بتعليق صورتها هنا. فهي لا تملك صورة أخرى عداها.
- وأين غرفتك؟
- في الطابق العلوي.

نخرج من الصالون، ونتجه إلى السلالم الدائرية في نهاية الممر، وحين نصل إلى الطابق الثاني، تشعل آلا الضوء، لكنه أضعف من أن يظهر الأشياء بوضوح، حتى أضواء هذا المنزل معتمة. على جانبي الردهة الواسعة، توجد ثلاث غرف، يتوسطها حمام، بابه مفتوح. تبدو جدرانه البورسلانية التي كانت فيما مضى بيضاء اللون، وقد استحالت إلى لون رمادي باهت. الأرضية من الموزاييك الذي يزين في خطوط متوازية حوض الاستحمام أيضًا، وقد غطته ستارة متسخة قديمة، أزيح طرفاها. إلى اليسار مغسلة ضخمة، وقد أصبحت السجادة الصغيرة المنقوشة تحتها، مجرد خرقة قذرة. وإلى جوار حوض المرحاض، سلة مهملات معدنية ملتوية، غطتها طبقة من الصدأ، وبجانبها غسالة قديمة.

ثم نتجه نحو الغرف، لنبدأ بغرفتها. إلى جوار الحائط، سريرها الضيق، الذي تغطيه ملاءة بالية وقذرة. وفي الجهة المقابلة، نافذة واسعة بستائر حالت ألوان رسومها، وقد مالت الستائر حتى تكاد تسقط، لتخلخل الخطاطيف التي تثبت أنابيبها المعدنية على الحائط. على جانبي النافذة، خزانة من خشب الجوز، ومكتبة ضخمة وضعت قبالتها طاولة خشبية. المكتبة والطاولة كلتاهما مثقلتان بالكتب المرتبة بعناية واضحة، وبجانب الكتب وضع مصباح طاولة محني العنق. على الأرض سجادة رقيقة، باتت مجرد خيوط مهترئة. باب الخزانة موارب، لأنَّ القفل مكسور، لكن الغريب أنَّها فارغة تمامًا.

- أين ثيابك يا آلا؟

- رميتها. رميتها كلها.
- لماذا؟
- أردت التخلص منها.
- ولمن هذه الملابس التي ترتدينها؟

تكتفي بالصمت محنية الرأس، كطفل اقترف ذنبًا. فأخرج من الغرفة على الفور، وتلحق بي. من المرجح أنَّ الغرفة الكبيرة التي إلى جوارها، غرفة والديها. الغرفة مفروشة بطقم نوم قديم الطراز، من خشب الجوز القاتم، والخزانة الكبيرة المستندة إلى الحائط مشرعة الأبواب، وقد علقت فيها ثياب معظمها بألوان غامقة، ومن الصوف الرقيق. إنَّها ذات الثياب الغريبة التي ترتديها هذه المسكينة. كنت قد خمنت مسبقًا أنَّها ترتدي ثياب أمها، لكن التحقق من الأمر يجعل قلبي ينقبض.

نتجه إلى الغرفة الثالثة التي هي أصغر الغرف، وفيها سرير مفرد وخزانة علقت فيها ثياب رجالية قديمة. أغلب الظن أنَّها غرفة والدها؛ مما يعني أنَّ الزوجين كانا ينامان في غرفتين منفصلتين.

ثم نهبط إلى الطابق السفلي مجددًا، وأتجه صوب المطبخ. وهو واسع فيه ثلاجة قديمة، أفتحها بصعوبة لالتصاق أطرافها البلاستيكية ببعضها. تكاد الثلاجة تكون فارغة، لكن زجاجات الكحول المصفوفة في رفوف بابها تلفت نظري. أفتح أبواب الخزائن الخشبية، كلها مليئة بأطقم الكؤوس والصحون والقدور المرتبة فوق بعضها البعض. وفي واحدة من هذه الخزائن تكدست ألواح الشوكولا والبسكويت وعلب القهوة، والكثير من كعك الذرة.

المطبخ كبقية المنزل مغبر وقذر، لكنه مرتب بصورة لافتة، فلا يوجد شيء في غير موضعه. إنَّه أشبه بمنزل مهجور لا يقطن فيه أحد.

- هذا المنزل قديم وواسع جدًا للعيش فيه وحدك. ليتك تقومين بتأجيره، وتجدين لنفسك شقة صغيرة تناسبك.
- هم هم.

تبدو وكأنها خجلة من نظراتها المثبتة على الأرض طوال الوقت. لا تبدو كذلك، بل تشعر بالخجل حقيقة.

يجب علينا الجلوس والتحدث، لكنني لا أجد في هذا المنزل الكبير، مكانًا يمكن أن يجلس فيه المرء، ولا رغبة لي في العودة إلى ذلك الصالون المعتم المغبر. في المطبخ طاولة طعام قديمة، وحولها أربعة كراسي، أسحب واحدًا منها لأجلس عليه. فهذا المطبخ هو أنسب مكان للجلوس في هذا المنزل الموحش. وأظنها لا تجلس إلا على هذه الطاولة، حين تكون في المنزل.

- هيا أعدي لنا فنجانًا من القهوة، ولا تقولي إنّك لا تملكين القهوة، فقد رأيتها في الخزانة.
- حسنًا. سأعدها على الفور، وأرجو أن تعجبك.
- ستشربين معي، أليس كذلك؟
- أجل.

تتحرك مرتبكة، وتخرج الركوة من أحد الرفوف الخشبية، وتملؤها بالماء قبل وضعها على الموقد، ثم تقوم بجلي الفناجين التي أخرجتها من رف آخر بعناية فائقة، وإلا فمن المحال شرب القهوة فيها، وقد تراكم عليها غبار السنين. فناجين صغيرة وقديمة الطراز، تزين أطرافها الرقيقة أزهار ناعمة ملونة، لم أر مثل هذه الفناجين الجميلة منذ سنوات.

- آه! لا شيء أروع من رائحة القهوة المنعشة. يبدو أنَّك أيضًا تحبين شربها؟
- لم أكن أشربها سابقًا، لكني اكتسبت هذه العادة بعد مجيئي إلى المركز. فالجميع هناك يشربون القهوة بكثرة، وأنت أيضًا تحبينها كثيرًا. لذا اعتدتها وبدأت تروقني. لكنك لو أتيت قبلًا، فما عثرت عليها في المنزل.

تضع الفناجين على الطاولة، وتسحب كرسيًا، لتجلس قبالتي. من الواضح أنَّها تحتاج إلى المساعدة، لكن هناك الكثير مما لا أعلمه بشأنها. أكثر ما يشغل

ذهني الآن هو ثيابها، لمَ ترتدي ثياب أمها يا ترى؟ لديها المال، ولا أحد يتدخل في حياتها، لكن إصرارها على ارتداء تلك الثياب يبدو لغزًا محيرًا.

البيت غارق تحت طبقة من الغبار، والستائر مغلقة بشكل دائم، لقد أبقت كل شيء على حاله طوال هذه السنوات. إنَّه أقرب إلى قصر الأشباح، ومن المخيف أن يعيش فيه المرء وحده. كما أنَّ الحديقة في حالة يرثى لها، فالأعشاب البرية اجتاحت المكان، والجدران طلاؤها مهترئ. إن كانت الحديقة التي تمر فيها كل يوم على هذه الحالة، فالله وحده يعلم ما حال السقف. تقول لي إنَّ شهيتها للطعام تحسنت، وبدأت تأكل، لكني لا أكاد أعثر على ما يؤكل في المطبخ. رغم أنَّ وزنها قد زاد بشكل ملحوظ، منذ أن رأيتها أول مرة، لكن من الواضح أنَّها لا تعد طعامًا في البيت. فلا شيء في البراد غير الحليب وبضعة ألواح من الشوكولا.

لقد كبرت في هذا البيت دون حضن دافئ أو قبلة حنان، ولم تتلق المحبة لكي تمنحها. حتى أنا شعرت بالنفور منها في البداية. يا للمسكينة!

أرتشف القهوة، لقد أحسنت إعدادها. حان الآن وقت الكلام.

- لم تقم السلطانة أسما بزيارة هذا البيت، أليس كذلك؟
- لا، لم تفعل.
- لو إنَّها جاءت إلى هنا، فما كان البيت على هذا الحال. كانت ستقيم الدنيا وتقعدها فوق رؤوسكم، وتحتل أجمل غرفة في المنزل، وتجعلكم جميعًا خدمًا لديها.

تنفخ قليلًا على فنجانها قبل أن ترتشف منه، وهي تبتسم. حين تعيد الفنجان إلى طبقه، ألحظ ارتعاش يديها. وأخيرًا تبدأ الحديث بتمتمة بالكاد تسمع.

- لم تزر السلطانة أسما هذا البيت. لو كانت على قيد الحياة حتى الآن، فمن يدري أين وكيف كنت سأعيش؟ ولربما كان والداي أيضًا على قيد الحياة.

ما الذي تعنيه يا ترى؟ فكل ما تقوله لا يزال ألغازًا مبهمة. لم تخبرني بعد لمَ ماتت السلطانة أسما، ولمَ دخلت والدتها السجن. هل قامت ثريا بقتل السلطانة؟

لقد غدت الحكاية أشبه بقصة بوليسية. لو أطلعتني على المزيد من التفاصيل، لتمكنت من التصرف بشكل أفضل، واستطعت التخفيف من وطأة مخاوفها، ويأسها، وشعورها بالعجز، لكني لا أزال محاطة بالجهل. أظنها ستخبرني ببعض الأمور الآن. لذا عليّ التصرف بحذر وحرص بالغين، فهي شديدة التأثر حيال ما أقوم به. علي أن أخمن حتى ما لا تقوله، كي أتمكن من مساعدتها قدر المستطاع؛ لأنَّ ما ستطلعني عليه الآن، قد يكون ما غيّر أقدارها إلى الأبد.

أحاول أن أشعرها بالاطمئنان بنظراتي، وأني سأكون إلى جوارها مهما كان ما ستخبرني به. لكنها ترنو إلى مكان بعيد، وقد عقدت ذراعيها في حضنها، والشرود يغلف نظراتها الحزينة.

يلفت إبهامها نظري، ذلك الإبهام الذي يعاني من تورم أبدي، وعلى خلاف بقية أناملها، يبدو رغم ألمه، مرفوعًا نحو الأعلى. وفيما ينتصب الإصبع المسكين مرتعدًا، لا يبدو أنَّها تلحظ الأمر. وكأن ارتفاعه بهذا الشكل رد فعل لا شعوري لما يعتمل في أعماقها. ولعله من أكثر الأمور التي تحيرني، وقد حاولت السؤال عنه عدة مرات، لكنها كانت تتهرب دومًا من الإجابة، ورغم أنَّي بت معتادة تفاديها الإجابة عن معظم الأسئلة التي أطرحها عليها، لكن بقاءه متورمًا باستمرار، دون بقية الأصابع، يخفي وراءه سرًا مؤلمًا آن أن تطلعني عليه.

تواصل الحديث، وشفتاها ترتعشان.

- في ذلك اليوم، كانت السلطانة أسما تستعد لحمامها الأسبوعي المعتاد، وكان الجميع مستنفرين منذ الصباح الباكر. كنا جميعًا في البيت، لأنَّ العطلة الدراسية كانت قد بدأت. كان أبناء عمومتي يتضاربون، وقد مررت مصادفة من هناك، فتلقيت لكمة فظيعة من ابن عمي الأكبر، وبدأت البكاء. حين سمعتني السلطانة أسما أبكي، نظرت إلى أمي، والشرر يتطاير من عينيها، ودون أن تسأل عن السبب، صفعتني على وجهي بظاهر يدها، فانغرزت إحدى أسناني في شفتي، وأخذت الدماء

تتدفق من فمي دون توقف. جرتني أمي من ذراعي إلى الحمام، وفيما هي تغسل فمي، كانت تضربني وتنهرني قائلة: "أكاد لا أطيق نفسي، فلا تزيدي علي أنت أيضًا". كنت بالنسبة إليها مجرد زيادة في حمولة متاعبها ليس إلا. في اليوم المحدد لاستحمام جدتي، كان يتم إشعال مدفأة الحمام منذ الصباح، وتضع الكنائن مختلف ألواح الصابون حول حوض الاستحمام، وتحضر أمي الحناء بعناية. وفيما المياه تسخن، كانت السلطانة أسما تجلس على المقعد الكبير في الصالون، وتحيط ملابسها بعدة مناشف، قبل أن تبدأ أمي بوضع الحناء على رأسها بعناية شديدة. وكانت تشرب الشاي حتى تجف الحناء على رأسها، فيما الجميع حولها بانتظار إشارة منها. بعد أن يتلون شعرها بصبغة الحناء، كانت تتجه إلى الحمام، وتخلع ثيابها لتجلس في حوض الاستحمام، منتظرة أمي كي تحممها. فتشمر أمي أكمامها، وطرف ثوبها، وتبدأ مهمتها. أما أنا فكان عليّ الانتظار في الزاوية، تحسبًا لأمر قد تحتاج إليه أمي. وكانت مهمتي الأساسية غالبًا هي حمل المناشف، فيما الحمام أشبه بفرن متقد. كانت الأمور تسير كالمعتاد في ذلك اليوم. وحين انتهت أمي، انتصبت وهي تمسح جبينها المتعرق. كانت المناشف قد تمّ تدفئتها، وتنتظر في حضني فوق بعضها البعض، فيما أقف بالقرب من الباب. كنت قد تبللت من العرق مثل أمي، وذراعاي النحيلتان بدأتا تؤلماني بشدة تحت ثقل المناشف. أخذت أمي تمشط شعر السلطانة أسما بالمشط العاجي، وكان شعرها طويلًا. وكلما شعرت بالألم كانت تضرب أمي على يديها، وتتمتم بينها وبين نفسها، وهي تحدق إلى أمي بحنق. فتنحني أمي قدر المستطاع، كي تمشط شعرها دون أن تؤلمها، ووجهها محتقن من العرق والحرارة. آخر خطوة كانت الوضوء، وكانت طاسة الحمام تُملأ من المياه الجارية من الصنبور. على مر سنوات وسنوات، كنت أتابع هذه

الطقوس، وأنا أحمل المناشف في حضني. حين ملأت أمي الطاسة بالمياه، بدأت بمساعدة السلطانة أسما من أجل وضوئها، فيما كنت أنقل وزني من ساق إلى أخرى، وأنا أرجو الانتهاء من هذه المهمة بأسرع ما يمكن. انتهى فصل الوضوء أيضًا، ونهضت السلطانة أسما من أجل أن تسكب آخر دفقة من المياه على كامل جسدها. فأمسكت بها أمي من ذراعها وساعدتها على النهوض، كما كانت تفعل في كل مرة. كانت بدينة، وطبقات الدهون المترهلة تتكدس الواحدة فوق الأخرى على بطنها، وشعرها الأحمر بصبغة الحناء، ينساب نحو الأسفل. وبصعوبة بالغة، كانت تتمكن من الوقوف على ساقيها الرفيعتين بعروقهما النافرة. انحنت أمي على الحوض، وفتحت صنبوري المياه الباردة والساخنة معًا، وملأت الطاسة بالماء. هذه الطاسة الأخيرة لا يجوز عادة تحسسها باليد. ثم استقامت وهي تسند ظهرها بيدها، وسمّت بالله قبل أن تسكب المياه على رأس السلطانة أسما.

تتنهد بعمق، ثم تلتفت نحوي بعينين راجيتين المساعدة، لكني أعجز عن فهم ما تريده أو تتوقعه مني. ينتصب إبهامها المتورم نحو الأعلى بصورة أكثر وضوحًا، ويبدو أشبه بإصبع طفل يخجل من رفعها في الفصل الدراسي أمام البقية، فيرفعها خلسة تحت طاولته.

حين تخفق في العثور على العون الذي ترجوه، تعود نظراتها إلى ذلك المدى اللامرئي، لتواصل السرد.

- كان الماء ساخنًا جدًا. لم تعلم أمي بذلك لأنَّها لم تتحسس المياه بيدها. فغضبت جدتي بشدة، وصرخت بأعلى صوتها: "أيتها اللعينة، كسّر الله يديك، أيتها الملعونة". وكما فعلت معي قبل ذلك، رفعت يدها لتصفع أمي بظاهر كفها، لكنها ما إن رفعت يدها بتلك الحدة، حتى فقدت توازنها، فيما حاولت أمي أن تمسك بيدها، لتمنعها من صفعها. لم يسبق

لي أن شاهدت السلطانة أسما تضرب أمي، لكن في ذلك اليوم ولسبب لا أعلمه، كانت حانقة بشدة على أمي، فكانت تصفعها على يدها فيما هي تمشط شعرها. الأمر الذي كان يثير حنق أمي. كنت أشعر بذلك. كانت كل منهما ناقمة على الأخرى بشدة، رغم أنَّ أمي كانت معتادة على التعامل معها باحترام شديد. لكن يبدو أنَّ الكيل قد طفح، فكانت تنظر إليها طوال الوقت شزرًا، وكأنها تقول "لقد اكتفيت". كانت المرة الأولى التي أشاهد ذلك الغضب في عينيها، فراقني ذلك كثيرًا، حتى إنَّني استمتعت وقلت في نفسي: أخيرًا، أخيرًا ستنهض العبدة. ستتمكن الخرساء من الكلام. ستظهر تلك المرأة المتحجرة المشاعر، مقاومة بعد سنوات من الذل وتحمل الإهانات، وستدافع عن نفسها. لقد انتظرت سنوات قدوم هذه اللحظة، وكنت أقول في نفسي: حتى لو لم تحبني ولم تمنحني الحنان كبقية الأمهات. فسأحبها، وسأتفاخر بها أمام الجميع. لو أنَّ كاميرا سرية صورتني وأنا أتابع ما يجري في تلك اللحظات، لكان أكثر ما يلفت الانتباه هو بريق النشوة، نشوة الانتصار وهو يشّع من عيني، لكنه كان بريقًا خاطفًا. فبدلًا من أن تمسك أمي اليد التي ارتفعت لصفعها، تراجعت نحو الخلف في رد فعل عكسي. تلاقت أذرعهما لوهلة عابرة في الهواء. وسمعت صوتًا بدا أقرب إلى التصفيق. ربما يكون صوت قلبي الذي صفق طربًا لتلك النشوة، ثم تلاه صوت خبطة هائلة، طغت على ما عداها من الأصوات. وانبطحت الاثنتان معًا على الأرض المرمرية، فاهتزت الجدران، وكأن زلزالًا ضرب البيت كله. ومع هذا الصوت، اندفع جميع من في البيت نحو الحمام. كما أنَّ الجميع كان قد سمع صراخ السلطانة أسما، وهي تنعت أمي باللعينة.

كانت تتحدث بتريث وصوت مبحوح إلى حد ما، لكن حين وصلت إلى هذه النقطة، تغيرت بشكل فظيع، فبدأت ترتعش وكأنّ تيارًا كهربائيًا يسري في جسدها،

وغدت الكلمات نشيجًا مختلجًا. إذًا، فقد شاهدت كل ما يجري من زاويتها، وهي تحمل المناشف! رغم صوتها المضطرب، لكنها تصف مشاعرها ببراعة فائقة، وأشعر وأنا أستمع إليها كأني أرى تلك المشاهد الرهيبة تتجسد أمامي. ترى لو لم تسقطا ذلك اليوم، في أيّ منحى كانت ستتجه الأحداث؟ هل كان غضب ثريًا سيصل إلى حدود المواجهة؟ فهذا النوع من الغضب هو الأخطر على الإطلاق، لأنَّه يختمر في الأعماق سنوات، قبل أن ينفجر كبرميل من البارود.

- كانت الاثنتان ملتصقتين، وكأنهما مشتبكتان في شجار على الأرض المرمرية التي أصبحت مغطاة بالدماء، دون أن ندري على وجه التحديد من منهما تنزف. فالدماء كانت تغطي وجهيهما ويديهما معًا.

يضطرب صوتها أكثر مع توالي أحداث قصتها، وقد استحالت ارتعاشات ذراعيها السابقة إلى حركات عشوائية في كل الاتجاهات، تحاول النهوض من الكرسي، لكنها تترنح نحو الأمام والخلف، وكأنّ أحدهم أوثقها بإحكام. إنَّها تنتفض لاشعوريًا في كل الاتجاهات، فيما يجول إبهامها المرتفع في الهواء، وكأنه يبحث عن اتجاهه وسط العتمة، دون أن يرى هدفه. أحاول البقاء دون حراك، وكأني لست موجودة، لا أريد دورًا في هذا الكابوس الذي يتجسد أمام ناظريها، بل أتركها تنغمس في تفاصيله حتى النهاية دون أن أوقظها.

- احتشد الكثير من الناس هناك. كانوا يدفعونني نحو الخلف فيما أحاول الثبات وسط أقدامهم، دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب منهما، وكأنهم سيحترقون إن لمسوا جسديهما، أو ستلوثهم تلك الدماء الملعونة. كانوا يكتفون بالانحناء فوقهما متدافعين، راغبين في رؤية أدق التفاصيل. حينها شعرت بسائل دافئ ينساب بين ساقي نحو الأسفل، لقد تبولت على نفسي من شدة الخوف. سقطت المناشف من يدي، وأنا أرمي بنفسي نحو الأمام بين الأقدام. في تلك اللحظة، التقت نظراتنا أنا وأمي، كانت عيناها تقدح شررًا، فارتفع إبهامي نحوها. هذا الإبهام الملعون.

إذًا، هذا ما جناه الإبهام! لقد أشار نحو أمها. فالشاهدة الوحيدة على ما جرى، تشير بإصبع الاتهام نحو أمها. تتضح الصورة رويدًا رويدًا في ذهني، وربما هذا ما يسبب خوفها من الحمام. تتوقف عن الكلام، وهي تمسك إبهامها بيدها اليسرى، منحنية على نفسها، في صوت أقرب إلى العويل منه إلى البكاء.

أحار فيما يجب عليّ فعله، وكأني كنت أتابع أكثر المشاهد توترًا لفيلم ما في قاعة السينما، لكن الصورة اختفت نتيجة حادث فظيع، فيما لا أزال تحت وطأة المشاهد، رغم أنَّ الأنوار قد أضيئت. أتنفّس أنفاسًا عميقة، وأتمالك نفسي قليلًا، ثم أنهض من مكاني متجهة صوبها، أجلس على الكرسي المجاور لها، وأقترب منها لأحتضنها بهدوء. تواصل العويل والصراخ، لكن صوتها يبدو أكثر عمقًا، وأنا أحتضنها بقوة. لا أعرف كم بقينا على تلك الحال، ولا أعلم ما كنت أشعر به على وجه التحديد. لكني حين استعدت إدراكي ما حولي، شعرت وكأننا خرجنا توًّا من قعر نهر جليدي، إلى دفء الشمس، وبدأ جسدانا بالارتخاء رويدًا رويدًا، مع ذوبان الجليد الذي يغطينا، وافترقنا عن بعضنا ببطء.

نجلس الآن متجاورتين على كرسيينا المتقابلين، وجهانا وصدرانا مبللان، فهذا ما يغدو عليه الحال، حين تتدفق الدموع سيولًا. يدها اليسرى لا تزال تمسك إبهامها الأيمن بإحكام، وكأنها ترغب في خلع ذلك الإبهام ورميه إن استطاعت. فقد أشارت آلا بهذا الإصبع نحو أمها، في ذلك اليوم الرهيب.

أحاول أن أضع نفسي مكانها، وأذهب إلى ذلك المكان الحار، الحاشد بالناس، والذي تتدفق الدماء على أرضه. البخار يغطي المكان كغلالة ضبابية، فأعجز عن رؤية ما يجري هناك، لكنها تشف مع الوقت، فأتمكن من الإحساس ببعض الأشياء.

أخيرًا ترفع رأسها، وكأنها خرجت توًّا من بين أنقاض الماضي، منهارة هدّها الحزن والتعب. تنظر نحوي ذاهلة بعينيها المبللتين، وهي ترتب خصل شعرها المبعثر في حركة آلية، ثم تجيل بنظرها في المكان، وكأنها استيقظت من حلم طويل.

قسمات وجهها المتعب المتألم، تشي بأنّها تحاول إخماد تشنجاتها، التي لا تزال تهزها بين الفينة والأخرى.

حين تهدأ قليلًا، أبدأ الحديث بصوت خافت وكأني أحدث نفسي، دون أن أنظر نحوها.

- لو كنت مكانك في ذلك الحمام، وكنت في مثل عمرك، حاملة تلك المناشف، وأنا أنتظر في تعب، ثم وقعت كل تلك الأحداث أمام ناظري، كنت سأشعر بالرعب، وأعجز عن التصرف، ربما كنت سأرغب في الاحتماء بأمي؛ أمي التي شعرت بقوتها الحقيقية قبل قليل. رغم أنَّي بللت نفسي من هول ما حدث، لكني كنت سأجد العون لديها وحدها. ربما لهذا السبب كان إبهامي سيتجه نحو أمي. لو كنت تلك الطفلة الصغيرة التي عاشت كل تلك الآلام، وشاهدت ذلك المنظر الرهيب، لاتجه إبهامي نحوها.

أبوح لها بذلك قبل أن أسمع نهاية هذه القصة، قبل أن تدافع عن نفسها أو تتهمها. حين أصمت، تعاود الانحناء برأسها، وتنظر بإمعان شديد إلى إبهامها، وتفك عنه قبضتها ثم تغلقها عدة مرات، قبل أن ترفع رأسها، وتحدق إلى عيني بإمعان. هناك ما ينخر رأسها منذ ذلك الحادث، يرفّ جفناها، دون أن ترفع بصرها عني، وتحرك رأسها يمينًا ويسارًا بين الفينة والأخرى، وكأنها تبحث عن إجابة ما، دون أن تفلح. أنتظرها لتتكلم وتفصح عما يجول في ذهنها، لكن الصمت يستمر، فلا نية ولا جرأة لديها للمواصلة حاليًا، لذا أعاود الكلام بالهدوء ذاته.

- لو كنت تلك الفتاة الصغيرة، وكنت واقفة في الحمام يومها، لفكرت أنَّ أحدًا لن يفهمني. وبدافع من خوفي المريع، وربما بسبب تجاهل الكل إيّاي، كنت سأشير نحو أمي. لربما التفتت هي دون الجميع نحوي، فكيف للآخرين إدراك الذعر الذي ألمّ بي، أو العجز الذي أصابني، ما لم تدركه أمي، وتخرجني من هذا الموقف الرهيب؟ من يدري، ربما كنت سأشعر بالسخط عليها وهي راقدة على الأرض وسط كل تلك الدماء؟

كانت ستنتابني مشاعر مختلفة، وكان إصبعي سيشير نحوها لتنقذني. وأنت ماذا فعلت حينها؟

- فعلت كما قلتِ توًّا.

أنظر نحوها بابتسامة توحي بالثقة، فتشعر ببعض بالراحة، يسترخي جسدها المتشنج، وينهدل كتفاها المرفوعان، وهي تزفر بعمق وكأنها ترغب في تنفيس كل الألم الذي يثقل صدرها، قبل أن تعاود الحديث مرة أخرى.

- كانت جدتي هي التي أصيبت. فقد ارتطم رأسها بحافة حوض الاستحمام حين سقطت، ولم يتوقف النزف. كانت دماؤها تمتزج بمياه الحوض التي بدأت تفيض عن حوافه، فيما إصبعي يشير بإصرار نحو أمي التي تصرخ بحدة "لم أفعل ذلك". كانت تكرر جملتها صارخة حتى وهي تحاول النهوض من الأرض. كانت ثيابها مبللة وملطخة بالدماء، والطرف الأيمن من وجهها ورأسها مغطى بكامله بدماء قانية. أما ما حدث بعد ذلك فبالكاد أتذكره. أصوات، وصرخات، وعويل النساء، وصافرة الإسعاف كلها مختلطة في ذهني. رقدت السلطانة أسما ثلاثة أيام في المشفى، ثم ماتت بسبب نزف دماغي. الكل اتهم أمي، وأمي اتهمتني. وهكذا انتهت هذه الحكاية.

حُلَّ اللغز، وصدقت معظم توقعاتي. لو لم تصرخ ثريا بتلك الطريقة قائلة بأنها لم ترتكب الجريمة، فربما تم تأويل الأحداث بطريقة مغايرة، ولكن إصرارها على الإنكار، وإصبع آلا المتجه صوبها، هو من دفعهم إلى الشك بأنها فعلت ذلك متعمدة. هذا ما أعتقده حاليًا، دون أن توضح لي آلا ما حدث لاحقًا. أحاول قدر المستطاع أن أتقدم عليها خطوة، وأخمن بعض التفاصيل قبل أن تطلعني عليها، لكي أتمكن من تقييم الأمور وإبداء رأيي قبل أن تعطيني كل المعلومات اللازمة. فأنا أعلم أنَّها لا ترغب حاليًا في شفقتي، وإن قلت ما قد يخالف حالتها النفسية، فستعتبر كلماتي مجرد مواساة عقيمة.

لكن ما السبب الذي دفع ثريا لتصرخ بإصرار "لم أفعل ذلك" حين أشارت ابنتها إليها بيدها؟ أيًّا كانت الأسباب، فهو ردّ فعل عكسي، وهناك احتمال كبير بأنَّها لم تكن تدرك سبب صراخها بذلك الشكل الملح، فقد خرجت الكلمات من فمها عفوية، دون تفكير أو تخطيط مسبق. وبالعودة إلى ما أخبرتني به آلا، فقد كانت المرأتان مستاءتين من بعضهما ذلك اليوم، وكان ذلك واضحًا في تصرفات السلطانة أسما مع ثريا. أما بالنسبة إلى ثريا، فيبدو أنَّها لم تعد قادرة على تحمل المزيد، ووصل بها الصبر إلى أقصى الحدود، وكانت قريبة من فقدان السيطرة على نفسها. لو لم تسقط الاثنتان معًا، فالله وحده يعلم مآل الأحداث في تلك اللحظات، وكيف كان لثريا أن تعبر عن غضبها على السلطانة. ما أخبرتني به حتى الآن عن أمها، لا يشير إلى أنَّها تلك الشخصية التي يمكن لها التمرد على الجدة، وإمساك يدها التي ارتفعت لضربها. ربما هذا ما منحها الثقة، لمحاولة صفع ثريا، فقد اختبرت ذلك بالفعل، عندما كانت الأخيرة تمشط لها شعرها. لكن الأمور سارت هذه المرة خلافًا لظنونها.

كيف استحالت الأحداث إلى هذا الوضع المأساوي في ذهن آلا؟ هل السبب هو سقوط السلطانة أسما أمام ناظريها وموتها لاحقًا؟ لا أظن. فالمأساة تكمن في شعورها بالذنب؛ لأنَّها وجهت الشكوك نحو أمها، وقد ألقت الأم اللوم عليها بالفعل. علي البدء من الأم إن كنت راغبة في فهم آلا، وتمكينها هي أيضًا من فهم نفسها. هل قامت الأم بتوجيه نقمتها الخفية على السلطانة أسما، نحو آلا؟

يجب أن أحلل الأمور بصورة أسرع في ذهني، فالغضب أحد أكثر المشاعر التي تمدّ دوافع التدمير بالطاقة، ومن الواضح أنَّ هذه الدوافع التدميرية كانت تجول بكل يُسْر في ذلك البيت. فحين ننقب عن جذور العديد من الأمراض النفسية، وخاصة تلك المشاعر السلبية الواضحة إزاء المقربين، نجد هذا الغضب المدمر يقف خلفها.

- الحكاية لم تنته هناك كما قلت منذ قليل يا آلا، ولكننا يجب أن نصل إلى نهايتها معًا. في رأيك ما الذي جعل أمك تصرخ بإلحاح بأنَّها لم ترتكب الجريمة؟

- هي لم ترتكبها بالفعل.
- ورغم ذلك، لا أفهم ردّة فعلها هذه.
- ربما حاولت أن تدافع عن نفسها، حين أشرت نحوها بإصبعي.
- هل كان هدفك حقًا هو اتهامها؟
- لا، لا، لم يكن كذلك أبدًا.

تصرخ وهي تنفي التهمة عن نفسها، وتضرب إبهامها بكل ما أوتيت من قوة بحافة المنضدة الحادة. يا إلهي! ستكسر إصبعها، وتحوله إلى حطام. إذًا، هذا ما يبقي إبهامها متورمًا ومزرقًا على الدوام. إنَّها توجه غضبها إلى نفسها، نحو هذا الإصبع المسكين، وتنتقم منه. أثب من مكاني على الفور، وأعود لاحتضانها بين ذراعي، وأمنع يديها من التحرك. تنشج مرة أخرى غاصة بدموعها. بكاؤها هذه المرة يؤثر في بعمق أكبر، فكأنها تتمزق ألمًا، وهي تحاول أن تخرج كل تلك المشاعر التي أنهكتها، لكنها تعجز. يا إلهي، كيف لهذه المسكينة الصغيرة، تحمل كل هذا العذاب الرهيب طوال هذه السنوات؟!

- أنا أصدقك يا عزيزتي. صدقي نفسك أنت أيضًا.

أتركها برفق، فترفع رأسها في حالة يرثى لها؛ الدموع تغطي وجهها، أنفها يسيل، شعرها أشعث، وعيناها المنهكتان من البكاء، تنظران نحوي في استغاثة طفل عاجز. أتطاول لآخذ عدة مناديل ورقية من العلبة، وأمسح وجهها. قد تكون هذه هي المرة الأولى، التي يقوم فيها أحد، وامرأة على وجه التحديد، بمسح دموعها.

- لقد غضبت. حقدت عليّ لأنّي اتهمتها. كانت غاضبة جدًا ذلك اليوم، ولأول مرة كانت ستتمرد على السلطانة أسما، وتضع حدًا لاستبدادها. أدركتُ ذلك من الشرر الذي في نظراتها، لكن الأقدار لم تسمح لها، والنصر انتهى قبل أن يبدأ.
- ألم يحدث أن استاءت منها سابقًا؟

- ربما كانت تشعر بالاستياء؛ إلا أنَّها لم تكن تظهر أدنى علامة تدلّ على مشاعرها. لكنها في ذلك اليوم، ربما كانت ستفعل أشياء فظيعة.
- وقد وقعت الأشياء الفظيعة بالفعل، حتى لو لم تفعلها هي.
- أجل، لم تفعل شيئًا، لكن جدتي ماتت. وحدث ما كانت تتمناه.
- هل فكرت فيما كنت ستشعرين به حينها، لو كنت في مكانها؟
- بالطبع، كنت سأفرح، سأفرح من قلبي، وأقول إنَّها نالت جزاء ما كانت تفعله بي، وأشعر بالسعادة لأنَّي تخلصت منها.

ربما كانت ثريا ترغب في قتلها ذلك اليوم، وحاولت ذلك بالفعل. وربما ظل الأمر مجرد أمنية، لم يتخطَّها إلى حدود الفعل. ومهما كانت الحقيقة، فقد اتهمت نفسها لاشعوريًا، حين ماتت الجدة أمام ناظريها بتلك الصورة الصادمة، وكأنها من قامت بقتلها بالفعل لا بالنية. والشخص الوحيد الذي استطاعت أن توجه غضبها نحوه دون رقابة، هي ابنتها آلا، وكأن آلا أمسكت بها متلبسة. قد تكون هذه هي المشاعر التي انتابت ثريا في تلك اللحظات. لقد كشفتها ابنتها، وما زاد الأمور سوءًا، هو إصبع الفتاة المتجه نحوها، فاختلط الغضب بالهلع، وبدأت تصرخ وتنفي التهمة عن نفسها.

إنَّ إلقاء القبض على المذنب متلبسًا بالجريمة، له عواقب نفسية وخيمة عليه، فهو يرغب في التخلص من كل من رآه في تلك اللحظات. ولا يعود ذلك إلى رغبته في التخلص من الشهود فقط، بل هناك مشاعر أكثر عمقًا، تغذي هذه الرغبة. فهو يشعر بأنّ أكثر أجزائه خصوصية وسرية وبشاعة، قد ظهر للعيان، فيرغب في اقتلاع تلك الأعين التي شاهدته. ودون أن يبالي بالعقاب في تلك اللحظات، يوجه كل عدائه نحو تلك الأعين، لأنَّه سيبدأ برؤية نفسه من خلالها، وكلما فعل ذلك، فسيشعر بالازدراء من نفسه أكثر.

أستحضر الجرائم التي تنشرها الجرائد بين الفينة والأخرى، فالأشخاص الذين يعانون من مشاكل جنسية، غالبًا ما يقدمون على ارتكاب الجرائم. ويكمن

الدافع الحقيقي وراء هذا النوع من الجرائم، في انكشاف جوانب الضعف، والقبح، والضآلة والخفايا المقززة في شخصياتهم أمام أعين أخرى. فما يودّون التخلص منه، هو نظرتهم الدونية إلى أنفسهم، وتقييم شخصياتهم في أعين الآخرين. وحتى إن لم يدفعهم انكشاف حقيقتهم إلى ارتكاب الجرائم، فإنّه يقوض عالمهم الداخلي تحت ثقل مشاعر الدونية. فرغم إدراك المريض هذه العيوب، لكن اكتشاف الآخر إيّاها، يثقل كاهله أكثر، فيشعر أنَّه بتخلصه من ذلك الشاهد، سيتخلص من دونيته، وشعوره المستمر بالذنب. وكأن بقاء الأمر سرًا، سيخفف من وطأة الذنب، ويخفي العيوب، ولن تعود تلك المشاعر السلبية لتلتف على روحه كحامول متعطش.

أعود للتفكير في ثريا، فانكشاف تلك الأحاسيس التي كان مجرد التفكير فيها يسبب لها ضيقًا شديدًا، أمام عيني ابنتها ذلك اليوم، جعلها تعتقد وكأنها قامت بارتكاب الجريمة فعلًا. وهذا هو أسوأ ما يمكن أن تعانيه روح مريضة، وخاصة في أحد أيامها المشؤومة، حين تتوه في متاهة أزقتها الداخلية المعتمة، باحثة عن أيّ سبيل للخروج. لقد صارعت ثريا طويلًا للبحث عن مخرج، لكنها اختفت في تلك المتاهة الرهيبة إلى الأبد.

- لكنها لم تفرح. أنا أيضًا لم أفرح حين ماتت أمي، بل شعرت بالذنب. يبدو أنَّها شعرت بالمثل. فحين تحقق ما تتمناه أخيرًا، شعرت بالذنب.
- خاصة أنَّك أشرت نحوها بإصبعك.
- أجل، حين فعلتُ ذلك، ثبتت التهمة عليها. لقد عانت كثيرًا و... - تصمت.
- ووجهت كل غضبها نحوك، فقد شعرت بأنّها شوهدت متلبسة بالجرم. هل واصلت اتهامك فيما بعد؟
- حتى النهاية. واعتبرتني المسؤولة الوحيدة عن كل ما حدث.

تقول ذلك وهي تحدق إليّ في جزع من يسير نحو حبل الإعدام. من القسوة أن يبدأ الإنسان حياته منبوذًا، مهملًا، ويكملها متهمًا، يعاني الشعور بالذنب. لكني

أستحضر فكرة نيتشه الشهيرة "حب القدر"؛ فهل نملك خيارًا آخر سوى أن نحب أقدارنا ونتقبلها مهما كانت مؤلمة؟

يلقي فرويد تبعة معاناتنا في الحياة على والدينا، في حين يلقيها ماركس على طبقات النخبة في المجتمع. أما مفهوم الكارما بحسب المعتقدات الهندية، فهي محصلة أعمالنا، ولا يجوز لنا أن نلقي اللوم على أحد آخر سوى أنفسنا.

لكن جوهر الأمر ليس العثور على من نلقي عليه باللوم، بل خوض تجربة الحياة دون مشقة كبيرة، وامتلاك القدرة على تحمل آلامنا. وهذا ما يجب أن أقنع به هذه الفتاة الصغيرة المثقلة بجراح الماضي؛ أي أن أنير شمعة في دربها المدلهم. لا يمكنني أن أحدد لها خطواتها الأولى، لكني أستطيع أن أنير لها بداية الدرب.

أتذكر أيام مرض آيدِن، كنت أتساءل في جزع: إن فقدته، هل سأتمكن من العودة إلى عملي بالشغف القديم ذاته؟ هل سأتمكن من الاستماع إلى آلام الآخرين ومعاناتهم، والتخفيف عنهم؟ هل ستعاودني الرغبة في الضحك بتلك القهقهات الصاخبة مرة أخرى؟ هل سأتحمل فقدانه من الأساس، وأتغلب على الوحدة؟ هل سيأسرني مشهد المغيب؟ وهل سأتلذذ مجددًا بطعم حساء الكشك مع النعناع، عندما يلفح بخارها الشهي وجهي في يوم شتائي؟

هل سأستمتع كل صباح، أينما كنت، بعبق القهوة التركية، وأشعر بالامتنان مع كل رشفة من فنجاني؟ هل سألتهف كل مساء أتأخر فيه، للعودة إلى بيتي؟ ما الذي سأشعر به، حين لا أجد أحدًا يفتح لي باب بيتي- الذي لم أفتحه قط بمفتاحي طوال فترة زواجنا- ويستقبلني بالشوق ذاته في كل مرة؟ هل ستقع على عاتقي مهمة إرسال باقة من الورود الحمراء إلى ياغمور، بعدد سنوات عمرها في كل عيد ميلاد لها؟ يبدو أنَّ الإنسان مجبول على التحمل، ويستطيع التغلب على الألم ومواجهته، خاصة إن كان متعلقًا بعمله مثلي. لكنه لا ينسى مذاق الألم، ويغدو قادرًا على فهمه أكثر من الآخرين.

ترفع آلا رأسها ببطء، وقد استحالت عيناها إلى جمرتين من كثرة البكاء. تنظر نحوي بحزن وانكسار، فأحيط يديها الصغيرتين بيدي، وأبتسم لها.

- هيا يا آلا، دعينا ننتهي من هذا الأمر، أود سماع بقية الحكاية.

تومئ برأسها موافقة، فهي أيضًا ترغب في التخلص من عبئها. تمسح وجهها بظاهر يدها، ثم تواصل سرد بقية الأحداث.

- حين أخذت سيارة الإسعاف جدتي، اتجهت الأنظار صوب أمي، وأخذ الكل يتوعدها صارخًا بأنها ستدفع الثمن. وعلى الفور وصلت الشرطة لاعتقالها، لكنها قبل أن تذهب، رمقتني بنظراتها الرهيبة، وقرصت ساقي بشدة جعلت الدموع تطفر من عيني على الفور، وصرخت متألمة. فظن الجميع أني أبكي خوفًا مما حدث. كنت أشعر وكأنني في حلم، لا أفهم ما يقولونه لي، وأنظر إلى الجميع في بلاهة، رغم أنَّ أسئلة الشرطة وأفراد العائلة كانت تنهال فوق رأسي دون توقف، لأنِّي كنت الشاهدة الوحيدة على ما وقع. مع حلول المساء، أخذتني الشرطة إلى مركز التحقيق، ثم قاموا بتسليمي لأبي. لقد سجنت أمي بسببي.

- ليس بسببك. فحتى لو لم تشيري نحوها، كان أفراد العائلة سيتهمونها. وما الذي فعله والدك؟

- كان حائرًا فيما يجب فعله. وقد واصل الانتظار أمام باب المشفى طوال ثلاثة أيام، مع بقية رجال العائلة. أما زوجتا عمي فكانتا تقولان إنَّ السلطانة أسما ستنجو من هذه الكارثة أيضًا، وتستعيد وعيها، لكن ذلك لم يحدث، فقد ماتت في الليلة الثالثة. بكاها عماي وأبي بكاء شديدًا. كما أنَّ أفواج المعزّين من كل أنحاء المنطقة كانت تتقاطر علينا كل يوم. والكل كان يسأل عما جرى، وفي كل مرة كانت زوجتا عميّ ترويان فيها الأحداث، تؤكدان أنَّ أمي تعمدت قتلها. فأصبح الكل متأكدًا أنّ أمي دفعت السلطانة أسما عامدة. حتى إنَّهم اتهموا أبي أيضًا بالتواطؤ معها في الخطة. فالجميع كان يعلم مسبقًا، كم كان أبي حانقًا عليها؛ لأنَّها سلبته كل سلطته، وتعمدت تركه في السجن سبع سنوات، دون أن تزوره ولو

مرة واحدة. وانتشرت هذه الأقاويل في كل مكان، وربما للمرة الأولى تضامن أبي مع زوجته، وشعر أنَّهما تعرضا للظلم معًا. وأظنه لم يصدق أبدًا أنَّ أمي يمكن لها ارتكاب أمر كهذا. وخلا عمي الاثنين، فقد كان بقية أفراد الأسرة، وخاصة زوجتيهما، ممتنين جدًا لتخلصهم من السلطانة أسما، رغم إظهارهم العكس أمام الآخرين. وبقي عليهم التخلص منا نحن أيضًا. فلم يرغبوا في أن يبقى أحد منا نحن الثلاثة في ذلك المنزل بعد ما جرى. لقد أرادوا التخلص بشكل نهائي من كل من يزعجهم. حتى إنَّهم كانوا يستاؤون إن ذهب أبي لزيارة أمي في السجن، وأخذوا يعلنون دون خشية أنَّهم لم يعودوا راغبين في بقائنا في المنزل.

- وكيف كانوا يعاملونك؟

- كانت المرة الأولى التي عاملتني فيها زوجتا عميّ باهتمام. كانتا تقولان إنَّ المسكينة، أمها في السجن. لكن حقيقة الأمر أنَّ سعادتهما كانت لا توصف، وكأنهما كانتا تكافئانني، فقد كان لي دور فيما حدث بطريقة أو بأخرى. بعد فترة تم إطلاق سراح أمي، واستمرت قضيتها في المحكمة غيابيًا. في اليوم الذي أطلق فيه سراحها، أتينا إلى أنقرة على الفور، إلى هذا البيت. ومع انتهاء ذلك الكابوس، بدأ كابوس جديد.

- أعلم أنَّ ما مررت به ليس سهلًا، خاصة في تلك السن الصغيرة، لكن الحياة أحيانًا تضعنا في مواقف صعبة. وكيف تغلبت على كل ذلك؟

- لم أتغلب على شيء. لطالما كرهت نفسي وما أنا عليه، وكرهت الحياة. ربما الكراهية لا تفي مشاعري حقها. لأنَّي أشعر بالاشمئزاز من نفسي، فقد كانت أمي تشمئز مني، وأبي كان مجرد سكّير، يثمل كل ليلة. لكن إن كنت لا أزال على قيد الحياة، إن كنت أجلس اليوم وأتحدث إليك، فالفضل يعود إلى ذلك السكير؛ لأنَّه لو ترك أمري لأمي، لكانت قتلتني منذ زمن طويل.

- قتلتك؟

ترتعد أوصالي لدى سماع هذه الكلمة، فقد أخبرتني سابقًا أنَّ أمها كانت تضربها بعنف بالغ، لكنها المرة الأولى التي تصرح فيها بنية أمها الحقيقية. الأم هي الكائن الأقرب إلينا منذ لحظة ولادتنا، هي من تمنحنا الحياة، تحمينا وترعانا، تربينا وتضمنا إلى حضنها، لكن والدة هذه المسكينة أرادت قتلها.

- أجل، كانت ترغب في قتلي، كانت تضربني ضربًا مبرحًا، وهي تنظر إلي بطريقة فظيعة. أكثر ما كان يخيفني هي تلك النظرات. كنت أسألها مستغيثة: "هل تنوين قتلي يا أمي؟". ولولا خشيتها من أبي، لكانت قتلتني، لكنها كانت تخشاه.
- آلا.
- أجل.
- أحقًا كانت أمك ترغب في قتلك؟
- لقد حاولت ذلك عدة مرات. لكن حين أدرك أبي أنَّها تنوي قتلي، بدأ يضربها حين يعود، تمامًا كما كانت تضربني. أحيانًا كان المارة يسمعون صراخهما، ويبلغون الشرطة. وقد أتت الشرطة عدة مرات إلى منزلنا.
- هل كانت أمك من تصرخ؟
- كلاهما كان يصرخ، لكن صراخها كان الأعلى، فقد كانت تصرخ حتى وهي تضربني.
- وماذا عنك؟ ألم تصرخي؟
- كنت أكتم صوتي رعبًا. لكن حين كان الاثنان يتشاجران مساء، كان صراخهما جنونيًا.
- ما الذي كنت تفعلينه حينها؟
- كنت أختفي في لمح البصر. لكن خوفي من أن يقتل أحدهما الآخر، كان يدفعني إلى مراقبتهما خلسة من خلال الباب.

- وهل كانت أمك تهاجم والدك؟
- بكل ما أوتيت من قوة. لكن أبي كان رجلًا قوي البنية، فلم تكن قادرة على التصدي له. وحين أدرك أبي مدى العنف الذي كانت تضربني به، فقد كل إحساس بالشفقة تجاهها، وبدأ يضربها في كل مكان تصله يداه، تمامًا كما كانت تفعل بي. حتى إنّه كسر رأسها عدة مرات، وكذلك يديها.
- إلى هذه الدرجة؟
- في إحدى المرات، ظلت ذراعها في الجبيرة لعدة أشهر. في تلك الفترة، كانت تحاول ركلي بساقيها، لكني كنت أتمكن من الهرب، وأدعو الله ألا تُفك جبيرة يدها أبدًا.

تتوقف عن المواصلة، وهي ترمقني بطرف عينيها في خجل، قبل أن تسأل:

- في رأيك هل أنا فتاة سيئة؟
- لَمَ تعتقدين ذلك؟ على العكس، فحين أفكر في كل ما جرى لك، أجد أنَّك فتاة رائعة حقًا.

تحاول أن تصدق ما أقوله لها، لكنها تنظر إلي في حزن، لأنَّها تعجز عن التصديق.

- إذًا، فقد كان ذنبك الوحيد أنَّك أشرت نحو أمك بإصبعك؟
- وهل هو بالشيء القليل؟ لقد ظلت في السجن أشهرًا بسبب ما فعلتُه.
- ماذا قلت للشرطة خلال التحقيقات؟
- أخبرتهم بما رأيت.
- أي إنك أخبرتهم بالحقيقة؟
- أجل. لكن أفراد العائلة جميعًا وصفوا الأمر للشرطة بطريقة مغايرة، وقالوا إنّ السلطانة أسما شتمت أمي ونعتتها باللعينة، فغضبت أمي وهاجمتها، وتعمدت دفعها. كما أنّي حين أشرت بإصبعي نحوها، أكدت التهمة عليها. لقد أخبرت الشرطة بالحقيقة، لكن الجميع ظن أنَّ خوفي

من أمي، جعلني أحرّف الوقائع. الحياة غريبة حقًا. فقد كانت السلطانة أسما هي الوحيدة التي تهتم أمي بشأنها، لكن القدر شاء أن تموت على يدها. على الأقل هذا ما اعتقده الجميع. لقد كان أبي قاتلًا بالفعل، ثم اكتسبت أمي أيضًا هذه الصفة؛ أي إنَّ والديّ كليهما قاتلان. الفرق الوحيد بينهما، أنَّ أمي لم تتحمل وزر تهمة قتل المرأة التي ظلت تخدمها سنوات طويلة كعبدة حقيقية. لابدّ أنَّ الأمر كان صعبًا عليها. وبمرور الوقت، ترسخت لدي القناعة بأنَّي السبب فيما حدث. لكنك الآن تشوشين كل أفكاري وقناعاتي، فقد اتهمتني أمي، وأنا اقتنعت بالتهمة. ربما كان ذنبي الحقيقي، هو البقاء على قيد الحياة، وربما كان هذا أكثر ما يثير حنقها. ترى كيف كان لعالمي أن يتغير، لو ولدت في عائلة طبيعية، وترعرعت محاطة بمحبة والديّ؟ كنت سأحبهما، وأحب نفسي أيضًا. حين اكتشفت في المدرسة أنَّ الأطفال يحبون والديهم، استغربت كثيرًا. فاللحظة الوحيدة التي أحببت فيها أمي، كانت حين رأيت الشرر يتطاير من عينيها ذلك اليوم في الحمام. لقد غدت في نظري امرأة مختلفة عن تلك التي أعرفها. وكانت وجنتاها المتقدتان بسبب الحرارة، تضفيان عليها المزيد من الجمال. في تلك اللحظات، كنت أرمقها بانبهار، وأقول في نفسي: هذه هي أمي التي أحب. امرأة معتزة بنفسها، قوية ولديها كبرياء. لكنها كانت مجرد لحظات خاطفة، ثمّ عادت بعدها إلى ما كانت عليه.

لعله أكثر المشاعر شيوعًا، فجميعنا بحاجة إلى والدين قويين حين نكون أطفالًا.

- وأنا أسمعك تتحدثين، استحضرت مؤسس التحليل النفسي سيغموند فرويد، الذي يتحدث عن موقف مشابه له مع والده. فشخصية فرويد اتسمت بالثقة الشديدة بالنفس، والتي بلغت حدود جنون العظمة، لذا لم

يتمكن من نسيان هذا الموقف الذي حدث مع والده، رغم أنَّه كان طفلًا حينها. ففي أحد الأيام، وبينما الأب يسير على الرصيف، قام رجل ألماني بنزع قبعته عن رأسه ورميها، وصرخ فيه: "انزل عن الرصيف، أيها اليهودي". في تلك الحقبة، كان اليهود يعتبرون عرقًا وضيعًا، لا يحق لهم حتى السير على الرصيف. فأذعن والد فرويد، ونزل عن الرصيف وتناول قبعته، ثم ابتعد دون أن ينبس بكلمة. حين سمع فرويد هذه الحادثة من والده، أصيب بخيبة أمل شديدة، وشعر بأنّ ثقته بنفسه أصيبت بجرح بليغ، ولم يسامح والده قط على تصرفه. حتى فرويد العظيم لا يخفي مدى تأثير هذه الحادثة في نفسيته بعد كل تلك السنوات، رغم أنَّه لم يشهد الحادثة، بل سمع عنها فقط.

- لقد قرأت عن هذه الحادثة. فقد شعر بالإهانة؛ لأنَّ والده رضخ للرجل الألماني.
- تمامًا. فكما ترين، حتى رجل بمكانة فرويد تأثر بهذا الحادث، لكن ذلك لم يكن عائقًا ليغدو مؤسس أحد أكثر العلوم تأثيرًا في العالم. ستندمل جراحك أيضًا يومًا ما، حينها من يدري ما الذي ستبرعين فيه بذكائك الباهر؟
- أحقًا تؤمنين بذلك؟
- من كل قلبي، لكن الأهم أن تؤمني أنت بذلك.

تتسع عيناها دهشة، وهي تسمعني في انفعال كبير، أخيرًا أرى بصيص الأمل يشرق في نظراتها، هذا الأمل الذي كنت أبحث عنه مطولًا دون جدوى.

- شكرًا على القهوة، أنت بارعة في إعدادها.
- أنا أشعر بالخجل حقًا، من كل هذا المديح.
- إنَّها الحقيقة، فأنا لا تروقني كل قهوة أشربها، وهذا دليل على أنَّك إن رغبت في شيء، فإنك تبرعين فيه، وأنَّ ثقتي بك في محلها. لقد عشت

تجارب سيئة جدًّا يا آلا، وكنت صغيرة جدًّا عندما مررت بكل ذلك. لكن القدر أحيانًا أشبه بامرأة لعوب، لا يمكن التنبؤ بتصرفاتها. ورغم المآسي التي سببتها لك في السابق، فقد تأتي الآن لتضحك في وجهك، فلا تديري لها ظهرك إن أقبلت، وسأكون إلى جوارك دومًا، وأظننا ستتمكن من تحقيق أشياء جميلة معًا.

- لم أختبر مطلقًا، شيئًا جميلًا في حياتي، لكن كلماتك هذه تشعل في روحي حماسة لم أستشعرها قط.
- ثقي بي، فالحياة ستجعلك تختبرين الجميل، كما اختبرت الرديء. حسنًا، لقد حان وقت ذهابي. حاولي أن تنظمي أمورك، لأنَّي أريد أن أراك من الآن فصاعدًا بأفضل صورة ممكنة.
- إن شاء الله. لا أعرف كيف أشكرك على كل ما تفعلينه لأجلي، خاصة أنَّك أتيت إلى هنا اليوم، وجلست وسط كل هذه القذارة والغبار.

نهض معًا، وترافقني إلى الخارج، حتى إنَّها تفتح لي باب السيارة.

طوال طريق العودة، يظل ذهني منشغلًا بآلا وذلك المنزل. أبدو كمن شاهد توًّا فيلمًا مأساويًا، ولا يزال تحت تأثيره حتى بعد مغادرة قاعة السينما. قلبي حزين، فيما ذهني منشغل بما روته لي. كيف لفتاة وحيدة أن تعيش في منزل كذاك؟ وهي لم تخبرني بعد كيف ومتى مات والداها، أرجو ألا يكون في موتهما تراجيديا أخرى.

لا أرغب في الذهاب إلى المركز، بل أطلب إلى السائق أن يأخذني إلى البيت، بيتي الدافئ والهادئ والنظيف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني عشر

بات الاهتمام بآلا، في قائمة أولوياتي أنا وتونا. وبعد أن وافقت على الانتقال من منزلها، طلبت مساعدة كافة زملائي في المركز، فأخذ كل منهم يتصل بمعارفه من أصحاب المكاتب العقارية، للعثور على منزل يلائمها. كما أنَّ آلا طلبت مساعدة تونا على وجه الخصوص في بعض الشؤون الأخرى. فقد أرادت أن ترافقها في زيارتها الأولى إلى صالون التجميل، وقد وافقت سكرتيرتي العزيزة عن طيب خاطر. فيما اتصلت على الفور بكوافيري الخاص إسماعيل، ورجوته أن يهتم بها ويوليها عناية خاصة. حدثتني تونا مطولًا هذا الصباح عن تلك الزيارة، لكن لا يمكنني الحكم على مدى نجاحها قبل أن أرى آلا.

لا زلت أشعر بالتوتر بعض الشيء، فما روته لي خلال زيارتي لها، ترك أثرًا عميقًا عليّ أيضًا، وأظنها ستكمل لي بقية القصة اليوم، ليعاود الحزن والألم التجول بحرية بين جدران هذه الغرفة.

بعد نقرة خافتة على الباب، تطل آلا برأسها في خجل، فأتفحصها بدقة. لقد قصوا شعرها قصيرًا، واختفت تلك الكتل المتلبدة العشوائية الموزعة هنا وهناك، والتي كانت تجعل رأسها أشبه بكرة مطاطية ممزقة. هل تغير لونه أيضًا؟ كان سابقًا بينًا باهتًا، لكنه الآن بلون الشوكولا، مع بريق ملحوظ. تنسدل بعض الخصل الناعمة على جبينها، فيما البقية خلف أذنيها؛ تسريحة مثالية لشابة معاصرة. لكن هناك أمرًا آخر أحدث في وجهها كل هذا التغيير، فتسريحة الشعر وحدها لا يمكن أن تفعل هذا كله. أمعن النظر في وجهها مرة أخرى، أجل إنَّهما حاجباها اللذان تم تشذيبهما، بعد أنا كانا أشبه بشارب كث فوق كل عين، لقد أحسن إسماعيل الصنع، ومن الواضح أنَّه أولاها الاهتمام اللازم.

- أهلا بك آلا، تبدين جميلة جدًا.
- أرجوك، فأنا أشعر بخجل شديد.
- ولما الخجل يا عزيزتي؟ فشعرك مسرح بطريقة غاية في البساطة، ولكنها تناسبك تمامًا. هل تمكنت من التفاهم مع إسماعيل؟ فهو أيضًا مثلك يتسم بالعناد، ولا يفعل شيئًا ما لم يكن مقتنعًا به.
- أجل.. إنَّه ماهر في عمله.
- من الآن فصاعدًا عليك أن تذهبي إليه على الأقل مرة في الأسبوع، اتفقنا؟
- سأفعل.
- لم تكملي سرد القصة في آخر حديث بيننا، ما رأيك أن تواصلي اليوم؟
- أيجب علي التحدث مرة أخرى؟
- بالطبع، ومن سيتحدث سواك؟
- لكنك وعدتني أن تسردي لي المزيد من الحكايات.
- أجل لقد وعدتك بذلك، وسأحافظ على وعدي، لكن أريدك أن تبدئي أولًا.
- ألا نستطيع أن نقلب الأدوار؟ تروين لي الحكاية، ثم يحين دوري في الحديث؟..
- ليس لدينا الكثير من الوقت يا عزيزتي، فعما قريب سآخذ إجازتي الصيفية، وعلينا أن ننتهي قبل ذلك.
- لا بأس.. ولكن أرجوك أن تبدئي أنت.. فأنا لا أستطيع إرغام نفسي على التحدث، حتى لو كنت راغبة في ذلك.
- حسنًا، ماذا ترغبين أن تسمعي اليوم؟
- اختاري أنت.

لقد بت أعرف الكثير عن ماضيها وعن شخصيتها، فلم تعد تلك الغريبة المجهولة بالنسبة لي، الأمر الذي يؤثر إيجابًا على العلاقة بيننا. كما لم أعد أشعر

نحوها بذلك النفور السابق، خاصة بعد أن تعرفت على ما عاشته في طفولتها. وأظن الأمر ساريًا عليها أيضًا، فحتى طريقة مصافحتها لي قد اختلفت. وبت متيقنة من رغبتها في التحدث، لكن روحها الفتية تتهشم تحت ثقل تلك الذكريات التي تكتسب الحياة، بمجرد إخراجها للنور مرة أخرى. إنَّه عبئ أثقل من أن تتحمله. فهي تحتاج بعض الوقت لتشعر بالراحة؟ من الأفضل انتقاء حكاية تلامس السطح، ولا تحرك الأعماق، حكاية عن إحدى نوبات الجنون الجماعي، بعيدًا عما هو شخصي. ربما يتلاشى هذا الهواء الثقيل الذي يخيم على الغرفة.

- من الواضح أنَّك لا تهتمين بحديقة منزلك، لكن الورود التي أرسلتها لي في البداية كانت جميلة جدًا. هل تحبين زهرة التوليب؟
- أجل.. أجد فيها شبهًا حين تحني أعناقها.
- إذًا فأنت تشبهين نفسك بزهرة التوليب! ما رأيك أن أروي لك حكاية عن زهرة التوليب، كي تعرفي كم كانت بالغة الأهمية *في وقت من أوقات الزمان*.

تبتسم ابتسامة خفيفة، تمحي الكدر الذي كان يخيم على وجهها قبل قليل، ويلتمع بريق الإثارة في عينيها، فيما تنظر إلي بفضول، مستعدة لسماع الحكاية.

- سأروي لك كيف سببت زهرة التوليب هذه، انهيار النظام السياسي والاجتماعي لهولندا قبل عدة قرون. تسمى هذه الزهرة بالتركية (لالى)، وكلمة التوليب أيضًا مشتقة من التركية، التي تعني نوعًا من الحجاب أو الغطاء. وقد انتقلت للمرة الأولى من إسطنبول إلى أوربا في القرن السادس عشر، فأثارت بألوانها وشكلها الغريب اهتمام الأوربيين، وخاصة الألمان والهولنديين. حتى اعتبرت نخبة المجتمع الهولندي، أنَّ عدم امتلاك الشخص الغني، مجموعة كاملة من بصيلات هذه الزهرة، مؤشر على جهله وعدم جدارته بمكانة اجتماعية راقية. وكان أفراد الطبقة الوسطى على وجه الخصوص، ممن يريدون الصعود إلى طبقة اجتماعية أعلى،

يلجؤون إلى زهرة التوليب، وبشكل خاص في العام ألف وستمائة وأربعة وثلاثين، حيث درج صغار التجار والحرفيون على اقتناء الكثير من أزهار التوليب، للارتقاء على درجات السلم الاجتماعي، دون أن يتورعوا عن بذل نصف ثروتهم للحصول على بصلة واحدة، والدخول في ذلك النادي الطبقي المنشود. انتشرت هذه الموجة كالنار في الهشيم بين أفراد الطبقة المتوسطة، وقد بدا" جنون *التوليب*" في البداية مجرد هوس بريء، لكنه سرعان ما تحول إلى تهديد حقيقي، حين أصبح معيار الغنى امتلاك التوليب، بدلًا من الذهب والفضة، وهذا ما جعل الناس لا يشعرون بالأمان ماديًا، ما لم يستثمروا كامل ثرواتهم في بصيلات التوليب. وأخيرًا لم يعد اقتصاد البلاد قادرًا على تحمل هذه الموجة الجنونية، ووصل إلى حافة الانهيار. فحتى أفقر الناس أخذوا يبيعون كل ما يملكون لاستثمار المال في هذا اللوثة الجماعية، سعيًا وراء وهم الغنى، فكانوا يبيعون منازلهم، أراضيهم أو المواشي التي يملكون لاستثمار المال في بصيلات التوليب. وفي العام ألف وستمائة وخمسة وثلاثين، اشترى أحدهم بصيلة توليب واحدة فقط، بمائة ألف فلورينة. وحين بلغت الأسعار هذا المستوى الجنوني، أدرك المحنكون من رجال البورصة، أنَّ الانهيار يقف على الأبواب، فعرضوا البصيلات التي بحوزتهم في السوق، ما جعل الأسعار تهبط بسرعة درامية. فأصبح الإفلاس مصيرا لا مفر منه لأولئك الذين باعوا كل ما يملكون، في سبيل بضع بصيلات، ومع هذا الانهيار الاقتصادي، بدأت الاضطرابات الاجتماعية أيضًا بالظهور. هذه الهيستيريا الجماعية التي انتشرت بين الأعوام ألف وستمائة وأربعة وثلاثين، وحتى ستة وثلاثين، كلفت هولندا ثمنًا باهظًا. فقد تقلص حجم تجارة البلاد بدرجة فظيعة، وعانى قطاعا الزراعة والصناعة أيضًا من تراجع كبير، ولم تتمكن البلاد من تعويض هذه الأضرار لسنوات طويلة.

- البشر غريبون حقا! فالغنى أو حتى التظاهر به.. يبدو وكأنه أهم ما يسعون إليه في الحياة.
- هذا هو الحال طوال التاريخ البشري، فالمكانة الاجتماعية، أيّ تقييم المجتمع لنا، لها أهمية أكبر مما نظنه بكثير.
- يبدو أنَّ العقل لا ينفع على الدوام.. فما أسهل أن ينقاد البشر وراء هوس ما، ويرتموا في حضن الجنون.. ليتني كنت مثلهم.
- لما يا آلا؟ لما تتمنين شيئًا كهذا؟
- على الأقل إنَّه جنون جماعي.. لا أحد بمفرده.. يقومون بكل ما يمليه عليهم جنونهم معًا.. ويتشاركون المصير ذاته في النهاية، حتى لو كان الموت أو الجوع.. الجنون الفردي هو الأصعب على الإطلاق.

الجنون الفردي! وصف يطابقها تمامًا.

- أفهم ما تعنينه تمامًا، لكن الجنون الجماعي لديه عيب غاية في الخطورة؛ فلا يوجد أحد يقوم بمساعدة الناس أو توعيتهم، لأنَّ الجميع أصيب بلوثة الجنون. لكن في الجنون الفردي، لا يكون الشخص وحيدًا كما يبدو لك، فهناك دومًا من يرغب في مساعدته.
- أهم ما في تلك المساعدة هو تقبلها بقدر تقديمها.. فحين يعجز المجنون عن الكلام والتعبير، كيف ستساعدينه؟
- سأنتظر بصبر حتى يأتي يوم تقبله لها، وأسرد عليه حتى ذلك الحين المزيد من الحكايات الجميلة. لقد استطعت في ذلك اليوم أن تروي ما حدث بأسلوب ساحر، جعلني أشعر وكأني أقرأ رواية رائعة.
- لكني اليوم لا أستطيع مواصلة السرد بالأداء ذاته.. فقد قضيت أسبوعًا صعبًا جدًا.. الأحداث التي رويتها لك، تأبى أن تغيب عن ناظري، وتتركني بسلام.

- أعلم ذلك، ولكن هل هناك شيء سهل في هذه الحياة؟ ورغم ذلك فها أنت تتغيرين، وكل تغير صغير في حالتك هو خطوة للأمام. كما أنَّنا جميعًا منهمكون في مهمة البحث عن منزل مناسب لك، منزل صغير وجميل، في مركز المدينة، والأهم أن يكون في مكان آمن. بعدها يجب ترميم منزلك الحالي، وسنجد من يهتم بهذا الأمر أيضًا، ليتم تفريغه، ومن ثم تأجيره.
- أعلينا رمي كل ما في داخله؟
- يمكنك الاحتفاظ بما تشائين، ما الذي ترغبين في أخذه معك من ذلك المنزل؟
- أولا كتبي.. وثانيا الثياب.
- تعنين هذه الثياب التي ترتدينها؟
- أجل.. عليّ أخذها معي.
- وما الذي ستفعلينه بها؟
- سأرتديها.
- لما يا آلا؟ لما هذا الإصرار الغريب على ارتدائها؟
- ألن أدخل الجحيم إن لم أقم بارتدائها؟
- ولما ستدخلين الجحيم يا صغيرتي؟ أتعتبرين نفسك مذنبة إلى هذا الحد؟
- ألست كذلك برأيك؟
- بالطبع لست كذلك، بل على العكس فقد عانيت بما يكفي لمحو كافة ذنوبك إن وجدت.
- لكنك لا تعرفينني على حقيقتي حتى الآن.
- صحيح، فهناك أشياء لا أعرفها عنك، لكني بت أعرف الكثير بالمقابل. لقد بدأت التعرف عليك بصورة أفضل الآن.
- متى ستتوقفين عن مدحي بهذه الطريقة؟.. أو حتى عقد الآمال علي؟

سؤال غريب ومؤلم في آن. فهذه الفتاة تكره نفسها، وتشمئز منها لدرجة تجعلها تشعر بالضيق حين يحاول أحدهم امتداحها ببعض الكلمات، فهي مقتنعة إلى أقصى الحدود بأنّها شخص سيء، وكل ما يقال لمدحها أو الثناء عليها، مجرد أكاذيب.

- أعتقد أني حرة في تحديد انطباعي الشخصي عنك. كما أنَّي لا أقول أنَّك شخص جيد أو سيء، فليس هذا ما أحاول أن أقنعك به. لكني على قناعة تامة بأنك بريئة، ولن أتخلى عن التصريح عن قناعاتي مطلقًا.

تخيم ظلال الخوف مجددًا على نظراتها، فأشعر بالانقباض، وأنا أفكر كم هي مهمة شاقة معالجة هذه الفتاة، وكم هو متعب التعامل معها. فهي تستاء لمحاولتي حمايتها، لكن سأواصل حمايتها من نفسها، مهما استاءت واستنكرت.

عيناها مغرورقتان، تصب نظراتها علي، دون أن ترمش حتى، وتبدأ دموعها بالانهمار في صمت وغزارة. كان بكائها ذلك اليوم في منزلها بكاء شخص طبيعي، كانت تنتحب وتنشج دون كبت. لكن هذه هي طريقة بكائها حين تخاف، ما يزيد شعوري بالأسى نحوها، والمشكلة إن عاملتها برقة الآن، ستساء مجددًا، ووحده الله يعلم أيّ أفكار غريبة ستشق طريقها إلى ذهنها المضطرب.

أعترض على الدور الأزلي المنوط بي، في إخفاء مشاعري خلف ستار حديدي من الصلابة الظاهرية، فمهما تجمدت ملامحي، يظل الخوف من أن تفضحني نظراتي ماثلا. أسحب نفس عميقًا، وأتنحنح عدة مرات، كي لا تفضح نبرة صوتي مشاعري، ثم أسألها:

- لقد اعتدت على الإهانة، وهذا أحد الأسباب التي تجعلك تتمسكين بتلك الثياب. لكن بغض النظر عما إذا كانت هذه رغبتك أم لا، فلن أقدم على إهانتك مطلقًا. كما لن أخفى إعجابي المتزايد بشخصيتك، والذي يتأكد كلما تعرفت عليك أكثر. وأتمنى أن تتعرفي أنت أيضًا على نفسك بصورة صحيحة.

تسمعني في حيرة وكأنها لا تفهم ما أقوله، ثم يأخذ الألم والحزن مكان الدهشة في عينيها. وهذا ما أحاول تجنبه، فحين أراها تتألم على هذا النحو، أشاركها الألم. تواصل سكب سيول دموعها الغزيرة في صمت، فلا أتحمل مشاهدة هذا المنظر أكثر.

- ما هذا البكاء يا آلا؟ ستجعلينني أبكي أنا أيضًا. لا تكتمي مشاعرك، اصرخي، انتحبي.. اتركي نفسك على سجيتها.
- ألن تغضبي حينها؟
- مما؟
- إن فعلت ذلك؟
- ذلك اليوم حين بكيت بصوت عال، هل غضبت منك؟
- لكن أمي كانت تغضب.
- أعلم ذلك، لكني لست أمك، تستطيعين الصراخ هنا كما تشائين.
- كنت أبكي في صمت مطبق.. فلا تدرك أمي أنَّي كنت أبكي.
- لقد كابدت الكثير من العذاب.. لكن لما لا ترغبين في التخلص منه؟
- ماذا تعنين؟
- أعني أنَّك تواصلين فعل ما كانت تأمرك به أمك العزيزة.
- هي ليست أمي العزيزة.
- إذًا لما لا تدعينها وشأنها لترقد في قبرها؟
- لأنَّي أتمنى لها أن تحترق في جحيم أبدي بدلًا مني.

تشعر بالفزع بعد خروج هذه الكلمات من فهمها، وكأنها سمعتها من شخص آخر. يحتقن وجهها، وتضع يدها على فمها، فيما تنظر نحوي مذعورة. تفيض عيناها مجددًا، فقد نفثت السم الذي في داخلها، وهذا بالضبط هو ذنبها.. فنقمتها الشديدة على أمها، تخرج كطلق ناري ليصطدم بأمها، ثم يعود نحوها بأقصى سرعته، فيصيبها. الحقد الدفين على تلك المرأة، يظهر في هيئة شعور بالذنب، فهي تلوم نفسها بسبب هذا

الحقد. وهذه الثنائية المتناقضة تدمرها من الداخل، وهي جوهر مشكلتها الحقيقي. فإحساسها بالذنب يلازمها طيلة الوقت، لذا تشعر بأنها آثمة تستحق الاحتراق في الجحيم، وتستاء حين تسمع أحدًا يمتدحها، أو يشيد بها. فتختار دون وعي أن تلاحق من يسيء إليها، وتتجنب من يحسن التصرف معها، لأنَّها لا تصدقه.

وأنا واثقة أنَّ هذه الأفكار التي حفرت في ذهنها منذ طفولتها، لا يمكن محوها بسهولة حتى وإن دخلت دماغها على ظهر جرافة كي أزيلها. فهي ستواصل جريها وراء الشر والعقاب، لأنَّها لا ترى نفسها جديرة بما هو جيد، وسينتهي بها الأمر وهي تلعن أقدارها قبل أن تغادر هذا العالم في بؤس. ترى هل يمكنني تغير هذا القدر؟ من الواضح أنَّ أمامي معركة طويلة الأمد، لكن من سيسكبها في النهاية، أنا أم القدر؟ من الآن فصاعدًا عليّ أن أكون أكثر حزمًا معها. لقد تركتها لصمتها حين امتنعتْ عن الحديث، وتحدثت بدلًا منها، لكن حان لها أن تواجه بعض الحقائق عن نفسها، دون شفقة أو مواربة.. حان الوقت لكي يفتح المشرط جرحها المتقيح.

- أنت شخص سيئ، في الحقيقة أنت سيئة وشريرة، أليس كذلك يا آلا؟
- وأخيرًا أدركت أني فتاة شريرة بالفعل.
- لقد أدركت ذلك منذ البداية.
- وكيف أدركت ذلك؟
- كيف؟ ألا تذكرين ما فعلته هنا في أول زيارة لك؟
- أهذا ما يفعله الأشرار عادة؟
- هذا ما يفعله الأشخاص الذين لا يكّنون الاحترام لأنفسهم، ولا يتورعون عن إعلان شرورهم. وأنت قد قررت أن تقفي في صف الأشرار، وهذا القرار لن يتغير حتى لو اعترضت عليه كافة محاكم الجنايات.. حسنًا، إن كانت هذه إرادتك، فلك ما تريدين.

تنظر نحوي في غيظ وحقد، وبينما يختفي آخر بريق للأمل من عينيها، تومض شرارات الغضب. فيما أنصرف عن الاهتمام بها وكأني قد أنهيت مهمتي وعلى

وشك المغادرة، ألملم الأوراق التي على طاولتي وأرتبها في هدوء جليدي. تظن أنَّي سأتخلى عنها، فترمقني غير مصدقة. ثم تصرخ بذلك الصوت الطفولي الحاد، الذي يستفز المرء ويخدش الأذن حال سماعه.

- وهل أسأت لأحد سوى نفسي؟ حتى أنت تتهمينني وتحكمين علي كالبقية؟..

تعترض بشراسة وبنفس واحد، دون أن تبتر جملها بتلك الوقفات المعتادة. لكن ما يعتمل في صدري من مشاعر، معاكس تمامًا لهذا المشهد التراجيدي، وبالكاد أتمكن من إخفاء ضحكتي، وإلا استحالت الأمور إلى فوضى عارمة. وبدل ذلك أخاطبها بنبرة جدية وحاسمة لأبعد حد.

- استيقظي يا آلا!.. استيقظي وافتحي عينيك!..

يخرج صوتي هادرًا بقوة، تجعلني حتى أنا أرتعش من سماعه. تفتح عينيها على اتساعهما وهي تنظر إلي دون أن تعي بالضبط ما أعنيه. إنَّها خائفة. أستحضر في ذهني زيارتها الأولى، حين أمسكت بها من ذراعها، وصرخت فيها بالصوت ذاته لكي تنهض، وها هو المشهد يتكرر، لكني بدل النهوض أطلب منها الاستيقاظ.

حين أطلب منها فتح عينيها، تجاهد في إبقائهما مفتوحتين دون أن ترمش، وكأنّ إغلاقهما ولو للحظة خاطفة سيثير غضبي أكثر. من الواضح أنَّ هذه الفتاة معتادة على تلقي الأوامر، وتنفيذها مهما بدت قاسية أو جنونية.

- أجل أنا أيضًا اتهمك.. فأنت محامية وتدركين جيدًا أنَّ اتهام شخص بريء هو جريمة بحد ذاتها، أليس كذلك؟

- صحيح.

يعود صوتها إلى تلك النبرة الخافتة المتوجسة. إنَّها مذعورة تماما.

- لهذا السبب بالضبط فأنا اتهمك. لأنَّك ترتكبين ذنبًا حين تتهمين شخصًا بريئا. إنَّك ترتكبين هذا الذنب بحق نفسك يا آلا.

- بحق نفسي؟

- أجل، بحق نفسك. لقد حدثتني الكثير عن طفولتك، وقد استمعت إلى كل ما قلته بعناية. وأدركت ما قاسته تلك الطفلة الصغيرة، الضعيفة والبريئة. ولن أسمح لك بمواصلة اتهامها، لأنَّي أرغب لها أن تعيش حياة جميلة، وتنسى تلك الأهوال القاسية التي عانتها. أرغب في حمايتها، ومنحها المحبة، وأن أريها الجانب الجميل والواعد للحياة. أريد أن أخرجها من ذلك الجحيم بأسرع ما يمكن، لتسير على دروب جديدة، دروب تقودها نحو الحرية والسعادة. ولن أبيح لنفسي ضربها كما تفعلين، وكما اعتاد البقية أن يفعلوا.
- أهذا ما أفعله؟
- هذا ما تفعلينه بالضبط. تواصلين ضرب نفسك. لذا لا حاجة لك بالبحث عن أعداء، فعداءك لنفسك كاف ووافٍ.
- عدائي؟
- أجل عدائك لنفسك. والحقيقة إن كان لأحد أن يحترق في الجحيم، فلن يكون أنت بأي حال. وسواء رميت هذه الأسمال البالية المهلهلة أو واصلت ارتدائها، فلن يغير ذلك من هذه الحقيقة. قد تكون لك ذنوبك وخطاياك التي لا أحد منا معصوم عن ارتكابها بين الحين والآخر. ولكنك محامية وتعلمين جيدًا، أنَّ الذنب يشترط وقوعه بالفعل، فالرغبة في قتل شخص معين أثار غضبنا أو أساء إلينا، لا تعتبر ذنبًا، إلا إن تم تحويله إلى فعل، حينها يغدو ذنبًا كبيرا. كما أنَّ الرغبة في قتل شخص ما تراود الملايين على هذا الكوكب كل يوم. إنَّ أدمغتنا هي أكثر أعضاء جسدنا تعقيدا، وأكثرها غموضًا واحتواء على الأسرار. فقد تم خلقها ببراعة فائقة. ومهمتي تكمن في فك شيفرة تلك الأسرار. من الواضح أنَّ دماغك قد مارس معك بعض الألاعيب، ولكنه لم يفعل ذلك إلا مضطرًا. فما تعرضت له تلك الطفلة الصغيرة من ظلم، كان له آثار قاسية على ذهنها،

الذي شعر أنَّ كل هذه المعاناة ستسحقه، فاختلطت عليه الأمور بعض الأحيان، ليمزج بين الرغبة والواقع. أنا أحب تلك الفتاة الصغيرة التي تكرهين. لقد عانت الكثير على يد أمها التي كانت الوحيدة القادرة على حمايتها، فكان من الطبيعي أن تشعر بالنقمة عليها. وإن انتابتها رغبات سيئة حيال هذه الأم، فهو أمر خارج عن إرادتها، لأنَّ هذه الرغبات هي أكثر ردود الفعل الطبيعية لدى البشر، وهي تعبر عن نفسها بطريقة أو أخرى سواء أكنّا راغبين أم لا. لكنك قمت بإدانة تلك الطفلة المسكينة، دون أن تشعري بأدنى شفقة عليها. والآن كبرت تلك الطفلة لتصبح شابة ذكية، ناجحة في حياتها العملية. ومهمتك ليست في مواصلة إدانتها، بل عليك حمايتها.. فمهما كبر الإنسان يظل بحاجة إلى الحماية والرعاية. إنَّ أهم مسؤولياتنا في الحياة، تكمن في تقبل شخصيتنا، ومساندتها والاهتمام بها. إنَّها مشيئة الله قبل كل شيء، فقد جعل أرواحنا أمانة في أعناقنا، وأنت تقومين بخيانة أكبر أمانة في الحياة، وهو ما لا يليق بشخصيتك مطلقًا، فبدل أن توجهي أسلحتك نحو نفسك، حاولي أن تواجهي الحياة بها. لديك القدرة التامة على تقديم الكثير لنفسك ولمن حولك، اعملي وكافحي، واتركي أثرًا يدل على أنَّ فتاة اسمها آلا عاشت يومًا ما في هذا العالم. اعكسي الآية، فبقدر ما تحاولين إحباط نفسك، حاولي أن تعلي من شأنها. حاولي أن تشعري بالرضى عن نفسك وعما تفعلين. مكتبة .. سُر مَن قرأ

تستمع إلي في تركيز تام، وهي تزم حاجبيها بين الفينة والأخرى. ومع استيعابها لما أقول، ثم ملامسة كلماتي لمشاعرها وأحاسيسها، تسترخي ملامح وجهها المتشنجة، ويعود ذلك الوميض الخافت من الأمل ليضيء عينيها. تتنهد بعمق، ثم تستقيم في جلستها، وتبدأ بالسرد.

- كان الانتقال إلى أنقرة صدمة بالنسبة إلينا.. شعرنا وكأننا في المنفى، دون أن ندرك ما الذي يجب علينا فعله في هذه المدينة الغريبة.. قضت أمي أربعة

أشهر في السجن، قبل أن يتم إطلاق سراحها، وفي ذلك اليوم بالتحديد قام أبي باصطحابنا إلى أنقرة، وإلى ذلك البيت، دون أن يأخذها إلى منزل العائلة.. تغيرت أمي كثيرًا خلال فترة سجنها، وبدا عليها التقدم في السن حين خرجت، وكأنها قضت هناك أعوامًا.. وبالقدر ذاته زاد حقدها علي وعدائها لي.. لا أدعي أنَّها كانت تحبني أو تحتضني وتقبلني في السابق، لكنها لم تكن تشعر بهذا العداء الرهيب نحوي.. حين استقبلتها مع أبي، اتجهت نحوها لأرتمي في حضنها.. لكنها أبعدتني بيدها، ومنعتني من الاقتراب.. كانت قد استحالت إلى كتلة من الجليد.. حتى قامتها الفارهة بدت لي أقصر.. لقد اختفت تلك المرأة الجميلة، بطلتها المهيبة.. وحلت مكانها أخرى بظهر مقوس، ووجه شاحب، ونظرات باهتة.. وكانت عينها لا تتقدان سوى حين تتجهان صوبي.. تمامًا كثور هائج يرى أمامه خرقة حمراء اللون.. كانت صامتة، لا تطرح الأسئلة، ولا تحادث أحدًا منا.. جهز أبي البيت بكل ما نحتاجه تقريبًا.. لكن أمي فقدت اهتمامها بكل شيء.. كانت تقضي معظم وقتها جالسة على الأريكة التي في الصالون، وهي تجول بنظرات فارغة على ما حولها.. كما قام أبي بتسجيلي في المدرسة، واشترى لي الدفاتر والكتب وبقية حاجياتي حتى صدرية المدرسة.. وقد رافقني بنفسه إلى المدرسة في اليوم الأول.. كنت أشعر وكأني كائن فضائي في مدرستي الجديدة.. كان الأولاد يلعبون في صخب ومرح، والفتيات يلتقين في مجموعات خلال الترويحة، ويتبادلن الأحاديث.. فيما أظل وحيدة كالعادة، أراقب الجميع من بعيد، وأفكر كم هم سعداء ومحظوظون.. كانوا يأتون بمظهر جميل، وثياب نظيفة، والفتيات يعقدن على شعرهن بكلات جميلة.. والجوارب البيضاء في أقدام الجميع ناصعة.. وبين الحين والآخر كانت أمهاتهن يأتين إلى المدرسة، ليتبادلن الأحاديث مع المعلمين، ويضحكوا سوية.. أما أنا فكنت أعيش

وكأني لست طفلة كالبقية، أو حتى كائنًا بشريًا، وإنما شيئًا مختلفًا عن الجميع.. ورغم رغبتي في التحدث بطلاقة، اللعب، والضحك مثلهم، لكنني عجزت عن القيام بذلك.. كنت أنظر إليهم في ذهول، وهم ينظرون إلي بالطريقة ذاتها.. ومع انتهاء الدوام، كنت أعود بخطى متثاقلة إلى البيت، وكأني أرزح تحت أطنان من الحجارة.. لم أكن راغبة في البقاء في المدرسة، ولا العودة إلى البيت.. أدق الجرس رغمًا عني، وأتحاشى رفع رأسي، كي لا أشاهد تلك الكراهية التي تفيض من عيني أمي، وهي ترمقني، بل أتجه على الفور إلى غرفتي. لم يقدم لي أحد الطعام حين كنت أجوع، كانت أمي تطبخ ما تريد.. وتأمرني بالخروج إلى الحديقة حين تأكل.. كانت لا تسمح لي بتناول الطعام.. وما تبقى من أكلها.. ترميه أمام ناظري، فتأتي القطط لتناوله، فيما الجوع ينهشني.. وفقط حين تنتهي، كانت تسمح لي بالدخول.. فأبحث عما أسكت به جوعي، خبز بائت، قطعة جبن، أو أيّ شيء في البراد.. لطالما كانت شهيتي للطعام ضعيفة.. أما أبي فكان في عالم آخر، يشرب كل يوم حتى الثمالة، ولا يأتي سوى في وقت متأخر.. بعد تلك الحادثة، تقاسم الأخوة الميراث، واشترى عماي حصة أبي، ودفعوا له الثمن نقدًا.. وكان مبلغًا كبيرًا جدا.. اعتاد أبي أن يشتري حاجيات البيت أسبوعيا، دون أن يدقق إن كانت أمي تعد الطعام أم لا.. كما كان يعطيني مصروفي الخاص، فأشتري في اليوم الأول ما أكله في المدرسة، لكن حال عودتي كانت أمي تأخذ كل ما في جيبي من مال.. كانت تتمنى موتي جوعًا.. وحين خاب أملها، وأدركت أنَّ الجوع لن يتمكن مني، بدأت بضربي.. كنت أسمع صوتها فقط حين تقوم بضربي.. فتصرخ بكل قوتها مع كل ضربة، وهي تدعو علي بالموت.

يا إلهي! ما تقوله يكاد لا يصدق. لقد رويت لها الكثير من الحكايات، لكن أيًا منها لم تكن مأساوية إلى هذا الحد. أستمع إليها مغرورقة العينين، فيما تواصل في هدوء.

- "ليتني لم ألدك.. ليتني أنجبت حجرًا بدلا منك.. أنت الشيطان.. أنت عفريتة منحوسة.. كل هذه المصائب التي ألمت بنا، بسببك أنت".. هذا ما كانت تقوله لي وهي تضربني.. كانت تقول.. "أنت عقاب من الله.. فلتنقطع تلك الإصبع التي أشرت بها نحوي.. فلتنقطع وينقطع معها عنقك.. ولكن أنا المذنبة.. كان يجب علي خنقك لحظة ولادتك بيدي هاتين.. لقد خنتني وطعنتني في ظهري.. روحك فاسدة وقبيحة تمامًا كوجهك القبيح".. لم تكن آلام جسدي تشفي غليلها، كانت تريد لروحي أيضًا أن تتألم وتُسحق.. أحيانًا كنت أسألها في هلع.. هل ستقتلينني يا أمي؟.. لأنَّها كانت تضربني ضربات مميتة.. فكانت تقول لي أن أخبرت أباك، سأقوم بقتلك بالفعل.. وأخيرًا لاحظ أبي ما يجري، فأخذني إلى الطبيب.. حين نزعوا عني ثيابي، كان جسدي مغطًا تماما بالجراح والكدمات.. فأخرجني الطبيب من الغرفة، وتحدث إلى أبي لبعض الوقت عن الشرطة وحماية الأطفال وما إلى ذلك.

الشرطة مجددًا! يبدو أنَّ حياة هذه الفتاة لا تخلو من وجود الشرطة قط. من المؤكد أنَّ الأم تأثرت جدًا بمقتل الجدة أمام ناظريها في ذلك اليوم، لكن كل هذا الحقد على ابنتها وكل هذه الضغينة لمجرد أنَّها أشارت نحوها بإصبعها، وضربها بتلك الطريقة الوحشية، بل ورغبتها في قتلها، ليست منطقية على الإطلاق. فقد كانت آلا حينها مجرد طفلة صغيرة، كما أنَّها أخبرت الشرطة بما حدث أثناء التحقيقات، وأبعدت التهمة عن أمها. ورغم ذلك باتت هدفًا لحقدها. بدا واضحًا لي منذ اليوم الأول أنَّ ثريا تعاني من اضطرابات نفسية جدية، لكن لا يزال هناك الكثير الذي لا أعرفه عنها، الكثير من خبايا هذه الروح المريضة.

- شعر أبي بالخوف، فأخذ يعود باكرًا إلى البيت.. وكان أول ما يفعله حال وصوله، هو فحصي من رأسي وحتى أخمص قدمي.. ويلح علي في السؤال إن كانت أمي قد ضربتني مجددًا.. كنت ألوذ بالصمت، لأنَّي لو

أخبرته الحقيقة، سأتعرض لمزيد من الضرب.. وبدأ يرافقني إلى المدرسة صباحًا، ويعود إلى البيت قبل موعد عودتي.. لكن وجود أبي المستمر في المنزل أخذ يزعج أمي، فلم يعد بمقدورها التنفيس عن غضبها بضربي، كما أنَّ شرب أبي المتواصل للكحول كان مصدرًا آخر لانزعاجها.. لكن تلك كانت فترة راحة بالنسبة لي، فقد بات باستطاعتي الصعود إلى غرفتي وإقفال الباب على نفسي، لأدرس أو أقرأ كتابًا ما.. حتى أنِّي كنت أشعل الراديو الذي اشتراه لي أبي، واستمع إلى الأغاني بصوت منخفض.

- ألم يكن لديك أصدقاء؟
- لا.. فقد كان من المحظور عليّ الخروج من البيت إلا للذهاب إلى المدرسة.. كما كان محظورًا أن يزورني أحد في البيت.. ولم أكن وحدي في ذلك، فحتى أبي لم يكن من المسموح له دعوة أصدقائه للمنزل.. لقد حظرت علينا أمي كل هذه الأشياء.. بعد مدة بدأ أبي بالذهاب إلى عمله في مرآب الحافلات صباحًا.. لكنه واظب على العودة مساءً إلى البيت في وقت باكر، فكان يجلس إلى طاولة الطعام، بعد أن يعد لنفسه بعض المقبلات مع كأسه المعتاد.
- ألم تجلسوا سوية على المائدة لتناول الطعام؟
- لم يحدث هذا قط.. فإن قامت أمي بإعداد شيء ما، كانت تأكله في المطبخ لوحدها.. وأبي لم يكن يأكل ما تعده، فقد كان يفضل المقبلات وأطباق المازة الخفيفة.
- وماذا عنك؟ ماذا كنت تأكلين؟
- كانت كبريائي تمنعني من تناول ما تعده أمي، دون أن تسمح لي بذلك.. الأمر الذي لم تكن تفعله قط، لذا كنت آكل ما قد أجده في البراد.. في إحدى الليالي نشب شجار عنيف بينهما لسبب أجهله.. لكني أظن أنَّ أمي غضبت

لشربه الكحول في البيت.. واحتد الشجار، حتى أخذ أبي يضربها بعنف رهيب.. كنت في غرفتي حين سمعت الضوضاء، فقفزت من السرير.. صفعها أبي على وجهها بظاهر يده، فسقطت أمي على الأرض من قوة يده، ورأتني واقفة على رأس الدرج.. وتلاقت نظراتنا لوهلة قصيرة.. فشلني الرعب عن الإتيان بأدنى حركة.. تلك النظرات الرهيبة كانت قد رمقتني بها ذلك اليوم في الحمام، بالقرب من جثة السلطانة أسما.. خفت كثيرًا، وصعدت على الفور إلى غرفتي وأغلقت الباب.. توجست حينها حدوث أمر سيء، لكنني كنت عاجزة عن القيام بشيء.. بعدها بعدة أيام، كان الوقت فجرًا حين شعرت بثقل ما على جسدي.. فتحت عيني مذعورة، فشاهدتها تحدق نحوي في غضب وهي جالسة على بطني، تحاول أن تنزع ساعتي من يدي.. كانت تلك الساعة هدية من إدارة المدرسة لأنّي تفوقت وحصلت على المرتبة الأولى على مستوى المدرسة.. أصابني الرعب.. لكنها أخذت الساعة وأسرعت بالخروج.. وبدل اللحاق بها، نهض وأقفلت الباب بإحكام، لأنَّ نظراتها لي قبل أن تغادر كانت رهيبة.. في اليوم التالي عثرت على ساعتي في المدقة النحاسية.. لقد تركتها هناك، بعد أن حولتها إلى حطام.. وقد رأى أبي أيضًا الساعة المحطمة، فتشاجر الاثنان هذه المرة بسبب الساعة، وعاد لضربها مجددًا.. لقد غدا الشجار طقسًا يوميًا في بيتنا.. فحتى لو جلس أبي ليشرب كأسه في هدوء، بعيدًا عنها، كانت تختلق الذرائع لتثير غضبه، ويبدآن الشجار والعراك كعدوين لدوين.. وكان مستوى العنف في هذه المشاجرات يزداد بمرور الوقت، وكأنهما يتنافسان في القسوة والفتك ببعضهما.. وبمرور السنوات زاد أبي من حدة ضرباته إلى أن وصلت إلى درجة مميتة، تمامًا كما كانت تفعل هي بي.. كانت تصرخ بكل قوتها، وتولول، وتحاول التهجم عليه، وتحطم الأثاث، وتكسر الأبواب، فيغدو البيت ساحة حرب مدمرة.

- بما كنت تشعرين حينها؟
- كنت أشعر بالذنب دومًا.. وأقول لنفسي أنَّ كل ما يجري بسببي، فيما أراقبهم من خلف الأبواب المواربة وأنا أبكي.. كنت أقول أنَّه ما كان لكل ذلك أن يحدث، لو قامت أمي بخنقي لحظة ولادتي.. وأني منذ مجيئي إلى العالم، سببت الشقاء والتعاسة لكل من حولي.. كان من الممكن أن تودي تلك الشجارات العنيفة بحياة أحدهما، وهذا ما يزيد رعبي.. وبين الفينة والأخرى، كانت الشرطة تأتي إلى المنزل.. لأنَّ المارين في الطريق كانوا يبلغون الشرطة، إثر سماعهم صراخ الاثنين.. لكن أبي كان يتمكن من إقناعهم في كل مرة، فيغادرون بعد برهة وجيزة.. خاصة أنَّ أيّا منهما لم يكن ليشتكي على الآخر.

الشرطة مرة أخرى، والغريب أنَّ طبيعة عملها، تفرض عليها التواصل المباشر مع الشرطة باستمرار. ترى ما الذي تشعر به حين ترى الشرطة. أعترف مرة أخرى أنَّ حكايتها تفوقت على كل ما رويته له من قبل، فإلى جانب أنَّها مليئة بالأحداث الدرامية، يتخللها الكثير من التشويق والإثارة، ولا ينقصها عنصر الجريمة، وظهور الشرطة بين فينة وأخرى. تسند خدها الأيسر على يدها وهي تميل برأسها، وتسرح نظراتها نحو أبعاد لا مرئية، وأحيانًا تحدق أمامها في تركيز وكأنها تحاول إدراك ما تقوله، فيما تواصل السرد في خفوت بذلك الصوت الطفولي الحاد المرتعش.

- ما إن يغادر أبي المنزل، ونبقى لوحدنا حتى ترمقني بتلك النظرات الرهيبة وهي تقهقه.. ثم تمسك بي من شعري، وتلوح بي في الهواء قبل أن ترميني أرضًا، وتركل ساقي.. وحين كان أبي يرى الكدمات على ساقي، يضربها بعنف أشد.. حتى أنَّه كسر ذراعها مرة، فأخذها إلى المشفى، ووضعوا لها جبيرة.. فكانت المرة الأولى التي ساد فيها الهدوء منزلنا لعدة أشهر.. ورغم محاولاتها، لم تنجح في جعل أبي يضربها من جديد.. وكنت سعيدة بفترة النقاهة تلك.. فلم تكن قادرة على ضربي بيدها المكسورة، ورغم أنَّها

كانت تركلني أحيانًا، لكني غالبًا ما كنت أتمكن من الهرب، لأنَّها لم تكن قادرة على الإمساك بي.. وكنت أتمنى أن تلف الجبيرة ذراعها للأبد.. حتى أبي بدا مرتاحًا في تلك الفترة.. لكن فترة السلام تلك كانت سيئة على أمي، فقد بدأت تتحدث مع نفسها، وتتجول طوال الليل في أرجاء البيت صعودًا وهبوطًا.. وتوقفت عن تناول الطعام تقريبًا.. فكانت تقضي معظم الوقت تحدق في الفراغ، وتتحدث وكأنها تجلس قبالة شخص ما.. فخمنت أنَّ الشخص الذي تتحدث إليه ذو مكانة رفيعة جدًا، لأنَّها كانت تنحني حتى الركوع وهي تلقي التحية عليه، ثم تجلس للاستماع لما يقوله، ويداها متشابكتان على صدرها، وكأنها تصلي.. وتمتم بين الحين والآخر، لترد عليه بكلمات غير مفهومة.. كنت أراقبها في دهشة، ويسكنني رعب لا يوصف من تلك الأشباح التي تجول في المنزل دون أن أراها.. وفي ظلمة الليل كنت أموت هلعًا، من فكرة ظهورها أمامي للتحدث إلي أيضًا.. كنت أحكم إقفال بابي كل مساء، وأدنى صوت في المنزل، يجعلني أثب من سريري مرعوبة.. ومع تدهور وضعها النفسي، بات أبي يشعر بالقلق.. فتوقف عن ضربها تمامًا، وحتى إن حاولت افتعال شجار ما، أو التهجم عليه، كان يمسك بها من ذراعها برفق، ويجلسها على الأريكة، ويظل مستيقظًا طالما هي مستيقظة.. ومهما بلغت به الثمالة مداها، لم يكن يغفل عن مراقبتها ولو للحظة واحدة.

- ألم يخطر له أخذها إلى طبيب نفسي؟
- لقد حاول ذلك بالفعل لسنوات عديدة.. حاول كثيرًا.. كان يحدد لها مواعيد مع الأطباء لكنه يخفق في إقناعها بالذهاب معه.. حتى أنَّه ذهب بمفرده إلى أحد هذه المواعيد، حين رفضت الذهاب.. وقد وصف لها الطبيب بعض الأدوية، التي رفضت أمي تناولها بصورة قاطعة.. فأخذ يضع لها بضع قطرات من الدواء في كأس الماء خلسة.. لكنها سرعان ما

اكتشفت ذلك، وأخذت تصرخ فيه.. "أتريد قتلي؟".. وهاجمته في حدة.. فأسقط في يده.. لكنه حين أدرك أنَّ كارثة جديدة ستحل بنا ما لم يتصرف بسرعة.. اتصل بمشفى للأمراض النفسية، فتقرر وضع أمي في المشفى وبقائها فيه حتى تتحسن.. كانت فرحتي لا توصف حين أخبرني أبي بذلك، لأنَّي سأرتاح منها لبعض الوقت.. اعترضت أمي على هذا القرار أيضًا، لكن أبي كان مصممًا هذه المرة، وقد صارحها بالقول.. "ستدخلين المشفى، سواء وافقت أم لم توافقي".. كانت حالتها متدهورة جدًا في تلك الفترة.. تتنفس في لهاث مسموع، وترمقنا بنظرات نارية، كما كانت عاجزة عن الجلوس في مكان واحد لأكثر من بضع ثوانٍ.. كانت المدارس مغلقة بسبب العطلة الصيفية، لذا بقيت في المنزل طوال الوقت، وأنا أراقبها في رعب مستمر، ولا أدري ما علي فعله.. في ذلك الصباح كانت سيارة الإسعاف ستأتي، لتأخذها إلى المشفى.. خرج أبي باكرًا من المنزل، ومعه بعض الأوراق الرسمية والاستمارات.. لكنه أبلغها أن تستعد قبل خروجه.. وأمام إصرار أبي، أدركت أنَّ السبل تقطعت بها.

- بقيت معها لوحدك ذلك الصباح؟
- بقينا لوحدنا.. وكان قلبي يكاد يخرج من صدري هلعًا، وأنا أراقبها في ذعر.. ذعر لا أستطيع وصفه.. شاهدتها تدخل الحمام لتتوضأ، ثم أخذت كرسيًا إلى الحمام، ومن ثم رأيتها تحمل حبلًا ثخينًا.. فظننت أنها ستقوم بشنق نفسها، وأخذ جسدي كله يرتعش.. لكنها استدعتني بعد لحظات.. كان صوتها هادئًا كما لم يكن منذ سنوات طويلة.. ترددت لوهلة قصيرة، ثم اتجهت نحوها في هدوء وكأني منومة.. وضعت الكرسي في زاوية الحمام وأمرتني بالجلوس عليه.
- وهل جلست؟
- جلست.

لما أطاعتها، وجلست على ذلك الكرسي؟ ألم تشعر بالخوف؟

- كانت تبدو هادئة بطريقة مريبة.. وكأن الضيق الذي تعاني منه طوال الوقت قد تلاشى، وانتهى في غمضة عين.. حتى صوتها استعاد تلك النبرة المعتادة القديمة.. لم أرغب في الجلوس بداية، لكنها جرتني من ذراعي وأجلستني رغمًا عني.
- ألم تحاولي المقاومة؟ ما الذي دفعك إلى إطاعتها بتلك الطريقة؟
- لا أدري.. فلم يخطر لي قط أن أقاومها.. حتى حين كانت تضربني كنت أستسلم لها.. كل ما كنت أفعله هو حماية رأسي بكلتا يدي، وأنا أوقف أمامها بكل خنوع لتضربني كيفما تشاء.

على الفور تعود إلى ذهني صورتها في أول زيارة لها إلى المركز، فحين حاولت أخذها إلى غرفتي، سقطت أرضًا، وما إن اقتربت منها حتى وضعت يديها على الفور فوق رأسها، فتوقعت حينها أنَّ هذه الفتاة معتادة على تلقي الضرب منذ الطفولة، وقد صدق توقعي. لكن الغريب في حالتها أنَّها لا تحاول الهرب من الضرب، أو حتى من الموت. فرغم معرفتها أنَّ والدتها مختلة ذهنية، لكنها تطيعها دون مقاومة، وتجلس حيث أرادت لها. يبدو أنَّ غريزة حماية الذات الموجودة لدى كافة البشر، قد أصابها الضمور حدّ التلاشي عند هذه الفتاة.

- كان من المحتمل أن تقوم بقتلك هناك، ورغم ذلك فقد أطعتها، لما لم تحاولي الهرب؟
- لكنها لم تقتلني.
- ولكن ماذا لو فعلت؟
- كنت سأرتاح حينها.
- وسط كل أولئك الأعداء، ألا يجدر بك أن تحمي نفسك يا صغيرتي المسكينة؟ فلنرجئ الحديث في هذا الشأن إلى جلسة أخرى، ثم ما الذي حدث؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- بعد أن جلست على الكرسي، ربطت يدي من الخلف بإحكام.. ثم لفت الحبل حول جسدي، وربطتني بقوة عجزت معها عن التحرك نهائيًا.
- ألم تحاولي المقاومة فيما هي تربطك بتلك الطريقة؟ أكاد لا أصدق ذلك!
- سأروي لك اليوم الكثير مما ستعجزين عن تصديقه.. فهل أنت مستعدة؟

سؤال آخر من أسئلتها الغريبة! ترى ما الذي ترمي إليه؟ أستشف خيطًا رفيعًا من الاستهزاء في نظراتها، فيما ترمقني بتمعن وترى تأثري العميق بتفاصيل قصتها. وكأنها مهتمة بتفحص مشاعري، وإخضاعي لاختبار جديد، أكثر من اهتمامها بتأثري وتعاطفي معها.

- ثم خرجت متجهة نحو المطبخ، وعادت ومعها سكين.. حينها دب في قلبي رعب هائل، وارتعدت أوصالي.. وقلت في نفسي، ستقطعني وأنا حية إلى شقف ونتف.. وبدأت بالبكاء.

هذا ما كنت أخشاه بالضبط، فشخص مثل ثريا يمكن له القيام بكل شيء وهو تلك الحالة. لكن جلوس آلا أمامي الآن، يعني أنَّها نجت. ورغم ذلك فمهما كانت الوسيلة التي نجت بها، فهي لا تعدو أن تكون سوى ضرب من ضروب الحظ، فهل كانت ترغب في الموت حقًا؟

- وقفت قبالتي، وهي تحدق مطولًا في عيني.. ثم أخذت تقلب السكين التي في يدها، قبل أن تضعها مباشرة تحت ضوء اللمبة المعلقة إلى السقف.. وبدا وكأنها تحاول رؤية صورتها المنعكسة على سطح السكين المصقول.. وتشاهد انعكاس الضوء على نصله الحاد اللامع في انبهار.. حاولت عدة مرات الوقوف على رؤوس أصابعها، وتمرير نصل السكين في الخطاف المعلق إلى السقف، لاختبار ثباته.. ثم خرجت على عجل من الحمام، والسكين لا تزال في يدها.. حين عادت كانت تحمل كرسيًا آخر، وضعته تحت الخطاف مباشرة.. ثم اتجهت نحوي لتقف خلفي،

والسكين لا تزال معها.. حين رأيتها تقترب، زاد ارتعاشي.. لكنها انحنت علي، وقطعت الحبل أسفل عقدة يدي.

استمع إليها غارقة تمامًا في هذه المشاهد المرعبة، ومع كل كلمة جديدة، تتجمد أوصالي هلعًا.

- أخذت الحبل الذي كان طويلا بما يكفي، وبدأت تعقده أمام ناظري.. ثم صعدت على الكرسي، ومررت طرفه في الخطاف.. حين أنهت ذلك، صنعت عقدة لفتها حول عنقها.. وكانت تفعل كل ذلك وهي تحدق في عيني مباشرة، دون أن ترفع نظرها عني.. ثم بدأت الكلام.

ستشنق نفسها أمام ناظري ابنتها على ما يبدو! يا إلهي ما كل هذه الوحشية؟

- أتظنين أنَّي لم أرَ ذلك البريق في عينيك، وأنت تحملين المناشف ذلك اليوم؟

لا أصدق! يتغير صوت آلا فجأة. لقد اختفى ذلك الصوت الطفولي الحاد المرتعش، وحل مكانه صوت جهور قوي. إن كانت تملك هذه الطبقة في صوتها، لما لا تتحدث بها، بدل تلك النبرة الطفولية المرتعشة؟

- لقد كنت ترغبين في قتل تلك اللعينة أسما، أكثر مني.

هذه كلمات أمها، كلمات ثريا، وهي تتكلم الآن بصوتها. لكن ليس من المفترض أن تتحدث هذه الفتاة بصوت أمها، هناك أمر غريب، فأي من هذه النبرات هو صوتها الحقيقي؟ لقد اختلطت الأمور في ذهني بشكل رهيب. ما كان على هذا التشويش أن يحدث في أكثر أجزاء القصة تشويقًا ورعبا.

- لكني فشلت.. لم أستطع.. رغم ذلك فقد أشرت نحوي بإصبعك اللعينة تلك، كأفعى سامة.. واتهمتني بالجريمة.

أجل إنَّها ثريا التي تتحدث، فيما هي واقفة على الكرسي، والحبل ملتف حول عنقها. أراقب وجه آلا في حيرة، ولكن في انتباه شديد، دون خشية أن تزعجها نظراتي، لأنَّها لا تراني بكل بساطة. فقد تغيرت حتى تقاطيع وجهها، وكأنها تحولت إلى شخص

آخر. وليس من الصعب تخمين الشخص الذي تحولت إليه، فهي لم تعد آلا بعد الآن، إنَّها ثريا. لم تعد تسند خدها بيدها اليسرى، بل إنَّها تلف يدها اليمنى حول عنقها.

- حين أشرت نحوي بإصبعك تلك، أعلنت للجميع بأني قتلت أسما.. ما كان عليّ أن أتركك لتعيشي طوال هذه السنوات.. كان يجب قتلك منذ البداية.. كان عليّ أن أقتلك، ومن ثم أقتل نفسي.

ما تقوله صحيح، فمن الواضح أنَّ ثريا كانت قد عقدت العزم على قتل ابنتها منذ عدة سنوات. وقد حاولت ذلك بمختلف الطرق، عن طريق تجويعها تارة، وتارة ضربها بطريقة بالغة الوحشية. إنَّ بقائها حية حتى الآن، لهو معجزة بحد ذاتها.

- لقد أمرني النبي الكريم، بذلك مرارًا.. قال لي اقتليها وارتاحي منها، وإلا ستحترقين في الجحيم إلى الأبد.. لقد قال لي أنَّي أنجبت شيطانًا لعينا، وعليّ التخلص من قذارتي بنفسي.. حاولت ذلك كثيرًا دون أن أنجح.. فلم أتمكن من قتل أسما بيدي، ولا من قتلك أنت.. ولكن الله منحني قوة هائلة، ففي اللحظات التي كنت أفكر فيها بالقضاء عليها، سقطت ميتة.

إنَّها إحدى الاضطرابات الشائعة، فثريا تتوهم لنفسها مكانة عظيمة، وتظن أنَّ النبي الكريم يظهر أمامها ويحدثها، وليس من المستبعد أنَّها أضفت على نفسها صفة القداسة أيضًا. وبدا لها موت السلطانة أسما في ذلك اليوم، وكأنه استجابة إلهية لرغباتها، ما جعلها تشعر بأنها المسؤولة عن موتها، وإن كان بالنية لا بالفعل.

- ربما تعتقدين أنَّي ضعيفة ذليلة، لكني قمت بقتلها.. كان موتها استجابة لرغبتي.. والآن تنتابني الرغبة ذاتها نحوك.. لذا ستموتين أنت أيضًا.. لقد مات أبنائي الحقيقيون.. ماتوا أبرياء دون أن يقتلوا أحدًا، وغادروا هذا العالم في هدوء.. أما أنت، فلعنة القتل محفورة على جبينك، إنَّها قدرك، ولن تتمكني من محوها مهما حاولت.. فوالدك قاتل، وأمك كذلك قاتلة.. وهذا ما ستصبحين عليه، قاتلة، أو مقتولة.. إما ستقتلين أحدا يومًا ما، أو سيقتلك أحد.. لا مفر أمامك من هذا المصير.

لقد باتت أعراض مرضها الآن أكثر وضوحًا. فهي كانت تسمع أصواتًا، وتتوهم رؤية أشخاص منذ فترة طويلة. ويبدو أنَّ الشخص الذي كانت تنحني أمامه هو النبي الكريم كما كانت تظن. إنَّه أحد الأمراض النفسية الشائعة، إلى جانب أبعاده بالغة الخطوة على الشخص ومحيطه في آن. فهؤلاء المرضى هم الأكثر قابلية لارتكاب الجرائم، لأنَّهم يتلقون الأوامر بشكل مباشر من شخصية مقدسة كالله، أو الرسول. وهم مقتنعون أنَّ قيامهم بقتل الشخص أو الأشخاص الذين تمت الإشارة إليهم، مَهمة في غاية القداسة، لأنَّها ستنقذ العالم من شر عظيم.

هذه الأعراض كلها عانت منها والدة آلا، ولكن ماذا عنها؟ لقد بدلت شخصيتها، متقمصة شخصية أمها، فهل هذا مجرد عارض عابر أم أنَّ له جذورًا أكثر عمقًا في ذهنها؟ هل انتقل المرض بعد موت الأم إلى ابنتها؟

- سأعيش داخلك طالما بقيت حية تتنفسين.. لا وجود لك بعد الآن.. ستقومين بما لم أستطع القيام به، ثم ستتجهين إلى المكان الذي سأذهب إليه الآن، لنحترق سوية هناك.. فهذا قدرنا الذي لا مفر منه.. هذا ما أخبرني به نبينا الكريم.. هيا لنموت سوية.. فتلك اليد لم تعد يدك بعد الآن، إنَّها يدي.. وذلك الإصبع هو إصبعي.. ومن تجلس على الكرسي الآن، ليس أنت، بل أنا.. لم يعد لك وجود، لأنَّي سآخذ مكانك.

"لم يعد لك وجود، لأنَّي سآخذ مكانك" يا له من حكم رهيب! لكن كيف لم أدرك ذلك منذ البداية؟ فهي تواصل ارتداء ملابس أمها لهذا السبب، أحقًا تقمصت شخصية أمها؟ أهذا ما تظنه حقًا؟ إن كان الأمر كذلك، فيا لها من تعسة مسكينة!

لقد احتفظت بمفتاح اللغز حتى المشهد الختامي. يمكنني الآن فهم سؤالها الذي طرحته قبل قليل بصورة أوضح؛ "*سأروي لك اليوم الكثير مما ستعجزين عن تصديقه.. فهل أنت مستعدة؟*" وقد كانت محقة في تحذيريها. فلم أكن قط مستعدة لكل هذه القسوة. إذًا فقد كانت تضحك بينها وبين نفسها مستهزئة بي؟ وهو تصرف طبيعي لا ألومها عليه.

كانت المسكينة مربوطة اليدين إلى الكرسي، تسمع ما تقوله أمها في رعب. أمها التي وقفت على الكرسي ولفت الحبل حول عنقها، لتموت أمام ناظري ابنتها. هذا ما قوض آخر أسسها النفسية، وجعلها تنفر من نفسها ومن الحياة إلى هذا الحد. لقد عاشت تلك اللحظات الرهيبة وحدها، دون أن يكون هناك من يساعدنها، أو يحميها من كل هذه الوحشية، ويمنحها بعض الحماية والأمل.

تومض عيناها ببريق لست معتادة على رؤيته، تنظر نحوي لكنها لا تراني. يتعين علي القيام بشيء ما، وإخراجها من هذا الكابوس الذي يسحبها نحو الأعماق كبحر رمال متحركة. يجب أن تغادر ثريا وتعود آلا، كي نناقش كل ما تعرضت له، ونتبادل الآراء حوله، كما اعتدنا أن نفعل. يستمر ذلك الوميض في عينها، ولكنها لا تبدو تلك الفتاة العاجزة المسكينة التي كانت عليها قبل قليل، فشرارات الحنق تبرق في عينيها، كإعصار يزداد قوة بزيادة دورانه، وقد يهجم في أيّ لحظة.

تحيط عنقها الآن بكلتا يديها، وكأنّ حبلًا لا مرئيًا يلتف حوله، فتحاول فكه والتخلص منه بطريقة ما. يا للفتاة التعسة! إن كانت تظن نفسها ثريا الآن، فسيظل الحبل ملتفًا حول عنقها، حتى يخنقها في النهاية. علي أن أخلصها من هذه اللعنة، وأن أتصرف على الفور لكي تستعيد وعيها وشخصيتها الحقيقية.

تتجه نظراتي صوب إبريق الماء الزجاجي والكأس اللذين يلازمان طاولتي دومًا. أنهض على الفور، وأملأ الكاس ببعض الماء، وأتجه نحوها. لا تراني في البداية، لكني أصر عليها لتشرب، وأنا أكلمها بنبرة حازمة. تنظر نحوي بدهشة وكأنها استفاقت من حلم طويل، وتبعد يديها عن عنقها، لتأخذ الكأس من يدي الممدودة نحوها. تحاول عدة مرات أن تشرب الماء، لكنها تعجز عن ذلك، فينساب على ذقنها وثيابها. فأمرر يدي برفق على شعرها الذي بات مبللًا بفعل العرق. فيما تواصل النظر إلي بدهشة.

- اشربي الماء، ستشعرين بالتحسن.

فتشربه في جرعة واحدة. أستعيد الكأس من يدها، وأبدأ الكلام، حتى قبل أن أجلس في مكاني.

- أعترف أنَّ ما عشته كان أكثر قسوة من كل ما تخليت، فقد رأيت والدتك تموت أمام ناظريك، وأنت مربوطة على ذلك الكرسي، وحيدة وعاجزة. لقد كانت مهمة التعرف على شخصيتك صعبة بالنسبة لي منذ البداية، لكني الآن بتّ أفهمك بصورة صحيحة.. كيف تحملت أكتافك الفتية الصغيرة كل ذلك الثقل الرهيب طوال هذه السنوات؟ الآن فقط أدرك كم أنك قوية من الداخل، وكم أسأنا كلنا فهمك. لكن كل ما حدث، بات جزءًا من الماضي عليك تجاوزه، والمضي قدمًا.. عليك العودة إلى الحياة يا آلا.

تستمع إلي دون أن تظهر أدنى انطباع أو تأثر، لكن ذلك الوميض الغريب في عينيها يخف بالتدريج. أعتقد أنَّها باتت قادرة على رؤيتي، وفهم ما أقوله لها. ورغم ذلك تبدو وكأنها صورة تجمدت في إطار الماضي. علي إخراجها من ذلك الإطار، وبث الحياة فيها مجددًا.

- أعتقد أنَّي بت أفهم ما كانت أمك تحاول فعله. لقد تفاقم مرضها بدرجة كبيرة، وقد شهدتِ بنفسك على رؤيتها لشخصيات وهمية، فهي كانت تعتقد أنَّها ترى الرسول الكريم وتتحدث إليه. لكنها أعراض شائعة، غالبًا ما تتكرر لدى كافة الذين يعانون من هذا الاختلال النفسي. إلا أنَّ ما عشته ذلك اليوم في الحمام، لا يني يثير دهشتي، كلما فكرت فيه. ورغم كل شيء فأنا أهنئك، وعليك أن تعرفي أنَّ تهنئتي ليست بالأمر الذي يسهل الحصول عليه، لكنك تستحقينها بكل جدارة. فرغم ما حدث، ها أنت هنا. وسنتغلب على كل ما حدث سوية.. لكن لما تنظرين إلي بهذه الطريقة؟

لا تجيب، ولكنها تواصل النظر نحوي، فأواصل الكلام بدوري. أحاول لفت انتباهها وتشجيعها، لكي أستعيدها، وأرجعها إلى غرفتي، إلى الحاضر، إلى اليوم.

فمها مفتوح قليلًا، وعيناها باهتتان، ولا إشارات حتى الآن على خروجها من ذلك الإطار.

- وحده الله يعلم كم كانت تلك اللحظة رهيبة، خاصة وأنك مقيدة لا تستطيعين الحراك. ألم يعد والدك إلى البيت يومها؟

تقابل سؤالي بصمتها السابق، لذا أحاول البحث عن السؤال المناسب الذي قد يدفعها للكلام مرة أخرى، ولكن ما هو السؤال المناسب في هذه الحال؟ أين كنا قبل أن تتوقف؟ وماذا كان آخر ما قالته بالتحديد؟ أجل، كانت تخبرني بما قالته لها أمها وهي واقفة فوق الكرسي. وما إن توقفت عن الكلام، حتى أحاطت عنقها بكلتا يديها، وكأنها تحاول التخلص من ذلك الحبل الملتف حوله. ذهنها لا يزال عالقًا في ذلك اليوم، في تلك اللحظات. لا بد وأنَّ تلك المشاهد الرهيبة تتجسد أمام ناظريها في تواتر هذياني لا يتركها بسلام قط.

ولكن ألا أسعى أنا أيضًا للهرب من ذلك المشهد؟ أليست محاولاتي في لفت انتباهها، وإعادتها للحاضر نابعة من عدم رغبتي في سماع المزيد؟ ليس لدي القدرة على سماع ما عايشته هذه المسكينة. أجل، هذه هي الحقيقة. علي التحلي بالجرأة المطلوبة، وفعل ما يتوجب عليه فعله دون مزيد من المماطلة. يجب أن أسمع القصة حتى النهاية، مهما كانت قاسية. لا حيلة لي في الأمر، فهذا هو عملي.

- أمك كانت مريضة جدًا، وهذا يتضح أكثر من خلال ما أخبرتك به. لقد قالت بأنك ستتقمصين شخصيتها، ولكنها فكرة غير واقعية على الإطلاق، فأنت آلا ابنة ثريا. هي المريضة ولست أنت. حتى إن كنت ترتدين ثيابها، فلن تصبحي هي على الإطلاق. وكل ما قالته لك، مجرد كلام ينم عن عقل مريض، لا صلة له بالواقع. والذي لن ألومك على تأثرك الشديد به، لكني أريد منك أن تتجاوزيه، خاصة بعد مرور سنوات، فقد كبرت وأصبحت شابة، ذات شخصية قوية، لديها مستقبل واعد. وقد أتيت إلي كي نضمد تلك الجراح معًا، وهذا ما سنفعله سوية، فلا تخافي

لأنَّ ما حدث لن يتكرر، وسأظل إلى جوارك طالما أنَّك بحاجة إلي.

وأخيرًا تدب الحياة في عينيها، فتحني رأسها، وهي تتنفس بعمق. يبدو أنَّ لكلماتي أثر جيد على نفسها، فقد استرخت بعض الشيء. ينتابني الفضول لمعرفة الصوت الذي ستستخدمه، حين تعاود الحديث مرة أخرى. وما أتوقعه هو أن تتحدث بصوت آلا المعهود، طالما أنَّها بدأت تعود للحاضر رويدًا رويدًا. لكنها إن واصلت التحدث بصوت أمها، فهذا يعني أنَّ أمامنا دربا طويلًا وشاقًا.

تحاول معاودة الكلام، لكن كلتنا تلاحظان عجزها عن استعادة صوتها، تتنحنح عدة مرات لتصفي حلقها، وتتنفس بعمق، وتبدأ الكلام، دون أن ترفع رأسها.

- أطاحت بالكرسي بركلة من رجلها.. فارتطم بالجانب الأيمن من رأسي قبل أن يسقط على الأرض.. وبدأت دماء دافئة تتدفق بغزارة من الجرح.. أغلقت عيني لوهلة، لكني لم أفلح في إبقائها مغلقتين طويلًا.. لو لم تكن يداي مربوطتان لربما استطعت أن أغطي بهما عيني وأذني، أو حتى لتمكنت من الهرب من ذلك المكان.. لكني كنت أجلس في عجز تام.. أشاهد وأسمع كل شيء.. وهي أيضًا كانت تشاهد الرعب الذي استبد بي، والانهيار الذي أصابني، فيما تلفظ أنفاسها الأخيرة.. ربما لن تصدقي، لكنها ماتت وهي تضحك، دون أن ترفع ناظريها عني.. مستمتعة بمعاناتي، وكأنها تقول لي لا تنسي ما قلته لك.

يا للوحشية والقسوة التي تعتمل في النفس البشرية! أشعر بالقشعريرة وأنا أستمع إليها، لكن ذلك لا يمنعني من تمييز الاختلاف الذي طرأ على صوتها، فهذا ليس صوت آلا ولا صوت ثريا، ترى من التي تتحدث الآن؟ لديها صوت هادئ وناعم كالحرير. أحدق فيها بتمعن شديد، وأنا أراقب تعابير وجهها، فتختلط الأمور في ذهني المشوش أكثر، والمشكلة أنَّي لا أستطيع أن أطرح عليها أيّ سؤال، فحالتها أوهى من أن تسمح لها بفهم ما يقال أو الخوض في نقاش نفسي. تبدو

هادئة بشكل غريب، وهي تعقد يديها في حجرها، وكأن جسدها الرهيف بات أصغر حجمًا، كتفاها منسدلان في استرخاء، كرجل الثلج الذي تباغته الشمس، فيقبع في هدوء مستسلمًا لذوبانه حتى الفناء. ولا أدرك أنها تبكي، سوى حين ألحظ قطرات دموعها تتساقط بصمت في حجرها. إنَّها دموع تتسلل من وحدتها الرهيبة التي تعصف بروحها كرياح السموم.

لقد شاهدت هذه المسكينة على صغر سنها فاجعتين، الأولى كان مقتل جدتها، والثانية موت أمها، ولسوء المصادفات أنَّ الحادثين وقعتها في الحمام. لكن الشكوك تحوم حول هذه المصادفة في ذهني؛ أحقًا كانت مجرد صدفة، أم أنَّ ثريا اختارت الحمام عامدة لتودع الحياة فيه؟ فقد مرت قبل ذلك بسنوات، بتجربة مماثلة في الحمام، تلك التجربة التي أظنها حفرت في ذاكرتها حتى النهاية، وغيرت حياتها بطريقة دراماتيكة.

لأتمكن من فهمها بصورة أفضل، عليّ أن أحفز كامل مشاعري لإدراك الألم الذي عانت منه ولا تزال. ترى هل يخمن أولئك الذين يتخذون القرار باختيار هذه المهنة، ما قد ينتظرهم في حياتهم المهنية؟ مدى المعاناة التي عليهم مشاركتها؟ لطالما كنت أنظر لمن يتلذذ بالألم، بعيون متسعة من الدهشة والحيرة، دون أن أدرك أنَّ الألم يحتل مكان الصدارة في حياتي طوال هذه السنوات.

أنتظر بصبر.. باحثة عن إشارة تدل على ارتياحها وقدرتها على معاودة الحديث، ترى متى سأتلقى تلك الإشارة؟ لا أريد أن أزعجها، أو أرغمها على الكلام. تظل على هذا الحال لبعض الوقت قبل أن ترفع رأسها مجددًا ببطء. تجيل نظرها فيما حولها أولًا، ثم تحدق في وجهي بتمعن. تبدو على وجهها تعابير من نسي لوهلة أين هو وماذا يفعل، فيحاول التركيز ليستعيد وعيه. ثم تمرر كفيها على ذراعيها وجذعها، ترى ما الذي تحاول فعله؟ تبدأ بسحب كم سترتها الصوفية الرقيقة، التي استحال سوادها إلى لون مغبر، ثم تنهض من مكانها وتمد نحوي كم السترة الذي نزعته عن ذراعها، وفيما أراقبها في ذهول، تقرب الكم من أنفي، وكأنّها

تطلب مني شمها. ودون تفكير، أنهض منحنية على الطاولة لأقترب من كم السترة وأشمه. رائحته مزيج من عطر نسائي قديم، مع نفحة من العفن، ورائحة التخزين الطويلة ولفحة من رائحة غبارية. أرتعش قليلًا، وأشعر وكأني لا أتنشق رائحة السترة، بقدر ما هي رائحة جثة في قبرها، فأتراجع مبتعدة رغمًا عني.

لا يفوتها الضيق الذي شعرت به، وعلامات الاشمئزاز المرتسمة على وجهي، فتنظر إلي بطرف عينها، وهي ترفع أحد حاجبيها مستهزئة، وكأنها تقول لي: "أنا أعيش مع هذه الرائحة منذ سنوات". ثم تجلس كلتانا في مكانها.

- منذ سنوات وأنا أتنشق هذه الرائحة، وأعيش معها كل لحظات حياتي.

إنَّها سترة أمها التي ترتديها منذ سنوات، لتظل الرائحة عالقة ليس فقط بأنفها، بل وبروحها أيضًا. أحتار فيما يجب علي قوله، أو حتى التفكير فيه، لكن شعورًا قاتمًا، موجعًا، وموحشًا بطريقة عصية على الوصف، يخيم كغيمة سوداء ثقيلة على أعماق روحي. أشعر بمزيج من الضيق والقلق إزاء هذا الشعور، دون أن أتمكن من التخلص منه.

فيما تهيم نظراتها مجددًا في ذلك العالم اللامرئي، لتواصل إتمام قصتها من حيث توقفت:

- بعد مدة من الوقت انقطع الحبل، وارتطم ذلك الجسد الضخم بالأرض مدويًا.. ومع سقوطها ارتطمت بي، فسقطت مع الكرسي أرضًا.. وهكذا استلقينا متقابلتين، وكأننا نحتضن بعضنا.

تتحدث بتلك النبرة الناعمة الهادئة، لكني أشعر بعدم قدرتي على سماع المزيد، فالعتمة تكاد تبتلع روحي كلها. أبدأ بعد حبات المسبحة التي أحملها بين يدي: واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة.. خمسة أربعة ثلاثة اثنان واحد.. لا زالت تتحدث، واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة.. يا إلهي! إنَّها لا تصمت.. واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة.. هذه المشاهد التي لا أقوى حتى إلى مجرد الاستماع إليها، عاشتها هذه الفتاة بكل تفاصيلها المرعبة، وقد كانت أصغر سنًا حينها. هذه هي

حقيقة الإنسان، فهو مخلوق أقوى مما نتوقعه، ولديه القدرة على مواصلة الحياة والتأقلم رغم كل شيء. فغريزة البقاء أقوى من كل الآلام. إذًا لما لا تنطبق هذه القاعدة علي؟ لما أضعف أمام عذاباتها وأحاول الهرب؟ أغلق كفي على المسبحة التي كنت أعدّ حباتها لا شعورًا، وأغرز أظافري في باطن كفي بكل قوتي، أشعر بالألم، ولكنه ألم محمول إزاء ذلك الذي ينهش أعماقي دون رحمة. أنفض عن ذهني كل هذه المشاعر، لأسترد طاقاتي وأنحني قليلًا نحو الأمام، وأنا أستمع إليها بكل تركيز مرة أخرى.

- لا أدري على وجه التحديد كم مكثنا على تلك الحال، مستلقيتين معًا، ولكن بدا لي وكأن الزمن قد توقف.. وكأننا بقينا هكذا لعصور لا تنتهي.. لطالما تمنيت أن يأتي أحد ويزيل من ذاكرتي تلك اللحظات.. أن يأتي حاملًا مشعلًا، ليحرق ذلك الجزء من دماغي.. فأتنشق رائحة لحمي المحترق.. أتنشق رائحة الشياط حتى أعمق خلية في جسدي.. وأنا أتنهد مرتاحة، لأنَّ ذكرياتي احترقت أخيرًا.. وتلاشت.. ولن تعود إلي تلك اللحظات مرة أخرى.

أنقل المسبحة إلى يدي اليمنى، وأضغط عليها بكل قوة، وكأني أحاول التنفيس عن كل هذا الوجع الرهيب الذي استمعت إليه بوجع يدي. لقد قالت لها أمها "*سنحترق سوية*"، لكنها اختارت الاحتراق بمفردها، تريد أن تحترق ذاكرتها، وتتنشق هذه الرائحة كي تتحرر. تتفرق تلك السحب القاتمة التي كانت تجول في روحي، لتحل مكانها ألسنة اللهب، فأشعر بكل ما في داخلي يحترق. أنا طبيبة نفسية، وأدرك تمامًا ما الذي يجري الآن، إنَّها محاولة ذاتية للمرور بتجربة الألم التي عاشتها، كي أتمكن من فهم ما تعانيه. حينها سأمدّ يدي نحوها بقوة أكبر، لأسحبها معي نحو الأعلى. لأخرجها من ذلك الجحيم، من تلك النيران الهائلة التي تكاد تحيل عالمها كله إلى رماد، لآخذها إلى عالم من النور والأمان، لكن الكارثة أنَّ النيران تكاد أن تبتلعني معها، فأحترق أنا أيضًا.. إنَّنا "*نحترق سوية*".

- تلك النيران التي تحرق روحي طوال هذه السنوات، لا هي خمدت ولا أحرقت ذاكرتي.. ربما لهذا السبب حاولت كتم ما أعانيه دون أن أشاركه مع أحد.. لم أكن راغبة في إذكاء تلك النيران أكثر.. لكنها الآن استعادت كامل جبروتها، وهي تحرق كل ذرة في جسدي.. وسط تلك الألسن المشتعلة تقف أمي.. تنظر إلي ضاحكة مستمتعة باحتراقها.. تماما كما في ذلك اليوم الذي ماتت فيه ضاحكة، مستمتعة بموتها.. إنَّها تنتظري هناك.. فهل.. هل بإمكانك إخماد هذه النيران؟

ما الذي قالته؟ أعتقد أنَّها طرحت علي سؤالًا. هل أستطيع إخماد تلك النيران؟ كيف سأفعل وأنا أقف معها وسط النيران، كيف سأخمدها وأنا أحترق دون رحمة؟

عيناها مثبتتان على وجهي، تنظر نحوي في ألم ويأس، لكن هناك وميض صغير، كخيط شمس شتائية خجولة وسط غيوم عاصفة، وميض من الأمل.. لقد أعجزها الكلام، وها هي تطلب العون بنظراتها، تقولها لي بعينيها المحزونتين: "هيا! مدي يدك وارفعيني إلى النور!".

تنتابني رغبة في التهرب من نظراتها لوهلة، رغبة في الاعتراف بأني لست أفضل منها حالًا، فنيراني أيضًا تنهشني. أرغب في الاستسلام مثلها، والذوبان كرجل الثلج حد التلاشي تحت أشعة الشمس. لكن ذلك الوميض في عينيها لا يتركني بسلام، يخزني في قلبي، وخزة سوط مشتعل، لأعاود النهوض والجري.

نظراتها المستغيثة لا تزال مصوبة نحوي.. يا إلهي! هذه اللحظات ليست لي، ليست لاستحضار آلامي، ولا نيراني الخاصة، لا يجدر بي التفكير في ضعفي، في مارد علاء الدين.. هذا الوقت ليس لي.

لا مجال للهرب. أنظر في عينيها بالإصرار ذاته، حتى وإن لم أتمكن من إخفاء الألم والحزن. أفك قبضتي عن المسبحة، وأظافري عن لحمي. وأكف عن محاولة الهرب من مشاعر الألم التي ليست غريبة عني، كما أكف عن محاربتها. ودون تفكير تبدأ الكلمات بالانسياب من شفتي في هدوء.

- لا يمكن لمن لم يحترق بهذه النيران أن يخمدها يا آلا. أعتقد أنَّي قادرة على فهمك، فقد كابدت الكثير لوحدك، لكننا سنخمد هذه النيران معًا، وستنهضين من رمادك مجددًا. الإنسان لديه من القوة أكثر مما نظن، ولعلك أفضل مثال على ذلك. سنخمدها اليوم، لأنَّ السيول المنهمرة من أعماقك قد أطفأت تلك النيران. أرجو أن تصدقي هذه الحقيقة، كي أصدقها أنا أيضًا. والآن أخبريني بنهاية هذه القصة الحزينة، كي تحمل الكلمات معها الألم وتغادرك.

ذلك الوميض الصغير في عينيها، يغدو شمسًا ساطعة، ويضيء المكان كله، وتظهر ظلال ابتسامة خفيفة على فمها. تحني رأسها كعادتها حين تبدأ في السرد، وتواصل قصتها بذلك الصوت الطفولي المألوف، لكن في سكينة وهدوء دون أن يغيب عنه ذلك الأمل الذي بات يلحن نبراتها.

- وأخيرا عاد أبي.. ومن ثم الإسعاف والشرطة.. أخذوني إلى المشفى على الفور، لتصوير رأسي.. كما أنَّ ذراعي الأيمن كان قد كسر، فوضعوه في جبيرة.. كنت مستلقية على سرير نقال في المشفى، وهم يأخذونني من هنا إلى هناك وصرير عجلات السرير ينخر رأسي.. لكنه يبدو أشبه بتهويدة تغطي على تلك الأصوات الرهيبة التي في رأسي. كنت في مكان بين النوم واليقظة، أسمع الأصوات، دون أن أستطيع الرد.. وقد فقدت إحساسي بالزمن بشكل تام.. أخيرًا وضعوني على سرير تغطيه ملاءة بيضاء.. لكنهم لم يتركوني بسلام، فكانوا يواصلون الكلام فوق رأسي، وطرح الكثير من الأسئلة.. وبين الحين والآخر تصلني صرخات فتاة تصرخ دون توقف، صرخات تثقب أذني.. لكن الحقنة التي دخلت ذراعي، اسكتت تلك الصرخات.. وغرقت في أوقيانوس من الصمت والعتمة.. لا أعلم على وجه التحديد كم مكثت هناك.. ثم عدت لسماع الأصوات من حولي رويدًا رويدًا.. كان أحدهم يناديني دون توقف، فيما أتمنى أن يصمتوا

ويتركوني بسلام، لكنهم لم يفعلوا.. حين فتحت عيني رأيت عيني أبي.. كان منحنيًا علي يمسد شعري، وهو يناديني باسمي.. كنت عاجزة عن الحركة، وكأن الجبيرة لا تغطي ذراعي فقط، بل كل جسدي.. وبدأت تلك الفتاة بالصراخ مجددًا، كانت تصرخ حتى تتقرح حنجرتها، ولا تسكت مطلقًا.. عادت الحقنة لتنغرز في ذراعي.. ومضت الأيام مرة أخرى في أوقيانوس العتمة الصامت.. لم أكن راغبة في أن أستعيد وعي، أو أعود إلى تلك الحياة التي فقدت إحساسي بها.. لكني عدت كارهة مرة أخرى.. كان الضمادات تغطي معظم جسدي.. رأسي فيه جرحان كبيران، ذراعي اليسرى مكسورة، إضافة إلى اثنين من أضلعي.. كما أنَّ أربطة ركبتي اليمنى كانت ممزقة.. وقد تورمت إحدى عيني، بحيث كان من الصعب عليّ فتحها.. كل من حولي كان يطرح عليّ الكثير من الأسئلة، لكني عاجزة عن الرد عليها، وكأني نسيت الكلام.. لا أدري كم بالضبط بقيت مستلقية على ذلك السرير في صمت مطبق.. كانت الطبيبة النفسية في المشفى تأتي كل يوم لتجلس إلى جواري، وتحدثني وتطرح عليّ بعض الأسئلة.. لقد حاولت كثيرًا معي، لكني عجزت عن الكلام.. كنت عاجزة حتى عن النطق باسمي بشكل صحيح، فكيف بي التحدث حول ما جرى معي.. أعطوني الكثير من الأدوية، لكنهم عجزوا عن جعلي أنام.. فما إن يحل الظلام، وأغمض عيني، حتى أستيقظ على صوت صرخاتي الحادة.. اقترحوا نقلي إلى مشفى للأمراض النفسية، كي أمكث هناك فترة.. لكني عارضت الفكرة بجنون، فقد كان من المحال أن أتقبل الذهاب إلى المكان الذي كانوا ينوون أخذ أمي إليه.

تسحب نفسًا عميقًا، وكأنها تحاول تبديد عتمة تلك الأيام التي تخيم على روحها. ثم تلتفت نحوي، وهي تنظر إلي طالبة بعض القوة والمساعدة للمضي قدمًا، فابتسم لها ابتسامة خفيفة مشجعة، وأحاول أن أطمئنها بنظراتي. تمعن

التحديق في عيني، وكأنها ترغب في التحقق من تعاطفي معها. قبل أن تحني رأسها لتواصل السرد.

- اعتاد أبي المجيء عصر كل يوم، ليجلس إلى جواري قليلًا ثم يذهب.
- ألم تتحدثي معه أيضًا؟
- لم أكن أستطيع.. كان كلانا يبقى صامتا.. فبعد أن يقترب مني ليمسد على شعري، يقرب الكرسي من سريري ليجلس عليه.. كان يجلس صامتًا محني الرأس.
- هل كان يروقك مجيئه؟
- لا.. كنت أترقب لحظة ذهابه.. فقد كانت الزمن يمضي بطيئًا حين يكون إلى جواري، فأبدأ بالعد في نفسي كي أنشغل.

تفاجئني عبارتها، فقد كانت تبدأ بالعد، تماما كما فعلت قبل قليل.. أضحك في نفسي، ضحكة مكتومة، دون أن تظهر آثارها على وجهي، فليست في وضع يمكّنها من فهم هذه الضحكة الآن.

- متى غادرت المشفى؟
- لا أعلم.. لكني قضيت هناك وقتًا طويلًا.. خرجت بعد أن فكوا الجبيرة عن يدي، واختفت الكدمات على وجهي وجسدي.. كما فكوا قطب الجراحة في رأسي وصدري.. قبل خروجي جاءت الشرطة مرة أخرى، وطرحوا علي المزيد من الأسئلة، التي لم أجب على أيّ منها.. بل تحدث أبي، والطبيبة النفسية معهم بدلًا عني.. كنت عاجزة عن الكلام والنطق، حتى لو كنت راغبة في ذلك.. أعطوني العديد من الأدوية، وغادرت المشفى.. لقد استعملتها كلها تلك الفترة، حتى أنّي كنت أتناول ضعف الجرعة من الأدوية المنومة.. كان الليل أكثر الأوقات صعوبة، فالوقت لا ينقضي أبدًا.. كنت أستميت من أجل إغماض عيني والنوم، وفي الوقت ذاته أخاف منه.

- لماذا؟
- كنت أخشى الكوابيس والأحلام.. لكني وبعد فترة، ولسبب أجهله توقفت عن رؤية أيّ حلم.. وبذلك تخلصت من نوبات الصراخ الليلة.. كنت أنام باكرًا، وبالكاد أتمكن من الاستيقاظ ظهرًا.. وبعد عدة ساعات أشعر بالنعاس مجددًا.. وهكذا انقضى ذلك الصيف.
- وماذا كان يفعل والدك؟
- بعد الحادثة الأخيرة، انعزل وبات يقضي معظم وقته في البيت.. فما إن يحل المساء، حتى يضع الكأس أمامه، ولا يأكل شيئا سوى الجبنة البيضاء والبطيخ الأصفر، ويجلس ساكنًا في الصالون، وكأنه قطعة أثاث.. ومع افتتاح المدارس في شهر أيلول، توقفت عن تعاطي الأدوية، وبدأت الذهاب إلى المدرسة.
- لا بدّ وأنك واجهت صعوبة في البداية.
- كان الأمر صعبًا جدًا.. فحين خرجت من البيت لأول مرة بعد وفاة أمي، بدا لي العالم الخارجي غريبًا بصورة لم أستطع التوازن فيه.. وكأن العالم قد نسي وجودي، وأنا نسيت كل شيء عنه.. حتى الأرض التي أمشي عليها، بدت لي وكأنها تنفر من خطواتي.. كنت قد رميت كل ثيابي، وبدأت بارتداء ثياب أمي.. في هذا العالم الموحش العدواني، حتى رائحة الكراهية التي تفوح من الثياب التي أرتديها، كانت تخفف عني قليلًا هذه الوحشة القاسية.. حين أشم تلك الرائحة، يلفني الخوف المألوف، فأشعر بأني في منزلي، ضمن جدران عالمي المعتاد.. كنت أرغب في نسيان أمي، وأرتعب من هذه الرغبة في الآن ذاته.. وكلما زاد رعبي، كنت أحتمي بثيابها التي كانت أكثر اتساعًا علي حينها، فأشعر بأننا أصبحنا شيئا واحدا، نحترق بالنيران ذاتها معًا.. كان الاحتراق معها، أهون على من الاحتراق لوحدي.. ففي النهاية هذه كانت رغبتها التي صارحتني بها قبيل

موتها، وقد اعتدت طاعتها في كل شيء.. ربما لهذا السبب أرادت هي أيضًا أن نحترق سوية.. كي لا تحترق بمفردها.

الإنسان مخلوق غاية في التعقيد! فمن كان يخمن أنَّ هذه الفتاة النحيلة الضعيفة، تخفي كل هذه العالم المهول داخلها؟ كل تلك الأسئلة التي كانت تدور حولها منذ اليوم الأول للقائنا، ها هي تزيح عن نفسها الستارة، الواحدة تلو الأخرى.

ورغم قسوة ما تسرده، لكن إعجابي بها يزداد مع كل صفحة جديدة من كتاب حياتها الذي فتحته أمامي، فكيف لفتاة مثلها- فتاة يشي مظهرها بالنفور، بالكاد تستطيع أن تنطق جميلة كاملة دون أن تقطعها- وصف عالمها الداخلي بهذه الصورة الرائعة؟ وكأنها تتلو على مسامعي قصيدة جميلة جدًا، ومؤلمة جدًا في آن.

كلما استمعت إليها، أكتشف وجود مشاعر جديدة وغريبة لديها، فهي ترى أنَّ البقاء وحيدًا في هذا العالم، شعور قاس لدرجة أنَّ الإنسان يفضل أن يحيط نفسه برائحة عدوه، وأن يحترق معه بالنيران ذاتها، على أن يبقى وحيدًا. هذه القيعان السحيقة من الوحدة، لا يمكن للمرء أن يتخيل حتى وجودها.

كما أنَّ مشاعرها اتجاه والدتها، تدل على نقاء سريرتها. فرغم أنَّ الأم لم تكن تحبها، أو تتقبلها، بل كانت تكرهها بصورة واضحة، لكنها تحاول أن تتفهم موقفها. فهي تشعر بالوحدة الرهيبة التي كانت تعانيها الأم، وبهذا تعلل رغبتها في أن تحترق ابنتها معها. إنَّها تدرك وطأة وحدة الأم، من خلال وحدتها هي. ورغم أنَّهما عدوتان، لكنهما تجتمعان بطريقة ما، فهي تحمل الشعور العميق بالذنب على كاهلها، تمامًا كما فعلت أمها، وقد أعلنت الاثنتان نفسيهما آثمتين، تقفان على رصيف الخطاة، بانتظار العقاب. وفيما تنصهر مع الأم المذنبة الشريرة في القدر ذاته، تجدها وسيلة أخرى، لتحارب بها وحدتها.

- كان الجميع يرمقني بنظرات مرتابة في المدرسة.. والكل يريد الابتعاد ما أمكن عن هذه الفتاة الغريبة الأطوار، بثيابها القذرة المهلهلة.. لم يكن

أحد يتحدث إلي أو يجلس إلى جواري.. وبذلك بقيت محرومة من رفاهية الكلام.. حتى في البيت لم نكن أنا وأبي نتحدث إلا للضرورة القصوى.. لكن تفوقي الدراسي أخذ يلفت الأنظار نحوي.. كما أنَّهم اعتادوا علي بمرور الوقت، فلم يعد مظهري المريع يخيفهم كما في السابق.. وبدأوا يتحدثون إلي ويرغبون في أخذ دفاتري التي أحل عليها الواجبات المدرسية.. لكني أتضايق من الأمر، لأنَّه يخيفني.. كنت أعجز عن التحدث إليهم، أو الإجابة عن أسئلتهم، وما إن يقترب مني أحدهم، حتى أرتعد خوفًا.. كنت أبحث عبثًا عن طريقة لتخرجني من تلك الوحدة الرهيبة، والتي اعتدت عليها حدّ الإدمان.. ولم أتقبل أن يقتحم أحد آخر عالمي الثنائي.

- عالمك الثنائي؟
- أجل عالم ثنائي.. رغم أنَّي في كثير من الأحيان أتوه بين حدوده، وأعجز عن التمييز إن كان عالمًا مفردًا أم ثنائيًا.. ففي بعض الأوقات نفترق أنا وأمي عن بعضنا، ونغدو شخصين متمايزين.. وأعود لأصبح عدوتها اللدودة.. العدوة التي قتلت نفسها أمام عينيها وهي تضحك.. فأدرك أنَّ إبهامي الأيمن لي، وليس لها.. رغم أنَّ رائحتها تحيط بي كلعنة أبدية.. بعد موتها بفترة كان العيش مع عدو على هذه المسافة القريبة، يرهقني ويستنفذ كل طاقتي.. لكنه يظل عالمًا يقطنه شخصان.. فحتى لو كنت عدوتها التي حاولت قتلها، لكني كنت شخصًا حيًا يتنفس.. شخصًا كانت تهتم لأمره لأقصى الحدود، حتى وإن كان بطريقة معكوسة، فقد استحوذت كراهيتي على تفكيرها لدرجة أنها كانت تخطط لقتلي.. لكنني وفي أحيان أخرى، أتحد معها ونغدو شخصًا واحدًا.. فكلتانا شريرتان وآثمتان، ومنبوذتان أيضًا، ولم كن من الصعب جمع هذين الشخصين في قالب واحد.. حينها كان الاضطراب، الخوف والأحقاد تنتهي، فأشعر

بنفسي مجرد شريرة خرقاء، لا قيمة لها.. كان هذا القالب يناسبني أكثر، ويرهقني أقل.. حتى إبهامي الأيمن كان يفقد قيمته، فلم يكن يخصني بعد الآن.. وأخذت أكتشف أنَّ الرضوخ للآخرين، والتحول إلى مطية لنزواتهم وقسوتهم، والتصرف كعبدة ذليلة، لا تتكلم، ولا تعترض ولا تضحك، أمر أكثر سهولة مما يبدو عليه.. لأنَّ قسوة الآخرين، الظلم، الضرب والإهانات كانت تغدو أخف وطأة.. بمرور الوقت اخترت القالب الأسهل، وغدت هذه الشخصية التي تجمع الاثنين معًا، هي التي تتصدر حياتي.. وهكذا خف شعوري بالضيق، وغمرتني تلك الخفة التي تلازم استسلام الضحية لمصيرها أيّا كان.. وكأنّ أحدهم قام بتخديري، وتنويم كافة المشاعر التي تمور في داخلي.

لقد استسلمت للمرض، وبإلغاء شخصيتها، طمرت الضيق والمخاوف أيضًا. وكأن عالمها الداخلي والخارجي قد أبرما معاهدة جائرة، بتسليم هذه المسكينة الصغيرة لبراثن المرض النفسي. لكن الأمور لم تستمر مطولًا، كما كان مخططًا. فإبهامها المصاب المزرق منذ اليوم الأول لزيارتها لي، يدل على أنَّ الشخصيتين في شد وجذب، في تلاقي وافتراق مستمر، وأنَّ الإبهام يعود إلى صاحبه الحقيقي في كل مرة، لذا تتم معاقبته باستمرار. ولكن متى بدأت استعادة شخصيتها يا ترى؟ اكتفي بالاستماع إليها فيما تستمر في الكلام، بدل محاولة طرح الأسئلة عليها حاليًا.

- حين اضطررت للتحدث في المدرسة، ولو ببضع كلمات متقطعة، أدركت أنَّ نبرة صوتي قد تغيرت.. فقد بدأت التحدث بصوت رفيع، تعرفت عليه على الفور.. كنت قد استعدت صوت طفولتي.. وهكذا عدت آلا الصغيرة.. مما أراحني كثيرًا، فذلك الصوت لم يكن لي، ولا كان لأمي.

إنَّها تلجأ إلى آلية النكوص، فحين تعجز قواها النفسية عن تحمل هذا القدر الكبير من المعاناة، تجد الحل في التقهقر إلى مرحلة عمرية سابقة، أكثر راحة نوعًا ما. وفي حالتها عادت آلا إلى طفولتها، كحل للأزمة التي تعانيها. فقد عجزت

شخصيتها الحقيقية أن تتحمل كل هذه الثقل، لكنها رفضت أن تتحول لشخصية الأم أيضًا. وكل هذه العملية، آلية لا شعورية.، إنَّها وسيلة دفاعية من الدماغ. إذًا هذا هو سرّ صوتها الغريب الطفولي النبرة، بينما صوتها الحقيقي هو ذلك الصوت الناعم الهادئ الذي تحدثت به لوهلة قبل قليل. إنَّ آلا الحقيقية تخرج من أعماق الجب الذي رُميت فيه.. أشعر أنَّ موجة عارمة من السعادة تغسل روحي، فهل هي على وعي بهذا النصر الرائع؟

- في تلك الفترة فقدت أبي أيضًا.. لا أستطيع القول إننا كنا أحياء في ذلك البيت، الذي كنا نتحرك فيه كشبحين صامتين، لا يتبادلان الحديث إلا فيما ندر. نكاد لا ندوس الأرض كي نكتم وقع خطواتنا، وكأننا نتنكر لوجودنا.. فقد كنت أصعد إلى غرفتي حال وصولي إلى البيت، ولا أخرج سوى للضرورة، وهو يظل جالسًا على كرسيه إلى طاولة الطعام، وقد بات جزءًا من أثاث الصالون، لا ينهض إلا حين تنتهي زجاجة الكحول، ليحضر أخرى من البراد.. حتى التلفاز، كان يبقي صوته منخفضًا، بالكاد يصل إلى مسامعه. كنا نعيش في بيتنا خائفين، كلصين يسترقان الأنفاس.. في صباح أحد الأيام وقبل أن أذهب إلى المدرسة، وجدته لا يزال جالسًا على كرسيه.. عيناه مفتوحتان، وقد استند بظهره على الكرسي، فيما استطال رماد سيجارته الأخيرة المحترقة بين أصابعه.. بدت على وجه راحة من تخلص من عذاب قاس ومستديم.. بتلك المشاعر المخدرة بقيت أراقبه لبعض الوقت دون أن أدري ما الذي يجب فعله.. حينها أدركت أنَّي لم أنظر قط إلى وجهي أبي بهذا التمعن والانتباه.. كنت أشعر بفراغ كبير ليس إلا.. أردت أن أبكي أو أشعر بالخوف أو الحزن، لكنني لم أفلح في استحضار شيء.. فخرجت من البيت، وأقفلت الباب بالحرص المعتاد، ثم توجهت إلى مركز الشرطة.. كانوا يعرفونني، فاكتفيت بالقول: "لقد مات أبي، تعالوا إلى بيتنا".

تتعاقب المصائب، والمصيبة الأكبر أنَّها وحيدة.

- جاءت الشرطة، وأعقبه الطبيب الشرعي، وطرحوا علي الكثير من الأسئلة التي جاهدت للإجابة عنها بالوضوح الممكن.. أشفق الجميع علي، وحاولوا مساعدتي بكافة الطريق.
- كنت وحيدة خلال كل ما حدث؟ ألم يكن هنام من يساعدك؟
- كنت وحيدة، فمن سيساعدني؟.. حتى الشرطة كانت تسألني: "أليس لديك أقرباء أو أحد ليعتني بي؟".. لكن لا أحد.

الشرطة والموت والتحقيقات من جديد، أيّ أقدار مكرورة بقسوة عاشتها هذه الفتاة؟ حتى أنا أشعر بالتمرد على كل هذه القسوة فيما أسمعها.

- اتصلت الشرطة بأرقام الأشخاص في دفتر الهاتف الذي عثروا عليه بين أغراض أبي.. وانتظروا حتى وصول أصدقائه إلى البيت والذين قاموا بإجراءات الجنازة والدفن.. دفنا أبي في اليوم نفسه.. ثم حاول الجميع إقناعي بالمكوث عندهم عدة أيام، لكنني رفضت بإصرار.. كما اعتنى أصدقائه بإجراءات الوراثة أيضًا.. وسلموني بطاقة الحساب البنكي، وورقة دونوا عليها أرقام هواتفهم، وشددوا علي أن أتصل بهم إن احتجت شيئًا.
- ألم تتصلي بهم؟
- لم أفعل.
- وماذا عنهم؟
- اتصلوا كثيرًا.. كانوا يسألون إن كنت بحاجة لشيء، فأجيبهم بالنفي.. لم أكن أرغب في رؤية أحد.. وحين يأتون لزيارتي، كنت أشعر بالارتباك والضيق، ولا أعرف ما علي فعله.
- إذًا فقد بقيت وحيدة منذ ذلك الحين؟
- أجل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- بما شعرت حينها؟

- لا شيء.. كما أخبرتك منذ قليل، كانت مشاعري كلها مخدرة تلك الفترة، فكنت لا أعاني كثيرًا.. كنت أهرب من الكل، وفي الوقت ذاته أعاني وحدتي.. في تلك الفترة، بدأ الرجال دخول حياتي.. كانت علاقتي بهم أقرب للاغتصاب، فيها الكثير من العنف والضرب، كانوا يكيلون لي الشتائم والإهانات قدر استطاعتهم.. فيما أستسلم لكل تلك المعاملة في خضوع تام، دون أدنى قدر من المقاومة.. في تلك اللحظات كانت صوتي يختفي، ليحل مكانه صوت أمي بتلك النبرة الخشنة القاسية.

من الغريب حقًا أن تحس بنفسها كأمها، وهي تقيم علاقة مع رجل ما. قد يكون هذا دليلًا على صورة خفية للأم في أعماق ذهنها، صورة امرأة كانت فيما مضى تمنح نفسها لكل من يريدها بكل سهولة. كما أنَّها تتقبل الاستسلام كجزء طبيعي من شخصيتها حين تغدو أمها. إذًا فذلك الصوت الطفولي الحاد، الذي استغربته ونفرت منه أذناي في زيارتها الأولى، يخفي بين طبقاته النحيلة بصيص أمل عجزت عن رؤيته حينها.

- هل كان تحول صوتك يحدث بصورة تلقائية؟

- أجل، ورغم محاولاتي كنت أعجز عن تغييره. في الحقيقة كنت أخاف من هذا الانقلاب.. فحين أبدأ التحدث بنبرة صوتها، كنت أعتقد أنَّ روحها تقمصتني ولن أستطيع التخلص منها أبدًا.. وفي أحيان أخرى تختلط الأمور في ذهني، فأعجز عن تمييز الصوت الذي أتحدث به.. بدأت أعتاد الإهانة، واستلذها بمرور الوقت.. تلك النظرات المشمئزة الحانقة، كانت تعالج جرحًا غائرًا في أعماقي، وكلما تمت إهانتي ومعاقبتي أكثر كنت أشعر بالراحة أكثر.. والمفارقة أنَّ هؤلاء الرجال لم يبحثوا عني، أنا من كانت تبحث عنهم، وتعثر عليهم.. كنت أقوم بدعوة الإهانة والعقاب إلى حياتي بكل رحابة صدر.. ثم في إحدى المرات، ولسبب أجهله، قام

أحدهم بعد أن أنهكني ضربًا، بالتحدث إلي بهدوء وهو يجلس قبالتي، أذكر ما قاله لي يومها.. "أنت مريضة جدًا، ولن يطول بك الأمر حتى تفقدي الحياة بيني يدي أحدنا، وهو يضربك بهذه الوحشية، حينها ستكون الكارثة. أنصحك بالذهاب إلى طبيب نفسي ليساعدك".. ثم حمل هاتفه وحدد لي موعدًا مع طبيب كان يعرفه. وهددني بالقول.. "إن لم تذهبي، سأكسر كل عظامك".. كان موعد الامتحانات الدراسية قد اقترب، وأكاد في كل ليلة أنام مع رجل جديد، أشرب الكحول، وأحيانا أتعاطى أنواعًا من المخدرات، وأتلقى ضربًا مبرحًا على يد الجميع.. ورغم كل شيء كنت قادرة على الجلوس إلى طاولتي، والدراسة بكل تركيز.. كانت الدراسة بالنسبة لي حاجة أساسية كشرب الماء وتناول الطعام، كانت قرارًا ألزمت به نفسي حتى النهاية.. وكنت قادرة على البقاء مستيقظة حتى الصباح، وأنا أدرس.. أنهيت الثانوية بتفوق.. وقد تفاجئ الجميع، باستثنائي، من هذه النتيجة.. واحتاروا فيما إذًا كنت مجنونة، أو على درجة من التخلف العقلي، أم أنَّي أتعمد التصرف بتلك الطريقة الغريبة.

- وهل كانت لديك الإجابة ينها؟
- بالطبع.. ولكن حين صارحني ذلك الشاب بحقيقتي، بت متيقنة مما كنت أعلمه مسبقًا.. كان محقًا، فأنا مجنونة.. مجنونة كأمي.. مجنونة، ووحيدة.. كان علي القيام بشيء ما، وقد دلني ذلك الشاب على الخطوة الأساسية.. كانت المرة الأولى التي زرت فيا طبيبًا نفسيًا.. كان رجلًا كبيرًا في السن.. فأجلسني قبالته، وقال لي: "هيا أخبريني بما تعانين".. لكن كما تعرفين، كان من المستحيل علي التحدث.. فوصف لي أدوية وأعطاني الوصفة، ثم قال لي: "عودي بعد شهر من الآن".. حين تناولت تلك الأدوية، بقيت عدة أيام، شبه فاقدة للوعي.. كنت وحيدة في المنزل،

ليس لدي من يعتني بي، لذا توقفت عن تناولها.. ثم بحث عن طبيب آخر بنفسي، وعثرت على طبيبة شابة هذه المرة.. شبهتها بالطبية التي كانت تعالجني في المشفى.. كانت شابة نشطة مبتهجة، تكاد تفيض حيوية.. تمتلك كل ما أفتقر إليه.. حاولت في البداية التقرب مني، كي تفهم حالتي.. سألتني الأسئلة المعتادة، وقد أجبت عن بعضها.. وحتى وإن كنت أتخلف عن الكثير من مواعيدي، لكني واظبت على زيارتها من وقت لآخر.. وفي كل مرة كانت تهتم بي، محاولة جمع أكبر قدر من المعلومات عني.. وقد أعطيتها الوصفة التي حصلت عليها سابقًا من الطبيب العجوز، فقامت بتغيير بعض الأدوية، لكني لم أتناول أيّا منها.

- لما يا آلا؟ لما رفضت تناول الأدوية التي وصفتها لك؟

- خفت من تناول الأدوية النفسية مرة أخرى.. وقد أخبرت الدكتورة بذلك، لكنها أصرت علي كي أتناولها.. والمشكلة أنَّها لم تكن تعرف عني شيئًا.. لم يكن الآخرون يعرفونني، ولا أنا أعرفهم.. كل ما يعرفونه، بضع معلومات تافهة.. أنَّي فقدت والدي، أعيش بمفردي في أنقرة، وأنّي أنهيت دراستي بتفوق.. فكنت أستغرب وصفهم الأدوية لي، بناء على هذه المعلومات الشحيحة فقط. وفي تلك الفترة كنت أجول في الأرجاء هائمة، لا أعرف ما علي فعله بعد إنهاء دراستي الثانوية.

- وما الذي منعك من التحدث عن نفسك أمامهم بصورة واضحة؟ فحين يتعرف الطبيب بصورة أكبر على مريضه، يتمكن من مساعدته بطريقة أفضل. وأنا واثقة أنَّك كنت تعرفين هذه المعلومة.

- أعترف أنَّ لدي الكثير من المشاكل النفسية، وقد أكون مجنونة بالفعل، لكن لست غبية أو متخلفة عقليًا.. كنت أراقب تلك الطبيبة الشابة، وأتفحص كل تفاصيلها بدقة.. أزنها بكل الموازين، دون أن أتمكن من وضع ثقتي فيها.. كانت في مقتبل العمر، يطغى عليها جموح الشباب،

تـولي شـكلها وملابسـها اهتمامًـا بالغًـا، وتفـيض حيويـة ومرحًـا.. هـل لشخص مثلها أن يفهم ما أعانيه برأيك؟

أحد أسألتها الملغزة مرة أخرى، والتي أقف أمامها حائرة. أبحث عن جواب مناسب، فتستغل هذه اللحظات من التردد لتواصل.

- لا أنتظر منك إجابة على سؤالي.. فأنا متأكدة أنَّها كانت ستستمع إلى قصتي بفضول واهتمام بالغين.. ومن المحتمل أنَّها كانت ستروي هذه القصة المثيرة المليئة بالرعب لزوجها أو أصدقائها حين تلتقي بهم مساءً.. كنت مادة جيدة لحديث المساء.. لكني ما كنت سأغدو أكثر من ظاهرة غريبة بالنسبة لها.. أنا متأكدة أنَّها لم تكن قادرة على فهمي.. والمصيبة لو حاولت أن تواسيني بدل البحث عن حلول جذرية لمشاكلي، حينها كنت سأفقد السيطرة على نفسي.. كانت قاعة الانتظار في عيادتها فارغة على الدوام، أعتقد إنِّي كنت مريضتها الوحيدة.. أحيانًا لم تكن حتى السكرتيرة في مكانها.. لذا كانت نقود الجلسات الأسبوعية التي تأخذها مني، مصدرًا جيدًا بالنسبة لها.. كانت الجمل التي نتبادلها طوال فترة الجلسة، تعد على أصابع يد واحدة.. كنت ألتزم الصمت، وقد ملّت هي أيضًا من طرح الأسئلة، لكنها تواصل الجلوس معي لملئ الوقت لا أكثر.

- أكانت تعلم أنك لا تتناولين الأدوية التي وصفتها؟

- كانت تعلم.. وكانت تصر كثيرًا محاولة إقناعي بتناولها، حتى أنَّها كانت تخبرني بسيناريوهات كثيرة، كلها تنتهي بمصير مرعب ما لم أتناول الأدوية.. الأمر الذي يعزز قناعتي بأنها عاجزة عن مساعدتي.. كنت أدرك أنَّ ابتسامتها زائفة، لذا كان غضبي يزداد بصورة جنونية.. فلم يكن في وضعنا ما يدعوها إلى الابتسام.. ربما لم يكن الأمر ذنبها بقدر ما هو ذنبي.. كانت تجلس قبالتي محاولة أن تظهر لي قدرًا من الاحترام، فأشعر

بأنّ في الأمر خديعة ما.. كنت صامتة، لا أتكلم، وأترك أسئلتها معلقة دون إجابة، دون أن تظهر أدنى امتعاض. بل تواصل وضع تلك الابتسامة على وجهها وهي ترمقني.

أعتقد أنَّ ما زاد امتعاضها من الطبيبة، أنَّها كانت مرحة المزاج، مفعمة بالحيوية. لم تكن قادرة على رؤية الآخرين ينعمون بمباهج الحياة، بينما هي تتلظى وسط النيران.

- في آخر زيارة لي، كنت مدركة لما سأفعله منذ البداية.. لم تكن السكرتيرة في العيادة يومها.. وقد استقبلتني هي بتلك الابتسامة المخادعة على وجهها مرة أخرى.. كانت قد قالت لي أنَّ عدم تناولي الأدوية، سيودي بكل ملكاتي العقلية.. أيّ أنَّها من كتبت السيناريو بيدها، ولست أنا.. كل ما فعلته أنَّي طبقت السيناريو حرفيًا.. اعترفت لها مجددًا أنَّي لا أتناول الأدوية التي وصفتها لي.. فوقعت في الفخ على الفور.. وأعادت على مساعي مصيري المنتظر ما لم أتناول الأدوية.. فقلت لها أنَّ "ذلك ما سيحدث الآن" وأخذت أهاجم كل ما حولي بسرعة عاصفة.. كسرت وقلبت ومزقت كل ما وقعت عليه يداي.. فخافت كثيرًا.. حينها راقني أن أدخِل الرعب في قلب أحدهم.. فأنا المخلوقة الحقيرة الوضيعة، أستطيع أن أخيف دكتورة.. وبدأت بالصراخ والضحك.. ربما كانت تلك المرة الأولى التي أضحك فيها.. ضحكت عليها كما كانت تضحك عليّ.. ولم يخطر لها من هول الصدمة أن تتصل بالشرطة.. فغادرت المكان متمهلة ضاحكة.

يا للكثير الذي لا أعرفه عنها! كنت قد بدأت أشعر أنَّي أعرف بالفعل من تكون هذه الفتاة التي تأتي إلي منذ عدة أشهر، لكنها تنجح في مباغتتي كل مرة. لقد تمكنت من معاقبة زميلتي المسكينة بطريقة مرعبة، فهل كانت تضحك في نفسها ساخرة مني، وهي تخطط لي المصير ذاته في زيارتها الأولى؟

- ربما كنت تحقدين على الطبيبة لأنَّها كانت سعيدة؟
- سعيدة؟
- هذا ما بدا لي.

تقلص عينيها وهي تحاول فهم ما قلته لها، ثم تميل برأسها قليلًا، وتبدو ابتسامة خفيفة على وجهها.

- ربما.. هذا ما خطر لي في أول يوم أتيت فيه إلى هنا.. وأعترف أنَّ هذا ما دفعني للاستياء من السيدة تونا يومها.. فقد ثار استيائي وأنا أراها بكل تلك الحيوية والسعادة وهي في هذا العمر.. ثم خرجت أنت لملاقاتي.. لم يكن يجمعك أدنى شبه بالصورة التي رسمتها في مخيلتي.. كنت أتخيلك امرأة رقيقة، مرهفة المشاعر، وحنونة.. مثل السيدة تونا.
- إذًا فقد خيب مظهري أملك!
- بطريقة لا تصدق.
- لكن تونا كانت كما تخيلتها تمامًا، فلما غضبت منها؟

ترفع كتفيها معترفة:

- غضبت كعادتي.. في الحقيقة كنت أهيأ نفسي لمعركتي معك.. لكن ردة فعلك الهادئة المتوعدة ذكرتني بالسلطانة أسما.. حتى أنَّي اعتقدت لبعض الوقت أنَّك قاسية القلب وشريرة مثلها.. وهذا الاحساس ما جذبني نحوك وكأني ممغنطة.

يا إلهي! لم يخطر لي مطلقًا، أنَّ تمسكها بي كان فقط لأنَّها رأت في شخصيتي ما يذكرها بجدتها. لو أنَّي تعاملت معها ذلك اليوم، بالاحترام واللطف الذي استقبلها به بقية زملائي، لانتهى هذا العلاج قبل أن يبدأ. رغم أنَّي كنت أشعر بالذنب لوقت طويل، لأنَّي عاملتها بتلك القسوة في البداية.

- لقد شعرت بالاستياء كثيرًا مما حدث بيننا ذلك اليوم، لكن عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

- أنا أيضًا فكرت فيما حدث كثيرًا.. واكتشفت أنَّ غايتي ليست البحث عن المساعدة، بل إقناع نفسي بأنّ ما من أحد قادر على مساعدتي.. كنت آتية لاختبار ذلك معك أيضًا، ثم المضي بعيدًا.. وقد فعلت كل ما وسعي لتحقيق هذه القناعة، لكني فشلت.. عاكستني مشيئة الأقدار.. تصرف غبي، أليس كذلك؟.

يتطلب الأمر قدرة عالية من الوعي للوصول إلى هذه الحقيقة، وآلا تقدم لي الآن أفضل مثال على هذه القدرة. فعادة ما يقع الناس ضحية ألاعيب اللاشعور، والتي لا يمكن لأحد سوى وعيهم، تخليصهم منها.

- أهنئك يا عزيزتي، فقدرتك على إدراك هذه الحقيقة، يساعدنا كثيرًا في رحلة العلاج.. إذًا فقد قمت بكل ما وسعك لكي أرفض معالجتك منذ البداية؟ لكن ما جعلك تغيرين رأيك، هو الشبه الذي وجدته بيني وبين السلطانة أسما.

يحمر وجهها خجلًا، لا تزال تلك الطفلة البرية في بعض جوانبها.

- يبدو أنَّ السلطانة أسما التي كانت محور الشر في حكايتنا، استطاعت أن تقدم لنا يد العون في النهاية.
- أرجو ألا تعتبري ذلك، قلة احترام من جانبي.
- لا لا على الإطلاق. أرجوك استمري، فأنت اليوم تتحدثين بطلاقة وتعبرين عن مشاعرك بصراحة وجرأة.
- بمرور الوقت اكتشفت الفرق الهائل بين طبيبتي وبين بالسلطانة أسما.. وكانت المفاجأة أنَّ هذا الاكتشاف ساعدني أكثر مما كنت أتوقع.. فأن أحظى بقبول شخصية مثلك، وأن تعامليني باحترام.. كان شعورًا رائعًا بحق.

هذا هو الأساس الذي يبنى عليه العلاج، فهذا العبور المتبادل للمشاعر بين الطرفين؛ الطبيب والمريض، قادر على تحقيق المعجزات. منذ اليوم الأول ورغم

أنَّي لم أكن أدرك حينها، أنَّها تربط بين شخصيتي وشخصية جدتها، لكني لاحظت أنَّها اعتبرتني بصورة أو أخرى رمزًا لسلطة ما، وقد سعيت جهدي لترسيخ هذه الصورة في ذهنها، لأنَّ عقدتها مع السلطة، لا يمكن أن تحل إلا على يد شخص منحته بنفسها هذه السلطة. إنَّه أحد القواعد الأساسية في العلاج النفسي.

- قبل فترة من مجيئي إلى هنا، اتصل بي المحامي الذي أتدرب في مكتبه حاليًا، وعرض علي التدرب في مكتبه. حين سمعت الخبر لم أصدق من هول المفاجأة، ووافقت دون تردد. فمكتبه أحد أشهر مكاتب المحاماة، التي يعمل فيها نخبة من أكثر الأسماء احترامًا وخبرة. كما أنَّه يحظى بالاحترام والتقدير على مستوى البلاد كلها. فما الذي دفعه ليعرض على وضيعة الشأن مثلي العمل لديه؟.. بحثت مطولًا عن قذارة ما تحت هذا العرض.. كان زملائي وإن تحاشوا الاقتراب مني، يعاملونني بكل احترام.. كما يحرصون على تعليمي كافة شؤون المكتب، ويتوقعون مني إنجاز الكثير.. وحين يراني مديري في العمل بين الحين والآخر يسألني عن أحوالي، ويبلغني أنَّه مسرور جدًا من عملي.. فكانت شكوكي تزداد بوجود مكيدة من نوع ما.

تظهر أعراض الذهان بوضوح؛ الريبة والأوهام، وهي تتوافق تمامًا مع مكانها المناسب داخل الصورة العامة لحالتها. فهي تجد في العرض الذي قدمه لها شخص بمكانته مكيدة ما. فالمعروف عنه، أنّه شخص واقعي لأبعد الحدود، لا يقدم على أدنى خطوة دون حساب النتائج سلفًا. ولا بد أنَّه يعرف آلا من الجامعة، فهو لا يزال يدرس في كل كلية الحقوق. من الواضح أنَّه رأى فيها شيئًا عجز الآخرون عن رؤيته، فمد يد العون نحوها دون تردد.

- في تلك الأثناء ركزت على كتب التحليل النفسي، في محاولة لفهم المعلومات التي لم يشرحها لي الأطباء. بت مقتنعة بأني مريضة، لكني لا أعرف كيف يمكنني الحصول على المساعدة. فكانت كافة كتب التحليل

النفسي التي قرأتها تشير بوضوح أنَّي أعاني الفصام الذي ترافقه اضطرابات ذهانية. لكني رغم ذلك قادرة على إنجاز عملي بأفضل ما يمكن، وملاحظة التفاصيل التي يعجز الآخرون عن رؤيتها. ما أوحى لي ببقاء بعض الجزر السليمة في ذهني حتى الآن.. وكنت أواسي نفسي قائلة.. "لا يمكن لشخص فصامي أن يميز حالته، ويدرك بأنه مريض".. وهذا ما كانت تقوله الكتب أيضًا.. في تلك الأثناء كنت قد وجدت طبيبًا آخر.. في الحقيقة كنت قد سمعت عنك منذ وقت طويل، لكني لم أكن أجد في نفسي الجرأة للقدوم.. فقد بحثت عنك على شبكة الإنترنت وقرأت كتبك أيضًا.. فشعرت أنَّي لو أتيت إليك سيتم الإمساك بي.. كنت راغبة في المجيء، وفي الوقت ذاته خائفة من أن يتم الإمساك بي وكشفي.. لذا قررت الذهاب إلى ذلك البروفيسور العجوز.. استقبلني بالاحترام المعتاد، وأجلسني قبالته، وطرح عليّ الأسئلة المكرورة، ثم وضع تشخيصًا أو اثنين لحالتي، ولم يكن مصيبًا بالطبع.. كان الوقت ظهيرة، وأظنه تناول طعامه في كافيتريا الجامعة قبل أن يأتي، فقد كان الخمول بادٍ عليه، يكاد لا يستطيع أن يبقي عينيه مفتوحين. فرحت أتأمله في صمت وأنا أفكر في نفسي: "هل سينقذني هذا الرجل النائم؟".. تركت المكان بهدوء دون أن أقلق غفوته.. لكني واصلت البحث، وعثرت هذه المرة على طبيبة في أواسط العمر.. كانت تعمل في مشفى حكومي، لديها سمعة مهنية جيدة، والكثير من المرضى.. لكن ضغط العمل كان يرغمها على التحرك بسرعة، والانتهاء من جلسة المريض في أقصر وقت ممكن. كانت امرأة جميلة، وأنيقة في آن. تفيض حيويتها على كل ما حولها، وعلى وجهها ابتسامة دائمة.. ما إن جلست حتى أنهال عليّ طوفان الأسئلة. فأدركت تمامًا ما تحاول فعله، تريد فهم مشكلتي بأسرع ما يمكن، وتشخيص حالتي للتخلص مني، لكنها لم تستطع فهمي. لست مريضة

عادية بسيطة كما كان يخيل لها.. حين رأت أنَّ الأمور لن تسير كما تريد، أرادت تحويلي إلى أخصائي نفسي.. فقلت في نفسي: إنَّها تحاول التخلص مني الآن.. تمامًا كأولئك الرجال الذين يقيمون معي علاقة عابرة، وبعد الانتهاء يسرعون بالتخلص مني.

هذا ما حاولت فعله أنا أيضًا، فمنذ زيارتها الأولى، أردت تحويلها إلى زميل آخر للتخلص منها. والآن أدرك بصورة أفضل، كم كان هذا الاقتراح مؤلما بالنسبة لها.

- أخبرتها بوضوح وإصرار أنَّي لا أرغب في أخصائي نفسي، بل أريد أن تتولى هي علاجي.. رغم أنَّ الأمر لم يرقها لكنها وافقت على الفور.. فواظبت على زيارتها بشكل أسبوعي، وفي كل مرة تستقبلني بالابتسامة المعهودة وهي تقول: "لنرى إن كنت ستخبرينني اليوم شيئًا ما عنك"، وهي تحاول أن تخفي عني الضجر الذي في عينيها.. كان همها الأوحد أن تصف لي دواءً بأسرع ما يمكن، وربما كانت محقة في حاجتي إلى تناول الدواء.. لم تكن لديها نوايا سيئة اتجاهي، فقد كنت بالنسبة لها واحدة من مئات المرضى.. كانت تقوم بعملها، الذي تتلقى عليه أجرًا، هذا كل ما في الأمر.. رغم ذلك لاحظت امتعاضها مني منذ اليوم الأول.. فوسط لائحة لا متناهية من العمل والمواعيد، تخرج لها هذه الفتاة الغريبة الأطوار التي لا تعرف ما تريد. كان أفضل ما يمكنني لي فعله برأيها، هو إخبارها بما أعانيه، لأتلقى الدواء المناسب، وأنصرف بأسرع ما يمكن.. لو كنت قادرة على ذلك لفعلته منذ البداية، لكن كلتينا باتتا مقتنعتين بعجزي عن القيام بذلك.. لقد زرتها عشرات المرات، دون أن تتقدم علاقتنا خطوة واحدة نحو الأمام.. ورغم ذلك كانت تطلب مني القدوم مجددًا، دون أن تجد في نفسها الجرأة لمصارحتي بالقول.. "اذهبي دون عودة، فأنا غير قادرة على علاجك".. وهكذا كنت أشعر بأني أصبح ضحية للخيانة

والخديعة مرة أخرى.. وكأن العالم كله قد اتفق على خداعي.. لم يكن لدي اعتراض على إهانتي وضربي ومعاقبتي.. كل ما كنت أطلبه أن يصرح الآخرون عن نواياهم بوضوح.. كنت أريد لها وهي تتظاهر بمساعدتي، ألا تحتقرني في داخلها، ولا تشعر نحوي بالاستياء.. وكنت أعتقد أنَّ الوضع في العمل لم يكن مختلفًا.. لقد اتفق الجميع على خداعي.. كانت زيارتي الأخيرة في ساعة متأخرة بعض الشيء.. فقد تعمدت الحصول على آخر موعد لذلك اليوم.. ورغم ذلك كان علي الانتظار مطولًا حتى جاء دوري.. حين دخلت ورأيت التململ في عينيها، فقدت السيطرة على نفسي بشكل نهائي.. فأنجزت مهمتي على مهل.. بدأت بالوصفات الطبية المكومة على طاولتها، مزقت كل ورقة طالتها يداي.. ثم انتقلت إلى التحطيم والتكسير.. كنت أفعل كل ذلك وأنا أحدق في عينيها بإصرار.. في البداية استهانت بالأمر، وحاولت تهدئتي بأسلوب لطيف.. ثم استدعت سكرتيرتها، وتمكنتا من إخراجي من الباب، بذات الجمل اللطيفة والكلمات الرقيقة التي تلقى على مسامع الأطفال عادة، وكأني أقوم بأكثر الأشياء طبيعية على وجه الأرض.. فقلت في نفسي "ها قد انتهت هذه المغامرة أيضًا".. وتأكدت أنَّي مريضة لدرجة تمنعني حتى من تقبل المساعدة.

- للبقاء في المكان الذي كنت تختبئين فيه، أضفيت على كل طبيب ذهبت إليه، صورة نمطية سلبية.
- في أحد الأيام استدعاني مديري، وسألني إن كنت أزور طبيبًا نفسيًا أم لا.. سألني بكل وضوح ودون أدنى تردد.. تحدث بأريحية وكأن ضرورة ذهابي لطبيب نفسي، أكثر الأشياء منطقية في هذا العالم.. حينها ارتحت من تلك الشكوك والريبة التي كانت ترهق ذهني طوال الوقت.. وقلت في نفسي: "لو أنَّ في الأمر قذارة ما، لما حدثني بهذه الصراحة والوضوح"..

فأخبرته أنَّي تنقلت بين العديد من الأطباء.. مدّ لي بطاقتك وهو يقول: "حاولي أن تجربيها".. ثم لم يعد إلى ذكر الموضوع لاحقًا، رغم أنّي ماطلت في زيارتك مدة لا بأس بها.. وأخيرًا اتخذت قراري.

- سعيدة لأنَّك أتيت أخيرًا.
- إنَّه شعور رائع وأنا أسمعك تقولين ذلك.. رغم أنَّي قد أتيت حينها وفي رأسي مخططات مغايرة تمامًا.

تقول ذلك وهي تبتسم تلك الابتسامة التي من الواضح أنَّها تحتاج للوقت لإتقانها. إنَّها تمازحني. أشعر بالبهجة وأنا أرى قدرتها على المزاح وسط كل آلامها، فأضحك.

- أتعلمين أنَّي حاولت التخلص منك في البداية؟
- أدركت ذلك، لكن ربما كانت الحظوظ تقف إلى جانبي للمرة الأولى في ذلك المساء.. كنت أعلم أنَّها فرصتي الأخيرة، ما جعل خوفي يتفاقم.. لقد ساعدني الحظ حين دفعت بي دون تردد إلى الخارج.. حينها اختفت محاولاتي لرفض العلاج، بعد أن انتفت الحاجة إليها.. لا يمكن أن تتصوري مدى الراحة التي شعرت بها، وأنا أتلقى على يدك المعاملة التي لطالما ظننت أني أستحقها.. فقد عثرت أخيرًا على شخص لا يخدعني.. شخص يرفضني دون مواربة.. كانت نقطة تغير المسارات.. وبدأت البحث بكل إصرار عن سبل إقناع هذه الطبيبة التي رفضتني.
- أتعلمين سبب هذا الإصرار؟
- في البداية لم أكن أعلم.. كان صوت ما داخلي يرغب في القيام بذلك وكنت أطيعه، لكني بت أعلم الآن.. كانت مهمة إقناعك بقبولي وبذلك الإصرار الكبير، أصعب من أن أقوم بها وحدي.. لذا فقد عملنا أنا وأمي يدًا بيد.. فكلتنا لديها خبرة في هذا المجال.. فقد كانت تلهث خلف السلطانة أسما، وأنا ألهث خلفها.. أن نبذل جهدًا هائلًا، للحصول على

قبول شخص ما، كانت تجربة حياتية عشناها أنا وهي بكل زخم.. ولأول مرة منذ سنوات كنت أعلم تمامًا ما يجب علي فعله.. فلم تعد الفرقة تعزف لحنين متضاربين في رأسي، بل بدأت كل الأصوات تتناغم في معزوفة واحدة.. لكن ما لبثت أن اختلطت الأمور في ذهني مجددًا.. فلم يكن بك شبه لا بالسلطانة أسما ولا بأمي.. كنت تتصرفين بالقسوة والإرادة القوية ذاتها، لكن دون أن تقومي باستعبادي.. كنت أرغب أن أتلقى منك معاملة العبدة مع كل ملحقاتها من إهانة واستهزاء وتحقير.. تلك كانت توقعاتي، خاصة في الفترة الأولى، وهو ما كان يدفعني إلى الإصرار على المجيء إليك.. وكنت أقول في نفسي: إن لم تفعل ذلك اليوم، فبالتأكيد ستقوم في المرة القادمة بإهانتي وسحقي.. لكني وبمرور الوقت أدركت أنَّك لن تفعلي ذلك.. حينها بدأت أتلهف أكثر للمجيء.. حتى أنّي كنت أبكر في المجيء معظم الأحيان، لأقضي أطول مدة ممكنة قريبة منك، في المكان الذي تتواجدين فيه.. أما تلك الحكايات.. تلك الحكايات التي كانت تُروى لي وحدي.. فقد كانت متعة لم أختبرها قط.. أتعلمين أمرًا؟ أحيانا ورغم رغبتي في التحدث، كنت أتعمد البقاء صامتة لاختبار قدرتك على تحملي.. كنت أنقب في معاني كل كلمة تقولينها لي، وأدقق في تعابير وجهك في كل حالاتك كي أحفرها عميقًا في ذاكرتي.. وكأني بت خاضعة لسحرك.. وحين مددت يدك نحوي وأنت تقولين لي "أمسكيها".. لم أفعل ذلك في البداية، لكن بمرور الوقت اكتشفت أنَّ التمسك بتلك اليد، ليست أمرًا مخيفًا كما كنت أتخيل.. وهكذا بدأت الخروج رويدًا رويدًا من أعماق ذلك البئر.. واكتشفت أنَّ أمي قد غادرتني.. لكني لم أكن وحيدة.. فأنت إلى جواري.

لا أتمالك نفسي وأنا أسمعها، وبالكاد أتمكن من السيطرة على رغبتي في البكاء. إنَّها تقول ما أنتظر سماعه بأسلوب آسر.. إذًا لا جهد يضيع سدىً!.. أشعر

أنَّ سحابة صيفية من البهجة تظلل المكان، بعد انقشاع غيوم الأسى القاتمة، التي كانت تمنعنا من رؤية بعضنا. لأول مرة أراها تضحك بطلاقة، فأبادلها الضحكة.

- صوتك جميل حقا! هل لاحظت ذلك من قبل؟
- لاحظت ماذا؟

ترتعش وكأنّ تيارًا سرى في جسدها فجأة، وتحني رأسها بسرعة وهي تخفي عينيها بيديها. لا تزال تشعر بالخجل من كونها تتصرف على طبيعتها الحقيقية، أو من الثناء عليها لقيامها بشيء جيد.

- لكني فرحة أكثر منك، وأخيرا سأتخلص من تلك النبرة الطفولية الحادة التي كانت تخدش أذني منذ أشهر. وأرجو لهذا الصوت الحريري، أن يحدثني من الآن فصاعدًا عن السعادة والأمل.

تومئ برأسها موافقة وهي تبعد يديها عن عينيها. علي الآن أن أوجه انتباهها نحو مسار آخر، وأقدم لها أكثر ما تحب في هذه الجلسات. على حكاية اليوم أن تكون حافلة بالكفاح ومواجهة الحياة بكل إصرار رغم ما فيها من حزن وألم. قصة نجاح باهرة لامرأة صغيرة، حولت حياتها القصيرة إلى أيقونة.

- والآن خذي نفسًا عميقًا واسترخي في مقعدك، واستعدي لتسمعيني.
- ستروين لي حكاية؟

تكاد تقفز فرحًا كالأطفال، ثم تستند ظهرها على الكرسي، ويظهر على وجهها الفضول والترقب.

- سأروي لك اليوم حكاية إيفا بيرون. صحيح أنَّها حكاية يلفها الحزن، ولكنها عن مسيرة رائعة من النجاح.
- إيفا بيرون، سيدة الأرجنتين الأولى؟.. اسمها يستحضر القوة والطموح دومًا. لا بد وأنَّ لديها قصة حياة رائعة.
- لم يحزم التاريخ أمره حول تصنيفها بعد، فهي تتأرجح بين كونها قديسة، وبين اعتبارها داعرة. فليس من السهل على الجميع تقبل تفوق الآخرين عليهم،

خاصة إن كان امرأة. كما أنَّ احتمال سحقها تحت تلك القوة والشهرة، أعلى بكل المقاييس. فمعظم النساء يواصلن حياتهن في صمت تحت سطوة رجل قوي، في عالم يحدد قوانينه الذكور. وإيفا بيرون واحدة من تلك النساء اللواتي مزقت تلك السطوة وأحرقت أهم رموزها، لتقفز إلى المسرح بكل جرأة. كانت الطفلة الأصغر من أصل خمسة أطفال كانوا ثمرة علاقة غير شرعية بين والدتها ووالدها المتزوج من أخرى. ولدت العام ألف وتسعمائة وتسعة عشر في إحدى بلدات الأرجنتين الصغيرة. كانت إيفا في عامها الأول حين تخلى عنهم والدها خوان الذي كان حتى ذلك الحين يعتني بأسرتين، وانتقل ليستقر مع زوجته الشرعية. وهكذا اضطرت والدتها للعمل كخياطة لتعيل أبنائها، الذين بات وضعهم بائسًا. وكانت إيفا طفلة تشبهك، صامتة وهزيلة.

- أرجو ألا تقارنيها بي.. فأنا أحب تلك المرأة كثيرًا.
- أرجو أن يأتي اليوم الذي تحبين فيه نفسك كما تحبين تلك المرأة. في الخامسة عشرة من عمرها، تركت منزل عائلتها، وبدأت بالعمل في الإذاعة والمسرح. وحققت شهرة من خلال التمثيليات الإذاعية. ورغم صغر سنها، كانت قد امتلكت الخبرة الكافية التي تدلها على طريق الشهرة الذي يمر بين أحضان الرجال الأغنياء. ولو لم تتعرف على خوان بيرون، لبقيت ممثلة من الدرجة الثانية، وخبت شعلتها في وقت قصير، دون أن يتذكرها أحد أغلب الظن.
- على العكس، أظنها كانت ستجد طريقة أخرى لبلوغ الشهرة والثروة.
- أنت محقة، فمن تملك عزيمة حقيقية لبلوغ النجاح، لن تقف الحياة في طريقها. مرت إيفا بظروف قاسية، لكنها تعرفت في العام ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين على خوان بيرون، والذي كان أمين عام الحكومة حينها، رجل معروف بنجاحاته العملية، إلى جانب وسامته ومغامراته النسائية. لكن إيفا بذلك الطموح المتقد في نظراتها، إلى جانب خطاباتها النارية

وشخصيتها القوية، تمكنت من أسر قلب خوان منذ اللحظة الأولى. كان مسؤولًا عن الحملة التي أعدتها الحكومة لمساعدة ضحايا الزلزال الذي وقع منذ فترة وجيزة، وكانت إيفا من بين العاملات في الحملة لمساعدته. وبسبب تأثره الشديد بمهاراتها أخذها برفقته، لتتولى لاحقًا قيادة الحركة النسائية التي ستبدأها. وبذلك غدت إيفا شريكته في العمل وعشيقته في آن.

- شاركت أمها المصير ذاته مع الرجال.

تواصل البحث عن نفسها بين ثنايا هذه الحكايات، وهي تخشى على ما يبدو أن تشابه أقدارها، قدر أمها. إنَّها محقة، لذا عليها أن تتصرف بوعي تام من هذه الناحية.

- هل تشعرين أنَّ قدرك يشبه قدر أمك؟

- لن أسمح بحدوث ذلك.

- إذًا فأنت قد اتخذت القرار! أهنئك. في الحقيقة كانت شخصية إيفا مناسبة تماما لدور المرأة التي تدعم رجلًا لديه طموحات سياسية كبيرة. كان خوان بيرون قد تزوج سابقًا لكنه فقد زوجته بسبب سرطان الرحم. وبعد وفاتها لم يدخل في علاقة جدية مع امرأة أخرى، بل فضل أن يبقى متاحًا لما تقدمه له الحياة يوما بيوم. كان رجلًا حداثويًا، وعسكريا ناجحًا. أما إيفا فممثلة إذاعية مغمورة، لم تتم تعلميها، وليس لديها حصيلة ثقافية يعول عليها، لكنها مقابل ذلك تتقد نشاطًا، ولديها قابلية للتعلم بسرعة كبيرة. ورغم الضغوطات التي تعرض لها بيرون من بيئته الاجتماعية، لكنه واصل علاقته مع إيفا كعشيقة. في العام ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين، اعتقل بيرون لكسر شعبيته التي بدأت بالتزايد. وبعد أن أطلق سراحه في العام التالي، كان أول ما قام به هو الزواج من إيفا، لأنَّ اسمه بات مطروحًا بقوة كرئيس قادم للبلاد، وكان عليه إما الزواج بإيفا، أو قطع علاقته بها نهائيًا. وبعد زواجهما بفترة قصيرة تم انتخابه رئيسًا للبلاد، لتصبح إيفا بيرون السيدة الأولى. وقد أدت دورها على أكمل وجه، حيث اشتهرت بخطاباتها النارية في كل مدن البلاد لدعم زوجها،

وأصبح لها مكان على الساحة السياسية، حتى أنَّها غدت أكثر شعبية من زوجها في بعض المجالات. فكانت الشخص الذي تتم دعوته أولًا في كل افتتاح أو مهرجان. وقد قامت بجولة على الدول الأوربية لوحدها بصفة السيدة الأولى للأرجنتين، تلك الجولة استقطبت اهتمام العالم كله. كما كانت ثيابها ومجوهراتها تأتي إليها من باريس، وقد انغمست لفترة في هذه الحياة الفارهة، لتعويض النقص القديم الذي صبغ طفولتها.

- يمكنني تفهمها، فأحلام البؤساء عادة ما تكون بائسة.. وحده الله يعلم كم كانت تحلم بالثياب الجميلة والمجوهرات، وهي تراقبها من بعيد متحسرة. فهل استطاعت أن تعوض ذلك النقص الذي في داخلها؟ هل اغتنت روحها أيضًا؟.. لأنَّ الثياب الجميلة والمجوهرات الثمينة، ليست كافية لتحيلها إلى أميرة.

اللافت أنَّ التغير قد طال ليس فقط نبرة صوتها، بل حتى أسلوبها في الكلام، فهي باتت تتكلم دون أن تقطع الجمل بالوتيرة السابقة ذاتها، مكتفية بوقفة قصيرة في نهاية كل جملة. إنَّها تبدع في تحليل الأمور بأسلوب غاية في الإتقان الأدبي، وكأنها ليست تلك الفتاة التي كانت تتقلب على ألسنة عذاباتها، عاجزة عن التحدث قبل قليل. وكأن تلك الفتاة البائسة التي تتجول بثياب مهلهلة يغطيها العفن والغبار، وتجرجر خطواتها في تثاقل تخفي تحت أسمالها أميرة. وقد أخبرتني قبل قليل أنَّها تحب إيفا بيرون، رغم الخصومة بينها وبين الأميرات.

- أنت محقة، ولا بد أنَّها لاحظت الأمر قبل مرور الكثير من الوقت، لذا قامت بإنشاء (صندوق إيفا للأعمال الخيرية)، ومن خلال هذه الجمعية واصلت العمل، فلم تكن مؤسستها لتقديم المساعدة للفقراء فحسب، بل كانت تستمع إلى مشاكل الناس، وتحاول تقديم الحلول الممكنة. فتجد بيوتًا لمن يحتاج، حتى أنَّها تدفع عنهم الإيجار، وتقدم المساعدات المالية لآخرين، إلى جانب الرعاية الصحية للمرضى. كان معظم من يقصدون

مؤسستها، فقراء مرضى وقذرين. ورغم رائحتهم الكريهة، كانت إيفا لا تتوانى عن الاقتراب منهم في شفقة، بل وتقبيلهم واحتضانهم أيضًا، الأمر الذي يثير إعجاب العاملين لديها، ففي حين يتحاشون الاقتراب من هؤلاء الأشخاص، كانت هي لا تتردد في الجلوس قربهم واحتضانهم بكل محبة. ويمكن تفسير اهتمامها الشديد بالفقراء، كونها قادمة من بيئة فقيرة جدًا، نالت فيها نصيبها من العوز والحاجة، وكونها نشأت محرومة من حنان الأب ورعايته. كانت تقضي الكثير من الليالي في العمل حتى الصباح، وتعود بسيارة أجرة إلى بيتها، بعد أن خصصت سيارتها الليموزين للقاءات الرسمية. كانت تأكل القليل، وبالكاد تنام، وقد كرست كل طاقتها للعمل، الأمر الذي كان يزعج خوان بيرون، لأَنَّه بات لا يرى زوجته إلا فيما ندر. أسبغ الشعب عليها صفة القداسة، وباتت أعلى مكانة لديهم من الرئيس وبقية الزعماء السياسيين. لقد كانت إيفا مجرد امرأة من مدينة صغيرة، تزوجت بالرجل الذي أحبته، لكن القوة تقلب موازين العلاقة بين البشر، وأكثر ما تفتك به هي مشاعر الحب. لأنَّ الساحة التي تهيمن عليها القوة والسلطة، ساحة حرب لا يمكن للحب أن يستمر فيها، فهو لا يقبل منافسًا له على ساحته. وكانت علاقة إيفا وبيرون، زواجًا بين قوتين أو سلطتين.

- إنَّ وصفك للعلاقة بين القوة والبشر جميل.. أتمنى أن أشعر بتلك القوة يومًا ما.. ألم تنجب إيفا أطفالا؟

- لم تنجب، وكانت عادة ما تجيب على هذا السؤال بالإشارة إلى الأيتام وأطفال الفقراء الذين تتولى العناية بهم، وهي تقول: "هؤلاء أبنائنا الحقيقيون"، وبذلك تكرست صورتها كقديسة في أذهان الجميع. وقد غدت زعيمة روحية للبلاد، لا يمكن لأحد انتقادها، محاسبتها، حتى زوجها لم يكن يقوم بمحاسبتها. بدا وكأن القوة استحوذت عليها، فكانت تعمل حتى الصباح، ولا تلقي بالًا لتعليمات الأطباء حول الاعتناء

بصحتها، فيما تخسر وزنها باستمرار. أخيرًا أجبرها زوجها خوان على الذهاب إلى الطبيب، الذي اكتشف إصابتها بسرطان الرحم، تمامًا كزوجته القديمة، فآثر أن يخفي الخبر عنها.

لكن عدم قدرتها بعد مدة وجيزة عن النهوض من سريرها، جعل الخبر ينتشر كالنهار في الهشيم في كافة أرجاء البلاد. فغصت الشوارع بالناس، الذي باتوا يجتمعون حتى ساعات الفجر ويدعون لها بالشفاء، حتى أنَّهم كانوا يصرون في بعض الأحيان على رؤيتها، فيضطر زوجها أن يحملها بين ذراعيه كي يخرجها إلى الشرفة.

- حياة الطيبين قصيرة، لو أنَّها عاشت لسنوات أطول، لكانت حياة الكثيرين من الناس غدت أفضل.
- تشعرين بالحزن عليها؟
- أجل، فقصتها حزينة.. وكأن القدر يتلاعب بهم.. فكلتا الزوجتين أصيبتا بسرطان الرحم.. هل حزن زوجها عليها كثيرًا؟
- لا أدري.. فقد ماتت إيفا العام ألف وخمسمائة واثنين وخمسين.
- كم كان عمرها حينها؟
- كانت في الثالثة والثلاثين.
- كانت لا تزال شابة. إذًا فقد حققت كل ذلك خلال بضعة سنوات فقط؟
- أجل، فقد نجحت خلال مدة قياسية أن تصبح معروفة على صعيد العالم، كما حققت الكثير من الإنجازات الرائعة. حين ماتت خرج الشعب كله إلى الشوارع لتوديع قديستهم المحبوبة، حاملين الشموع وهم يبكونها لأيام. وقد استدعى خوان الطبيب الإسباني الشهير في مجال التحنيط بيدرو آرا، لتحنيط جثمان زوجته. بقي هذا الرجل مع جثة إيفا لمدة عامين، وهو يعمل بكل حذر، وأخيرًا نجح في تخليد جسدها. ولا بد أنَّ إيفا كانت قد استحوذت على إعجابه في حياتها، حتى قام بتدوين مذكراته خلال فترة عمله تلك. وقد بقي جسدها سليمًا لسنوات دون تجميد.

حتى أنَّه كان يجلس جسدها المحنط على مائدة الطعام في بعض الأحيان، ليتناول طعامه برفقتها وكأنها لا تزال حية.

- موقف غريب جدًا.
- معك حق، كان موقفًا غريبا، فكلاهما الشعب والطبيب آرا أظهرا تعلقًا غريبا بإيفا. وأخيرًا وبعد ستة عشر عامًا على موتها، ثم دفن جثمانها.
- وهل نسيها الشعب؟.
- بعد خلع خوان بيرون عن رئاسة البلاد، أرادوا محو اسمها من ذاكرة الأرجنتين، فتم تمزيق صورها وتماثيلها، وأزيل اسمها عن كل ما له علاقة بها، لكن الشعب ظل يتذكرها. في خطابها الأخير قبل موتها كانت قد قالت: "سأعود مجددًا، سأعود بالملايين". وقد كانت محقة، فهذه المرأة التي غيرت حياة الملايين بإصرارها وطموحها، تركت أثرًا أعمق بكثير في ذاكرة الشعب من زوجها.. وبعد سنوات تم تجسيد حياتها في فيلم سينائي غنائي باسم إيفيتا، وأغنية (Don't cray for me Argentina)

تهتف بحماس قبل أن أتم جملتي.

- (لا تبكي من أجلي يا أرجنتين)..
- أجل، هذه الأغنية جعلت الناس يستحضرون إيفا بيرون مرة أخرى، ويحيون ذكراها في إعجاب عظيم بشخصيتها. فصورتها على شاشة السينما جعلتها تستعيد الحياة من جديد بعد كل تلك السنوات، لتثبت أنَّها لا تزال تحظى بالمحبة رغم الموت.
- أتمنى لو كنت مكانها، فإنجاز كل ما قامت بإنجازه، لا بد وأنه يتطلب قوة جبارة.
- كانت إيفا في حقيقة الأمر، فتاة قروية فقيرة، ليس لديها أحد لحمايتها أو الاهتمام بها. لكن ما قادها إلى النجاح هو إرادتها، فقد أصرت أن تكسب اللعبة بطريقة ما، ولم تتخل عن إصرارها حتى النهاية. هذا هو السر.

- لكن الحظ أيضًا وقف إلى جانبها.
- صحيح، يمكن اعتبار تعرفها على بيرون ضربًا من الحظ، لكنها قامت باستغلاله كأفضل ما يكون. فوحده الله يعلم عدد النساء اللواتي تعرف إليهن بيرون قبلها، وهو المعروف بشغفه بالنساء. لكنه إيفيتا كانت الوحيدة القادرة على تحويل الفرصة لصالحها.
- إيفيتا هو تصغير لإيفا على ما أظن؟
- أجل، إيفا الصغيرة بجسدها، العظيمة بروحها. يبدو أنَّك تحبين الأغنية؟
- أجل، أحبها كثيرًا.
- أتستمعين إلى الموسيقى؟
- كنت أفعل سابقا، وكانت الأغنيات المشحونة بالعاطفة تترك علي أثرًا بالغا.. ثم توقفت عن سماع شيء.
- لما؟
- بعد أن أصبحت أعيش بمفردي في ذلك البيت، قضيت معظم الوقت في الدراسة أو القراءة، كان علي أنا أيضًا أن أكسب هذه اللعبة بطريقة ما.. وإلا لن أعتبر نفسي جديرة بالبقاء حية.
- أحسنت، أعجبني هذا الكلام. إذًا ما رأيك أن نبدأ منذ الآن، فكما تحدثنا سابقًا، لا أريدك أن تواصلي الذهاب إلى العمل، وأنت بهذه الهيئة. أعرف دارًا لتصميم الأزياء، وسأطلب منهم تجهيز مجموعة من الثياب الملائمة لسنك وعملك. هل تناسبك هذه الفكرة؟
- أجل، فأنا لا أريد مواصلة هذا الجنون. كانت حياتي عبارة عن جون، وموت وأنت.. والآن لم يبق أحد سواك.

حقًا إنها تنجح في إبهاري بأسلوبها كل مرة! لقد أخبرتني عن ذلك قبلًا، لكن هذا المثلث كان لا يزال مسيطرًا على ذهنها في ذلك الوقت. والآن وقد قامت بهدمه، لم يبق من أحد سواي. مسؤوليتي اتجاهها، ودوري في حياتها في ازدياد، ما

يعني أنَّ لدي مهمة جديدة علي التغلب على مشقاتها وإتمامها بأفضل ما يمكن. وبدل الخشية من تولي مسؤولية عمل جديد، أحاول فهم المشكلة بكافة جوانبها، واتخاذ القرارات بعد الكثير من التأني والتفكير.

- من الرائع سماعك تعترفين بتخلصك من الاثنين. أرجو أن يأتي اليوم الذي تتخلصين فيه مني أيضًا.
- لا، فأنا لا أريد شيئًا كهذا مطلقًا.. أرجوك لا تتخلي عني أبدًا.
- اطمئني يا عزيزتي، أنا باقية هنا ولن أغادر. وأتمنى أن أبقى على الدوام في ركن ما من حياتك، لكن من المجحف بحقك أن أبقى في محورها. سأظل إلى جانبك طالما أنَّك بحاجتي. وبهذه المناسبة، دعينا نواصل موضوع الاهتمام بتغيير مظهرك، اتصلي غدًا صباحًا بتونا، وهي ستبلغك بكافة التفاصيل، لأنِّي سأكون قد اتصلت ورتبت كل شيء من أجلك. هل أنت موافقة؟

تتردد لوهلة قبل أن تومئ برأسها موافقة. ثم تنهض وتسير نحوي، فأنهض عن الكرسي ببطء. تمد يدها نحوي، ولكنها بدل أن تصافح يدي، تنحني لتقبلها برفق، وتضعها على جبينها، ومن ثم تحتضني. نظل على تلك الحال بعض الوقت، متمسكتين ببعضنا بقوة، وكلتانا ترتعشان. ثم نفترق بهدوء، والابتسامة على وجهينا. لكنها تحني رأسها على الفور خجلًا. فأربت على ظهرها بحنان، وأرافقها حتى الباب. ما إن أغلق الباب حتى استند بظهري إليه، واظل على هذه الحال لبعض الوقت مغمضة العينين. أشعر بموجة من التعب تجتاح كل جسدي.

وكأني ربة منزل قامت بتنظيف البيت برمته، كشطت سخام القدور، فركت كل الحمامات، وأخيرًا غسلت كل الملاءات والستائر. متعبة، ولكنها سعيدة. عليَّ مغادرة المركز على الفور.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثالث عشر

يكاد الصيف يشارف على الانتهاء، ولم أذهب لقضاء إجازتي الصيفية بعد. لكن الحقيقة أنَّي أنتظر انقضاء موجة الحر الحالية، لتصبح الأجواء أكثر اعتدالًا. وهناك آلا، التي باتت تشغل معظم تفكيري، فلا أريد تركها وهي تخطو أولى خطواتها الفعلية نحو العلاج.

ما حدث ذلك اليوم كان استثنائيًا، فقد أجابت على معظم أسئلتي، وبدا وكأنها تخرج من شرنقتها. وحتى لو لم يتغير مظهرها الخارجي بعد، لكني أعلم أنَّها باتت شخصًا آخر.

ربما إن حاولنا أكثر، فستتمكن من تغيير دفة الأقدار، لتفتح آلا أشرعتها لرياح جديدة، وتبحر صوب وجهات مغايرة. فمنذ اليوم الأول لاحظت كم هي ذكية وموهوبة، وما روته لي آخر مرة، لا يكف عن إثارة دهشتي، أليست معجزة حقيقية أن تكون فتاة مثلها متفوقة في دراستها، وهي التي نشأت في منزله ساده الجنون، وعلى يدي أم تضربها بوحشية حتى تكاد تقتلها؟

ولكني أميل للاعتقاد أنَّ لهذا التفوق خلفية نفسية، لقد حاصرتها الظروف في زاوية بين الحياة والموت، فوجهت كل تلك الطاقة السلبية التي تولدت عن هذا العنف، نحو الدراسة والتعلم. لابد وأنه أسمى الطرق البشرية لتوجيه الطاقة وتصعيدها.

وهو أمر نصادفه على صفحات التاريخ، حين نقرأ سيرة العديد من المبدعين والفنانين، فمعظم الرسامين والموسيقيين بدأوا العمل على أعمالهم التي خلدت اسمهم في التاريخ، في أحلك فترات حياتهم. وكأن تلك الطاقة السلبية التي تولدها

القسوة التي يتعرض لها الإنسان، شلال يمر تحته، فتتطهر روحه، وتتحقق المعجزة، وهذا ما يطلق في التحليل النفسي "التسامي"، وهي آلية يستطع قلة قلائل من البشر الوصول إليها، لكن هذه الفتاة قد أتقنتها وهي لا تزال طفلة. فقد كرست نفسها للدراسة، والتفوق، رغم أنَّها لا تحدثني قط عن تلك النجاحات. فهي قادرة على توصيف كل لمسة شر داخلها كبيرة كانت أم صغيرة، وتضخيمها بقسوة إلى أبعاد خيالية، لكنها تتجنب على الدوام نجاحاتها، وتقلل من شأنها.

عادة ما يفعل الناس العكس، منقادين لتضخيم مزاياهم الحسنة، متغافلين عن سَوْءاتهم. وهي ليست عادة سلبية دومًا، فقد تكون وسيلتنا للوقوف على قدمينا، والاستمرار. أما في حالة آلا، فهي لم تنحرف عن السلوك الذي اتبعه الجميع معها، وهو النبذ. فهي لم تحب نفسها، ولم تظهر الإعجاب بمزاياها. ولا يمكن أن نطلق عليه تصرفًا مهينًا، فحتى الإهانة تحمل في طياتها خيطًا من الشك والتردد. الأمر الذي لا ألحظه لدى آلا، فهي متيقنة كما كان جميع من حولها، أنَّها وضيعة سيئة وآثمة. وهذا ما كان يجعلها منذ اليوم الأول تنزعج من أدنى إطراء أو تعليق إيجابي، وتفسر الأمر على أنَّه خديعة أو رياء.

حال وصولي إلى المركز، أتصل بواحد من دور الأزياء الشهيرة التي أتبضع عادة من متاجرهم، فإن قمنا برمي ثياب أمها، لن يتبقى لدى هذه المسكينة ما ترتديه. أتحدث مطولًا إلى صاحبة الدار، وأطلب منها الاهتمام أيضًا باختيار أحذية وحقائب يد مناسبة لها. فتوافق مبتهجة، فمن أين لها الحصول في عزّ الصيف على زبونة مثلها؟ وأخبرها بأني أريد رؤية الفاتورة النهائية، فتجيب دون ترد:

- سنهتم بذلك أيضًا بكل سرور.

ثم أطلب من تونا المجيء لغرفتي، وأطلب مساعدتها في تنسيق الأمر مع آلا التي من المفترض أن تتصل بها اليوم.

تنظر نحوي ضاحكة، وكأنّ مهمتها الأساسية في هذا العالم، منح البهجة والفرح والمحبة لمن حولها.

- لن تستطيع الذهاب لوحدها إلى مكان كذاك.

إنَّها محقة، ربما يمكنني طلب العون من صليحة هذه المرة، فأتصل بها وأدعوها للمجيء إلى غرفتي على الفور. وهي أخصائية نفسية، في مثل عمر آلا تقريبًا، شغوفة بالموضة والتأنق، تبدو جميلة وفي كامل أناقتها على الدوام، كما أنَّها شابة متقدة الذكاء، فخلال فترة وجيزة باتت خبيرة في الشؤون الإدارية المتعلقة بالمركز.

تصل صليحة خلال دقائق، تسمع ما أطلبه منها مندهشة؛ وهو أمر طبيعي، ثم توافق على المساعدة عن طيب خاطر. حيث ستقوم تونا بتعريفهما إلى بعض. أشعر ببعض الراحة، بعد إنجاز هذه المهمة أيضًا.

بعد انتهاء مواعيدي المسائية، تدخل صليحة ضاحكة، وقبل أن أطرح أيّ سؤال، تبدأ الحديث مستفيضة.

- يا إلهي! ما هذه الفتاة غريبة الأطوار يا دكتورة؟ لم أر في حياتي أحدًا يرتدي تلك الثياب. كنت ألمحها أحيانًا جالسة في قاعة الانتظار، فأظنها تعاني من شيزوفرينيا حادة، لكنها أخبرتني بأنها محامية. لم أصدق ما قالته لي.
- حسنًا، دعينا من كل هذه الثرثرة، وأخبريني هل نجح الأمر؟
- عرفتنا تونا على بعضنا هذا الصباح، لكن الفتاة ظلت صامتة، وكلما حاولت فتح حديث معها، تختصر الإجابة في كلمة وتصمت. على أيّ حال، ذهبنا سوية إلى العنوان المطلوب، إنَّه محل راق وأنيق بالفعل، وقد اشتريت أنا أيضًا الكثير من القطع الأنيقة. أصيبت السيدة هوليا بالصدمة حين رأت مظهر آلا، لكنها حين علمت أنَّها الفتاة التي حدثتِها بشأنها، بدأت هي وكافة الموظفات الاهتمام بها. إلا أنَّ إرضاء هذه الفتاة كان الجزء الوحيد الصعب في هذه المهمة.
- على رسلك، فأنت تبالغين.

- أقسم لك أنَّ هذا ما حصل بالفعل، فقد كان أفضل رد لها على أجمل ما ارتدته، هو زمّ شفتيها ممتعضة.
- كل ما في الأمر أنَّها لا تعرف كيف تعبر عن إعجابها، ولا أظنها زمّت شفتيها مستاءة.
- على أيّ حال، من الواضح أنَّ صاحبة المحل والموظفين خبراء في عملهم، فلم يلقوا بالًا إلى انطباعاتها تلك. فقد بدلوا ثيابها وقلبوا كل مظهرها، حتى أنَّهم كانوا يلبسونها حذاء مناسبًا، ويضعون في يدها حقيبة جميلة قبل أن يوقفوها قبالة المرآة كل مرة. أتصدقين؟ حتى هي استغربت من صورتها في المرآة.. لا يغرك مظهرها، فهي بالفعل فتاة رقيقة جميلة.
- هي ماذا؟
- لا أعني أنَّها حسناء، ولكنها بدت مختلفة تمامًا عن مظهرها حين تأتي إلينا. كما أنَّها لا تضع ذرة من مساحيق التجميل، ما رأيك أن نرسلها إلى مركز تجميل، لنرى إن كانت جميلة بالفعل أم لا؟
- فكرة رائعة! لم تخطر لي على الإطلاق، إن كنت تعرفين مكانًا جيدًا، خذيها إليه.
- مركز تجميل؟
- أجل.
- أيعقل ألا أعرف يا دكتورة؟ لكني لا أظن أنَّ مركز تجميل عادي سيفي بالغرض، فهي بحاجة إلى جراح تجميلي أيضًا، ألم تلاحظي أنفها؟
- وهل يمكن ألا ألاحظه؟ ولكن أعتقد أننا لا يجب أن نتدخل إلى هذا الحد.
- ومع ذلك سأسألها. كان الوقت متأخرًا حين خرجنا من المحل، ورغم أنَّهم أحسنوا ضيافتنا، وقدموا لنا مختلف المشروبات وسواها، لكننا كنا

مرهقتين وجائعتين، فاقترحت عليها أن نأكل في واحدة من المطاعم القريبة، وقد وافقت على الفور. جلسنا متقابلتين، وأنا أظنها ستواصل الصمت، لكنها بدأت بالتحدث إلي من تلقاء نفسها. وبقينا نتحدث لما يقارب الساعة. تبدو طريقة كلامها غريبة جدًا، وكأنها تتعلم التركية للتو، هل كانت تعيش في الخارج قبلًا؟

- لا.

- ربما لديها مشاكل في النطق إذًا. فهي تتحدث في جمل مقطعة بطريقة غير مألوفة، وتتمهل وكأنها تفكر قبل أن تبدأ جملة جديدة. لكن بعد برهة من تبادل الحديث معها، يعتاد المرء على أسلوبها.

- كان أسلوبها في الكلام خلال الفترة الأولى، أسوء بكثير، لكنه بات يتحسن الآن.

- ليس لديها أصدقاء، وهي لا تعرف كيف تنشأ صداقات وتتحدث مع الآخرين. على كلٍ، فقد بدا واضحًا أنَّها مرتاحة معي، وإن شئتِ، فأستطيع الاهتمام بهاٍ ومرافقتها من حين لآخر.

- سيكون ذلك لطفًا كبير منك. كما أنَّها ستكون محظوظة جدًا، إن كانت أولى صديقتها أخصائية نفسية، تعرف تمامًا كيف تتعامل معها.

- بالمناسبة، وبينما نحن جالستان في المطعم، سألتها كل ما يلزمني من أسئلة حول القوانين وما شابه.

- يبدو أنَّك قمت باستغلال الفرصة كأفضل ما يكون!

- لا تقولي ذلك يا دكتورة! على أيّ حال فالفتاة مخزن معلومات، ولديها أسلوب جميل في الشرح، حين يتعلق الأمر بعملها. أتعلمين؟ إنَّها أغرب شخص تعرفت عليه، وأغرب يوم عشته حتى الآن.

- أشكرك على كل ما قمت به من أجلها، وأنا ممتنة كثيرًا. أرجو أن تستمري في الاهتمام بها، فهي ستكون بحاجتك كثيرًا خلال هذه الفترة.

- لا تقلقي يا دكتورة، سأهتم بها بكل سرور، وكما أخبرتك فهي تجربة غريبة وممتعة بالنسبة لي أنا أيضًا.

ينتهي النقاش حول آلا، لكن صليحة لا تغادر، إذ تتصل مع حسن كي يأتي إلى غرفتي، من أجل عقد الاجتماع المسائي. كالعادة هناك الكثير من التغيرات الواجبة، والأمور العالقة التي يجب مناقشتها. يدخل حسن بعد برهة، ويفجر القنبلة حال دخوله. كوننا نعمل تحت مظلة وزارة الصحة، فإنَّ آلية العمل في المركز تتأثر بصورة مباشرة بكافة اللوائح والأنظمة التي تصدرها الوزارة. وقد صدرت اليوم مجموعة لوائح لها تأثير بالغ على عمل المركز.

يتكدر مزاجي حال سمع الخبر، وأقوم بإلغاء كافة مواعيدي القريبة، من أجل حل الإشكاليات التي سنواجهها والتي لها بالغ الأثر على حياة الكثيرين. علينا إعادة بناء الهيكلية العامة للقوانين التي نعمل عليها، للتكيف مع الأنظمة الجديدة. يستمر الاجتماع حتى ما بعد منتصف الليل، فيبدو عليّ الإرهاق. يصر حسن في سؤاله عن موعد ذهابي إلى العطلة؟ أيّ عطلة؟ من المحال الذهاب في عطلة، ونحن في هذا الحال.

لكن الأمور تسير عكس ما كنت أظن، فبعد أيام قليلة، وبتخطيط محكم من حسن وياغمور أجد نفسي على متن الطائرة المتجهة نحو إزمير، ومن هناك سأذهب إلى ديدم حيث منزلنا الصيفي. لقد سبقني جميع أصدقائي إلى هناك منذ مدة، وهم يترقبون قدومي في شوق، إلا أنَّ مزاجي المنحرف، لا يتركني بسلام.

أشعر ببعض الراحة حال وصولي، خاصة وأنّ الطقس لم يعد حارًا كما في السابق، والأهم أنَّي لست وحدي هناك. فمنذ ساعات الصباح الأولى ألتقي أصدقائي، ونبدأ السباحة. البحر هنا رائع! هذا البحر هو ما أتخيله في الأوقات التي أحاول فيها أن أبعد عن ذهني كل ما يكدرني. فحتى لونه لا يشبه سواه، إنَّه بحر لا يزال فتيًا، وكأنّ صروف الدهر لم تلامسه، فلا يزال يحتفظ بنقاء طفولته الأولى، ويشرق ببريقها وعنفوانها. لم تخالطه عتمة المحيطات، وقد تمكن بطريقة أو بأخرى، من الحفاظ على

ذلك اللون الفيروزي الحالم. أما الأمسيات فنقضيها بجولة على الساحل، قبل أن ندخل أحد المطاعم المنتشرة على طول الرصيف، والغاصة كلها بالمرتادين. أنا أحب هذا الصخب خاصة في أماكن العطلات، فله طابع مميز. وكثيرًا ما أسهر على الشرفة حتى وقت متأخر، أراقب هذه الجموع. حين اشترينا البيت، استغربت وأنا أرى هذه الحشود من الناس وهي تجول في مجموعات أو ثنائيات، وظننت أنَّ حفلة في مكان ما قريب قد انتهت للتو، ولكني اكتشفت لاحقًا أنَّها مشاوير الأمسيات المعتادة، جيئة وذهابًا على طول الشاطئ. تصلني القهقهات الصاخبة حتى الطابق العلوي، وأنا مولعة بهذه الأصوات. يسألني الأصدقاء كيف تستطيعين النوم في ذلك البيت، فالمكان صاخب كثيرًا من حوله، وهم لا يعلمون أنَّ الصخب والحيوية هي جوقة الحياة الأحب لقلبي. كما أنَّ البقاء قريبة من ذلك البحر له مفعول السحر على روحي، وكأن الثقل على كاهلي يغادرني رويدًا رويدًا نحو تلك الأعماق اللازوردية.

نجتمع في الأمسيات لنلعب ورق الشدة أحيانًا، فتتلاحق صواني الشاي والعصير والبوريك والحلويات. حين ينغمس المرء في اللعبة، ينسى كل ما حوله، وتختفي الهموم والمشاكل. معظم أصدقائي يشاركونني المصير ذاته، حيث فقدوا شريك حياتهم باكرًا. حين كنا نذهب سوية إلى مطعم ما سابقًا، يتعذر العثور على طاولات فارغة تسعنا جميعًا، لأنَّ مجموعتنا لم تكن تقل عن خمس وعشرين أو ثلاثين شخصًا، أما الآن فطاولة أو اثنتان تكفيان، بعد أن غادرنا الكثير بسرعة. لذا لست الوحيدة المثقلة بحزنها بينهم.

وفي بعض الأمسيات نجتمع للتحدث عن الماضي، فما يجمعنا من الذكريات كثير. ولا تنتهي هذه الجلسات إلا وعيوننا جميعًا مغرورقة بالدموع، لكن مهما كان الحديث عن الماضي مفعمًا بالتحسر والحزن، فنحن نحب استحضاره بين الفينة والأخرى.

أقضي جزءًا من عطلتي في منزل ياغمور الصيفي في بودروم، فقضاء العطلة مع زينب وآيدِن الصغير، أحد أجمل أوقاتي. وياغمور هي نكهة الحياة الأحلى بالنسبة

لي. نسبح سوية حتى المغيب، ثم نضيع وسط حشود بودروم المتأنقة المبتهجة مساء.

رغم ذلك لا أكف عن التفكير في آلا. تهاتفني تونا وصليحة باستمرار لإعلامي بآخر المستجدات، فقد باتتا تهتمان بها وتساعدانها في كل ما يلزم. لم يسبق لي أن قضيت إجازة طويلة كهذه، لكني أيضًا غير راغبة في العودة إلى أنقرة، قبل أن تستقيم بعض الأمور.

مع بداية شهر تشرين الأول، أقفل باب المنزل الصيفي وأغادر. يستقبلني حسن في المطار. فاكتشف كم اشتقت إليه، لقد أرسلني إلى العطلة، وبقي هو في العمل دون أخذ إجازة. نستقل السيارة لكي يوصلني إلى المنزل، ونتبادل الحديث طوال الطريق، فاكتشف كم اشتقت لمدينتي أيضًا. ففيما أواصل الاستماع لحسن، أمعن النظر في الشوارع والأحياء بفضول وانفعال، وكأني أراها للمرة الأولى. مرحبًا أنقرة.. مرحبًا أيها الصديق القديم.. مرحبًا بالهموم، المشاكل والمسؤوليات.

الفصل الرابع عشر

أنهض مسرعة من الفراش هذا الصباح، وأكاد لا أصدق أنّي سأعود للمركز اليوم. فأجهز نفسي بأسرع ما يمكنني، واتجه إلى العمل. وكلما اقتربت سيارتي من المركز، تزداد لهفتي للوصول ورؤية الجميع. حين أصل أحتضن كل من يأتي لإلقاء التحية علي، بدءًا من السائق والسكرتيرات وموظفي الاستقبال وحتى بقية الزملاء من الأطباء والأخصائيين، نسأل عن بعضنا في لهفة، ونتبادل الأخبار. فحتى لو غضبت من أحدهم للحظات وارتفع صوتي قليلًا، لكن لكل واحد منهم مكانة خاصة في قلبي.

حين تراني تونا في الطابق الرابع، تحتضنني بقوة، حتى تكاد تحبس أنفاسي، رغم أنّها جاءت لزيارتي حين كنت في ديدم، ولم يضم على لقاءنا ذاك أسبوع أو أكثر بقليل. ياغمور تنتظرني في غرفتي، فنحتضن بعضنا في محبة دون أن أشبع منها. وخلال لحظات تخيم أجواء العيد على الغرفة، وتمتلأ بالزوار. أتلفت حولي وأشعر كم أنا ممتنة لهذه المحبة المتبادلة. ربما هذه هي إحدى أجمل المتع التي تقدمها لنا الحياة.

لكني بالكاد أستطيع إبعاد ناظري عن ابنتي ياغمور، بشعرها الأشقر الجميل الذي عقدته كعادتها خلف رأسها. تجلس مولية ظهرها للنافذة، وهي تتحدث وتطلق تلك الضحكات الصاخبة في آن. فأقول في نفسي: "لقد أنجبت فتاة عذبة كالمياه"، فهي نقية طبيعية، وتفيض نضارة وجمالًا، وكأنها تعكس الحياة في أحلى صورها. عيناها الخضراوان تشرقان حيوية، وهي خبيرة في العثور على حديث ممتع أو خلق دعابة، ومهما بدا التجهم على وجوه الآخرين، فهي تجد دومًا حديثًا

مشوقًا، أو طريفًا يثير ضحكات من حولها. وبقدر ما يمتاز حسن بالهدوء، تمتاز هي بالحيوية.

تستمر صواني الشاي والقهوة بالدخول والخروج من غرفتي، حتى قبل الظهيرة بقليل، حيث تنتهي مراسم الاستقبال. ويعود كل إلى عمله، ومع خروجهم أستدعي صليحة. فأنا منشغلة البال على آلا، وأرغب في معرفة آخر التطورات. تدخل صليحة دون تأخر، وهي تعلم جيدًا لما استدعيتها، فتبدأ الحديث حتى قبل أن تغلق الباب، وتكاد تكون لاهثة الأنفاس لشدة الانفعال.

- لن تصدقي عينيك حين ترينها أمامك- تقول لي مبهورة- لقد أصبحت كعارضة أزياء. لقد أخبرتك سابقًا أنَّها جميلة، لكنك لم تصدقيني حينها. حين ترينها ستقررين بنفسك إن أصبحت جميلة أم لا.

حسنًا، أعترف أنَّها ذكية، بل حادة الذكاء، بارعة في عملها، لكن الجمال صفة من الصعب علي أن أناسبها مع صورة آلا في ذهني.

- ماذا عن البيت؟- أسألها، فتخبرني أنَّهم اهتموا بالأمر، وعثروا لها على شقة مفروشة صغيرة في منطقة تشانكايا، مع شرفة واسعة. وقد انتقلت إليها قبل ثلاثة أيام، بمساعدة من صليحة والبقية. وإن لم أكن مخطئة فصليحة هي أول صديقة لها، والتي لا يبدو أنَّها تنوي أن تصمت اليوم. من الواضح أنَّها متحمسة جدًا لما تفعله، لذا فهي تتحدث دون توقف.

- في الحقيقة يا دكتورة كنا ننوي أن نخفي الموضوع عنك، ونجعلها مفاجأة كي تريها بنفسك، لكني لا أستطيع كتم الخبر أكثر من ذلك. بعد ذهابك للعطلة، تواصلت مع آلا وتوثقت علاقتي بها، ولا أنكر أنَّي شعرت بالنفور منها في البداية، لكني وبمرو الوقت اكتشفت كم هي لطيفة وذكية ومميزة. لا يوجد شيء لا تعلمه، ثقافتها العامة لا تصدق، ولا أبالغ إن قلت لك أنَّها تعرف عن علم النفس ما أعرفه وربما أكثر.

- أعلم كم هي فتاة ذكية، وأشكرك لأنَّك أوليتها اهتمامك.

- حتى أنَّي ذهبت إلى منزلها، لمساعدتها على ترتيب حاجياتها قبل الانتقال. يا إلهي! كيف استطاعت أن تعيش في ذلك المنزل كل تلك السنوات؟ إنَّه كقصر الأشباح، لو قضيت هناك ليلة واحدة سأموت من الرعب بكل تأكيد، من المحال أن أنام في مكان كذاك.. مستحيل.. على كل، بالنسبة لقطع الأثاث، صحيح أنها قديمة، لكنها كلها أنتيكات قيّمة. لم ترض أن تأخذ معها شيئًا من البيت سوى كتبها. فقمنا بمنح كافة محتويات البيت لإحدى الجمعيات الخيرية.

- ألم تأخذ شيئًا آخر؟

- كانت هناك ملاءة مشغولة يدويًا، تغطي طاولة الطعام في الصالون، لكنها كانت ملتصقة بسطحها، أخذتها معها. لقد حال لونها، فأرسلناها إلى مغسلة خاصة، وعادت قطعة فنية بعد أن قاموا بغسلها وكيها. منزلها أشبه بخرابة، ومن المستحيل أن يستأجره أحد على حاله تلك. لكننا قمنا بتدبر الأمر، فالسيد حسن لديه صديق يعمل في البناء والإنشاءات، وسيقومون بترميم المنزل بكامله، ومن المؤكد أنَّ قيمته ستتضاعف حال أن يتحسن، لأنَّ المنطقة هناك راقية جدًا. سيكلفها الترميم قليلًا، ولكن ما من حل آخر.

- وماذا فعلتم أيضًا؟

- الكثير الكثير.. بعد سفرك مباشرة، ذهبت معها إلى إحدى مراكز التجميل، فقاموا بتغييرها من رأسها وحتى أخمص قدميها، كما اتضح أنَّ لديها مشكلة جدية في أنفها، فهي بالكاد كانت قادرة على التنفس، فذهبنا سوية إلى الطبيب. يبدو أنَّ أنفسها قد كسر فيما كانت صغيرة، وجبرت عظامه بصورة خاطئة، فقام الدكتور بإجراء عملية لها على الفور.

- أجرت عملية لأنفها؟

- أجل، وقد بقي أنفها مغطى بالضمادات لبضعة أيام، لكنها كانت سعيدة جدًا، وتقول أنَّها باتت قادرة على التنفس بعمق خلال نومها دون أن ينسد

أنفها. مسكينة، حقًّا إنَّها فتاة مسكينة ووحيدة، كم أشعر بالشفقة عليها. وهي لطيفة أيضًا، فهي تشكرني دومًا، وتقول أنَّها مدينة لي بالكثير، ولا تعرف كيف ترد دينها، وكلما خرجنا تصرّ على دعوتي إلى الطعام. من الواضح أنَّها من النوع الذي لا يحب البقاء مديونا لأحد. رغم أنَّي أفعل ما أفعله عن طيب خاطر ورغبة. ويبدو أنَّها لم تقم بالتسوق منذ سنوات طويلة. أتذكرين محل الأزياء الذي أرسلتنا إليه أول مرة، حيث اشترت بعض الثياب والأحذية. منذ ذلك الحين وهي تشتري كل يوم أشياء جديدة، يبدو أنَّ التسوق راقها كثيرًا. ليتك تعلمين كمّ الأشياء التي اشترينها سوية لها؟

- ماذا اشتريتما؟
- أدوات الزينة والمكياج، العطور، الكريمات، ألبسة داخلية، بيجامات نوم، شامبوهات، وكل ما يمكن أن يخطر ببالك. ومن الواضح أنَّها لا تعاني شحًا في المال، فهي تشتري كل ما ترغب فيه دون تردد. وهوسها الأساسي هو الكتب، ففي كل مشوار تكون وجهتنا الأولى هي المكتبات، رغم أنَّ بيتها يعج بالكتب. والبارحة ذهبنا سوية لنشتري مؤنة وما يلزم من طعام، لأنَّ البراد كان فارغًا تمامًا.
- إذًا فقد اشتريتما طعامًا لها؟
- أجل دكتورة، اشترينا كل ما تحتاجه من خضار وفواكه ولحوم إضافة للشاي والقهوة، والأطعمة الجاهزة القابلة للتسخين، والكثير من حاجيات البيت الأخرى.
- أشكرك من قلبي يا صليحة، فأنت لا تدركين قيمة ما تقومين به من أجلها.
- العفو يا دكتورة، أنا لم أفعل ما يستحق كل هذا الشكر. أيعقل أن تطلبي مني شيئًا ولا أقوم به كما يجب؟

- أهناك ما تحتاجه بعد؟

تضحك صليحة قبل أن تجيب:

- أوووف.. هناك الكثير الذي يجب القيام به، فالفتاة تبدو وكأنها قد خرجت من الكهف للتو، فهي تعجز عن المشي بصورة صحيحة، لذا فقد سجلت في دورة تدريبية لعارضات الأزياء في جادة تونالي، تذهب إليها مرتين في الأسبوع بعد انتهاء عملها مساء، ستتعلم على الأقل كيف تمشي كشابة طبيعية.
- وماذا أيضًا؟
- ليس لديها سيارة ولا رخصة قيادة، لكننا سنهتم بهذا الأمر أيضًا. ورغم أنَّها تعرف الكثير، لكنها لا تجيد الكلام، وأعتقد أنَّها بحاجة لدورات متخصصة في معالجة مشاكل النطق، سواء من حيث التواصل مع الآخرين أو التحدث بطلاقة.
- أنت محقة فهذه الأمور من الضروريات بالنسبة لها، ولكن ما رأيها حول كل ذلك؟
- إنَّها توافق على كل ما أقترحه عليها بامتنان، دون أن تعترض، وغدا سأرافقها إلى طبيب العيون، فلديها مشكلة في عينيها، لكن لم يخطر لها حتى الآن الذهاب إلى طبيب لفحصهما.
- لقد أحسنت القيام بمهمتك. ويبدو لي أنَّك بدأت تحبين هذه الفتاة بالفعل؟
- إنَّها فتاة غريبة، لم أقابل شخصًا مثلها من قبل. يشعر المرء للوهلة الأولى بالنفور اتجاهها، لكنه حين يمنحها الفرصة ويتعرف عليها، يدرك كم هي لطيفة. أتعلمين أنَّ أكثر ما يشعرها بالقلق، هو رأيك في كل التغيرات التي طرأت عليها. من الواضح أنَّها تهابك كثيرًا، حتى أنَّها ترتبك حال ذكر اسمك.

- حسنًا، من الجيد أن تهابني، فهي بحاجة لأنَّ تهاب أحدًا ما في حياتها. أين هي شقتها الجديدة؟

- في منطقة تشانكايا، وهي قريبة جدًا من مكان عملها. لقد كانت مصادفة، ولكنها محظوظة بالفعل.

- محظوظة ها؟ حسنًا، يا صليحة أشكرك كثيرًا على كل ما فعلته من أجلها، وما أرجوه منك أن تواصلي دعمها، وإن احتاجت شيئًا حاولي أن تساعديها، اتفقنا؟

- بالطبع يا دكتورة، لا تشغلي بالك، فأنا سأساعدها قدر ما أستطيع.

تطل تونا برأسها من الباب وهي تسألني:

- المرضى في الانتظار، إن كنت جاهزة سأبدأ بإدخالهم.

تخرج صليحة ضاحكة من الغرفة. وأخيرًا جاء وقت رؤية مرضاي، أسحب نفسًا عميقا، وبعد ترتيب الفوضى التي على طاولتي، أبدأ باستقبال المريض الأول.

تاقت نفسي مجددًا إلى العمل، إلى التعامل مع هذا المخلوق الرائع الذي يسمى الإنسان، وفهم أعماقه وبناء جسر للتفاهم معه، أخذِ حصة من أحزانه، ومقايضتها بحفنة من البسمات. مع حلول المساء تزداد كثافة الغيمة المحملة بعذابات مرضاي، دموعهم، يأسهم وحزنهم، حتى تكاد تغرق الغرفة في ظلام دامس. الطب فروع وتخصصات، فمنهم من يقضي ساعات متواصلة وعينه على عدسة المجهر، ومنهم من يقضينها بين المعدات والحواسيب، ومنهم من يرحب بحياة جديدة كل يوم، ومنهم من يشرّح ويقطع ليعالج موضع الألم، وآخرون مثلي يقضون يومهم مع سيل المعاناة واليأس والحزن الذي تفيض به حياة المرضى. هذه المعاناة التي هي إنسانية بقدر ما السعادة إنسانية، ولعل المدهش في المقارنة بينهما، أنَّ البعض يفضل عن وعي أو دون وعي، المعاناة على السعادة. وهو أمر يبدو أشد وضوحًا في فلسفات الشرق.. ربما *في البدء كان* الألم قبل السعادة، لذا فنحن ننجذب إلى هذا الشعور الذي بات جزءًا من خبراتنا الروحية.

رغم توالي دخول المرضى إلى غرفتي، لكن أكثر من يشغل بالي هي آلا، فأنا متشوقة لرؤية مدى تغير فتاتي المجنونة.

تدخل آيتان حاملة صينية الشاي، ومعها قطعتان من المعجنات الساخنة، فأتذكر حال رؤيتها أنَّي نسيت تناول الطعام اليوم. ويبدو أنَّها أحضرت هذه المعجنات الشهية لهذا السبب بالذات. وقبل أن أنهي الشاي تدخل تونا كعادتها مضطربة، وبالكاد تغلق الباب خلفها، حتى تبدأ بالتدفق، وعيناها ترقصان من فرط الانفعال والبهجة.

- يا إلهي! لن تصدقي.. مهما حدثتك فلن تصدقي كيف انقلبت.. لقد ذهبت فتاتنا المجنونة، لتحل محلها أميرة حسناء.. أقسم أنَّي لم أعرفها لأول وهلة، رغم أنَّي كنت قد رأيتها بعد ذهابك عدة مرات.. كيف يمكن للإنسان أن يتغير إلى هذا الحد؟..

تستمد تونا العون من جسدها كله في الحديث، عيناها، يداها وقسمات وجهها، فهي لا تثق بقدرات الصوت وحده، وتريد أن تعبر عن نفسها بلغة الجسد أيضًا. فتنثني إن اقتضى الأمر، تحرك حاجبيها وعينيها، كما أنَّ حدقتي عينيها في حراك متناغم مع انفعالاتها. يبدو أنَّ العمر لن ينال منها أبدًا، وستظل تنظر للحياة بعيني الطفلة الفضولية في أعماقها.

أستمتع بتناول المعجنات الساخنة، على وقع حديثها المليء بالتشويق والإثارة، والضحكات، ولست وحدي في ذلك، حتى جدران غرفتي تنتعش وتنفض عنها غبار الكدر، وهي تستمع لأحاديث هذه المرأة المفعمة بالحياة والمرح، وكأنها نسمة تهب في قيظ الصيف.

إذًا فقد تغيرت آلا بالفعل، علي تهيئة نفسي لهذا التغيير. من الصعب جدًا أن أصف شخصًا بالقبح، فأنا أعتبر أنَّ الجميع نال حظه من الجمال بطريقة أو أخرى، ولا أبالغ إن قلت بأنِّي بارعة في التعرف على هذا الجمال، خاصة إن ترافق مع الذكاء، فهو سيجد دومًا طريقة ليظهر نفسه بأفضل ما يكون. لكني أظن أنَّ تونا

وصليحة بالغتا بعض الشيء، وأخشى ما أخشاه؛ خيبة الأمل بعد كل هذا المديح والانبهار.

تنظر إلي بطرف عينيها ولا تخرج، بل يبقيها الفضول لمعرفة ردة فعلي بعد رؤية آلا، لذا تفتح الباب وتمسكه بيدها وهي تشير لها باليد الأخرى كي تدخل، فيما عيناها تراقبان وجهي بإمعان. من الباب المفتوح تدخل شابة. من تكون؟ صحيح أنَّها تشبه آلا بعض الشيء، لكنها ليست هي. أم أنَّها هي؟ يا الله! أتابعها وهي تخطو بعيون مفتوحة على اتساعها، ودهشة أعجز عن إخفائها. وأكاد أقسم أنَّي لو صادفتها في الطريق لما تعرفت عليها مطلقًا. لا تزال تونا تقف عند الباب تشير لي بعينيها وحاجبيها، وعلى وجهها تلك الابتسامة العذبة. أما أنا فأبدو في غاية الجدية، متأملة التغيير الهائل الذي طرأ عليها. وأخيرًا تغلق تونا الباب بهدوء، فيما تقترب مني الشابة الجميلة بخطى مترددة. أجيل النظر في كل تفاصيلها، فتبدو لي شابة عصرية أنيقة، بملامح رقيقة ومعبرة. على وجهها تمتزج ملامح الطفولة والأنوثة الفتية معًا.

تتحاشى النظر إليّ خجلًا، فأقول أنَّ هذا أحد خصال آلا التي أعرف. لكن حتى لون عينيها يبدوان لي وقد تغيرا، وهي إن نظرت نحوي، ترمش باستمرار. ترتدي فستانًا صيفيًا خفيفًا، بحمرة الجلنار، ومن النظرة الأولى يبدو بوضح أنَّه من علامة ميسوني، مع حقيبة شانيل معلقة إلى كتفها بسلسلة معدنية، وحذاء مزخرف بخيوط حمراء من كريستيان لوبوتان. أما شعرها ببريقه الناعم، فقد جمع على شكل عقدة صغيرة خلف رأسها، مما جعل جبينها يبدو واسعًا، رغم تلك الخصل الناعمة المنسدلة عليه. تبدو كمنحوتة خرجت للتو من بين يدي نحات قام بنحت وجهها أول مرة، فلم تعجبه النتيجة، ليقوم بتفتيته وإعادة تشكيله من جديد، لتظهر هذه التحفة الرقيقة الجميلة.

كنت أظنها في السابق سمراء البشرة، لكن لون بشرتها أيضًا قد تغير، وبدا ملمسها ناعمًا براقًا، حاجبها الرقيقان دون مبالغة، يعلوان باتجاه صدغيها، ثم ينزلان في انعطافة

غير حادة نحو الأسفل. أما أنفها فلا شيء يقال عنه، سوى أنَّه أكثر الأجزاء التي أبدع فيها النحات، فقد بات يلائم ملامح وجهها الصغير، في تناسق رائع، وهو يرتفع نحو الأعلى قليلًا بقمته الصغيرة، وقد ذهبت تلك الشفتان الرقيقتان، ليحل مكانها فم دائري صغير، بشفتين مكتنزتين، ومصبوغتين بلون زهري ناعم.

حين تقف قبالتي، تظهر على فمها تلك الضحكة المائلة نحو اليسار قليلًا، فأشاهد صف أسنانها البيضاء المتناسقة. أين ذهبت تلك الأسنان الصفراء المتراكبة؟ لقد حدثتني صليحة عن كل التفاصيل بإسهاب دون أن تتطرق لموضوع الأسنان قط. حين تخفض بصرها تكاد رموشها الطويلة تلامس خديها. أهي رموش اصطناعية يا ترى، أم أنَّ المسكرة قد فعلت مفعولها السحري. ثم تتجه أنظاري نحو عنقها الطويل، حيث تزينه سلسلة ذهبية رقيقة، تتدلى منها حبة ألماس كقطرة ماء صافية. في معصمها الأيسر الإصدار الأحدث من ساعة تشوبارد بحجارتها الألماسية السبع، وسوارها الجلدي العصري والأنيق بدرجة لافتة.

وبدخولها تعبق الغرفة بأريج ناعم أشبه برائحة بودرة الأطفال الناعمة، يمازجها عبير خفيف مثير للحواس. تقف قبالتي دون أن تقول شيئًا، وأدرك كم هي منفعلة من الارتعاشة الخفيفة التي تبدو على يديها. وليست وحدها في ذلك، فأنا لا أقل عنها انفعالا، فيما أراقبها بعيني النحات الذي أنجز للتو إحدى أجمل قطعه الفنية. القطعة التي تطلبت منه جهدًا أكثر من الجميع، ها هو الآن يزيح عنها الستارة. أراقب تحفتي في انبهار، ولعل هذا أجمل ما في الأمر، أنَّي معجبة بما أنجزته لأقصى الحدود.

فحين بدأت العمل عليها، لم يخطر لي ولو للحظة واحدة، أنَّها ستؤول في النهاية إلى آية من الجمال والرقة.

تتفحصها نظراتي في حيرة ودهشة، ولكن في إعجاب لا أكتمه عنها. وأنا أكاد أسألها: "كيف لتلك الفتاة القذرة النحيلة، مخلخلة الأطراف ومنفرة المظهر، أن تتحول إلى كائن مغاير تمامًا؟". تغمرني موجة من السعادة المشوبة بالراحة والانتعاش. وتغرورق عيناني كلما تمعنت فيها أكثر، فيما هي تنظر إلي بعينين

مفعمتين بالأمل، تزيدان من جمال ملامح المميزة. ثم تنحني بهدوء، وتقبل يدي كما فعلت المرة السابقة، وتضعها على جبينها. وما إن ترفع رأسها، أدرك من نظراتها كم هي راغبة في احتضاني، فنحتضن بعضنا في شوق، وتنهمر الدموع من عيوننا، لكنها دموع الفرح هذه المرة.

بعد مدة قصيرة، تجلس كل منا في مكانها المعتاد، ونبحث عن بادئة الكلمة الأولى. فإن أخبرتها بأنها تبدو جميلة جدا، لن يفيها ذلك حقها. لكن مهمة البدء من نصيبي على الدوام.

- آلا!
- تفضلي!
- كيف تغيرت إلى هذه الدرجة؟
- الفضل يعود لك، وأنا ممتنة كثيرًا.. لكني مهما حاولت التعبير عن شكري وامتناني، لن تفيك الكلمات حقك.
- لقد حدثتني صليحة مطولا عما قمتما به، لكن توقعاتي لم تبلغ هذا الحد. يبدو أنَّي كنت محقة منذ البداية حين وثقت بك.
- أحقًا تثقين بي؟
- لدرجة لا يمكنك تخيلها.
- لا يغرك مظهري، لأنَّ الأمر أعقد مما تتخيلين. فحين أقف أمام المرآة أكاد أنظر إلى نفسي مبهورة الأنفاس، لكني في الآن ذاته أشعر بخوف رهيب.. فمقابل هذا الأمل الذي أحسه، هناك الكثير من اليأس، وبقدر ما أشعر بالقوة، أشعر في الوقت ذاته أنَّي ضعيفة وعاجزة.. لا أدري ما هو السبب، لكن هذا التغيير المفاجئ، هزّ كل أركاني.
- من الطبيعي جدًا هذا الصعود والهبوط المفاجئ بين الأضداد التي تجذب بعضها، فالأمل يستدعي اليأس، والقوة الضعف، والبراءة الشر. ولو أخبرتني أنَّك بخير لاستغربت حينها.

- أوووف.. لقد ارتحت قليلًا.. أتعلمين؟ منذ أن تعرفت على صليحة، وأنا أدقق النظر في عينيها كلما التقيتها، فلا أجد فيها ظلال الخوف التي في عيني. كما أنَّها فتاة ذكية وطيبة القلب، وقد ساعدتني كثيرًا.. يبدو أنَّه قد أصبح لدي صديقة، فكما تعلمين لم أحظ بصديقة قط.
- أعلم ذلك يا عزيزتي، فلكل شيء مرة أولى.
- أشعر بنفسي في حلم.. وقد وضعت في غرفتي الجديدة مرآة ضخمة. ولا أكاد أكف عن النظر إلى نفسي في تلك المرآة، وأنا أتساءل "هل هذه أنا حقًا؟".. الجمال شعور لا يمكن وصفه، وكأني في حلم جميل، إن استيقظت منه سأعود إلى آلا السابقة. هذا الشعور يجعل قلبي يتوقف هلعًا، ولكن عودتك ستمنحني القوة التي أحتاجها. كانت فترة صعبة بالنسبة لي.. شعرت أنَّي وحيدة جدًا في غيابك.
- ولكنكم حققتم الكثير خلال هذه الشهور القليلة.
- ربما كان هذا أفضل ما حدث.. فقد كان علي في كل يوم الذهاب إلى مكان جديد.. لكني كنت بحاجة شديدة لرؤيتك، وأكثر ما كان يخيفني أن تتخلي عني.. كنت أقول في نفسي أحيانًا "لقد ذهبت وتخلت عني كالجميع".. هل كنت أبالغ؟
- لا، فهذا شعور طبيعي.
- لا أريد أن أبدو لحوحة ومتطلبة.. كل ما في الأمر أنَّي كنت خائفة من فقدانك، ومن كل ما يجري حولي، رغم معرفتي بأنَّك أكثر من يستحق هذه الإجازة.. لكن البشر أنانيون دومًا.
- أنا أتفهم موقفك تمامًا، لكن سيأتي يوم حتى وإن طال غيابي، فلن تشعري بكل هذا الخوف والقلق. لأنَّك حينها ستملكين حياتك الخاصة، أصدقائك، أحبتك، وربما زوجك وأسرتك أيضًا.
- أنا؟ أتعتقدين بأنني سأحب أحدًا يومًا ما؟

- ولما لا؟ ألا تريدين الوقوع في الحب؟
- حين يقع شخص مخادع في الحب، تكون مشاعره مزيدًا من المعاناة.
- لما تقولين ذلك عن نفسك؟
- لأنَّها حقيقتي.. لكني لن أحب شخصًا يشبهني على الإطلاق.. الرجل الذي سأحبه يجب أن يكون قويًا وأهلا للثقة.. لا يمكنني أن أحب رجلًا ضعيفًا، يترنح على خطى الخوف يمينًا وشمالًا مثلي.. لا يمكن الوثوق بعهود الضعفاء ولا مشاعرهم. فأكثر الناس ميلًا للخيانة، أولئك الذين تعلو آمالهم كأبراج الناطحات، لكن صدروهم تخبئ أضعف القلوب.. هؤلاء عادة ما يكونون منشغلين بأنفسهم، ولا يمر بهم الحب سوى مرور الكرام. فهم يبحثون عن سلم ليصعدوا عليه.. ولن أكون ذلك السلم مطلقًا.

للمرة الثانية تتحدث عن أعمق مكنونات صدرها وأكثر المواضيع حساسية بالنسبة لها، دون رقابة. وفي الحقيقة هي لا تفعل شيئًا سوى التنفيس عن كرهها لنفسها. لكني لا أرغب في يوم كهذا أن أحرك قيعانها وأكدر صفوها أكثر. فأسألها ضاحكة بين الجد والهزل:

- ألا تشفقين على المسكين الذي سيحبك؟
- لا أحد يستحق الشفقة.. على المرء أن يكون ذكيًا ولا يدع الآخرين يستغلونه.
- إذًا فأنت مصرة على فكرة الاستغلال؟
- هذا ليس إصرارًا بقدر ما هو عجز.. سابقًا، أعني قبل عدة سنوات، كنت أعتقد أنَّ وظيفة مقبولة وبعض المال وحريتي، ستكون كافية لجعلي أشعر بالسعادة.. لكني كنت مخطئة.. فقد قرأت من الكتب ما يملأ عشرات الرفوف، وكنت متفوقة على الدوام في دراستي، وحصلت على وظيفة ممتازة، ورغم ذلك لم ينجح الأمر.. هناك شيء ناقص.. حتى

الآن كانت الهزيمة دومًا من نصيبي، لذا أريد أن أنتقل إلى جانب المنتصرين.. ولن يحدث التغيير الحقيقي في حياتي ما لم أحقق سلامي الداخلي، وأتوقف عن تقويض أركاني.. حينها فقط سأدرك معنى الحياة.

- إذًا فأنت مدركة لما تسببينه لنفسك من دمار؟

- لم أكن أدرك سابقًا، لكنني بت أدرك ذلك الآن. أعلم أنَّي ذكية، لكني في الحياة العملية لست أفضل من متخلفة عقلية.. لقد ضربت خطوط الفاي[1] أعماقي السحيقة، وأنا موعودة بالكثير من الزلازل قبل أن أبلغ الاستقرار.

وكأن الأدوار انقلبت في هذه الغرفة، فهي تأخذ مكاني في الحديث، وتقوم بتحليل مشاعرها كطبيب نفسي محنك، بطريقة بالغة الدقة. كل ما تقوله حقيقي، لكن هل معرفة الحقيقة وحدها، حبلُ النجاة؟ لا أعتقد. إنَّها مجرد تحليلات سابقة لأوانها، والأهم أنَّها لا تمتلك خبرة كافية في سجلها. ليت معارفها النظرية أقل، وليتها تتوقف عن الاعتقاد بمعرفتها بكل شيء. فإن استمر بها الحال على ما هو عليه، خاصة في ظل كل هذه التغيرات، سيتحول ذهنها إلى حلبة للعميان.

- ربما أكتب عنك في إحدى كتبي، كقصة للنجاح. كي نشرك الآخرين أيضًا معنا هذه اللحظات الرائعة.

- قصة نجاح؟ أحقًا تعتبرينني قصة نجاح؟

- كيف يمكن اعتبارها برأيك؟

- لا يزال هناك الكثير لأتعلمه.

- ما الذي تريدين تعلمه مثلا؟

- بدأت الذهاب إلى دورة تدريب لعارضات الأزياء، هناك أتعلم كيف يمكنني السير كشابة طبيعية. ومن الواضح أنَّي بحاجة إلى دورة تأهيلية للنطق أيضًا.. كما أنَّي راغبة في تعلم لغة جديدة.

---

(1) خط الفاي: خط زلزال مار بمنطقة شمال الأناضول. م.المترجم -

- لماذا؟
- إن أردت العمل في مجال القانون الدولي، سأكون بحاجة ماسة إلى إتقان عدة لغات.

تبدو مهتمة جدًا بمظهرها الخارجي، وقد أسرها سحر الجمال وجاذبيته على الآخرين، الأمر الذي لا يعتبر سيئًا مطلقًا في الحياة العملية، لكن أرجو ألا تنجرف أكثر مما يجب في هذا التيار. كما أنَّها تريد تعلم لغة أجنبية، وسيكون لذلك فوائد كبيرة على مسيرتها المهنية، ولكن أهذا دافعها الوحيد لتعلم لغة أخرى؟ أم أنَّه أحد آلياتها النفسية لبلوغ الإعجاب الذاتي بنفسها، تمامًا كممارسة العادة السرية. فإن لم يمنحها كل هذا النجاح والتفوق في الدراسة والعمل، بعضًا من الرضى عن ذاتها، فهل ستمكنها لغة جديدة من ذلك؟ أم أنَّ للموضوع بعد نفسي مغاير تمامًا؟

أحد مزايا كون المرء طبيبًا نفسيًا، هي تحليل الأمور بمنظار مختلف تمامًا عن الآخرين. والمثير للريبة في حالتها، أنَّ فئة من مرضانا تقضي معظم عمرها وهي تحاول الاستعداد للحياة. يرغبون في بلوغ الكمال قبل الصعود إلى خشبة المسرح، لكن تلك الاستعدادات لا تبلغ منتهاها قط، وينقضي العمر دون أن تطأ أقدامهم تلك الخشبة. إن كان الأمر كذلك، فستكون خسارة فادحة بالنسبة لفتاة بمثل قدراتها، لذا عليّ أن أغير وجهتها نحو طريق مغاير، لكني لا أستطيع فعل ذلك وحدي. فمن لا يمتلك القوة الكافية ليخطو على خشبة المسرح، ستكون كل هفوة خطأً قاتلًا، وستمزقه الأقدام الغادية والرائحة دون رحمة. لكن ورغم كل هذا الصراع، فالحياة تفتح ذراعيها للضعفاء والعاجزين، تمامًا كما للأقوياء والجامحين، تمنحهم مساحة تناسبهم على خشبتها، وفقط من يكافح حتى تطال يداه ثمارها ينجح في البقاء على تلك الخشبة. لذا يتوجب عليّ أولًا، سبر قدراتها بموازين الشك واليقين.

عادة ما يمتلك المرضى من هذا النوع ذكاء حادًا، لكن الذكاء وحده لا يكفي لمواجهة الحياة. وإن كانت تماطل للصعود على الخشبة، علي ردفها دومًا بما

يحفز حماسها، ويدفعها خطوة أخرى نحو الأمام، شرط ألا يتعدى حدود قدراتها. ولكن من المبكر الآن مصارحتها بهذه الحقائق، لأنَّها حديثة الدخول على سجل تجاربها. من الأفضل الاستمرار من حيث توقفنا.

- لقد تحسن أسلوبك في الكلام عن السابق. ألم تلاحظي ذلك؟
- بلى لاحظت الأمر.. وهذا ما يمنحني الأمل، فليس كل ما يجب تغييره، يتطلب مشقة هائلة.. رغم أنَّي حديثة العهد على كل شيء، حتى على هذا الحذاء الذي لا أعرف كيف أتوازن على كعبه.
- لا تقلقي، إنَّه أبسط الأمور التي ستتقنينها عاجلًا. بالمناسبة الحذاء عالي الكعب يناسب قامتك كثيرًا. كما أنَّ ذوقك في اختبار الملابس غاية في الأناقة. أهنئك.
- شكرا. في الحقيقة لم أتعلم بعد كيفية اختيار الزي المناسب للمكان المناسب.. لكني سألت الموظفة في محل الثياب، عما يجب ارتدائه في مختلف الأماكن، وطلبت منها شرحًا مفصلًا.. وربما ستسخرين مني، لكني دونت كل هذه الإرشادات في دفتر خاص.. وإن اختلطت الأمور في ذهني، أطلب العون من صليحة.
- لا تشغلي بالك بالأمر، فأنت فتاة ذكية وستتقنين قواعد الأناقة في وقت قصير. ماذا عن العمل؟
- كنت في إجازة بسبب العطلة القضائية، ثم طلبت إجازة لشهر آخر من مديري. وقد أنهيت فترة التدريب منذ مدة، كما حصلت على العديد من عروض العمل. لكن عما قريب ستبدأ امتحانات المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان، وأرغب في تقديمها.
- طموحاتك كبيرة، لكن ثقتي بقدراتك أكبر. ماذا عن مديرك، ألم يعرض عليك العمل معه؟
- لدي موعد معه بداية الأسبوع القادم.

- حسنًا، سنرى ما سيعرضه عليك.
- اخترت بدلة رسمية للقائه، وقد اشتريت حقيبة يد جلدية مناسبة لها.
- تعنين حقيبة سيدة أعمال؟
- أجل، وهي أنيقة جدًا.
- أحسنت يا آلا، سأكون فخورة بك على الدوام.

أحدثها لبعض الوقت، عن أهم التغيرات التي يجب أن تطرأ على سلوكها خلال تعاملها مع الآخرين، فتغيير المظهر وحده ليس كافيًا، ما لم يكن ملازمًا للسلوكيات الاجتماعية المناسبة لكل موقف. وفيما أشرح لها، تطرح عليّ أسئلة غاية في البساطة، كأسئلة الأطفال تمامًا. فأحدثها عن لغة الجسد، وكيف يمكننا خلق انطباعات مناسبة وأحيانًا مغايرة عما نشعر به لدى الآخرين، فقط إن تمكنا من ضبط لغة جسدنا. وكأنها السندريلا التي تحولت للتو إلى أميرة عليها أن تتعلم كيف تحيا حياة القصور، وكلما تحدثت لا يفوتني ملاحظة كم أنَّ صوتها الذي كانت تخفيه، عذب رخيم.

- برأيك كيف ستنتهي حكايتي؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

يا إلهي! أحد الأسئلة إياها.

- سؤال غريب! وكأني منجمة.
- الأطباء النفسيون يعرفون المستقبل أفضل من المنجمين. هل تظنين بأنّي سأعيش يومًا السعادة الحقيقية؟
- أنت تعيشينها بالفعل، انظري إلى نفسك لقد غدوت فتاة أخرى تمامًا.
- ولكني رغم كل هذا التغيير، لا أزل أشعر بالخوف القديم. الماضي يشعرني بالرعب.. ربما ستسمينه خوفًا لا شعوريا، لكنه يرافقني في كل خطوة.
- معك حق، ولكن عليك أن تعلمي أنَّ غالبية أقدارنا يخطّها ما نسميه في علم النفس باللاشعور، والذي يقوم بوضع قوانينه الخاصة اعتبارًا من

اليوم الأول لنا في هذه الحياة. أيّ أنَّ نصيبنا اللاحق من السعادة أو التعاسة، هو أحد القرارات التي يتحكم فيها اللاشعور منذ نشأتنا الباكرة.

- لكن حين يحدث معنا شيء جميل، نشعر بالفرح.. فما علاقة هذا بالقرار؟

- لقد حدث في حياتك الكثير من الأشياء الجميلة مؤخرًا، أنهيت دراستك بتفوق، كما أنجزت تدريبك المهني في واحد من أهم مكاتب المحاماة على مستوى البلاد، والأهم أنَّ تلك البطة السوداء ذهبت لتحل محلها أميرة حسناء. هل حقق لك أيّ من هذه الأشياء السعادة؟

ترمقني في صمت لبرهة، والحزن يزداد في عينيها.

- لا أعلم إن كنت قد شعرت بالسعادة، لكن الجمال يشعرني بالافتتان.

- إذًا على الحياة أن تبذل جهدًا مضاعفًا لتشعرك بالسعادة يا سمو الأميرة. هذا ما كنت أود أن أحدثك عنه بالضبط؛ فأنت بارعة في الجانب الآخر، أعني حين تسير الأمور بشكل سيء، فأنت تتقنين البكاء، والشعور بالتعاسة والحقد، أليس ذلك صحيحًا؟

- أجل، وأنا بارعة في الغضب وصب جام لعناتي على كل ما حولي.. لكنه أمر مرتبط بتاريخي وما عشته في الماضي.

- وهذا ما أعنيه، فاللاشعور تتم كتابته سطرًا تلو الآخر في الماضي. والآن سأجيب عن سؤالك السابق، فهل أنت مستعدة؟

- تعنين أنَّك ستطلعينني على مستقبلي؟

- تماما. إن لم نتمكن من تغيير مسارك، فستصبحين امرأة ناجحة جدًا، جميلة جدًا، لكني لا أعلم على وجه التحديد إن كنت ستصادفين السعادة في حياتك أم لا.

- ولما ذلك؟- تهتف مستنكرة.

- لأنَّ اللاشعور لديك مبرمج على الاستجابة للظلم، للألم والتعاسة، فأكثر المشاعر التي يمتلك عنها خبرة متراكمة، هي الحزن، الغضب والانتقام،

إضافة للشعور بالذنب. وعلى العكس من ذلك، تكاد خبرتك تكون معدومة مع الفرح، حب الحياة، الطيبة، تلقي الحب ومنحه، الشعور بالسعادة لسعادة الآخرين وتقاسم لحظات الفرح والألم على حد سواء مع من حولك. ومهما كانت حظوظك عالية من الجمال، النجاح، المعرفة والمال، فلن تقابلها حظوظ مماثلة من السعادة والاستمتاع بالحياة، ما لم تتغيري.

- تعنين أنَّ مظهري تغير، لكن المستنقع الذي في داخلي لا يزال على حاله.
- لهذا السبب بالذات، أصارحك بكل هذه الحقائق. فكلتانا تعرف أنَّ تجفيف هذا المستنقع لن يكون مهمة سهلة، لكن اليأس لم يراودني قط، فأنا واثقة أنَّ وعيك وعملنا سوية، سيجفف كافة مستنقعاتك.
- ربما تثقين بي في بعض الأمور، لكني أثق بكل ما تقولينه لي.. وأكثر ما يمدني بالأمل هي صراحتك والوضوح الذي تشرحين فيه كل شيء دون مواربة.. حين أفكر فيما قلته لي قبل قليل، أكتشف كم أنَّك محقة في كلامك، لقد حدثت لي أشياء رائعة بالفعل، لكني لم أشعر بالسعادة إزاء أيّ منها.. كأني نصف لم يكتمل، ومهما حاولت لا أستطيع بلوغ ذلك الكمال.. فلا النجاح، ولا الجمال، لا شيء يمكنه إتمام هذا النقص.
- ليس عليك أن تخشي هذه الشعور، فحتى من يمكن أن نسميهم بالأصحاء نفسيًا، عادة ما يعانون من هذا النقص بطريقة أو بأخرى. جميعنا نشعر بهذا النقص، لكن ليس الجميع قادرًا على وصفه بوعي مثلك. وهذا الشعور هو ما يقودنا للبحث عما يعوضه؛ "إن قمت بهذا، فسيكون أفضل.. إن فعلت ذاك الأمر.. إن حصلت على ذاك الشيء..". حتى أثناء اختيارنا شريك الحياة، نتغاضى عن بعض الأساسيات. فكما أنَّ الحب، حسن المظهر والأخلاق والصدق جوانب هامة، لكنها

معلومات لا تمدنا بما يكفي للانتقال إلى خطوة جدية. لأنَّ الأهم يقبع في تاريخ الشخص. فالتاريخ دورات متعاقبة التكرار، من اعتاد تلقي الضرب في طفولته، سيضرب الآخرين، أو سيحاول بإصرار لاشعوري أن يعرض نفسه للضرب. من تربى في وسط من العنف والمشاحنات، سيميل إلى افتعالها حين يكبر، بسبب خبراته المتراكمة في هذا المجال. ومن لم يعش السعادة ويختبرها، لن يستطيع خلقها. إن كان تاريخ الشخص حافلًا بالإهانة، الغضب، الحقد والشعور بالذنب، سيكرر هذه السلوكيات مع الآخرين، أو سيحول نفسه إلى بؤرة جاذبة لها. سيتهم الآخرين كما اتُهم سابقًا، وسيخون كما تعرض للخيانة ويسلب الحقوق إن كان حقه قد سُلب. على سبيل المثال، فالشخص الذي تعرض باستمرار للإهانة، وانتُهِكت حقوقه، ولم يتلق المحبة أو القبول والدعم.

- مثلي أنا.
- أجل. هذا الشخص إن عامله الآخر بطريقة مغايرة، يسودها الاحترام والقبول والمحبة وقام بمراعاة حقوقه، فلن يثق به، حتى أنَّه لن يشعر بالسكينة معه. لأنَّ هذا النوع من العلاقات مفقود من سجل خبراته السابقة. لذا تدفعه الريبة بإلحاح للبحث عن خديعة أو خيانة أو كذب في هذه العلاقة.
- ولكن لماذا؟
- لثقته بأنّه لا يستحق هذا التعامل. فإن كان الطرف المقابل يعامله بطريقة جيدة، سيظنه وضعًا مؤقتًا، يخفي غاية ومنفعة شخصية، ولا بد أن يسقط القناع عن وجهه الحقيقي لاحقًا. ورغم أنَّ أوصاله ترتعد هلعًا من وقوع هذه النتيجة، لكنه يترقبها كأمر محتوم لا مهرب منه.
- لكن هذا ما كان يتكرر في حياتي حقيقةً، فلم يحاول أحد التقرب مني، إلا لغاية شخصية.

- أعلم أنَّ هذا ما كان عليه ماضيك، لكن إن لم تتصرفي بوعي، ولم تقومي بتغيير جوهري في حياتك، ستواصل هذه الدورة تكرارها حتى النهاية. فهذا النوع من الأشخاص حتى إن كانت علاقته بالآخر تسير بشكل جيد، سيتململ بحثًا عن سبل لتقويض هذه العلاقة والهرب بعيدًا، لعدم ثقته بالطرف الآخر. فالمشاعر التي لم نختبرها في ماضينا، ستبدو بالتأكيد غير مألوفة، ولن توحي بالأمان. حتى الجمال لن نتمتع به كما يجب، لأنَّه مخالف لتصوراتنا الشخصية.

تستمع دون تعليق، ويبدو عليها التفكير العميق وهي تشبك يديها تحت ذقنها ساهمة. تلك الفتاة التي كانت تقوم بهذه الحركة سابقًا، لا يربطها أدنى شبه بهذه الشابة الجميلة، والأنيقة التي تجلس قبالتي الآن.

- كنت أعتقد أنَّ الأشياء الجيدة في الحياة تجلب السعادة، والأشياء السيئة تسبب الشقاء للإنسان.. وأنَّ الطيبة والجمال مثلًا، لهما الأثر ذاته على الجميع دون استثناء، لكني أدرك الآن كم كنت مخطئة.. كنت أظن أنَّ السعادة غاية يسعى إليها كافة البشر.

- في الحقيقة ما تقولينه صحيح، فالناس جميعًا يرغبون في السعادة. أو كما قلتِ قبل قليل، هم مقتنعون برغبتهم العميقة في بلوغ السعادة، وسعيهم الدؤوب للوصول إليها. لكننا حين نضع الظاهرة تحت عدسة المجهر، يذهلنا البعد الشاسع بين حقيقة الظاهرة وما تحاول أن تبدو عليه.

- فالأقدار ليست مكتوبة على الجبين كما يقال.. بل نحن من نكتب حكايتنا بأنفسنا.

- ليس إلى هذا الحد، فخطوط أقدارنا الأساسية يخطها والدانا والوسط الذي ننشأ فيه ونقضي فيه طفولتنا. والدور الأساسي منوط بالأم دومًا.

- إذًا فحالتي تكاد تكون مستعصية.. لأنَّ نظرة خاطفة نحو تاريخي، ستكشف مدى قتامة تلك السنوات.
- أعلم أنَّها قاتمة، وأنا أحاول أن أنير دربك القادم بالسراج الذي أحمله، وإن استطعت رؤية بعض الحقائق على ضوء هذا السراج، وامتلكت القوة والرغبة الكافية لتغييرها، ستتمكنين في النهاية من تغيير قدرك بالذات.
- تقولين لو امتلكت القوة والرغبة الكافية!.. أنت تعلمين أنَّي أمتلك رغبة حقيقية، لكني لا أعلم إن كنت أمتلك القوة الكافية، ربما هذا ما يدفعني لامتلاك القوة أكثر من أيّ شيء آخر.. ما يلزمني ليس السعادة، بل القوة، لأنَّها ستمهد الدرب أمام كل ما عداها.. ترى هل سأتمكن من العثور على القوة والإرادة الكافية يومًا ما تحت ذلك الضوء؟
- أتمنى أن تعثري عليها، لكن احتمال امتلاكك قوة كهذه يخيفني بعض الشيء.
- ويخيفني أيضًا.
- أخشى من ذلك الغضب القاتم الشرس. فحتى الآن كنتِ الهدف الوحيد لغضبك، وكان احتمال أن يصل بك الأمر حد تدمير نفسك قائمًا، لو لم تقرري المجيء إلى هنا. وسواء كنت ضحية ذلك الغضب، أم شخص ما تضعه الأقدار في دربك، فمن المحتم أنَّ النتيجة كانت لتكون كارثية عليك. لكن الأمور قد اختلفت الآن، وبتِّ قادرة على تمييز الكثير من النقاط المفصلية في حياتك. وذكائك الحاد مكّنك من فهم وتحليل الوقائع بصورة صحيحة، ووضعها في مكانها المناسب. وأرجح أنَّ غضبك سيتوقف قريبا عن مواصلة استهدافك.
- هذا ما أشعر به أنا أيضًا، فهو لا يزال يقبع داخلي كحقل ملغوم، لكني لن أغدو ضحيته الوحيدة من الآن فصاعدًا.

- هل تنوين استهداف الآخرين، بدل أن تحاولي نزع تلك الألغام وتطهير حقلك؟

- لا أعرف.. لا أعرف على وجه التحديد ما الذي سينتج من اتحاد غضبي مع القوة التي أصبو نحوها.. في الحقيقة جيناتي تميل للشر، لكني وخلافًا لإرادة الطبيعة، كنت أتمنى أن أكون إنسانة طيبة، قوية لكن طيبة.. إلا أنَّ الصوت الذي في أعماقي يقول لي دومًا "أنت محكومة بالإهانة، بالهزيمة والألم، وعقابك لم ينته بعد".. أحيانًا أشعر بأنَّي سأتمكن من إسكات ذلك الصوت يومًا ما.. حين أتحدث إليك، وأستحضر صورة الماضي في مرآتك التحليلية، يفقد ذلك الصوت بعضًا من سطوته المرعبة علي.. فأدرك أنَّه يخدعني، ويحاول أن يشعرني بالذنب.. إنَّه صوت أمي الذي سيصمت يومًا.. لأبدأ أنا بالكلام.

- وما الذي ستقولينه حينها؟

- سأحاول عدم الانجرار إلى الدرب التي تدفعني نحوها أقداري، لأنَّي بت مدركة للوجهة التي تحاول أن تسوقني نحوها. سأغير وجهتي. سأحاول أن أخط لنفسي دروبًا جديدة على أرض جديدة.. أرض لا مكان فيها لليأس، الظلم، الإهانة والألم.. لذا ستكون حاجة إليك أكبر، فحين تقفين إلى جواري، يراودني الأمل بقدرتي على القيام بالكثير مما أعجز عنه لوحدي.. لن تتخلي عني أليس كذلك؟

- سأظل هنا دومًا يا آلا.

- إذًا آن للحياة أن تخاف مني، لقد اكتفيت من الخوف منها حتى الآن، وانقلبت الآية.

تبتسم ابتسامة لطيفة وهي تنهض، فأرمقها بمزيج من الإعجاب والخشية. ويذهلني في كل مرة هذا التحول الرائع الذي أصاب فتاتنا المجنونة. لكنها ما إن استردت بعضًا من قدراتها، حتى جعلت مواجهة الحياة أولى أهدافها. رحماك أيتها السماء!

تحتضني بقوة، ثم تستدير وتخطو بثقة، متوازنةً على كعبها العالي، وتخرج متهادية من الغرفة.

إلى أيّ مدى يمكن لطبيب نفسي أن يغير المصير الذي خطته الأقدار يا ترى؟ ألا يمكن أن يبدل هذا المصير شكله الخارجي، ليعاود الظهور في حياتنا بشكله الجديد وروحه القديمة؟ ومن الذي سينتصر في نهاية هذه الحرب المفتوحة التي أعلناها أنا وآلا ماضيها الشخصي؟.. لا أعرف حقًا.

لكن إن كنت أعرف أمرًا واحدًا فهو؛ أنَّ هذه الحكاية لم تنته هنا.

2009–2011 أنقرة- قبرص- ديدم

مكتبة
t.me/soramnqraa

المصادر

- كلمات توجه الحياة، آكين آلجي، إسطنبول 2004
- الدماغ الخلاق، الذكاء في علم الأعصاب، د. نانسي سي. أندريزن، أنقرة 2009
- البشر المتشيطنون، عدنان نور بايكال، إسطنبول 2010
- قوة الميثولوجيا، كامبل- مويرس، إسطنبول 2007
- مملكة النساء، ريكاردو كولر، إسطنبول 2010
- الميثولوجيا والإيقونوغرافيا، بدر الدين جومرد، أنقرة 2006
- سنوات فرويد الأخيرة، مارك إدموندسون، إسطنبول 2007
- حكام التاريخ وحكايات حبهم، أوزجان أردوغان، إسطنبول 2010
- الميثولوجيا التي بداخلنا، غرين، إسطنبول 2008
- منصور الحلاج، و.جي. ليرتش، أنثرة 2004
- الحياة السرية لأعظم الفنانين، إليزابيث لوندي، إسطنبول 2008
- تاريخ الخديعة، لارس موريس، إسطنبول 2009
- الأدب والتحليل النفسي، أحمد صاري، أنثرة 2008
- النظر للشمس- مواجهة الموت، إرفين يالوم، إسطنبول 2008
- العلاج النفسي الوجودي، إسطنبول 1999
- حالات العشق، يالسيز أوجانلار- بيرغول، إسطنبول 2010
- تاريخ الإنسانية المحرّم، ثيودورا زيلدين، إسطنبول 2003

فتاة لا يمكن العثور على ملمح للجمال في وجهها، تجلس خلف ستار من الصمت الملغز أمام طبيبتها النفسية. فتبدأ رحلة العلاج من خلال حكايات تجول عبر ثنايا التاريخ وتكشف أسراره الخفية، تسردها الطبيبة على مسامع مريضتها الشابة. لعنة الملك الشاب؛ الفرعون توت عنخ آمون. تحليل نفسي لمفهوم السلطة في شخصيتي كل من هتلر وفرويد. «فن الهمس» الذي انتشر في القرن الثامن عشر، كتسمية مُلطَفة للعلاقة التي عاشتها الكثير من الزوجات مع عشّاق متيمين. حكاية الإمبراطورة كاثرين؛ إمبراطورة روسيا التي انقلبت حياتها من غسّالة فقيرة وبائعة هوى، إلى واحدة من أقوى نساء العالم، وما تخللها من جرائم وقصص حب. قصة حياة كل من الأميرة ثريا، وإيفا بيرون، والتي بدأت بالشهرة والمجد وانتهت نهاية درامية. قصص عن الهوس الذي قد يستبد بنا، عن ضعفنا وقوتنا. وبين حكاية وأخرى، تبدأ الفتاة الصامتة الكلام، وتسرد حكايتها الشخصية. حكاية تحمل من الحزن والمآسي، من الأحداث المثيرة والمذهلة في آن، ما يجعل كل تلك الحكايات الأخرى باهتة أمام تفاصيلها الغريبة. ومع مواصلتها السرد يبدأ السحر، وتتغير الفتاة الدميمة لتتحول في النهاية إلى أميرة باهرة الجمال.

إنَّها قصة نجاح طبيبة نفسية، أحالت مهارتها في العلاج، فتاة بائسة قانطة إلى شابة طموحة تعتزم تحدي العالم برمته.

الطبيبة غولسِران بودايجي أوغلو

من مواليد مدينة أنقرة. هي الابنة البكر من أصل ثلاثة أبناء، لأبوين موظفين. أنهت دراستها الثانوية في كلية (TED) الخاصة، ثم التحقت بكلية الطب في جامعة أنقرة. وخلال فترة دراستها الجامعية، عملت مذيعة في محطة التلفاز الرسمية (TRT) ومقدمة برامج. بعد إنهاء تخصصها في مجال الطب النفسي في جامعة حاجي تيبة، درّست فيها لمدة عشرة أعوام. وبعد سنوات من العمل في عيادتها الخاصة، قامت في العام 2005 بتأسيس أول مركز للعلاج النفسي في تركيا، باسم (مركز ماداليون النفسي) والذي لا يزال يعمل بفرعيه في مدينتي أنقرة وإسطنبول.

وفي هذه الفترة نشرت العديد من الكتب:

من داخل ماداليون، ألوان الخطيئة الثلاث، العودة للحياة، إن مات الملك.

لا تزال بودايجي أوغلو تعمل مديرة لمركز ماداليون، وهي أم لولدين، كما تواصل نشر الثقافة النفسية العلمية، من خلال الروايات والقصص التي تقوم بتأليفها.

هذا الكتاب مستوحى من العديد من الحكايات الشخصية التي استمعت إليها من مختلف الأشخاص، خلال سنوات طويلة.

telegram @soramnqraa

ISBN: 978-614-01-3340-2
9 786140 133402

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

تيدا
برنامج دعم الترجمة والنشر في تركيا

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com